القول المؤصل في تفسير المؤصل

من سورة ق إلىٰ سورة المرسلات

يليه:

تفسير جز عم

للشيخ الفاضل:

أبي محمد عبد الحميد بن يحيىٰ بن زيد الحجوري الزعكري

كان الله له في الدنيا والآخرة.

سورة الفاتحة

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد ان محمدًا عبده ورسوله، وصفية من خلقه وخليله صلىٰ الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا أما بعد:

فهذه تعليقةٌ مختصرةٌ علىٰ سورة الفاتحة أعظم سورة في القرآن العظيم كان أصلها كلمة في مسجد السنة بالقرن والقائم عليه الشيخ جمعان لحمر حفظه الله وجزاه خيرًا.

ثم رأيت أن تفرد في هذا المختصر وزدتُ عليها بعض النقولات تتميمًا للفائدة.

ولي بحمد الله تعالىٰ «فتح الكريم في تفسير السبع المثاني والقرآن العظيم»، وهو كتاب واسع وسفر كبير ذكرت فيه المهمات تفصيلًا وإجمالًا لكن اكتفيت هنا بالاختصار، وبالله التوفيق وأسأله العون.

من نعم الله تعالىٰ إنزال القرآن:

فإن من نعم الله تعالىٰ علىٰ عباده العظيمات وهباته الجليلات لهو إنزال القرآن، هذا الكتاب العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيمٍ حميدٍ، جعله الله تعالىٰ، موعظة وشفاءً ورحمةً ونورًا، وهو

الكتاب المبين، والكتب الحكيم، وكلام رب العالمين، وهو حبل الله المتين، وصراطه المستقيم، وفضائله مذكورة فيه ومذكورة في كثيرٍ من الأحاديث.

وقد نقل السيوطي رحمه الله في «الإتقان» عن بعضهم: أن أسماء القرآن في القرآن تزيد علىٰ خمسين، ومعلوم أن كل اسم من أسماء القرآن يتضمن صفة وربما تضمن ودل علىٰ أكثر من ذلك.

وقد اشار الشوكاني رحمه الله تعالىٰ في «مقدمة تفسيره» أن أبلغ الوصف للقرآن ما وصفه الله تعالىٰ به، ووصفه به رسوله صلىٰ الله عليه وسلم، فهو الكتاب المبارك قال تعالىٰ: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[ص:٢٩]، فهو مبارك في تلاوته، ومبارك في معانيه ومواعظه، ومبارك في تدبره، ومبارك في العمل به، ومبارك في الاستشفاء به، إلىٰ غير ذلك من البركات العظيمات والهبات الجليلات التي جعلها الله تعالىٰ لهذا الكتاب، فهو كلامه تعالىٰ وصفته.

ومن عجيب شأنه أن الله تعالىٰ أنزل كتبًا كثيرة، قال الله تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾[الحديد:٢٥]. فكل رسول له كتاب من الله تعالىٰ يتعبد به ويدعو إليه.

قال ابن القيم رحمه الله: وَسِرُّ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، وَالْكُتُبِ وَالشَّرَائِعِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ انْتَهَىٰ إِلَىٰ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ، وَعَلَيْهِمَا مَدَارُ الْعُبُودِيَّةِ وَالتَّوْحِيدِ، حَتَّىٰ قِيلَ: أَنْزَلَ اللهُ مِائَةَ كِتَابٍ وَأَرْبَعَةَ كُتُبٍ، جَمَعَ مَعَانِيَهَا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ

وَالْقُرْآنِ، وَجَمَعَ مَعَانِيَ هَذِهِ الْكُتُبِ الثَّلَاثَةِ فِي الْقُرْآنِ، وَجَمَعَ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ فِي الْمُفَصَّلِ، وَجَمَعَ مَعَانِيَ الْمُفَصَّلِ فِي الْفَاتِحَةِ، وَمَعَانِيَ الْفَاتِحَةِ فِي: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[الفاتحة:٥].اهـ من «مدارج السالكين» (١/ ٩٥).

وسورة الفاتحة أعظم سورة في كتاب الله: تعالىٰ، دلَّ علىٰ ذلك حديث أَبي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّىٰ رضي الله عنه، في البخاري (٤٦٤٧)، قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي فَمَرَّ بِي رَسُولُ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم فَدَعَانِي، فَلَمْ آتِهِ حَتَّىٰ صَلَّيْتُ ثُمَّ أَتَيْتُهُ، فَقَالَ: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَ؟ أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[الأنفال:٢٤]» ثُمَّ قَالَ: «لَأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ»، فَذَهَبَ رَسُولُ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم لِيَخْرُجَ فَذَكَرْتُ لَهُ، وَقَالَ: «هِيَ: ﴿ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الفاتحة:٢] السَّبْعُ الْمَثَانِي».

وفي هذا دليل علىٰ مسألة مهمة وهي تفاضل القرآن الكريم، وتفاضل أسماء الله الحسنىٰ وصفاته العلىٰ، وهذه مسألة مهمة وأدلتها كثيرة وقد أطلت في النقل عن العلماء في التفسير الموسع لهذه السورة.

فهي أعظم سورة في القرآن: بنص حديث رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، ومما يدل علىٰ عظمتها وفضلها أن الله افترض علينا قراءتها في كل ركعة وأنها تغني عن غيرها ولا يغني غيرها عنها في الصلاة.

ومن فضلها: أنها رقية، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: نَزَلْنَا مَنْزِلًا، فَأَتَتْنَا امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: إِنَّ سَيِّدَ الْحَيِّ سَلِيمٌ، لُدِغَ، فَهَلْ فِيكُمْ مِنْ رَاقٍ؟ فَقَامَ مَعَهَا رَجُلٌ مِنَّا، مَا كُنَّا نَظُنُّهُ يُحسِنُ رُقْيَةً، فَرَقَاهُ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، فَبَرَأَ، فَأَعْطَوْهُ غَنَمًا، وَسَقَوْنَا لَبَنًا، فَقُلْنَا: أَكُنْتَ تُحْسِنُ رُقْيَةً؟ فَقَالَ: مَا رَقَيْتُهُ إِلَّا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ. قَالَ: فَقُلْتُ: لَا تُحَرِّكُوهَا حَتَّىٰ نَأْتِيَ النَّبِيَّ صلىٰ الله عليه وسلم، فَأَتَيْنَا النَّبِيَّ صلىٰ الله عليه وسلم، فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «مَا كَانَ يُدْرِيهِ أَنَّهَا رُقْيَةٌ ؟ اقْسِمُوا، وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ مَعَكُمْ». متفق عليه[1].

ومنها أنها خاصة بالنبي صلىٰ الله عليه وسلم وهذه الأمة، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَىٰ الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ؛ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ». أخرجه مسلم (٨٠٦).

ومنها: أنها جامعة بين الدعاء والثناء.

ولها اسماء عظيمات:

١- فهي القرآن العظيم.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٠٧)، ومسلم (٢٢٠١).

٢- وهي السبع المثاني.

٣- وهي الفاتحة.

٤- وهي الصلاة.

٥- وهي الرقية.

٦- وهي أم الكتاب.

٧- وهي أم القرآن.

٨- وهي الحمد.

٩- وزاد بعضهم الكافية.

١٠- والشافية.

وذكروا لها غير ذلك وكثرة الأسماء الثبوتية تدل علىٰ الكمال والقرآن العظيم صفة الله تعالىٰ فكل اسم يتضمن صفة.

وهي سبع آيات كما هو نص القرآن قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾[الحجر:٨٧].ونص السنة وعليه الإجماع وما ذكر غير ذلك فهو قول شاذ لا يلتفت إليه ولا يعول عليه.

هل البسملة آية؟

إلا أن العلماء اختلفوا هل البسملة آية من آياتها أو ليست من آياتها؟

والصحيح: الذي عليه المحققون أنها ليست آية من الفاتحة، بل ولا من كل سورة وهي بعض آية من سورة النمل، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾[النمل:٣٠].

وأشهر حديث يستدل به علىٰ ذلك ما أخرجه الإمام مسلم (٣٩٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم يَقُولُ: « قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الفاتحة:٢]، قَالَ الله تَعَالَىٰ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾[الفاتحة:٣]، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَثْنَىٰ عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾[الفاتحة:٤].قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[الفاتحة:٥]، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾[الفاتحة:٦-٧]، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»، وفي رواية: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي».

فلم يذكر فيه البسملة فقسم الله تعالىٰ سورة الفاتحة بينه وبين عبده الثلاث الآيات الأُوَل، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾[الفاتحة:١-٤]. فهذه في حق الله تعالىٰ حمدًا وثناءً ومجدًا علىٰ ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالىٰ.

والآية الرابعة: وهي قوله تعالىٰ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[الفاتحة:٥]، هي التي بين العبد وبين الله تعالىٰ، فـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ بيان لحق الله تعالىٰ، و﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ بيان لحال العبد واستعانته بالله تعالىٰ واعتماده عليه.

ثم القسم الآخر وهو الدعاء ثلاثة آيات وهي: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾[الفاتحة:٦-٧]، فصارت سبع آيات بغير البسملة علىٰ الصحيح من أقوال العلماء.

ومعلوم أن إثبات البسملة آية من الفاتحة يوجب قراءتها في كل صلاة وعدم الإثبات لا يوجب القراءة، وإنما تكون قراءتها من المستحبات.

وهدي النبي صلىٰ الله عليه وسلم الإسرار بالبسملة في الصلاة كما في حديث أنس رضي الله عنه، قَالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم وَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، فَلَمْ أَسْمَعْ أَحَدًا مِنْهُمْ يَقْرَأُ: ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ ﴾». أخرج البخاري (٧٤٣)، ومسلم (٣٩٩) بألفاظ كثيرة.

ولم يثبت عنه صلىٰ الله عليه وسلم الجهر مطلقًا كما ذكر ذلك الدارقطني مع أنه رحمه الله يرجح الجهر وألف رسالة في ذلك.

وما جاء من حديث نُعَيْمٍ بنِ عَبْدِ اللهِ الْمُجْمِرِ، قَالَ: صَلَّيْتُ وَرَاءَ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، فَقَرَأَ: ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ ﴾، ثُمَّ قَرَأَ بِأُمِّ الْقُرْآنِ حَتَّى إِذَا

بَلَغَ: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾[الفاتحة:٦-٧]، فَقَالَ: «آمِينَ». فَقَالَ النَّاسُ: آمِينَ وَيَقُولُ: كُلَّمَا سَجَدَ: «اللهِ أَكْبَرُ»، وَإِذَا قَامَ مِنَ الْجُلُوسِ فِي الِاثْنَتَيْنِ قَالَ: «اللهِ أَكْبَرُ»، وَإِذَا سَلَّمَ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَشْبَهُكُمْ صَلَاةً بِرَسُولِ اللهُ صلىٰ الله عليه وسلم»، رواه النسائي في «سننه» (٩٠٥)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٦٨٨،٤٩٩)، وغيرهم، فقد أعلَّ العلماء زيادة الجهر بـــ: ﴿ بِسْمِ اللهِ الْرَّحمَنِ الْرَّحِيمِ ﴾وأنه شذ بها نعيم المجمر، وأطال في بيان ذلك الزيلعي في «نصب الراية».

وعند الترمذي (٢٤٤) عَنِ ابْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ، قَالَ: سَمِعَنِي أَبِي وَأَنَا فِي الصَّلاَةِ، أَقُولُ: ﴿ بِسْمِ اللهِ الْرَّحمَنِ الْرَّحِيمِ ﴾، فَقَالَ لِي: أَيْ بُنَيَّ مُحْدَثٌ إِيَّاكَ وَالحَدَثَ، قَالَ: وَلَمْ أَرَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم كَانَ أَبْغَضَ إِلَيْهِ الحَدَثُ فِي الإِسْلاَمِ، يَعْنِي مِنْهُ، قَالَ: وَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم، وَمَعَ أَبِي بَكْرٍ، وَمَعَ عُمَرَ، وَمَعَ عُثْمَانَ، فَلَمْ أَسْمَعْ أَحَدًا مِنْهُمْ يَقُولُهَا، فَلاَ تَقُلْهَا، إِذَا أَنْتَ صَلَّيْتَ فَقُلْ: ﴿ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الفاتحة:٢]، حَدِيثُ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَالْعَمَلُ عَلَيْهِ عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم مِنْهُمْ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ رضي الله عنهم وَغَيْرُهُمْ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ التَّابِعِينَ، وَبِهِ يَقُولُ

سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، وَابْنُ الْمُبَارَكِ، وَأَحْمَدُ، وَإِسْحَاقُ لَا يَرَوْنَ أَنْ يَجْهَرَ بِـ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قَالُوا: وَيَقُولُهَا فِي نَفْسِهِ. انتهىٰ.

وقراءة سور الفاتحة ركن في الصلاة لحديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم قَالَ: «لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ»، وفي رواية «بِأُمِّ الْكِتَابِ»[1]، وفي بعضها «بِأُمِّ الْقُرْآنِ»، وهذا الحديث متفق عليه[2].

وقد ألف البخاري رحمه الله تعالىٰ جزء في «القراءة خلف الإمام» واثبت أن قراءة الفاتحة واجبة علىٰ المأموم والإمام والمنفرد.

وبوب في «صحيحه» بَابُ وُجُوبِ الْقِرَاءَةِ لِلْإِمَامِ وَالْمَأْمُومِ فِي الصَّلَوَاتِ كُلِّهَا فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ، وَمَا يُجْهَرُ فِيهَا وَمَا يُخَافَتُ.

ولا تسقط قرأتها إلا عن العاجز الذي لم يتمكن أو لم يستطع حفظها كرجل أسلم ووجبت عليه الصلاة فإذا عُلِّم الفاتحة ربما خرجت عليه الصلاة قبل أن يصلي فله أن يصلي بغير الفاتحة وأن يقول بدلًا عن الفاتحة: «سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»، لما روىٰ أحمد (١٩١١٠)، وأبو داود (٨٣٢)، والنسائي (٩٩٨)، من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَىٰ رضي الله عنه، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه

---

(١) أخرجه البخاري في «القراءة خلف الإمام» (٤).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤).

وسلم فقال: إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْئًا فَعَلِّمْنِي مَا يُجْزِئُنِي مِنْهُ، قَالَ: «قُلْ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا لِلَّهِ تعالىٰ فَمَا لِي، قَالَ: «قُلْ: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَارْزُقْنِي وَعَافِنِي وَاهْدِنِي»، والحديث مخرج في «إرواء الغليل» (٣٠٣).

معاني البسملة:

فأما معاني البسملة فعلىٰ ما يأتي قوله: ﴿ بِسْمِ ﴾ الباء للاستعانة، وقيل للمصاحبة والأول أظهر وأشهر إذ أن العبد يسمي الله تعالىٰ متبركا بذكره مستعينا به في تيسير أمره و تفريج كربه. والاسم: مشتق من السمو الذي هو العلو وقيل من السمة والأول أظهر لأنه يجمع علىٰ أسماء ويصغر علىٰ سُمَيّ ولو كان مشتقا من السمة لجمع علىٰ سمات ويصغر علىٰ سُمَيَّة، وهل الخلاف في هذا عقدي؟ فقد ذهب بعض العلماء إلىٰ أن الخلاف عقدي من حيث أن القول باشتقاقه من السمة قول المبتدعة الذين يزعمون أن الله تعالىٰ كان ولا صفات له حتىٰ وصفه عباده وسموه وهذا قول المعطلة.

وقوله: ﴿ اللهِ ﴾ اسم الجلالة علم علىٰ الذات العلية مختص بالله وعليه جميع مدار الأسماء الحسنىٰ، وهو الاسم الأعظم علىٰ الصحيح من أقوال العلماء، وهو مشتق من الإله.

قال رؤبة ابن العجاج:

لِلهِ دَرُّ الغانِيـــــــاتِ المُــــــــدَّهِ سَـبَّحْنَ واسْـتَرْجَعْنَ مِـنْ تَـأَلُّهِي

أي: من تعبدي.

قوله: ﴿ الْرَّحمَنِ ﴾ من أسماء الله الحسنىٰ، وهو من الأسماء المختصة بالله تعالىٰ، وهو علىٰ وزن فعلان وزيادة المباني دليل علىٰ زيادة المعاني، وقد أنكره كفار قريش كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾[الفرقان:٦٠]، وكأن هذا والله أعلم من باب المكابرة إذ قد وُجد في أشعار العرب قول الشنفرىٰ أو لبعض الجاهلية الجهلاء.

أَلاَ ضَـرَبَتْ تِلْـكَ الْفَتَـاةُ هَجِينَهَـا أَلاَ قَضَـبَ الـرَّحْمَنُ رَبِّـي يَمِينَهَـا

وهو متضمن لصفة الرحمة المتعلقة بالذات علىٰ ما يأتي.

قوله: ﴿ الْرَّحَيمِ ﴾ من أسماء الله الحسنىٰ وليس بمختص فقد سمىٰ الله تعالىٰ نبيه صلىٰ الله عليه وسلم رؤفًا رحيمًا.

وهو دال علىٰ صفة الرحمة المتعدية ولذلك قال تعالىٰ: ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾[الأحزاب:٤٣].

فالحكمة إذًا فيما أظن وأرىٰ والله أعلم من افتتاح القرآن بالبسملة:

أولًا: للتبرك بذكر الله تعالىٰ.

الثاني: الاستعانة بالله تعالىٰ.

الثالث: تقديم اسم الله تعالىٰ علىٰ من سواه.

الرابع: التحصن من الشيطان الرجيم وجنده.

ومن خلال ما تقدم يتبين لنا والله أعلم السر العظيم في كون البسملة تضمنت الأسماء الثلاثة العظيمة حتىٰ يدخل تحتها كل وصف حسن، والتنزه من كل ما يضاد ذلك وبالله التوفيق والله أعلم.

قول الله تعالىٰ: ﴿ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الفاتحة:٢].

الْحَمْدُ: هو ذكر محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه وإجلاله وآلته القلب واللسان، ويكون علىٰ الصفات اللازمة كالجمال والكمال، والمتعدية كالإحسان والرحمة والكرم.

والله تعالىٰ قد افتتح خمس سور بالحمد: سورة الفاتحة: ﴿ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الفاتحة:٢]، وسورة الأنعام: ﴿ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾[الأنعام:١]، وسورة الكهف: ﴿ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا ﴾[الكهف:١]، وسورة سبأ، وهي: ﴿ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾[سبأ:١]. وسورة فاطر، وهي: ﴿ الْحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[فاطر:١].

وقد حمد الله تعالىٰ نفسه في مواطن كثيرة غيرها، وهكذا نبينا صلىٰ الله عليه وسلم أمر بحمد الله تعالىٰ وحث عليه ولازمه.

و(ال) في الحمد للاستغراق، أي: جميع المحامد ثابتة لله عز وجل.

وإثبات المحامد يتضمن إثبات كل كمال لله تعالىٰ، كمال السمع، وكمال البصر، وكمال القدرة، وكمال الإرادة، وكمال الخلق، وكمال الحكمة، وكمال القوة، وكمال المشيئة، و غير ذلك من الصفات.

ويستلزم نفي جميع النقائص، فهاتان الكلمتان (سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ) إذا تأملتهما جيدًا وجدت فيهما إثبات جميع الكمال، ونفي جميع النقص عن الله تعالىٰ.

كما أن كلمة (سُبْحَانَ اللهِ) تتضمن نفي جميع النقائص وتستلزم إثبات جميع الكمال لله تعالىٰ ؛ لأن إثبات الكمال يلزم منه نفي النقيصة ونفي النقيصة يلزم منه إثبات الكمال.

ولهذا جُمع بينهما في عدة مواطن في الأذكار، كأذكار الصباح والمساء، وفي أذكار الصلاة، وغير ذلك.

قوله: ﴿ رَبِّ ﴾ من أسماء الله تعالىٰ الحسنىٰ، ويُستعمَل بالألف واللَّام أو مضافًا ولا يستعمل مع غيره إلا مضافا وغير محلى بالألف واللام.

ومن معانيه السيد والمالك والمربي، قال ابن كثير رحمه الله: الرَّبُّ هُوَ: الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ، وَيُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَىٰ السَّيِّدِ، وَعَلَىٰ الْمُتَصَرِّفِ لِلْإِصْلَاحِ، وَكُلُّ ذَلِكَ صَحِيحٌ فِي حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ. اهـ من «التفسير» (١/ ١٣١).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: رُبُوبِيَّتُهُ لِلْعَالَمِ تَتَضَمَّنُ تَصَرُّفَهُ فِيهِ وَتَدْبِيرَهُ لَهُ وَنَفَاذَ أَمْرِهِ كُلَّ وَقْتٍ فِيهِ، وَكَوْنُهُ مَعَهُ كُلَّ سَاعَةٍ فِي شَأْنٍ: يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ، وَيُحْيِي وَيُمِيتُ، وَيَخْفِضُ وَيَرْفَعُ، وَيُعْطِي وَيَمْنَعُ، وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ، وَيُصَرِّفُ الْأُمُورَ بِمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، وَإِنْكَارُ ذَلِكَ إِنْكَارٌ لِرُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ وَمُلْكِهِ. انتهىٰ من «الصواعق المرسلة» (٤/ ١٢٢٣).

فالرب من اسماء الله الحسنىٰ ولم يُذكر في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي أخرجه الترمذي (٣٥٠٧)، وفيه ذكر الاسماء الحسنىٰ. ومن الأوجه التي أعله بها العلماء أن اسم الرب الذي كان يدعوا به جميع الأنبياء ليس مذكورًا فيه.

وهو من الاسماء الحسنىٰ بدلالة القرآن والسنة وزيادة ذكر الاسماء الحسنىٰ في الحديث مدرجة عن الوليد بن مسلم، وقيل عن غيره وقد أعلها الحفاظ. وإنما المحفوظ ما روىٰ البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

والرَبُّ: هو المربي للعالم الحافظ لهم المعين لهم لاسيما المسلم، فربوبية الله له ربوبية إعانة وحفظ وكلأه ونصر وتأييد فمن هذه الناحية فيها ترغيب إذ أن الله ربك محيطٌ بك وعالم بحالك ولن يضيعك ولن يتركك هملًا؛ بل أنعم عليك بنعم كثيرة بها تعلم ما يجب عليك ووفقك وهداك وسددك وكم من نعم لله تعالىٰ الرب علىٰ عباده وفيها ترغيب من حيث أن الله تعالىٰ هو المتصرف في هذا الكون.

وربوبيته علىٰ عباده عامة وخاصة، فربوبيته لجميع العباد عامة ربوبية قهر وقدرة ولا يعجزه شيء سبحانه.

قوله: ﴿ الْعَالَمِينَ ﴾ كل ما سوىٰ الله تعالىٰ عالم، سواء في ذلك الجن والأنس والملائكة والأرض وما فيها.

وسموا (عالم) من العلامة، فالعلامة هي الآية التي تبين الشيء وتدل عليه فهذا الكون بما فيه علامة علىٰ قدرة الله تعالىٰ وعلىٰ أن لهذا الكون خالقًا ورازقًا ومالكًا ومدبرًا.

وفي هذه الآية بيان للنوع الأول من أنواع التوحيد: وهو توحيد الربوبية وهو إفراد الله تعالىٰ بالخلق والملك والتدبير.

وتوحيد الألوهية: هو إفراد الله بالعبادة أو بأفعال المكلفين.

فالله تعالىٰ رب جميع العالمين مؤمنهم وكافرهم، وبرهم وفاجرهم، ويلزم من ذلك أنه الإله الحق وما سواه باطل، قال الله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[الحج:٦].

والنوع الثالث توحيد الأسماء والصفات: وهو إفراد الله تعالىٰ بأسمائه وصفاته. والاهتمام بالتوحيد من المهمات لا سيما مع كثرة المخالفين للكتاب والسنة النبوية الصحيحة وقد تكلمت علىٰ هذا الباب بتوسع في كتابي «فتح المجيد ببيان هداية القرآن إلىٰ التوحيد والتحذير من الشرك والتنديد».

فتجد أن كثيرًا ممن يقول لا إله إلا الله قد علق قلبه بحرز أو قبة أو قبر ونحو ذلك.

وقول الله تعالىٰ: ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ثنىٰ سبحانه وتعالىٰ بهذين الاسمين العظيمين الجليلين، وهما اسمان عظيمان من اسماء الله الحسنىٰ دالين علىٰ إثبات صفة الرحمة لله تعالىٰ ؛ إلا أن اسم الرحمن أبلغ من اسم الرحيم، والقاعدة عند أهل اللغة: أن زيادة المباني تدل علىٰ زيادة المعاني كما تقدم.

فالرحمن علىٰ وزن فعلان وهو من الاسماء المختصة بالله تعالىٰ، ولم يُسمَّ به إلا مسيلمة الكذاب من باب المكابرة، وقد كانت العرب تعرف الرحمن ولكن المكابرة والعناد وفي حديث أَنَسٍ رضي الله عنه، أَنَّ قُرَيْشًا

صَالَحُوا النَّبِيَّ صلىٰ الله عليه وسلم فِيهِمْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَقَالَ النَّبِيُّ صلىٰ الله عليه وسلم لِعَلِيٍّ رضي الله عنه: «اكْتُبْ، بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا بِاسْمِ اللهِ، فَمَا نَدْرِي مَا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مَا نَعْرِفُ بِاسْمِكَ اللهُمَّ...»(١).

وفي القرآن: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾[الفرقان:٦٠]، فهو من الاسماء المختصة ولا يجوز ان يسمىٰ غير الله به، كاسم (الله)، والظاهر، والقاهر، والمتكبر، والجبار، والرحمن، وغير ذلك من الاسماء المختصة.

وأما اسم (الرَّحِيم) فليس من الاسماء المختصة؛ ولهذا سمىٰ الله تعالىٰ محمدًا رحيمًا: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[التوبة:١٢٨].

و(الرحمن) رحمن الدنيا والآخرة ورحمته للبر والفاجر، و(الرحيم) خاصة بالمومن: ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾[الأحزاب:٤٣]، ورحمته للكافر بإطعامه واستصحاحه وغير ذلك مما يتعلق به في حياته الدنيا وأما في الآخرة فلا رحمة له.

وقد ذهب العلامة ابن القيم رحمه الله في كتابه «بدائع الفوائد» (١/ ٢٤)، إلىٰ أن (الرحمن) دال علىٰ الصفة القائمة بالذات، و(الرحيم) دال علىٰ تعلقها

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ٢٤).

بالمرحوم، ولهذا لم يجئ اسم الرحمن متعديًا في القرآن، قال تعالىٰ: ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾[الأحزاب:٤٣]، ولم يقل: رحمانًا، وهذا أحسن ما قيل في الفرق بينهما.

وقوله: ﴿ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الفاتحة:٢]، سماه الله تعالىٰ حمدًا كما تقدم في الحديث القدسي. ولما قال: ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾[الفاتحة:٣]، سماه ثناءً.

والفرق بين الحمد والثناء:

أن الثناء تكرار الحمد، وإلا فالأصل أن الثناء من الحمد؛ لكن إذا تكرر الحمد مرة أو مرتين أو ثلاث يسمىٰ ثناء.

قوله تعالىٰ: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾[الفاتحة:٤].

ثم قال تعالىٰ: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾[الفاتحة:٤]، وفي بعض القراءات ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾[الفاتحة:٤]. [الفاتحة]، فكلاهما من الأسماء الحسنىٰ، وقد ذكر العلماء أوجه للإتيان بمالك وملك، ولخصها ابن عثيمين رحمه الله تعالىٰ في تفسيره للفاتحة وذكرها أيضًا غيره من المتقدمين لاسيما فيما أولف في أوجه القراءات.

فمالك الذي له الملك، أي أنه متصرف فيما يملك، قالوا: وقد يكون مالك لا ملك، وقد يكون ملك لا مالك.

ملك كحال الملوك علىٰ الأرض، علىٰ الدول يكون ملك لكن ليس مالك لكل شيء ولا متصرف لكل شيء؛ بينما جُمع في حق الله بأنه ملكٌ ومالكٌ، وهذا يدل علىٰ عظمة الله عز وجل.

وملك الله تعالىٰ دال علىٰ عظمته وربوبيته، قال تعالىٰ: ﴿ قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[آل عمران:٢٦].

وقوله: ﴿ يَوْمِ الدِّينِ ﴾[الفاتحة:٤]، أي: يوم الجزاء، وهو يوم القيامة، اليوم الآخر، سمي يوم الدين لأن الناس يجازون بأعمالهم، فالمؤمن يجازىٰ علىٰ إيمانه والكافر يجازىٰ علىٰ كفره ولا سواء: ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾[الشورىٰ:٧]، قال تعالىٰ: ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾[غافر:١٧].

قال ابن كثير رحمه الله: وَتَخْصِيصُ الْمُلْكِ بِيَوْمِ الدِّينِ لَا يَنْفِيهِ عَمَّا عَدَاهُ، لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ الْإِخْبَارُ بِأَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَذَلِكَ عَامٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنَّمَا أُضِيفَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ لِأَنَّهُ لَا يَدَّعِي أَحَدٌ هُنَالِكَ شَيْئًا، وَلَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ. انتهىٰ من «التفسير» (١/ ١٣٤).

وفي الحديث الذي تقدم قوله: «مَجَّدَنِي عَبْدِي»، والفرق بين المجد والحمد: أن المجد من أنواع الحمد، إلا أن الحمد أعم والمجد أخص، فإذا قلت: الحمد لله الهادي المحسن المنعم كان هذا حمدًا وليس بمجد؛ لكن

إذا قلت: الحمد لله العظيم القاهر القوي الظاهر الجبار كان هذا مجدًا وهو حمد.

فالمجد يكون بصفات العظمة والجلال والكبرياء؛ لأن كلمة (م ج د) تدل على السعة قال تعالىٰ: ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾[البروج:١٥]، على قراءة الكسر أي: العرش الواسع العظيم.

وعلىٰ قراءة الضم: ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾[البروج:١٥]، يكون المجيد من اسماء الله عز وجل.

وفي هذا الباب الفارق بين المدح وبين الحمد فالمدح لا يشترط فيه المحبة أو التعظيم فقد يمدح الإنسان مالا يحب بينما الحمد لا يكون إلا مع المحبة والتعظيم.

ومنه الفرق بين الشكر والحمد: فإن الشكر يكون بثلاث آلات: وهي اللسان والقلب والجوارح. والحمد يكون بآلتين: وهما القلب واللسان.

والشكر يكون علىٰ الصفا المتعدية كالإحسان، والحمد يكون علىٰ الصفات اللازمة والمتعدية.

قوله تعالىٰ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[الفاتحة:٥].

ثم يقول الله تعالىٰ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ الْعِبَادَةُ فِي اللُّغَةِ مِنَ الذِّلَّةِ، يُقَالُ: طَرِيقٌ مُعَبّد، وَبَعِيرٌ مُعَبّد، أَيْ: مُذَلَّلٌ، وَفِي الشَّرْعِ: عِبَارَةٌ عَمَّا يَجْمَعُ كَمَالَ الْمَحَبَّةِ وَالْخُضُوعِ وَالْخَوْفِ.

وَقُدِّمَ الْمَفْعُولُ وَهُوَ ﴿ إِيَّاكَ ﴾ وَكُرِّرَ؛ لِلِاهْتِمَامِ وَالْحَصْرِ، أَيْ: لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ، وَلَا نَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْكَ، وَهَذَا هُوَ كَمَالُ الطَّاعَةِ. وَالدِّينُ يَرْجِعُ كُلُّهُ إِلَىٰ هَذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ، وَهَذَا كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْفَاتِحَةُ سِرُّ الْقُرْآنِ، وَسِرُّهَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فَالْأَوَّلُ تَبَرُّؤٌ مِنَ الشِّرْكِ، وَالثَّانِي تَبَرُّؤٌ مِنَ الْحَوْلِ والقوة، والتفويض إِلَىٰ اللهِ تعالىٰ.

وَهَذَا الْمَعْنَىٰ فِي غَيْرِ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[هود:١٢٣]. ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾[الملك:٢٩]. ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾[المزمل:٩]. قاله ابن كثير رحمه الله في «التفسير» (١/ ١٣٤).

أي: نعبد إياك وقدم المفعول ليدل علىٰ اختصاص الله بالعبادة وفي هذا دليل علىٰ إفراد الله تعالىٰ بالعبادة وأنها حقه ولا يجوز أن يُشرك معه غيره لا ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلا؛ ولهذا دعت جميع الرسل إلىٰ هذا الحق، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[النحل:٣٦].

وقال الله تعالىٰ: ﴿ وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾[النساء:٣٦]. وقال: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾[الأنعام:١٥١]. وقال الله تعالىٰ: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾[الإسراء:٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات:٥٦].

فالعبادة حق الله تعالىٰ، وهي أنواع: قولية، وفعلية، ومالية، واعتقادية، فلا يجوز أن يصرف شيء من أنواع العبادات لغير الله لا القولية، ولا الفعلية، ولا الاعتقادية، ولا المالية، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا ﴾[الجن:١٨].

وقبول العبادة أيًّ كانت متوقفة علىٰ شرطين وهما:

الأول: الإخلاص لله بالتوحيد، قال الله: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾[البينة:٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَلا للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾[الزمر:٣]، وفي «الصحيحين» عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَىٰ»[١]، وفي مسلم (٢٩٨٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا

(١) أخرجه البخاري (٦٦٨٩)، ومسلم (١٩٠٧).

أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»، والأحاديث في الباب كثيرة يعسر حصرها، وسنخرج عن الموضوع.

ويدل عليه هنا قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فهي دالة علىٰ الإخلاص بأوضح عبارة وأحسن بيان علىٰ ما تقدم بيانه.

والشرط الثاني هو: المتابعة لرسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، إذ يقول الله تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا ﴾[الأحزاب:٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[النساء:٦٥]. وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ» متفق عليه(١)، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: وفي رواية لمسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

ولما كان الإنسان عاجزًا عن فعل المأمور وترك المحظور إلا بعون الله، قال: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ والاستعانة: طلب العون، والمعنىٰ أننا نستعينك يا الله علىٰ عبادتنا لك.

وفي هذا كمال التوكل وصدق الاعتماد علىٰ الله تعالىٰ، والتوكل واجب وفرض وحتم، قال تعالىٰ: ﴿ وَعَلَىٰ اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[المائدة:٢٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

وإذا لم يعن الله العبد فلن يستطيع أن يصلي صلاةً، ولا زكاةً، ولا حجًا، ولا ذكرًا، ولا هدايةً، ولا شيئًا من ذلك، ولهذا قال موسىٰ عليه السلام لقومه: ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللهِ ﴾[الأعراف:١٢٨]، وكان من دعاءه صلىٰ الله عليه وسلم: «رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ» أخرجه أحمد (١٩٩٧)، وأبو داود (١٥١٠) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، والحديث في «الصحيح المسند» (٦٠٦) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

ومن وصيته صلىٰ الله عليه وسلم لمن يحب، فقد قال لمعاذ رضي الله عنه: «يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَىٰ ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ» رواه أبو داود (١٥٢٢)، والحديث في «الصحيح المسند» (١١٠٧) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

إِذَا لم يَكُنْ عَونٌ مِنَ اللهِ لِلفَتىٰ فَأَوَّلُ مَا يَجنِي عَلَيهِ اجتِهَادُهُ

فالفضل لله تعالىٰ أن فرض علينا فرائض ثم أعاننا علىٰ الإتيان بها، ففي هذه الآية ما يجب علىٰ الإنسان من وجوب الخضوع لله تعالىٰ واستشعار العجز والنقص والفقر والحاجة إلىٰ الله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَىٰ اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾[فاطر:١٥]، فما تستطيع أن تفعل شيئًا لا أن تقوم، ولا أن تصلي، ولا أن تذكر الله، فربما يضيق صدرك إلىٰ غير ذلك.

ولكن إذا أعان الله سهلت عليك الأمور وكان من دعاء النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «اللَّهُمَّ لَا سَهْلَ إِلَّا مَا جَعَلْتَهُ سَهْلًا، وَأَنْتَ تَجْعَلُ الْحَزَنَ إِذَا شِئْتَ سَهْلًا» أخرجه ابن السني في «عمل اليوم الليلة» (٣٥١) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، والحديث في «الصحيح المسند» (٧٣) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

فهذه الآية بين الله وبين العبد، أولها إخبار بما يجب علىٰ العبد من حق الله سبحانه وتعالىٰ، وخاتمتها أن العبد مستعين وخاضع وفقير وراجع إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

والعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال والمعتقدات.

قال ابن القيم رحمه الله: وَالْعِبَادَةُ تَجْمَعُ أَصْلَيْنِ: غَايَةُ الْحُبِّ بِغَايَةِ الذُّلِّ وَالْخُضُوعِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ أَيْ مُذَلَّلٌ، وَالتَّعَبُّدُ: التَّذَلُّلُ وَالْخُضُوعُ، فَمَنْ أَحْبَبْتَهُ وَلَمْ تَكُنْ خَاضِعًا لَهُ، لَمْ تَكُنْ عَابِدًا لَهُ، وَمَنْ خَضَعْتَ لَهُ بِلَا مَحَبَّةٍ لَمْ تَكُنْ عَابِدًا لَهُ حَتَّىٰ تَكُونَ مُحِبًّا خَاضِعًا، وَمِنْ هَاهُنَا كَانَ الْمُنْكِرُونَ مَحَبَّةَ الْعِبَادِ لِرَبِّهِمْ مُنْكِرِينَ حَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ، وَالْمُنْكِرُونَ لِكَوْنِهِ مَحْبُوبًا لَهُمْ، بَلْ هُوَ غَايَةُ مَطْلُوبِهِمْ، وَوَجْهُهُ الْأَعْلَىٰ نِهَايَةُ بُغْيَتِهِمْ مُنْكِرِينَ لِكَوْنِهِ إِلَهًا، وَإِنْ أَقَرُّوا بِكَوْنِهِ رَبًّا لِلْعَالَمِينَ وَخَالِقًا لَهُمْ، فَهَذَا غَايَةُ تَوْحِيدِهِمْ، وَهُوَ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ الَّذِي اعْتَرَفَ بِهِ مُشْرِكُو الْعَرَبِ، وَلَمْ يَخْرُجُوا بِهِ عَنِ

الشِّرْكِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾[الزخرف:٨٧]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾[لقمان:٢٥]، ﴿ قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا ﴾[المؤمنون:٨٤]. إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿ سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾[المؤمنون:٨٩]، وَلِهَذَا يُحْتَجُّ عَلَيْهِم بِهِ عَلَىٰ تَوْحِيدِ إِلَهِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْبَدَ غَيْرُهُ، كَمَا أَنَّهُ لَا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

وَالِاسْتِعَانَةُ تَجْمَعُ أَصْلَيْنِ: الثِّقَةُ بِاللهِ، وَالِاعْتِمَادُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَثِقُ بِالْوَاحِدِ مِنَ النَّاسِ، وَلَا يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِي أُمُورِهِ مَعَ ثِقَتِهِ بِهِ لِاسْتِغْنَائِهِ عَنْهُ، وَقَدْ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ مَعَ عَدَمِ ثِقَتِهِ بِهِ لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِ، وَلِعَدَمِ مَنْ يَقُومُ مَقَامَهُ، فَيَحْتَاجُ إِلَىٰ اعْتِمَادِهِ عَلَيْهِ، مَعَ أَنَّهُ غَيْرُ وَاثِقٍ بِهِ.

وَالتَّوَكُّلُ مَعْنًى يَلْتَئِمُ مِنْ أَصْلَيْنِ: مِنَ الثِّقَةِ، وَالِاعْتِمَادِ، وَهُوَ حَقِيقَةُ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[الفاتحة:٥]، وَهَذَانَ الْأَصْلَانِ وَهُمَا التَّوَكُّلُ، وَالْعِبَادَةُ قَدْ ذُكِرَا فِي الْقُرْآنِ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ، قَرَنَ بَيْنَهُمَا فِيهَا، هَذَا أَحَدُهَا.

وقال رحمه الله: وَأَمَّا تَقْدِيمُ الْمَعْبُودِ وَالْمُسْتَعَانِ عَلَىٰ الْفِعْلَيْنِ، فَفِيهِ: أَدَبُهُمْ مَعَ اللهِ بِتَقْدِيمِ اسْمِهِ عَلَىٰ فِعْلِهِمْ، وَفِيهِ الِاهْتِمَامُ وَشِدَّةُ الْعِنَايَةِ بِهِ، وَفِيهِ الْإِيذَانُ بِالِاخْتِصَاصِ، الْمُسَمَّى بِالْحَصْرِ، فَهُوَ فِي قُوَّةٍ: لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ، وَلَا نَسْتَعِينُ إِلَّا بِكَ، وَالْحَاكِمُ فِي ذَلِكَ ذَوْقُ الْعَرَبِيَّةِ وَالْفِقْهُ فِيهَا، وَاسْتِقْرَاءُ مَوَارِدِ اسْتِعْمَالِ ذَلِكَ مُقَدَّمًا، وَسِيبَوَيْهِ نَصَّ عَلَىٰ الِاهْتِمَامِ، وَلَمْ يَنْفِ غَيْرَهُ.

وَلِأَنَّهُ يَقْبُحُ مِنَ الْقَائِلِ أَنْ يُعْتِقَ عَشَرَةَ أَعْبُدٍ مَثَلًا، ثُمَّ يَقُولُ لِأَحَدِهِمْ: إِيَّاكَ أَعْتَقْتُ، وَمَنْ سَمِعَهُ أَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَقَالَ: وَغَيْرَهُ أَيْضًا أَعْتَقْتَ، وَلَوْلَا فَهْمُ الِاخْتِصَاصِ لَمَا قُبِّحَ هَذَا الْكَلَامُ، وَلَا حَسُنَ إِنْكَارُهُ.

وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾[البقرة:٤٠]، ﴿ وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾[البقرة:٤١]، كَيْفَ تَجِدُهُ فِي قُوَّةِ: لَا تَرْهَبُوا غَيْرِي، وَلَا تَتَّقُوا سِوَايَ، وَكَذَلِكَ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[الفاتحة:٥]، هُوَ فِي قُوَّةِ: لَا نَعْبُدُ غَيْرَكَ، وَلَا نَسْتَعِينُ بِسِوَاكَ، وَكُلُّ ذِي ذَوْقٍ سَلِيمٍ يَفْهَمُ هَذَا الِاخْتِصَاصَ مِنْ عِلَّةِ السِّيَاقِ.

وَلَا عِبْرَةَ بِجَدَلِ مَنْ قَلَّ فَهْمُهُ، وَفُتِحَ عَلَيْهِ بَابُ الشَّكِّ وَالتَّشْكِيكِ، انتهى من «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (١/ ٩٨،٩٥).

وقول الله تعالىٰ: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة:٦].

هذا دعاء من العبد لله تعالىٰ، وفي هذا أدب الدعاء، وهو أن الإنسان إذا أراد أن يدعو الله تعالىٰ يقدم الحمد لله والثناء والمجد ويتوسل لله تعالىٰ بأسمائه وصفاته فإن ذلك أحرىٰ أن يستجاب له ثم بعد ذلك يأتي بالدعاء.

وفي حديث فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ رضي الله عنه، يَقُولُ: سَمِعَ رَسُولُ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ لَمْ يُمَجِّدِ اللهَ تَعَالَىٰ، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَىٰ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم: «عَجِلَ هَذَا»، ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ - أَوْ لِغَيْرِهِ -: «إِذَا صَلَّىٰ أَحَدُكُمْ، فَلْيَبْدَأْ بِتَمْجِيدِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَزَّ،

وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُصَلِّي عَلَىٰ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ يَدْعُو بَعْدُ بِمَا شَاءَ». أخرجه ابو داود (١٤٨١)، والحديث في «الصحيح المسند» (١٠٦٤) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

والهداية المراد بها هنا هداية التوفيق: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي: وفقنا إلىٰ الصراط المستقيم والصراط هو الطريق.

والهداية أقسام ذكرها غير واحد من أهل العلم كالراغب في «المفردات» وابن القيم في كثير من كتبه.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي كِتَابِهِ «بَدَائِعُ الْفَوَائِدِ» (٢/ ٣٥): الْهِدَايَةُ أَرْبَعَةُ أَنْوَاعٍ:

أَحَدُهَا: الْهِدَايَةُ الْعَامَّةُ الْمُشْتَرَكَةُ بَيْنَ الْخَلْقِ الْمَذْكُورَةُ فِي قوله تعالىٰ: ﴿ الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه:٥٠]، أَيْ: أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ صُورَتَهُ الَّتِي لَا يَشْتَبِهُ فِيهَا بِغَيْرِهِ، وَأَعْطَىٰ كُلَّ عُضْوٍ شَكْلَهُ وَهَيْئَتَهُ، وَأَعْطَىٰ كُلَّ مَوْجُودٌ خَلْقَهُ الْمُخْتَصَّ بِهِ ثُمَّ هُدَاهُ لِمَا خَلَقَهُ مِنْ الْأَعْمَالِ .

قَالَ: وَهَذِهِ الْهِدَايَةُ تَعُمُّ الْحَيَوَانَ الْمُتَحَرِّكَ بِإِرَادَتِهِ إِلَىٰ جَلْبِ مَا يَنْفَعُهُ وَدَفْعِ مَا يَضُرُّهُ.

قَالَ: وَلِلْجَمَادِ أَيْضًا هِدَايَةٌ تَلِيقُ بِهِ، كَمَا أَنَّ لِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ الْحَيَوَانِ هِدَايَةً تَلِيقُ بِهِ وَإِنْ اخْتَلَفَتْ أَنْوَاعُهَا وَصُوَرُهَا، وَكَذَلِكَ لِكُلِّ عُضْوٍ هِدَايَةٌ تَلِيقُ بِهِ،

فَهُدَىٰ الرِّجْلَيْنِ لِلْمَشْيِ، وَاللِّسَانِ لِلْكَلَامِ، وَالْعَيْنِ لِكَشْفِ الْمَرْئِيَّاتِ، وَهَلُمَّ جَرًّا.

وَكَذَلِكَ هَدَىٰ الزَّوْجَيْنِ مِنْ كُلِّ حَيَوَانٍ إِلَىٰ الِازْدِوَاجِ وَالتَّنَاسُلِ وَتَرْبِيَةِ الْوَلَدِ، وَالْوَلَدِ إِلَىٰ الْتِقَامِ الثَّدْيِ عِنْدَ وَضْعِهِ، وَمَرَاتِبُ هِدَايَتِهِ سُبْحَانَهُ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا هُوَ.

الثَّانِي: هِدَايَةُ الْبَيَانِ وَالدَّلَالَةِ وَالتَّعْرِيفِ لِنَجْدَيْ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَطَرِيقَيْ النَّجَاةِ وَالْهَلَاكِ.

وَهَذِهِ الْهِدَايَةُ لَا تَسْتَلْزِمُ الْهُدَىٰ التَّامَّ فَإِنَّهَا سَبَبٌ وَشَرْطٌ لَا مُوجِبٌ، وَلِهَذَا يَنْتَفِي الْهُدَىٰ مَعَهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ﴾[فصلت:١٧]. أَيْ: بَيَّنَّا لَهُمْ وَأَرْشَدْنَاهُمْ وَدَلَلْنَاهُمْ فَلَمْ يَهْتَدُوا. وَمِنْهَا قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[الشورى:٥٢].

الثَّالِثُ: هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ وَالْإِلْهَامِ، وَهِيَ الْهِدَايَةُ الْمُسْتَلْزِمَةُ لِلِاهْتِدَاءِ فَلَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي قوله تعالىٰ: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[النحل:٩٣]، وَفِي قوله تعالىٰ: ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾[النحل:٣٧]، وَفِي قَوْلِهِ صلىٰ الله عليه وسلم: «مَنْ يَهْدِي اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ»، وَفِي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[القصص:٥٦]. فَنَفَىٰ

عَنْهُ هَذِهِ الْهِدَايَةَ وَأَثْبَتَ لَهُ هِدَايَةَ الدَّعْوَةِ وَالْبَيَانِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[الشورى:٥٢].

الرَّابِعُ: غَايَةُ هَذِهِ الْهِدَايَةِ وَهِيَ الْهِدَايَةُ إِلَىٰ الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ إِذَا سِيقَ أَهْلُهُمَا إِلَيْهِمَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾[يونس:٩]، وَقَالَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِيهَا: ﴿ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللهُ ﴾[الأعراف:٤٣]، وَقَالَ فِي حَقِّ أَهْلِ النَّارِ: ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾[الصافات:٢٢-٢٣]. انْتَهَىٰ.

فالإنسان يسأل الله الهداية ومما يدل علىٰ أهمية سؤالها أن الله تعالىٰ افترض علينا سؤاله إياها في كل ركعة، ووصىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يسأل الله الهداية والسداد، فعَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم: «قُلِ: اللهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي، وَاذْكُرْ، بِالْهُدَىٰ هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادِ، سَدَادَ السَّهْمِ» أخرجه مسلم (٢٧٢٥).

وَعَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رضي الله عنهما، قَالَ: عَلَّمَنِي رَسُولُ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي قُنُوتِ الْوَتْرِ: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ

مَا قَضَيْتَ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلا يُقْضَىٰ عَلَيْكَ، إِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ». أخرجه أحمد (١٧١٨).

وكان من دعاءه صلىٰ الله عليه وسلم سؤال الهدىٰ والتقىٰ كما في حديث ابنِ مسعُودٍ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ صلىٰ الله عليه وسلم كَانَ يَقُولُ: «اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَىٰ وَالتُّقَىٰ، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَىٰ» رواهُ مُسْلِمٌ (٢٧٢١).

وكم دعا لأُناس بها كأم أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَىٰ الْإِسْلَامِ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا فَأَسْمَعَتْنِي فِي رَسُولِ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم مَا أَكْرَهُ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم وَأَنَا أَبْكِي، قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَىٰ الْإِسْلَامِ فَتَأْبَىٰ عَلَيَّ، فَدَعَوْتُهَا الْيَوْمَ فَأَسْمَعَتْنِي فِيكَ مَا أَكْرَهُ، فَادْعُ اللهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم: «اللهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ» فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِرًا بِدَعْوَةِ نَبِيِّ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم، فَلَمَّا جِئْتُ فَصِرْتُ إِلَىٰ الْبَابِ، فَإِذَا هُوَ مُجَافٌ، فَسَمِعَتْ أُمِّي خَشْفَ قَدَمَيَّ، فَقَالَتْ: مَكَانَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ وَسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الْمَاءِ، قَالَ: فَاغْتَسَلَتْ وَلَبِسَتْ دِرْعَهَا وَعَجِلَتْ عَنْ خِمَارِهَا، فَفَتَحَتِ الْبَابَ، ثُمَّ قَالَتْ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ فَرَجَعْتُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم، فَأَتَيْتُهُ وَأَنَا أَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَبْشِرْ قَدِ اسْتَجَابَ اللهُ دَعْوَتَكَ وَهَدَىٰ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ وَقَالَ خَيْرًا، قَالَ قُلْتُ: يَا

رَسُولَ اللهِ ادْعُ اللهَ أَنْ يُحَبِّبَنِي أَنَا وَأُمِّي إِلَىٰ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُحَبِّبَهُمْ إِلَيْنَا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم: «اللهُمَّ حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هَذَا - يَعْنِي أَبَا هُرَيْرَةَ - وَأُمَّهُ إِلَىٰ عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ، وَحَبِّبْ إِلَيْهِم الْمُؤْمِنِينَ» فَمَا خُلِقَ مُؤْمِنٌ يَسْمَعُ بِي وَلَا يَرَانِي إِلَّا أَحَبَّنِي. أخرجه مسلم (٢٤٩١).

ودعا لدوس ففي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عند البخاري (٤٣٩٢) قَالَ: جَاءَ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو إِلَىٰ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم فَقَالَ: إِنَّ دَوْسًا قَدْ هَلَكَتْ عَصَتْ وَأَبَتْ فَادْعُ اللهَ عَلَيْهِم، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ»، وأخرجه مسلم (٢٥٢٤).

فالهداية يحتاجها الإنسان في جميع لحظاته وسكناته وإذا خُذل الإنسان منها خُذل، نسأل الله السلامة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ويقرأ بالزاي والسين، والصراط قال في بيانه ابن القيم رحمه الله في «مدارج السالكين» (١/ ٣٣): وَلَا تَكُونُ الطَّرِيقُ صِرَاطًا حَتَّىٰ تَتَضَمَّنَ خَمْسَةَ أُمُورٍ: الِاسْتِقَامَةَ، وَالْإِيصَالَ إِلَىٰ الْمَقْصُودِ، وَالْقُرْبَ، وَسَعَتَهُ لِلْمَارِّينَ عَلَيْهِ، وَتَعَيُّنَهُ طَرِيقًا لِلْمَقْصُودِ، وَلَا يَخْفَىٰ تَضَمُّنُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ لِهَذِهِ الْأُمُورِ الْخَمْسَةِ.

فَوَصْفُهُ بِالِاسْتِقَامَةِ يَتَضَمَّنُ قُرْبَهُ، لِأَنَّ الْخَطَّ الْمُسْتَقِيمَ هُوَ أَقْرَبُ خَطٍّ فَاصِلٍ بَيْنَ نُقْطَتَيْنِ، وَكُلَّمَا تَعَوَّجَ طَالَ وَبَعُدَ، وَاسْتِقَامَتُهُ تَتَضَمَّنُ إِيصَالَهُ إِلَىٰ الْمَقْصُودِ، وَنَصْبُهُ لِجَمِيعِ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ يَسْتَلْزِمُ سَعَتَهُ، وَإِضَافَتُهُ إِلَىٰ الْمُنْعَمِ

عَلَيْهِمْ وَوَصْفُهُ بِمُخَالَفَةِ صِرَاطِ أَهْلِ الْغَضَبِ وَالضَّلَالِ يَسْتَلْزِمُ تَعَيُّنَهُ طَرِيقًا. اهـ.

والصراط المستقيم هو الإسلام كما فسره النبي صلىٰ الله عليه وسلم فيما رواه الإمام أحمد في «مسنده» (١٧٦٣٤)، والترمذي في «جامعه» (٢٨٥٩) وغيرهما، عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولِ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَىٰ جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَىٰ الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَىٰ بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا، وَلَا تَتَعَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ – يا عبد الله – فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ – ثم بيَّن عليه الصلاة والسلام هذا المثل العظيم، قال: – وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَىٰ رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللهِ، وَالدَّاعِي مِنِ فَوْقَ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ».

وهذا الصراط المعنوي الذي من استقام عليه، سَلِمَ علىٰ الصراط الحسي؛ لأن هناك صراط يوم القيامة وهو الجسر الممدود علىٰ متن جهنم نعوذ بالله من شرِّها فمن سار علىٰ هذا الصراط وسلك السبيل الذي افترضه الله تعالىٰ علىٰ عباده سَهُل عليه المرور علىٰ ذلك الصراط، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه، قال النَّبِيُّ صلىٰ الله عليه وسلم: «...ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَىٰ

جَهَنَّمَ، وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ. وَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: «دَحْضٌ مَزِلَّةٌ. فِيهِ خَطَاطِيفُ، وَكَلاَلِيبُ وَحَسَكٌ. تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ. فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ، وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ...»، متفق عليه[١].

فعلىٰ قدر الاستقامة علىٰ الصراط في الدنيا تكون الاستقامة علىٰ الصراط الحسي في الآخرة، وعند ابن ماجه (١١) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم فَخَطَّ خَطًّا، وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَمِينِهِ، وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَسَارِهِ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الْأَوْسَطِ، فَقَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾[الأنعام:١٥٣]، وفي قول الله تعالىٰ: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[الأنعام:١٥١-١٥٣]، فكل ما تضمنته هذه الآيات من صراط الله تعالىٰ.

وفيها دليل علىٰ وجوب التمسك بسنة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فهي دين الله تعالىٰ الحق، ولا سبيل للعبادة كما يجب إلا بسلوكها فأوجب الله طاعة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فقال: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾[الحشر:٧]، ﴿ وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[آل عمران:١٣٢]، وحذَّر من مخالفته وسلب الإيمان ممَّن لم يرضَ بحكمه فقال: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[النساء:٦٥]، وجعل التأسي به علامة إرادته: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا ﴾[الأحزاب:٢١]، وقطع الخِيَرَة مع خِيَرَته فقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[الأحزاب:٣٦]، وقرن طاعته صلىٰ الله عليه وسلم بطاعته فقال تعالىٰ: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾[النساء:٨٠]، ومن خالف رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم مع ادِّعائه لمحبَّة الله كان كاذبًا في دعواه قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[آل عمران:٣١]، وجعل رحمته

الواسعة لمتَّبع ملَّته فقال تعالىٰ: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[الأعراف:١٥٦-١٥٨]، وأخبر أنَّ الجنّة لأهل طاعته والنّار لأهل معصيته، قال تعالىٰ: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[النساء:١٣]. ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾[النساء:١٣-١٤]، وكفىٰ الله تعالىٰ رسوله ومن اتَّبعه، قال الله تعالىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[الأنفال:٦٤]. وأوجب الإيمان برسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وقرنه بالإيمان بنفسه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾[النساء:١٣٦].

ابتلىٰ الله تعالىٰ المؤمنين بطاعته وفرّق بها بين أهل ولايته وأهل معصيته قال الله تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَىٰ النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ

فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[التوبة:١١٧].

وقوله تعالىٰ: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾[الفاتحة:٧].

أي: أن هذا الصراط الذي يسأل الهداية عليه وإليه هو صراط المنعم عليهم، والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في سورة النساء في قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا ﴾[النساء:٦٩]، فأنت حين تقول: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة:٦]، تقول: اللهم اجعلني علىٰ طريق من أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

أنعم الله تعالىٰ عليهم بالهداية، هداية التوفيق والتسديد، وأنعم الله تعالىٰ عليهم بالاستقامة علىٰ دينه وعلىٰ شرعه، ومعنىٰ ذلك أن المنعم عليهم هم صفوة البشرية وأعلاهم منزلة الأنبياء والمرسلين، حيث اصطفاهم الله بالوحي المبين وجعلهم هداة إلىٰ طريقه القويم وإلىٰ جنات النعيم.

ويليهم في الرتبة الصديقون وسموا بذلك لصدقهم وتصديقهم ظاهرًا وباطنًا وأعلاهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

ويليهم الشهداء وهم أصناف وأعلاهم منزلة من قتل لإعلاء كلمة الله تعالىٰ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم قَالَ: «الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ: الْمَطْعُونُ، وَالْمَبْطُونُ، وَالْغَرِقُ، وَصَاحِبُ الْهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللهِ» متفق عليه[1].

ثم يليهم الصالحون بأصنافهم.

وفي الآية أنه يجب علىٰ العبد أن يكون مكثرًا لسواد أهل الحق مبتعدًا عن أهل الباطل.

ثم قال: ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ أي: لا تجعلني مع هؤلاء وفي هذا تمييز لطريق أهل الحق والاستقامة، وطريق أهل الضلال والخيانة. والمغضوب عليهم: هم اليهود، والضالون: هم النصارىٰ، وقد جاء مفسرًا في بعض الأحاديث فعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ الطَّائِيِّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم قَالَ: «الْيَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَىٰ ضُلاَّلٌ». رواه أحمد (١٩٣٨١)، والترمذي (٢٩٥٣)، وابن جرير (١/ ١٨٦،١٩٤)، وابن أبي حاتم (١/ ٣١) وله شواهد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وقد دل كتاب الله علىٰ معنىٰ هذا الحديث، قال الله سبحانه: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ

(١) أخرجه البخاري (٢٨٢٩)، ومسلم (١٩١٤).

﴾[المائدة:٦٠]، والضمير عائد إلىٰ اليهود، والخطاب معهم كما دل عليه سياق الكلام.

وقال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ ﴾[المجادلة:١٤]، وهم المنافقون الذين تولوا اليهود باتفاق أهل التفسير، وسياق الآية يدل عليه، وقال تعالىٰ: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ﴾[البقرة:٦١]، وذكر في آل عمران، قوله تعالىٰ: ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ﴾[البقرة:٦١]، وهذا بيان أن اليهود مغضوب عليهم.

وقال في النصارىٰ: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ ﴾[المائدة:٧٣]، إلىٰ قوله: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾[المائدة:٧٧]، وهذا خطاب للنصارىٰ كما دل عليه السياق، ولهذا نهاهم عن الغلو، وهو مجاوزة الحد، كما نهاهم عنه في قوله: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ ﴾[النساء:١٧١]، الآية، واليهود مقصرون عن الحق، والنصارىٰ غالون فيه. انتهىٰ من «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٧٧).

وعند التحقيق كلهم ضالٌ، وكلهم مغضوبٌ عليه، لكن الغضب في حق اليهود أظهر لأنهم علموا ولم يعملوا، والضَّلال في حق النصارىٰ أظهر لأنهم جهلوا وعملوا، ولهذا قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: مَنْ فَسَدَ مِنْ عُبَّادِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنْ

النَّصَارَىٰ، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ الْيَهُودِ، لأنَّ النصارىٰ عبدوا بغير علم واليهود عرفوا الحق وعدلوا عنه. انتهىٰ قاله ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٤).

ففي السورة ردٌّ علىٰ أصحاب وحدة الأديان الذين يزعمون أن هذه الأديان سماوية وأن هذه الأديان متفقة وأن هذه الأديان كذا وكذا.

فالله تعالىٰ قد ذمّ اليهود وذمّ النصارىٰ وأخبر أن طريقهم غير مرضي وغير سوي.

فمن هنا تعرف أن الله تعالىٰ قسم الناس في هذه السورة إلىٰ ثلاثة أقسام:

الأول: المنعم عليهم.

الثاني: المغضوب عليهم.

والثالث: الضالون.

ومن فائدة معرفة هذا التقسيم: ما ذكره ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٩٣) عن المعاني التي تضمنتها هذه السورة، قال: فَصْلٌ فِي بَيَانِ تَضَمُّنِهَا لِلرَّدِّ عَلَى الرَّافِضَةِ، وَذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة:٦]، إِلَىٰ آخِرِهَا.

وَوَجْهُ تَضَمُّنِهِ إِبْطَالَ قَوْلِهِمْ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَسَّمَ النَّاسَ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: مُنْعَمٌ عَلَيْهِمْ: وَهُمْ أَهْلُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَاتَّبَعُوهُ، وَمَغْضُوبٌ

عَلَيْهِمْ: وَهُمُ الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَرَفَضُوهُ، وَضَالُّونَ: وَهُمُ الَّذِينَ جَهِلُوهُ فَأَخْطَئُوهُ.

فَكُلُّ مَنْ كَانَ أَعْرَفَ لِلْحَقِّ، وَأَتْبَعَ لَهُ كَانَ أَوْلَىٰ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم، رضي الله عنهم هُمْ أَوْلَىٰ بِهَذِهِ الصِّفَةِ مِنَ الرَّوَافِضِ، فَإِنَّهُ مِنَ الْمُحَالِ أَنْ يَكُونَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم رضي الله عنهم جَهِلُوا الْحَقَّ وَعَرَفَهُ الرَّوَافِضُ، أَوْ رَفَضُوهُ وَتَمَسَّكَ بِهِ الرَّوَافِضُ.

ثُمَّ إِنَّا رَأَيْنَا آثَارَ الْفَرِيقَيْنِ تَدُلُّ عَلَىٰ أَهْلِ الْحَقِّ مِنْهُمَا، فَرَأَيْنَا أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم فَتَحُوا بِلَادَ الْكُفْرِ، وَقَلَبُوهَا بِلَادَ إِسْلَامٍ، وَفَتَحُوا الْقُلُوبَ بِالْقُرْآنِ وَالْعِلْمِ وَالْهُدَىٰ، فَآثَارُهُمْ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ هُمْ أَهْلُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَرَأَيْنَا الرَّافِضَةَ بِالْعَكْسِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، فَإِنَّهُ قَطُّ مَا قَامَ لِلْمُسْلِمِينَ عَدُوٌّ مِنْ غَيْرِهِمْ إِلَّا كَانُوا أَعْوَانَهُمْ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ، وَكَمْ جَرُّوا عَلَىٰ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ مِنْ بَلِيَّةٍ؟ وَهَلْ عَاثَتْ سُيُوفُ الْمُشْرِكِينَ عُبَّادِ الْأَصْنَامِ مِنْ عَسْكَرِ هُولَاكُو وَذَوِيهِ مِنَ التَّتَارِ إِلَّا مِنْ تَحْتِ رُءُوسِهِمْ؟ وَهَلْ عُطِّلَتِ الْمَسَاجِدُ، وَحُرِّقَتِ الْمَصَاحِفُ، وَقُتِلَ سَرَوَاتُ الْمُسْلِمِينَ وَعُلَمَاؤُهُمْ وَعُبَّادُهُمْ وَخَلِيفَتُهُمْ، إِلَّا بِسَبَبِهِمْ وَمِنْ جَرَّائِهِمْ؟ وَمُظَاهَرَتُهُمْ لِلْمُشْرِكِينَ وَالنَّصَارَىٰ مَعْلُومَةٌ عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، وَآثَارُهُمْ فِي الدِّينِ مَعْلُومَةٌ.

فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ؟ وَأَيُّهُمْ أَحَقُّ بِالْغَضَبِ وَالضَّلَالِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟

وَلِهَذَا فَسَّرَ السَّلَفُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ وَأَهْلَهُ: بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم رضي الله عنهم، وَهُوَ كَمَا فَسَّرُوهُ، فَإِنَّهُ صِرَاطُهُمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ، وَهُوَ عَيْنُ صِرَاطِ نَبِيِّهِمْ، وَهُمُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَغَضِبَ عَلَىٰ أَعْدَائِهِمْ، وَحُكِمَ لِأَعْدَائِهِمْ بِالضَّلَالِ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ رَفِيعٌ الرِّيَاحِيُّ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَهُمَا مِنْ أَجَلِّ التَّابِعِينَ: «الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ: رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَصَاحِبَاهُ»، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة:٦]، «هُمْ آلُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»، وَهَذَا حَقٌّ، فَإِنَّ آلَهُ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ عَلَىٰ طَرِيقٍ وَاحِدَةٍ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَهُمْ، وَمُوَالَاةُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَثَنَاؤُهُمْ عَلَيْهِمَا، وَمُحَارَبَةُ مَنْ حَارَبَا، وَمُسَالَمَةُ مَنْ سَالَمَا مَعْلُومَةٌ عِنْدَ الْأُمَّةِ خَاصِّهَا وَعَامِّهَا، وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ هُمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْمُنْعَمَ عَلَيْهِمْ هُمْ أَتْبَاعُهُ، وَالْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ هُمُ الْخَارِجُونَ عَنِ اتِّبَاعِهِ، وَأَتْبَعُ الْأُمَّةِ لَهُ وَأَطْوَعُهُمْ أَصْحَابُهُ وَأَهْلُ بَيْتِهِ، وَأَتْبَعُ الصَّحَابَةِ لَهُ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ، أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَأَشَدُّ الْأُمَّةِ مُخَالَفَةً لَهُ هُمُ الرَّافِضَةُ، فَخِلَافُهُمْ لَهُ مَعْلُومٌ عِنْدَ جَمِيعِ فِرَقِ الْأُمَّةِ، وَلِهَذَا يُبْغِضُونَ السُّنَّةَ وَأَهْلَهَا، وَيُعَادُونَهَا

وَيُعَادُونَ أَهْلَهَا، فَهُمْ أَعْدَاءُ سُنَّتِهِ صلىٰ الله عليه وسلم، وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَأَتْبَاعُهُ مِنْ بَنِيهِمْ أَكْمَلُ مِيرَاثًا؟ بَلْ هُمْ وَرَثَتُهُ حَقًّا.

فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ طَرِيقُ أَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ، وَطَرِيقُ أَهْلِ الْغَضَبِ وَالضَّلَالِ طَرِيقُ الرَّافِضَةِ.

وَبِهَذِهِ الطَّرِيقِ بِعَيْنِهَا يُرَدُّ عَلَىٰ الْخَوَارِجِ، فَإِنَّ مُعَادَاتَهُمُ الصَّحَابَةَ مَعْرُوفَةٌ. اهـ.

وتضمنت هذه السورة كما تقدم الكلام علىٰ التوحيد، والإشارة إلىٰ اليوم الأخر، والإشارة إلىٰ القدر، بقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[الفاتحة:٥].

وفيها ترغيبٌ، لقوله﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾[الفاتحة:٣]، وهكذا لقوله تعالىٰ: ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الفاتحة:٢].

وفيها ترهيبٌ، في قول الله تعالىٰ: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾[الفاتحة:٤]، وأيضًا مما يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة:٦]، فإذ لم يهتدِّ الانسان فهذا ترهيب له وأنه لا خير فيه.

وفيها أحكام أُخر ذكرها أهل العلم بتوسع لاسيما ابن القيم في كتابه «مدارج السالكين» وقد ذكرنا في كتابنا «فتح الكريم في تفسير السبع المثاني والقرآن العظيم» شيئًا كثيرًا بحمد الله من ذلك.

وأختم بما قاله ابن كثير رحمه الله تعالىٰ في «تفسيره» (١/ ١٤٣)، حيث قال: اشْتَمَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ وَهِيَ سَبْعُ آيَاتٍ، عَلَىٰ حَمْدِ اللهِ وَتَمْجِيدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، بِذِكْرِ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ الْمُسْتَلْزِمَةِ لِصِفَاتِهِ الْعُلْيَا، وَعَلَىٰ ذِكْرِ الْمَعَادِ وَهُوَ يَوْمُ الدِّينِ، وَعَلَىٰ إِرْشَادِهِ عَبِيدَهُ إِلَىٰ سُؤَالِهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ، وَالتَّبَرُّؤِ مِنْ حَوْلِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ، وَإِلَىٰ إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَتَوْحِيدِهِ بِالْأُلُوهِيَّةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَتَنْزِيهِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ نَظِيرٌ أَوْ مُمَاثِلٌ، وَإِلَىٰ سُؤَالِهِمْ إِيَّاهُ الْهِدَايَةَ إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَهُوَ الدِّينُ الْقَوِيمُ، وَتَثْبِيتَهُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يُفْضِي بِهِمْ ذَلِكَ إِلَىٰ جَوَازِ الصِّرَاطِ الْحِسِّيِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمُفْضِي بِهِمْ إِلَىٰ جَنَّاتِ النَّعِيمِ فِي جِوَارِ النَّبِيِّينَ، وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ، وَالصَّالِحِينَ.

وَاشْتَمَلَتْ عَلَىٰ التَّرْغِيبِ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، لِيَكُونُوا مَعَ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ مَسَالِكِ الْبَاطِلِ؛ لِئَلَّا يُحْشَرُوا مَعَ سَالِكِيهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُمُ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ وَالضَّالُّونَ. وَمَا أَحْسَنَ مَا جَاءَ إِسْنَادُ الْإِنْعَامِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾[الفاتحة:٧]، وَحَذْفُ الْفَاعِلِ فِي الْغَضَبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾[الفاتحة:٧]، وَإِنْ كَانَ هُوَ الْفَاعِلَ لِذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾[المجادلة:١٤]، وَكَذَلِكَ إِسْنَادُ الضَّلَالِ إِلَىٰ مَنْ قَامَ بِهِ، وَإِنْ كَانَ هُوَ الَّذِي أَضَلَّهُمْ بِقدَرِه، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾[الكهف:١٧]، ﴿ مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلا هَادِيَ لَهُ

وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[الأعراف:١٨٦]، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالْهِدَايَةِ وَالْإِضْلَالِ، لَا كَمَا تَقُولُهُ الْفِرْقَةُ الْقَدَرِيَّةُ وَمَنْ حَذَا حَذْوَهُمْ، مِنْ أَنَّ الْعِبَادَ هُمُ الَّذِينَ يَخْتَارُونَ ذَلِكَ وَيَفْعَلُونَهُ، وَيَحْتَجُّونَ عَلَىٰ بِدْعَتِهِمْ بِمُتَشَابِهٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَيَتْرُكُونَ ما يكون فيه صريحا فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا حَالُ أَهْلِ الضَّلَالِ وَالْغَيِّ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّىٰ اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ»، يَعْنِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾[آل عمران:٧]، فَلَيْسَ - بِحَمْدِ اللهِ - لِمُبْتَدِعٍ فِي الْقُرْآنِ حُجَّةٌ صَحِيحَةٌ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ جَاءَ لِيَفْصِلَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ مُفَرِّقًا بَيْنَ الْهُدَىٰ وَالضَّلَالِ، وَلَيْسَ فِيهِ تَنَاقُضٌ وَلَا اخْتِلَافٌ؛ لِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ.

والحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

تفسير سورة ق

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله عليه وسلم.

سورة ﴿ ق ﴾ أول المفصل عند جمهور العلماء، وهي في ترتيب السورة رقم

خمسين، ومن شأنها أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم كان يخطب بها كل جمعة، وذلك لما فيها من الوعد والوعيد، ولما فيها من الحجج علىٰ أهل الكفر والعناد.

فعَنْ بِنْتٍ لِحَارِثَةَ بْنِ النُّعْمَانِ، قَالَتْ: «مَا حَفِظْتُ ق، إِلَّا مِنْ فِي رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم، يَخْطُبُ بِهَا كُلَّ جُمُعَةٍ»، أخرجه مسلم.

قال ابن القيم في الفوائد (ص: ٥): وَقد جمعت هَذِه السُّورَة من أُصُول الْإِيمَان مَا يَكْفِي ويشفي ويغني عَن كَلَام أهل الْكَلَام ومعقول أهل الْمَعْقُول فَإِنَّهَا تضمّنت تَقْرِير المبدأ والمعاد والتوحيد والنبوّة وَالْإِيمَان بِالْمَلَائِكَة وانقسام النَّاس إِلَىٰ هَالك شقي وفائز سعيد وأوصاف هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاء وتضمّنت إِثْبَات صِفَات الْكَمَال لله وتنزيهه عَمَّا يضاد كمله من النقائص والعيوب وَذكر فِيهَا القيامتين الصُّغْرَىٰ والكبرىٰ وَالْعَالمِينَ الْأَكْبَر وَهُوَ عَالم الْآخِرَة والأصغر وَهُوَ عَالم الدُّنْيَا وَذكر فِيهَا خلق الْإِنْسَان ووفاته وإعادته وحاله عِنْد وَفَاته وَيَوْم معاده وإحاطته سُبْحَانَهُ بِهِ من كل وَجه حَتَّىٰ علمه بوساوس نَفسه وَإِقَامَة الْحفظَة عَلَيْهِ يُحصون عَلَيْهِ كل لَفْظَة يتَكَلَّم بهَا وَأَنه يوافيه يَوْم الْقِيَامَة وَمَعَهُ سائق يَسُوقهُ إِلَيْهِ وَشَاهد يشْهد عَلَيْهِ فَإِذا أحضرهُ السَّائِق قَالَ ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾[ق:٢٣].

أَي هَذَا الَّذِي أمرت بإحضاره قد أحضرته فَيُقَال عِنْد إِحْضَاره: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾[ق:٢٤]، كَمَا يحضر الْجَانِي إِلَىٰ حَضْرَة السُّلْطَان فَيُقَال هَذَا فلَان قد أحضرته فَيَقُول اذْهَبُوا بِهِ إِلَىٰ السجْن وعاقبوه بِمَا يستحقّه. انتهىٰ

قوله: ﴿ ق ﴾ قيل اسم جبل، وقيل بأنه من الحروف المقطعة التي افتتح الله عز وجل بها كثير من السور تحديًا للمشركين أن يأتوا بمثله مع أنه من هذه الحروف التي كان بها نظم الكلام العربي، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[الإسراء: ٨٨]، وقال أيضًا: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[هود: ١٣]، وقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[يونس: ٣٨].

﴿ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ أقسم بالقرآن، والغالب أنه إذا جاء بالحروف المقطعة أتىٰ بعدها وصف القرآن أو ذكر ما يتعلق به، فهو كتاب الله العظيم الكريم الواسع، وقد أقسم الله عز وجل بالقرآن، وهو صفة من صفاته فهو كلامه ووحيه وتنزيله، سمعه منه جبريل حقيقةً ونزل به إلىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم.

والأدلة علىٰ أنه كلام الله كثيرة منها قوله : ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ﴾[التوبة:٦]، وقوله: ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ ﴾[الفتح:١٥]، وفي حديث جابر رضي الله عنه: «مَنْ يَأوِينِي حَتىٰ أُبلِغ كَلامِ رَبِي» أخرجه أحمد.

﴿ الْمَجِيدِ ﴾ الواسع، فهو واسع في عجائب ما ذكر فيه من أحكام، وعقائد، وأخلاق وصفات، بحيث أن الآية منه يستدل بها في أبواب كثيرة من أبواب العلم، وفيه من الوعد والوعيد والخبر والاستخبار الشيء الكثير، ولذلك قال رسول الله

صلىٰ الله عليه وسلم: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدِ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَىٰ الله إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» أخرجه مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

﴿ بَلْ عَجِبُوا ﴾ أي الكفار، وعجبهم إما أن يكون عن جهلٍ، وإما أن يكون عن كبر، وفي كلا الحالين يدل علىٰ سخف عقولهم وعظيم جهلهم، وشدة سفههم.

﴿ أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ وهو محمد صلىٰ الله عليه وسلم، قال الله عز وجل في وصفه: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[التوبة:١٢٨]، وهو دعوة إبراهيم حيث قال: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾[البقرة:١٢٩]، ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾[الجمعة:٢].

وكانت سبب دعوته صلىٰ الله عليه وسلم بالبشارة والنذارة حيث ينذر ويخوفهم النار والشرك ويدعوهم إلىٰ الجنة والتوحيد، وأجرىٰ الله عز وجل عاداته الكونية أن يبعث الرسل من قومهم؛ لأن لوط عليه السلام حين أُرسل إلىٰ قرية سدوم آذوه فقال: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾[هود:٨٠]، فكان بعد ذلك يبعث الله كل رسول من قومه.

﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ المعرضون عن ذكر رب العالمين: ﴿ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ أي: هذا الوحي شيء عجيب، وتقدم أن عجبهم إما لسخف عقولهم وكبرهم وإما لجهلهم، وإلا فإن الله عز وجل أنزله: ﴿ قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾[الزمر:٢٨]،

يُقرأ ويُفهم، ولكن عجبهم أنهم أنكروا البعث والنشور: ﴿ أَئِذَا مِتْنَا ﴾ أي: أئذا جاءنا الأجل وأكل أجسادنا التراب وتبددت أعضاؤنا: ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾[الواقعة:٤٧]، وقال: ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾[الإسراء: ٤٩]، فأنكروا البعث، وقالوا: ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ أي: أمر بعيد ولا يكون، وهذا لجهلهم وإلا فإن الذي خلقهم هو الله ولم تعجزه البدأة فكيف تعجزه الإعادة؟ قال تعالىٰ: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾[القيامة:٣٧-٤٠]؟ بلىٰ، لا يعجزه شيء.

وقال الله عز وجل: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾[يس: ٧٨].

ومن أركان الإيمان الستة الإيمان بالبعث بعد الموت كما في حديث أبي هريرة في الصحيحين، ويطلق عليه اليوم الآخر علىٰ ما يأتي بيانه إن شاء الله.

ومن أعظم أسباب كفرهم الكفر بالبعث بعد الموت، ولذلك قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم في شأن عبد الله بن جدعان كان لا يؤمن: « إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّين »، أي أنه لم يؤمن بالبعث بعد الموت.

﴿ قَدْ عَلِمْنَا ﴾ أي: أن الله عز وجل يقول: قد علمنا، وهذا علىٰ التحقيق، ﴿ مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ من أجسادهم، فيذهب مع التربة ويتبدد مع الماء، وربما

كان في بطن الدود ولا يضيع منه شيء، ويدل على ذلك حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: «أَسْرَفَ رَجُلٌ عَلَىٰ نَفْسِهِ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَوْصَىٰ بَنِيهِ فَقَالَ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ اذْرُونِي فِي الرِّيحِ فِي الْبَحْرِ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبُنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ بِهِ أَحَدًا، قَالَ فَفَعَلُوا ذَلِكَ بِهِ، فَقَالَ لِلْأَرْضِ: أَدِّي مَا أَخَذْتِ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: خَشْيَتُكَ، يَا رَبِّ - أَوْ قَالَ مَخَافَتُكَ - فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ» متفق عليه.

﴿ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ وهو اللوح المحفوظ يكتب كل ما يتعلق بهم، والإيمان باللوح المحفوظ من الإيمان بالغيب، قال تعالىٰ: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾[البروج:٢١-٢٢]، ﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾[الواقعة:٧٨-٧٩]، وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «إن أوَّلَ ما خلقَ الله القلمُ، فقال له: اكتُبْ، قال: ربَّ، وماذا أكتُبُ؟ قال: اكتُبْ مقاديرَ كل شيءٍ حتىٰ تقومَ الساعةُ»، أخرجه أبو داود.

﴿ بَلْ كَذَّبُوا ﴾ أي الواقع أنهم كذبوا، ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ بالوحي الذي جاء به النبي صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ كبرًا وعنادًا، ﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾ مختلط، تارة يقولون: ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾[ص:٥]، وتارة يقولون: ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾[الجاثية:٢٤]، وتارة يقولون: ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴾[الواقعة:٤٧-٤٨]، فاختلطت عليهم الأمور بسبب جهلهم وكفرهم وبعدهم عن الحق.

ثم ضرب الله لهم أدلة تبين قدرته النافذة: ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا ﴾ أي: الكفار، ﴿ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ العظيمة البناء، ﴿ فَوْقَهُمْ ﴾ التي لا تختفي خلف حجر أو شجر بل يراها كل مبصر، ﴿ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ﴾ بغير عمد قال الله عز وجل: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[الذاريات:٤٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾[لقمان: ١٠]، ﴿ وَزَيَّنَّاهَا ﴾ بالنجوم والكواكب، ﴿ وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ ليس فيها من نقب أو خللٍ؛ وقد قال الله عز وجل في سورة الملك: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ * الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾[الملك: ٢ - ٤]، يعني: كلما أعاد النظر فيها ليتأمل نقص لا يجد فيها أي نقص بل يكل نضره ويضعف بصره، والسماء والأرض من آيات الله العظام الكبيرات الواسعات؛ ولذلك يضرب الله بهما المثل غالبًا ليري الكفار عجز أنفسهم وعظمة خالقهم، فالذي لا يعجزه ولا يكرثه خلق السموات والاراضين وما فيها لا يعجزه خلق إنسان ضعيف، والله المستعان.

﴿ وَالْأَرْضَ ﴾ أي: أولم ينظروا أيضًا إلىٰ الأرض الواسعة كيف: ﴿ مَدَدْنَاهَا ﴾ أي: وسعناها، ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبال عظيمات كبيرات كي لا تميد بهم ولا تتحرك، ﴿ وَأَنْبَتْنَا ﴾ ذكر نفسه علىٰ التعظيم وإلا فهو واحد سبحانه وتعالىٰ،

أخرجنا ﴿ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ من كل أنواع الثمار والفواكه جميلة المنظر وحسنة الطعم، فكم لنا فيها من عبر! وأرزاق! حيث جعل الله عز وجل رزقنا في الأرض نأكل من ثمارها، ونشرب من مائها، ونستكن فيما يبنىٰ منها، وتواري أجسامنا بعد الموت، وأصل خلق الإنسان منها، قال الله عز وجل: ﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَىٰ السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَىٰ الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَىٰ الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[الغاشية:١٧-٢٠].

﴿ تَبْصِرَةً ﴾ أي: بالنظر إلىٰ مثل هذه المخلوقات العظيمات مع التدبر والتفكر تبصرة يبصر بها قدرة الخالق سبحانه وتعالىٰ، ﴿ وَذِكْرَىٰ ﴾ فيها موعظة وذكرىٰ ودلالة علىٰ وجوب التوحيد؛ لكن ليس لكل أحد؛ لأن المعرض لا يستفيد، ولكن: ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ عبد رجاع خاضع لله عز وجل مؤمن بقدرته وبما له من الحقوق.

زد علىٰ ذلك من العلامات الدالة علىٰ كمال قدرته: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا ﴾ أي: ومن عجيب شأن الله عز وجل الدال علىٰ قدرته وعلىٰ تفرده بالخلق والملك والتدبير: أنه نزل من السماء ماءً والمراد بالسماء هنا السحاب، فكل ما علىٰ الإنسان يسمىٰ سماء؛ قال الله عز وجل: ﴿ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾[البقرة:١٦٤]، ﴿ مَاءً ﴾ عذبًا، ﴿ مُبَارَكًا ﴾ وبركته ظاهرة في طعمه، وفي سقيه، وكثرته، ﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ ﴾ أي: بهذا الماء، ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ مزارع وافرات سميت جنة لأنها تجن وتغطي من دخل فيها، ﴿ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ الحب المحصود من

الذرة، والشام، والعدس وغير ذلك من الحبوب المدخرة والمأكولة.

﴿ وَالنَّخْلَ ﴾ أي: وأنبتنا به النخل هذه الشجرة العظيمة في صفاتها وفي طولها، إذا وقف الإنسان بجانبها يحتاج إلىٰ أن يرفع رأسه حتىٰ يرىٰ أعلاها، ﴿ بَاسِقَاتٍ ﴾ طويلات، ﴿ لَهَا طَلْعٌ ﴾ ثمر، ﴿ نَضِيدٌ ﴾ لذيذ وجميل وعظيم، وهذا يعرفه أصحاب المزارع كم يجدوا في النخل من بركات، وكان طعام العرب لا سيما أهل المدينة التمر والماء، وكان طعام أهل مكة الصيد، إذ أن المدينة كانت ذات نخل، ومن عجيب شأن النخلة أن يستفاد من جميع أجزائها، ولهذا قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ؟» فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي، قَالَ عَبْدُ الله: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: فَقَالَ: «هِيَ النَّخْلَةُ» قَالَ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعُمَرَ، قَالَ: لَأَنْ تَكُونَ قُلْتَ: هِيَ النَّخْلَةُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا، متفق عليه عن عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَت، ومن عجيب شأن التمر أنه يصلح حلوىٰ وإدام وطعام، ويستفاد من جميعها حتىٰ النواة كانوا يطعمون بها الخيل.

﴿ رِزْقًا ﴾ أي: كل هذا جعله الله عز وجل رزقًا للعباد، والرزق: العطاء، ﴿ لِلْعِبَادِ ﴾ أي: مؤمنهم وكافرهم وبرهم وفاجرهم، فكلهم يتنعمون في ملك الله، ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ ﴾ أي: بالماء، ﴿ بَلْدَةً مَيْتًا ﴾ قد يبست أشجارها وأصبحت لا حياة فيها فما أن ينزل المطر إلا وهي حية بخضرتها ووجود الهوام فيها، ﴿ كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ أي: كما أحيا الله الأرض الميتة بمثل هذا الحال كذلك يتم إحياء الموتىٰ يوم

القيامة ويخرجهم من قبورهم؛ فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ، «ثُمَّ يُنْزِلُ الله مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ، كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ» قَالَ: «وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَىٰ، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، متفق عليه.

وفي مسلم عن عبد الله بن عمرو ت: « وَيَصْعَقُ النَّاسُ، ثُمَّ يُرْسِلُ الله - أَوْ قَالَ يُنْزِلُ الله - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ - نُعْمَانُ الشَّاكُّ - فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَىٰ، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ، وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ، فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، قَالَ فَذَاكَ يَوْمَ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا، وَذَلِكَ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ»، أخرجه مسلم.

ثم يقول: لا تعجب يا محمد من كفر هؤلاء وبعدهم فقد: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ وهو أول رسول إلىٰ أهل الأرض، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلىٰ التوحيد ومع ذلك أبوا وتمردوا، مع أنه دعاهم سرًا وجهارًا، ورغبهم ورهبهم، فلم يستجب له حتىٰ زوجه وابنه والله المستعان، قال الله تعالىٰ مخبراً عنه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ

إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا * مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ الله سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَالله أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَالله جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾[نوح: ٥ – ٢٠]، فانظر إلىٰ طريقة دعوته لهم وصبره عليهم، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل، مع أنه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، والله المستعان.

﴿ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ ﴾ أصحاب البئر أخذوا نبيهم وقتلوه ودفنوه، وفي هذا أشد من فعل قريش، حيث حالوا قتل محمد صلىٰ الله عليه وسلم أما هؤلاء تمكنوا من قتله، ﴿ وَثَمُودُ ﴾ أي: قوم صالح، وكانوا يسكنون الجزيرة العربية وهم بعد قوم عاد وكذبوا صالح عليه السلام وعقروا الناقة.

﴿ وَعَادٌ ﴾ وأيضًا ممن كذب بالرسل قبيلة عاد التي كانت تسكن بلاد الأحقاف وأرض حضرموت والمهرة أعطاهم الله عز وجل من القوة الشيء العظيم فمع ذلك ما استفادوا منها، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ الله وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾[الأحقاف:٢٦]، وأهلكهم الله بريح صرصر عاتية ﴿ وَفِرْعَوْنُ ﴾ وأيضًا ممن كذب فرعون وهو

مخلوق ضعيف ومع ذلك يقول: أنا ربكم الأعلىٰ، وهو يعلم أنه كاذب، قال له موسىٰ: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾[الإسراء:١٠٢]، هالكًا، ﴿ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴾ أي: وممن كذب بدعوة الله عز وجل القوم الذين بعث فيهم لوط عليه السلام وهو ابن عم إبراهيم عليه السلام.

﴿ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ ﴾ أي: وكذب أصحاب الأيكة، والأيكة هي الشجرة حيث كانوا يجتمعون عندها ويشركون وينددون، وأخذهم الله بعذاب يوم الظلة، قال تعالىٰ: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[الشعراء: ١٨٩]، ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ أيضًا ممن كذب قوم تبع، وهو أسعد الكامل اليمني المشهور الذي جاب البلاد طولًا وعرضًا، وقيل بأنه أول من كسىٰ الكعبة، ويذكر أنه أسلم علىٰ يد اليهود في زمنه وبقي قومه علىٰ كفرهم، ﴿ كُلٌّ ﴾ أي: كل هؤلاء الذين ذكروا من الكفرة مع غيرهم: ﴿ كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ الذين أرسلهم الله عز وجل إليهم، وكان الواجب الإيمان بهم وتصديقهم لما أعطاهم الله من حجج قوميات، ودلائل ظاهرات، ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ فوقع عليهم ما توعدهم الله بهم، فأهلك قوم نوح بالطوفان، وأهلك قوم ثمود بالصيحة، وأهلك عاد بالمطر والريح، وأهلك فرعون بأن أغرقه في اليم وهو البحر المتلاطم، وأهلك لوط بما أهلكم به حيث رفعت ديارهم إلىٰ حيث شاء الله ثم ألقيت ونكست: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ

الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾[هود:٨٢-٨٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠]

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ ﴾ يقول: يا معشر المشركين الكافرين المنددين المكذبين بالبعث بعد الموت هل عجزنا عن الخلق الأول والواقع لا، ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ في شك وحيرة من البعث بعد الموت.

ثم قال مبينًا البدأة: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ ﴾ أي: خلقنا جنس الإنسان آدام من تراب ثم خلق أبناؤه من ماء مهين ومن ماء دافق، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾[المؤمنون: ١٢ – ١٦] ﴿ وَنَعْلَمُ ﴾ مع ذلك: ﴿ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ ما لم يظهره علىٰ قريب بل ربما يكون بجانبه وفي نفسه من الخواطر ما الله بها عليم وهو عاجز عن إدراكها والعلم بها، ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ أي: أن الله أقرب إلىٰ الإنسان من حبل الوريد وهو علىٰ عرشه، ليس معنىٰ ذلك أن الله في حبل الوريد، فالله علىٰ عرشه، قال تعالىٰ: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَىٰ الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾[طه:٥]، ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ ﴾[الأعراف:٥٤]، وقيل: المراد قرب الملائكة عند الموت ففي حديث البراء ت: «وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السَّوْءُ، قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ،

كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ»، أخرجه أحمد، وسيأتي بطوله إن شاء الله، **وحبل الوريد**: هو عرق يخرج من مناط القلب ويصله بالرأس يمر منه الدم.

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ أي: من الملائكة الموكلين بكتابه أعمال بني آدم فيتلقفون أقواله وأفعاله، ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ ﴾ أحدهم عن اليمين وهو الملك الذي يكتب الحسنات، والآخر عن الشمال وهو الذي يكتب السيئات، وصاحب اليمين له التقدم في هذا الشأن، فقد ذكرَّ أن صاحب السيئات لا يكتب إلا بعد أن يأذن له صاحب اليمين، ﴿ قَعِيدٌ ﴾ بمعنىٰ قاعد أي: مرصد يكتب كل ما يصدر من هذا الإنسان.

﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ ﴾ بل ولا يعمل من عمل وإنما ذكر القول لشهرته وكثرته ثم إن القول قد يطلق علىٰ الفعل، قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «مَنْ لم يَدَعْ قولَ الزورِ والعملَ به، فليسَ لله حاجَةٌ أن يَدَعَ طعامَه وشرابه»، وقال الله عز وجل: ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾[الحج: ٣٠]، ﴿ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ قيل: بأنها اسمان للملكين أحدهما رقيب والآخر عتيد، وقيل: المراد أنه رقيب يرقب قوله وفعله وعتيد يقيد ما وقع منه، ولا منافاة ولا يمنع أن يكون اسمه رقيب وعتيد وهو اسم جنس لكل ملك يكتب أعمال العباد.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ أي: الإنسان لحظات الاحتضار حين يأتيه ملك الموت ويقعد عند رأسه ويقول: «اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ»، للكافر، وقد كان النبي صلىٰ الله عليه وسلم حين جاءه

الأجل يقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا الله، إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكَرَاتٌ»، أخرجه البخاري ولما حضر الأجل أبا بكر رضي الله عنه دخلت عليه عائشة فذكرت قول القائل:

كـل امـرئ مصـبح في أهلـهِ والمـوت أدنىٰ مـن شـراك نعلـهِ

فقال لها: يا بني قولي: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾[ق:١٩].

فلا مفر من هذه السكرة لبر ولا فاجر، ولا مؤمن ولا كافر، ولا غني ولا فقير، ولا كبير ولا صغير، وقد بين رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ما يتعلق بهه اللحظات وما بعدها، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم، أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ، وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ»، قَالَ: «فَلَا يَزَالُ يُقَالُ ذَلِكَ حَتَّىٰ تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجَ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: فُلَانٌ، فَيَقُولُونَ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ، وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ »، قَالَ: «فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا حَتَّىٰ يُنْتَهَىٰ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا الله عَزَّ وَجَلَّ، وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السَّوْءُ، قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، اخْرُجِي ذَمِيمَةً، وأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ، وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٍ، فَلَا تَزَالُ تَخْرُجُ، ثُمَّ يُعْرَجَ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: فُلَانٌ، فَيُقَالُ: لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، ارْجِعِي ذَمِيمَةً، فَإِنَّهُ لَا يُفْتَحُ لَكِ

أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَتُرْسَلُ مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَصِيرُ إِلَىٰ الْقَبْرِ، فَيُجْلَسُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، فَيُقَالُ لَهُ: مِثْلُ مَا قِيلَ لَهُ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ، وَيُجْلَسُ الرَّجُلُ السَّوْءُ، فَيُقَالُ لَهُ مِثْلُ مَا قِيلَ لَهُ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ»، أخرجه أحمد.

﴿ ذَلِكَ ﴾ أي: الموت، ﴿ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ تفر وتهرب وتطلب السلامة، أو أنك إذا أردت أن تحيد منه لا سلامة كما قال الله عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾[الجمعة:٨].

وعن عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله – صلىٰ الله عليه وسلم – قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله، أَحَبَّ الله لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله، كَرِهَ الله لِقَاءَهُ»، أخرجه مسلم (١٤).

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ أي: بعد الحياة البرزخية الطويلة التي يجازىٰ فيها الإنسان علىٰ عمله، فعذاب القبر ونعيمة ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، قال الله عز وجل في شأن قوم فرعون: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾[غافر:٤٦]، وسيأتي في آخر سورة الواقعة شيء من لك إن شاء الله.

والصُّور: هو القرن الكبير ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام بإجماع العلماء:

والنفخ في الصور يكون علىٰ مرحلتين:

النفخة الأولىٰ: وهي نفخة الصعق: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ الله ﴾[الزمر:٦٨].

والنفخة الأخرىٰ: نفخة الإعادة: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ

﴾[الزمر:٦٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾[يس:٥١-٥٢].

﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ أي: يوم القيامة هو اليوم الموعود، كما قال تعالىٰ: ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾[هود: ١٠٣]، وهو اليوم الذي توعد الله عز وجل فيه عبادة فيجازي المحسن بإحسانه، والكافر بإساءته وإجرامه، ومن كان مخلطًا من أهل الإسلام فهو تحت المشيئة إن شاء عفىٰ عنه وإن شاء عذبه، قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الله لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾[النساء: ٤٨].

﴿ وَجَاءَتْ ﴾ في ذلك اليوم، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ من الأنفس المكلفة، ﴿ مَعَهَا سَائِقٌ ﴾ من الملائكة، يسوقها إلىٰ الجنة أو النار، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾[مريم: ٨٥-٨٦]، ﴿ وَشَهِيدٌ ﴾ يشهد عليها ومنها حضور أعمالها المسطرة.

فيقال: ﴿ لَقَدْ كُنْتَ ﴾ أيها الكافر والمعرض، ﴿ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا ﴾ أي: عن هذا اليوم، ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ ﴾ أي: غطاء الكفر حين حقيقةً رأيت هذا اليوم: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾[الأعراف:٥٣]، ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ

﴾ قوي حاد يبصر ما كنت تنكره وتجحد وجوده، وقيل: عند الحساب يكون بصر الإنسان مفتوحًا لا يستطيع أن يغمضه لشدة الخوف والفزع ومراقبة الأعمال.

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾ أي: الملك الموكل به، ﴿ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ هذا ما قد سطر عليه وكتب، فإن الإنسان يؤتىٰ بكتابه وفيه كل أعماله فيقول المعرض: ﴿ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾[الكهف:٤٩].

﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ قيل: هذا قول الله، وقيل: يأمر به السائق والشهيد، وقيل بأنه قول الملائكة، والأول أظهر ﴿ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ كل كافر معاند لدين الله وشرعه، مجتنبًا له والحال هناك: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾[الدخان:٤٩]، فلا يستطيع أن يمنع عن نفسه أو يدفع.

﴿ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ ﴾ ومن صفات هذا الكافر أنه مناع للخير، يمنع الزكاة وما أوجب الله عليه، ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ ظالم، ﴿ مُرِيبٍ ﴾ متشكك في دينه وشأنه، وهذا هو السبب العظيم الذي جعل الكفار يقعون فيما هم فيه، ولما كان أهل الإيمان من أبعد الناس عن الشك والريب أقروا وصدقوا بما جاء عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم، وآمنوا بالقرآن الذي لا ريب فيه، فمن أعظم أمراض القلوب الشك والريب يجعل الإنسان يتنكر للمعقول ويرد الثابت عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، وانظر إلىٰ المنافقين لما كانت قلوبهم مليئة بالشك والريب لم ينتفعوا بموعظة ولم ينجزوا عن باطل.

﴿ الَّذِي جَعَلَ مَعَ الله إِلَهًا آخَرَ ﴾ ومن شأن هذا الذي ألقي في النار أيضًا: أنه جعل مع الله إلهًا آخر يعبده ويدعوه ويرجوه وينذر له ويخاف منه ويرهب منه، فصرف العبادات لغير الله وما أكثر هذا الصنف حتى فيمن يقول: (لا إله إلا الله) من عباد القبور من الصوفية، والرافضة، والباطنية ومن إليهم، فكم يصرفون للقبور من عبادات مثل قول بعضهم:

هـات لـي منـك يـا ابـن موسـىٰ ... إغاثـــة في ســـيرها حثاثـــة

والآخر يقول:

يـــا مـــن يفـــر مـــن التـــتر ... لـــوذوا بقـــبر أبـــي عُمـــر

وتسمعهم حين زياراتهم، يا عيدروس، يا جبرتي، يا علي، يا حسين، يا جيلاني يدعون غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، وهذا هو الشرك الذي من أجله أرسلت الرسل وأُنزلت الكتب، حتىٰ يعبد الله لا يشرك به شيئًا، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا الله وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل: ٣٦].

﴿ فَأَلْقِيَاهُ ﴾ هذا المعرض المتكبر، ﴿ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ الموجع.

﴿ قَالَ قَرِينُهُ ﴾ أي: شيطانه، وقيل: الملك؛ لأن الإنسان في ذلك اليوم يقول: هذا الذي كذب عليّ وكتب عليّ ما لم أقل؛ لكن الذي يظهر أنه شيطانه القرين الجني، ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ لست أنا الذي أطغيته وأوقعته فيما وقع فيه من الشرك؛ ولكنه كان كافرًا باغيًا كما قال الله عز وجل: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا

عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴾[الصافات:٢٧-٣٠]، ﴿ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ ﴾ كان في كفر سحيق.

فقال الله عز وجل عند ذلك: ﴿ قَالَ لا تَخْتَصِمُوا ﴾ نهاهم عن المخاصمة؛ لأنها بالباطل، ﴿ لَدَيَّ ﴾ أي: عندي لأنه مطلع علىٰ كل شيء لا تخفىٰ عليه خافية، ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾ أي: في الدنيا حيث ذكرت ما للكافر من الوعيد والعذاب الأليم.

﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ أي: أن الله إذا قضىٰ قضاءً لا يرد، كما قال الله عز وجل: «يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ»، أخرجه مسلم (١٩) عن ثوبان رضي الله عنه.

﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ لكمال عدله سبحانه وتعالىٰ، وهذا كقوله: ﴿ وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف:٤٩]، وإنما يجازي المحسن بإحسانه ويضاعف له المثوبة، ويجازي الكافر بإساءته وسيئاته التي أوبقته.

وفي هذا رد علىٰ الجبرية الذين يجوزون لله أن يعذب من شاء بغير ذنب حتىٰ قال السفاريني:

وجـاز للمـولىٰ يُعـذِب الـورىٰ   من غير مـا ذنـب ولا جَـرَم جـرىٰ

وهذا غير صحيح، فإن الله عز وجل لا يعذب أحدًا إلا بجريرته وظلمه.

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ ﴾ أي: فلا يبدل قول الله الكوني مطلقًا ولا يبدل في الآخرة وهو من أسماء النار: ﴿ هَلِ امْتَلأْتِ ﴾ لأن الله قد وعد بملئها، فعن أبي هريرة

رضي الله عنه قَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ، وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فَمَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ وَغِرَّتُهُمْ؟ قَالَ الله لِلْجَنَّةِ: إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّىٰ يَضَعَ الله، تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، رِجْلَهُ، تَقُولُ: قَطْ قَطْ قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ، وَيُزْوَىٰ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ الله مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ الله يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا»، أخرجه مسلم (٣٦)، ﴿ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ قيل: بأنها تقول: ﴿ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾؛ لأنها ما زالت تتسع للمزيد، وقيل: تقول ﴿ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ يعني علىٰ الإنكار كأنها ملأىٰ، والذي يظهر بالمعنىٰ الأول أنها ما زالت تتسع حتىٰ يضع الجبار عليها قدمه سبحانه وتعالىٰ.

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ ﴾ قربت وأدنيت كما قال تعالىٰ: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[الشعراء: ٩٠]، ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ للمخبتين المنيبين الطائعين لرب العالمين، ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ يرون ما فيها من الخير والنعيم، ويستبشرون برؤيتها ويؤملون دخولها، وانظر إلىٰ حال المؤمن والكافر في ذلك الوقت، الكافر يرىٰ النار يحطم بعضها بعضًا وقد استيقن وقوعه فيها، والمؤمن يرىٰ الجنة وما فيها من البهاء والحسن ويؤمل أن يدخلها: ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾، وكما قال الله عز وجل: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾[الشعراء:٩١].

﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ ﴾ يا معاشر المؤمنين، ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ رجاع إلىٰ الله عز

وجل، ﴿ حَفِيظٍ ﴾ لحدود الله عز وجل، فيعمل الحلال ويترك الحرام، ويأتي بالتوحيد ويبتعد عن الشرك والتنديد.

والأواب الحفيظ: هو ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ ﴾ من خاف الله عز وجل مع تعظيمه فإن الخشية هي الخوف مع التعظيم كما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[فاطر:٢٨]، ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ أي: في غيبته، فلم يطلع عليه أحد وهو يراقب الله في خلوته وجلوته، ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ سليم كما قال الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[الشعراء:٨٨-٨٩]، وفي هذا دليل على أهمية معالجة القلوب من الشك والريب والنيات السيئة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ، وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ» وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ»، أخرجه مسلم (٣٦).

﴿ ادْخُلُوهَا ﴾ أي: الجنة، ﴿ بِسَلامٍ ﴾ لهم سلام من الله كما قال: ﴿ سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾[يس:٥٨]، وأيضًا يعيشون في سلام وسلامة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: «مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ»، أخرجه مسلم، ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾؛ لأنهم إذا دخلوا الجنة ذبح الموت كما في حديث أبي سعيد : «جِيءَ بِالْمَوْتِ حَتَّى يُجْعَلَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُذْبَحُ ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ بِلَا مَوْتٍ وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ بِلَا مَوْتٍ»، متفق عليه.

﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا ﴾ من المآكل والمشارب والمناكح وما أملوه ورجوه، حتىٰ أن الرجل يتمنىٰ الولد فتحمل زوجته وتضع في طرفة عين، وبعضهم يسأل الزراعة فيزرع وينبت في لحظات وحالها كما قال الله عز وجل: ﴿ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴾[الواقعة:٣٣].، وقال: ﴿ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾[ص: ٥٤]، وقال: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾[التين:٦].

﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ والمزيد: هو النظر إلىٰ وجه الله عز وجل، ويدل علىٰ هذا المعنىٰ قول الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[يونس:٢٦]، وقوله ﴿ عَلَىٰ الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾[المطففين:٢٣]، فالأدلة دالة علىٰ رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة في المحشر، ودالة علىٰ رؤية المؤمنين لربهم في الجنة وهو أعلىٰ نعيم الجنة؛ ولذلك كان النبي صلىٰ الله عليه وسلم يقول: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِكَ»، وعَنْ صُهَيْبٍ، عَنِ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ»، أخرجه مسلم (٢٩٧).

وفي هذه الآيات دليل علىٰ أبدية الجنة والنار خلافًا لمذهب المعتزلة ومن إليهم.

ثم قال الله عز وجل لكفار قريش محذرًا لهم من كفرهم وتماديهم: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أي: من قرون كثيرة، ﴿ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا ﴾ أشد منهم

قوةً وبطشًا ومالًا وكثرةً، ﴿ فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ ﴾ ساروا في البلاد، كما قال امرئ القيس:

وقـد نقّبـت في الآفـاق حتّـىٰ رضـيت مـن الغنيمـة بالإيـاب

﴿ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ هل من مفر ومهرب ومخرج؟ والجواب أنهم لن يجدوا ذلك، ويدل علىٰ هذا المعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[الفجر: ٦ - ١٤].

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ الذي ذكر، ﴿ لَذِكْرَىٰ ﴾ تذكره، ﴿ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ سليم يستفيد مما أنزله الله؛ لأن صاحب القلب المريض لا يستفيد كما قال تعالىٰ: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا ﴾[البقرة:١٠]، وقال: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾[التوبة:١٢٤-١٢٥]، ﴿ أَوْ أَلْقَىٰ السَّمْعَ ﴾ استمع لوحي الله، ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ حاضر القلب مريد الخير، وأما الكفار والمعرضون فلم يستفيدوا كما أخبر الله عز وجل عنهم بقولهم: ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[فصلت:٢٦].

ثم قال الله عز وجل مبينًا عظيم قدرته: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ السموات العظيمة الرفيعة والأرض الواسعة، ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ مما شاء الله عز وجل

خلقة في ستة أيام، ولا يعجزه شيء لو أراد أن يخلقهما في طرفة عين: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[يس:٨٢]، ولكن خلقهما في ستة أيام لربط الأمور بمسبباتها ولحكمة أرادها الله عز وجل، وقال بعض أهل التفسير اليوم منها ألف سنة ولا أعلم دليلًا علىٰ ذلك.

﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ أي: إعياء، وفي هذا رد علىٰ المبطلين ممن زعموا: أن الله عز وجل خلق السموات والأرض ثم ارتاح في اليوم السابع، فالله عز وجل لا يعجزه شيء لكمال علمه قدرته وقوته وبهذه الآية وما في بابها يستدل أهل العلم علىٰ أن الصفات المنفية لا بد أن تتضمن كمال الضد، فقوله: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ لكمال قوته وقدرته وقهره.

﴿ فَاصْبِرْ ﴾ يا محمد، ﴿ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ ويفعلون من سب وشتم وأذىٰ من أنك ساحر أو شاعر أو مجنون، ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ نزه ربك عن كل نقيصة وعيب واثبت له جميع المحامد والكمالات، ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ ويستدل بها علىٰ أوقات الصلوات المفروضات، ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ وهو الفجر، ﴿ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ الظهر والعصر، وجاء عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم حديث أبي هريرة: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ: مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاَةِ العَصْرِ وَصَلاَةِ الفَجْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ، فَيَقُولُ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ» متفق عليه.

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ ﴾ صلاة العشاء والمغرب، ﴿ فَسَبِّحْهُ ﴾ نزههُ أيضًا: ﴿ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ أدبار الصلوات، وقيل هما الركعتان بين المغرب فالآيات دالة علىٰ العبادات الفعلية والقولية، وفيها إشارة إلىٰ فضل الذكر بعد الصلاة.

﴿ وَاسْتَمِعْ ﴾ أي: إنك ستستمع ﴿ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ قيل: بأن إسرافيل يكون علىٰ صخرة بيت المقدس فينادي الناس للمثول بين يدي الله عز وجل، فينفخ في الصور فترد الأرواح إلىٰ أجسادها والله أعلم.

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ﴾ صيحة البعث والنشور، قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: قَالَ: «لَا تُخَيِّرُونِي عَلَىٰ مُوسَىٰ، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَىٰ بَاطِشٌ بِجَانِبِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ، فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي أَمْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَىٰ الله» أخرجه مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ من القبور كما قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾[المعارج:٤٣]، فيجازون علىٰ أعمالهم.

﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ تعظيم لنفسه المقدسة، ﴿ نُحْيِي ﴾ أي: الميت نجعله حيًا، ﴿ وَنُمِيتُ ﴾ الحي نجعله ميتًا، ﴿ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴾ أي: إلىٰ الله المرجع يوم القيامة كما قال تعالىٰ: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ الله ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾[البقرة:٢٨١].

﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ أي: أن هذا الإحياء سيكون: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ فيخرج الأموات من بطنها، ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾، ﴿

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[يس:٨٢].

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ من تكذيبهم وعنادهم، ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ يا محمد: ﴿ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ ﴾، برب تجبرهم على الإيمان، والحال كما قال الله عز وجل: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾[الغاشية:٢١-٢٢]، ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾[الأعلى:٩-١٠]، ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾[فاطر:٨]، فهذا هو المعنى: لست عليهم بجبار، وكما قال الله عز وجل: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾[البقرة:٢٧٢]، وقال: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[القصص:٥٦]، وقيل: لا تكن متكبرًا عليهم، والمعنى الأول أصح، ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ يا محمد، ﴿ بِالْقُرْآنِ ﴾ الكريم الذي أنزله الله عليك، ﴿ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ من يخاف وعيد الله عز وجل ويرجو وعده، أما المعرض فإنه لا يستفيد: ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[يونس:١٠١].

انتهينا من تفسير سورة ق ولله الحمد والمنة.

تفسير سورة الذاريات

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي مكية.

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴾ الرياح تذر السحاب وتحمل معها حبوب اللقاح، وينتفع بها الناس أيما انتفاع، فإن الريح إذا توقفت حصل الضرر واشتد الحر وبقيت السفن واقفة علىٰ أسطح البحار، ففيها من الفوائد ما الله به عليم، دمر الله بها قوم عاد ونصر الله بها رسوله صلىٰ الله عليه وسلم.

﴿ فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا ﴾ السحب تحمل المياه الكثيرة إلىٰ حيث شاء الله.

﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾ السفن، يسر الله جريها في البحار، ولولا أن الله عز وجل أجراها بالريح التي تنتج الأمواج لرأيت الأمر شديدًا ما عسىٰ المحركات وحدها أن تصنع بالسفينة أميال كثيرة، ثم إن السفن قبل وجود المحركات إنما كانت بالأشرعة ويعتمدون الريح.

﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ الملائكة تقسم الأرزاق بأمر الله عز وجل، فأقسم الله عز وجل بآيات عظيمات ومخلوقات جليلات: الريح، والسحاب، والسفن، والملائكة.

علىٰ وقوع القيامة حيث قال: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ ﴾ أي: ما تُخبرون به عن يوم القيامة، ﴿ لَصَادِقٌ ﴾ واقع لا يتخلف، ولذلك قال: ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾[المعارج: ١- ٢].

﴿ وَإِنَّ الدِّينَ ﴾ الجزاء والحساب، ﴿ لَوَاقِعٌ ﴾ في ذلك اليوم، ويكون الناس فيه علىٰ حالين: فريق في الجنة، وفريق في السعير، قال الله عز وجل: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾[الانشقاق: ٧ – ١٢].

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ أقسم بالسماء وما فيها من الآيات الباهرة البهية من نجوم، وكواكب وقيل: بأن هذه السماء هي السابعة، وقيل: ﴿ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ لأنها فيها تدرجات كتدرجات الماء، والمعنىٰ الأول أصح: أنه أقسم بالسماء البهية الجميلة العظيمة التي زينها بالنجوم وأحسن بنائها، كما قال تعالىٰ: ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ * وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾[الملك: ٣ – ٥].

﴿ إِنَّكُمْ ﴾ يا معاشر الكفار، ﴿ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴾ لأنه لم يؤخذ من كتاب ربنا وسنة نبينا صلىٰ الله عليه وسلم، وربنا عز وجل يقول: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾[النساء:٨٢]، فسبب الاختلاف: البعد عن كلام الله وكلام ورسوله صلىٰ الله عليه وسلم، وسبب الائتلاف الاجتماع علىٰ كلام الله وكلام

رسوله صلىٰ الله عليه وسلم، واختلافهم في البعث والنشور وفي شأن محمد صلىٰ الله عليه وسلم والقرآن.

﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أي: يصرف عن الإيمان باليوم الآخر وغيره من المغيبات من صرف ممن ضل وهلك.

﴿ قُتِلَ ﴾ أي: لُعِن ﴿ الْخَرَّاصُونَ ﴾ الكذابون خبرًا من أنهم ملعونون، فهم في لعن بلسان الحال والمقال، وقوله: ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ دليل علىٰ الإيمان بالقدر، وأن الإنسان قد يصرف بسبب ما ختم الله علىٰ قلبه لعمله بحاله ومآله وما ربك بظلام للعبيد.

﴿ الَّذِينَ هُمْ ﴾ أي الخراصون ﴿ فِي غَمْرَةٍ ﴾ في غفلة وحيرة ﴿ سَاهُونَ ﴾ أي: لاهون لا يؤمنون بالبعث والنشور والجزاء والنار

﴿ يَسْأَلُونَ ﴾ أي: الكفار، ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾ متىٰ يكون يوم الدين؟ يوم الجزاء والحساب الذي تخبرنا به يا محمد؟ وهذا منهم استهزاء وتكذيب.

فكان الجواب: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ أي: يقع الجزاء يوم يفتنون بالنار ويعذبون ويرونها رأي العين، ويتمنىٰ أحدهم لو يرجع إلىٰ الوراء ليعمل صالحًا وهيهات.

﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ﴾ أي: حريقكم وعذابكم بسبب ما أنكرتموها ﴿ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ في الدنيا وذلك أنهم كانوا يستعلجون النبي صلىٰ الله عليه وسلم بالساعة كما قال تعالىٰ: ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ

مُخْتَلِفُونَ * كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾[النبأ:١-٥]، ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾[المعارج:١-٣]، ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾[الأحزاب:٦٣]، فكل ما آتٍ فهو قريب، واستعجالهم بالعذاب ليس لحبهم له إذ كانوا يسألون النبي صلىٰ الله عليه وسلم العذاب بل كان كبرًا وتكذيبًا وبغيًا وسخريةً فأتاهم ما يوعدون.

فلما أخبر الله عن حال الكفار المهني ناسب أن يذكر فقال: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي: إن المراقبين لله بفعل المأمور وترك المحظور الموحدين لله والمتابعين لرسول الله عليه وسلم وحقيقة التقوىٰ ما قال طلق بن حبيب: (التَّقْوَىٰ عَمَلٌ بِطَاعَةِ اللهِ رَجَاءَ رَحْمَةِ اللهِ عَلَىٰ نُورٍ مِنَ اللهِ، وَالتَّقْوَىٰ تَرْكُ مَعْصِيَةِ اللهِ مَخَافَةَ اللهِ عَلَىٰ نُورٍ مِنَ اللهِ) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف.

﴿ فِي جَنَّاتٍ ﴾ جمع جنة، لأنها تجن وتغطي من يدخل فيها لكثرة ثمارها ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ أنهار كثيرة فيها النعيم العظيم والخير العميم، والحال كما قال الله: ﴿ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴾[الواقعة:٣٣]، بينما الدنيا كثير من ملذاتها إما مقطوع تتنعم به ثم ينقطع، وإما ممنوع لا تصل إليه، والجنة بخلاف ذلك، قال الله عز وجل : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ ﴿ لا مَقْطُوعَةٍ ﴾[الواقعة:٣٣]، أكلها دائم وظلها، ﴿ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴾[الواقعة:٣٣].

﴿ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أي: عاملين بما آتاهم الله من الفرائض قاله ابن جرير، والسبب في وصولهم إلىٰ هذه المرتبة العلية والدرجة السامية: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ كانوا يلازمون الإحسان في أقوالهم وأفعالهم ومعتقداتهم، ويدخل في الإحسان التوحيد وما دونه.

ومن إحسانهم أنهم: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ كان هجوعهم بالليل قليل، ولها معنىٰ آخر: أنهم كانوا ينامون الليل ويقومون القليل وكله خير فإن الله عز وجل شكور يجازي الحسنة بأضعافها، والقول الأول أقرب: مع أن كلا المعنيين صحيح.

ومن إحسانهم: ﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ قال مجاهد يصلون أي وفي وقت السحر وقد قام من نومه يناجي ربه بالدعاء ولاستغفار، ولو كان مع الصلاة لكن من أحسن الحالات وأبرك اللحظات وسبب لعظيم الهبات والمكرمات، وقد امتدح الله أهله فقال الله عز وجل: ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾[آل عمران:١٧]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم يقول: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ اسْمُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟»، متفق عليه، وفي حديث عمر بن عبسة: «إِنَّ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ جَوْفَ اللَّيْلِ الْآخِرِ»، فعلىٰ المؤمن أن يستغل هذا الوقت المبارك مؤثرًا لطاعة الله علىٰ وفارة الفرش،

ثقل النوم، فمن أراد الخير لنفسه فليحافظ علىٰ هذا الوقت المبارك في طاعة الله عز وجل.

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ ﴾ ومن إحسانهم: أنهم في أموالهم: ﴿ حَقٌّ ﴾ من الصدقات المفروضات والمستحبات، ﴿ لِلسَّائِلِ ﴾ الذي يسأل الناس لحاجته وفقره، ولا يجوز نهره، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴾[الضحىٰ:١٠]، ﴿ وَالْمَحْرُومِ ﴾ في تفسير الحسن: المتعفف القاعد في بيته الذي لا يسأل، وقال الجمهور الذي ليس له في الإسلام سهم، واختار ابن جرير أنه من لا مال له، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم، قَالَ: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِالَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَا اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، إِنَّمَا الْمِسْكِينُ الْمُتَعَفِّفُ»، اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾[البقرة: ٢٧٣].

فالشاهد: أن المؤمن يكون في ماله حق لنفسه وزوجه وابنه وغيرهم من الأرحام والأباعد؛ ولبيان فضل إنفاق المال في الحين أنه قرن بكثير من العبادات المقربة إلىٰ الله عز وجل وقرن بالصلاة وجعل من أركان الإسلام الخمسة؛ لأن الله عز وجل كريم ينفق آناء الليل والنهار، وأمر محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم بالإنفاق بقوله: «أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ»، وأمر المسلمين بالإنفاق في أوجه الخير، فإن كنت من أهل الزكاة أو الصدقات فإياك أن تتحيل علىٰ حق الله: وهي أموال تقدمها اليوم تجدها عند الله فإن مال العبد ما قدم، وربّ صدقة تفك بها كربة، وتقضىٰ بها حاجة، وتسد بها خلة.

﴿ وَفِي الأَرْضِ ﴾ التي جعلها الله وبسطها ﴿ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴾ وهذا استئناف للكلام، يقول سبحانه وتعالىٰ ومن الدلائل علىٰ وحدانيته: أن في الأرض الواسعة المترامية الأطراف: ﴿ آيَاتٌ ﴾ علامات، ﴿ لِلْمُوقِنِينَ ﴾ للمستيقنين لوحي رب العالمين، وكما قال الأول: البعرة تدل علىٰ البعير، والأثر يدل علىٰ المسير، وسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا يدل ذلك علىٰ العليم الخبير.

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ ﴾ أي: وفي بدء خلقكم من تراب ثم خلق نسل آدم منه ففي هذا البدن من الآيات البينات والعلامات الظاهرات علىٰ قدرة الله عز وجل الأمر العظيم، ولنضرب مثلًا: انظروا إلىٰ أصحاب السكر يعجز عن أكل الحلويات وأكل كثير من المأكولات؛ لأنه سلب نعمة غدة صغيرة تسمىٰ البنكرياس، وانظروا إلىٰ أصحاب الفشل الكلوي يحتاج إلىٰ غسيل في كل يوم أو في الاسبوع مرتين علىٰ أقل الأحوال، ويذكر الأطباء أن الكلية تقوم بهذه العملية في اليوم مئات المرات، وأن فيها أكثر من مليون مصنع إذا عبر عنه بذلك تنقي الدم وتصفيه وتخرج السموم والأوساخ وكم فيها من منافع، فإذا فسدت أصبح الإنسان معطلًا ويحتاج إلىٰ غسيل يأخذ الأموال والوقت وتذهب عليه الصحة، فالشاهد: أن الله جعل من أعظم الآيات الدالة علىٰ عدم وحدانيته خلق الإنسان وما ركب فيه ﴿ تُبْصِرُونَ ﴾ ألا تتفكرون أن هذه النفس لم تأتِ من عدم أو تخلقها الطبيعة كما يزعمون وإنما خلقها الله.

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ ﴾ أي: من السماء يأتي الرزق وهو المطر، ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ من الوعد والوعيد والثواب والعقاب.

﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ أقسم بنفسه المقدسة، ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي: البعث بعد الموت أو القرآن الذي أوحاه إلىٰ محمد صلىٰ الله عليه وسلم أو ما ذكر من شأن الرزق الذي وعد به الإنسان، ﴿ لَحَقٌّ ﴾ واقع وصدق، ﴿ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ كما تتكلمون وتوقنون بذلك فإن يوم القيامة كائن لا محاله، وذكر أن معاذ رضي الله عنه كان يقول إذا حدث صاحبه: إن هذا لحق كما أنك ها هنا.

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ أي: قد أتاك يا محمد حديث ضيف إبراهيم ابن آزر خليل الله عليه السلام وضيفه كانوا من الملائكة حين جاءوا بالعذاب لقوم لوط إلا أنهم جاءوه في صورة آدميين، ﴿ الْمُكْرَمِينَ ﴾ لكرامتهم عند الله عز وجل وكرمهم في أنفسهم حيث يلازمون معالي الأمور.

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ البيت والمكان الذي هو فيه في صورة الآدميين، ﴿ فَقَالُوا سَلامًا ﴾ دعوا له بالسلامة وسلموا عليه، بتقدير سلمنا عليكم سلامًا ﴿ قَالَ سَلامٌ ﴾ يرد عليهم بمعنىٰ سلام عليكم ﴿ قَوْمٌ مُنكَرُونَ ﴾ تعجب من مجيئهم وأنكر وجوههم إذ أنهم في غاية من البهاء والجمال ومع ذلك عرف فيهم الصلاح فبادر إلىٰ إكرام ضيفة.

﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ أي: انسل خفية فرجع إلىٰ أهله لإعداد قراء الضيف، والنبي صلىٰ الله عليه وسلم يقول: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ» متفق

عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، وليلة الضيف دين علىٰ كل مسلم، فمن أصبح وهو بفنائه فحق عليه أن يكرمه، والضيافة يوم وليلة وإلىٰ ثلاثة أيام، فاليوم والليلة واجب وحتم والثلاثة الأيام ممدوح وسنة، والضيافة متعينة علىٰ أهل الحضر والمدر إن لم يجد المكان الذي يأوي إليه والطعام الذي يأكل منه، وإذا منع الضيف مما هو له جاز أن يأخذه ولو بالقوة؛ لكن مع أمن الفتنة، فعن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، أَنَّهُ قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّكَ تَبْعَثُنَا فَنَنْزِلُ بِقَوْمٍ فَلَا يَقْرُونَنَا، فَمَا تَرَىٰ؟ فَقَالَ لَنَا رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «إِنْ نَزَلْتُمْ بِقَوْمٍ فَأَمَرُوا لَكُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ، فَاقْبَلُوا، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا، فَخُذُوا مِنْهُمْ حَقَّ الضَّيْفِ الَّذِي يَنْبَغِي لَهُمْ» أخرجه مسلم، وكان إبراهيم عليه السلام كريمًا وهكذا أنبياء الله ورسله، ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ ولد البقر؛ سمين أي من خيار ماله.

﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ أدناه منهم وفيه دلالة إلىٰ أن الطعام يقرب إلىٰ الضيف وإن كانت هناك غرفة معدة للطعام فلا بأس أن يقوموا إليه وليس فيه من الامتهان أو الاحتقار شيء، ومع تقريبه لهم لم يأكلوا فـ ﴿ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ﴾ لأنه رأىٰ أيديهم لا تصل إليه، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾[هود:٧٠]، فإن الضيف لا سيما الذي يأتي من مكان بعيد إذا قرب إليه الطعام والشراب بادر إلىٰ ذلك؛ لكن إبراهيم لم يرَ منهم ذلك.

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ إذ لعله تخوف أن يكونوا قد جاءوا لشيء ولذلك لم يؤمنوه بالأكل من طعامه والشرب من شرابه، وفيه: أن الخوف الطبيعي غير

مذموم؛ لأن الخوف أقسام: منه خوف الشرك: وهو الخوف من المقبورين والمربوبين، وخوف السر علىٰ أنهم ينفعون مع الله أو من دون الله، وخوف محرم: وهو الخوف الذي يؤدي إلىٰ ارتكاب حرام أو ترك واجب، وخوف طبيعي: وهو التخوف من النار والثعبان وصولة العدو ونحو ذلك.

﴿ قَالُوا لا تَخَفْ ﴾ أمنوه وقربوه، ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴾ وهو إسحاق عليه السلام من سارة إذ كان قد أعطي غلامًا حليم وهو إسماعيل عليه السلام من هاجر.

﴿ فَأَقْبَلَتِ ﴾ جاءت سارة ﴿ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ﴾ صيحة ورنة: ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ أي: ضربت بيدها علىٰ جبينها متعجبة من هذه البشارة؛ فقد كبر سنها ومثلها لا يحمل ولا يلد، ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أي: كيف ألد وأنا عجوز عقيم مستبعدة لهذه البشارة.

﴿ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ ﴾ وخبر الله يجب قبوله ولا يجوز أن يرد؛ لأنه القائل: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا ﴾[النساء:١٢٢]، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا ﴾[النساء:٨٧]، بل جاء أنه قال: ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾[الحجر:٥٤-٥٥]، أي: بالصدق والواقع، ﴿ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴾[الحجر:٥٥]، ﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾[الحجر:٥٥-٥٦].

﴿ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ أي: عليم بما تستحقونه من الكرامة حكيم إذ أخر الحمل إلىٰ هذا السن، فهو عليم بمصالح العباد، وكان هذا الولد مكرمة لإبراهيم

عليه السلام بعد أن ابتلاه الله واختبره بالأمر بالذبح ولده إسماعيل، فلما أتىٰ بما أمره الله سلم الله له إسماعيل وأكرمه بإسحاق وبشره بيعقوب، قال الله عز وجل: ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[هود: ٧١]، وهذا دليل علىٰ أن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق كما يقول اليهود والنصارىٰ.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ ما أمركم الذي أرسلتم به؛ لأن الرسل لا يعلمون الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه، ﴿ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ مشركين، والمعنىٰ أن الله أرسلهم إلىٰ الأرض لأمر لا يعلمه إبراهيم، ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ فما شأنكم.

﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ أي: أرسلنا الله عز وجل إلىٰ قوم كافرين بغوا وطغوا وأجرموا وأفسدوا، وكان من إفسادهم مع شركهم أنهم يأتون الذكران من العالمين ويذرون ما خلق لهم ربهم من أزواجهم، وهذا من أسوأ الفواحش وأعظم الذنوب وهو اللواط الذي عرفوا به وانتشر في عهدهم، وقد دعاهم لوط عليه السلام إلىٰ تركه فأبوا وعجبوا من دعوته لهم إلىٰ ترك هذا الأمر أمروا بإخراجه من قريته، كما قال تعالىٰ: : ﴿ أخرِجُوا آل لوطٍ من قريَتِكم إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتطَهَّرُونَ ﴾[النمل:٥٦]، وجعلوا يسخرون من المتطهرين ممن سلمه الله من هذه الفاحشة، وأما قول لوط عليه السلام: ﴿ قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾[الحجر:٧١]، فليس معناه: أنه دعاهم إلىٰ الزنا ببناته فالدياثة حرام ولوط رسول الله؛ لهم يكن لينهي عن أمر ويدعو إلىٰ الله، ولكن المراد عليكم بنسائكم وأضافهن إلىٰ نفسه؛ لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد ولكنهم أبوا، فجاءهم عذاب الله.

﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴾ وقال في موطن آخر: ﴿ مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ فالطين أصلها والسجيل ما آلت إليه، فترسل عليهم من فوق رؤوسهم فتؤدي إلىٰ هلاكهم.

﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ معدة ومعلمة، ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ للذين أسرفوا في الباطل وعتوا وتجبروا ولم يتوبوا من المعصية، وقصة مجيئهم إلىٰ لوط عليه السلام مذكورة في سورة الحجر وهود وغير ذلك من السور.

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهم لوط وبناته، فلم يكن علىٰ الإيمان في تلك القرية غيرهم.

﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ ﴾ أي: غير أهل بيت ﴿ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ دخلت امرأته في هذه الآية؛ لأنها كانت تظهر أنها علىٰ دين لوط وكانت خائنة ممالأة لقومها، فكان في القرية بيت من المسلمين، وأما الإخراج فلم يكن إلا للمؤمنين؛ لأن زوجته هلكت مع الهالكين.

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا ﴾ أي في إهلاكهم ﴿ آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ فيحذرون أن ينزل بهم مثلهم فقد دمر الله عليهم وجعل عاليها سافلها، فإذا أُخبر المؤمن بحال هؤلاء كانت له فيه آية وعظة، فينبغي للمسلم إذا سمع مثل هذا القصص أن يكون مبادرًا إلىٰ التوبة والإنابة والخوف من مكر الله وبطشه.

﴿ وَفِي مُوسَىٰ ﴾ أي: تركنا آية أخرىٰ في موسىٰ عليه السلام نبي بني إسرائيل، ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ فرعون مصر الذي ادعىٰ الربوبية وقال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ

الأَعْلَىٰ﴾[النازعات:٢٤]، ﴿ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ بحجة ظاهرة بينة، ومنها تسع آيات أشهرها العصا كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾[الإسراء: ١٠١]، وقال تعالىٰ: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾[الأعراف: ١٣٣]، ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾[الشعراء:٣٢-٣٣].

وَجَمعهَا الفيروزآباديّ فِي قَوْلِهِ:

عَصًا، سَنَةٌ، بَحْرٌ، جَرَادٌ، وَقُمَّلُ ... يَدٌ، وَدَمٌ، بَعْدَ الضَّفَادِعِ طُوفَانُ

﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ ﴾ أي: فرعون تولىٰ عن دعوة موسىٰ، ﴿ بِرُكْنِهِ ﴾ إلىٰ ملكه وقومه، ﴿ وَقَالَ سَاحِرٌ ﴾ أي: اتهم موسىٰ بالسحر، ﴿ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ وهذا قول أغلب المخالفين للرسل إذ أعييتهم الحج اتهموهم بالسحر والجنون.

ومما يدل علىٰ بطلان قوله أنه دعا سحرة مصر وكانوا من أشد الناس سحرًا، والتقوا بموسىٰ عليه السلام: فألقوا حبالهم وعصيهم فتحولت إلىٰ ثعابين، وهزموا كما قال تعالىٰ: ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ * قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَىٰ اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ * قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ * قَالُوا يَامُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ * قَالَ بَلْ

أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴾[طه:٦٠-٦٧]، لكثرة الثعابين والحيات فقال الله له: ﴿ لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَىٰ ﴾[طه:٦٨]، أنت المنتصر: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾[الشعراء:٤٥]، تلقف سحرهم وتلتهمه فعند ذلك علم السحرة أنما جاء به موسىٰ ليس بسحر، ولكنها آية عظيمة وحجة كبيرة، ولذلك سجدوا لله جميعًا في حال رؤيتهم لذلك الأمر.

كما قال تعالىٰ: ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾[الشعراء: ٤٦ – ٤٨]

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ ﴾ أي: أن الله أهلك فرعون وجنوده بعد كبرهم وغطرستهم حيث دعا عليهم موسىٰ عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾[يونس:٨٨]، فخرج موسىٰ عليه السلام بقومه من مصر فأتبعهم فرعون وجنوده: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَىٰ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾[الشعراء:٦١-٦٣]، فأنجىٰ الله عز وجل موسىٰ ومن معه أجمعين وأغرق فرعون في ذلك البحر الخضم وجعل فرعون يقول: ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[يونس:٩٠]، فكان الجواب: ﴿ آلآنَ ﴾[يونس:٩١]، أي: عند الغرغرة، ﴿ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[يونس:٩١]، وما جاء أن جبريل عليه السلام كان يلقمه

التراب حتىٰ لا يتمكن من النطق بالشهادة حديث منكر فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «لَمَّا قَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾[يونس: ٩٠] »، قَالَ: «قَالَ لِي جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ، لَوْ رَأَيْتَنِي وَقَدْ أَخَذْتُ حَالًا مِنْ حَالِ الْبَحْرِ، فَدَسَّيْتُهُ فِي فِيهِ، مَخَافَةَ أَنْ تَنَالَهُ الرَّحْمَةُ».

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أُلقِيوا في البحر حيث ضرب موسىٰ عليه السلام البحر فصار كالجبل العظيم قاعًا يابسًا فمر موسىٰ ومن معه، ثم تبعهم فرعون ومن معه، فلما توسطوا البحر وخرج موسىٰ وقومه أعاد الله عز وجل البحر كما كان فأصبحوا هلكىٰ فيه، كما قال: ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾[الشعراء: ٦٤ – ٦٦]، فلتكن في هذه القصة آية وعبرة للمعتبرين التائبين المنيبين.

﴿ وَفِي عَادٍ ﴾ أي ومن الآيات والعبر ما قصه الله في شأن عاد وهم سكان الأحقاف من بلاد حضرموت والمهرة وما إليها، قال الله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ﴾[الفجر:٦-٧]، فعاد من قوم إرم: ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾[الفجر:٧]، أي: أن بيوتهم كانت ذات أعمدة ليس معنىٰ ذلك أن هناك مدينة اسمها: ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾[الفجر:٧]، ويذكرون أنها تنتقل وأنها تُرىٰ في السماء هذا كله كذب، قال الله عز وجل: ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا الله إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[الأحقاف: ٢١].

﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ بسبب كفرهم حيث: ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾[الحاقة:٧]، متتابعات، ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾[الحاقة:٧-٨]، وكان مبدؤها أنهم أرسلوا قومهم إلىٰ مكة للاستسقاء فأخرج الله لهم ثلاث سحب فاختاروا السوداء فقيل: كوني ريحًا رمددًا لا تبقي من عاد أحدًا قال تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ﴾[الأحقاف:٢٤]، يعني: استبشروا: ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾[الأحقاف:٢٤-٢٥].

﴿ الْعَقِيمَ ﴾ قالوا هي الجنوب، وقيل هي ريح الدبور التي لا تدع شعابا ولا شجارًا، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم، أَنَّهُ قَالَ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ»، أخرجه مسلم (١٧).

﴿ مَا تَذَرُ ﴾ ما تترك ﴿ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ ﴾ مرت عليه مما تدمره الريح فقد تركت المساكن والجبال والوهاد وغير ذلك؛ ﴿ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ جعلته كالبناء المهدم الخاوي علىٰ عروشه.

فلما ذكر ما حل بعاد ثنىٰ بما حل بثمود: ﴿ وَفِي ثَمُودَ ﴾ وهم قوم صالح، ﴿ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ إلىٰ آجال بغير عذاب فأمهلهم وأملىٰ لهم، ولكنهم أبوا إلا الكبر والغطرسة ومخالفة أمر الله حيث قتلوا الناقة وعقروها كما قال الله عز وجل: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ

الله وَسُقْيَاهَا ﴾[الشمس:١١-١٣]، واتركوا ناقة الله واتكروا سقياها كما أمركم الله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾[الشمس:١٤]، عقرها واحد؛ لكنهم تمالؤوا معه وأقروه فكان العذاب عليهم جميعًا: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾[الشمس:١٤-١٥].

﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أي: تركوا وتمردوا عن أمر ربهم ووحيه، ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ لأنه أمهلهم ثلاث كما ذكر أهل التفسير، وهم يعلمون صدق حديثه ففي اليوم الأول اصفرت وجوهُهم وفي اليوم الثاني شحبت وجوههم واليوم الثالث اسودت وجوههم فجاءتهم الصاعقة وهم يتلفتون هاهنا وهاهنا ينتظرون ما توعدهم الله به، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴾[هود: ٦٥ – ٦٨].

﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا ﴾ أن يسلموا أنفسهم، ﴿ مِنْ قِيَامٍ ﴾ وهرب، ﴿ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴾ لأن الله عز وجل حاربهم وأهلكهم ودمدم عليهم، ولا يعجزه شيء.

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ أيضًا فيهم عبرة وآية، وهو أول رسول أُرسل إلىٰ أهل الأرض وبينه وبين آدم عشرة قرون من قبل هذه الأمم المذكورة في هذه الآية، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ ومن فسقهم أنهم لم يدخلوا في الإيمان مع كثرة دعوته لهم: ﴿

فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾[العنكبوت:١٤]، فأبوا إلا الكفر والعياذ بالله، فأرسل الله عليهم الطوفان ولم يسلم إلا من ركبوا السفينة، كما أخبر الله عز وجل في غير موطن.

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ ولما ذكر الله عز وجل قدرته النافذة وقوته القاهرة، وأنه لا يسلم منه إلا من سلمه الله بإيمانه وإحسانه أخبر أن السماء العظيمة بناها ربنا: ﴿ بِأَيْيدٍ ﴾ أي: بقوة، فليست الآيد بمعنىٰ اليد؛ لأن المعطلة زعموا أن يد الله بمعنىٰ قوة الله مستدلين بهذه الآية، قال ابن خزيمة: من لم يفرق بين الآيد يحتاج إلىٰ أن يذهب إلىٰ الكتاتيب ليتعلم لغة العرب، ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ أي: قد أوسعناها، وليس كما يقول أصحاب الهيئة الجديدة: أن السماء ما زالت تتوسع بما يسمونه بنظرية التمدد الكوني أو نظرية الانفجار العظيم، ويطلقون عليها نظرية "سوبر نوفا " فهذه نظرية بائرة قائمة علىٰ العقل والهوىٰ، وإلا فإن السماء قد بنيت ووسعت حين خلقها الله عز وجل.

﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا ﴾ ومن عظيم آياته أن الأرض فرشها أيضًا ومهدها، ﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ ليسهل المشي عليها والاستفادة منها، ﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ نعم الفعل أنه مهدها سبحانه وتعالىٰ وهو الموصوف بكل كمال.

ومن عجيب قدرته أنه: ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ ذكر وأنثىٰ، كقوله: ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ﴾[النجم: ٤٥]، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ يا معاشر الناس وتكون لكم في ذلك عبرة للإيمان بالرب القادر القاهر الواحد.

﴿ فَفِرُّوا إِلَىٰ الله ﴾ بطاعته، فكل من خفته تفر منه إلا الله، فإذا أردت السلامة حقًا ففر إليه، لا ملجا ولا منجىٰ منه إلا إليه، ويكون الفرار إليه بالطاعة والتوبة والإيمان، ﴿ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ يقول: يا محمد ادعهم إلىٰ الفرار إلىٰ الله وأخبرهم أنك مرسل من الله نذير تنذرهم بطش الله وعذاب الله عز وجل، ﴿ مُبِينٌ ﴾ بكلام واضح وحجة ظاهرة.

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ الله إِلَهًا آخَرَ ﴾ إياكم والشرك والتنديد، لا تجعلوا مع الله ما يعبد لا ملكًا مقربًا ولا نبي مرسلًا، ﴿ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ تأكيد لما جاء به محمد صلىٰ الله عليه وسلم من النذارة والبشارة.

مع ذلك: ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي كما كذبك قومك وقالوا ساحر أو مجنون ﴿ مَا أَتَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ وهؤلاء سلكوا نفس المسلك فزعموا أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم: ﴿ سَاحِرٌ ﴾ يتعاطىٰ السحر، ﴿ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ لا يعقل ما يقول ولا يدرك شيء من الأفعال، وهذا من قبيح ظلمهم وإلا فالنبي صلىٰ الله عليه وسلم أعظمهم عقلًا وأزكاهم حالًا؛ وبينهما المجنون تصدر منه الأفعال القبيحة والمخالفة للعقل وكان صلىٰ الله عليه وسلم يسمىٰ بالصادق الأمين، وكانوا يتحاكمون إليه.

﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ ﴾ أي: بهذه التهمة وصىٰ الأول الآخر، ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ فتشابهت قلوبهم وأقوالهم اجتمعوا في الطغيان وهو مجاوزة الحق إلىٰ الباطل نعوذ بالله من الإجرام.

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ يا محمد اتركهم وشأنهم، وهذا قبل أن يؤمر بقتالهم حيث قال الله عز وجل: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[التوبة: ٢٩]، ﴿ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ لست بمعاب علىٰ تركك لهم؛ لأنك إنما أمرت بتذكيرهم ودعوتهم ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[الذاريات:٥٥]، أما الكافر: ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[يونس:١٠١]، يعني: الذكرىٰ والموعظة والآية والحجة إنما ينتفع بها من كان في قلبه حياة من ﴿ أَلْقَىٰ السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[ق:٣٧]، وأما الكافر المعرض فكلما وعظته زاد كفرًا وبغيًا، ولذلك أمر الله نبيه أن لا يهلك نفسه بعدم إسلامهم: ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾[فاطر:٨].

ثم أخبر الله عز وجل عن الحكمة من خلق الخلقية: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ ﴾ وهم خلق مكلف خلقهم الله من نار، ومنهم المسلمون ومنهم الكافرون، ﴿ وَالإِنسَ ﴾ وهم بنو آدم، ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ليوحدوا الله عز وجل.

﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ ﴾ أي: لم أخلقهم ليرزقوني فـ ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾[الذاريات:٥٨]، ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ﴾ لأن الله يُطِعم ولا يُطعم، وهذا دليل علىٰ غنىٰ الله المطلق.

وفي حديث أبي ذر في مسلم (٥٥) عَنِ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم، فِيمَا رَوَىٰ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ

مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ، إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ».

﴿ إِنَّ اللهَ ﴾ سبحانه وتعالىٰ القوي في علاه، ﴿ هُوَ الرَّزَّاقُ ﴾ اسمه الرزاق، والرزاق: هو الذي يُعطي وهذا مبالغة في العطاء، ﴿ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ وفي قراءة عبد الله بن مسعود: (إني أنا الرزاق ذو القوة المتين)، أخرجه أحمد ذي القوة: أي: صاحب القوة، المتين: صاحب المتانة وهي قرينة بمعنىٰ القوة.

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ كفروا، ﴿ ذَنُوبًا ﴾ يعني: هلاكًا وخزيًا وبوارًا، وقيل الذَّنوب السجل، وقيل الحظ والنصيب ﴿ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ ﴾ مثل الذي حل

بالأمم السالفة السابقة التي سلكت طريقهم، ﴿ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ لعذاب الله وبطشه فإن الله يملي ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[هود:١٠٢] وفي حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه عند مسلم (٦١) قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُمْلِي لِلظَّالِمِ، فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، ثُمَّ قَرَأَ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ، إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ».

﴿ فَوَيْلٌ ﴾ إخبار عن حال الكافرين يوم القيامة وأن لهم عذاب موجع، ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أعرضوا وتمردوا علىٰ شرع الله، ﴿ مِنْ يَوْمِهِمُ ﴾ أي: في يومهم، ﴿ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ يوم القيامة.

قال صخر الغي:

لعمـــرك والمنايـــا غالبـــات ولا ينهـــي طوارقهـــا الحمامـــا

والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الطور

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الطور مكية، وفي حديث أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّهَا مَرِضَتْ، فَأَمَرَهَا رَسُولُ الله - صلىٰ الله عليه وسلم - أَنْ تَطُوفَ مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ وَهِيَ رَاكِبَةٌ، قَالَتْ: فَرَأَيْتُ رَسُولَ الله - صلىٰ الله عليه وسلم - يُصَلِّي إِلَىٰ الْبَيْتِ وَهُوَ يَقْرَأُ: ﴿ وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾ [الطور: ١ - ٢]، وعن جبير رضي الله عنه: لَمَّا سَمِعْتُ النبي صلىٰ الله عليه وسلم يَقْرَأُ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[الطور: ٣٥ - ٣٨] كَادَ قَلْبِي يَطِيرُ» أخرجه ابن ماجه.

﴿ وَالطُّورِ ﴾ أقسم الله بالطور وهو الجبل المغطىٰ بالشجر، فإن لم تكن عليه أشجار سمي جبلًا، ولا يلزم أنه جبل الطور الذي أوحىٰ الله فيه إلىٰ موسىٰ وعيسىٰ.

﴿ وَكِتَابٍ ﴾ قيل: اللوح المحفوظ التي كتبت فيه أعمل العباد، وقيل: الكتب المنزلة علىٰ أنبياء الله ورسوله، ﴿ مَسْطُورٍ ﴾: مكتوب.

﴿ فِي رَقٍّ ﴾ ورق، ﴿ مَنْشُورٍ ﴾ مفتوح واضح وقال الحسن: القرآن في أيدي السفرة.

﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ هو كالكعبة في الأرض إلا أنه في السماء السابعة، وقيل: بأن في كل سماء بيتًا يتبعد به ملائكة الله، وقد جاء في شأن البيت العمور: أنه يطوف

به كل يوم سبعون ألف ملك آخر عليهم، وقد رأىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم إبراهيم عليه السلام مسندًا ظهره إلىٰ البيت المعمور؛ كما في قصة المعراج، وذكروا في الحكمة من إسناد إبراهيم ظهره إلىٰ البيت المعمور أنه عمر الكعبة في الأرض فأكرمه الله بهذه الكرامة في الجنة، ويذكرون في السماء الدنيا بيت العزة: وهو الذي أنزل إليه القرآن جملة ثم نزل مفرقًا، ولا يخالف هذا من أن الله تكلم الله به متىٰ شاء كما هو عقيدة أهل السنة والجماعة.

﴿ وَالسَّقْفِ ﴾: السماء بينها وبين الأرض خمسة مائة عام، ﴿ الْمَرْفُوعِ ﴾ بغير عمد كما قال الله عز وجل: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾[الأنبياء:٣٢].

﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ البحر المحترق يوم القيامة، وقيل: الممتلئ، وقيل: الساكن وفي تفسير علىٰ البحر المسجور في السماء والصحيح الأول كقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾[التكوير: ٦]، وقيل غير ذلك، فأقسم الله عز وجل بهذه الآيات العظيمات علىٰ قوله.

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ مؤكد لوقوعه الذي لا ريب فيه بالكافرين، قال تعالىٰ: ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾[المعارج:١-٢]، وسيكون ذلك في يوم القيامة ﴿ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ يدفعه من الله فلا يستطيع أن يرده راد، إذ لا قوة لأحدهم علىٰ دفعه ولا قدرة علىٰ رفعه إلا لمن نجاه الله منه.

وسيكون هذا العذاب واقع بهم: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ أي: في يوم القيامة، يوم تذهب السموات وتتشقق، وتطوىٰ في يمين الرحمن: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾[التكوير:١-٢]، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾[الانشقاق:١-٢].

﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ هذا في مبدأ شأنها وإلا فإن الجبال لها حالات: الأول: أنها تسير، والثاني: أنها تكون كالعهن المنفوش، أي الريش المبدد في الهواء، والثالث: أنها تكون كسراب الجبال ولا جبال، والرابع: أن الأرض تكون كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد، كما قال تعالىٰ: ﴿لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا﴾[طه:١٠٧].

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: في هذا اليوم لهم عذاب شديد موجع.

وتكذيبهم بأنهم: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ يخوضون في شأن اليوم الآخر مكذبين ورادين لخبر النبي صلىٰ الله عليه وسلم، وسيأتي اليوم الذي لا لعب فيه وتنزل لهم الحسرات، كما قال تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾[الأعراف:٥٣].

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ أي: يدفعون دفعًا إلىٰ النار تدفعهم الملائكة، أما أهل الإيمان فإنهم يدخلون كالوفد، مكرمين معززين، قال الله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾[مريم:٨٥-٨٦]، لإهانتهم وخزيهم.

وتقول لهم الملائكة حين دفعهم: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، وخبر رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم تردون، ويقع في هذا اليوم أنواع من التكبيتات، قال

تعالىٰ: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[الزمر: ٧١- ٧٢].

﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا ﴾ يقال لهم هذا على الاستفهام الانكاري، ﴿ أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ ﴾ حقيقة واقعة.

﴿ اصْلَوْهَا ﴾ يعني النار والمعنىٰ ادخلوها تحيط بكم، ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا ﴾ لا يتغير من حالها شيء، ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ كقوله: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾[إبراهيم: ٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾[البقرة:١٧٥]، ليس بأنهم يصبرون على شدتها؛ ولكنهم يتعذبون ولا مخرج منها؛ لأن الله عز وجل يقول وقوله الحق: ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ﴾[المؤمنون:١٠٨]، ومن الذي يستطيع أن يرد أمر الله وحكمه في ذلك اليوم العظيم المشهود نسأل الله السلامة.

﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ ﴾ بهذا العذاب الأليم، ﴿ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بالذي كنتم تعملون في الدنيا من الشرك والبدع وما إليها.

فلما أخبر الله عز وجل عن حال الكافرين وما نالهم من الخزي العظيم أخبر عن حال المؤمنين وما لهم من الكرامة، فقال: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ والمتقون: هم الطائعون لله بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿ فِي جَنَّاتٍ ﴾ جمع جنة، ﴿ وَنَعِيمٍ ﴾

يتنعمون فيها بما لذ وطاب من المآكل، والمشارب، والمناكح، والمراكب وغير ذلك: «فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ» متفق عليه.

﴿ فَاكِهِينَ ﴾ مسرورين والمعنىٰ أنهم في سرور وبهجة، ﴿ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ من فضله العظيم إذ أنها: ﴿ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴾[الواقعة:٣٣]، ﴿ وَوَقَاهُمْ ﴾ ومن أسباب فرحهم وسرورهم بأن ربهم سبحانه وتعالىٰ جنبهم وسلمهم من: ﴿ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ عذاب النار الموجع، ففرحهم بأمرين: كثرة النعم الدائرة عليهم، والسلامة من عذاب الله وغضبه وبطشه، ولذلك جاء في حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ صلىٰ الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ الله يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَىٰ؟ يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»، أخرجه مسلم (٩).

ثم يقول لهم ممتنًا عليهم: ﴿ كُلُوا ﴾ يا معاشر أهل الجنة، ﴿ وَاشْرَبُوا ﴾ ما شئتم من الأشربة،﴿ هَنِيئًا ﴾ تتهنؤون به ولا تجدون فيه غصة، ولا ما يُسِيء: ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بسبب أعمالكم الصالحة من التوحيد وملازمة السنة والطاعة.

﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ أي: أن أهل الجنة يتأكلون في الجنة: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ ﴾ متراصة يلتقي بعضهم مع معض إذا أرادوا الحديث والمنادمة كما كانوا يتنادمون في الدنيا فيذكرون نعيم الله عليهم: ﴿ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ الحور البيض كما

قال الله عز وجل: ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾[الصافات: ٤٩]، والعين عظام العيون، والمعنىٰ أن الله أكرمهم بزوجات من الحور العين يرىٰ مخ ساقيها من وراء اللحم، شأنهن عظيم يغنين للمؤمنين ولا يؤذينهم، بل من شأنهن الآن: «لَا تُؤْذِي امْرَأَةٌ زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ: لَا تُؤْذِيهِ قَاتَلَكِ اللهُ؛ فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكِ دَخِيلٌ يُوشِكُ أَنْ يُفَارِقَكِ إِلَيْنَا»، والحور العين هو نشأ يُنشِئُهُ الله وليست من بنات آدم ولا من الجن، يتنعم به أهل الإيمان، وقد جاء بأن للشهيد اثنتين وسبعين حورية، إلىٰ غير ذلك، وبشر الله المؤمنين بإخباره بحال ذرياتهم: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ هذا خبر من الله عز وجل ببركة الآباء علىٰ الأبناء إذا كانوا طائعين ولربهم موحدين، وبدين الله عز وجل متمسكين، ولسنة النبي صلىٰ الله عليه وسلم متابعين، فإن الله عز وجل يكرمهم يوم القيامة بالدرجات العلىٰ والنعيم المقيم، ثم لكرامتهم عند الله يرفع إليهم أبنائهم، فلا ينزل من درجته العليا إلىٰ أبناءه، وأما بركة الأبناء علىٰ الآباء فقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند أحمد: «إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَيَرْفَعُ الْعَبْدَ الدَّرَجَةَ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَنَّىٰ لِي هَذِهِ الدَّرَجَةُ؟ يَقُولُ: بِدُعَاءِ وَلَدِكَ لَكَ»، وجاء عن مسلم بنحوه: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ»، وفي الحديث أيضًا: «إِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَىٰ صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ، فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟، فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ، فَيَقُولُ لَهُ: أَنَا

صَاحِبُكَ الْقُرْآنُ، الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي نَهَارِكَ وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ، قَالَ: فَيُعْطَى الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ، وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَىٰ رَأسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَىٰ وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ، لَا تَقُومُ لَهُمَا الدُّنْيَا، فَيَقُولَانِ: بِمَ كُسِينَا هَذِهِ؟ فَيُقَالُ لَهُمَا: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ»، فبركة الآباء علىٰ الأبناء إن كانوا من أهل الصلاح والفلاح عظيمة يشفعون لهم يوم القيامة، ويرفعون بسببهم، وأما في الدنيا فبركتهم بتعليمهم وتوجيههم والدعاء لأبنائهم والسعي في صلاحهم، وبركة الأبناء علىٰ الآباء في الدعاء والبر والاستغفار لهم وإجراء الصدقات الجارية عليهم، فهنيئًا لمن كان هذا حاله، وهكذا القول في الآباء إذا كانت درجتهم دون الأبناء.

فيقول الله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ ﴾ بهذا القيد، لو كان الابن كافرًا ما انتفع بدعاء أبيه كما قال الله عز وجل: ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾[المدثر:٤٨]، ولو كان الأب كافرًا ما انتفع بدعاء ابنه كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾[التوبة:١١٤]، ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أي: في درجاتهم العلىٰ، ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ ﴾ ما أنقصناهم، ﴿ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ بل يوفون أعمالهم كما هي وزيادة، كل امرئ من الآباء والأبناء ﴿ بِمَا كَسَبَ ﴾ عمل، ﴿ رَهِينٌ ﴾ مرتهن، فيجازىٰ المؤمن بإيمانه والمسيء بإساءته، إذا كان بالشرك وإن كانت إساءته دون الشرك فهو تحت المشيئة.

﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ ﴾ أي: أهل الجنة جميعًا، ﴿ بِفَاكِهَةٍ ﴾ من أنواعها لم يحددها بنوع دون نوع، ﴿ وَلَحْمٍ ﴾ من أنواع اللحوم، ﴿ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ ما اشتهوه من الفواكه واللحوم جاءهم.

﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا ﴾ أي: يتعاطون وينزعون الكؤوس من الخمور فيشربونها ويتلذذون بها: ﴿ لا لَغْوٌ فِيهَا ﴾ أي: لا تسكر ولا تذهب العقول، ﴿ وَلا تَأْثِيمٌ ﴾ لا يقع بسبب شربهم لها التأثيم من الكلام الفاحش والفعل السيء؛ بل إنهم محفوظون من ذلك؛ لأن الجنة حالها سلام في جميع شأنها، كما قال تعالىٰ: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴾[الصافات: ٤٧]

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ بأنواع نعيم الجنة من المشارب والمآكل، ﴿ غِلْمَانٌ لَهُمْ ﴾ عبيد فمن كرامتهم أن الله سخر لهم غلمان كثر يطوفون علىٰ المؤمنين لا يعصونهم في أمرهم، قال تعالىٰ: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا﴾[الإنسان: ١٩]، ومن عظيم شأنهم: ﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ ﴾ في بياضه وحسن بهائه، ﴿ مَكْنُونٌ ﴾ محفوظ، وذهب بعض المخاذيل الذين لا يلتفت إلىٰ قولهم: أن هؤلاء الغلمان يستخدمون في شيء مستقبح: ﴿ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[المنافقون:٤]، فقد خلق الله لأصحاب الجنة الحوريات والأزواج من الإنسيات للتمتع بهن في شأن المعاشرة، وفي الحديث : «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَصِلُ فِي الْيَوْمِ إِلَىٰ مِائَةِ عَذْرَاءَ»، وأما الغلمان إنما يطوفون علىٰ أهل الجنة بالأكواب والآنية ونحو ذلك.

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي: أهل الجنة أقبلوا إلىٰ بعضهم ممن كانوا يتعارفون في الدنيا، ﴿ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ عما كانوا عليه في الدنيا من خوف الله ورجاء رحمته.

﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ خائفين من بطش رب العالمين، ومن عذابه المهين.

﴿ فَمَنَّ الله عَلَيْنَا ﴾ بالسلامة منه، وهذه أعظم المنن وأكرم العطايا والكرم، ﴿ وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ نجانا من العذاب الشديد الحار الموجع.

﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ أي: كان هجير المؤمنين في الدنيا، وفي هذا بركة الدعاء فإن الله عز وجل يقول: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[غافر:٦٠]، ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ يتوسلون إلىٰ الله بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ، يتوسلون إليه ببره ورحمته بالمؤمنين أن ينجيهم من عذاب الله فاستجاب الله لهم إذ أن الله يقول: ﴿ وَلله الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾[الأعراف:١٨٠].

فلما ذكر الله عز وجل شأن الكافرين والمؤمنين في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتىٰ الله بقلب سليم قال: يا محمد: ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ بدعوة الناس إلىٰ التوحيد والتحذير من الشرك والتنديد، ﴿ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ في دين ربك، ﴿ بِكَاهِنٍ ﴾ يدعي علم المغيبات ويتعاطىٰ السحر والشعوذات كما يقول الكفار، ﴿ وَلا مَجْنُونٍ ﴾ بل أنت رسول من رب العالمين.

وقد قال الله عز وجل: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾[الغاشية: ٢١]، ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴾[الأعلىٰ: ٩]، ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[ق: ٤٥].

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ أي: الكفار حيث اختلفوا في محمد صلىٰ الله عليه وسلم فقائل يقول: ﴿ شَاعِرٌ ﴾ مع أن الله عز وجل يقول: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾[يس:٦٩]، وقال أُنيس: «لقد عرضت كلامه علىٰ أحسن الشعر فما رأيته يستقيم عليه» أخرجه مسلم ؛ لكنهم اختلفوا في ذلك، قال الشاعر:

أمن المنون وريبه تتوجع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع

﴿ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ حوادث الدهر والمعنىٰ ننتظر حتىٰ يموت ونرتاح من شره كما مات الشعراء الذين قبله وتفرق أصحابهم وأتباعهم، وهذا من شدة تخرصهم.

﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا ﴾ إن كنتم تعتقدون ذلك انتظروا موته، ﴿ فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ لنرىٰ من يلحقه الذل والهوان، وفعلًا أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم تربص بهم حتىٰ قتلهم الله في بدر وأقر عينه بهلاكهم ودفنهم.

﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهَذَا ﴾ والمعنىٰ بل تأمرهم عقولهم السخيفة بهذا القول السيء؛ بأنه شاعر وكاهن ومجنون والفعل السيء وهو التكذيب، ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ بل هم قوم طاغون اشتد طغيانهم، والطغيان: هو المجاوزة، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَىٰ الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾[الحاقة:١١]، وهذه مسبة لقريش؛ فقد كانوا يسمون بأهل الأحلام والعقول، فلما جاءهم محمد صلىٰ الله عليه وسلم

بالدين القويم والصراط المستقيم عجزوا عن معرفة الحجج الإلهية، وعارضوها بالهوىٰ.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ﴾ وهذا قول آخر يقولونه: ما هذا القرآن إنما تلقاه من غيره وتقوله علىٰ لسانه، وقد قال الله عز جل رادًا هذه المقولة: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾[الحاقة:٤٤-٤٦]، أي: لو كان كاذبًا علىٰ الله لأهلكه الله ثم ذكر السبب الذي جعلهم يضطربون، ﴿ بَل لا يُؤْمِنُونَ ﴾ والسبب الذي جعلهم يقولون هذه الأقوال: أنهم لا يؤمنون بالله عز وجل ربًا ولا بمحمد صلىٰ الله عليه وسلم نبيًا فإن زعموا أنه شاعر أو كاهن أو غير ذلك، ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ﴾ مثل القرآن كما قال الله عز وجل: ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾[البقرة:٢٣]، ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾[هود:١٣]، وقد عجزوا: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[الإسراء:٨٨]، ﴿ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ ولكن الواقع أنهم كاذبون.

ثم قال الله عز وجل مبينًا في هذا المقام اثبات الربوبية وتوحيد الألوهية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا ﴾ أي: أُوجِدوا: ﴿ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ أي: موجد، ﴿ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ أي: أوجدوا أنفسهم وكلاهما منتفي، فانتفاء وجودهم بدون خالق معلوم ضرورة، وانتفاء أنهم خالقون معلوم ضرورة، فكيف يكون خالقًا وهو يأكل ويشرب، ويبول

ويتغوط، ويمرض ويموت ويهلك بل عاجز عن نفع نفسه وضرها، وإن كان المعنىٰ الأصنام، فمن باب أولىٰ فهي حجارة صماء بكماء ميتة.

﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ نبئوني عن هذه الآلهة التي تعبد من دون الله هل خلقت السموات والأرض؟ أم أنهم يصنعونها مما خلقها الله، فيصنعونها من حجارة صماء، ويرسمونها ويصورونها بعقولهم السيئة ثم يعبدونها، وهذا إنكار عليهم، ﴿ بَل لا يُوقِنُونَ ﴾ أي: سبب كفرهم عدم إيقانهم، وقيل لا يوقنون بالبعث.

﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ﴾ أي: هل عندهم رزق الله يتحكمون ويتصرفون في عباد الله، أم أن النبوة تكون لفلان وفلان، كما قال تعالىٰ: ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[الزخرف:٣١]، والجواب: ليست عندهم خزائن الله، وإنما الله يصطفي من شاء قال تعالىٰ: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾[القصص:٦٨]، أم عندهم خزائن الماء يسقون من أردوا ويمنعون من أرادوا؟ ما عندهم شيء من ذلك، ﴿ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴾ أي: المحاسبون للخلائق والمتحكمون في شأن العالم العلوي والسفلي، وليس الأمر كذلك.

﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ أم لهم دروج يرقون ويصعدون عليه، فقوله فيه بمعنىٰ عليه كقوله: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾[طه:٧١]، عليه للوحي المبين، ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ بحجة ظاهرة علىٰ قولهم وشركهم ولا حجة

لهم، فإن الجني الذي يسترق السمع يخلط معها مائة كذبة، فأي حجة وأي سلطان؟

فعن عَائِشَةُ رضي الله عنها قالت: سَأَلَ أُنَاسٌ رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم عَنِ الْكُهَّانِ؟ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «لَيْسُوا بِشَيْءٍ» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحْيَانًا الشَّيْءَ يَكُونُ حَقًّا، قَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْجِنِّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ، فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ، فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ»، أخرجه مسلم.

ثم قال منكرًا عليهم فيما نسبوه له من البنات: ﴿ أَمْ لَهُ ﴾ لله: ﴿ الْبَنَاتُ ﴾ كما زعموا: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾[الزخرف:١٩]، ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[النحل:٥٨]، ﴿ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾[النجم:٢٢]، وهذا تهديد لهم في قولهم ذلك.

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ ﴾ يا محمد علىٰ هذه الدعوة التي تدعوهم إليها، ﴿ أَجْرًا ﴾ مالًا، ﴿ فهم مِنْ مَغْرَمٍ ﴾ من شدة ما أنزلت عليهم من طلب الأموال: ﴿ مُثْقَلُونَ ﴾ أبوا أن يدخلوا في دين الله عز وجل، ومعلوم أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قد قال الله عنه: ﴿ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾[محمد:٣٦-٣٧]، ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[ص:٨٦].

﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ ﴾ أم عندهم الغيب بأن الذي أتاهم به محمد صلىٰ الله عليه وسلم ليس بحق ولا صدق، ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ فهم يحكمون بذلك؛ لأن الكتابة

تأتي بمعنىٰ الحكم، وليس الأمر كذلك، فإنه لا يعلم أحد ما في السماوات وما في الأرض إلا الله.

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ﴾ وهذا هو الواقع، أنهم يريدون بهذا القول كيدًا بمحمد صلىٰ الله عليه وسلم ودينه وأصحابه، فيتربصون بهم لصدهم عن الاستقامة، ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ أي: كيدهم يقع عليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾[الطارق:١٥-١٧]، فأظهر الله عز وجل في هذا الموطن ضعف حججهم وكثيرة تخبطهم وعظيم نصره لنبيه محمد صلىٰ الله عليه وسلم.

ثم قال: ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ ﴾ وهذا إنكار شديد عليهم في عبادتهم الأصنام والأوثان فإن الله لا يرضىٰ أن يكون معه شريك، ﴿ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ينزه الله عن مشاركتهم له، فهذا غاية الإجرام والعصيان، ساووا الحجارة الصماء البكماء العاجزة برب العالمين، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴾[الشعراء:٩٨-٩٩].

ولشدة عداوتهم وإعراضهم أنهم لو رأوا: ﴿ كِسْفًا ﴾ قطعة، ﴿ مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا ﴾ لعذابهم كما قالوا: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[الشعراء: ١٨٧]، فـ: ﴿ يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴾ ما يؤمنوا أنه عذاب، وهذا من المكابرة الشديدة، فالمكابر إذا قلت له: هذا أبيض يقول: أسود، هذا ليل يقول: نهار، فهؤلاء لو رأوا العذاب ساقط عليهم من السماء: ﴿ يَقُولُوا سَحَابٌ

مَرْكُومٌ ﴾ كما قال أصحاب عاد: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[الأحقاف:٢٤].

﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ يا محمد، اتركهم وشأنهم، ﴿ حَتَّى يُلاقُوا ﴾ يعاينوا، ﴿ يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ يموتون ويهلكون.

﴿ يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ أي: لا تغني عنهم آلهتهم، وكثرتهم، وأموالهم، وكيدهم شيئًا من أمر الله عز وجل ﴿ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ أي: يمنعون من الموت والهلاك بل هم مهزومون مركوسون.

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أشركوا وكفروا، ﴿ عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ بالقتل وغيره في الدنيا، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[السجدة:٢١]، يسلبون الإيمان ويحرمون الهداية وهذا أعظم عذاب الدنيا: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾[الأنعام:١٢٢]، فهو ميت إذ لم يؤمن.

﴿ دُونَ ذَلِكَ ﴾... أقرب من ذلك وقبل القيامة، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ لشدة إعراضهم وغفلتهم.

﴿ وَاصْبِرْ ﴾ يا محمد، ﴿ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ لقضائه وقدره، ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي: نرىٰ ما تصنع وما يصنع بك، مع أن الله عز وجل علىٰ عرشه استوىٰ، وفيه: إثبات صفة العينين لله وهما عينان حقيقيتان تليق بجلاله يبصر بهما، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾[النساء:١٣٤]، وقال عز وجل: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾[طه:٤٦].

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ نزه ربك وصلي له: ﴿ حِينَ تَقُومُ ﴾ من النوم، وهي صلاة الفجر والعشاء، ويدخل فيه ما جاء عن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم كان إذا قام من النوم سبح عشرة، وحمد عشرة، وكبر عشرة، وهلل عشرة».

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ صلاة المغرب وقيام الليل، ﴿ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ قيل: هما ركعتا الفجر كما هو قول غير واحد من السلف.

فالشاهد: أن الإنسان عليه أن يعتصم بالله ويصبر علىٰ أقداره وقضائه ويلتزم طريقة رسوله صلىٰ الله عليه وسلم في تبليغ دينه والعمل بالعلم ويبشر من الله عز وجل بالنصر العظيم والحفظ من كل شيطان رجيم، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة النجم

بسم الله الرحمن الرحيم

مكية، وقد سجد النبي صلىٰ الله عليه وسلم فيها وسجد معه كل مؤمن وكافر فعَنْ عَبْدِ الله قَالَ: أَوَّلُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ وَالنَّجْمِ قَالَ: فَسَجَدَ النبي صلىٰ الله عليه وسلم وَسَجَدَ مَنْ خَلْفَهُ، إِلَّا رَجُلًا رَأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِرًا وَهُوَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ متفق عليه، قال ابن كثير: وَقَوْلُهُ فِي الْمُمْتَنِعِ إِنَّهُ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ مُشْكِلٌ، فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الطَّرِيقِ أَنَّهُ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ.

وأما ما جاء عن ابن عباس أن النبيَّ - صلىٰ الله عليه وسلم - لمَّا قرأ: ﴿ وَالنَّجْمِ ﴾ فلما بلغ: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴾[النجم:١٩-٢٠]، ألقىٰ الشيطان علىٰ لسانه: "تلك الغرانيق العلىٰ * وإن شفاعتهن لترتجىٰ". فقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم، فسجد وسجدوا، فنزلت هذه الآية: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَىٰ الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ الله مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ الله آيَاتِهِ وَالله عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ *

وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الله لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[الحج: ٥٢ – ٥٤].

وللشيخ الألباني رحمه الله مؤلفا في ذلك بعنوان: (نصب المجانيق في نسف قصة الغرانيق)، وعلىٰ القول بثبوت القصة في الجملة لم يكن المتكلم رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وإنما الشيطان فبين الله ما يتعلق بذلك وللقاضي عياض في كتاب الشفاء (٢ / ٧٥٠) كلام حول نقض هذه القصة فيقول: (فاعلم أكرمك الله أن لنا في الكلام علىٰ مشكل هذا الحديث مأخذين:

المأخذ الأول: يكفيك أن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، والمتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم.

المأخذ الثاني: فهو مبني علىٰ تسليم الحديث لو صح، وقد أعاذنا الله من صحته ولكن علىٰ كل حال فقد أجاب علىٰ ذلك أئمة المسلمين بأجوبة منها الغث والسمين. انتهىٰ

ومن هذه الأجوبة قول البغوي في تفسيره (٥/ ٣٩٤): قَدِ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الْجَوَابِ عَنْهُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الرَّسُولَ صلىٰ الله عليه وسلم لَمْ يَقْرَأْ، وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ ذَكَرَ ذَلِكَ بَيْنَ قِرَاءَتِهِ، فَظَنَّ الْمُشْرِكُونَ أَنَّ الرَّسُولَ قَرَأَهُ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: أَغْفَىٰ النَّبِيُّ صلىٰ الله عليه وسلم إِغْفَاءَةً فَجَرَىٰ ذَلِكَ عَلَىٰ لِسَانِهِ بِإِلْقَاءِ الشَّيْطَانِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ خَبَرٌ.

وَالْأَكْثَرُونَ قَالُوا: جَرَىٰ ذَلِكَ عَلَىٰ لِسَانِهِ بِإِلْقَاءِ الشَّيْطَانِ عَلَىٰ سَبِيلِ السَّهْوِ وَالنِّسْيَانِ وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ نَبَّهَهُ الله عَلَيْهِ.

وَقِيلَ: إِنَّ شَيْطَانًا يُقَالُ لَهُ أَبْيَض عَمِلَ هَذَا الْعَمَلَ، وَكَانَ ذَلِكَ فِتْنَةً وَمِحْنَةً مِنَ الله تَعَالَىٰ يَمْتَحِنُ عِبَادَهُ بِمَا يَشَاءُ. انتهىٰ

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ أقسم الله عز وجل بالنجم، وله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته فالأمر أمره: ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾[الأنبياء:٢٣]، أما العبد فلا يجوز له أن يقسم إلا بالله كما قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ»، فهنا يقول: ﴿ وَالنَّجْمِ ﴾ عموم النجم، ﴿ إِذَا هَوَىٰ ﴾ إذا رُمي به الشياطين وسقط، وقيل: بأن المراد بالنجم الثريا، والذي يظهر العموم، وقيل القرآن إذا نزل والأول أظهر.

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ هذا هو المقسم عليه: أن محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم لم يكن ضالًا في نفسه ولا مضلًا لغيره؛ بل أخبر الله عز وجل بهدايته له فقال تعالىٰ: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾[الضحى:٧]، هداه بالوحي المنزل عليه، وقوله: ﴿ مَا ضَلَّ ﴾ أي: ليس بضال: وهو الجاهل الذي يسلك علىٰ غير طريق العلم، وقوله: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ أي: لم يكن داعيًا بجهل وعدم علم كما هو صنيع النصارىٰ، ﴿ وَمَا غَوَىٰ ﴾ هو العلم يترك العمل بعلمه، فمحمد صلىٰ الله عليه وسلم لم يكن ضالًا ولا غاويًا عن الحق الذي أوحاه الله إليه كما هو صنيع اليهود، فإن ضلال النصارىٰ من جهة عملهم بغير علم، وزيغ اليهود بسبب تركهم للعمل بالعلم، بينما

النبي صلىٰ الله عليه وسلم منزه عن الضلالة والغواية، بل هو الداعي إلىٰ طريق الحق والهداية.

ومن شأنه صلىٰ الله عليه وسلم: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ لا يتكلم بمجرد هواه ورغبته، وإنما يتكلم بما أوحاه الله إليه، ولذلك ذكر قوله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾[المائدة:٦٧]، وقوله عز وجل: ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا الله مُبْدِيهِ وَتَخْشَىٰ النَّاسَ وَالله أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾[الأحزاب:٣٧].

وفيه أيضًا: أن السنة وحي من الله عز وجل كالقرآن، فدلالة السنة كدلالة القرآن؛ بشرط ثبوتها وعدم نسخها، وهذه الآية من أقوىٰ الآيات الدالة علىٰ رد الدعوة القرآنية حيث تزعم الاكتفاء بالقرآن حيث أخبر الله بوجوب متابعة النبي صلىٰ الله عليه وسلم وبعصمته عن القول علىٰ الله بغير علم، وأخبر بهدايته إلىٰ أقوم السبل وأزكىٰ الطرق.

والمعنىٰ أن الذي يبلغكم إياه وحي من الله بواسطة جبريل عليه السلام، قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ الله إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾[الشورىٰ:٥١].

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾ أي: الذي علم محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم هذا الوحي: ﴿ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾ وهو جبريل عليه السلام، وقد قال الله عز وجل فيه: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾[التكوير:١٩-٢٠].

﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴾ أي: ذو قوة وشدة في خلقه وقيل: ذو مرة أي: منظر حسن، وهو خلق جميل رآه النبي صلىٰ الله عليه وسلم وله ستمائة جناح قد سد بعظم خلقه ما بين السماء والأرض، ومما يدل أن المرة بمعنىٰ: القوة، قول النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ، وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ»، أي: قوي، ﴿ فَاسْتَوَىٰ ﴾ أي: علىٰ كرسيه بين السماء والأرض حين رآه، وقيل: استوىٰ علىٰ السموات حيث رآه ليلة المعراج.

ثم ذكر المكان الذي رآه فيه: ﴿ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ ﴾ أي: حيث عرج بمحمد صلىٰ الله عليه وسلم إلىٰ حيث شاء الله من العُلىٰ، فإنه أسري به من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ الأَقْصَىٰ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الإسراء:١]، ثم عرج به من المسجد الأقصىٰ إلىٰ حيث شاء الله من العلىٰ، فقد قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّىٰ ظَهَرْتُ لِمُسْتَوًى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ»، أي: الأقلام التي تكتب الوحي والأقدار، فتجاوز بأبي هو وأمي السموات العلىٰ، ولا يصح قول بعضهم: أنه أول رائد فضاء فهذا كلام قبيح سيء، وإن شئت أن تقول كلام السفهاء إذ يمثلون النبي الكريم الذي رفعه الله عز وجل حيث شاء من العلىٰ برائد فضاء الله أعلم بأمره، وكذلك لا يجوز أن تقول أول عملية قلب مفتوح أجريت للنبي صلىٰ الله عليه وسلم، واتركوا مما يسمىٰ بالإعجاز العلمي للقرآن ؛ فإن هذا العلم علم الكلام المذموم الذي حذر منه

السلف واشتد نكيرهم علىٰ أصحابه، فيجعلون الصلاة رياضة، والصيام حمية، والحج سياحة وغير ذلك، فنحن نتعبد لله بهذه العبادات الجليلات، ولو كانت الصلاة رياضة ما أمر المشلول والمريض أن يصلي بالإيماء، وكذلك الصلاة علىٰ الراحلة تنفلًا أو لمن عجز عن الأرض، فالشاهد: أن شأن محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم عظيم فلا يشبه بمثل هؤلاء، زد علىٰ ذلك ما أخرجوه مما يسمىٰ بالبطاقة الشخصية لمحمد صلىٰ الله عليه وسلم، نعم سيرة النبي صلىٰ الله عليه وسلم ينبغي أن تُعلم وتدرس وتحفظ لمن استطاع ذلك؛ لكن هذه الطريقة طريقة امتهان ونخشىٰ أن يدخل أصحابها في السخرية فيقعون في قول الله عز وجل: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾[التوبة:٦٥-٦٦]، فصعود الفضاء علىٰ القول به يستطيعه كل واحد يريد أن يصعد وعنده الإمكانيات؛ لكن المعراج خاص بمحمد صلىٰ الله عليه وسلم أكرمه وأعزه الله به وبين الله به فضيلة محمد صلىٰ الله عليه وسلم وعظيم شأن الصلاة إذ أن الله عز وجل فرض عليه الصلاة وهو في السموات العلىٰ، بينما فرضت بقية الأركان وهو علىٰ الأرض.

وأحاديث المعراج متواترة منها: حديث أنس، وأبي ذر، ومالك بن صعصعة، قال أنس عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ، رَجُلٍ مِنْ قَوْمِهِ قَالَ: قَالَ نَبِيُّ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «بَيْنَما أَنَا عِنْدَ الْبَيْتِ بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ، إِذْ سَمِعْتُ قَائِلًا يَقُولُ: أَحَدُ الثَّلَاثَةِ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ، فَأُتِيتُ فَانْطُلِقَ بِي، فَأُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، فَشُرِحَ

صَدْرِي إِلَىٰ كَذَا وَكَذَا - قَالَ قَتَادَةُ: فَقُلْتُ لِلَّذِي مَعِي مَا يَعْنِي قَالَ: إِلَىٰ أَسْفَلِ بَطْنِهِ - فَاسْتُخْرِجَ قَلْبِي، فَغُسِلَ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ أُعِيدَ مَكَانَهُ، ثُمَّ حُشِيَ إِيمَانًا وَحِكْمَةً، ثُمَّ أُتِيتُ بِدَابَّةٍ أَبْيَضَ، يُقَالُ لَهُ: الْبُرَاقُ، فَوْقَ الْحِمَارِ، وَدُونَ الْبَغْلِ، يَقَعُ خَطْوُهُ عِنْدَ أَقْصَىٰ طَرْفِهِ، فَحُمِلْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا حَتَّىٰ أَتَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ صلىٰ الله عَليهِ وَسَلم، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ صلىٰ الله عَليهِ وَسَلم ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَفَتَحَ لَنَا، وَقَالَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ»، قَالَ: «فَأَتَيْنَا عَلَىٰ آدَمَ عليه السَلام»، وَسَاقَ الْحَدِيثَ بِقِصَّتِهِ، وَذَكَرَ أَنَّهُ: «لَقِيَ فِي السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ عِيسَىٰ، وَيَحْيَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَفِي الثَّالِثَةِ يُوسُفَ، وَفِي الرَّابِعَةِ إِدْرِيسَ، وَفِي الْخَامِسَةِ هَارُونَ صلىٰ الله عليه وسلم»، قَالَ: « ثُمَّ انْطَلَقْنَا حَتَّىٰ انْتَهَيْنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَأَتَيْتُ عَلَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، فَلَمَّا جَاوَزْتُهُ بَكَىٰ، فَنُودِيَ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: رَبِّ، هَذَا غُلَامٌ بَعَثْتَهُ بَعْدِي يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِهِ الْجَنَّةَ أَكْثَرُ مِمَّا يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي»، قَالَ: «ثُمَّ انْطَلَقْنَا حَتَّىٰ انْتَهَيْنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَأَتَيْتُ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ»، وَقَالَ فِي الْحَدِيثِ: وَحَدَّثَ نَبِيُّ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «أَنَّهُ رَأَىٰ أَرْبَعَةَ أَنْهَارٍ يَخْرُجُ مِنْ أَصْلِهَا نَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، وَنَهْرَانِ بَاطِنَانِ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذِهِ الْأَنْهَارُ؟ قَالَ: أَمَّا النَّهْرَانِ الْبَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ: فَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ، ثُمَّ رُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا فِيهِ آخِرُ مَا

عَلَيْهِمْ، ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ أَحَدُهُمَا خَمْرٌ، وَالْآخَرُ لَبَنٌ، فَعُرِضَا عَلَيَّ فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ، فَقِيلَ: أَصَبْتَ أَصَابَ اللهُ بِكَ أُمَّتُكَ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ، ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسُونَ صَلَاةً»، أخرجه مسلم.

وأما ما جاء في البخاري من طريق سيف وعبد الله بن أبي نمر ففيه عشرة أغلاط بينها ابن القيم في الهدي حيث قال: فتح الباري (١٣/ ٤٨٥): وَمَجْمُوعُ مَا خَالَفَتْ فِيهِ رِوَايَةُ شَرِيكٍ غَيْرَهُ مِنَ الْمَشْهُورِينَ عَشَرَةُ أَشْيَاءَ بَلْ تَزِيدُ عَلَىٰ ذَلِكَ:

الْأَوَّلُ: أَمْكِنَةُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي السَّمَاوَاتِ وَقَدْ أَفْصَحَ بِأَنَّهُ لَمْ يَضْبِطْ مَنَازِلَهُمْ وَقَدْ وَافَقَهُ الزُّهْرِيُّ فِي بَعْضِ مَا ذَكَرَ كَمَا سَبَقَ فِي أول كتاب الصَّلَاة.

الثَّانِي: كَوْنُ الْمِعْرَاجِ قَبْلَ الْبَعْثَةِ وَقَدْ سَبَقَ الْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ وَأَجَابَ بَعْضُهُمْ عَنْ قَوْلِهِ قَبْلَ أَنْ يُوحَىٰ بِأَنَّ الْقَبْلِيَّةَ هُنَا فِي أَمْرٍ مَخْصُوصٍ وَلَيْسَتْ مُطْلَقَةً وَاحْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَىٰ قَبْلَ أَنْ يُوحَىٰ إِلَيْهِ فِي شَأْنِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ مَثَلًا أَيْ أَنَّ ذَلِكَ وَقَعَ بَغْتَةً قَبْلَ أَنْ يُنْذَرَ بِهِ وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ فِي حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي.

الثَّالِثُ: كَوْنُهُ مَنَامًا وَقَدْ سَبَقَ الْجَوَابُ عَنْهُ أيضًا بِمَا فِيهِ غُنْيَةٌ.

الرَّابِعُ: مُخَالَفَتُهُ فِي مَحَلِّ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ وَأَنَّهَا فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بِمَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ وَالْمَشْهُورُ أَنَّهَا فِي السَّابِعَةِ أَوِ السَّادِسَةِ كَمَا تَقَدَّمَ.

الْخَامِسُ: مُخَالَفَتُهُ فِي النَّهَرَيْنِ وَهُمَا النِّيلُ وَالْفُرَاتُ وَأَنَّ عُنْصُرَهُمَا فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالْمَشْهُورُ فِي غَيْرِ رِوَايَتِهِ أَنَّهُمَا فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَأَنَّهُمَا مِنْ تَحْتِ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ.

السَّادِسُ: شَقُّ الصَّدْرِ عِنْدَ الْإِسْرَاءِ وَقَدْ وَافَقَتْهُ رِوَايَةُ غَيْرِهِ كَمَا بَيَّنْتُ ذَلِكَ فِي شَرْحِ رِوَايَةِ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ وَقَدْ أَشَرْتُ إِلَيْهِ أيضًا هُنَا.

السَّابِعُ: ذِكْرُ نَهرِ الْكَوْثَرِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالْمَشْهُورُ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ فِي الْجَنَّةِ كَمَا تَقَدَّمَ التَّنْبِيهُ عَلَيْهِ.

الثَّامِنُ: نِسْبَةُ الدُّنُوِّ وَالتَّدَلِّي إِلَىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ وَالْمَشْهُورُ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ جِبْرِيلُ كَمَا تَقَدَّمَ التَّنْبِيهُ عَلَيْهِ.

التَّاسِعُ: تَصْرِيحُهُ بِأَنَّ امْتِنَاعَهُ صلىٰ الله عليه وسلم مِنَ الرُّجُوعِ إِلَىٰ سُؤَالِ رَبِّهِ التَّخْفِيفَ كَانَ عِنْدَ الْخَامِسَةِ وَمُقْتَضَىٰ رِوَايَةِ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ كَانَ بَعْدَ التَّاسِعَةِ.

الْعَاشِرُ: قَوْلُهُ فَعَلَا بِهِ الْجَبَّارُ فَقَالَ وَهُوَ مَكَانَهُ وَقَدْ تَقَدَّمَ مَا فِيهِ.

الْحَادِي عَشَرَ: رُجُوعُهُ بَعْدَ الْخَمْسِ وَالْمَشْهُورُ فِي الْأَحَادِيثِ أَنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَمَرَهُ بِالرُّجُوعِ بَعْدَ أَنِ انْتَهَىٰ التَّخْفِيفُ إِلَىٰ الْخَمْسِ فَامْتَنَعَ.

الثَّانِي عَشَرَ: زِيَادَةُ ذِكْرِ التَّوْرِ فِي الطَّسْتِ وَقَدْ تَقَدَّمَ مَا فِيهِ فَهَذِهِ أَكْثَرُ مِنْ عَشَرَةِ مَوَاضِعَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ لَمْ أَرَهَا مَجْمُوعَةً فِي كَلَامِ أَحَدٍ مِمَّنْ تَقَدَّمَ وَقَدْ بَيَّنْتُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ إِشْكَالَ مَنِ اسْتَشْكَلَهُ وَالْجَوَابَ عَنْهُ إِنْ أَمْكَنَ وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ وَقد جزم بن

الْقَيِّم فِي الْهَدْيِ بِأَنَّ فِي رِوَايَةِ شَرِيكٍ عَشَرَةُ أَوْهَامٍ لَكِنْ عَدَّ مُخَالَفَتَهُ لِمَحَالِّ الْأَنْبِيَاءِ أَرْبَعَةً مِنْهَا وَأَنَا جَعَلْتُهَا وَاحِدَةً فَعَلَىٰ طَرِيقَتِهِ تَزِيدُ الْعِدَّةُ ثَلَاثَةً وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ. انتهىٰ

﴿ ثُمَّ دَنَا ﴾ أي: جبريل، ﴿ فَتَدَلَّىٰ ﴾ إلىٰ محمد صلىٰ الله عليه وسلم، ومن أغلاط شريك: أن الذي تدلىٰ هو الله، حيث قال: ثم تدلىٰ الجبار.

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ أي: ما بينهما قاب قوسين قيل: المسافة من الوتر إلىٰ القوس، وقيل: مسافة بين قوسين، ﴿ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ يعني: وأقرب، فإن أو بمعنىٰ: و، كقول الله عز وجل: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾[الصافات:١٤٧]، أي: بل يزيدون.

﴿ فَأَوْحَىٰ ﴾ أي: الله عز وجل، ﴿ إِلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ محمد صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ مَا أَوْحَىٰ ﴾ من الواجبات وغيرها وفي هذا رد علىٰ الغلاة الذين يعظمون شأن النبي صلىٰ الله عليه وسلم وينزلونه مراتب الربوبية والألوهية، فإن هذا لا يجوز فقد وصف الله محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم بالعبودية في أشرف المواطن موطن الإسراء: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾[الإسراء:١]، وموطن المعراج: ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ ﴾[النجم:١٠]، وموطن إنزال الكتاب: ﴿ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾[الكهف:١]، ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ الله يَدْعُوهُ ﴾[الجن:١٩]، فأكرم الله عبده محمد صلىٰ الله عليه وسلم في تلك الليلة بالوحي، وكان مما أعطاه الله الصلوات الخمس المتعتمات وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك من أمته شيئًا، فعَنْ عَبْدِ الله، قَالَ: (لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ الله صَلىٰ الله عَليه وسَلَم، انْتُهِيَ بِهِ إِلَىٰ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ،

وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ فَيُقْبَضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فَيُقْبَضُ مِنْهَا).

قَالَ: ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ قَالَ: «فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ»، قَالَ: " فَأُعْطِيَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم ثَلَاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِالله مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا، الْمُقْحِمَاتُ " أخرجه مسلم.

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ قيل: ما كذب فؤاده ما رآه من صفات جبريل عليه السلام، وقد ذهب بعضهم إلىٰ أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم رأىٰ ربه في تلك الليلة، والصحيح: أنه لم يره، قالت عائشة رضي الله عنها: من حدثكم أن محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم رأىٰ ربه فقد كذب، وأنا أول من سأله عن ذلك قال: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ»، وقال عبد الله بن الصامت لأبي ذر: لو كنا شهدنا النبي صلىٰ الله عليه وسلم لسألناه: هل رأيت ربك؟ قال: لقد سألناه عن ذلك فقال: «رَأَيْتُ نُورًا»، وفي رواية: «نُورًا أَنَّىٰ أَرَاهُ»، و يقول رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم «حِجَابُهُ النُّورُ»، وما جاء عن ابن عباس يحمل علىٰ أنه رآه بفؤاده، كما قال ابن مسعود توقيره.

﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ أفتتهمونه وتجادلونه، ﴿ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ ما آيات الله البينات الظاهرات العظيمات.

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ ﴾ أي: جبريل، ﴿ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ مرة أخرىٰ حيث رآه علىٰ صورته التي خلقه الله عليها مرتين، مرة في بدأ الوحي حين كان يمشي فرآه جالسًا علىٰ

كرسيه بين السماء والأرض، فعن عَائِشَةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم قَالَتْ: كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ يَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ أُوْلَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّىٰ فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ، فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، قَالَ: فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: أَقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[العلق: ١-٥] »، فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ، حَتَّىٰ دَخَلَ عَلَىٰ خَدِيجَةَ، فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي»، فَزَمَّلُوهُ حَتَّىٰ ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، ثُمَّ قَالَ لِخَدِيجَةَ: «أَيْ خَدِيجَةُ، مَا لِي»، وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ، قَالَ: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِي»، قَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: كَلَّا أَبْشِرْ، فَوَالله، لَا يُخْزِيكَ الله أَبَدًا، وَالله، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّىٰ أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّىٰ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ، وَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ

بِالْعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ الله أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: أَيْ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، قَالَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ: يَا ابْنَ أَخِي، مَاذَا تَرَىٰ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم خَبَرَ مَا رَآهُ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَىٰ مُوسَىٰ صلىٰ الله عليه وسلم، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، يَا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، قَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟» قَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا " أخرجه مسلم.

﴿ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ رآه المرة الثانية عند سدرة المنتهىٰ: وهي سدرة جاء في وصفها ما تقدم: «وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيَلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلَالِ»، سميت بسدرة المنتهىٰ؛ لأن ما ينزل من أعلىٰ يقبض وما يأتي من أسفل يقبض إليها وينتهي إليها وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: «لَمَّا بَلَغَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم سِدْرَةَ الْمُنْتَهَىٰ، قَالَ: انْتَهَىٰ إِلَيْهَا مَا يَعْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ وَمَا يَنْزِلُ مِنْ فَوْقٍ، قَالَ: فَأَعْطَاهُ الله عِنْدَهَا ثَلَاثًا لَمْ يُعْطِهِنَّ نَبِيًّا كَانَ قَبْلَهُ، فُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ خَمْسًا، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَغُفِرَ لِأُمَّتِهِ الْمُقْحِمَاتُ مَا لَمْ يُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا». أخرجه مسلم (٣٢٧٦).

﴿ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾ أي: عند سدرة المنتهىٰ جنة المأوىٰ، الجنة التي أعدها الله لعباده وخلقها لإكرامهم، وهذا دليل علىٰ أن الجنة في السماء، وسميت بذلك لأنها مأوىٰ المؤمنين.

﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ من الحُسن، قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «رَآهَا لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ يَلُوذُ بِهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ»، وفي رواية: «فُراش مِنْ ذَهب»، وقيل: تأتيها الملائكة فتكون عليها.

﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ ﴾ أي: بصر النبي صلىٰ الله عليه وسلم بل كان ثابتًا، ﴿ وَمَا طَغَىٰ ﴾ أي: لم يقل ما لم يرَ فيما أخبر به النبي صلىٰ الله عليه وسلم.

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ رأىٰ مالك خازن النار، ورأىٰ جبريل، ورأىٰ الجنة، ورأىٰ النار، ولقي الأنبياء وصلىٰ بهم كما تقدم في الحديث الصحيح.

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ ﴾ أخبروني يا معاشر قريش: ﴿ اللَّاتَ ﴾ أي: عن اللات: وهو صنم كان في الطائف يعبده ثقيف، واختلف في اشتقاقه فقيل: بأنه مشتق من الإله، وقيل: بأنه نسبة إلىٰ رجل كان يلت السويق للحجيج فلما مت بنوا علىٰ قبره بناء وعبدوه من دون الله.

﴿ وَالْعُزَّىٰ ﴾ صنم مكان لعبادة غير الله كان في نخلة بين مكة والطائف، وكانوا يحلفون باللات والعزىٰ ولهذا قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ، فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله»، وقد هدم العزىٰ خالد بن الوليد حيث أرسله رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم بعد حنين لهدمها، فلما جاءها وأحرقها رجع إلىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم وأخبره فقال له: «ارْجَعْ فَإِنَّكَ لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا»، فَرَجَعَ خَالِدٌ فَلَمَّا نَظَرَتْ إِلَيْهِ السَّدَنَةُ وَهُمْ حَجَبَتُهَا أَمْعَنُوا فِي الْجَبَلِ وَهُمْ يَقُولُونَ يَا عُزَّىٰ خَبِّلِيهِ يَا عُزَّىٰ عَوِّرِيهِ فَأَتَاهَا خَالِدٌ فَإِذَا امْرَأَةٌ عُرْيَانَةٌ نَاشِرَةٌ

شَعْرَهَا تَحْثُوا التُّرَابَ عَلَىٰ رَأْسِهَا فَعَمَّمَهَا بِالسَّيْفِ حَتَّىٰ قَتَلَهَا»؛ إذ أن الأصنام كانت تغشاها الشياطين والجان فيتكلمون من داخلها، وربما بعض حوائج السائلين ولذلك فتن الناس بها، وكان الكفار يتفاخرون بالعزىٰ حتىٰ قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزىٰ ولا عزىٰ لكم، فقال لهم النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ؟»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا الله مَوْلاَنَا، وَلاَ مَوْلَىٰ لَكُمْ».

﴿ وَمَنَاةَ ﴾ صنم كان بالمشلل بين مكة والمدينة، وكان الأنصار في حجهم يمرون به، فأرسل النبي صلىٰ الله عليه وسلم لهدمه أبا سفيان صخر بن حرب رضي الله عنه بعد إسلامه، واللات هدمها المغيرة بن شعبة، وهناك أصنام غير هذه مثل: ذي الخلصة هدمه جرير، إذ أن الأصنام كانت منتشرة في بلاد العرب كانتشارها الآن في شرق آسيا نسأل الله السلامة والعافية، وللكلبي كتاب الأصنام تكلم فيه عن أصنام الجاهلية، فإنهم كانوا قد بنوا في كل بلد كعبة وبيتًا يعظمونه ويطوفون به وينذرون له، ﴿ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴾ أي: ثالثة الأصنام المعظمة عند العرب، كأن الله عز وجل يقول: أخبروني ماذا أغنت عنكم هذه الأصنام وماذا صنعت لكم حتىٰ تعبدونها من دون الله ؟ وعبادتهم لها دالة علىٰ سخف عقولهم وضعف رأيهم، وإلا فهي حجارة صماء بكماء عاجزة عن نفع نفسها فضلًا عن غيرها.

وقال منكرًا وصف الملائكة بالإناث: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَىٰ ﴾ إذ كانوا يشركون ويندون ويأتون بالقول الباطل ومع ذلك ينسبون إلىٰ الله عز وجل البنات كما قال: ﴿ أَصْطَفَىٰ الْبَنَاتِ عَلَىٰ الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[الصافات:١٥٣-١٥٤]، فهم لا يرضون بنسبة البنات إلىٰ آلهتهم، ولا يرضون ببقاء البنات في بيوتهم، فكثير منهم ربما وأدوها ودفنوها حية، ومع ذلك كان حالهم مع ملائكة الله عز وجل : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾[الزخرف:١٩].

﴿ تِلْكَ ﴾ أي: جعل البنات لله عز وجل ﴿ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ أي: جائرة باطلة غير موافقة للواقع ولا للعقل، ومنه قول امرئ القيس:

ضَـــازَت بَنُـــو أَســـدٍ بِحُكمِهـــم   إِذْ يَجعلُـــونَ الـــرأسَ كَالـــذنبْ

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ يعني هذه الآلهة التي يعبدونها من دون الله ما هي إلا أسماء: ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ حيث سموها بالآلهة واشتقوا لها من أسماء الله أو من أسماء قوم صالحين، ﴿ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي: من حجة، بل الحجة قائمة علىٰ كسرها وإزالتها؛ ولذلك جعل النبي صلىٰ الله عليه وسلم يوم الفتح يطوف بالبيت ويخرب الأصنام ويقول: ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[الإسراء:٨١].

﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ الكذب والهوىٰ والرأي، ويتبعون ظنهم بآبائهم أنهم كانوا علىٰ شيء وليسوا علىٰ شيء، ﴿ وَمَا تَهْوَىٰ الأَنْفُسُ ﴾ وما تميل إليه أنفسهم،

ومعلوم أن أغلب الأنفس تميل إلىٰ الباطل، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ الله عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾[الجاثية:٢٣]، ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ أي: القرآن والوحي عن طريق محمد صلىٰ الله عليه وسلم كما قال تعالىٰ: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًىٰ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[البقرة:٢]، ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء:٩].

﴿ أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ أي: ليس كل من أراد خيرًا حصل له وهذا إنكار عليهم حين اتخذوا اللات والعزىٰ ومناة لتقربهم إلىٰ الله وتشفع لهم عنده وظنوا أنها علىٰ شيء رد الله عليهم ذلك.

فإن الأمر لله أولًا وآخرًا: ﴿ فَلِلهِ الآخِرَةُ ﴾ الحياة الأخيرة التي تكون بعد البعث والنشور، وسميت بالآخرة؛ لأنه لا يوم بعدها، ﴿ وَالأُولَىٰ ﴾ الدنيا، فالآخرة ملكه والدنيا ملكه.

ثم أخبر الله عز وجل عن سفه المشركين الذين اتخذوا هذه الأصنام لتشفع لهم قال: ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ ممن قال الله فيهم: ﴿ لا يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[التحريم:٦]، ﴿ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا ﴾ لا تقبل شفاعتهم ولا يستطيعون الشفاعة، ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ الله لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ ما قال الله عز وجل: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾[البقرة:٢٥٥]، ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾[سبأ: ٢٣]، فالشفاعة لا تكون مقبولة إلا بثلاثة شروط:

الأول: رضىٰ الله عن الشافع.

الثاني: رضىٰ الله عن المشفوع له.

الثالث: إذن الله للشافع، فإذا كانت الملائكة المسخرة في عبادة الله هذا حالها فكيف لهذه الأصنام الصماء البكماء وهذه القبور التي صار أصحابها ترابًا أن يشفعوا للمشركين المنددين والحال كما قال الله عز وجل: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾[غافر:١٨]، وقال: ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾[المدثر: ٤٨].

ثم أخبر الله عن سبب عدول الكافرين عن تسمية الملائكة بما سماهم الله به: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ﴾ الكفار، ﴿ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَىٰ ﴾ لأنهم يعتقدون أن الملائكة إناث، وزعموا أنهم بنات سروات وسيدات الجن قول مستقبح: ﴿ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[المنافقون:٤].

﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي: هذا القول الذي قالوه، ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ الكذب والخرص وعدم التيقن؛ لأنهم أخذوا دينهم تقليدًا عن آبائهم، كما قال الله عز وجل مخبرًا عنهم: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾[الزخرف:٢٢]، ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ أي: الكذب والحدس لا يغني شيئًا عن الحق الذي جاء الله به وهو الوحي المبين والصراط المستقيم والعلم القويم.

ثم قال الله عز وجل لمحمد صلىٰ الله عليه وسلم مسليًا له ومرشدًا له إلىٰ أحسن الطرق: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ ﴾ أعرض أي عن دين الإسلام من الكافرين والمنافقين، قال تعالىٰ: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ * وَذَكِّرْ فَإِنَّ

الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[الذاريات:٥٤-٥٥]، وقال: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾[الغاشية:٢٢]، وفي كثير من الآيات يأمر الله عز وجل محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم أن يتول عن الكفار ولا ينشغل بهم، وقيل بأن هذا منسوخ نسخته آية القتال، والله أعلم، ﴿ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ طاعتنا، ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ليس له رغبة في الآخرة: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾[الروم:٧]، ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾[الشورىٰ:٢٠].

﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ أي أعظم علمهم: أنهم يرغبون في الدنيا ويزهدون في الآخرة؛ لأنهم جهال بدين الله مضيعون لحقه، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ يا محمد، ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ بمن انحرف عن طريق الله المستقيم الإسلام، ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾ إلىٰ الإسلام دين الحق فيجازي المؤمن بإيمانه والكافر بكفره.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ أي: له الملك المطلق التام للعالم بالحال والمآل، ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ الكفار يجازيهم بكفرهم فيخلدهم في النار، وأما ما دون ذلك من أصحاب الكبائر من أمة محمد صلىٰ الله عليه وسلم فهم تحت المشيئة إن شاء غفر لهم وإن شاء عذبهم كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ الله لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِالله فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾[النساء:٤٨]، ﴿ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا ﴾ بالإيمان، ﴿ بِالْحُسْنَىٰ ﴾

الجنة، قال الله عز وجل: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى ﴾[يونس:٢٦]، الجنة، ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾[يونس:٢٦]، النظر إلىٰ وجه الله عز وجل، وقد قال الله عز وجل: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ ﴾[الرحمن:٦٠]، ومن دعاء المسلمين: ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[البقرة:٢٠١]، إذ أن أعظم حسنة الجنة.

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ ﴾ أي: يغفر للذين يجتنبون كبائر الذنوب والكبيرة كل ما توعد عليه بنار أو حرمان من الجنة أو لعن أو طرد من رحمة الله عز وجل فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «الصَّلاةُ إلى الصَّلاةِ، والجُمعةُ إلىٰ الجمعةِ، ورمضانُ إلىٰ رمضانَ، كفَّاراتٌ لما بينهنَّ ما اجتُنبت الكبائرُ»، وقال الله عز وجل: ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴾[النساء:٣١]، فالصغائر تكفر بالطاعات وترك الكبائر، ﴿ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ الإثم في القول، ما فحش من الأفعال: كالزنىٰ، واللواط ونحو ذلك نسأل الله السلامة والعافية، ﴿ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ اللمم قيل: الرجل يلم بالذنب ثم يدعه كالزنىٰ أو السرقة ومنه قول الشاعر:

إن تغفـر اللهـمّ تغفـر جمّـا ... وأيّ عبـد لـك لا ألمّـا

وقيل: المراد بها الصغائر، فالصغائر تمحىٰ إذا اجتنبت الكبائر وهذا هو تفسير أبي هريرة رضي الله عنه قال اقل رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «لِكُلِّ بَنِي آدَمَ حَظٌّ من الزنا فَالْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْيَدَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا الْبَطْشُ،

وَالرِّجْلَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا الْمَشْيُ، وَالْفَمُ يَزْنِي وَزِنَاهُ الْقُبَلُ، وَالْقَلْبُ يَهْوَىٰ وَيَتَمَنَّىٰ، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ» أخرجه أحمد.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ يا محمد، ﴿ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ لمن آمن به واتقاه واتبع رضاه، كقوله: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[الأعراف: ١٥٦].

﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ أيها الناس، ﴿ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ حين خلق آدم من طينة الأرض؛ فعن أبي موسىٰ الأشعريِّ، قال: قال رسولُ الله -صلىٰ الله عليه وسلم-: «إنّ الله خَلَقَ آدمَ مِن قبضةٍ قبضها من جميعِ الأرضِ، فجاءَ بنوآدَمَ علىٰ قَدْرِ الأرض: جاء منهم الأحمرُ، والأبيضُ، والأسودُ، وبين ذلك، والسَّهلُ، والحَزْنُ، والخبيثُ، والطَّيِّبُ»، أخرجه أبو داود، وهو أعلم بكم أيضًا: ﴿ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ لم تعلم الأم بما في بطنها ولا الأب بما في بطن زوجته، وربنا عز وجل قد علم ما كان وما يكون من هذا الغلام، بل إنه يرسل ملائكته فيكتبون رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فعن عبد الله بن مسعود تقَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ

أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا»، أخرجه مسلم.

﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ بفعل الطاعات وترك المعاصي فمطلوبة كما قال تعالىٰ: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾[البقرة:١٢٩]، كما أن الإنسان لا يذم نفسه أيضًا فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: خَبُثَتْ نَفْسِي، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: لَقِسَتْ نَفْسِي»، أخرجه مسلم: (١٦)، والمعنىٰ واحد لكن اللفظ المستقبح يترك، وإذا احتاج الإنسان أن يزكي نفسه كأن يكون في مجتمع ما يعرفون مقدار أهل السنة ومن حولهم عبارة عن أهل بدع وضلالات فله أن يقول: جئناكم بالخير والهدىٰ والكتاب والسنة والدعوة الصحيحة، وقد قال يوسف عليه السلام للعزيز: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[يوسف:٥٥]، ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ أي: أن الله أعلم بالمتقين ظاهرًا وباطنًا كما قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[النساء: ٤٩].

وفي الصحيح عن زينب بنت أبي سلمة قالت قَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «لَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ، الله أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ» فَقَالُوا: بِمَ نُسَمِّيهَا؟ قَالَ: «سَمُّوهَا زَيْنَبَ» أخرجه مسلم (١٩).

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴾ أي: أخبرني يا محمد عن الذي تولىٰ عن دين الله وشرعه.

﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا ﴾ من المال، ﴿ وَأَكْدَىٰ ﴾ بخل به عن الإنفاق في سبيل الله، والبخل صفة ذميمة ولهذا وصف الله بها الكفار كثيرًا، فينبغي للمسلم أن يجاهد نفسه في إزاحة هذه الصفة إن وقعت فيه، فعن جَابِرٌ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلِمَةَ؟» قُلْنَا: جُدُّ بْنُ قَيْسٍ، عَلَىٰ أَنَّا نُبَخِّلُهُ، قَالَ: «وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَىٰ مِنَ الْبُخْلِ؟ بَلْ سَيِّدُكُمْ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ»، وَكَانَ عَمْرٌو عَلَىٰ أَصْنَامِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يُولِمُ عَنْ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم إِذَا تَزَوَّجَ. أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٩٦) أي: من الأدواء المعنوية، فمن طبيعة الكفار الاعراض عن دين الله كالصلاة وغير ذلك، والبخل بما أوجب الله عليهم ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[التوبة: ٣٤].

﴿ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴾ أنك لن تنصر يا محمد، أو أن دينك علىٰ غير الطريق، أو أنه سيخلد وسيعيش منعمًا في هذا المال ويبعث عليه كما قال الله في وصف الآخر: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا * كَلَّا ﴾[مريم:٧٧-٧٩]، والمعنىٰ أنه لم يكن ذلك.

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ ﴾ ألم يخبر ﴿ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴾ بما في أسفار وكتب موسىٰ، وقد اختلف أهل العلم هل صحف موسىٰ هي التوراة أم أنها غير التوراة، والذي يظهر أنه الكتاب المنزل علىٰ موسىٰ.

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ وفي صحف إبراهيم عليه السلام، ﴿ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾ بما أمره الله له، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾[البقرة:١٢٤]، أي: أتىٰ بالأمر والنهي علىٰ تمامه ففعل المأمور واجتنب المحظور، ومن عظيم ما أمر به أنه أمر بذبح ولده فبادر إلىٰ ذلك، وهذا دليل علىٰ أنه وفىٰ بدين الله وأتىٰ به علىٰ الوجه الذي أمره الله.

ومما ذكره الله وأوحاه في صحف براهيم وموسىٰ: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أي: لا يجني أحد علىٰ أحد ولا يتحمل أحد ذنب أحد، وعن أبي رمثة قال: انطلقتُ مع أبي نحو النبي – صلىٰ الله عليه وسلم –، ثم إنَّ رسولَ الله – صلىٰ الله عليه وسلم – قال لأبي: «ابنُكَ هذا؟» قال: إي ورَبِّ الكعبةِ، قال: «حقًا؟» قال: أشهدُ بِهِ، قال: فتبسَّم رسولُ الله – صلىٰ الله عليه وسلم – ضاحِكًا مِنْ ثَبْت شبهي في أبي، ومن حَلِف أبي عليّ، ثم قال: «أما إنَّه لا يَجني عليكَ ولا تَجنِي عليهِ»، وقرأ رسولُ الله – صلىٰ الله عليه وسلم –: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[الأنعام: ١٦٤، والإسراء: ١٥]، وفي المثل: كل شاة برجلها معلقة، وقبل ذلك قول الله: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[المدثر:٣٨]، فعلىٰ الإنسان أن ينظر إلىٰ عمله الصالح فيلازمه وينظر إلىٰ عمله السوء فيتوب منه، فأخبر أنه لا يحمل وزر غيره.

﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ أي: ليس له أجر غيره، واُستدل بهذه الآية علىٰ أن قراءة القرآن والصلاة، وغير ذلك من أعمال البر لا تصل إلىٰ الميت، وإنما جاز الصيام لمن مات وعليه قضاء والحج والعمرة وأما الصدقة فليس فيها

خلاف، وأما القراءة للأموات هذا ليس له: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ إلا ما عمل، إلا أن الاستغفار له من سعيه؛ لأن إيمانه هو الذي أهله لاستغفار المؤمنين له قال تعالىٰ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾[محمد:١٩]، ومن سعيه ولده، والصدقات الجاريات؛ ولذلك كان من أنفع الأعمال: فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم، قَالَ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» أخرجه مسلم (١٤).

قال ابن كثير (٧/ ٤٣١): مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ اسْتَنْبَطَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ الله وَمَنِ اتَّبَعَهُ، أَنَّ الْقِرَاءَةَ لَا يَصِلُ إِهْدَاءُ ثَوَابِهَا إِلَىٰ الْمَوْتَىٰ، لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَمَلِهِمْ وَلَا كَسْبِهِمْ وَلِهَذَا لَمْ يَنْدُبْ إِلَيْهِ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم أُمَّتَهُ وَلَا حَثَّهُمْ عَلَيْهِ وَلَا أَرْشَدَهُمْ إِلَيْهِ بِنَصٍّ وَلَا إِيمَاءٍ، وَلَمْ يُنْقَلْ ذَلِكَ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ الله عَنْهُمْ، وَلَوْ كَانَ خَيْرًا لَسَبَقُونَا إِلَيْهِ، وَبَابُ الْقُرُبَاتِ يُقْتَصَرُ فِيهِ عَلَىٰ النُّصُوصِ وَلَا يُتَصَرَّفُ فِيهِ بِأَنْوَاعِ الْأَقْيِسَةِ وَالْآرَاءِ، فَأَمَّا الدُّعَاءُ وَالصَّدَقَةُ فَذَاكَ مُجْمَعٌ عَلَىٰ وُصُولِهِمَا وَمَنْصُوصٌ مِنَ الشَّارِعِ عَلَيْهِمَا.

وَأَمَّا الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: مِنْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ، أَوْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ مِنْ بَعْدِهِ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ»، فَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ فِي الْحَقِيقَةِ هِيَ مِنْ سَعْيِهِ وَكَدِّهِ وَعَمَلِهِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ

وَإِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ»، وَالصَّدَقَةُ الْجَارِيَةُ كَالْوَقْفِ ونحوه هي من آثَارِ عَمَلِهِ وَوَقْفِهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾[يس:١٢].

وَالْعِلْمُ الَّذِي نَشَرَهُ فِي النَّاسِ: فَاقْتَدَىٰ بِهِ النَّاسُ بَعْدَهُ هُوَ أيضًا مِنْ سَعْيِهِ وَعَمَلِهِ.

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ «مَنْ دَعَا إِلَىٰ هَدْيٍ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا». اهـ

﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ ﴾ أي: عمله، ﴿ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ يوم القيامة يراه رأي عين فيجازىٰ بإحسانه، ويفرح به كما قال تعالىٰ: ﴿ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾[الغاشية: ٩]، وربما أُخذ بذنبه وإجرامه.

﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾ فإن كان العمل صالحًا ضاعف الله له الأجر والمثوبة كما قال تعالىٰ: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾[الأنعام:١٦٠].

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ هذا إخبار من الله عز وجل بمصير الناس جميعًا إليه يوم القيامة مهما عاشوا فإن مردهم إلىٰ الله كما قال : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ اللهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾[البقرة:٢٨١].

﴿ وَأَنَّهُ ﴾ أي: الله، ﴿ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ فما أنت فيه من الحزن والفرح والضحك والبكاء هو خلق لله وتقدير، فكم من إنسان ربما يصاب بشلل ما يستطيع يضحك، أو ربما يصاب بفرحة ما يستطيع يبكي، فشأن البكاء، والضحك، والفرح، والسرور وجميع حالات الإنسان إلىٰ الله.

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ أمات من شاء وأحيىٰ من شاء كما قال: ﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[الأنعام:٩٥]، ولما حاجا إبراهيم النمرود: ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾[البقرة:٢٥٨]، قال النمرود: ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾[البقرة:٢٥٨]، وكان إحياؤه أنه قتل واحدًا وترك واحدًا، قال: أحييت هذا وقتلت هذا، لكن الله عز وجل هو الذي يحيي من شاء ويعطيه الحياة كما أحيىٰ عزيرًا بعد أن مات مائة سنة ورد حماره، قال تعالىٰ: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة: ٢٥٩]، قال الله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[البقرة:٢٦٠]، ويوم القيامة يخرج الناس من قبورهم ويحيي جميع المخلوقات ثم يقال للحيوان: كوني ترابًا، ويدخل الإنسان والجان من كان من أهل الإيمان الجنة ومن كان من أهل النار النار، والله المستعان.

﴿ وَأَنَّهُ ﴾ تعالىٰ، ﴿ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَىٰ ﴾ من كل صنف من الحيوان، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾[الذاريات:٤٩]، ذكر وأنثىٰ

للمحافظة علىٰ النسل ولغير ذلك من المصالح، ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَىٰ ﴾[آل عمران:٣٦]، فالذكر له صفات تؤهله أن يكون أعلىٰ من الأنثىٰ كما قال تعالىٰ: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾[النساء:٣٤]، وبذلك تعلم فساد دعاة المساواة بين الرجال والنساء، فلا يمكن أن تساوي المرأة الرجل لا في الميراث، ولا في العقل، ولا في كثير مما جعله الله عز وجل القوام فيه للرجل كالرئاسة، والقضاء ونحو ذلك، وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم : «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً» أخرجه البخاري.

﴿ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ نطفة تجتمع في رحم المرأة: ﴿ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ أي: بعد خروج المني وهو ماء الرجل والمرأة، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾[الإنسان: ٢].

﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ ﴾ يقول وكما أنه تعالىٰ خلق الزوجين الذكر والأنثىٰ في الدنيا فعليه النشأة الأخرىٰ في الآخرة حيث يخرجون من قبورهم حفاةً عراةً غرلًا، فيجمعهم ويجازيهم علىٰ أعمالهم، ولا يعجزه شيء، وقد تقدم بيان ذلك مرارًا وتكرارًا، ويأتي إن شاء الله.

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ ﴾ من الغنىٰ، أي ملك من شاء من عباده من المال، ﴿ وَأَقْنَىٰ ﴾ من القنية أي: يرزقه الخدم ونحو ذلك فيصير عنده كثير من الأمور التي يقتنيها من النِعم وربما السيارات والعمارات ونحو ذلك، فَرُبّ غني وما عنده قنية، ورُبَّ صاحب قنية وليس بغني فربنا يغني من شاء ويعطي من شاء.

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴾ ثم أخبر عما فعل بالمتقدمين من الأمم المخالفة لدين رب العالمين: ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ ﴾ عاد التي بعث إليها هود عليه السلام، وليس المعنىٰ أن تمت عاد أولىٰ وعاد ثانية؛ لأن بعض المفسرين ذكر ذلك، وإنما هي أولىٰ بالنسبة لما بعدها من الأمم، كما قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴾[الفجر:٦-٨].

﴿ وَثَمُودَ ﴾ أهلكهم أيضًا وهم قوم صالح، ﴿ فَمَا أَبْقَىٰ ﴾ لهم باقية، حيث عقروا الناقة وتمالؤوا عليها فصبحهم الله عز وجل بصيحة أتت عليهم من آخرهم.

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ﴾ وكذلك أهلك قوم نوح الذين تمردوا علىٰ دينه وشرعه فأغرقهم الله عز وجل بالطوفان ولم يسلم إلا من سلمه الله من أهل الإيمان في السفينة وما حمل من الدواب والأنعام، قال الله عز وجل: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾[المؤمنون: ٢٧].

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ ﴾ كانوا في ظلم شديد وبعد أكيد عن توحيد رب العبيد سبحانه وتعالىٰ، مكث فيهم نوح ألف سنة إلا خمسين عامًا ما زادهم إلا عتوًا ونفورًا: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا

وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾[نوح:٥-٩]، فأبوا، ﴿ وَأَطْغَىٰ ﴾ أي: في أشد الطغيان.

﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ ﴾ قوم لوط، ﴿ أَهْوَىٰ ﴾ بهم بعد أن رفعهم، وقد تقدم بيان شيء من ذلك.

﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ غشاها العذاب الأليم والخزي العميم؛ بسبب الفاحشة التي ارتكبوها والشرك الذي عاقروه، فجعلهم الله عبرة للمعتبرين، ولهذا كان حكم اللوطي أنه يرجم من أعلىٰ شاهق ويرجم بالحجارة جزاءً لفعلته الشنيعة.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ ﴾ أي: نعماء ﴿ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ ما الذي يُشككك في آلاء الله العظيمة وآياته الجليلة مع ظهور هذه الحجج القوية في استحقاق الله عز وجل للعبادة لتفرده بالربوبية، وفي إهلاك الله عز وجل لمن تمرد علىٰ شرعه ودينه.

﴿ هَذَا نَذِيرٌ ﴾ أي: القرآن، أو محمد، ﴿ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴾ يعني: كما أرسل الله الرسل السابقة أرسل محمدًا مثلهم، وكما أنزل الله الكتب أنزل القرآن مثلها وفيه النذارة والبشارة.

﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴾ أي: دنت القيامة وقربت.

﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ ﴾ أي: لا يدفعها من دون الله عز وجل أحد فإن العباد عاجزون عن دفع شيء من أهوالها.

﴿ أَفَمِنْ هَذَا ﴾ القرآن، ﴿ الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴾ يعني المشركين يعجبون ويتضاحكون من القرآن، فتارة يزعمون أنه سحر، وتارة شعر، وتارة أساطير

الأولين، وتارة كذب، وتارة يتضاحكون فيما بينهم يزعمون أن محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم به جنون وغير ذلك، فكانوا إذا مروا بالمسلمين يتضاحكون، وإذا انقبلوا إلىٰ أهليهم في حال فكاهة علىٰ المسلمين فعاتبهم الله علىٰ ذلك، فالضحك من القرآن ودلالة القرآن يدل علىٰ سخف العقول.

﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ كما هو فعل السفهاء، ﴿ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ كما هو فعل الأتقياء لله عز وجل، قال تعالىٰ: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾[الإسراء: ١٠٩].

﴿ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ﴾ أي: تغنون، في لغة اليمن وقيل غافلون، فكانوا يتضاحكون وهم يغنون ويسخرون بالقرآن، والنبي عليه الصلاة والسلام.

﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ صلوا ﴿ وَاعْبُدُوا ﴾ اخلصوا العبادة له، فهذا أمر الله، وحين نزلت هذه الآية سجد النبي صلىٰ الله عليه وسلم وسجد معه الجن والإنس، فعَنْ عَبْدِ الله، «عَنِ النَّبِيِّ صَلىٰ الله عَليه وَسَلَم أَنَّهُ قَرَأَ وَالنَّجْمِ فَسَجَدَ فِيهَا، وَسَجَدَ مَنْ كَانَ مَعَهُ، غَيْرَ أَنَّ شَيْخًا أَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصًىٰ أَوْ تُرَابٍ فَرَفَعَهُ إِلَىٰ جَبْهَتِهِ، وَقَالَ: يَكْفِينِي هَذَا قَالَ عَبْدُ الله: لَقَدْ رَأَيْتُهُ بَعْدُ قُتِلَ كَافِرًا» أخرجه مسلم، ولهذا ظن أهل الإسلام الذين في الحبشة أن قريشًا قد دخلوا في الإسلام فرجعوا إلىٰ مكة فابتلوا بلاءً عظيمًا ثم هاجروا الهجرة الثانية، وبعدها الهجرة إلىٰ المدينة النبوية.[1]

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) انتهينا من تفسير سورة النجم، ولله الحمد والمنة، في آخر يوم من رمضان من عام ١٤٤١هـ

تفسير سورة القمر

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القمر: مكية، فعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً: «فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ مَرَّتَيْنِ»، أخرجه مسلم (٤٦).

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ كقول الله عز وجل: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾[الأنبياء:١]، وكقول الله عز وجل: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ الله فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾[النحل:١]، وقد قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ»، وقال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[غافر:٥٩]، وكل ما هو آت قريب وإن بعد في وقته وزمانه؛ لكن قد علم أن هذه الأمة من آخر الأمم، كما في حديث ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَنْ سَلَفَ مِنَ الأُمَمِ، كَمَا بَيْنَ صَلاَةِ العَصْرِ إِلَىٰ غُرُوبِ الشَّمْسِ، أُوتِيَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ التَّوْرَاةَ، فَعَمِلُوا بِهَا حَتَّىٰ انْتَصَفَ النَّهَارُ ثُمَّ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُوتِيَ أَهْلُ الإِنْجِيلِ الإِنْجِيلَ، فَعَمِلُوا

بِهِ حَتَّىٰ صُلِّيَتِ العَصْرُ ثُمَّ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُوتِيتُمُ القُرْآنَ، فَعَمِلْتُمْ بِهِ حَتَّىٰ غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَأُعْطِيتُمْ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، فَقَالَ أَهْلُ الكِتَابِ: هَؤُلَاءِ أَقَلُّ مِنَّا عَمَلًا وَأَكْثَرُ أَجْرًا، قَالَ الله: هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ شَيْئًا؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَهُوَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ»، أخرجه البخاري، ﴿ السَّاعَةُ ﴾ من أسماء يوم القيامة؛ لأن لها وقت معلوم محدود تكون فيه، ﴿ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ المراد به الانشقاق الذي حصل في زمن النبي صلىٰ الله عليه وسلم كما في حديث ابن مسعود وغيره: أن كفار قريش سألوا النبي صلىٰ الله عليه وسلم أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر مرتين، فكان فلقة منه علىٰ جبل أبي قبيس وفلقة منه علىٰ جبل عمر، ومع ذلك هل استجابوا حين جاءتهم الآية العظيمة البينة؟ لم يقع منهم ذلك؛ بل أعرضوا وزعموا أن هذا سحر يزول سريعًا.

﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً ﴾ أي: دليلًا وحجة وبرهانًا من آيات الدالة علىٰ وحدانيته والدالة علىٰ صدق نبوة محمد صلىٰ الله عليه وسلم يعرضوا عن الاستجابة والانقياد، ﴿ وَيَقُولُوا ﴾ أن ما شاهدناه من الآيات، ﴿ سِحْرٌ ﴾ هذا سحر يخيل لنا، ﴿ مُسْتَمِرٌّ ﴾ زائل ويوشك أن يزول ويذهب، وهذا لشدة عنادهم وإلا فقد أُرخت حادثة انشقاق القمر في الهند وفي غيرها من البلدان دليل علىٰ أنها حادثة عامة.

قال ابن كثير (٧/ ٤٧٢): فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: "خَمْسٌ قَدْ مَضَيْنَ: الرُّومُ، وَالدُّخَانُ، وَاللِّزَامُ، وَالْبَطْشَةُ، وَالْقَمَرُ"، وَهَذَا أَمْرٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ

الْعُلَمَاءِ أَيِ انْشِقَاقُ الْقَمَرِ قَدْ وَقَعَ فِي زَمَانِ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم وَأَنَّهُ كَانَ إِحْدَىٰ الْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَاتِ. اهـ

﴿ وَكَذَّبُوا ﴾ أي: كفار قريش بهذه الآية العظيمة، ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ من أن هذا سحر أو كذب أو تخييل ونحو ذلك، ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ﴾ أي: وردوا كل أمر ثابت وحق مما أوحاه الله عز وجل إلىٰ محمد صلىٰ الله عليه وسلم، أو المعنىٰ: أن كل أمر سيقع كما أراده الله عز وجل، ومع ذلك ستجد عندهم التكذيب والإعراض.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ ﴾ أي: كفار قريش ﴿ مِنَ الأَنْبَاءِ ﴾ من الأخبار عن الأمم السابقة السالفة، والحجج القوية الظاهرة، ﴿ مَا فِيهِ ﴾ لهم: ﴿ مُزْدَجَرٌ ﴾ زاجرٌ ومانع عن باطلهم وكفرهم وعنادهم؛ لكن لم تغنِ النذارة عنهم شيئًا ولم يستفيدوا من دلالتها بل ازدادوا عتوا ونفورًا.

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ يعني القرآن حجة قوية ظاهرة بينة تبلغ إلىٰ شغاف القلوب، ﴿ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ أي: فليست تغني النذر، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[يونس:١٠١]، فمهما جئت الكفار بآية لن يستجيبوا لك بل يزداد كفرهم وعنادهم، وهل أبلغ من دعوة النبي صلىٰ الله عليه وسلم لهم فهو أبلغ وأعلم وأفصح وأرفق وأحسن الناس خلقًا، وأكرمهم، وأقرب الناس منهم نسبًا ومع ذلك ما استجابوا لدعوته مكابرة وعنادًا وإعراضًا.

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي: أعرض عنهم يا محمد ولا تلتفت إليهم، والحال كما قال تعالىٰ: ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾[فاطر:٨]، فإن الهداية من الله، يهدي من يشاء فضلًا ويضل من يشاء عدلًا: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾[فصلت:٤٦]، وقيل هذه الآية منسوخة بآية السيف، ﴿ يَوْمَ ﴾ أي: إلىٰ يوم، يعني: تول عنهم وسيعرفون عظيم دعوتك وصدق رسالتك، ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ ﴾ أي: في يوم القيامة، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء:٥٢]، والداعي إسرافيل حين ينفخ في الصور، ويحشر الناس إلىٰ أرض المحشر، ﴿ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ ﴾ شيء عظيم مستنكر شديد حال الناس فيه.

﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ ﴾ أي: ذليلة خاضعة كما قال الله عز جل: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴾[إبراهيم:٤٢]، أي: ترفع إلىٰ السماء، فلا يستطيع أحدهم أن يغمض عينه؛ لشدة الخوف الذي نزل بهم والحال الذي وقع عليهم: ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾[إبراهيم:٤٣]، من شدة الفزع والخوف، ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ ﴾ من القبور، ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ﴾ كثير هاهنا وهاهنا، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾[المعارج:٤٣]، وقوله: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾[يس:٥١]، فيخرجون في كثرة مسرعين في مشيهم وعدوهم فزعين من الحال الذي هم فيه.

﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ خاضعين خاشعين، ﴿ إِلَى الدَّاعِ ﴾ الذي يدعوهم إلىٰ المحشر، ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ ﴾ في ذلك الوقت: ﴿ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ شديدة أهواله وعظيمة أحواله ﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[يونس:٩١]، ألم يخبركم رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم عن شدة ذلك اليوم في مثل قول الله عز وجل: ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا * يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾[المعارج:١-٩]، الآيات.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ أي: بالنبوة والرسالة مع ظهور الآيات والحج، ﴿ قَبْلَهُمْ ﴾ أي: قبل قريش ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ وهو أول رسول أُرسل إلىٰ أهل الأرض، ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ وكل الناس عبيدلله إلا أن عبودية الرسل عبودية خاصة عبودية اصطفاء وتذلل وخضوع، وأضافهم الله إلىٰ نفسه تشريفًا لهم وإكرامًا لمنزلتهم، وقد سمىٰ الله نوحًا عبدًا شكورًا: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾[الإسراء:٣]، ﴿ وَقَالُوا ﴾ أي: قومه المخالفون المعرضون، ﴿ مَجْنُونٌ ﴾ فلا يلتفت إلىٰ قوله وفعله، ﴿ وَازْدُجِرَ ﴾ أي: أعرض عنه وطرد ولم يلتفت إليه، بل كان محتقرًا عندهم يتخذونه سخرية ونحو ذلك، كما قال الله عز وجل: ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾[الشعراء: ١١٦].

﴿ فَدَعَا ﴾ نوح عليه السلام ﴿ رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ يقول: يا رب إنهم غلبوني وقهروني فانتصر لي، ودعوته مذكورة في آخر سورة نوح: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا * رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾[نوح:٢٦-٢٧]، وفي الآية أن دعوة المظلوم مستجابة، وقد قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ وَاخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي، شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ، مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ، لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا»، متفق عليه.

وفي حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «يَجْمَعُ الله النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَهْتَمُّونَ لِذَلِكَ فَيَقُولُونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنَا عَلَىٰ رَبِّنَا حَتَّىٰ يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، قَالَ: فَيَأْتُونَ آدَمَ صلىٰ الله عليه وسلم،.... فَيَأْتُونَ نُوحًا صلىٰ الله عليه وسلم، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ، فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا، وَلَكِنِ ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ صلىٰ الله عليه وسلم الَّذِي اتَّخَذَهُ الله خَلِيلًا...»، متفق عليه.

واستجاب الله دعوته ونصره: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ ﴾ حيث كان قد أمره الله عز وجل بصنع السفينة فصنعها وهم يمرون عليه ويسخرون، تصنع سفينة في البر واليابسة؛ لكن استجاب الله له: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ ﴾ أي: السحاب، ﴿ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾ كثير.

﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ أنهارًا وعيونًا تخرج من جبالها ووديانها، ﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ ﴾ النازل من السماء والخارج من الأرض: ﴿ عَلَىٰ أَمْرٍ ﴾ وهو إغراق البسيطة ﴿ قَدْ قُدِرَ ﴾ قد كتبه الله عليهم وأمضاه، وما قدره الله عز وجل كونًا لا بد أن يقع، وفي هذا رد علىٰ أصحاب الهيئة الجديدة الذين يزعمون أن الماء يتكون من البحار ويتبخر ثم ينزل علىٰ هيئة المطر، لله الحكمة قد يكون أصله من ذلك؛ لكن القول بأنه من البحار هذا قول بعيد فإن المياه التي تنزل من السماء أكثر بكثير مما يمكن أن يتبخر، وقد دعا النبي صلىٰ الله عليه وسلم ربه بالمطر فجاءت سحابة ولم يكن في المدينة سحاب قبل ذلك من خلف جبل سلع كأنها الترس وأمطرتهم سبتًا، فينبغي عدم الالتفات إلىٰ نظريات أصحاب الهيئات لا سيما المخالفة لكتاب ربنا وسنة نبينا صلىٰ الله عليه وسلم.

﴿ وَحَمَلْنَاهُ ﴾ أي: نوح ومن معه من المؤمنين، ﴿ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ ﴾ وهي السفينة صنعت من الخشب، ﴿ وَدُسُرٍ ﴾ مسامير تثبت فيها الأخشاب والألواح.

﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ تجري بمرأىٰ من الله إذ أن الله علىٰ عرشه بائن من خلقه؛ لكنه يرىٰ السفينة ويرىٰ من في السفينة لا تخفىٰ عليه خافية، وفيه: إثبات صفة العينين لله عز وجل علىٰ ما يليق بجلاله، ﴿ جَزَاءً ﴾ أي: هذا الاغراق كان: ﴿ جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ جزاءً لهم علىٰ كفرهم وانتصارًا لنوح عليه السلام أنه أغرقهم وحفظ الله نوحًا ومن معه من المؤمنين: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ ﴾[الشعراء:١١٩]، من المؤمنين،.

﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً ﴾ أي: السفينة أو الحادثة جعلها الله آية وعبرة وعظه، وليس بالشرط أنها تُرىٰ الآن كما يقول بعضهم: وجدنا بعض أجزائها أو كذا، الله أعلم؛ لكن ما وقع في هذا الطوفان العظيم آية، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾[يس: ٤١]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾[الحاقة: ١١]، ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ أي: متذكر ومتعظ رجاع إلىٰ الله عز وجل، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا، سَأَلَ الأَسْوَدَ: ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ أَوْ (مُذَّكِرٍ)؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ يَقْرَؤُهَا: ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾[القمر: ١٥] قَالَ: وَسَمِعْتُ النَّبِيَّ صلىٰ الله عليه وسلم يَقْرَؤُهَا: «فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ» دَالًا، أخرجه مسلم.

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي ﴾ انظروا يا معاشر من أعرض عن دين الله كيف كان عذاب الله عز وجل لا يعجزه شيء، ﴿ وَنُذُرِ ﴾ يعني: كيف كانت نذارته، فمن أعرض عنها أهلكه بعذابه.

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ ﴾ أي: سهلنا لفظه وفهم معناه ﴿ لِلذِّكْرِ ﴾ يتذكر الناس ويتعظوا ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ من متذكر.

﴿ كَذَّبَتْ ﴾ وكذلك كذبت وأعرضت ﴿ عَادٌ ﴾ قوم عاد حيث أرسل الله إليهم هودًا عليه السلام بالبشارة والنذارة، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عذابي ﴾ أي: بعد إعراضهم وكفرهم، ﴿ وَنُذُرِ ﴾ وكيف كانت هذه النذارة، فقد صبحهم الله: ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾[الحاقة:٧]،

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ شديدة عظيمة وهي جند من جنود الله، وهي ريح الدبور ﴿ صَرْصَرًا ﴾ أي: في حال برودة وصوت مزعج، ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ عليهم وشدة وضيق، ﴿ مُسْتَمِرٍّ ﴾ دائم الشؤم فاستمر عليهم سبع ليال وثمانية أيام ثم زال؛ لكن بعد إهلاك الله لهم حيث أصبحوا كأعجاز نخل خاوية، وكما قال الله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾[الأحقاف:٢٤-٢٥]، وقد قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ» أخرجه مسلم (١٧) عن اين عباس ت، فالدبور: هي الريح الغربية التي أهلك الله بها قوم عاد، والصبا: هي الريح الشرقية التي نصر بها محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم، والريح تمشي بأمر الله، فقد كان يحمل عليها سليمان عليه السلام في غدوته وروحته مسيرة شهر،.

﴿ تَنزِعُ النَّاسَ ﴾ عن أماكنهم، أي: من عظيم شأنها أنها تنزع الناس ترفعهم ثم تهوي به، إما في حالة حرجة وإما أن نتقابض حتىٰ نصل إلىٰ المسجد مع قرب مسافته، ومن عجيب شأنهم أنهم يمكثون أشر لا يستطيعون صعود البحر ولا أن ترسوا سفينة في برهم، فإذا كان هذا في ريح موسمية فكيف بريح العذاب، ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ كأنهم جذوع النخل التي أُخرجت من تربتها وألقيت.

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ كرر الله هذا لبيان حججه القويمة وآياته العظيمة حتىٰ لا يحتج محتج مجوزًا لكفره وبعده عن دين الله.

ثم قال: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ﴾ وهم قوم صالح، ﴿ بِالنُّذُرِ ﴾ وهو نذير لهم بين يدي عذاب شديد؛ لكن جمعت النذارة؛ لكثرة الآيات التي يأتي بها الأنبياء أو لكثرة الرسل والأنبياء الذين أرسلوا إلىٰ قومهم، والمكذب لواحد منهم كالمكذب لهم جميعًا، فقد قال الله عز وجل: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾[الشعراء:١٠٥]، وحال المؤمنين ما قال الله عز وجل: ﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾[البقرة:٢٨٥].

﴿ فَقَالُوا ﴾ أي: في رد دعوىٰ الحق التي جاءتهم من الله، ﴿ أَبَشَرًا ﴾ آدميًا وهذه حجة ضعيفة دائمًا يأتي بها الكفار حيث يطلبون ملك، مع أن الله لو أرسل ملكًا لجعله رجلًا، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾[الأنعام:٩]، ﴿ أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ ﴾ يعني: نتبع واحد ونترك رأي الجماعة، ﴿ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ ﴾ قال قتادة: إنا إذا لفي عذاب وعناء مما يلزمنا من طاعة، وقيل جنون.

ثم ردوا نبوته ورسالته بحجة عليلة بل ميتة، وهي قولهم: ﴿ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ كما قال قوم قريش: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[الزخرف:٣١]، يعني: أبوا أن يسلموا بمحمد صلىٰ الله عليه وسلم بهذه الدعوىٰ مع أن الله عز وجل يقول: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ

﴾[القصص:٦٨]، وبنو إسرائيل حين ردوا تمليك الله عز وجل لطالوت عليهم: ﴿ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ ﴾[البقرة:٢٤٧]، فهذه دعوىٰ كل مبطل ثم جاءوا برد دعوته جملةً وتفصيلًا بقولهم: ﴿ بَلْ هُوَ ﴾ أي: صالح عليه السلام، ﴿ كَذَّابٌ ﴾ في قوله بأن الله أرسله، ﴿ أَشِرٌ ﴾ شديد الشر والكبر والبطر، متجاوز في باب الكذب وفي الحديث: « وَالْأَشَرَةُ شَرٌّ».

قال: ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا ﴾ وهذا علىٰ التهديد أي: سيعلم كفار ثمود الذين أعرضوا عن دعوة صالح عليه السلام غدًا ﴿ مَنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ ﴾ حين يأتيهم بطش الله وغضبه وانتقامه.

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ ﴾ أي اختبارًا فقد أرسل الله لهم الناقة حيث سألوا الآية: ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ * فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[الشعراء:١٥٥-١٥٨]، أتاهم الله بناقة ومن عظيم شأنها أنها تشرب ماء البئر في يوم وترويهم بلبنها جميعًا، وفي اليوم الثاني ماء البئر لهم؛ لكنهم أبوا إلا قتلها وعقرها: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾[الشمس:١٤-١٥]، فتنة حلت بهم ﴿ فَارْتَقِبْهُمْ ﴾ انتظر ما هم صانعون، ﴿ وَاصْطَبِرْ ﴾ علىٰ ارتقابهم، وقيل علىٰ ما يصيبك من الأذىٰ حتىٰ يأتي نصر الله، وهذا من تأييد الله عز وجل لأنبيائه، وفيه: عظيم الصبر، فإن الله أمر

به المرسلين، ولا بد للداعي إلىٰ الله عز وجل من الصبر علىٰ المخالفين والمعارضين حتىٰ ينهره الله ويؤيده.

﴿ وَنَبِّئْهُمْ ﴾ يا صالح: ﴿ أَنَّ الْمَاءَ ﴾ أي: ماء البر، ﴿ قسمة بَيْنَهُمْ ﴾ أي: بين الناقة وبين قوم صالح الذين هم ثمود، ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴾ أي: يحضره من كانت نبوته، فإن كان يومها حضرت شربها، وإن كان يومهم حضروا شربهم.

﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ ﴾ وهو قدار بن سالف رجل عارم منيع في قومه، ﴿ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ أمروه بذبحها بعد أن تمالؤوا علىٰ قتل صالح فسلمه الله، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[النمل: ٤٨ – ٥٢].

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ انظر كيف دمر الله عليهم وأهلكهم مع كبرهم وبغيهم.

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ وهي صيحة جبريل عليه السلام فأهلكهم الله عز وجل بها، ﴿ فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ كبقايا طعام الدواب، فما سقط من علفها وداسته فهو الهشيم، وقيل كيابس الشجر إذا انحطم ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴾ قومه من حيث أنه دعاهم وإلا فإن لوط ابن عم إبراهيم عليه السلام هاجر مع إبراهيم فنزل في منطقة سدوم وهي ما حول البحر الميت الآن فدعاهم إلىٰ توحيد الله عز وجل وترك ما يعاقرونه من الفاحشة التي لم يسبقوا إليها؛ حيث أنهم يأتون الذكران من العالمين فكذبوا بالنذارة وكان جزائهم:

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ أرسل الله عليهم حاصبًا يحصبهم وهو حجارة من سجيل، كما مر في تفسير سورة الذاريات، قال الله عز وجل في شأن عذابها: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾[هود:٨٢-٨٣].

﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ ﴾ أي: أسرته، واستثني منها زوجته؛ لأنها كانت متمالئة مع قومها: ﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾[النمل:٥٧]، وفي بعض الآيات: ﴿ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾[العنكبوت:٣٢]، الهالكين، ﴿ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ أي: أن الله أمرهم بالخروج من القرية في وقت السحر حيث أمرهم بقوله: ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾[هود:٨١].

﴿ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ كان هذه النجاة نعمة من الله أن سلمهم من بين تلك الأمة، ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ لأن الله يجزي الشاكرين والعابدين له علىٰ أعمالهم الصالحة إما في الدنيا والآخرة، وإما في الآخرة ويأتيهم في الدنيا خير بسببها، كما قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً يُثَابُ عَلَيْهَا الرِّزْقَ

فِي الدُّنْيَا، وَيُجْزَىٰ بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا»، أخرجه مسلم عن أنس رضي الله عنه، وفي هذا فضل الشكر لله عز وجل، ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[إبراهيم:٧]، فلو اعتصم الناس بعبادة الله وشكروه وذكروه مع هذه الفتن والأدواء لرأيت فضل الله العظيم.

﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا ﴾ كان من أمره معهم أنه أنذرهم وحذرهم بطش الله وغضبه عليهم، ﴿ فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ شكوا وأعرضوا ولم يلتفتوا لنذرته، فكان جزاؤهم الهلاك.

وكان من سوء صنيعهم: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ ﴾ أي: طلبوا منه أن يسلم إليهم أضيافه ﴿ عَنْ ضَيْفِهِ ﴾ حين جاءه جبريل وميكائيل وإسرافيل في صورة شباب حسان الوجوه، فكان حالهم كما قال الله: ﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللهَ وَلا تُخْزُونِ * قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾[الحجر:٦٧-٧٠].

﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ أي: أعمىٰ الله علىٰ أعينهم فلم يتوصلوا إلىٰ مطلوبهم: وقال أهل التفسير: خرج إليهم جبريل فضرب أعينهم بجناحه حتىٰ طمست وغارت، والله أعلم، ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ أي: ما أنذركم به لوط.

﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً ﴾ أي: جاءهم العذاب في الصباح، وربما كان بعضهم في نوم وسبات بعد سهر وإرهاق كما قال الله عز وجل: ﴿ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ

الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾[هود:٨١]، عذاب واقع وثابت لازم حتىٰ أهلكهم وأفضىٰ إلىٰ العذاب.

﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ كررها عليهم لشدة ما نزل بهم من العذاب، ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾.

ثم أخبر الله عن حال فرعون، وهم من آخر الأمم المذكورة: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴾ يعني موسىٰ وهارون حيث قال الله عز وجل: ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي ﴾[طه:٢٤-٣٠].

﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ المتكاثرة كما قال الله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾[الإسراء:١٠١]، وهو كذاب في هذا القول كما أخبر الله عنه: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾[الإسراء:١٠٢]، ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[النمل:١٤]، والآيات التسع جمعها بعضهم في قوله:

عَصَا سَنةٌ بَحرٌ جَرادٌ وَقُمَّلُ ... دَمٌ وَيَدٌ بَعدَ الضَفادِعِ طُوفَانُ

فكانت إذا جاءتهم هذه الآيات آمنوا ووعدوا بالإيمان فإذا دعا الله بصرفها عنهم عادوا إلىٰ بغيهم وكفرهم، ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ أخذهم الله، ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ ﴾ قوي منيع ﴿ مُقْتَدِرٍ ﴾ لا يعجزه شيء، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ

وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[هود: ١٠٢]، فأنجىٰ موسىٰ ومن معه بإمساك ماء اليم عن التدفق، وأهلك فرعون ومن معه بإرسال الماء عليهم: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَىٰ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴾[الشعراء:٦١-٦٤]، قرب فرعون ومن معه إلىٰ البحر: ﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[الشعراء:٦٥-٦٧].

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ ﴾ أتظنون أنكم تسلمون من الهلاك؛ لأن كفاركم أشد وأقوىٰ ممن تقدم ذكرهم، ﴿ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ ﴾ من العذاب والخزي، ﴿ فِي الزُّبُرِ ﴾ في الكتب مزبورة مكتوبة من رب العالمين علىٰ أن لا ينالكم خزي ولا عذاب ولا حساب، والواقع أنه قد توعدهم الله بعذاب أليم.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ يعني كفار مكة، ﴿ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴾ يعني: نحن جمع كثير وأمرنا علىٰ حال واحد، وستكون لنا الغلبة والنصر، وكانوا يتبجحون بكثرتهم وجموعهم؛ ولذلك زعم أبو جهل حين أراد أن يطأ علىٰ عنق النبي صلىٰ الله عليه وسلم أنه سيدعو ناديه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالَ فَقِيلَ: نَعَمْ، فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ، أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، قَالَ: فَأَتَىٰ رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم وَهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ

وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً، فَقَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا»، قَالَ: فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ - لَا نَدْرِي فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَوْ شَيْءٌ بَلَغَهُ -: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ * إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ * أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ * أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾[العلق: ٧-١٣]،- يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ -: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ الله يَرَىٰ * كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾[العلق:١٤-١٩]. أخرجه مسلم.

﴿ سَيُهْزَمُ ﴾ وفي قراءة: (سَنهزم)، ﴿ الْجَمْعُ ﴾ كفار قريش، ﴿ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ وهذا خبر من الله بمكة وكان حصوله في غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة، فقد انهزم كفار قريش وقتل منهم سبعون وأسر سبعون.

﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ دعهم يتغطرسوا ويتكبروا والساعة موعدهم فيجازون علىٰ أعمالهم، ﴿ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ أي: أعظم داهية وأد مرارة من أسر يوم بدر، قال الله عز وجل في شأنها : ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴾[المزمل:١٧-١٨].

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ ﴾ إن الكافرين، ﴿ فِي ضَلَالٍ ﴾ في تيه وشك وريب، ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ شكوك وظنون فاسدة، لا يلون علىٰ عقيدة ثابتة؛ لأنهم يتبعون الظنون في جميع

عقائدهم وأقوالهم وأفعالهم كما قال الله عز وجل: ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَىٰ الْأَنْفُسُ ﴾[النجم:٢٣].

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ تقريعًا وتوبيخًا فعن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ الله كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَىٰ رِجْلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، قَادِرًا عَلَىٰ أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» أخرجه مسلم.

﴿ذُوقُوا ﴾ تذوقوا وتعذبوا، ﴿ مَسَّ سَقَرَ ﴾ عذاب النار المحرقة التي تسمىٰ بسقر، وليس كما يقول بعض الدجاجلة: بأن سقر كوكب سيسقط من السماء ويكون به هلاك الأرض، بل هو من أسماء النار، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ ﴾[المدثر:٢٧-٢٨].

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ وذلك أن كفار قريش أنكروا القدر وخاصموا فيه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: " جَاءَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ يُخَاصِمُونَ رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم فِي الْقَدَرِ، فَنَزَلَتْ ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ، إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر: ٤٩]، أخرجه مسلم.

والإيمان بالقدر هو الركن السادس من أركان الإيمان الستة، التي تضمنها حديث جبريل: قال «مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكِتَابِهِ، وَلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الْآخِرِ»، أخرجه مسلم، والقدر سر الله لم يطلع عليه ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا، والإيمان به يتم به بتحقيق أمور أربعة:

الأول: الإيمان بعلم الله الأزلي الأبدي المحيط بكل معلوم، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٥]، وما في بابه من الآيات.

الثاني: الإيمان بكتابة الله عز وجل لما كان وما يكون إلىٰ قيام الساعة، يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَىٰ الله يَسِيرٌ ﴾[الحديد: ٢٢].

الثالث: أنه لا يقع في هذا العالم إلا ما شاءه الله عز وجل: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الله ﴾[الإنسان:٣٠].

الرابع: أن الله خالق الخير والشر، قال الله عز وجل: ﴿ وَالله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[الصافات: ٩٦]، وقال: ﴿ الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[الزمر: ٦٢]، خلق الخير وهو يحبه، وخلق الشر لحكمته ولما تتحقق به من المصالح من جهاد الكافرين وابتلاء المؤمنين واختبارهم، فمن أطاع الله أكرمه ورفعه ومن عصاه فهو معرض للذل والهوان إلا أن يسلم الله عز وجل من شاء من أهل الإسلام.

ثم قال: ﴿ وَمَا أَمْرُنَا ﴾ أي: إذا أردنا الساعة، ﴿ إِلَّا وَاحِدَةٌ ﴾ أي: لا يحتاج إلىٰ تأكيد، ﴿ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ أي: طرفة عين، وقد أحسن من قال:

إِذا مَـــا أَرَادَ اللّٰهُ أَمـــرًا فإِنْمَـــا ... يَقُـــولُ لَـــهُ كُـــنْ قَوْلُـــهِ فَيَكُـــونُ

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[يس:٨٢]، وانظر قدرة ما قصه الله عز وجل علينا: ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ

مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾[النمل:٤٠]، فهذا فعل مخلوق مستعين بالله عز وجل فكيف بفعل الله الذي لا يعجزه شيء: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾[الزمر:٦٨].

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ ﴾ يعني: أمثالكم وسلفكم من الأمم السابقة، ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ فهل من معتبر ومنزجر عن معصية الله عز وجل.

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ أي: كل ما سيكون منهم وعليهم مكتوب في الزبر وباللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الخلائق حيث خلق القلم فقال له: «اكْتُبِ الْقَدَرَ، فَجَرَىٰ بِمَا هُوَ كَائِنٌ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ»، أخرجه أبو داود عن عبادة رضي الله عنه، ومع ذلك يمهل الله ويملي للظالم حتىٰ إذا أخذه لم يفلته.

﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ ﴾ من أعمالهم، ﴿ وَكَبِيرٍ ﴾ من أفعالهم، ﴿ مُسْتَطَرٌ ﴾ مكتوب ومدون ومحفوظ عليهم يجازون عليه يوم القيامة، وفي مسند أحمد (٢٢٨٠٨) عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ حَتَّىٰ أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَىٰ يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ».

وقد ذكر ابن كثير في تفسيره عن سُلَيْمَانُ بْنُ الْمُغِيرَةِ أَنَّهُ عَمِلَ ذَنْبًا فَاسْتَصْغَرَهُ، فَأَتَاهُ آتٍ فِي مَنَامِهِ فَقَالَ لَهُ: يَا سُلَيْمَانُ:

لَا تَحْقِرنَّ مِنَ الذنوبِ صَغِيرا — إِنَّ الصَّغير غَدًا يَعُودُ كَبِيرَا
إِنَّ الصَّغِيرَ وَلَوْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ — عِنْدَ الْإِلَهِ مُسَطَّرٌ تَسْطِيرَا
فَازْجُرْ هَوَاكَ عَنِ الْبَطَالَةِ لَا تَكُنْ — صَعْبَ الْقِيَادِ وَشَمِّرَنْ تَشْمِيرَا
إِنَّ الْمُحِبَّ إِذَا أَحَبَّ إلهَهُ — طَارَ الْفُؤَادُ وأُلْهِم التَّفْكِيرَا
فَاسْأَلْ هِدَايَتَكَ الْإِلَهَ بِنِيَّةٍ — فَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرَا

اهـ.

﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ جمع جنة، جمعت لكثرة وتنوع من فيها ﴿وَنَهَرٍ﴾ لما ذكر الله حال الكافرين عقب بحال المؤمنين، وهذا يكون في القرآن علىٰ أوجه متعددة إما أن يتقدم حال المؤمنين ويتلوه حال الكافرين، وإما أن يتقدم حال الكافرين ويتلوه حال المؤمنين، إما أن يذكر حال الكافرين مجردًا عن حال المؤمنين أو يذكر حال المؤمنين مجردًا عن حال الكافرين، ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾[الحديد:١٢]، كما جاء في مواطن عدة، منها: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾[محمد: ١٥].

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ في مكان يستقرون فيه حق لا تحول عن حالهم إلىٰ غيره: ﴿ لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾[الكهف:١٠٨]، ﴿ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ وهو الله عز وجل، المالك لهم والقادر عليهم لا يعجزه شيء فيكرمهم بكرامات عظيمة ويجزي لهم المثوبة ويرضىٰ عنهم: ﴿ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾[البينة:٨]، وينعمون أبد الآباد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم –أنه ينادي مناد في الجنة –: «إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا، فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا»، أخرجه مسلم، وفي حديث عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ الله عَلَىٰ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»، أخرجه مسلم فنسأل الله عز وجل أن يجعلنا: ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾.

والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الرحمن مكية، كما هو ترجيح ابن كثير وقيل: مدنية، والذي يظهر أن سياقتها سياقة السورة المكية، وهي أول المفصل عند ابن مسعود رحمه الله ورضي عنه.

قوله: ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ افتتح الله عز وجل هذه السورة بذكر اسمه الرحمن؛ لبيان رحمته الواسعة وفضله العظيم في تعليم الناس ما يحتاجون إليه ولإتمامه لخلقتهم علىٰ أحسن تقويم فهو المتفضل علىٰ عبادة بما شاء من نعمه، والرحمن: من الأسماء المختصة به لم يسمَ به غيره، وما جاء عن مسيلمة أنه سمىٰ نفسه رحمان اليمامة فهو من باب المكابرة، وكانت تعرفه العرب، وأما ما جاء عن قول قريش: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾[الفرقان:٦٠]، فيعمل أن بعضهم كان لا يعرفه، وبعضهم كان يعرفه فقد جاء في بعض أشعار العرب: (ألا قضب الرحمن ربي يمينها)، وهو علىٰ وزن فعلان، ويدل علىٰ الرحمة العامة الواسعة.

ومن رحمته أنه: ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ فأنزله وبينه ويسره، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾[القمر:١٧]، وعلمه محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم كما قال: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾[النساء: ١١٣]، ومعلوم أن إرسال الرسل

وإنزال الكتب من أعظم الرحمات إذ أن الله لم يترك عباده هملًا؛ بل أرسل إليهم رسلًا فيبشرون المؤمنين وينذرون الكافرين، قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾[المزمل: ١٥]، والقرآن كلامه الذي أنزله علىٰ محمد صلىٰ الله عليه وسلم فبين ربنا عز وجل لفظه ومعناه، ويسره للقراءة والتدبر والتعقل، وهو الكتاب المحفوظ كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[الحجر: ٩].

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴾ خلقه من طين: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾[السجدة: ٧-٩].

﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ علمه القراءة والكتابة ونطق الحروف من مخارجها والإفصاح عما في نفسه بخلاف بقية الحيوان البهيم.

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ أي: يجريان وفق حساب ثابت لا يتغير ولا يتبدل: ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[يس:٤٠]، وقد جعل الشمس والقمر حسبانًا أي: تحسب بها الشهور والأعوام، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾[الأنعام: ٩٦].

﴿ وَالنَّجْمُ ﴾ المعروف في السماء، وقيل: بأنه الشجر الذي لا ساق له، ﴿ وَالشَّجَرُ ﴾ المثمر وغير المثمر مما له ساق، ﴿ يَسْجُدَانِ ﴾ لله عز وجل علىٰ وجه يعلمه الله عز وجل.

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾ بغير عمد، ﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ العدل، كما قال عز وجل: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾[الحديد:٢٥].

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ أي: لا تتجاوز العدل في جميع شؤونكم.

﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ﴾ بالعدل، ﴿ وَلا تُخْسِرُوا ﴾ تنقصوا: ﴿ الْمِيزَانَ ﴾ وهذا عام في الموزونات الحسية كالمكاييل أو الموزونات المعنوية كالعدل والإنصاف، ﴿ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ فمن خسر ميزانه فقد استحق الوعيد: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَىٰ النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴾[المطففين:١-٤]، ولو استقام الناس علىٰ هذا الأمر لصلح الحال، ولكن إلىٰ الله المشتكىٰ، فقد قل الإنصاف، وظهر الإجحاف في جميع شؤون الحياة.

﴿ وَالأَرْضَ ﴾ المسطوحة المبسوطة، ﴿ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾ للخلق الذين بثهم فيها يأكلون مما يخرج منها، ويشربون من مائها، ويستظلون ببنائها، فإذا جاءت الساعة جعلها ربي دكًا.

﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ مما لذ وطاب من أنواع الثمار، ﴿ وَالنَّخْلُ ﴾ خصه بالذكر؛ لما يتميز به من أنه طعام وحلوىٰ ويسهل ادخاره، ﴿ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴾ ذات العزوق والأوعية التي قد استوىٰ فيها التمر.

﴿ وَالْحَبُّ ﴾ معروف من الذرة، والشعير وغيرها من الحبوب، ﴿ ذُو الْعَصْفِ ﴾ ورق كل شيء وهو ما يخرج منه حين تنقيته فيخرج منه شيء يسير يتجمع ويكون تبنًا، ﴿ وَالرَّيْحَانُ ﴾ هو الرزق في قول كثير من المفسرين، وبه قال ابن عباس رضي الله عنه، وقال الحسن وابن زيد ريحانكم الذي يشم ، وقيل: العشبة المعهودة ذات الرائحة، الجميلة، وقد ضرب به النبي صلىٰ الله عليه وسلم بالمنافق الذي يقرأ القرآن، فعن أبي موسىٰ رضي الله عنه قال ثقال النبي صلىٰ الله عليه وسلم : «وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا مُرٌّ»، متفق عليه.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ بعد أن ذكر الله عز وجل من قدرته النافذة وحججه علىٰ عباده خاطب الثقلين من الجن والإنس بأي شيء من نعم الله عز وجل يقع تكذيبكم؟ وفي الترمذي عن جابر: أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال: «لقد كان الجن أحسن ردًا منكم، كلما قرأتُ عليهم: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾، (قَالُوا: لا بِشَيْءٍ مِنْ آلائِكَ رَبَّنَا نكذبُ)، لكن الحديث ضعيف من طريق الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد ورواية أهل الشام عنه ضعيفة.

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴾ خلق آدم عليه السلام أبو البشرية، ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ ﴾ وهو الطين إذا يبس، ﴿ كَالْفَخَّارِ ﴾ معروف وهو ما تصنع منه الأواني من الطين ونحوه.

﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ ﴾ إبليس عليه لعنة الله، ﴿ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾ قيل: من أصفاها، وقيل: من دخانها، وهذا دليل علىٰ ثبوت آدم عليه السلام وعلىٰ خفة الشيطان؛ ولذلك حين أكل آدم من الشجرة تاب وأناب، وحين أبىٰ الشيطان السجود استكبر ومضىٰ في شأنه؛ لأن شأن النار الطيشان وعدم السكون، وهذا أصل الخليقة، ففي حديث عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»، أخرجه مسلم .

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ ﴾ مشرقي الصيف والشتاء، ﴿ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ وأما قول الله عز وجل: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾[المعارج:٤٠]، فهو بالنسبة إلىٰ المطالع، الشمس والقمر في كل يوم وقوله: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾[المزمل:٩]، فالمشرق: ما تطلع منه الشمس، والمغرب: ما تغرب منه.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مَرَجَ ﴾ أرسل: ﴿ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ البحر المالح الذي هو المحيط وما إليه من الخلجان، والبحر العذب وهو الأنهار وما إليها، يعني: فصل بينهما بحيث لا يقع بينهما التمازج والتداخل، قال الله عز وجل:

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾[الفرقان: ٥٣]

﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ الحاجز من الأرض حتىٰ لا يلحقها المفاسد باختلاطهما ﴿ لا يَبْغِيَانِ ﴾ لأنه إذا تداخل الماء العذب مع الماء المالح فسد؛ بينما الماء العذب للشرب والغسل والسقي، والماء المالح يوجد فيه أنواع الأسماك واللؤلؤ والمرجان، ومما يظهر أن الماء المالح حين يلتقي بالماء العذب يكون بينهما مثل الفاصل، والله عز وجل صاحب القدرة النافذة، في مدينة الخوخة تحفر علىٰ الساحل بل وما البحر يمشي عليك فتحفر حفرةً فتستخرج منها عذبًا زلالًا، وهذا من آيات الله.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ قيل: يخرج من أحدهما وهو المالح، **كما قال ابن كثير**: وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ إِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ مِنَ الْمِلْحِ لَا مِنَ الْحُلْوِ. وَهَذَا وَاضِحٌ. اهـ، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿ يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾[الأنعام: ١٣٠] ﴿ اللُّؤْلُؤُ ﴾ وهو نوع من الزينة، ﴿ وَالْمَرْجَانُ ﴾ هو صغار اللؤلؤ، وقيل كباره، ويكثر خروجه في الخليج العربي؛ لأن البحار المحيطة والخلجان العميقة قد لا تجد فيها مثل هذا؛ ولكن حين يكون البحر قريبًا تصل إليه الشمس ونحو ذلك ربما تكون في هذا النوع من أنواع الزينة، وقد قال الله عز وجل في

وصف البحرين: ﴿ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾[فاطر: ١٢].

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يذكر الله عز وجل النعمة ثم يذكر بعدها بماذا تكذبون من نعم الله الكثيرة وآلاءه الجزيلة.

﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ ﴾ السفن، ﴿ الْمُنشَآتُ ﴾ المخلوقات التي صنعها الإنسان، ﴿ فِي الْبَحْرِ ﴾ يعني علىٰ البحر، ﴿ كَالأَعْلامِ ﴾ كالجبال العالية ترىٰ من بعد، وهي كقوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴾[الشورىٰ:٣٢]، فجعلها آية عظيمة من آيات الله، فكم تنقل السفن من حاجيات الناس، ولو كان النقل علىٰ الطائرات والناقلات التي تسير علىٰ الأرض لشق ذلك علىٰ الناس.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ إخبار بفناء الإنسان والجآن ومن إليهم مما كتب الله عليه الفناء، وهكذا كقوله: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[القصص: ٨٨]، وكقوله: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾[آل عمران: ١٨٥]، وقد كتب الله الفناء علىٰ جميع المخلوقات إلا ثمانية أشياء ذكرها أهل العلم:

ثمانيــة حُكــم البقــاء يعمهــا   من الخلق والباقون في حيز العدم

هي العرش والكرسي نـار وجنـة   وعجب وأرواح كذا اللوح والقلم

﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ في هذه الآية عزاء لكل مسلم إن مات قريبك أو حبيبك أو ابنك أو أخوك فاعلم أن هذا أمر قد كتب علىٰ الناس، كتب الموت علىٰ الناس، فكم أخذ من ممالك وكم أفنىٰ من دول، ذهب فرعون،

ونمرود، وبختنصر، وقارون، وهامان ومن معهم من المتكبرين لم تغنِ عنهم أموالهم شيئًا، قال ابن الوردي رحمه الله في لاميته:

كُتبَ الموت علىٰ الخَلقِ فكمْ فَلَّ من جيشٍ وأفنىٰ من دُوَلْ
أينَ نمرودُ وكنعانُ ومنْ مَلَكَ الأرضَ وولَّىٰ وعَزَلْ
أين عادٌ أين فرعونُ ومن رفعَ الأهرامَ من يسمعْ يَخَلْ
أينَ من سادوا وشادوا وبَنَوا هَلَكَ الكلُّ ولم تُغنِ القُلَلْ
أينَ أربابُ الحِجَىٰ أهلُ النُّهىٰ أينَ أهلُ العلمِ والقومُ الأُوَلْ
سيُعيدُ الله كلًّا منهمُ وسيَجزي فاعلًا ما قد فَعَلْ

وفيه إثبات صفة الوجه لله عز وجل وهي من الصفات الذاتية الخبرية، والأدلة في ذلك كثيرة منها قول رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَىٰ لِقَائِكَ»، وقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «حِجَابُهُ النُّورُ - وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ: النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»، أخرجه مسلم، وعن جابر رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾[الأنعام: ٦٥]، قَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، قَالَ: ﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾[الأنعام: ٦٥]، قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾[الأنعام: ٦٥]، قَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «هَذَا أَهْوَنُ - أَوْ هَذَا أَيْسَرُ -»،

أخرجه البخاري، ﴿ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ وصف للوجه؛ لأنه رفع، ولو كان وصف لكلمة ربك لكان ذي الجلال والإكرام، فمن فسر الوجه بالثواب أو الإحسان أو الذات فقد أخطأ وزل طريق السلف الكرام، و﴿ الْجَلالِ ﴾: العظمة، ﴿ وَالإِكْرَامِ ﴾: الكرام والجود والتفضل والإحسان، ومعنىٰ الآية يبقىٰ الله عز وجل المتصف بالوجه العظيم الجميل البهم.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وأنتم تشاهدون من يموت وتشاهدون ذهاب الممالك.

﴿ يَسْأَلُهُ ﴾ أي: الله، ﴿ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي: من المخلوقات أرزاقًا وعطايا ومنحًا، ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ كل وقت هو في شأن، ولا يشغله شأن عن شأن، يحيي هذا ويميت هذا، ويرزق ويجبر ويعز ويذل ويرفع ويخفض ويستجيب، والله المستعان، فهو تعالىٰ: ﴿ فعّال لما يريد﴾.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ ﴾ أنه هذا وعيد من الله للع باد وليس لديه شغل، ولكن يكون ذلك في يوم القيامة حين يجمع الناس لرب العالمين حفاةً عراةً غرلًا، فيجازون علىٰ أعمالهم، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَىٰ اللهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٤]»، أخرجه مسلم.

والثقلان: الجن والإنس؛ لأنهم حملوا الأمانة الثقيلة فعجزوا عن القيام بها إلا ما رحم ربي، وقيل سنفرغ لكم كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[الأحزاب:٧٢].

وقال البخاري: سيحاسبكم لا يشغله شيء عن شيء وهو معروف في كلام العرب يقول: لأتفرغن لك وما به شغل.

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾، أي: يقال لهم يوم القيامة حين يجمعون: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ يناديهم باسمهم العام متحديًا لهم مظهرًا لضعفهم، ﴿ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ ﴾ إن كان في قدرتكم: ﴿ أَنْ تَنفُذُوا ﴾ تهربوا، ﴿ مِنْ أَقْطَارِ ﴾ وجوانبها، ﴿ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ وقيل: تحداهم أن يفروا من الموت، وهي كقوله: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾[النساء: ٧٨]، وأصحاب الهيئة استدلوا بهذه الآية علىٰ صعود القمر والمريخ والزهرة ونحو ذلك، ولا دلالة لهم فيها لأن هذه الآية في اليوم الآخر، والمعنىٰ يقول الله عز وجل: إن استطعتم أن تفروا من الله ففروا وهيهات، ﴿ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ بحجة قاهرة وقوة ظاهرة، وليس إليكم ذلك، فإن الله محيط بكم وملائكته قد أحاطوا بكم، فلا نفاذ إلا بأمر الله عز وجل، وهذا كقوله: ﴿ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ * كَلَّا لَا وَزَرَ ﴾[القيامة: ١٠-١١]، وكقوله: ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ

ذِلَّةٌ ﴾[يونس: ٢٧]، وقوله: ﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾[النبأ: ١٩]، وقوله: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾[الانفطار: ١].

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا ﴾ أي: علىٰ الإنس والجآن، ﴿ شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ ﴾ لهب النار وقيل الدخان والأول أظهر ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ دخان النار في تفسير ابن عباس، ومنه قول نابغة بن جعدة :

يُضِيءُ كَضَوءِ سِراجِ السَّليط لم يَجْعَلِ اللهُ فِيهِ نُحَاسا

﴿ فَلا تَنْتَصِرَانِ ﴾ لا يقع لكم النصر؛ لأنهم هزموا، ولأن النصر عليهم بسبب ذنوبهم ومعاصيهم بينما المؤمنون حالهم ما قاله الله: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾[غافر: ٥١].

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ ﴾ يوم القيامة، كقوله تعالىٰ: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾[الانشقاق: ١]، وقوله: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴾[الفرقان: ٢٥].

﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ أي: كلون الفرس الورد، وهو الأبيض الذي يضرب إلىٰ الأحمر وقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ كَالدُّهْنِ صَافِيَةُ الْحُمْرَةِ مُشْرِقَةٌ واختاره ابن جرير رحمه الله.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أي: في يوم القيامة شديد الأهوال والأحوال: ﴿ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ ﴾ كقوله: ﴿ هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾[المرسلات: ٣٥-٣٦]، وقد جاء في بعض المواطن أنهم

يُسألون قال تعالىٰ: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[الحجر: ٩٢-٩٣]، فهذا علىٰ حالات في المواطن، وعن عدي بن حاتم قال: قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «مَا مِنكمْ مِن أحدٍ إلا سَيُكلمهُ رَبهُ، ليس بينهُ وبينهُ تُرجُمان»، متفق عليه.

قال قتادة: قد كانت مسألة ثم ختم علىٰ أفواه القوم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.

﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي: يوم القيام، ﴿ بِسِيمَاهُمْ ﴾ بعلاماتهم التي في وجوههم، من أثر الشرك وما إليه من الذنوب كما يعرف المؤمنون بآثار السجود والوضوء، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ يَتَوَضَّأُ فَغَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ حَتَّىٰ كَادَ يَبْلُغُ الْمَنْكِبَيْنِ ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْهِ حَتَّىٰ رَفَعَ إِلَىٰ السَّاقَيْنِ، ثُمَّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم يَقُولُ: «إِنَّ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ»، متفق عليه، ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي ﴾ أي: تأخذهم الزبانية بنواصيهم وهي مقدمة رؤوسهم، ﴿ وَالأَقْدَامِ ﴾ فتلقيهم في النار وبئس القرار، وهذا لشدة الهوان الذي هم عليه.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَذِهِ جَهَنَّمُ ﴾ قد أزلفت لهم وقربت ورأوها رأي العين، ﴿ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي: كذبوا بها في الدنيا إما بعدم العذاب فيها، كما هو قول اليهود: ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ﴾[البقرة: ٨٠].

﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ يعذبون بحريقها وتارة بشرب الماء الحميم الذي هو كالرصاص المذاب، والحال، ويأكلون من شجر من زقوم، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴾[الدخان:٤٦]، إلىٰ غير ذلك من أنواع بلائهم وفتنتهم نسأل الله السلامة والعافية.

ولما ذكر الله عز وجل حال الكافرين والمعرضين ثناه بحال المؤمنين فقال: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ ﴾ كقول الله عز وجل: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾[النازعات:٤٠-٤١]، فعبادة الخوف من أفضل العبادات وأقرب الطاعات يتميز بها خلص المؤمنين، فأخبر الله عز وجل عن الملائكة: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾[النحل:٥٠]، وقال الله عز وجل عن زكريا: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾[الأنبياء: ٩٠]، ﴿ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ أي: خاف ربه لعظمته سبحانه وتعالىٰ؛ ولبيان الجنتين ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ أي: جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين وفي حديث أبي موسىٰ قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَرَوْا رَبَّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»،متفق عليه

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ بعد هذه الحجج القوية الظاهرة.

وفي وصف هاتين الجنتين قال: ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ أي: أشجار نضرة دانية وجميلة، يُتنعم بالنظر إليها كما يُتنعم بالأكل من ثمارها.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا ﴾ أي: في هاتين الجنتين، ﴿ عَيْنَانِ ﴾ إما من ماء وإما من خمر أو نحو ذلك، قال الحسن: إحداهما يقال لها تسنيم والأخرىٰ سلسبيل ﴿ تَجْرِيَانِ ﴾ تسيحان وتسرحان في الجنة فيشرب منها المؤمنون بحيث لا يحتاج أحدهم إلىٰ أن ينتقل إلىٰ مكان آخر، وتسقي لهم زروعهم فتثمر بما لذ وطاب من الفاكهة العظيمة.

﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ أي: في الجنتين من كل فاكهة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وكل: من ألفاظ العموم، والفاكهة: ما يتفكه بأكله والنظر إليه، والزوج: المراد به النوع، وهذا يدل علىٰ جميل ما فيها مع تنوعه وخيره.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ ﴾ حال جلوسهم: ﴿ عَلَىٰ فُرُشٍ ﴾ جمع فراش والفراش: ما يُجلس عليه، ﴿ بَطَائِنُهَا ﴾ دواخلها، ﴿ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ الحرير الخالص فإذا كانت بطانتها من الحرير الخالص فما بالك بظاهرها فإن الناس يهتمون بالظاهر أكثر من اهتمامهم بالباطن، فذكر الله عز وجل جمال باطنها؛ ليدل علىٰ عظيم جمال ظاهرها، ﴿ وَجَنَىٰ ﴾ ما يجتني من الثمار، ﴿الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ قريب ممن يريد أكله، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾[الإنسان:١٤]، فيتناولونها بغير عناء أو تعب.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ غاضات الأعين عن غير أزواجهن، فلما ذكر الفرش وما يتعلق بها من الجمال ذكر جمال نسائهم الظاهر والباطن، ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ علىٰ غير الأزواج فلا يرفعن أبصارهن يمنة ولا يسرة، ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ أي: لم يقع في معاشرتهن، ﴿ إِنْسٌ ﴾ بشر، ﴿ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ ﴾ بل هُنّ محفوظات مُصانات، وهذا أكمل ما يكون به التمتع من النساء: أن تكون عفيفة في نفسها، وأن تكون جميلة في هيئتها، وأن تكون بكرًا، وقيل هذا وصف للحوريات اللاتي خلقهن في الجنة، وقيل من نساء الدنيا.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ في جمالهن وذلك أنه حين ذكر من حسنهن الباطن أتىٰ ببيان حسنهن الظاهر أي: كأنهن في جمال وجوههن: ﴿ الْيَاقُوتُ ﴾ في صفاته وهو نوع من الحجر الكريم، ﴿ وَالْمَرْجَانُ ﴾ في بياضه، وهو يخرج من البحار فيتزين به لجمال صفائه وحسن بهائه، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَىٰ صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَىٰ أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ وَلَا يَتْفُلُونَ، أَمْشَاطُهُمْ الذَّهَبُ وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلُوَّةُ، وَأَزْوَاجُهُمُ الْحُورُ الْعِينُ، أَخْلَاقُهُمْ عَلَىٰ خُلُقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ عَلَىٰ صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ»، متفق عليه، وعن أنس رضي الله عنه في البخاري قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: « وَلَوِ اطَّلَعَتْ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَىٰ الْأَرْضِ لَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَطَابَ مَا بَيْنَهُمَا وَلَنَصِيفُهَا عَلَىٰ

رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَىٰ مُخُّ سَاقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ، مِنَ الْحُسْنِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا»، أخرجه مسلم.

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ أي: أن كل ما ذكره الله للمؤمنين من النعيم المقيم والخير العميم سببه؛ إحسان العباد في عبادة ربهم في الدنيا فجزاهم الله بالحسنات إحسانًا، وجازىٰ المؤمنين بالسيئات عفوًا وغفرانًا، والجزاء من جنس العمل، وقد قال الله عز وجل: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[يونس:٢٦]، وهي النظر إلىٰ وجه الله عز وجل.

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ولما ذكر أعلىٰ الجنات وما فيها من الهبات عقب بذكر جنتي الفضة وما فيهما: ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا ﴾ في الفضل والمنزلة والجمال: ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ لكنهما خير عظيم، هنيئًا لمن دخل الجنة ولو كان آخرهم دخولًا، والويل لمن دخل النار وإن كان أعلاهم، فإن أبا طالب في ضحضاح من النار، له نعلان يغلي منهما دماغه.

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَامَّتَانِ ﴾ ممتلئتان من الخضرة وذلك لشدة سوادهما وكثرة أشجارهما.

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ أي: فياضتان وهذه دون الأولىٰ، فتلك: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ وهذه نضاخة، والفرق واضح فإن

النضاخة: هي التي تدفع مرة وتقبض أخرىٰ، بينما الجارية: هي التي تسرح في جميع وقتها، ومع ذلك وجود هذه العيون نافع ويُتنَعم به ويُتلذذ بالنظر إليه وفي مائه.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ وفي الأولىٰ: ﴿ مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ وكل: من ألفاظ العموم، وهنا قيدها ببعض الفواكه المأكولة، والمشروبة، والمطعومة، ﴿ فَاكِهَةٌ ﴾ وهو ما يتفكه، ﴿ وَنَخْلٌ ﴾ ذكره لبيان فضله، وهو من عطف الخاص علىٰ العام، ﴿ وَرُمَّانٌ ﴾ فاكهة معروفة نوع من الفاكهة الحولية لكن، ليس في الجنة مما في الدنيا إلا المسميات كما قاله ابن عباس ت.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ أي: خيرات كثيرة حسنة، فلما ذكر ما يُتنعم به من المآكل، وذكر ما يتعلق كذلك بالمشارب، ذكر ما يتعلق بالنساء اللاتي يُتنعم بهن في الجنة فقال: ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ أي: نساء جميلات وما هو أبلغ من ذلك، فلفظ الخيرات: لفظ عام، والحسان: المراد به الجمال.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ ﴾ من شأنهن أنهن حوريات جميلات يُرىٰ مخ ساقيها من وراء اللحم، ﴿ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾ أي: أنهن مقصورات عن النظر إلىٰ غير أزواجهن في خيام، والوصف الأول أكمل؛ لأن الأولات: ﴿ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ من أنفسهن، وهؤلاء قُصِرن بوضع الخيام عليهن، وكلهن في خير عظيم إلا أن الأولىٰ أكمل وأفضل، وخيام المؤمنين في الجنة عظيمة ففي

حديث أبي موسىٰ قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «فِي الْجنَّة لخيمة من لُؤْلُؤ وَاحِدَة مجوفة طولهَا سِتُّونَ ميلًا لِلْمُؤمنِ فِيهَا أهلون يطوف عَلَيْهِم الْمُؤمن فَلَا يرىٰ بَعضهم بَعْضًا» متفق عليه.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ ﴾ أي: لم يقع في معاشرتهن إِنس ولا جآن، بل هن محفوظات مصانات عفيفات.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ في الأولىٰ: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ وهذه: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ ﴾ السرير وقيل البسط الذي يجلس عليه ولونه أخضر، ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ ﴾ طنافس وزرابي ونحو ذلك من الألبسة المزوقة والمزينة، ﴿ حِسَانٍ ﴾ عظيمة المنظر والمخبر طنافس ولكنها في اللين كأرق ما يكون يُتمتع بلبسها كما يُتمتع بالجلوس عليها، وهذا وصف عظيم وصف الله عز وجل به الجنة، وربما لم يأتِ في سورة هذا الوصف إلا ما سيأتي بعضه في سورة الواقعة، إذ أن الله عز وجل أظهر نعيم الجنة للمؤمنين أي: جملة ما فيها، وأما تفاصيل ما فيها فالحال ما قاله رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «فيها مما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمِعَتْ، ولا خطَرَ علىٰ قلبِ بشرٍ»، وقبل ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[السجدة: ١٧].

ومن أعظم ما يوصل إلىٰ الجنة: التوحيد والصلاة والدعاء قال صلىٰ الله عليه وسلم: «مَنْ سَأَلَ الله الْجَنَّةَ ثَلَاثًا، قَالَتِ الْجَنَّةُ: اللهمَّ أَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ اسْتَعَاذَ بِالله

مِنَ النَّارِ ثَلَاثًا، قَالَتِ النَّارُ: اللهمَّ أَعِذْهُ مِنَ النَّارِ»، والجنة عظيمة الشأن سواء كان ذلك في قصورها وخيامها من المسكونات، أو كان ذلك في مطعوماتها ومشروباتها، أو كان ذلك بما يستمتع به من النكاح وغيره، ففيها كمال الحياة فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا» أخرجه مسلم، وكان المسلمون لعلمهم بمعاني القرآن ولتدبرهم له إذا وقعت عليهم مثل هذه الآيات يجدون لذةً عظيمة، وربما انخلعت القلوب لبعدهم عن مثل هذه الحياة، فلما قال رجل للنبي صلىٰ الله عليه وسلم: إن قتلت أين أنا؟ قال: «فِي الْجَنَّةِ»، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّىٰ آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قَالَ: فَرَمَىٰ بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّىٰ قُتِلَ.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه النعم العظيمة التي امتن بها علىٰ عباده في الدنيا والآخرة.

﴿ تَبَارَكَ ﴾ وهو وصف لله، بمعنىٰ تعالىٰ وتعاظم عن صفات المخلوقين ولا يجوز أن يقال لغيره تبارك، وإنما تقول: بارك الله عليك، أو بارك الله لك، ﴿ اسْمُ رَبِّكَ ﴾ أي: الاسم الذي سُمي به الله عز وجل، ﴿ ذِي الْجَلالِ ﴾ وصف للرب، ﴿ وَالإِكْرَامِ ﴾ فهو العظيم في صفاته والعظيم في كرمه، وهو المتعالي والمتعاظم عن صفات المخلوقين؛ لكمال صفاته وعظيم شأنه سبحانه وتعالىٰ إذ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ

شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[الشورىٰ:١١]، ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[الإخلاص:٤]، ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾[مريم:٦٥]، ﴿ فَلا تَضْرِبُوا للهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾[النحل:٧٤].

فائدة: ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ وقال قبل: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾[الرحمن:٢٧]، فذوا الجلال والإكرام: وصف للوجه الذي اتصف الله به الوجه العظيم الذي لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه، وهو ألذ ما يُتنعم بالنظر إليه يوم القيامة، فلذلك كان النبي صلىٰ الله عليه وسلم يقول: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِكَ»، وجرها في قوله: ﴿ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ لأنه وصف للرب، بهذا تعلم وجه من أوجه الرد علىٰ المبتدعة الذين يزعمون أن الوجه بمعنىٰ: الذات، أو أن الوجه هو الثواب أو غير ذلك من الأقوال البائرة، نسأل الله السلامة والعافية والحمد لله.

تفسير سورة الواقعة

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الواقعة مكية.

في تفسير ابن كثير: وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرَ فِي تَرْجَمَةِ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ بِسَنَدِهِ إِلَىٰ عَمْرِو بْنِ الرَّبِيعِ بْنِ طَارِقٍ الْمِصْرِيِّ: حَدَّثَنَا السُّرِّي بْنُ يَحْيَىٰ الشَّيْبَانِيُّ، عَنْ أَبِي شُجَاعٍ، عَنْ أَبِي ظَبْيَةَ قَالَ: مَرِضَ عَبْدُ الله مَرَضَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، فَعَادَهُ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ فَقَالَ: مَا تَشْتَكِي؟ قَالَ: ذُنُوبِي. قَالَ: فَمَا تَشْتَهِي؟ قَالَ: رَحْمَةَ رَبِّي. قَالَ أَلَا آمُرُ لَكَ بِطَبِيبٍ؟ قَالَ: الطَّبِيبُ أَمْرَضَنِي. قَالَ: أَلَا آمُرُ لَكَ بِعَطَاءٍ؟ قَالَ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ، قَالَ: يَكُونُ لِبَنَاتِكَ مِنْ بَعْدِكَ؟ قَالَ: أَتَخْشَىٰ عَلَىٰ بَنَاتِي الْفَقْرَ؟ إِنِّي أَمَرْتُ بَنَاتِي يَقْرَأْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم يَقُولُ: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ كُلَّ لَيْلَةٍ، لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ أَبَدًا". انتهىٰ وقد أعل الحديث بأربع علل:

الأولىٰ: الانقطاع كما ذكره الدارقطني وابن أبي حاتم في علله نقلا عن أبيه.

الثانية: نكارة متنه قاله الإمام أحمد.

الثالثة: ضعف رواته: السري بن يحيىٰ وشجاع كما ذكره ابن الجوزي.

الرابعة: الاضطراب فمنهم من يقول: أبو طيبة بالطاء المهملة ومنهم من يقول: أبو ظبية بالظاء المعجمة. ومنهم من يقول: أبو فاطمة ومنهم من يقول: شجاع ومنهم من يقول: أبو شجاع وقد اجتمع علىٰ ضعفه: الإمام أحمد وأبو حاتم وابنه والدارقطني والبيهقي وابن الجوزي تلويحا وتصريحا والله أعلم.

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ أي: القيامة، سميت بالواقعة؛ لتحقق وقوعها.

﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ كقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾[الأنعام:١٣٤]، وقوله: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾[النحل:١]، وقوله: ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾[المعارج:١-٢]، فوقعتها حاصلة لا كذب فيها.

﴿ خَافِضَةٌ ﴾ للكافرين والمنافقين إلىٰ أسفل سافلين، حيث يجعلون في الدركات والعذاب الأليم نسأل الله العافية، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾[النساء: ١٤٥]، وقال: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾[التين: ٥]، ﴿ رَافِعَةٌ ﴾ للمؤمنين الموحدين إلىٰ الدرجات العلىٰ في الجنة، وفي حديث عبد الله بن عمر: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا»، فالنار دركات النزول فيها إلىٰ الأسفل، والجنة درجات إلىٰ الأعلىٰ.

﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴾ أي: تحركت وتزلزلة كقوله: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ

زِلْزَالَهَا ﴾[الزلزلة:١]، فإنها ترج وتزلزل لتخرج أخبارها، فهو يوم عصيب شديدة أهواله عظيمة أحواله، كما قال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾[الحج:١]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴾[المزمل:١٤].

﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴾ أي: فتتت فأصبحت كالرمل المتطاير بعد تماسكها وشدتها، بينما الآن الجبال الصماء والحجارة الشديدة تحتاج إلىٰ معالجة من أجل إخراج بعض أجزائها، فيصيرها يوم القيامة كالرمل.

﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴾ غبارًا متفرقًا كالذي يرىٰ في شعاع الشمس إذا دخلت كوة، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾[القارعة:٥]، وقيل: كالدخان، المنبث: المتفرق لا تجد له جوماء، وهذه حالة من حالات الجبال كما تقدم.

﴿ وَكُنتُمْ ﴾ أيها الناس، ﴿ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ أي: أصناف ثلاثة:

الأول: خلص.

الثاني: خلص الكافرين.

الثالث: وصنف إلىٰ أهل الإيمان ودون المرتبة الأولىٰ.

وهذا كقول الله عز وجل: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾[فاطر:٣٢]، فقد ذهب بعض أهل العلم إلىٰ أن الظالم لنفسه: الكافر، فيكون

تقسيمها علىٰ هذا التقسيم، وذهب جمع من أهل العلم وهو الصحيح: أن الأصناف الثلاثة المذكورة في سورة فاطر كلهم من أصحاب اليمين: السابقون، وهم المحافظون علىٰ الفرائض والنوافل، والمقتصدون، وهم المحافظون علىٰ الفرائض والظالم لنفسه، وهو من فرط في بعض الفرائض وارتكب بعض ما هو دون الشرك فهو تحت المشيئة إن شاء الله عذبه وإن شاء عفا عنه.

﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ عن يمنين الرحمن، وكلتي يدي ربي يمين، وأعمالهم ممدوحة، محبوبة عند الله عز وجل ﴿ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ وفي حديث الإسراء: « فَلَمَّا عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَإِذَا رَجُلٌ عَنْ يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ، وَعَنْ يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ، قَالَ: فَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَىٰ، قَالَ: فَقَالَ مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، وَالِابْنِ الصَّالِحِ "، قَالَ: " قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ صلىٰ الله عليه وسلم، وَهَذِهِ الْأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالْأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَىٰ»، أخرجه مسلم (٢٦٣).

﴿ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ من أخذ بهم ذات الشمال: وهم الكفار في هذه الآية، وقوله: ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ كأنه يقول: وأصحاب الميمنة وشأنهم كذا وكذا كما سيأتي بيانه، كما يقال لك: أهل اليمن وما أهل اليمن؟ وقبيلة كذا وما قبيلة كذا؟ علىٰ المدح أو الذم بحسبه.

﴿ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ قيل عن شمال العرش، وأما

الرب عز وجل فكلتا يديه يمين ولا يوصف بالشمال.

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ أي: والصنف الثالث: السابقون، كأنه يقول: والسابقون وما أدراك ما السابقون؟ شأنهم عظيم، ومنزلتهم رفيعة، ودرجاتهم سامية سبقوا إلىٰ طاعة الله ومرضاته، وسبقوا إلىٰ الاستجابة لرسله وهم الأنبياء وخلص المؤمنين.

﴿ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ عند ربهم.

﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ يتنعمون بأنواع النعم والخير العظيم العميم.

﴿ ثُلَّةٌ ﴾ جماعة غير محصورة العدد ﴿ مِنَ الأَوَّلِينَ ﴾ أي: أن الأولين السابقين ثلة من الأمم السابقة سواء في الصحابة أو في الأنبياء والمرسلين في كل زمن، وهم الذين سبقوا وعملوا الإيمان والإخلاص، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾[التوبة:١٠٠]، وقال الله عز وجل: ﴿ لا يَسْتَوِي مِنكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ ﴾[الحديد:١٠].

﴿ وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ ﴾ يعني من هذه الأمة، ومع ذلك: «وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ» متفق عليه عن معاوية رضي الله عنه.

﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ ﴾ جمع سرير في الجنة، ﴿ مَوْضُونَةٍ ﴾ متراصة، ومنسوجة بالذهب

والجواهر.

﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ لا ينظر بعضهم إلىٰ قفا بعض ﴿ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾ يتحدثون ويتناجون فيما كان من شأن الدنيا، كما تقدم في تفسير سورة الطور من قولهم: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾[الطور:٢٨]، وهذا من تمام نعيمهم أن يتحدث الأهل مع بعضهم والأصحاب مع أصحابهم، ومن نعيمهم: ﴿ عَلَىٰ الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾[المطففين:٢٣]، يتكئون ويجلسون عليها وينظرون إلىٰ ربهم عز وجل.

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ لخدمتهم والإكرام لهم، ﴿ وِلْدَانٌ ﴾ غلمان في أعمار متقاربة، ﴿ مُخَلَّدُونَ ﴾ لا يموتون لا يلحقهم الهرم والضعف، جميلة أوصافهم حسنة وجوههم.

﴿ بِأَكْوَابٍ ﴾ جمع كوب وهي الأقداح المستديرة التي لا عروة فيها: ﴿ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴾، ﴿ وَأَبَارِيقَ ﴾ ذات الخراطيم، ﴿ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾ تجري عليهم فيها خمر صافي لذيذ منعش.

﴿ لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴾ لا يلحقهم الصداع، كما هو الحال مع خمر الدنيا حيث يلحقهم الصداع والقيء والرائحة المنتنة السيئة، أما خمر الجنة فهو نعيم صرف عوضه الله لمن زهد في خمر الدنيا، قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ مَاتَ وَهُوَ يَشْرَبُهَا لَمْ يَتُبْ مِنْهَا حَرَّمَهَا الله عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ»، ﴿ وَلا يُنزِفُونَ ﴾ أي: لا ينفد شرابهم وبالفتح لا يلحقهم السكر بحيث تفقد عقولهم:

﴿ لا فِيهَا غَوْلٌ ﴾[الصافات:٤٧]، أي: لا سكر فيها إنما هو نعيم وشراب يتلذذون به.

﴿ وَفَاكِهَةٍ ﴾ أي: ويطوف الولدان المخلدون عليهم بفاكهة، ﴿ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ فيختارون ويشتهون، والحال كما قال الله عز وجل: ﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾[الرحمن:٥٢]، وقد استدل بعض أهل العلم بهذه الآية علىٰ عدم تعين الأكل مما يلي الآكل في الفاكهة.

﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ وذكر الطير لخفة لحمه علىٰ البطن وللرغبة فيه، وكثير من طير الجنة يسرح فإذا اشتاه المؤمن كان بين يديه علىٰ الحال التي اشتهاها كما قال تعالىٰ: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾[الزخرف:٧١].

﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ ويطوف عليهم أيضًا حور عين زوجات جميلات يتنعمون بهن: فعن أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ يَطُوفُ عَلَيْهِنَّ لا يَرَىٰ بَعْضُهُمْ بَعْضًا»، أخرجه مسلم (٢٣)، «يُرَىٰ مُخُّ سَاقَيْهَا مِنْ وَرَاءِ لَحْمِهَا»، متفق عليه.

ومن صفاتهن: ﴿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾[الواقعة:٢٣]، أي: في جمالهن كأنهن اللؤلؤ الرطب، كما قال تعالىٰ: ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾[الصافات: ٤٩]، وهذا من فضل الله علىٰ المؤمنين.

والسبب في نيلهم هذا الخير العظيم: ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ كما قال الله عز وجل: ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[الزخرف:٧٢]، وقال: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[الطور:١٩]، وقال: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا

أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾[الحاقة:٢٤].

﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا ﴾ أي: في الجنة: ﴿ لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا ﴾ كلامًا باطلًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾[الغاشية:١١]، أي: ولا كلام فيه قبح يلحقهم به الإثم.

﴿ إِلَّا قِيلًا ﴾ أي: قولًا، ﴿ سَلامًا سَلامًا ﴾ يحيي بعضهم بالسلام، فليس فيها هم ولا حزن ولا سب ولا شتم ولا شيء من ذلك كما هو حال الدنيا بل يدعون بالسلامة، بل ويسلم عليهم الملائكة ويسلم عليهم الرب سبحانه وتعالىٰ: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾[الأحزاب: ٤٤] ويسلمون علىٰ أنفسهم فهي دار السلام، كما قال الله عز وجل .

ولما ذكر من شأن السابقين ما ذكر من الخير العميم أراد أن يبين فضل أصحاب اليمين فقال: ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ شأنهم أيضًا: ﴿ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴾ لا شوك فيه، إذ قد قطع ونزع منه شوكه، وثمرها كالقلال وطعمها في اللذة كالشهد الزلال، فضل من الله سبحانه وتعالىٰ ذو الجلال.

﴿ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴾ الطلح معروف شجرة تكون في الحجاز ولها شوك، وقيل الموز ﴿ مَنْضُودٍ ﴾ أي: متراكم قد نضد بالحمل من أوله إلىٰ آخره، قال مسروق: أشجار الجنة عروقها إلىٰ أفنانها ثمر كله.

وذكر الله عز وجل السدر والطلح؛ لأن قريش كان يعجبهم شأن وادي وج الذي في الطائف فكانوا يتعجبون مما فيه من السدر والطلح، فأخبرهم الله بما في الجنة مما هو أفضل من هذا وأكمل.

﴿ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴾ دائم لا تنسخه الشمس ولا يلحقه حر ولا قر، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾[النساء: ٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾[الرعد: ٣٥]، وحالها في أحسن حال وأتمه، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ» متفق عليه.

﴿ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴾ مصبوب يجري في غير أخدود دائما يشربونه ويتلذذون به.

﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ متنوعة في ألوانها كما أنها متنوعة في طعومها، ففي مسند أحمد عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم فِي صُفُوفِنَا فِي الصَّلَاةِ، صَلَاةِ الظُّهْرِ، أَوِ الْعَصْرِ، فَإِذَا رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم يَتَنَاوَلُ شَيْئًا، ثُمَّ تَأَخَّرَ فَتَأَخَّرَ النَّاسُ، فَلَمَّا قَضَىٰ الصَّلَاةَ قَالَ لَهُ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: شَيْئًا صَنَعْتَهُ فِي الصَّلَاةِ لَمْ تَكُنْ تَصْنَعُهُ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ بِمَا فِيهَا مِنَ الزَّهْرَةِ وَالنَّضْرَةِ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا قِطْفًا مِنْ عِنَبٍ لِآتِيَكُمْ بِهِ، فَحِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَلَوْ أَتَيْتُكُمْ بِهِ لَأَكَلَ مِنْهُ مَنْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، لَا يُنْقِصُونَهُ شَيْئًا، ثُمَّ عُرِضَتْ عَلَيَّ النَّارُ، فَلَمَّا وَجَدْتُ سَفْعَهَا تَأَخَّرْتُ عَنْهَا، وَأَكْثَرُ مَنْ رَأَيْتُ فِيهَا النِّسَاءُ اللَّاتِي إِنْ اؤْتُمِنَّ أَفْشَيْنَ، وَإِنْ يُسْأَلْنَ بَخِلْنَ، وَإِنْ يَسْأَلْنَ أَلْحَفْنَ - قَالَ حُسَيْنٌ: وَإِنْ أُعْطِينَ لَمْ يَشْكُرْنَ - وَرَأَيْتُ فِيهَا لُحَيَّ بْنَ عَمْرٍو يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، وَأَشْبَهُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ مَعْبَدُ بْنُ أَكْثَمَ الْكَعْبِيُّ»، قَالَ مَعْبَدٌ: يَا رَسُولَ الله، أَيُخْشَىٰ عَلَيَّ مِنْ شَبَهِهِ وَهُوَ وَالِدٌ؟ فَقَالَ: «لَا، أَنْتَ مُؤْمِنٌ، وَهُوَ كَافِرٌ».

﴿ لَا مَقْطُوعَةٍ ﴾ فتنتهي بعد أن وجدت، بل دائمة مستمرة، ﴿ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ بحيث أنهم يتمنونها فلا يجدونها وهذا من تمام كمال نعيم أهل الجنة كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾[ص:٥٤]، فمهما بلغ الإنسان في الدنيا من المال والأولاد وتجري عليهم جميع أنواع النعم الدنيوية إلا أنها قد تنقطع لعدم وجودها أو تمتنع لعدم القدرة علىٰ حصولها، وكانت الجنة في الكمال الذي لا يوازيه كمال.

﴿ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴾ عالية وطيبة ناعمة علىٰ سرر وأرائك، وقد تقدم وصف هذه الفرش في سورة الرحمن عند قول الله عز وجل: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾[الرحمن:٥٤].

﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴾ عائدة إلىٰ قوله: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ أي: أزواجهم من الحور العين اللاتي يضاجعن علىٰ هذه الفرش أنشأهن الله عز وجل وخلقهن بأمره: ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[البقرة:١١٧]، وزوجاتهن الدنيويات أعادهن الله أبكار عربًا بعد إن كن عجائز.

﴿ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ أي: لم يجامعن قبل والتمتع بالبكر ألذ من التمتع بالثيبة، وفي الحديث: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُفْضِي فِي الْغَدَاةِ الْوَاحِدَةِ إِلَى مِائَةِ عَذْرَاءَ» أخرجه أبي يعلىٰ الموصلي.

﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ أي: غنجات جميلة في هيئتها، ومتحببة إلىٰ بعلها، ومتزينة في جسمها بخلاف المرأة التي لا تهتم بنفسها فربما يرغب الزوج عنها ولا يطمع فيها،

﴿ أَتْرَابًا ﴾ أي: قريبات في العمر.

﴿ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ هذا النعيم كله أعده الله عز وجل لأصحاب اليمين.

﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ ﴾ شأنهم أنهم طائفة كثيرة في الصدر الأول.

﴿ وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ ﴾ وطائفة كثيرة في الزمن المتأخر، وبما تقدم يظهر أن جمهور أهل الجنة من أصحاب اليمين، والله أعلم.

فلما ذكر المؤمنين المقربين ثم من لحقهم من المؤمنين والموحدين ثلث بذكر أصحاب الشمال المعرضين عن دين رب العالمين الواقعين في الشرك والتنديد ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾.

﴿ فِي سَمُومٍ ﴾ ريح حارة في جهنم تلفح وجوههم؛ فيلحقهم بسببها الأذىٰ الشديد ﴿ وَحَمِيمٍ ﴾ ماء حار.

﴿ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ﴾ دخان شديد السواد، وقيل اليحموم من أسماء النار، كما أخبر الله عز وجل في سورة المرسلات بقوله: ﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ * لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللهَبِ ﴾[المرسلات:٣٠-٣١]، لا يظلون به ولا يغنيهم من اللهب وإنما تشتد حرارتهم به.

﴿ لا بَارِدٍ ﴾ المنزلة فيتنعمون ببرودته، ﴿ وَلا كَرِيمٍ ﴾ المنظر أي لا خير فيه ولا بركة لهم فيه.

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ متنعمين في الدنيا حيث كانوا ينعمون، ويتكبرون ويتبخترون.

﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ ﴾ يقيمون، وفي حديث: عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، عَنِ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ: «ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يَغْفِرِ الله لَكُمْ، وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أخرجه أحمد، ﴿ عَلَىٰ الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴾ الذنب العظيم: وهو الشرك بالله عز وجل فهو أكبر ذنب عُصي الله به، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[لقمان:١٣]، وبالحديث: أي الذنب أعظم؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» متفق عليه، وهذا الذنب من شدة عظمته لا يغفره الله: ﴿ إِنَّ الله لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾[النساء:٤٨]، فانوا يدعون إلىٰ عبادة الملك العلام فيستمرون علىٰ عبادة الأوثان، بينما أهل الإيمان وإن وقع منهم شيء لا يصرون عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا الله فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا الله وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[آل عمران: ١٣٥].

﴿ وَكَانُوا ﴾ أي: الكفار، ﴿ يَقُولُونَ ﴾ بلسان الحال والمقال تكذيبًا بالبعث: ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ يعني: يستبعدون ذلك.

﴿ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴾ أي: يبعثون كما نبعث أيضًا، وهذه دعواهم العليلة، كما قال تعالىٰ: ﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ * قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾[المؤمنون: ٨١ – ٨٣].

فأخبرهم الله بأن هذا الأمر كائن.

﴿ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ ﴾ منكم يا معاشر بني الإنسان.

﴿ لَمَجْمُوعُونَ ﴾ من إرجاء الأرض الواسعة، ﴿ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ يوم القيامة، فوقته معلوم وسيكون مشهودًا من جميع المخلوقين والمكلفين، قال الله عز وجل: ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾[هود: ١٠٣]، والمعنىٰ: والله إنكم: ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ فاللام للقسم .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ ﴾ يا معاشر الكافرين، ﴿ أَيُّهَا الضَّالُّونَ ﴾ المنحرفون عن دين رب العالمين، ﴿ الْمُكَذِّبُونَ ﴾ للوحي المبين.

﴿ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ﴾ وهذه الشجرة من أشد أشجار النار عذابًا ومنظرًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَىٰ الْجَحِيمِ ﴾[الصافات:٦٥-٦٨]، يأكلون منها فإذا ما أكلوا منها احتاجوا إلىٰ الماء فيشار لهم إلىٰ الحميم فيزدادون عذاب إلىٰ عذاب.

﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ تملؤون بطونكم لشرهِهم بها ولتسخير الله لهم لها.

﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴾ الماء الذي هو كالرصاص المذاب والحال كما قال تعالىٰ: ﴿ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴾[الدخان:٤٥-٤٦].

﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾ لشدة عطشهم يشربون الحميم كشرب الإبل العطاش للماء حين تجده، ومع ذلك يعذبون بهذا العذاب الأليم نسأل الله السلام.

﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ ﴾ منزلهم أي في الجحيم وحالهم، ﴿ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ يوم الجزاء والحساب يوم القيامة: ﴿ نَارًا تَلَظَّىٰ * لا يَصْلاهَا إِلَّا الأَشْقَىٰ * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾[الليل:١٤-١٦].

المنكرين للبعث والنشور: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ ﴾ من العدم، ﴿ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ ﴾ فهلا تؤمنون بذلك وتقرون به.

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ ﴾ أخبروني ﴿ مَا تُمْنُونَ ﴾ ما يكون منكم من مني الرجال والنساء: وهو أصل الخلقة في التكاثر.

﴿ أَأَنْتُمْ ﴾ يا معاشر من أعرضتم ﴿ تَخْلُقُونَهُ ﴾ توجدونه من العدم، ﴿ أَمْ نَحْنُ ﴾ علىٰ التعظيم لنفسه المقدسة ﴿ الْخَالِقُونَ ﴾ والجواب: أن الله عز وجل هو الخالق.

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا ﴾ صرفنا ﴿ بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ ﴾ الأجل، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي: بمعجزين عن قبض أرواحكم، فالله لا يعجزه شيء لكمال قدرته وعموم قوته، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾[فاطر:٤٤].

﴿ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ ﴾ نغير خلقكم يوم القيامة، ﴿ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ أي: من الصفات والأولىٰ.

ثم قال مبينًا لهم أن البعث عليه يسير: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ ﴾ علمتم أن الله أوجدكم وأنشأكم من العدم، ﴿ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ ﴾ فهلا تتذكرون وتستجيبون؛

لكن الواقع أنهم لم يستفيدوا من وحي الله، وقد أنزل الله عز وجل آيات كثيرة تبين عموم قدرته، والنشأ والمعاد ومع ذلك ما ازادوا إلا عتوًا ونفورًا، كقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾[الروم: ٢٧]، ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾[يس: ٧٧].

ثم قال: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ ﴾ أخبروني، ﴿ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ من الأرض للزروع.

﴿ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ﴾ تنبتونه؟ ﴿ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ بل أن الله هو الذي ينبت، وإلا كم من إنسان يزرع ولا ينبت، وربما تزرع ويمنع الله المطر ولا ينبت.

﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ ﴾ بعد أن قال قام على ساقه،﴿ حُطَامًا ﴾ يابسًا، ﴿ فَظَلَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ بقيتم تتكلمون فيما بينكم، تتعجبون، والصواب: أنهم يتنادمون فيما بينهم في السبب الذي لحقهم والضرر الذي نزل بهم فيقولون: ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ نزلت بنا الغرامة ولحقنا الفلس.

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي: لا حظ لنا من رزق الله عز وجل إذ منعنا ذلك.

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ ﴾ أخبروني ﴿ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ العذب الزلال الذي ينزله الله من السحاب، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[الزمر: ٢١].

﴿ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ ﴾ من السحاب، ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ يقولون بل نحن المنزلون.

﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ﴾ مالحًا لا يستساغ شربًا ولا يصلح لغسل ولا لطبخ وغير ذلك، ﴿ فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ﴾ فهلا تشكرون الله عز وجل علىٰ عظيم نعمه ومزيد منته: أن مَنَّ عليكم بالماء العذب الزلال تشربونه بغير تنقية ودون مشقة وتستسيغون شربه، وتستفيدون منه في جميع شؤونكم.

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ أيضًا أخبروني عن هذه النار التي تقدحون من الزناد وتستخرجونها من أصلها، والتي منّ الله بها عليكم توقدونها في أسفاركم وفي حضركم فتستفيدون من حرها في إنضاج طعامكم وتستفيدون من ضوئها في تحديد مساركم.

﴿ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا ﴾ وأيضًا من عجيب شأنها: أن الله جعل من الشجر الأخضر كما قال تعالىٰ: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾[يس:٨٠]، ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ يقول بل نحن الذين أنشأنها والمعنىٰ أن الله هو الذي أنشأها وخلقها وجهزها.

﴿ نَحْنُ ﴾ أي: لله معظمًا لنفسه، ﴿ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ أي: هذه النار جعل الله فيها تذكرة؛ لأصحاب العقول السليمة والفطر المستقيمة، فإذا كان أحدهم لا يقوىٰ علىٰ هذه النار التي هي جزء من تسعة وستين جزءً من نار جهنم فكيف بالنار الشديدة، ﴿ وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴾ قيل: للمسافرين، والصحيح أنها متاع للحاضر والباد وللمسافر وغيره، كلهم يستفيد منها.

﴿ فَسَبِّحْ ﴾ يا محمد وهو أمر للأمة، ﴿ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ علىٰ هذه النعم

العظيمة والمنن الجزيلة الدالة علىٰ عظيم قدرته وعلىٰ تنزهه عن جميع النقائص والعيوب، وفي الحديث: «إِنَّ الله اصْطَفَىٰ مِنَ الْكَلَامِ أَرْبَعًا: سُبْحَانَ الله، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَالله أَكْبَرُ، فَمَنْ قَالَ: سُبْحَانَ الله، كَتَبَ الله لَهُ عِشْرِينَ حَسَنَةً، أَوْ حَطَّ عَنْهُ عِشْرِينَ سَيِّئَةً، وَمَنْ قَالَ: الله أَكْبَرُ، فَمِثْلُ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، فَمِثْلُ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، كُتِبَتْ لَهُ ثَلَاثُونَ حَسَنَةً، أَوْ حُطَّ عَنْهُ ثَلَاثُونَ سَيِّئَةً»، أخرجه أحمد.

﴿ فَلا أُقْسِمُ ﴾ أي: أقسم بمواقع النجوم، وقيل: لا أقسم بمعنىٰ: نفي القسم، والصحيح الأول، ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ وهي الأنواء والمطالع.

﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ قسم من الله سبحانه وتعالىٰ الصادق في قيله، ولو لم يقسم لوجب قبول خبره فكيف وقد أضاف سبحانه وتعالىٰ القسم المؤكدة لخبره وله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس لعبده أن يقسم بشيء من مخلوقاته قال رسول الله: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ أَشْرَكَ»، أخرجه الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه.

﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ أي: هذا الوحي الذي أنزله علىٰ محمد صلىٰ الله عليه وسلم، يتلوه عليكم في نواديكم ويدعوكم به إلىٰ ربكم، مقروء كريم كثيرة صفاته الجميلة العظيمة، سواء في قصصه أو في نظمه أو في أحكامه، وقد تحداهم الله أن يأتوا بمثله، فلما عجزوا تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله، فلما عجزوا تحداهم أن يأتوا بسورة مثله.

﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾ اللوح المحفوظ، كتب الله عز وجل القرآن حيث كتب علمه مما كان وما يكون إلىٰ قيام الساعة، ولا يلزم من هذا أن الله عز وجل تكلم به حال الكتابة.

﴿ لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ الملائكة، والعجيب أن هذه الآية استدل بها كثير من الفقهاء علىٰ أنه لا يجوز مس المصحف إلا للمتوضيء وليس كذلك: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَنْجُسُ»، أخرجه مسلم عن أبي هريرة ت، فيجوز له أن يقرأ القرآن سواء كان علىٰ طهارة أو علىٰ حدث، فقد قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم لعائشة: «حَيضَتَكِ ليستْ بيدِكِ».

وإنما المراد بالكتاب هنا اللوح المحفوظ: ﴿ لا يَمَسُّهُ ﴾ يلمسه، ﴿ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ الملائكة كما هو تفسير ابن عباس وغير واحد من أهل العلم، ولو أراد به المتوضئين لقال: لا يسمه إلا المتطهرون، فظهر من هذا أن المراد بالكتاب المكنون: اللوح المحفوظ لا القرآن، ويؤيد ذلك أنه قال بعد ذلك: ﴿ تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي: القرآن، فهو غير الكتاب المكنون، والقرآن معلوم أنه ربما مسه الكافر؛ ولهذا نهىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم عن السفر بالقرآن إلىٰ أرض العدو» أخرجاه عن ابن عمر رضي الله عنه.

﴿ تَنزِيلٌ ﴾ أي: القرآن نزل: ﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ حيث تكلم به حقيقةً، ونزل به جبريل الروح الأمين إلىٰ محمد الصادق الأمين، وهذا أمر مجمع عليه بين أهل السنة والجماعة من أن القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود.

﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾ أفبالقرآن والوحي المبين تكذبون وتختلفون وتشكون.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ شكركم، ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ بالقرآن والوحي المبين، والمعنىٰ أن ربنا عز وجل أنزل إليكم الرزق أي: المطر من السحاب ثم تقولون: صدق نوء كذا، وهذا بنوء كذا، ففي حديث ابن عباس عند مسلم: أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال: قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا أَوْ نَوْءِ كَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»، ثم تلىٰ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ تضيفون النعمة إلىٰ غير الله سبحانه وتعالىٰ، كما يقولون: سهيل والثريا والشعرىٰ ونحو ذلك.

ثم قال الله عز وجل مخبراً عن حال الإنسان حين الاحتضار: ﴿فَلَوْلا﴾ فهلا، ﴿إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ النفس وشارفت علىٰ الخروج وأصبحتم في سياقة الموت.

﴿وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ إلىٰ الميت بين أيديكم لا تستطيعون تقديمًا ولا تأخيرًا ولا عونًا ولا شيء من ذلك.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أي: ملك الموت وأعوانه، حيث يكون ملك الموت عند رأسه ويأمر روحه أن تخرج كما تخرج القطرة من فِيِّ السقاء، ﴿وَلَكِن لا تُبْصِرُونَ﴾ كما في حديث البراء الذي أخرجه أحمد بطوله: «الْمَيِّتُ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَالِحًا، قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي

الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّىٰ تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ فَيُفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ، فَيُقَالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّىٰ يُنْتَهَىٰ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السُّوءُ قَالَ: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ اخْرُجِي ذَمِيمَةً، وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ، وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّىٰ تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَلَا يُفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: فُلَانٌ، فَيُقَالُ: لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، ارْجِعِي ذَمِيمَةً، فَإِنَّهَا لَا تُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَيُرْسَلُ بِهَا مِنْ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَصِيرُ إِلَىٰ الْقَبْرِ».

﴿ فَلَوْلَا ﴾ فهلا، ﴿ إِنْ كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ يعني: يقول الله عز وجل لهم: إن كنتم غير مذنبين وغير محاسبين ومجزيين.

﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾ أي تردون النفس إلىٰ الجسد الميت بعد هذا الحال ﴿ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ولكن الواقع أنهم عاجزون عن ذلك؛ وهذا بيان لقدرة الله النافذة وقوته التي لا يعجزه شيء، فإن كنتم يا معاشر الكافرين تزعمون أنكم علىٰ شيء فردوا هذه الروح إلىٰ جسدها، وأنتم حولها وهو يحتضر بين أيديكم، ربما كان أبًا أو أخًا أو زوجًا أو قريب أو بعيد فأين رحمتكم.

ثم أخبر الله عز وجل عن حال النفس بعد خروجها من الإنسان، فإنها تخرج

ويتبعها البصر، ولهذا قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ»، أخرجه مسلم عن أم سلمة، أمر بإغلاق البصر وذلك حين يتبع بصره نفسه؛ ولذلك أي ميت تجد بصره مفتوحًا بعد موته، ويعرف الناس موته.

﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي: من السابقين المسارعين إلىٰ مرضات رب العالمين والموحدين الطائعين له في سرائهم وضرائهم.

﴿ فَرَوْحٌ ﴾ يبشر من الله ومن ملائكة الله بما يروح عليه من الخير، ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ روح: الرائحة الطيبة، ﴿ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ يتنعم فيها، واستدل ابن رجب رحمه الله وغيره بهذه الآيات علىٰ إثبات عذاب القبر ونعيمه، خلاف ما ذهب إليه الرافضة والمعتزلة والخوارج من إنكار القبر وما فيه من العذاب والنعيم، وقد تقدم حديث البراء وما فيه من الوصف لهذا الحال.

﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ وهم المرتبة الثانية من أهل التوحيد.

﴿ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أي: تبشرهم الملائكة بذلك، كما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[فصلت: ٣٠].

﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ ﴾ أي: المحتضر، ﴿ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴾ من الكافرين والمنافقين المعرضين عن دين رب العالمين.

﴿ فَنُزُلٌ ﴾ أي: الضيافة، ﴿ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ وهو المذاب الذي يصهر به ما في بطونهم.

﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ أي: تحيط به النار من جميع جهاته فتصليه وتشويه.

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ هذا الخبر الذي تقدم ذكره هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك.

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ نزه ربك عن كل نقص وعيب سبحانه وتعالىٰ.

فهذه سورة عظيمة وتعتبر من السور الطوال في عدد آياتها إذ أنها تبلغ ستة وتسعين آية مع قصرها؛ ولكن فيها من العبر والوعد والوعيد ما يستبشر به المؤمنون وتنخلع به قلوب المخالفين لدين رب العالمين، والله المستعان، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الحديد

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحديد مدنية.

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾ أي: نزه الله عز وجل عن النقائص والعيوب وأثبت له جميع المحامد بلسان الحال والمقال أو بأحدهما، ﴿ مَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾ أي: الذين في السموات من الملائكة، ﴿ وَالأَرْضِ ﴾ من جميع المخلوقين، وقد يكون هذا التسبيح بلسان الحال، وهذا كقوله: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[الإسراء: ٤٤]، ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يغلب، وقد خضع له كل شيء، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في خلقه وأمره فأفعال علىٰ مقتضىٰ علمه وحكمته.

﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ له الملك المطلق لما في السموات والأرض، ﴿ يُحْيِي ﴾ وجدوا من العدم ويُهيء لهم سبل الحياة، ﴿ وَيُمِيتُ ﴾ يقبض الأرواح متىٰ شاء، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي: ما شاء كان وإن لم يشأ لم يكن فلا يعجزه شيء لكمال قوته وقدرته وعلمه، كما قال عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾[فاطر:٤٤].

﴿ هُوَ الأَوَّلُ ﴾ الذي ليس قبله شيء، ﴿ وَالآخِرُ ﴾ الذي ليس بعده شيء، ﴿ وَالظَّاهِرُ ﴾ الذي ليس فوقه شيء، ﴿ وَالْبَاطِنُ ﴾ الذي ليس دوه شيء، ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ﴿ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ ﴾[سبأ:٣]، فهو سبحانه وتعالىٰ له الأولية المطلقة؛ ومن أسمائه الأول ولا يسمىٰ بالقديم؛ فالقديم قد يسبق بغيره قال عز وجل: ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾[يس:٣٩].

﴿ وَالآخِرُ ﴾ الذي ليس بعده شيء، وقد دل اسم الأول والآخر علىٰ الإحاطة الزمانية، كما دل اسم الظاهر والباطن علىٰ الإحاطة المكانية، فهو تعالىٰ محيط بكل شيء وفوقه، ﴿ وَالظَّاهِرُ ﴾ فالعال فيدل علىٰ صفة العلو الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع، قال تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾[البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ ﴾[الأعلىٰ: ١]، وعن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَفَلَا أُعْتِقُهَا؟ قَالَ: «ائْتِنِي بِهَا» فَأَتَيْتُهُ بِهَا، فَقَالَ لَهَا: «أَيْنَ الله؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ الله، قَالَ: «أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»، أخرجه مسلم.

﴿ الْبَاطِنُ ﴾ الذي ليس دونه شيء فهو باطن وهو علىٰ عرشه بائن من خلقه، وقد فصل النبي صلىٰ الله عليه وسلم هذه الأسماء الأربعة المتقابلة بالسلب كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «اللهمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَالْآخِرُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»، أخرجه مسلم، والأصل أن الأسماء تفسر بالإثبات إلا أن المعنىٰ في هذا التفسير: أن لله الأولية المطلقة فلم يسبقه.

وأما أبدية الجنة والنار فهي بتأبيد الله عز وجل لهما فهو الآخر سبحانه وتعالىٰ،

وهذه الآية من أشهر الآيات الدالة علىٰ مسألة العلو وإثبات الصفات.

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ كما قال: ﴿ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾[الحاقة: ١٨]، رد علىٰ المعتزلة الذين يزعمون أن الله لا يعلم الجزئيات، فهو بكل شيء في هذا العالم العلوي والسفلي عليم، كما قال: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾[الأنعام: ٥٩].

﴿ هُوَ ﴾ أي: الله، ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ ﴾ العظيمة ﴿ وَالأَرْضَ ﴾ الواسعة، ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ خلق الأرض في يومين، وقدر فيها أقواتها في يومين، وخلق السموات في يومين فهذه ستة أيام، كما قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾[فصلت:٩-١٠]، ولو أراد خلق السموات والأرض بقوله: ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[يس:٨٢]، لكانتا؛ لكن له الحكمة البالغة والحجة الدامغة في ربط الأمور بمسبباتها، واختلف في هذه الأيام إلىٰ أقوال والذي يهمنا أن نؤمن بما دل عليه القرآن.

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ ﴾ أي: علا وارتفع وصعد، وقيل: استقر، قال ابن القيم في نونيته (ص: ٨٧):

فلهم عبارات عليها أربع ... قد حصلت للفارس الطعان
وهي استقر وقد علا وكذلك ... ارتفع الذي ما فيه من نكران

وكذاك قد صعد الذي هو أربع وأبو عبيدة صاحب الشيباني

يختار هذا القول في تفسيره أدرى من الجهمي بالقرآن

وقد فسر أهل التعطيل من الْجَهْمِيَّة وَمَنْ وَافَقَهُمْ، فَإِنَّهُمْ قَالُوا: هُوَ مَجَازٌ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي مَجَازِهِ، وَالْمَشْهُورُ عَنْهُمْ مَا حَكَاهُ الْأَشْعَرِيُّ عَنْهُمْ وَبَدَّعَهُمْ وَضَلَّلَهُمْ فِيهِ بِمَعْنَىٰ اسْتَوْلَىٰ، أَيْ مَلَكَ وَقَهَرَ وهذا تفسير باطل قال ابن القيم كما في مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة (ص: ٣٧٢): أَنَّ لَفْظَ الِاسْتِوَاءِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الَّذِي خَاطَبَنَا الله تَعَالَىٰ بِلُغَتِهِمْ وَأَنْزَلَ بِهَا كَلَامَهُ نَوْعَانِ:

الأول: مُطْلَقٌ، فَالْمُطَلَّقُ مَا لَمْ يُوصَلْ مَعْنَاهُ بِحَرْفٍ مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ﴾[القصص: ١٤]، وَهَذَا مَعْنَاهُ كَمُلَ وَتَمَّ، يُقَالُ: اسْتَوَىٰ النَّبَاتُ وَاسْتَوَىٰ الطَّعَامُ، وَأَمَّا الْمُقَيَّدُ فَثَلَاثَةُ أَضْرَابٍ: أَحَدُهَا: مُقَيَّدٌ بِإِلَىٰ كَقَوْلِهِ: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَىٰ السَّمَاءِ ﴾[البقرة: ٢٩]، وَاسْتَوَىٰ فُلَانٌ إِلَىٰ السَّطْحِ وَإِلَىٰ الْغُرْفَةِ، وَقَدْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ هَذَا الْمُعَدَّىٰ بِإِلَىٰ فِي مَوْضِعَيْنِ مِنْ كِتَابِهِ: فِي الْبَقَرَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَىٰ السَّمَاءِ ﴾[البقرة: ٢٩]، وَالثَّانِي فِي سُورَةِ فُصِّلَتْ: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَىٰ السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت: ١١] وَهَذَا بِمَعْنَىٰ الْعُلُوِّ وَالِارْتِفَاعِ بِإِجْمَاعِ السَّلَفِ، كَمَا سَنَذْكُرُهُ وَنَذْكُرُ أَلْفَاظَهُمْ بَعْدُ إِنْ شَاءَ الله.

وَالثَّانِي: مُقَيَّدٌ بِعَلَىٰ كَقَوْلِهِ: ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ ﴾[هود: ٤٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ ﴾[الفتح: ٢٩]، وَهَذَا أيضًا مَعْنَاهُ الْعُلُوُّ وَالِارْتِفَاعُ وَالِاعْتِدَالُ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ اللُّغَةِ، الثَّالِثُ: الْمُقْرُونَ بِوَاوِ (مَعَ) الَّتِي تُعَدِّي الْفِعْلَ إِلَىٰ الْمَفْعُولِ

مَعَهُ، نَحْوَ: اسْتَوَىٰ الْمَاءُ وَالْخَشَبَةَ بِمَعْنَىٰ سَاوَاهَا، وَهَذِهِ مَعَانِي الِاسْتِوَاءِ الْمَعْقُولَةِ فِي كَلَامِهِمْ، لَيْسَ فِيهَا مَعْنَىٰ اسْتَوْلَىٰ الْبَتَّةَ، وَلَا نَقَلَهُ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ اللُّغَةِ الَّذِينَ يُعْتَمَدُ قَوْلُهُمْ، وَإِنَّمَا قَالَهُ مُتَأَخِّرُو النُّحَاةِ مِمَّنْ سَلَكَ طَرِيقَ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ، يُوَضِّحُهُ **الْوَجْهُ الثَّانِي**: أَنَّ الَّذِينَ قَالُوا ذَلِكَ لَمْ يَقُولُوهُ نَقْلًا، فَإِنَّهُ مُجَاهَرَةٌ بِالْكَذِبِ وَإِنَّمَا قَالُوهُ اسْتِنْبَاطًا وَحَمْلًا مِنْهُمْ لِلَفْظَةِ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ اسْتَوْلَىٰ، وَاسْتَدَلُّوا بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

قَدِ اسْتَوَىٰ بِشْرٌ عَلَىٰ الْعِرَاقِ ... مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ أَوْ دَمٍ مُهْرَاقِ

وَهَذَا الْبَيْتُ لَيْسَ مِنْ شِعْرِ الْعَرَبِ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ.

ثم: للتعقيب فاستواؤه علىٰ العرش كان بعد خلق السموات والأرض: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ ﴾[هود:٧]، والعرش: هو السرير الذي يكون عليه الملك وهو أكبر المخلوقات وأعلىٰ المخلوقات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: « فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَىٰ الجَنَّةِ - أُرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ»، أخرجه البخاري، وجاء قوله: ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾[التوبة:١٢٩].

استوىٰ علىٰ العرش، مع أن العرش وحملته بحاجة إلىٰ الله، ﴿ يَعْلَمُ ﴾ سبحانه وتعالىٰ: ﴿ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ ﴾ ما يدخل فيها، ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من النبات والماء ونحوه، ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ من المطر وغيره، ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ يصعد كعروج الملائكة بأعمال العباد، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم، قَالَ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي

صَلاَةِ العَصْرِ وَصَلاَةِ الفَجْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»، متفق عليه.

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ بعلمه وقدرته وسلطانه وبصره وإحاطته، وهذه الآية دالة علىٰ إثبات المعية العامة معية الله عز وجل لجميع المخلوقات، ولا تعارض بين هذه الآية وآيات أدلة العلو فهو معنا وهو علىٰ عرشه، إذ أن كلمة: معَ إنما تدل علىٰ معنىٰ مطلق مصاحبة فيقول أحدهم: ما زلت أسير والقمر معي، والقمر في السماء وهو في الأرض، فعلىٰ المسلم أن يثبت ما أثبته الله لنفسه وما أثبته له رسوله صلىٰ الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، ومعية الله تنقسم إلىٰ قسمين: معية عامة: وهي معية العلم والسلطان والقهر والبصر، ومعية خاصة: وهي مقتضية للحفظ والنصر والتأييد: ﴿ قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[طه:٤٦]، فقال: ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ﴾[التوبة:٤٠]، وقال: ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾[النحل:١٢٨]، وقد جاءت المعية الخاصة مفيدة بوصف شخص علىٰ ما تقدم من الأدلة.

﴿ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ يبصر أعمالكم ويرىٰ أفعالكم بعينين حقيقيتين: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾[الشورىٰ:١١].

ومن شأنه تعالىٰ: ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ الملك المطلق، ﴿ وَإِلَىٰ اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ في تصريفها وشأن العباد في رجوعهم يوم القيامة إلىٰ الله فيجازيهم

علىٰ أعمالهم كما قال تعالىٰ: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ اللهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[البقرة: ٢٨١].

ومن شأنه أنه تعالىٰ: ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ يداخل بعضها في بعض، ﴿ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ وذلك عند قدوم الليل ودخول النهار ترىٰ أن هذا يدخل في هذا بدون أن يرىٰ الإنسان تغيرًا ملحوظًا وإنما هو آية من آيات الله العظيمات: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[فصلت:٣٧].

﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ عليم بأفعالكم وأقوالكم واعتقاداتكم، وإنما ذكر العلم بذات الصدور؛ لبيان أنه أعلم بغيرها: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾[التغابن:١٨]، والمعنىٰ: أنه إذا كان عليمًا بذات الصدور فهو أعلم بما يظهر من تصرفات الناس القولية أو الفعلية، وكل هذه الآيات فيها ترغيب وترهيب، ترغيب في طاعة الله عز وجل إذ أنه المطلق المحيط بعبده المجازي له، وفيها ترهيب من أن الله عز وجل مع عباده عالم بأفعالهم وأقوالهم فليكن العبد علىٰ بعد ونأي ونهي مما يؤدي إلىٰ مغضبات الله، نسأل الله عز وجل السلامة والعافية.

﴿ آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ هذا أمر من الله عز وجل بالاستمرار علىٰ الإيمان والثبات عليه، كقوله: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ

﴿الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[النساء: ١٣٦]، ﴿ آمِنُوا بِاللهِ ﴾ ربًا، ﴿ وَرَسُولِهِ ﴾ نبيًا مرسلًا إليكم تطيعونه بأمر الله وتتأسون به في طاعة الله، ﴿ وَأَنْفِقُوا ﴾ تصدقوا وزكوا، ﴿ مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ من الأموال بل ومن العلم والجاه وغير ذلك، ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ﴾ الصحابة ومن سار علىٰ سيرهم، ﴿ وَأَنْفَقُوا ﴾ في سبيل الله والمعنىٰ أن الذين آمنوا وانقادوا لأمر الله عز وجل ظاهرًا وباطنًا وازدادوا مع ذلك إنفاقًا في سبيل الله، ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ ﴾ جزاء وثواب، ﴿ كَبِيرٌ ﴾ عظيم وسع.

ثم قال محضضًا لهم علىٰ الإيمان بالله: ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ أي: وأي شيء يمنعكم من الإيمان، ﴿ وَالرَّسُولُ ﴾ بين أظهركم، ﴿ يَدْعُوكُمْ ﴾ إلىٰ ذلك ويبين لكم ما شرعه الله لكم ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾ أي: يأمركم بذلك ويحثكم عليه ويرغبكم فيه، ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ ﴾ في الطاعة بالمعروف، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[المائدة: ٧]، ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ حقًا ظاهرًا وباطنًا، فعليكم الاستجابة لله عز وجل ظاهرًا وباطنًا.

﴿ هُوَ ﴾ الله، ﴿ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ وهو محمد صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ وهو القرآن، والسبب في ذلك: ﴿ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ أي: ظلمات الشرك، والبدع الجهل ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ نور التوحيد والعلم، والسنة ﴿ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ حيث أرسل الرسل وأنزل الكتب.

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ أي: وما يمنعكم من الانفاق في سبيل الله

عز وجل والبذل في مرضات الله عز وجل، وقوله: ﴿ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ كلمة عامة؛ ويدخل فيها ابتداءً الانفاق في الجهاد، ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ يخلف علىٰ من أنفق في سبيله فوهبكم ما وهبكم من الأموال ليبتليكم فيها وإلا فهو غني حميد، ﴿ لا يَسْتَوِي مِنكُمْ مَنْ أَنفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ ﴾ قبل الحديبية، فمن أنفق قبل الحديبية نفقته أفضل ممن أنفق بعد الحديبية، ومن آمن قبل الحديبية فهو من السابقين أفضل ممن آمن بعد الحديبية وهي الفتح حقًا؛ لأن الله عز وجل أنزل علىٰ نبيه بعد الحديبية: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾[الفتح:١]، والجمهور علىٰ أنه فتح مكة والصحيح ما تقدم، فعن سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ، قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ، وَلَوْ نَرَىٰ قِتَالًا لَقَاتَلْنَا، فَجَاءَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَلَسْنَا عَلَىٰ الحَقِّ وَهُمْ عَلَىٰ البَاطِلِ؟ فَقَالَ: «بَلَىٰ». فَقَالَ: أَلَيْسَ قَتْلاَنَا فِي الجَنَّةِ وَقَتْلاَهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: «بَلَىٰ»، قَالَ: فَعَلاَمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا، أَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ الله بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فَقَالَ: «يَا ابْنَ الخَطَّابِ، إِنِّي رَسُولُ الله، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي الله أَبَدًا»، فَانْطَلَقَ عُمَرُ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِلنَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم، فَقَالَ: إِنَّهُ رَسُولُ الله، وَلَنْ يُضَيِّعَهُ الله أَبَدًا، فَنَزَلَتْ سُورَةُ الفَتْحِ فَقَرَأَهَا رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم عَلَىٰ عُمَرَ إِلَىٰ آخِرِهَا، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ الله، أَوَفَتْحٌ هُوَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، أخرجه البخاري.

﴿ وَقَاتَلَ ﴾ وجاهد في سبيل، وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه: أنه وقع بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء فقال النبي صلىٰ الله عليه وسلم:

«لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ»، أخرجه مسلم، مع أن كلهم أصحابه.

﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ الذين أنفقوا قبل الفتح ﴿ أَعْظَمُ دَرَجَةً ﴾ منزلة ومكانة ﴿ مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا ﴾ بذلوا في أوجه الخير ﴿ مِنْ بَعْدُ ﴾ الحديبية، ﴿ وَقَاتَلُوا ﴾ والسبب في كونهم أعظم أجرًا ومثوبة لأن المسلمين كانوا في قلة وضعف والجزاء علىٰ قدر النصب والتعب، ﴿ وَكُلًّا ﴾ ممن أنفق من قبل الفتح وقاتل، ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل، وعد الله ﴿ الْحُسْنَىٰ ﴾ الجنة، ﴿ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ مطلع لا تخفىٰ عليه خافية.

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ أمر من الله عز وجل بالإنفاق في سبيله وقيل النفقة علىٰ العيال والصحيح العموم، فهو الغني الحميد، وزعم اليهود ومن إليهم من المنافقين قالوا: الله يقترض منا؟ وإنما هو اختبار وابتلاء، فمن أنفق في سبيل الله جازاه الله بالمضاعفة، فعن بريدة مرفوعًا : «مَنَ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ: لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ؟ فَقَالَ: «بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ مَا لَمْ يَحِلَّ الدَّيْنُ، فَإِذَا حَلَّ الدَّيْنُ فَإِنْ أَنْظَرَهُ بَعْدَ الْحِلِّ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ»، أخرجه مسلم.

﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ لا منة فيه ولا تعيير، ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ أي: الحسنة بعشر أمثالها كما قال تعالىٰ: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾[البقرة:٢٦١]، ﴿ وَلَهُ أَجْرٌ

كَرِيمٌ ﴾ واسع مبارك، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يقول الله: «وَأَنْفِقْ يُنْفَقْ عَلَيْكَ»، متفق عليه.

ثم يخبر الله عن حال المؤمنين يوم القيامة فقال: ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ أي: علىٰ قدر أعمالهم: ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ حين يصعدون علىٰ الصراط، ﴿ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ قيل كتبهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[الإسراء: ٧١]، ﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ ﴾ أي: لكم البشارة، ﴿ جَنَّاتٌ ﴾ جمع جنة، ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ تجري فيها الأنهار، إذ أن أنهار الجنة ليست لها أخاديد ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ إذ أنهم حصلوا علىٰ المطلوب وأمنوا من المرهوب، فلا فوز بعده، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[آل عمران:١٨٥].

ويكون الناس ثلاثة أقسام: مؤمن، وكافر، ومنافق، فالمؤمن للجنة، والكافر للنار، والمنافق يعطيه الله عز وجل نورًا علىٰ ما كان يظهر ثم يسلب منه هذا النور فيكون في النار، ولذلك يقول: ﴿ يوم يقول الْمُنَافِقُونَ ﴾ أي: من أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، ﴿ وَالْمُنَافِقَاتُ ﴾ كذلك، ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وذلك علىٰ الصراط، ﴿ انْظُرُونَا ﴾ انتظرونا؛ لأنها عديت بنفسها فهي بمعنىٰ الانتظار، أما إذا عديت بإلىٰ فهي بمعنىٰ النظر كما قال تعالىٰ: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[القيامة: ٢٣]، ﴿ نَقْتَبِسْ ﴾

نلتمس ﴿ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ من نوركم فنستفيد منه ونمشي عليه، ﴿ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ ﴾ إلىٰ الخلف، ﴿ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ واطلبوا نورًا من ربكم، وذلك أن ظلمات الكفر والنفاق يلحقهم إلىٰ آخره، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾[النور: ٤٠]، ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ ﴾ أي: بعد انصرافهم وعودتهم لأخذ النور، وهذا السور قيل حائط بين الجنة والنار، ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ أي: الجنة وما فيها، ﴿ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ أي: وبعد أن يلحقهم الهلاك.

ثم عند ذلك: ﴿ يُنَادُونَهُمْ ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين ويطلبون منهم العون والنجدة، ﴿ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴾ في الدنيا، ﴿ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ أي: كنتم معنا ظاهرًا، ﴿ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ بالنفاق والكفر والشرك، ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ بالنبي صلىٰ الله عليه وسلم وأصحابه الدوائر حتىٰ تقع لهم الهلكة، وقيل أخرتم التوبة، ﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ في وحي الله وتشككتم، بالبعث والنشور، ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ ﴾ التي كنتم تتمنونها من زوال دين الإسلام وانتصار دين أهل الأوثان، أو أن الله سيغفر لكم ﴿ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللهِ ﴾ وهو الموت والساعة، ﴿ وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ ﴾ أي: الشيطان زين لكم ما أنتم فيه من الباطل والضلال: ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[الطور:١٦].

﴿ فَالْيَوْمَ ﴾ أي: القيامة، ﴿ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ يا معاشر المنافقين ولو

افتدىٰ بمن في الأرض جميعًا كما قال الله عز وجل: ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴾[المعارج:١١-١٤]، فلا فداء في ذلك اليوم، ولا سلامة إلا من سلمه الله وكان قد تقرب إلىٰ الله بالتوحيد والبراءة من الشرك والتنديد، وهو في حديث أنس: قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ - أَحْسِبُهُ قَالَ: وَلَا أُدْخِلَكَ النَّارَ - فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ»، أخرجه مسلم.

﴿ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعني: المشركين تؤخذ منهم فدية، ولا تنفعهم شفاعة، كما قال الله عز وجل: ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾[المدثر: ٤٨]، ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ هي مصيركم تصلونها وتأكلون من زقومها وتشربون من حميمها، ﴿ هِيَ مَوْلاكُمْ ﴾ هي مأواكم وملجأُكم، وأولىٰ بكم من منزل جزاء علىٰ كفركم وريبكم ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ بئس المكان الذي تصيرون إليه وتدخلون فيه.

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ نزلت في المؤمنين، قال ابن مسعود رضي الله عنه: لم يكن بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله عز وجل بهذه الآية إلا أربع سنوات.

يقول الله عز وجل: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي: ألم يكن لهم أن يتعجلوا ما

يقع في قلوبهم من الخشوع والخوف والوجول من ذكر الله عز وجل، ﴿ قُلُوبُهُمْ ﴾ لأن القلب إذا خشع خشعت الجوارح، وإذا سكن سكنت الجوارح، وإذا صلح صلحت الجوارح، وإذا اطمأن اطمأنت الجوارح: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»، متفق عليه عن النعمان بن بشير ت، ﴿ لِذِكْرِ الله ﴾ للقرآن، ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ من الوحي الذي أوحاه لله إلىٰ محمد صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ من قبل ﴾ فيه النهي عن التشبه بأهل الكتاب، وهم اليهود والنصارىٰ، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[الروم:٣١-٣٢]، وقد حذر الله عز وجل من التشبه بهم في مواطن، ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فقست قلوبهم ﴾ طال عليهم الوقت وبعدوا عن الوحي فقست قلوبهم؛ بسبب رغبتهم في الدنيا وإعراضهم وجهلهم، أما الجهل فكان متحقق في النصارىٰ، وأما الإعراض فكان تحققه في اليهود، ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ معرضون عن طاعة الله مشركون منددون.

﴿ اعْلَمُوا أَنَّ الله يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ يعني: اعلموا علم تدبر وتعقل بمعاني تلك الآيات، وإلا فهم يعلمون أن الله هو الذي يحيي الأرض بعد موتها؛ لكن طلب منهم علمًا يزيدهم إيمانًا وهدىً وتقىٰ، فيحييها الله عز وجل بالمطر، كذلك يحيي القلوب الميتة بالتوحيد والعلم، ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ ﴾ وضحنا

وجلينا الآيات الشرعية والآيات الكونية القدرية، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ بما أوحاه الله عز وجل إلىٰ نبيه ورسوله صلىٰ الله عليه وسلم.

﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ ﴾ أي: المتصدقين من المؤمنين وهم المؤدون للزكاة والباذلون للأموال في أوجه الخير، ﴿ وَالْمُصَّدِّقَاتِ ﴾ أي: من المسلمات، وقد ذكرهم الله أيضًا في سورة الأحزاب، وأخبر أنه أعد لهم مغفرةً وأجرًا كبيرًا، ﴿ وَأَقْرَضُوا الله قَرْضًا حَسَنًا ﴾ في الإنفاق في سبيله رجاء ثوابه، والقرض الحسن: هو الذي لا يكون فيه منٌّ ولا عجب ولا تطاول، ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ الأجر، كما قال تعالىٰ: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ﴾[البقرة:٢٦١]، ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ أجر عظيم ينتفعون به في الدنيا والآخرة، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّهُ حَدَّثَ عَنْ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَإِنَّ الله يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ طَاعَتِهِ»، أخرجه مسلم، وقد كرر الله عز وجل في هذه السورة الحض علىٰ الإنفاق وما فيه من الأجر العظيم في موطنين فدل علىٰ علو منزلته وعظيم نفعه.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالله ﴾ أي: ربًا، ﴿ وَرُسُلِهِ ﴾ واتبعوا الرسول محمد صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ وهي مرتبة علية بعد الأنبياء قال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ الله وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ الله ﴾[النساء:٦٩-٧٠].

﴿ وَالشُّهَدَاءُ ﴾ نالتهم الشهادة بسبب جهادهم في سبيل الله وابتغائهم لمرضاته، ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ وهم أيضًا عند ربهم لهم ثواب عظيم وهو الأجر الجزيل، ﴿ وَنُورُهُمْ ﴾ أي: نور الإيمان في قلوبهم في الدنيا، ونور الآخرة يستضيئون به علىٰ الصراط، ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أعرضوا عن دين الله، واستكبروا عن اتباع رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، وكذبوا القرآن وردوه، ﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ يخلدون فيها فتحرقهم ويَلقَوْنَ فيها سوء العذاب وبئس المصير.

ثم حذر الله عز وجل من الدنيا؛ لأنها من أعظم أسباب فتنة الإنسان: ﴿ اعْلَمُوا ﴾ يا معاشر المسلمين ﴿ أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ التي تقتتلون من أجلها وتتهاجرون وتتقاطعون وتتدابرون من أجل الحرص عليها، ويؤمل أحدكم البقاء عليها، ﴿ لَعِبٌ ﴾ دار لعب لسرعة زوالها، ﴿ وَلَهْوٌ ﴾ يتلهىٰ فيها، وربما كان اللعب فيها واللهو بالحرام فيقع في الإثم والهوان، ﴿ وَزِينَةٌ ﴾ زينها الله بالزراعات، الأبناء والزوجات، وزينها الله عز وجل بكثير من العطايا والهبات كما قال تعالىٰ: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[آل عمران:١٤]، وقال: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[الكهف:٤٦]، ﴿ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ﴾ أي: أن التكاثر فيها من أسباب تفاخر الناس إلا ما رحم ربي؛ ولذلك قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمِ الَّذِينَ مَاتُوا، إِنَّمَا هُمْ فَحْمُ جَهَنَّمَ، أَوْ

لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَىٰ الله مِنْ الْجُعَلِ»، والجعل: هو الذي يُدَهدِهُ الخراء بجسمه، فكذلك الذي يفتخر بأبيه وأمه ونسبه وهو بعيد عن دين الله عز وجل، وكذلك من يفتخر بآبائه الذين كانوا في الكفر نعوذ بالله من الخذلان، فإن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال: «مَنْ تَعَزَّىٰ بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ فأعضُّوه وَلَا تكنوه»، أي: يقال له: عض هن أبيك، والهن: هو العضو الذي يستقبح ذكره، الذي أمرنا الله بالتواضع، وترك التفاخر لا بالأحساب ولا بالأنساب، وإنما الفخر حقًا بالدخول في الإسلام صدقًا والمتابعة للنبي صلىٰ الله عليه وسلم ظاهرًا وباطنًا، مع أن هذا الأمر لا يدعو إلىٰ التعالي علىٰ الناس والاستطالة علىٰ الخلق؛ بل الواجب التواضع: «إِنَّ الله أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّىٰ لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ»، أخرجه مسلم عن عياض بن حمار رضي الله عنه.

﴿ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ يقول ومن شأن الدنيا أيضًا أن يقع فيها المكاثرة والتفاخر في الأموال والأولاد، والحال أن الدنيا: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ مطر، ﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ ﴾ والمراد بالكفار: الزراع سمي بذلك لأنه يكفر الحب ويغطيه، فالكفر: هو التغطية، ﴿ نَبَاتُهُ ﴾ زرعه، فحال الناس مع الدنيا كمثل المطر الغزير الذي أنبت الكلأ والعشب فأعجب المزارعين ما فيها من النبات والخير العميم، ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ يكبر، ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ﴾ يقارب اليباس والجذاذ، ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ هشيما محطمًا، والحال كما قال تعالىٰ: ﴿ كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ﴾[يونس:٢٤]، فكم من مزرعة إذا أتيت علىٰ أرجائها تجدها نَضِرة بهية جميلة، فإذا ما ذهب ثمرها

وإذا بها بيضاء لا مكان لظل ولا طعام أو شراب فيها، ﴿ وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ موجع للكافرين والمنافقين ممن آثروا الدنيا علىٰ الآخرة، ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ للمؤمنين، وفيه إثبات صفة الرضىٰ لله عز وجل، وهو أعلىٰ نعيم الجنة، ف عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ صلىٰ الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَىٰ؟ يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»، أخرجه مسلم، وقبل ذلك قول الله عز وجل: ﴿ وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[التوبة: ٧٢].

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ هذه الحياة التي قد تطول إلىٰ الستين سبعين ثمانين مائة سنة، ويموت الأبناء ﴿ إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ زائل فاني، ربما غرت الناس وألهتهم عن آخرتهم يغتر به أصحاب العقول الضعيفة، والهمم الهابطة.

فلما ذكر الدنيا وحال أهلها معها، وحال الناس في الآخرة حظ ورغب في المسارعة إليها فقال: ﴿ سَابِقُوا ﴾ أي سابقوا، كقوله: ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾[البقرة:١٤٨]، ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾[آل عمران:١٣٣]، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾[الأنبياء: ٩٠].

﴿ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ ﴾ بستر عيوبكم وغفر ذنوبكم ﴿ مِن رَبِّكُمْ ﴾ تعالىٰ الرحيم بكم والمربي لكم، ﴿ وَجَنَّةٍ ﴾ أي: جنات، ﴿ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ فإذا كان عرضها كعرض السماء والأرض فكيف بطولها؟ ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ جهزت، ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ﴾ «وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ»، «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُ»، ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي: نعيم الجنة ﴿ فَضْلُ اللهِ ﴾ الذي أكرم به المؤمنين، ﴿ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ من الموحدين، ﴿ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ الواسع، وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾[النساء:٣٢]، فعليك أن تكون متضرعًا سائلًا لله عز وجل من فضله؛ وفي دعاء الخروج من المسجد: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ، فَلْيَقُلْ: اللهمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ، فَلْيَقُلْ: اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ»، أخرجه مسلم عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ ت، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ صلىٰ الله عليه وسلم قَالَ: «إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ، فَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الْحِمَارِ، فَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا»، أخرجه مسلم.

فهكذا أخي المسلم سل الله من فضله في كل شيء: سله علمًا، ومالًا، وزوجةً، وأولادًا، ورزقًا فهو ذو الفضل العظيم، يمن علىٰ من يشاء فضلًا ويضل من يشاء عدلًا، وفي الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم، فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَىٰ، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، فَقَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا

نَتَصَدَّقُ، وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ، فَقَالَ رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ؟ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ» قَالُوا: بَلَىٰ، يَا رَسُولُ الله قَالَ: «تُسَبِّحُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، وَتَحْمَدُونَ، دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً»، قَالَ أَبُو صَالِحٍ: فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَىٰ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم، فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ، فَقَالَ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ».

﴿ مَا أَصَابَ ﴾ الناس في هذه الدنيا ﴿ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ من قحط أو قلة النبات والثمار ﴿ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ يعني اللوح المحفوظ أي أن ما يقع علىٰ الإنسان من خير أو شر في هذه الدنيا فهو مكتوب في اللوح المحفوظ، فإن الله لما خلق القلم قال: « اكْتُبْ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ، فَجَرَىٰ بِمَا هُوَ كَائِنٌ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ»، أخرجه أبو داود عن عبادة رضي الله عنه، وهذه الآية دليل علىٰ الإيمان بالقدر، والدليل علىٰ أن الخير والشر من الله قوله تعالىٰ: ﴿ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[الزمر:٦٢]، ﴿ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[الصافات:٩٦]، وفي حديث حُذَيْفَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ: «إِنَّ الله خَلَقَ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنْعَتَهُ، إِنَّ الله خَلَقَ صَانِعَ الْخَزَمِ وَصَنْعَتَهُ»، أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ أي: من قبل أن نخلقها ونوجدها، فدلت هذه الآية علىٰ مرتبتين من مراتب القدر:

المرتبة الأولىٰ: الكتابة.

المرتبة والثانية: الخلق، ويلزم من الكتابة العلم.

المرتبة الثالثة: العلم، فإن الله عز وجل أمر القلم أن يكتب عِلمه إلىٰ قيام الساعة، وكونها وقعت يلزم منه المشيئة.

المرتبة الرابعة: المشيئة، وهذه هي مراتب القدر الأربع، وقد قلت في المنظومة الزعكرية في مهمات العقيدة والأخلاق الإسلامية:

مراتـــب الأقـــدار فيهـــا أربـــعٌ قـــد حققوهـــا قبـــل ذا فلتســـمعوا

علـــمٌ كتابـــة لـــه تعـــالىٰ مشـــيئة خلـــق بـــذا قـــد قـــالا

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ أي: أن علمه بالأشياء وكتابتها يسيرة لا يعجزه شيء ولا يكرثه شيء.

﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ أي: أُعلِمُكم وأخبركم بذلك حتىٰ لا يقع منكم الأسىٰ علىٰ ما فاتكم من المصالح الدنيوية بل والدينية إلا أن الإنسان يستغفر من ذنبه ويتوب ويؤوب، وعن ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم يَوْمًا، فَقَالَ: «يَا غُلاَمُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ الله يَحْفَظْكَ، احْفَظِ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ»، أخرجه الترمذي.

﴿ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ من الخير، يعني: فرح البطر والأشر، الأشرة شر، وأما الفرح الشرعي: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[يونس:٥٨]، ﴿ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ ﴾ في نفسه، ﴿ فَخُورٍ ﴾ علىٰ غيره والمعنىٰ: أنه يحب المتواضعين كما تقدم حديث عياض بن حمار ت: «إِنَّ اللهَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا»، أخرجه مسلم، ولكنه سبحانه لا يحب المتكبرين المختالين في مشيتهم وفي أقوالهم وفي جميع شأنهم، وفي الآية إثبات صفة المحبة، وهي من الصفات الفعلية، وقد دل علىٰ إثباتها الكتاب والسنة والإجماع.

ومن صفات المختال الفخور: ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ أي: بخيل في نفسه ويحث غيره، وقد ذم الله عز وجل البخل لسوئه فهو خُلق سيء صاحبه ضعيف الشجاعة، ضعيف التوكل، ضعيف المروءة، ضعيف الإحسان، وفي الحديث من سيدكم «وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَىٰ مِنَ الْبُخْلِ»، فينبغي للإنسان أن يكون كريمًا بغير إسراف، وأن يكون حريصًا بغير إقتار أو شح: فعن جابر رضي الله عنه قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «وَإِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ؛ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَىٰ أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ».

والكرم منه الجبلي، ومنه المكتسب وذلك أن الإنسان يتخلق بأخلاق الكرام ويتأسىٰ بالنبي عليه الصلاة والسلام فهو بهذا سيصل إلىٰ الكرم، وإذا وصل إلىٰ الكرم انشرح صدره وحسنت طبيعته وحصل له الخير العظيم، ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ عن طاعة الله عز وجل، وطاعة رسوله صلىٰ الله عليه وسلم ﴿ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ عن

عباده ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ بلسان الحال والمقال وغناه ذاتي بمعنىٰ: أنه غني عبده الناس أم كفروه غني في حال وجود المخلوقين وفي حال عدمهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَىٰ اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾[فاطر:١٥]، وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه الذي أخرجه مسلم دلالة علىٰ غناه: «يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا».

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي: بالآيات والمعجزات الدالة علىٰ صدقهم، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم قَالَ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدِ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَىٰ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، أخرجه مسلم، ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ مفرد وهو شامل لجميع الكتب التي أنزلها الله عز وجل علىٰ أنبياءه ورسله، ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ العدل والقسط، ﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ أي: بالحق فيما بينهم فلا ظلم، ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ أي: أنزله من رؤوس الجبال

يستفيدهُ الناس فيصنعون منه الدروع والسهام والحراب والسيوف وغير ذلك، من الآلات يؤدب بها المخالف، ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ كالفلوس والفؤوس وغيره، فأغلب الآلات المركوبة وغير المركوبة يدخل فيها الحديد في صناعتها، ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ أي: من كان ناصرًا لله بتوحيده وعمله بطاعته، وناصرًا لرسل الله باتباعهم علم وقوع وإلا فإن الله بكل شيء عليم والاقتداء بهم في حال مشهده وغيبته، وينصر الله دينه بالقتال والجهاد في سبيل الله إذا تعين ذلك، ﴿ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ ﴾ لا يعجزه شيء، ﴿ عَزِيزٌ ﴾ لا يغلبه شيء.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ خصهما بالذكر؛ لأن نوح هو أبو البشرية الثاني، وإبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء بعده، ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ وإبراهيم من ذرة نوح، وهذه كرامة عظيمة لهم: أن جعل النبوة في أبنائهم، ﴿ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ ﴾ أي: من الذرية منهم من يهتدي إلىٰ الصراط المستقيم وإلىٰ دين الله القويم، ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ معرضون كافرون كما قال تعالىٰ: ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾[سبأ:١٣]، وقال: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾[يوسف:١٠٦].

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا ﴾ وأغلبهم من بني إسرائيل، أي: جعلهم الله عز وجل بعد نوح وإبراهيم، ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ وهذا من الخاص بعد العام ذكره؛ لأنه أقرب الأنبياء من محمد صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ ﴾ أنزله الله إليه وقد حرف وغير وبدل، كما قال تعالىٰ: ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ

مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾[المائدة: ١٣].

﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ من النصارىٰ، ﴿ رَأْفَةً ﴾ رقة، ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ فيما بينهم، ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ﴾ أي: تنسكًا وتعبدًا ﴿ ابْتَدَعُوهَا ﴾ أي: لم يفرضها الله عليهم وإنما هم ترهبنوا وتقربوا إلىٰ الله عز وجل ببعض ما أوجبوه علىٰ أنفسهم ثم كثير منهم أعرض عن ذلك، ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي: أن الله ما فرضناها عليهم الرهبانية: وهو ترك الزواج والتنعم، ﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ ﴾ أي: هم فعلوها ابتغاء رضوان الله بتلك الرهباني فأحدثوها ظنًا منهم أن يقوموا بها وتقربهم إلىٰ الله، ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ حيث اتبعوا رهبانهم وملوكهم بالباطل، ولعله والله أعلم كان في دينهم مأذون لهم بمثل هذا وإلا ما جاز التعبد بالبدعة، وأن من أوجب علىٰ نفسه شيئًا قام به، وأما في ديننا فقد تم وكمل، قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»، «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»، «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»، ﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ أي: من آمن منهم بعيسىٰ عليه السلام وكان علىٰ التوحيد، أما من كان علىٰ الشرك والتنديد ممن يؤله عيسىٰ فلا أجر له، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾[الفرقان:٢٣]، فما وجدت من مدح في أهل الكتاب فهو محمول علىٰ من كان مؤمنًا حقًا وكان إيمانه بهم قبل مبعث النبي صلىٰ الله عليه وسلم، أما بعد مبعث النبي صلىٰ الله عليه وسلم فليس لهم دين ولا كرامة بل إنهم أهل الخيانة والمهانة، ﴿

﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ من للتبعيض أو لبيان الجنس: أن الله أكرم المؤمنين بالأجر العظيم، ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ ﴾ كثير من أهل الكتاب: ﴿ فَاسِقُونَ ﴾ وهم الذين تركوا الرهبانية، وكفروا بدين عيسىٰ عليه السلام.

ولما ذكر الله أهل الكتاب وما هم عليه ذكر الذين أمنوا والذين ينقادون لله ظاهرًا وباطنًا، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله ﴾ بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾ وهو تصديقه بما أخبر وطاعته فيما أمر والانتهاء عما نهىٰ عنه وزجر وألا يعبد الله عز وجل إلا بما شرع، ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ يكرمكم بكرامة عظيمة ويأجركم أجرين: أجر العمل، وأجر المتابعة، ﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ يوم القيامة علىٰ الصراط، أو أن المعنىٰ يوفقك للخير، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا الله يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَالله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[الأنفال: ٢٩]، ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ذنوبكم وما أسرفتم من العاصي علىٰ أنفسكم، ﴿ وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ يستر الماضي ويوفق في الآتي.

﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: (لِكي)، ﴿ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ الله ﴾ ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون علىٰ منع فضل الله عز وجل عن أحد من عباده؛ فإن الله قد خص هذه الأمة بالفضيلة مع بغض أهل الكتاب لذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَالله يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَالله

ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[البقرة: ١٠٥]، ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَالله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ وأن الفضل بيد الله يكرم من يشاء فيجعله رسولًا أن يجعله مقربًا أو يجعله عالمًا فاضلًا؛ ولذلك كانت الفضيلة في بني إسرائيل كما قال الله: ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴾[البقرة:٤٧]، أي: عالمين زمانهم فنقلها الله إلىٰ أمة محمد صلىٰ الله عليه وسلم.

والفضل عام دخل فيه فضل الهداية، والرزق، والعطاء، والجنة وغير ذلك من الفضائل، ﴿ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ لعلمه أنه أهل لذلك، ﴿ وَالله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ الواسع الذي إذا أنعم به علىٰ الإنسان فلا طمع له في غيره، وقد أخرج البخاري عَنْ أَبِي مُوسَىٰ، عَنِ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم: «مَثَلُ المُسْلِمِينَ وَاليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ قَوْمًا، يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا إِلَىٰ اللَّيْلِ، فَعَمِلُوا إِلَىٰ نِصْفِ النَّهَارِ فَقَالُوا: لاَ حَاجَةَ لَنَا إِلَىٰ أَجْرِكَ، فَاسْتَأْجَرَ آخَرِينَ، فَقَالَ: أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِكُمْ وَلَكُمُ الَّذِي شَرَطْتُ، فَعَمِلُوا حَتَّىٰ إِذَا كَانَ حِينَ صَلاَةِ العَصْرِ، قَالُوا: لَكَ مَا عَمِلْنَا، فَاسْتَأْجَرَ قَوْمًا، فَعَمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ حَتَّىٰ غَابَتِ الشَّمْسُ، وَاسْتَكْمَلُوا أَجْرَ الفَرِيقَيْنِ»، وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم قَالَ: «مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الكِتَابَيْنِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةَ إِلَىٰ نِصْفِ النَّهَارِ عَلَىٰ قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ اليَهُودُ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَىٰ صَلاَةِ العَصْرِ عَلَىٰ قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَىٰ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنَ العَصْرِ إِلَىٰ أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَىٰ قِيرَاطَيْنِ؟ فَأَنْتُمْ هُمْ»، فَغَضِبَتِ اليَهُودُ، وَالنَّصَارَىٰ، فَقَالُوا:

مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا، وَأَقَلَّ عَطَاءً؟ قَالَ: «هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَذَلِكَ، فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ»، أخرجه البخاري.

والله المستعان.

كان الانتهاء من مراجعته غروب الثلاثاء السادس من محرم / ١٤٤٢ هـ

سورة المجادلة

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

جزء المجادلة كله مدني، **والسور المدنية**: هي التي نزلت بعد هجرة النبي صلىٰ الله عليه وسلم، وليس المراد بها ما نزل بالمدينة فقط، فسورة الفتح مدنية وكان نزولها بالحديبية، وقوله تعالىٰ: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾[المائدة:٣]، مدنية وكان نزولها بعرفة من نواحي مكة.

والفرق بين المكي والمدني:

الأول: أن السور المكية النداء فيها في الغالب يكون: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾[الحج:١].

الثاني: أن فيها الترغيب والترهيب، وذكر الجنة والنار، والبعث والنشور أكثر من غيرها، بينما في السور المدنية تجد فيها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[الحجرات:١]، وفيها الأحكام ونحو ذلك.

الثالث: أن المكي يركز علىٰ العقائد والإيمان، وكله كلام الله ووحيه وتنزيله أنزله علىٰ محمد صلىٰ الله عليه وسلم.

قوله تعالىٰ: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ ﴾ قالت عائشة رضي الله عنها: تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتِ كُلَّهَا ، إِنَّ الْمَرْأَةَ لَتُنَاجِي رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم أَسْمَعُ بَعْضَ كَلَامِهَا وَيَخْفَىٰ عَلَيَّ بَعْضٌ، إِذْ أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾،

(١) بدأنا في تفسير جزء المجادلة في الثاني عشر من رمضان لعام ١٤٤١هـ

الحديث ذكره البخاري تعليقًا مستدلًا به على إثبات صفة السمع لله عز وجل، وهي صفة ذاتية حقيقية فإن الله لا تخفى عليه خافية، فيسمع المسموعات ويبصر المبصرات.

﴿ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ هي خولة بنت ثعلبة، ويقال خُويلة بالتصغير، ويقال: خولة بنت مالك بن ثعلبة، وزوجها أوس بن الصامت؛ ففي مسند أحمد عَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ قَالَتْ: فِيَّ - وَاللهِ - وَفِي أَوْسِ بْنِ صَامِتٍ أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ صَدْرَ سُورَةِ الْمُجَادَلَةِ قَالَتْ: كُنْتُ عِنْدَهُ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ سَاءَ خُلُقُهُ وَضَجِرَ، قَالَتْ: فَدَخَلَ عَلَيَّ يَوْمًا فَرَاجَعْتُهُ بِشَيْءٍ فَغَضِبَ، فَقَالَ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي، قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجَ فَجَلَسَ فِي نَادِي قَوْمِهِ سَاعَةً، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيَّ، فَإِذَا هُوَ يُرِيدُنِي عَلَى نَفْسِي، قَالَتْ: فَقُلْتُ: كَلَّا وَالَّذِي نَفْسُ خُوَيْلَةَ بِيَدِهِ، لَا تَخْلُصُ إِلَيَّ وَقَدْ قُلْتَ مَا قُلْتَ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَرَسُولُهُ فِينَا بِحُكْمِهِ ، قَالَتْ: فَوَاثَبَنِي وَامْتَنَعْتُ مِنْهُ، فَغَلَبْتُهُ بِمَا تَغْلِبُ بِهِ الْمَرْأَةُ الشَّيْخَ الضَّعِيفَ، فَأَلْقَيْتُهُ عَنِّي، قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى بَعْضِ جَارَاتِي فَاسْتَعَرْتُ مِنْهَا ثِيَابَهَا، ثُمَّ خَرَجْتُ حَتَّى جِئْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم فَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَذَكَرْتُ لَهُ مَا لَقِيتُ مِنْهُ، فَجَعَلْتُ أَشْكُو إِلَيْهِ صلى الله عليه وسلم مَا أَلْقَى مِنْ سُوءِ خُلُقِهِ، قَالَتْ: فَجَعَلَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «يَا خُوَيْلَةُ، ابْنُ عَمِّكِ شَيْخٌ كَبِيرٌ فَاتَّقِي اللهَ فِيهِ»، قَالَتْ: فَوَاللهِ مَا بَرِحْتُ حَتَّى نَزَلَ فِيَّ الْقُرْآنُ، فَتَغَشَّى رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم مَا كَانَ يَتَغَشَّاهُ، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ فَقَالَ لِي: «يَا خُوَيْلَةُ، قَدْ أَنْزَلَ اللهُ فِيكِ وَفِي صَاحِبِكِ»، ثُمَّ قَرَأَ عَلَيَّ: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ، وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾[المجادلة: ١]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[المجادلة:٤]، فَقَالَ لِي رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «مُرِيهِ

فَلْيُعْتِقْ رَقَبَةً»، قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا عِنْدَهُ مَا يُعْتِقُ، قَالَ: «فَلْيَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ»، قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّهُ شَيْخٌ كَبِيرٌ مَا بِهِ مِنْ صِيَامٍ، قَالَ: «فَلْيُطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِينًا، وَسْقًا مِنْ تَمْرٍ»، قَالَتْ: فَقُلْتُ : وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا ذَاكَ عِنْدَهُ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم: «فَإِنَّا سَنُعِينُهُ بِعَرَقٍ مِنْ تَمْرٍ»، قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَأَنَا يَا رَسُولَ اللهِ سَأُعِينُهُ بِعَرَقٍ آخَرَ، قَالَ: «قَدْ أَصَبْتِ وَأَحْسَنْتِ، فَاذْهَبِي فَتَصَدَّقِي عَنْهُ ، ثُمَّ اسْتَوْصِي بِابْنِ عَمِّكِ خَيْرًا»، قَالَتْ: فَفَعَلْتُ.

﴿ وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ ﴾ تكرر وتقول: والله لا أشكوه إلا إلىٰ الله، يعني: كيف ذهب بشبابي وفعل بي وفعل، وأطعته وأكرمته وبقيت معه ثم يطلقني أو يهجرني، فالطلاق والهجر شديد علىٰ النساء وقعه، فالإنسان بحاجة إلىٰ الإحسان إلىٰ نفسه وأهله، والنبي صلىٰ الله عليه وسلم يقول: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي».

﴿ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ أي: تحاور المرأة مع النبي صلىٰ الله عليه وسلم، ومرادة الكلام الذي تشكو فيه زوجها ورسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يأمرها بالصبر، ﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالكم، ﴿ بَصِيرٌ ﴾ أفعالكم.

ثم شرع في ذكر أحكام الظهار، وقد ذهب جمهور أهل العلم إلىٰ أن الرجل إذا قال لزوجته: أنتي عليّ كأمي أو كظهر أمي أو كأختي أو كظهر أختي أي محرم له فإنه يعد مظاهرًا من زوجته، وذهب بعض المحققين إلىٰ أنه لا يكون مظاهرًا إلا إذا قال: أنتِ عليّ كظهر أمي وقيدهُ وعلقه بالظهر.

قال ابن قدامة في المغني (٧/ ٤١٤): كَمَا لَوْ قَالَ: أَنْتِ عَلَيَّ حَرَامٌ كَظَهْرِ أُمِّي. فَأَمَّا إنْ نَوَىٰ غَيْرَ الظِّهَارِ، فَالْمَنْصُوصُ عَنْ أَحْمَدَ فِي رِوَايَةِ جَمَاعَةٍ، أَنَّهُ ظِهَارٌ، نَوَىٰ الطَّلَاقَ أَوْ لَمْ يَنْوِهِ. وَذَكَرَهُ الْخِرَقِيِّ فِي مَوْضِعٍ غَيْرِ هَذَا. وَمِمَّنْ قَالَ: إنَّهُ ظِهَارٌ؛ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَأَبُو قِلَابَةَ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَمَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ، وَالْبَتِّيُّ. رَوَىٰ الْأَثْرَمُ، بِإِسْنَادِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي الْحَرَامِ، أَنَّهُ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ، أَوْ إطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا. وَلِأَنَّهُ صَرِيحٌ فِي تَحْرِيمِهَا، فَكَانَ ظِهَارًا، وَإِنْ نَوَىٰ غَيْرَهُ، كَقَوْلِهِ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي. اهـ

﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم ﴾ قوله: ﴿ مِنكُمْ ﴾ أي: من المؤمنين فلا عبرة بمظاهرة الكافرين عند مالك، وذهب جمهور أهل العلم إلىٰ أنهم يدخلون في هذا الخطاب، ﴿ مِّن نِّسَائِهِمْ ﴾ مفهومه: أن الرجل إذا ظاهر من امرأة لم يتزوجها أنه لا يعد ظهارًا وإنما يكون الظهار من زوجته، ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ يعني: كيف يقول: أنتِ عليّ كظهر أمي وهي ليست بأم له، ولذلك حرم بعض أهل العلم أن يقول الرجل لزوجته: يا أمي أو يا أختي فالزوجة تطلق عليها ألفاظ الزوجية، وما كان قول إبراهيم لسارة قولي: أنت أختي إلا من باب رد كيد الكافر والفاجر وكان هذا من المعاريض التي يتقىٰ بها الكذب.

﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي ولدنهم ﴾ أي: أن الأمهات اللاتي ولدنهم وخرجوا من بطونهن، ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ أي: المظاهرون، ﴿ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ بهذه الآية استدل أهل العلم علىٰ أن الظهار يعتبر كبيرة من كبائر الذنوب وعظيمة من عظائم الآثام،

﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ أي: بالمظاهرة، ﴿ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ ﴾ أي: قولهم منكر باطل، ﴿ وَزُورًا ﴾ حرام وكذب، ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ ﴾ عن من تاب وأناب، ﴿ غَفُورٌ ﴾ لمن أصلح، فيتجاوز عن سيئاته وزلته؛ لكن التوبة في هذا الأمر لا بد لها من كفارة، فلا يكفي أن يقول: أنا تائب أو استغفر الله وأتوب إليه.

﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ هذه الآية تفيد العموم يدخل فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فمن ظاهر من امرأته شمله هذا الحكم، ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ قال بعض أهل العلم: يعودون للظهار يقول مرة ثانية: أنتِ عليَّ كظهر أمي وليس بصحيح، وإنما المراد: ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ أي: يريدون الجماع ونحو ذلك مما يريده الرجل من امرأته، ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أي: تحرير عبد سواءً كان ذكرًا أو أنثىٰ، وأطلق هنا وقيد في سورة النساء، ﴿ مُؤْمِنَةٍ ﴾[النساء:٩٢]، وبهذا استدل العلماء علىٰ أن الرقبة تكون مؤمنة، ففي حديث معاوية بن الحكم السلمي قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم للجارية: «أَيْنَ اللهُ؟»، قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟»، قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»، فدل علىٰ تعين الرقبة المؤمنة؛ لأن الرقبة الكافرة إذا أُعتقت زاد شرها، بينما المؤمنة اعتاقها فيه التعاون علىٰ البر والتقوىٰ، ويصلح في العتق الذكر والأنثىٰ سواء إلا أن بعض أهل العلم اشترطوا: أن تكون الرقبة سالمة من العيوب، قادرة علىٰ نفع نفسها؛ لأنك إذا أعتقت رقبة تحتاج إلىٰ من يعولها قد يؤدي إلىٰ ضررها، وإن كانت امرأة ربما أدىٰ إلىٰ فسادها، وإن كان رجل أدىٰ إلىٰ إرهاقه.

﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ أي: من قبل أن يجامعها، فالمراد بالمماسة هنا الجماع، وأما الاستمتاع بها فيه دون الجماع فلا حرج منه كالقبلة ونحو ذلك بل أجاز بعضهم ما هو أوسع من ذلك كما قال الحسن البصري رحمه الله: لكن لو قدر أنه مسها فليس عليه كفارة إنما عليه التوبة إلىٰ الله عز وجل.

﴿ ذَلِكُمْ ﴾ أي: ما تقدم من الأحكام، ﴿ تُوعَظُونَ به ﴾ تخوفون وترهبون به، ﴿ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ والله علىٰ أعمالكم مطلع وبها عالم.

﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ﴾ أي: لعجزه عن الكفارة، ﴿ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ إن كان صام في أول الشهر فيصوم من الهلال إلىٰ الهلال إلىٰ الهلال، وإن كان قد صام من وسط الشهر فيصوم ستين يومًا، ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ علىٰ ما تقدم، ﴿ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ يعني: يطعم ستين مسكينًا إن تيسر من قوت بلده ومن طعام أهله فلا يكتفي بالأرز أو الدقيق أو الشعير ونحو ذلك، بل يطعمه إطعامًا كاملًا، فإن عجز عن ذلك أعطاه ما يقوم به من نصف صاع ونحو ذلك، والقصة أن هذا رضي الله عنه لم يكن معه رقبة ولا يستطيع أن يصوم شهرين متتابعين ولا يستطيع أن يطعم ستين مسكينًا فأعانه النبي صلىٰ الله عليه وسلم وأعانته زوجته علىٰ ما جاء في بعض الروايات ثم كفر عن مظاهرته.

وتجوز المظاهرة المقيدة: فعن ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَجُلًا أَتَىٰ النَّبِيَّ صلىٰ الله عليه وسلم قَدْ ظَاهَرَ مِنَ امْرَأَتِهِ فَوَقَعَ عَلَيْهَا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي ظَاهَرْتُ مِنَ امْرَأَتِي فَوَقَعْتُ قَبْلَ أَنْ أُكَفِّرَ، قَالَ: «وَمَا حَمَلَكَ عَلَىٰ ذَلِكَ يَرْحَمُكَ الله؟» قَالَ: رَأَيْتُ خَلْخَالَهَا فِي ضَوْءِ الْقَمَرِ، فَقَالَ: «لَا تَقْرَبْهَا حَتَّىٰ تَفْعَلَ مَا أَمَرَ الله عَزَّ وَجَلَّ»، أخرجه النسائي.

فالصحيح أن الآية نزلت في خولة وزوجها، وإنما هذا عمل بمضمون الآية.

﴿ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ يعني: لا يطعم واحدًا ستين مرة لكن يطعم ستين مسكينًا، ﴿ ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي: تلك الأحكام لتؤمنوا بالله ورسوله وتطبقوا شرع الله وسنة رسوله صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ ﴾ تلك حرمات الله يجب ألا تعتدوها وألا تنتهكوها، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾[الطلاق:١]، ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ ﴾ يوم القيامة ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ موجع؛ لأنهم أشد من تعدىٰ حدود الله وأعرض عن امتثال شرع الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ ﴾ يخالفون شرع الله وشرع رسوله صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ كُبِتُوا ﴾ أهينوا ونكسوا، ﴿ كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ كما أُهين من كان قبلهم وأُركس بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، ﴿ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات جليات ظاهرات، ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ موجع يوم القيامة ويهانون به، قال تعالىٰ: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾[الدخان:٤٩].

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا ﴾ أي: يكون هذا العذاب يوم القيامة حين يبعث الله الأولين والآخرين، ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ فيخبرهم بجميع أعمالهم سواءً في ذلك إنباؤهم بالقراءة من كتبهم: ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[الإسراء:١٤]، أو بشهادة الملائكة، أو بإخبار الله عز وجل لهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾[الزخرف: ٨٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[النور: ٢٤].

﴿ أَحْصَاهُ اللهُ ﴾ حفظه، ﴿ وَنَسُوهُ ﴾ لتباعد الزمان، ﴿ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ مطلع لا تخفىٰ عليه خافية من عظيم الأمور ودقيقها.

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ يا محمد ومن يقرأ هذا الكلام، ﴿ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ لا تخفىٰ عليه خافية، يعلم ما في السموات والأرض وما بينهما، ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلاثَةٍ ﴾ من كلام سر بين ثلاثة، ﴿ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ أي: مطلع علىٰ أقوالهم وأفعالهم، ﴿ وَلا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ لا أدنىٰ من الثلاثة ولا أكثر من الستة: ﴿ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ فيها إثبات المعية لله عز وجل، وقد تقدم قول الله عز وجل: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾[الحديد:٤]، وقوله: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[طه:٤٦]، **السؤال**: ولكن ماذا تعني هذه الآية؟ هل تعني أن الله في كل مكان؟ فيكون معنا داخل المسجد وخارجه مثلًا بذاته المقدسة العلية؟

الجواب: لا، فهذا لا يعتقده المسلم؛ لأن المسلمين يعتقدون أن الله علىٰ عرشه استوىٰ: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾[طه:٥]، وأنه في العلو سبحانه وتعالىٰ؛ ولكن معنىٰ: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ أي: بعلمه وسلطانه وبصره وقهره كما يقول العربي: ما زلت أسير والقمر معي، والقمر في السماء وهو في الأرض، ويقول: زوجتي معي، وزوجته في مدينة وهو في الأخرىٰ، فليس معنىٰ المعية أنه بذاته في كل مكان كما يزعم الحلولية والاتحادية؛ بل معنا بعلمه يعلم ما نعمل، ويبصر ما نعمل، ويسمع ما نقول، وهو قاهر لنا سبحانه وتعالىٰ.

﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ ﴾ يخبرهم ﴿ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ بجميع أعمالهم، وقد سطرها في كتاب، وتشهد عليهم ألسنتهم، ﴿ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا تخفىٰ عليه خافية، ومما يدل علىٰ أن المعية معية علم؛ أن الله افتتح الآية بالعلم وختمها بالعلم.

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ يا محمد ومن آمن معك، ﴿ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ﴾ نهوا عن التناجي بالباطل من الغيبة والنميمة والمكر والكيد، ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ مع أن الله قد حرمه عليهم، ﴿ وَيَتَنَاجَوْنَ ﴾ أي: يتسارون في مجالسهم، ﴿ بِالإِثْمِ ﴾ قول الزور والكلام الباطل، ﴿ وَالْعُدْوَانِ ﴾ البهت ونحو ذلك، ﴿ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ يدعون إلىٰ معصية الرسول صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ ﴾ أظهروا خلاف ما يبطنون، فـ: ﴿ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ ﴾ كانوا يقولون: راعنا، ويقصدون بها الرعونة، وكانوا يقولون: السام عليك يا محمد، ويريدون بها الموت، فيظن الظان أنهم يقولون: السلام عليكم دعاء بالسلامة، ولهذا لعنتهم عائشة رضي الله عنها فقال لها النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم: «قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ»، متفق عليه.

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي: لبعضهم إذا التقوا، ﴿ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ يعني: هل سيعذبنا الله بما يقول، إن كان العذاب إلا بهذا كأنهم يقولون: نحن نتحمل، بئس قولهم وبئس صنيعهم، ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ يكفيهم يوم القيامة أن يعذبوا في جهنم، ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ تغشاهم بنارها من جميع أجزاء أجسامهم، ﴿ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ مصيرهم إذ لا راحة فيه لشراب، ولا طعام، ولا أكل، ولا لباس، ولا نوم وغير ذلك.

ولما ذكر الله عز وجل شأن المنافقين ومن تشبه بهم قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يا أهل الإيمان، ﴿ إِذَا تَنَاجَيْتُمْ ﴾ تحدثتم فيما بينكم في مجالسكم وطرقكم، ﴿ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ بالغيبة والنميمة والبهت والكذب وغير ذلك، ﴿ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾ البر كل فعل معروف وفعله مبرة مقرب من الله وترك المحظور والمعنىٰ لتسكن مناجاتكم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحث علىٰ الصلاة والصيام والزكاة وبر الوالدين، والحث علىٰ فعل المأمورات وترك المحظورات، ﴿ وَاتَّقُوا الله ﴾ في أنفسكم بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ يوم القيامة فيجازيكم علىٰ أعمالكم.

﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ ﴾ أي: في الباطل، ﴿ مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ يقذفها في قلوب أوليائه ليقذفوها في قلوب المؤمنين ﴿ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي: ليحصل لهم الحزن فربما خوفهم بالفقر، والمرض، وخوفهم من الكفار، قال الله عز وجل: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَالله يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ﴾[البقرة: ٢٦٨].

﴿ وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا ﴾ هذا التخويف، ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ الله ﴾ الكوني لا الشرعي، فإن الأذىٰ يكون في المحبوب وغيره، والشرعي لا يكون إلا في المحبوب فلا يكون شيء في هذا العالم العلوي والسفلي إلا بإذن الله القدر الكوني: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ ﴾ دينية أو بدنية ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ الله ﴾[التغابن:١١]، الكوني؛ لأن الإذن ينقسم إلىٰ نوعين: إذن شرعي: وهو ما أمر الله به في الكتاب والسنة، وإذن كوني: وهو الذي لا بد أن يقع، ﴿ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ

﴿ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ في جميع شؤونهم ويعتمدون عليه بجلب منافعهم ودفع مضارهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَلَيْسَ الله بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾[الزمر:٣٦].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ خطاب آخر للمؤمنين، ﴿ إِذَا قِيلَ لَكُمْ ﴾ من إخوانكم ﴿ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ ﴾ بحيث يتوسع بعضهم لبعض، وهذا أدب رفيع لا يوجد في غير دين الإسلام ولا يجوز أن يقام الرجل من مجلسه كما قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «لَا يُقِيمَنَّ أَحَدُكُمُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ، ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ، وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا»، فهنا يأمر الله عز وجل بالتفسح للمؤمن الداخل في البيت، ﴿ يَفْسَحِ الله لَكُمْ ﴾ إذ أن الجزاء من جنس العمل، فيدخل في فسحة الله الفسحة في القبر والدنيا براحة البال وطمأنينة الحال وفسحة الآخرة.

قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا ﴾ أي: قوموا ارتفعوا وتنحوا لحاجة تعرض، ﴿ فَانْشُزُوا ﴾ أي: فبادروا للقيام لتحصيل تلك المصلحة؛ فإن القيام بمثل هذه الأمور من العلم والإيمان، ﴿ يَرْفَعِ الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ وهذه الآية يستدل بها أهل العلم علىٰ فضيلة العلم والإيمان، ﴿ يَرْفَعِ الله ﴾ في الدنيا والآخرة، ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ﴾ صدقوا وانقادوا، ﴿ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ وهذا من عطف العام علىٰ الخاص فإن أهل العلم يدخلون في الذين أمنوا دخولًا أوليًا إلا أنه ذكرهم لبيان فضلهم وعلو منزلتهم، في الدنيا والآخرة، فإن العالم هو المقدم في الصلاة، والمقدم في الخطابة، والمقدم في الوعظ، والمقدم في الفتوىٰ، وإذا كان في القبر كان المقدم فلما كان يوم أحد قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «انْظُرُوا أَكْثَرَهُمْ جَمْعًا لِلْقُرْآنِ فَقَدِّمُوهُ»، يعني: في اللحد، وإذا كان يوم القيامة قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «يُقَالُ لِصَاحِبِ

القُرْآنِ: اقْرَأْ وارْتَقِي ورَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَ»، ﴿ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ مطلع وعالم.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ ﴾ يا أهل الإيمان إذا تكلمتم مع الرسول، ﴿ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ وقد كان هذا الأمر واجبًا في أول الأمر، من أراد أن يتكلم مع النبي صلىٰ الله عليه وسلم يبدأ ويتصدق علىٰ فقير أو مسكين أو نحو ذلك ثم نسخه الله عز وجل؛ لأن النفوس مجبولة علىٰ حب المال: ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾[الفجر:٢٠]، ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي: تقديم الصدقة، ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ سبب لقبول نجواكم ولجعل البركة فيها، وسبب لطهارة النفوس والأموال وقضاء حاجة المسكين، ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا ﴾ ما تتصدقون به، ﴿ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ يعفو عنكم ويصفح.

﴿ أَأَشْفَقْتُمْ ﴾ أي: هل خفتم وبخلتم بالمال، ﴿ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ كما أمركم الله عز وجل، ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ ذلك، ﴿ وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ ﴾ عفىٰ عنكم في هذه الصدقة، ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ المفروضة، ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ المكتوبة، ﴿ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وطاعة الرسول صلىٰ الله عليه وسلم طاعة لله، فالذي يطعن في سنة النبي صلىٰ الله عليه وسلم ويقول: نحن نعمل بالقرآن فهو ضال؛ لأن القرآن أمر بطاعة النبي عليه الصلاة والسلام قال الله عز وجل: ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[النور:٥٦]، فالآية فيها رد علىٰ القرآنيين والرافضة ومن إليهم الذين يقولون: نكتفي بالقرآن، فالقرآن لا يكفي وحده، لا بد أن تبينه السنة، القرآن جاء بالصلاة إجمالًا ومن الذي علمنا بصلاة الفجر والظهر والعصر

والمغرب والعشاء؟ النبي صلىٰ الله عليه وسلم في السنة، ومن الذي أخبرنا أن صلاة الفجر ركعتان والظهر أربع والعصر أربع والمغرب ثلاث والعشار أربع؟ ومن الذي أخبرنا بنوافل الصلاة؟

فإذًا: لا يمكن أن يفرق بين القرآن والسنة، فالتفريق بينهما تفريق بين المتماثلات التي لا يقوم بعضها إلا ببعض، والأصل في أمر الله عز وجل ورسوله صلىٰ الله عليه وسلم أنه للوجوب إلا أن تأتي قرينة تدل علىٰ أنه للاستحباب أو نحو ذلك، ثم قال: ﴿ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ مطلع علىٰ أعمالكم ويعلم الصادق من غيره.

ثم قال عز وجل مخبراً عن حال المنافقين: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ يا محمد: ﴿ إِلَىٰ الَّذِينَ ﴾ نافقوا حيث ﴿ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾ اليهود والكفار يعاضدونهم ويناصرونهم، مع أنهم ﴿ مَا هُمْ مِنْكُمْ ﴾ وكذلك: ﴿ وَلا مِنْهُمْ ﴾، وإنما جمعهم علىٰ ذلك بغض الحق وأهله، ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَىٰ الْكَذِبِ ﴾ أنهم أرادوا كذا وكذا مما الواقع خلافه، ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم يكذبون وحالهم كما قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ»، قال تعالىٰ: ﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ ﴾[النساء:١٤٣].

﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ في الآخرة، ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ساء الفعل فعلهم، والسبيل سبيلهم.

﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ وقاية والمعنىٰ أنهم أكثروا من الأيمان من أجل أن يتقوا بها العقوبة، فالجُنَّة: هي الشيء الذي يحجز بينك وبين الآخر، قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «إِنمَا الإِمام جُنَّة»، يعني: ولي الأمر يكفيك كثير من شرور أهل المعاصي ويكفيك

كثيرًا من الأمور؛ وقال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «الصَّوْمُ جُنَّةٌ»؛ لأن الصائم يترك كثيرًا من المعاصي، ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ سترًا لباطنهم، ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ عن طريق الحق ونفروا منه، ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ يهانون فيه يوم القيامة.

﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ ﴾ وإن كثرت، ﴿ وَلا أَوْلادُهُمْ ﴾ وإن كثروا، ﴿ مِنَ اللهِ شَيْئًا ﴾ لأن الله عز وجل لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، ﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ من تقدم وصفهم من أهل النفاق، ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ دليل علىٰ مذهب أهل السنة والجماعة في أن الجنة والنار لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان، فإن الله عز وجل حين يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يؤتىٰ بالموت فيذبح قال فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ الله عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «يُؤْتَىٰ بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: وهَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾[مريم: ٣٩]، وَهَؤُلاَءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا: ﴿ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[مريم: ٣٩] »، متفق عليه.

ويكون ذلك: ﴿ يَوْمَ ﴾ القيامة حيث: ﴿ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا ﴾ الكفار والمنافقين بل جميع الناس، ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ ﴾ في الآخرة، ﴿ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ في الدنيا، ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ يحسبون أنهم يتقون وأنهم سيسلمون، ﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ إذ أن الله عز وجل مطلع عليهم لا تخفىٰ عليه خافية، وقد قال الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ تُبْلَىٰ السَّرَائِرُ

﴾[الطارق:٩]، ويأمر جوارحهم أن تتكلم والكرام الكاتبين قد كتبوا جرحوا من الأعمال، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ ﴾[الزخرف:٨٠]، نسمع، ﴿ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾[الزخرف:٨٠]، يقيدون عليهم ما قالوه.

﴿ اسْتَحْوَذَ ﴾ تغلب: ﴿ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ ﴾ الرجيم حيث صيرهم لطاعته بما يلقىٰ من الشبهات والشهوات في صدورهم، ﴿ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ ﴾ شغلهم وألهاهم عن طاعة الله عز وجل، ﴿ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ﴾ حزبه؛ لأنهم علىٰ طريقته، وحزب الشيطان خاسر في الدنيا والآخرة، وأشد أحزاب الشيطان الكفار والمنافقون، وكل من تحزب لغير الكتاب والسنة عنده من حزب الشيطان بقدر ما عنده من البعد عن طريق الرحمن سبحانه وتعالىٰ، فهذه الحزبيات التي ترونها في المجتمعات الإسلامية فرقت البلدان ومزقتهم وسببت الثورات والانقلابات وغير ذلك ليست من حزب الله أبدًا، فإن حزب الله عز وجل علىٰ طريقة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، وإذ نقول حزب الله لا نقصد (حزب الله الشيطاني) الذي هو في لبنان الرافضي كما أننا إذا نقول: أنصار الله (لا نقصد الحوثيين الرافضة) فإن هذه أسماء اتخذوها مخالفة لواقعهم، فحزب الله اللبناني حقه أن يكون حزب الشيطان ؛ لأنهم رافضة يقتلون أهل الإسلام ويتقمصون بغض اليهود تقمصًا وإلا فهم عملاء لليهود علىٰ مر الأزمان، ويسمون بأنصار الله ونصرتهم لدين الرافضة وأذىٰ أهل الإيمان نعوذ بالله من الخذلان، ﴿ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ بالدنيا بالهزيمة وفي الآخرة في النار.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ ﴾ يشاقون ﴿ الله وَرَسُولَهُ ﴾ من الكفار والمنافقين ومن إليهم، كما قال الله عز وجل: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا الله وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ الله وَرَسُولَهُ فَإِنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[الأنفال: ١٣].

﴿ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ ﴾ تلحقهم الذلة والهوان في الدنيا والآخرة، كما قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «وَجُعِلَتِ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَىٰ مَنْ خَالَفَنِي»، تصيبهم ذلة وإن كثرت أموالهم وأعدادهم وتجاراتهم وأسلحتهم.

﴿ كَتَبَ الله ﴾ أي قضىٰ الله وقدر كونًا ﴿ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ أي: قضىٰ وقدر أن الغلبة دائمًا تكون للمؤمنين، ﴿ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ الله قَوِيٌّ ﴾ لا يقهر، ﴿ عَزِيزٌ ﴾ لا يغلب، كما قال: ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[طه:١٣٢]، وقال الله عز وجل: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾[غافر: ٥١]، وقال: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾[الأعراف: ١٣٧].

ثم قال الله عز وجل: ﴿ لا تَجِدُ ﴾ يا محمد، ﴿ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِالله ﴾ ربًا، ﴿ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ معادًا، ﴿ يُوَادُّونَ ﴾ يحبون، ﴿ مَنْ حَادَّ الله ﴾ شاق وخالف، ﴿ وَرَسُولَهُ ﴾ لدين الله ورسوله صلىٰ الله عليه وسلم، وكتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ وهذا دليل علىٰ تعمق جانب الولاء والبراء في نفوس هؤلاء المؤمنين الذين قال الله عز وجل لهم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَىٰ الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ ﴾[التوبة:٢٣-٢٤]، وأوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله.

﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ الذين تقدم وصفهم ﴿ كَتَبَ ﴾ قذف بعد تقديره الكوني ﴿ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ﴾ بالله ورسوله صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ بنصر وبعز وتمكين منه تعالىٰ، كما قال عز وجل: ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾[آل عمران: ١٦٠].

﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي: يوم القيامة يتنعمون بأنواع النعم، والحال كما قال الله عز وجل: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾[الحجر:٤٧].

﴿ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ﴾ لحسن أفعالهم ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ بحسن معتقدهم، وفيه إثبات صفة الرضا لله عز وجل، وهي من الصفات الفعلية وأعظم المكاسب الدينية والدنيوية والأخروية هي رضا الله سبحانه وتعالىٰ، فإنه إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله لهم: «هَلْ رَضِيتُمْ؟ ، فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَىٰ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟ ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالُوا: يَا رَبِّ ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ ، فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»، أخرجه مسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه.

ومن رضوانه: أنه يمكنهم من النظر إلىٰ وجهه الكريم الوجه العظيم الذي هو أعلىٰ وأزكىٰ نعيم الجنة، ولهذا كان النبي صلىٰ الله عليه وسلم يقول: «اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِكَ».

﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ أي: من تقدم ذكر أوصافهم من حبتهم للمؤمنين وبراءتهم من الكافرين، ﴿ حِزْبُ الله ﴾ الذين امتثلوا شرعه وانتهوا عن نهيه وزجره، ﴿ أَلا إِنَّ حِزْبَ الله ﴾ إخبار بمآلهم، ﴿ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ في الدنيا والآخرة، والمفلح: هو الذي ينال المطلوب ويسلم من المرهوب.

والحمد لله رب العالمين.

سورة الحشر

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الحشر وهي مدنية، سميت بالحشر؛ لأن بني النضير حين أجلاهم النبي صلىٰ الله عليه وسلم كان جلاؤهم إلىٰ أرض الشام إلىٰ أرض المحشر والمنشر، وتسمىٰ هذه السورة بسورة بني النضير قوم من اليهود كاتبهم النبي صلىٰ الله عليه وسلم حين قدم المدينة، فلما جاءهم النبي صلىٰ الله عليه وسلم في شأن دية قد تعينت عليه قالوا له: أبشر يا محمد ثم ذهبوا وتمالؤوا أن يلقوا عليه الرِحىٰ وهو جالس في أصل الحصن أرادوا قتله والتخلص منه؛ وذلك لشدة بغضهم وعداوتهم له ولدينه، فجاءه الوحي فانطلق ثم تبعه أصحابه فأرسل إلىٰ يهود وأخبرهم أنه عزم علىٰ إجلائهم وأنهم لا يساكنوه لخيانتهم وأملهم أيامًا للرحيل، وكان في ذلك فسحة لهم يستطيعون حمل أموالهم وسلاحهم، ولكنهم أعرضوا فمكر الله بهم، وقال لهم بعض المنافقين كعبد الله بن أبيّ: لن تخرجوا وسنقاتل معكم وإذا أُخرجتم خرجنا معكم، فلما وقعوا فيما وقعوا فيه جَبُنَ عبد الله بن أُبيّ بن سلول عن نصرتهم، ففي سنن أبي داود عَنْ رَجُلٍ، مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم: أَنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ كَتَبُوا إِلَىٰ ابْنِ أُبَيٍّ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ مَعَهُ الْأَوْثَانَ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، وَرَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم يَوْمَئِذٍ بِالْمَدِينَةِ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ: «إِنَّكُمْ آوَيْتُمْ صَاحِبَنَا، وَإِنَّا نُقْسِمُ بِالله لَتُقَاتِلُنَّهُ، أَوْ لَتُخْرِجُنَّهُ أَوْ لَنَسِيرَنَّ إِلَيْكُمْ بِأَجْمَعِنَا حَتَّىٰ نَقْتُلَ مُقَاتِلَتَكُمْ، وَنَسْتَبِيحَ نِسَاءَكُمْ»، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ الله بْنَ أُبَيٍّ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ، اجْتَمَعُوا لِقِتَالِ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صلىٰ الله عليه وسلم لَقِيَهُمْ، فَقَالَ: «لَقَدْ

بَلَغَ وَعِيدُ قُرَيْشٍ مِنكُمُ الْمَبَالِغَ، مَا كَانَتْ تَكِيدُكُمْ بِأَكْثَرَ مِمَّا تُرِيدُونَ أَنْ تَكِيدُوا بِهِ أَنْفُسَكُمْ، تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا أَبْنَاءَكُمْ، وَإِخْوَانَكُمْ»، فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم تَفَرَّقُوا، فَبَلَغَ ذَلِكَ كُفَّارَ قُرَيْشٍ، فَكَتَبَتْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ إِلَىٰ الْيَهُودِ: إِنَّكُمْ أَهْلُ الْحَلْقَةِ وَالْحُصُونِ، وَإِنَّكُمْ لَتُقَاتِلُنَّ صَاحِبَنَا، أَوْ لَنَفْعَلَنَّ كَذَا وَكَذَا، وَلَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَدَمِ نِسَائِكُمْ شَيْءٌ، وَهِيَ الْخَلَاخِيلُ، فَلَمَّا بَلَغَ كِتَابُهُمُ النَّبِيَّ صلىٰ الله عليه وسلم، أَجْمَعَتْ بَنُو النَّضِيرِ بِالْغَدْرِ، فَأَرْسَلُوا إِلَىٰ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم: اخْرُجْ إِلَيْنَا فِي ثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ، وَلْيَخْرُجْ مِنَّا ثَلَاثُونَ حَبْرًا، حَتَّىٰ نَلْتَقِيَ بِمَكَانِ الْمَنْصَفِ فَيَسْمَعُوا مِنْكَ، فَإِنْ صَدَّقُوكَ وَآمَنُوا بِكَ آمَنَّا بِكَ، فَقَصَّ خَبَرَهُمْ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، غَدَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم بِالْكَتَائِبِ فَحَصَرَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّكُمْ وَالله لَا تَأْمَنُونَ عِنْدِي إِلَّا بِعَهْدٍ تُعَاهِدُونِي عَلَيْهِ»، فَأَبَوْا أَنْ يُعْطُوهُ عَهْدًا، فَقَاتَلَهُمْ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ، ثُمَّ غَدَا الْغَدُ عَلَىٰ بَنِي قُرَيْظَةَ بِالْكَتَائِبِ، وَتَرَكَ بَنِي النَّضِيرِ وَدَعَاهُمْ إِلَىٰ أَنْ يُعَاهِدُوهُ، فَعَاهَدُوهُ، فَانْصَرَفَ عَنْهُمْ، وَغَدَا عَلَىٰ بَنِي النَّضِيرِ بِالْكَتَائِبِ، فَقَاتَلَهُمْ حَتَّىٰ نَزَلُوا عَلَىٰ الْجَلَاءِ، فَجَلَتْ بَنُو النَّضِيرِ، وَاحْتَمَلُوا مَا أَقَلَّتِ الْإِبِلُ مِنْ أَمْتِعَتِهِمْ، وَأَبْوَابِ بُيُوتِهِمْ، وَخَشَبِهَا، فَكَانَ نَخْلُ بَنِي النَّضِيرِ لِرَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم خَاصَّةً، أَعْطَاهُ الله إِيَّاهَا وَخَصَّهُ بِهَا، فَقَالَ: ﴿وَمَا أَفَاءَ الله عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ، وَلَا رِكَابٍ﴾[الحشر: ٦]، يَقُولُ: بِغَيْرِ قِتَالٍ، فَأَعْطَىٰ النَّبِيُّ صلىٰ الله عليه وسلم أَكْثَرَهَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَقَسَمَهَا بَيْنَهُمْ وَقَسَمَ مِنْهَا لِرَجُلَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَكَانَا ذَوِي حَاجَةٍ لَمْ يَقْسِمْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَنْصَارِ غَيْرِهِمَا، وَبَقِيَ مِنْهَا صَدَقَةُ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم الَّتِي فِي أَيْدِي بَنِي فَاطِمَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا.

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾ يسبح الله عز وجل نفسه المقدسة والتسبيح التنزيه والتقديس، فالمسبح: هو المنزه عن كل نقيصة وعيب، وقد سبح له سبحانه: ﴿ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ واختلف العلماء في نوع هذا التسبيح فقال بعضهم: بلسان الحال، وقال بعضهم: بلسان المقال كقول الله عز وجل: ﴿ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[الإسراء:٤٤]، ومعنىٰ الآية: أن الله ينزهه الذين في السموات والأرض، ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يغلب ولا يقهر؛ لكمال عظمته وعزته، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي أحكم كل شيء قولًا وفعلًا.

﴿ هُوَ ﴾ أي: الله، ﴿ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يريد بني النضير، ﴿ مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ مساكنهم بجوار المدينة، ﴿ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ إلىٰ أرض الشام (أرض المحشر والمنشر)، ﴿ مَا ظَنَنْتُمْ ﴾ يا معاشر المسلمين، ﴿ أَنْ يَخْرُجُوا ﴾ من ديارهم، وذلك لقوتهم ومناعتهم وكثرة سلاحهم وأموالهم ولتعصب المنافقين لهم، ﴿ وَظَنُّوا ﴾ اليهود، ﴿ أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ ﴾ أي: استيقنوا أن حصونهم العالية المشيدة المحصنة ربما يأتيها الطعام من داخلها لسعة أرجائها وقرب الماء منها، فلو حوصروا سلموا، ﴿ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ حيث قذف الرعب في قلوبهم، فهزمهم الله من أنفسهم فجبنوا وانخلعت أفئدتهم خوفًا من النبي صلىٰ الله عليه وسلم وأصحابه، وهذا من فضل الله: ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ الخوف الشديد والرهب الأكيد الذي لا يهنأ صاحبه بنوم ولا طعام ومن أصابه الرعب يفر من أدنىٰ ويرتهب من أدنىٰ شيء، فلو أن رجلًا يرهب من الثعابين بمجرد أن يجد حركة ينخلع فؤاده، وآخر يرهب من الناس بمجرد أن يهدده أحدهم ينخلع فؤاده، فهؤلاء قذف الله في قلوبهم الرعب من محمد صلىٰ

الله عليه وسلم وأصحابه، واليهود أجبن الناس وهذا معلوم علىٰ مر العصور وتقلبات الدهور، وإنما قويت شوكتهم في هذه الأزمنة المتأخرة بالمكر والكيد وناصرهم النصارىٰ علىٰ ما هم فيه وأعطوهم فلسطين بوعد بلفور النصراني البريطاني في عام ١٩١٧م، وفي عامنا هذا ٢٠٢٠م أعطوهم ما يسمىٰ بصفقة القرن بجعل القدس عاصمة لهم، وتبنىٰ هذه الفكرة الرئيس الأمريكي دونالد ترامب دمر الله عليه وعلىٰ قومه، وسيأتي اليوم الموعود بقتل اليهود، فعن عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم يَقُولُ: «تُقَاتِلُكُمْ يَهُودُ فَتُسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ حَتَّىٰ يَقُولَ الْحَجَرُ: يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي فَاقْتُلْهُ»، أخرجه أحمد.

﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ ﴾ من أجل أخذ ما فيها من المتاع، ﴿ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تنكيلًا وإعاظة لهم، ﴿ فَاعْتَبِرُوا ﴾ من هذه الحادثة، ﴿ يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾ يا أصحاب البصائر انظروا إلىٰ هؤلاء الناس الذين كانت قد قويت شوكتهم وكثرت رجالتهم وأسلحتهم كيف أصبحوا في الذل والهوان والخزي والحرمان، بسبب كفرهم وبغيهم وذنوبهم، فلا أشد علىٰ الإنسان من نفسه منها يدخل عليه الشيطان، والله المستعان.

﴿ وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ الله عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ ﴾ يعني: لكانت عقوبتهم أشد بالقتل وغير ذلك لكن كتب الله عليهم الجلاء: وهو الخروج من ديارهم إلىٰ الأرض التي ذهبوا إليها، ﴿ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴾ بالقتل، ﴿ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴾ وبئس القرار؛ لأنهم كفار.

﴿ ذَلِكَ ﴾ أي: أصابهم هذا العذاب والخزي، ﴿ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا الله وَرَسُولَهُ ﴾ حاربوا الله وحاربوا رسوله صلىٰ الله عليه وسلم، وخالفوا دين الله الحق، ﴿ وَمَنْ يُشَاقِّ الله ﴾ أي:

يخالف ويحاد دين الله، ﴿ فَإِنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ في الدنيا بذهاب أموالهم وأنفسهم وضيق حالهم، وفي الآخرة بالنار.

﴿ مَا قَطَعْتُم مِنْ لِينَةٍ ﴾ يا معاشر المسلمين، واللينة: النخل، فإن المسلمين حين استعصت بنو النضير جعلوا يقطعون في نخلهم تنكيلًا بهم وجرًا لهم إلىٰ الاستسلام، فلما قطعوا النخل عيرهم اليهود وقالوا: أنتم تدعون الصلاح وأنتم تقطعون النخل وتفسدون في الأرض، فقال الله عز وجل: ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا ﴾ لم تتعرضوا لها، ﴿ فَبِإِذْنِ الله ﴾ أي: هو الذي أذن لكم، سواء كان الإذن الشرعي أو الكوني أو مجموعهما، ﴿ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ بهذا الفعل الذي لحقهم من تخريب بيوتهم ومزارعهم وهم ينظرون لا يستطيعون الدفاع عنها، لشدة جبنهم وخورهم وضعفهم .

﴿ وَمَا أَفَاءَ الله عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴾ الفيء: هو المال الذي يأخذه المسلمون بغير قتال، وتكون قسمته علىٰ ما يأتي: ﴿ وَمَا أَفَاءَ الله عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴾ أي: من يهود بني النضير، ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ ﴾ أي: وضعتم وأسرعتم، ﴿ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ الإبل والمعنىٰ لم يكن منكم قتل ولا قتال وإنما هو الرعب الذي قذفه الله في قلوبهم، ﴿ وَلَكِنَّ الله يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ﴾ يقويهم وينصرهم ويمدهم بجنده، ﴿ وَالله عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض.

﴿ مَا أَفَاءَ الله عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ أي: من جميع البلدان التي يكون حالها كحالهم، فيكون قسمتها ومصرفها، ﴿ فَللهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ أي: إلىٰ خمسة أقسام، فخمسه الأول لله ولرسوله يكون في مصالح المسلمين، ﴿ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ وهم قرابة النبي صلىٰ

الله عليه وسلم وأهل بيته فلهم الخمس، لكن ليس للرافضة منه شيء؛ لأن الرافضة في الأصل ليسوا من أهل بيته صلىٰ الله عليه وسلم، فإن نوح عليه السلام حين قال: ﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾[هود:٤٥]، وكان كافرًا قال الله له: ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾[هود:٤٦]، ويجب علىٰ أولياء الأمور أن يعطوا أهل القرابة حقهم مما شرعه الله لهم، ﴿ وَالْيَتَامَىٰ ﴾ الذي مات أبوه قبل بلوغه، ﴿ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ الذين قلت أرزاقهم، ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ صاحب الطريق الذي قل متاعه ولم يوصله إلىٰ بلده، ﴿ كَيْ لا يَكُونَ ﴾ هذا المال ﴿ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ أي: يتداوله بعضهم دون بعض، وفي الصحيحين عن مالك بن أوس قَالَ: أَرْسَلَ إِلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَجِئْتُهُ حِينَ تَعَالَىٰ النَّهَارُ، قَالَ: فَوَجَدْتُهُ فِي بَيْتِهِ جَالِسًا عَلَىٰ سَرِيرٍ مُفْضِيًا إِلَىٰ رُمَالِهِ، مُتَّكِئًا عَلَىٰ وِسَادَةٍ مِنْ أَدَمٍ، فَقَالَ لِي: يَا مَالُ، إِنَّهُ قَدْ دَفَّ أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْ قَوْمِكَ، وَقَدْ أَمَرْتُ فِيهِمْ بِرَضْخٍ، فَخُذْهُ فَاقْسِمْهُ بَيْنَهُمْ، قَالَ: قُلْتُ: لَوْ أَمَرْتَ بِهَذَا غَيْرِي، قَالَ: خُذْهُ يَا مَالُ، قَالَ: فَجَاءَ يَرْفَا، فَقَالَ: هَلْ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي عُثْمَانَ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وَالزُّبَيْرِ، وَسَعْدٍ؟ فَقَالَ عُمَرُ: نَعَمْ، فَأَذِنَ لَهُمْ فَدَخَلُوا، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: هَلْ لَكَ فِي عَبَّاسٍ، وَعَلِيٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَأَذِنَ لَهُمَا، فَقَالَ عَبَّاسٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، اقْضِ بَيْنِي وَبَيْنَ هَذَا الْكَاذِبِ الْآثِمِ الْغَادِرِ الْخَائِنِ، فَقَالَ الْقَوْمُ: أَجَلْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَاقْضِ بَيْنَهُمْ وَأَرِحْهُمْ فَقَالَ مَالِكُ بْنُ أَوْسٍ: يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّهُمْ قَدْ كَانُوا قَدَّمُوهُمْ لِذَلِكَ، فَقَالَ عُمَرُ: اتَّئِدَا، أَنْشُدُكُمْ بِالله الَّذِي بِإِذْنِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم قَالَ: «لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ»، قَالُوا: نَعَمْ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَىٰ الْعَبَّاسِ، وَعَلِيٍّ، فَقَالَ: أَنْشُدُكُمَا بِالله الَّذِي بِإِذْنِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ، أَتَعْلَمَانِ أَنَّ رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه

وسلم، قَالَ: «لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ»، قَالَا: نَعَمْ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ اللهَ جَلَّ وَعَزَّ كَانَ خَصَّ رَسُولَهُ صلىٰ الله عليه وسلم بِخَاصَّةٍ، لَمْ يُخَصِّصْ بِهَا أَحَدًا غَيْرَهُ، قَالَ: ﴿ مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾[الحشر: ٧]- مَا أَدْرِي هَلْ قَرَأَ الْآيَةَ الَّتِي قَبْلَهَا أَمْ لَا - قَالَ: فَقَسَمَ رَسُولُ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم بَيْنَكُمْ أَمْوَالَ بَنِي النَّضِيرِ، فَوَاللهِ، مَا اسْتَأْثَرَ عَلَيْكُمْ، وَلَا أَخَذَهَا دُونَكُمْ، حَتَّى بَقِيَ هَذَا الْمَالُ، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم يَأْخُذُ مِنْهُ نَفَقَةَ سَنَةٍ، ثُمَّ يَجْعَلُ مَا بَقِيَ أُسْوَةَ الْمَالِ، ثُمَّ قَالَ: أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ الَّذِي بِإِذْنِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ، أَتَعْلَمُونَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، ثُمَّ نَشَدَ عَبَّاسًا، وَعَلِيًّا، بِمِثْلِ مَا نَشَدَ بِهِ الْقَوْمَ، أَتَعْلَمَانِ ذَلِكَ؟ قَالَا: نَعَمْ، قَالَ: فَلَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا وَلِيُّ رَسُولِ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم، فَجِئْتُمَا تَطْلُبُ مِيرَاثَكَ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ، وَيَطْلُبُ هَذَا مِيرَاثَ امْرَأَتِهِ مِنْ أَبِيهَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم: «مَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ»، فَرَأَيْتُمَاهُ كَاذِبًا آثِمًا غَادِرًا خَائِنًا، وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُ لَصَادِقٌ بَارٌّ رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ، ثُمَّ تُوُفِّيَ أَبُو بَكْرٍ وَأَنَا وَلِيُّ رَسُولِ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم، وَوَلِيُّ أَبِي بَكْرٍ، فَرَأَيْتُمَانِي كَاذِبًا آثِمًا غَادِرًا خَائِنًا، وَاللهُ يَعْلَمُ إِنِّي لَصَادِقٌ بَارٌّ رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ، فَوَلِيتُهَا ثُمَّ جِئْتَنِي أَنْتَ وَهَذَا وَأَنْتُمَا جَمِيعٌ وَأَمْرُكُمَا وَاحِدٌ، فَقُلْتُمَا: ادْفَعْهَا إِلَيْنَا، فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتُمْ دَفَعْتُهَا إِلَيْكُمَا عَلَىٰ أَنَّ عَلَيْكُمَا عَهْدَ اللهِ أَنْ تَعْمَلَا فِيهَا بِالَّذِي كَانَ يَعْمَلُ رَسُولُ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم، فَأَخَذْتُمَاهَا بِذَلِكَ، قَالَ: أَكَذَلِكَ؟ قَالَا: نَعَمْ، قَالَ: ثُمَّ جِئْتُمَانِي لِأَقْضِيَ بَيْنَكُمَا، وَلَا وَاللهِ لَا أَقْضِي بَيْنَكُمَا بِغَيْرِ ذَلِكَ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، فَإِنْ عَجَزْتُمَا عَنْهَا فَرُدَّاهَا إِلَيَّ.

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ في جميع شأنكم، فلازموا المأمور واجتنبوا المحظور ليس فقط في مال بني النضير ولكن في جميع الأحكام والأوامر والنواهي، ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ فعلًا، ﴿ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ وهذه آية عامة يستدل بها علىٰ وجوب الأخذ بالسنة ويستدل بها في الرد علىٰ الفرقة القرآنية، و علىٰ وجوب طاعة النبي صلىٰ الله عليه وسلم، وتحريم مخالفته، ومعنىٰ: ﴿ فَخُذُوهُ ﴾ أي: ما استطعتم، قوله: ﴿ لا يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البقرة:٢٨٦]، ﴿ فَاتَّقُوا الله مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾[التغابن:١٦]، ﴿ وَاتَّقُوا الله ﴾ بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿ إِنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ لمن خالف أمره.

ثم قال الله عز وجل مبينًا لمن له الحق في الفيء: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ أي: لفقراء المهاجرين الذين هجروا أوطانهم وبلدانهم وتركوا أرزاقهم وأموالهم عوضهم الله بهذه الغنائم وهذا الخير العظيم، ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴾ فرارًا بدينهم، ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ يطلبون ﴿ فَضْلًا مِنَ الله وَرِضْوَانًا ﴾ أجرًا من الله وثوابًا ويؤملون رضوان الله عز وجل، ﴿ وَيَنْصُرُونَ الله وَرَسُولَهُ ﴾ والسبب في خروجهم: أنهم ينصرون الله عز وجل بنصر دينه ونصر رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ قولًا وفعلًا واعتقادًا، واستدل بهذه الآية علىٰ تفضيل المهاجرين علىٰ الأنصار، فإن المهاجرين قدموا في هذه الآيات ثم إنهم قد نصروا النبي صلىٰ الله عليه وسلم فجُمعت لهم الهجرة والنصرة، بخلاف الأنصار ناصروا النبي صلىٰ الله عليه وسلم وهم في بلدانهم.

ثم قال مادحًا للأنصار: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ ﴾ أي: سكنوا دار الهجرة وآمنوا قبل كثير منهم ﴿ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ وهم الأوس والخزرج الأنصار الذين أمنوا بالنبي

صلىٰ الله عليه وسلم ونصروه، وقد دعا لهم النبي صلىٰ الله عليه وسلم بقوله: «اللهمَّ اغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ، وَلِأَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ ، وَلِأَبْنَاءِ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ»، ﴿ يُحِبُّونَ ﴾ أي: هؤلاء الأنصار، ﴿ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ من الصحابة رضوان الله عليهم وإن كان فقيرًا أو علىٰ أي حال كان، وها لكرمهم وصفاء قلوبهم ﴿ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾ لا يجدون في صدورهم بغضًا ولا حسدًا ولا حقدًا مع ما يُبذل للمهاجرين من الأموال ومع ما أعطاهم الله عز وجل من الهبات، ﴿ مِمَّا أُوتُوا ﴾ وإن قل وإن كثر ما يؤتيه غيرهم، ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ﴾ من الإثرة فيؤثرون علىٰ أنفسهم أي: أنهم يقدمون حظ غيرهم علىٰ حظ أنفسهم ويستبشرون بذلك ويفرحون به، ﴿ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ولو كان بهم حاجة وفقر، وهذه درجة عظيمة وإيمان قوي لا يسلكه إلا أصحاب الأخلاق السامية والفطر القوية؛ من أن المال يذهب لغيرهم ولا يقع فيهم تأثر، بل أعطوا أموالهم للمهاجرين وقسموها بينهم ولم يرد لهم إلا بعد خيبر حين فتح الله علىٰ المهاجرين، ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ وهذه الآية نزلت في أبي طلحة الأنصاري: (أَنَّ رَجُلًا أَتَىٰ النَّبِيَّ صلىٰ الله عليه وسلم فَبَعَثَ إِلَىٰ نِسَائِهِ، فَقَالُوا: مَا عِنْدَنَا إِلَّا الْمَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «مَنْ يُضَيِّفُ هَذَا؟»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَا، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَىٰ امْرَأَتِهِ ، فَقَالَ: أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم، فَقَالَتْ: مَا مَعَنَا إِلَّا قُوتُ الصِّبْيَانِ)، طعام الصغار، (فَقَالَ: " هَيِّئِي طَعَامَكِ وَأَطْفِئِي سِرَاجَكِ، وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا الْعَشَاءَ، فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا، وَأَصْلَحَتْ سِرَاجَهَا، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ، وَجَعَلَا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ)، ففعلت ذاك الأمر وتعشىٰ الضيف ظنًا أنهم تعشوا جميعًا ثم رجع أبو طلحة في

الغد إلىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «لَقَدْ ضَحِكَ اللهُ اللَّيْلَةَ ـ أَوْ عَجِبَ ـ مِنْ فَعَالِكُمَا»، متفق عليه.

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ البخل وحب المال الذي يتسلط علىٰ النفوس في هلكها، ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ في الدنيا والآخرة؛ لأن الشح سبب لقطيعة الأرحام، ومنع الفقير مما أوجب الله له، وسبب لحب المال، وسبب للقتل والقتال حتىٰ قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ؛ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَىٰ أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»، فأخبر الله عن صفات الأنصار العظيمة التي تميزوا بها، وفي البخاري عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قال، حِينَ خَرَجَ مَعَهُ إِلَىٰ الوَلِيدِ قَالَ: دَعَا النَّبِيُّ صلىٰ الله عليه وسلم الأَنْصَارَ إِلَىٰ أَنْ يُقْطِعَ لَهُمُ البَحْرَيْنِ، فَقَالُوا: لاَ إِلَّا أَنْ تُقْطِعَ لِإِخْوَانِنَا مِنَ المُهَاجِرِينَ مِثْلَهَا، قَالَ: «إِمَّا لاَ، فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ تَلْقَوْنِي، فَإِنَّهُ سَيُصِيبُكُمْ بَعْدِي أَثَرَةٌ»، وعند البخاري: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ، قَالَ: قَالَتِ الأَنْصَارُ لِلنَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم: اقْسِمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا النَّخِيلَ، قَالَ: «لاَ»، فَقَالُوا: تَكْفُونَا المَئُونَةَ، وَنَشْرَكْكُمْ فِي الثَّمَرَةِ، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا.

ثم أثنىٰ الله عز وجل علىٰ المؤمنين الذين ساروا علىٰ سيرهم وأحبوهم ودعوا لهم وترضوا عليهم وذكروهم بالخير والجميل وهم أهل السنة والجماعة في كل زمن، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أي: من بعد المهاجرين والأنصار، ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ﴾ تجاوز عنا ﴿ وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾ وهم المهاجرون والأنصار ابتداءً، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ

رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[التوبة: ١٠٠].

﴿ الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ بالإقرار لما جاء عن الله وبالنصرة لمحمد صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا ﴾ بغضًا وكراهةً وحقدًا وحسدًا ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ لأن هذا يدل علىٰ ضعف الإيمان، إذ أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم يقول: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»، ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ ﴾، بعبادك ﴿ رَحِيمٌ ﴾ وبهم ولذلك قال الله عز وجل في شأن علي رضي الله عنه: «لَا يُحِبُّهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُ إِلَّا مُنَافِقٌ»، وقال في شأن الأنصار: «لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ الله ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ الله»، فإن من أظهر علامات الاستقامة علىٰ دين الله عز وجل حب المهاجرين والأنصار؛ لأن حبهم صادر عن محبة الله عز وجل وعن محبة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فقد قاموا علىٰ هذا الدين خير قيام نصروا بالأبدان والأرواح والأموال والمهج، ونصروا بالعلم والعمل به والدعوة إليه وقدموا دين الله وعظموه فكانت رفعتهم عند الله بقدر تعظيمهم للدين، ﴿ رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[التوبة:١٠٠]، ووجدوا حلاوة الإيمان فعن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ طَعْمَ الإِيمَانِ، مَنْ كَانَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ الله مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»، متفق عليه.

قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَر إِلَىٰ الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾[الحشر:١١]، هذا خبر من الله عز وجل عما عزم عليه رئيس النفاق عبد الله بن أُبيّ بن سلول ومن إليه حيث أغرىٰ اليهود بمخالفة أمر النبي صلىٰ الله عليه وسلم، ولو أنه أمرهم بالتوبة والإنابة لكان ذلك خير ولكن لكبرهم وبغضهم لرسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أبوا إلا الممالأة علىٰ الكفر.

يقول تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَر ﴾ يا محمد، ﴿ إِلَىٰ الَّذِينَ نَافَقُوا ﴾ أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، ﴿ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ في العقيدة، وهذا دليل علىٰ كفر المنافقين أصحاب النفاق الأكبر المخرج من الملة، ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ وسموا بذلك؛ لأن الله عز وجل أنزل إليهم كتب يتعبدون له بها ولكنهم حرفوها وغيروها وبدلوها، فأنزل علىٰ موسىٰ التوراة وأنزل علىٰ عيسىٰ الإنجيل، وكان من قولهم لهم: ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ ﴾ أي: أجليتم من دياركم، ﴿ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾ يقولون: اثبتوا علىٰ ما أنتم عليه فإن قدر أن محمدًا أخرجكم خرجنا معكم وتركنا البلاد، ﴿ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ﴾ لا نقدم عليكم أحدًا، ﴿ وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ﴾ إن وقع بينكم وبين محمد قتال فإننا سننصركم بالسلاح ونحوه، ولكنهم كذبوا وجبنوا، فاليهود أصابهم الجبن والهلع إذ قذف الله في قلوبهم الرعب والمنافقون أجبن وأسوأ حالًا فالحمد لله الذي رد كيدهم في نحرهم، ﴿ وَاللهُ يَشْهَدُ ﴾ أي: يخبر ويحكم، ﴿ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ في قولهم واعتقادهم وجميع شأنهم.

وفي قوله: ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا ﴾ رد دعواهم جملةً وتفصيلًا؛ لأن أُخرج اليهود من بلادهم: ﴿ لا يَخْرُجُونَ ﴾ المنافقون ﴿ مَعَهُمْ ﴾ لحرصهم علىٰ أموالهم ودورهم وشؤونهم، ﴿ وَلَئِنْ قُوتِلُوا ﴾ أي: لو كان بينهم وبين رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قتال: ﴿ لا يَنْصُرُونَهُمْ ﴾ لجبنهم وخورهم وضعفهم، ﴿ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ ﴾ لو سُلم جدلًا أنهم نصروا اليهود في حربهم مع النبي صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ﴾ فرارًا وجبنًا وخورًا، ﴿ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ ﴾ لا يكون لهم نصر وإنما تكون الدبرة عليهم.

والسبب في عدم نصرهم لهم: ﴿ لَأَنْتُمْ ﴾ يا معاشر أهل الإسلام ﴿ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ ﴾ إذ أن المنافقين يخشون من المؤمنين أشد من خشيتهم من الله، ويراقبون المؤمنين أكثر من مراقبتهم لله؛ ولهذا أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، كما قال تعالىٰ: ﴿ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[النساء:١٤٢]، وهذا دليل علىٰ ضعف تعظيمهم لله، ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي: السبب في ما حصل لهم: ﴿ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ ﴾ لا عقول لهم يدركون بها وعد الله ووعيده وغير ذلك.

﴿ لا يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ أي: اليهود وأهل النفاق، ﴿ جَمِيعًا ﴾ بأجمعهم، ﴿ إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ ﴾ في حصونهم وبيوتهم بالنبل أو بالرمي، ﴿ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾ لجبنهم وهلعهم وحرصهم علىٰ الحياة ولخوفهم من الموت، بينما كان المسلمون يأتونهم وجهًا لوجه ويبارزونهم ويقاتلونهم، ﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ فيما هم مع بعضهم يظهرون الشجاعة والشهامة والقوة، ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا ﴾ أي: في حالهم، ﴿ وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ مختلفون

متفرقون لفساد عقائدهم ومذاهبهم، ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ ﴾ أمر الله سبحانه وتعالىٰ.

حال اليهود: ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ﴾ كفار قريش في غزوة بدر حين خرجوا لمبارزة النبي صلىٰ الله عليه وسلم وقتاله فأهانهم الله وقتل منهم سبعون وأُسر سبعون وقيل يهود بني قينقاع، ﴿ ذَاقُوا ﴾ لقوا، ﴿ وَبَالَ ﴾ نكال، ﴿ أَمْرِهِمْ ﴾ الهزيمة التي لحقتهم، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ موجع في الدنيا والآخرة.

ومثل المنافقين الذين أغروا اليهود علىٰ حرب النبي صلىٰ الله عليه وسلم: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ الرجيم عليه لعنة الله، ﴿ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ ﴾ أمره بالكفر ومناه ورغبه، ﴿ فَلَمَّا كَفَرَ ﴾ بالله عز وجل، ﴿ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ ﴾ أي: الشيطان تبرأ من الإنسان، ﴿ إِنِّي أَخَافُ الله رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ وخوفه ليس بنافع له؛ لأنه تكبر وأبىٰ السجود لآدم عليه السلام بأمر الله، فذكر الله بهذا الموطن مثل اليهود بهزيمتهم ومثل المنافقين بكذبهم وخداعِهم، وقد ذكر الله عز وجل ما كان من الشيطان في بدر: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ الله وَالله شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[الأنفال:٤٨].

﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا ﴾ أهل النفاق واليهود، ﴿ أَنَّهُمَا فِي النَّارِ ﴾ يوم القيامة، ﴿ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ الكافرين، فإن الظلم يطلق ويراد به الكفر وما دون الكفر ويعرف ذلك بالسياقة، ولذلك يقال: ظلم دون ظلم، وكفر دون كفر، ونفاق دون نفاق، وبدعة دون بدعة.

ثم خاطب الله عز وجل المؤمنين بعد أن ذكر ما كان من شأن النبي صلىٰ الله عليه وسلم مع اليهود وما حصل له من النصر والضفر: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله ﴾ اتقوا الله عز وجل وراقبوه بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ أي: من الأعمال فهي مجازاة بها، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[الشعراء:٨٨-٨٩]، ﴿ وَاتَّقُوا الله ﴾ كرر الأمر بالتقوىٰ؛ لأهميتها وعظيم شأنها، ﴿ إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ مطلع علىٰ ظواهر أعمالكم وبواطنها لا تخفىٰ عليه خافية؛ فإذا جُمِع العليم مع الخبير، فالعليم: يدل علىٰ العلم بالظاهر، والخبير: يدل علىٰ العلم بالباطن، أما إذا افترقا فكل اسم يدل علىٰ معنىٰ الآخر.

﴿ وَلا تَكُونُوا ﴾ يا معاشر المسلمين، ﴿ كَالَّذِينَ نَسُوا الله ﴾ تركوا عبادة الله عز وجل، فالنسيان يأتي بمعنىٰ الترك، ﴿ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ وهذا من شديد العذاب الدنيوي فضلًا عن الأُخروي أن من نسيء الله وجهله فهو لنفسه أجهل، فإذا أردت التوفيق من الله عز وجل فكن مبادرًا إلىٰ مرضات الله ملتزمًا لشرعه، ونسيانهم لأنفسهم أنهم لم يوفقوا للهداية فكيف بنسيان الله لهم يوم القيامة: ﴿ نَسُوا الله فَنَسِيَهُمْ ﴾[التوبة:٦٧]، ﴿ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾[الجاثية:٣٤]، ﴿ وَبِئْسَ مَثْوَىٰ الظَّالِمِينَ ﴾[آل عمران:١٥١]، تركهم ربنا عز وجل في النار يعذبون في حميمها ويشربون من غساقها، ويلبسون من ثيابها: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾[النساء:٥٦]، ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ الخارجون عن الطاعة.

ثم أخبر الله عز وجل عن حال المسلمين والكافرين فقال: ﴿ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ وهم الكفار، ﴿ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ وهم أهل الإيمان، ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فقد قال الله عز وجل: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[النحل:٩٧]، وأما في الآخرة: ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[آل عمران:١٨٥].

ثم قال الله عز وجل مخبراً عن عظيم آيات القرآن الذي يتلىٰ علينا في الليل والنهار، وربما لم نتفطن لمعانيه ولم ننزجر لزواجره: ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ الذي أنزل عليك يا محمد، ﴿ عَلَىٰ جَبَلٍ ﴾ صلب عظيم، ﴿ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا ﴾ قد أصابه الخشوع؛ بسبب خوفه من الله عز وجل، ﴿ مُتَصَدِّعًا ﴾ متشققًا تنهار قواه كما قال الله عز وجل: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَو كُلِّمَ بِهِ المَوتَىٰ ﴾[الرعد:٣١]، أي: لكان هذا القرآن الذي أنزله الله علىٰ محمد صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ مِنْ خَشْيَةِ الله ﴾ من خوف الله مع تعظيمه: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَىٰ الله مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[فاطر:٢٨]، ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ ﴾ التي تتلىٰ عليك في القرآن، ﴿ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾[العنكبوت:٤٣]، كما قال الله عز وجل، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ يتذكرون ويتعظون فينزجرون عن باطلهم ويقبلون علىٰ طاعة ربهم؛ لكن الواقع ما قاله الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الله وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[الزمر:٤٥]، وقليل هم الذين

قال الله عز وجل فيهم: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[الأنفال:٢].

ثم عرف الله عز وجل بنفسه المقدسة فقال: ﴿ هُوَ اللهُ ﴾ أي: الذي أنزل عليك هذا القرآن وضرب لك هذه الأمثال ونصرك وأعزك وأكرمك، ﴿ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا شريك له في ملكه ولا شريك له في أُلوهيته، وهذا معنىٰ: لا إله إلا الله، واسمه أيضًا الإله المعبود محبةً وتعظيمًا، ﴿ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي: لا معبود بحق إلا الله، كما قال تعالىٰ: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾[الحج:٦٢].

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ عالم ما غاب عن نواظركم ولم تتطلعوا عليه أو ما خفي في صدوركم، ﴿ وَالشَّهَادَةِ ﴾ هو ما كان مرئيًا لكم فالله عز وجل مطلع علىٰ ما ظهر ومطلع علىٰ ما بطن، ﴿ هُوَ الرَّحْمَنُ ﴾ في ذاته والرحمن بعباده، فالرحمن هو ذو الرحمة، واسم الرحمن من الأسماء المختصة به لم يسم به إلا مسيلمة الكذاب كبرًا وعنادًا، ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ وهو أيضًا الرحيم ذو الرحمة، وانظروا إلىٰ فضيلة هاذين الاسمين إذ جعل في البسملة التي تتقدم كثيرًا من الأعمال: بسم الله الرحمن الرحيم، وهكذا في سورة الفاتحة التي تُقرأ في كل ركعة حتىٰ قال بعض أهل العلم: لما قال الله عز وجل: ﴿ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الفاتحة:٢]، دلت علىٰ الوعيد والتهديد أعقبها بقوله: ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾[الفاتحة:٣]، أي: أنه رحيم بالمؤمنين، بل إنه رحم الكافرين في الدنيا أن رزقهم وأحياهم ومتعهم إلا أنهم أبوا إلا الكفر فعُذبوا يوم القيامة جزاء أعمالهم.

﴿ هُوَ اللهُ ﴾ تكرار لوصفه المقدسة العظيمة، ﴿ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ يا عباد الأصنام وعباد الأوثان وعباد البشر، ﴿ الْمَلِكُ ﴾ الذي له الملك المطلق فالسموات ملكه والأراضي ملكه وكل ما فيهما ملكه، كما قال تعالىٰ: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[الملك:١].

﴿ الْقُدُّوسُ ﴾ المنزه عن النقائص والعيوب الذي يثبت له كل كمال مقدس، ﴿ السَّلامُ ﴾ السالم من النقائص والعيوب، وداره دار السلام، ﴿ الْمُؤْمِنُ ﴾ المصدق من المؤمنين والصادق في قيله كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا ﴾[النساء:٨٧].

﴿ الْمُهَيْمِنُ ﴾ المتسلط علىٰ عباده القاهر لهم بقوته وقدرته وقهره لا يخرج عنه شيء من المخلوقات، ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ المنيع القوي الذي لا يعجزه شيء، وعز عن كل شيء فقهره، كما قال تعالىٰ: ﴿ الْجَبَّارُ ﴾ ذو الجبروت والقوة والقهر، الذي لا تليق هذه الصفات إلا به، وقيل الشاهد علىٰ خلقه بأعمالهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[البروج: ٩]، وقال: ﴿ ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾[يونس: ٤٦].

﴿ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ لعظمه وأحقيته بذلك فهو بالصفات العلية والأسماء الحسنىٰ الجلية؛ ولهذا قال: «الْعِزُّ إِزَارِي، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَازَعَنِي بِشَيْءٍ مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ»، بينما المخلوق لا يجوز له أن يتكبر، فصفة الكبر في حق الله كمال وفي حق المخلوق نقص؛ لأنه عاجز ضعيف، ﴿ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزيه لله عز وجل عن كل ما يقوله أهل الشرك والعناد والكفر والبغي والجحود من ادعاء الصاحبة والولد والشريك والنظير والمثيل.

﴿ هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ ﴾ الخلق التقدير والبراء وهو التنفيذ كما قال تعالىٰ: ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴾[الأعلىٰ:٢-٤]، حيث أوجد الخلق من العدم كما قال عن نفسه المقدسة: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[يس:٨٢].

﴿ الْمُصَوِّرُ ﴾ للإنسان وغيره كما أراد كما قال تعالىٰ: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾[التغابن:٣].

﴿ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ الكثيرة التي لا يعلمها إلا هو ففي حديث ابن مسعود: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ نُورَ صَدْرِي، وَرَبِيعَ قَلْبِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي»، أخرجه الحاكم وهو حديث ثابت كما بينت ذلك في كتابي (التبيين لخطأ من حصر أسماء الله في تسعة وتسعين.

ولا يجوز دعاء الله إلا بالأسماء الحسنىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾[الأعراف:١٨٠]، والأسماء الحسنىٰ: هي المأخوذة من القرآن والسنة فمن حسنها: أنها أسماء مدح وتتضمن صفات مدح، وأنها مذكورة في الكتاب والسنة، وأن الله عز وجل يُدعىٰ بها.

﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ كما تقدم إما بلسان الحال والمقال، وإما بأحدهما ولا مانع أن يُسبح له بلسان المقال أيضًا كقول الله عز وجل: ﴿ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[الإسراء:٤٤]، ينزهونه ويقدسونه ويعظمونه، ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يُغلب،

و﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي أفعاله علىٰ مقتضىٰ حكمته، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾[المؤمنون:١١٥]، فلم يكن في ملكه إلا ما شاء، وما شاء فهو علىٰ مقتضىٰ علمه وحكمته.

والحمد لله رب العالمين.

سورة الممتحنة

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي مدنية.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِالله رَبِّكُمْ إِنْ كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾[الممتحنة:١].

وسبب نزولها ما جاء في الصحيحين عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «بَعَثَنَا رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ فَقَالَ: «ائْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ، فَخُذُوهُ مِنْهَا»، فَانْطَلَقْنَا تَعَادَىٰ بِنَا خَيْلُنَا، فَإِذَا نَحْنُ بِالْمَرْأَةِ، فَقُلْنَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ، فَقَالَتْ: مَا مَعِي كِتَابٌ، فَقُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَتُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ، فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم، فَإِذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَىٰ نَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم، فَقَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «يَا حَاطِبُ مَا هَذَا؟» قَالَ: لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ يَا رَسُولَ الله إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ - قَالَ سُفْيَانُ: كَانَ حَلِيفًا لَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا - وَكَانَ مِمَّنْ كَانَ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ، أَنْ أَتَّخِذَ فِيهِمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَلَمْ أَفْعَلْهُ كُفْرًا وَلَا ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، وَلَا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلىٰ الله عليه وسلم:

«صَدَقَ»، فَقَالَ عُمَرُ: دَعْنِي، يَا رَسُولَ الله أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ: «إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الله اطَّلَعَ عَلَىٰ أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»، فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾[الممتحنة: ١].

واستدل بهذه الحادثة علىٰ جواز قتل جاسوس الكافرين علىٰ المسلمين، وإن كان من المسلمين وتكلم عنها ابن القيم رحمه الله في كتابه زاد المعاد فقال (٣/ ٣٧١):

وَفِيهَا: جَوَازُ قَتْلِ الْجَاسُوسِ وَإِنْ كَانَ مُسْلِمًا؛ لِأَنَّ عمر - رَضِيَ الله عَنْهُ - سَأَلَ رَسُولَ الله - صلىٰ الله عليه وسلم - قَتْلَ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ لَمَّا بَعَثَ يُخْبِرُ أَهْلَ مَكَّةَ بِالْخَبَرِ وَلَمْ يَقُلْ رَسُولُ الله - صلىٰ الله عليه وسلم -: لَا يَحِلُّ قَتْلُهُ إِنَّهُ مُسْلِمٌ، بَلْ قَالَ: «وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الله قدِ اطَّلَعَ عَلَىٰ أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ»، فَأَجَابَ بِأَنَّ فِيهِ مَانِعًا مِنْ قَتْلِهِ وَهُوَ شُهُودُهُ بَدْرًا، وَفِي الْجَوَابِ بِهَذَا كَالتَّنْبِيهِ عَلَىٰ جَوَازِ قَتْلِ جَاسُوسٍ لَيْسَ لَهُ مِثْلُ هَذَا الْمَانِعِ، وَهَذَا مَذْهَبُ مالك، وَأَحَدُ الْوَجْهَيْنِ فِي مَذْهَبِ أحمد، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ وأبو حنيفة: لَا يُقْتَلُ، وَهُوَ ظَاهِرُ مَذْهَبِ أحمد، وَالْفَرِيقَانِ يَحْتَجُّونَ بِقِصَّةِ حاطب. وَالصَّحِيحُ: أَنَّ قَتْلَهُ رَاجِعٌ إِلَىٰ رَأْيِ الْإِمَامِ، فَإِنْ رَأَىٰ فِي قَتْلِهِ مَصْلَحَةً لِلْمُسْلِمِينَ، قَتَلَهُ، وَإِنْ كَانَ اسْتِبْقَاؤُهُ أَصْلَحَ اسْتَبْقَاهُ. وَالله أَعْلَمُ. اهـ

يقول الله ناهيًا المؤمنين عن موالاة الكافرين: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي: يا معاشر المسلمين، ﴿ لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي ﴾ أي: أعداء الله من الكفار، ﴿ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ الذين يتربصون بكم الدوائر، ﴿ أَوْلِيَاءَ ﴾ تحبونهم وتودونهم، ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ تظهرون لهم المودة، والواجب إظهار البغض والمنافرة لهم، ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾

أعرضوا وجحدوا وكذبوا ما جاء من وحي الله الحق في القرآن والسنة، وازداد بغيهم أنهم: ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ من مكة حيث أخرجوا المسلمين مرتين إلىٰ الحبشة، وخرج الرسول ومن معه إلىٰ المدينة فرارًا بالدين، فأُخذت أموالهم وشردوا من بلدانهم وكان هذا أمر ثقيل عليهم فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: وَقَفَ النَّبِيُّ صلىٰ الله عليه وسلم عَلَىٰ الْحَزْوَرَةِ، فَقَالَ: «عَلِمْتُ أَنَّكِ خَيْرُ أَرْضِ الله، وَأَحَبُّ الْأَرْضِ إِلَىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، وَلَوْلَا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا خَرَجْتُ»، أخرجه أحمد.

وكان سبب إخراجهم لكم: ﴿ أَنْ تُؤْمِنُوا بِالله رَبِّكُمْ ﴾ أي: أنكم تؤمنون بالله ربًا مع أنه يجب علىٰ جميع المكلفين القيام بطاعته وبمحمد صلىٰ الله عليه وسلم رسولًا ونبيًا وبالإسلام دينًا، ﴿ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ﴾ إن كانت هجرتكم ومشيتكم مع النبي صلىٰ الله عليه وسلم لإعلاء كلمة الله والإخلاص لله، فلا يجوز لكم هذا الصنيع من مكاتبتهم والركون إليهم، وأيضًا إن خروجكم لابتغاء مرضات الله، فلا يجوز لكم هذه الموالاة، وينبغي للمسلم أن يسارع في مرضات الله بأنواع الحسنات: «إِنَّ الله لَيَرْضَىٰ عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»، ويقول الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[إبراهيم:٧]، ويقول: ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾[سبأ:١٣]، فالله سبحانه وتعالىٰ يرضىٰ عن عباده إن أخلصوا له العمل.

﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ أي: وكيف تسرون المودة للكافرين، والله لا تخفىٰ عليه خافية: ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا

﴿تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[غافر:١٩]، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ﴾ أي: الموادة لهم والركون إليهم، ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أخطأ الطريق الحق، لأنه سلك مسلكًا مخالفًا للشرع والعقل، والموادة للكافرين منها ما هو كفر أكبر مخرج من الملة ومنها دون ذلك وكل بحسبه، وليس منها المكاتبات والمعاقدات التي بين المسلمين والكفار إن لم يكن علىٰ سبيل الرضىٰ بدينهم والمناصرة لهم علىٰ المسلمين فإن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قد عاقد اليهود وعاهد المشركين.

ثم بين تعالىٰ شدة عداوتهم للمؤمنين لتحضيض المؤمنين علىٰ كرههم ومقتهم، ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ﴾ إن يتمكنوا منكم ويدركوكم، ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ تظهر عداوتهم، ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: بالقتل، ﴿وَأَلْسِنَتَهُمْ﴾ أي: بالذم والسب والشتم، ﴿بِالسُّوءِ﴾ بالأفعال القبيحة، ﴿وَوَدُّوا﴾ مع كل هذا، ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ فتكونون مثلهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾[البقرة:١٠٩]، فهم يحبون أن يعود أهل الإسلام إلىٰ الكفر كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[البقرة:١٢٠]، ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ وهذا دليل علىٰ أن صاحب الحق محسود من أهل الباطل، قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «مَا حَسَدَتْكُمُ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ، مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَىٰ السَّلَامِ وَالتَّأْمِينِ» أخرجه ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها.

فإن كانت حجتكم في موالاة الكفار للقرابة فـ: ﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ يا من تظنون بهم النصرة لا في الدنيا ولا في الآخرة، ﴿وَلا أَوْلادُكُمْ﴾ الذين تتكثرون بهم، ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ

﴿ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ يحكم بينكم فيجازىٰ المسيء بإساءته والمحسن بإحسانه، {مطلع ببصره علىٰ كل أعمالكم.

ثم قال الله عز وجل حاضًا للمؤمنين علىٰ التأسِّي بإبراهيم عليه السلام: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ قدوة في إبراهيم عليه السلام في تعامله مع الكفار، وإبراهيم هو أبو الأنبياء الثاني ابن آزر، ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ الذين آمنوا بنبوته ورسالته، ﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ ﴾ الذين هم منهم نسبًا، ﴿ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ ﴾ إنا نبرأ منكم، ﴿ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ براءة تامة، لا مودة فيها ولا نصرة كما قال الله عز وجل مخبرًا عنه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[الزخرف:٢٦-٢٨]، فلا يتم الإيمان إلا بالبراءة من الكفر.

﴿ وَبَدَا ﴾ ظهر وبان، ﴿ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ ﴾ ولا يكفي البراءة من عبادتهم أو البراءة منهم حتىٰ تُظهر العداوة للكافرين بالأبدان والبغضاء بالقلوب وليس لها وقت أو حد بل، ﴿ أَبَدًا ﴾ لا تنقطع ما دمتم علىٰ كفركم، ﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾ أي: إذا آمنتم بالله وتبتم إليه وأنبتم وصرتم من أهل الإسلام فعند ذلك تذهب العداوة والشحناء والبغضاء، ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ استثنىٰ هذا الأمر لأن إبراهيم وعد أباه بالدعاء له كما قال: ﴿ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾[مريم:٤٨]، وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾[التوبة:١١٤]، والحال أن: ﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ هو الذي يعفو عن من شاء ويعذب من شاء ممن يستحق العذاب فلا يستدل

مستدل بهذه الواقعة علىٰ جواز الدعاء للكافرين والمودة لهم والقرب منهم بل قال : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ ﴾ حين دعوا الله وتوكلوا عليه، ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ﴾ عودة إلىٰ الله واعتماد عليه فيما يقع للإنسان، ﴿ وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ﴾ رجعنا بطاعاتنا وعباداتنا، ﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ نحشر إليك يوم القيامة ومن قول إبراهيم عليه السلام والمؤمنين: ﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فيفتنونا عن ديننا بالقتل أو الضرب أو السجن أو نحو ذلك، ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا ﴾ تجاوز عنا، ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ إنك أنت العزيز الذي لا يغلب، والحكيم في أمره ونهية، فتوسل إلىٰ الله بعزته وحكمته علىٰ نصرته علىٰ الكافرين.

ثم قال مكررًا لهم بالحث علىٰ هذه الأسوة والقدوة: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أسوة طيبة وقدوة عظيمة، ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ يتأسىٰ بهم رجاء ثواب الله وتقربًا إليه، ورجاء الكرامة في اليوم الآخر، ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ عن البراءة من المشركين والموالاة للمؤمنين، ﴿ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ أي: صاحب الغنىٰ المطلق وغني وغناه ذاتي: «لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ ، كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»، ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ الذي يحمد علىٰ صفاته العلية بلسان الحال والمقال.

ثم قال الله عز وجل مبينًا أن هذه العداوة قد تنقطع: ﴿ عَسَىٰ ﴾ في حق الله موجبة، ﴿ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ ﴾ أن تكون بينكم، ﴿ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ ﴾ من كفار قريش، ﴿ مَوَدَّةً ﴾ بعد إسلامهم ورجوعهم إلىٰ الله عز وجل، ﴿ وَاللهُ قَدِيرٌ ﴾ لا يعجزه شيء، ﴿ غَفُورٌ ﴾ متجاوز عما ألمَّ به العبد ثم تاب، ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بالمؤمنين كما قال تعالىٰ: ﴿ وَرَحْمَتِي

وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[الأعراف:١٥٦]، وفي هذه الآية دليل علىٰ أن الله عز وجل قد أطلع نبيه أن بعض كفار قريش سيسلم، وقد أسلم كثير منهم ولله الحمد، وممن أسلم سهيل بن عمر، وأبو سفيان، وصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل وجمع ممن استأنىٰ بهم النبي صلىٰ الله عليه وسلم.

ثم قال الله عز وجل مبينًا من يجوز الإحسان إليهم من الكفار: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ أي: أن الله عز وجل لا ينهاكم عن الإحسان إلىٰ أقاربكم الذين لم يقاتلوكم ولم يؤذوكم ولم يخرجوكم من دياركم، فهؤلاء يجوز أن تحسنوا إليهم بالعطية والهدية والهبة والكلمة الطيبة؛ فعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ، قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ إِذْ عَاهَدَهُمْ فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: «نَعَمْ، صِلِي أُمَّكِ»، متفق عليه.

﴿ أَنْ تَبَرُّوهُمْ ﴾ من البر، ﴿ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ تحسنوا إليهم، ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ العادلين، فيحب الله العدل وأهله، وفيه: إثبات صفة المحبة لله عز وجل بين هنا الصفات الفعلية.

ثم أخبر الله عمن لا تجوز الإحسان إليهم : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ ﴾ عن مودة والقرب، ﴿ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ يعني: قاموا عليكم بالقوة بسببدينكم، ﴿ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ طردًا بسبب النكال والعذاب حتىٰ هاجرتم إلىٰ المدينة، ﴿ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ ﴾ تعاونوا وتمالؤوا علىٰ إخراج المسلمين، ﴿ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ﴾ فهؤلاء لا يجوز

لكم أن تتولوهم ولا أن يحبوهم ولا أن يناصروهم، ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ علىٰ التفصيل الذي سبق منه ما يكون كفر أكبر إذا كان محبًا لهم مودًا لهم مناصرًا لهم علىٰ المسلمين ومنه دون ذلك.

فلما كان صلح الحديبية اشترط المشركون علىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم أن من جاءه من المسلمين رده إليهم، وقد رد النبي صلىٰ الله عليه وسلم إليهم أبا جندل ابن سهيل بن عمر غيره، ففي الصحيحين عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ قُرَيْشًا صَالَحُوا النَّبِيَّ صلىٰ الله عليه وسلم فِيهِمْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَقَالَ النَّبِيُّ صلىٰ الله عليه وسلم لِعَلِيٍّ: «اكْتُبْ، بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا بِاسْمِ الله، فَمَا نَدْرِي مَا بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مَا نَعْرِفُ بِاسْمِكَ اللهمَّ، فَقَالَ: «اكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله»، قَالُوا: لَوْ عَلِمْنَا أَنَّكَ رَسُولُ الله لَاتَّبَعْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبِ اسْمَكَ وَاسْمَ أَبِيكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلىٰ الله عليه وسلم: «اكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله»، فَاشْتَرَطُوا عَلَىٰ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم أَنْ مَنْ جَاءَ مِنْكُمْ لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكُمْ، وَمَنْ جَاءَكُمْ مِنَّا رَدَدْتُمُوهُ عَلَيْنَا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، أَنَكْتُبُ هَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَأَبْعَدَهُ الله، وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ سَيَجْعَلُ الله لَهُ فَرَجًا وَمَخْرَجًا».

ثم استثنىٰ الله عز وجل المؤمنات؛ لأن النساء ضعيفات ربما تفتن أشد مما يتعرض له الرجل؛ فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ﴾ يا أهل الإيمان، ﴿ إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ ﴾ المكيات، ﴿ مُهَاجِرَاتٍ ﴾ إلىٰ المدينة، ﴿ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾ اختبروهن، بالسبب الذي جعلها تهاجر هل رغبة في زوج؟ وحرص علىٰ مال ودنيا؟ فهذه ترد إلىٰ الكفار، وأما إذا امتحنت ووجدوا أنها مسلمة مؤمنة والذي حملها علىٰ الهجرة هو الإيمان والإسلام فلا يجوز لها أن ترد، ﴿

الله أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ﴾ مطلع علىٰ ما في قلوبهن وأنتم اختبروهن وعاملوهن بالظواهر، ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ أي: علمتم منهن الإيمان، ﴿ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَىٰ الْكُفَّارِ ﴾ لا يجوز لكم أن تسلموهن إلىٰ الكفار فربما انتهكوا أعراضهن وربما فتنوهن في دينهن إلىٰ غير ذلك، ﴿ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ ﴾ حتىٰ ولو كان زوجًا لا يجوز أن ترجع إليه؛ لأن نكاحه لها وهي مسلمة سفاح لا نكاح، ﴿ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ ﴾ لأن الله حرم نكاح المشركات إلا أنه أباح نكاح الكتابيات المحصنات حيث قال: ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾[المائدة: ٥]، ﴿ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ لا المرأة المسلمة حل للكافر ولا المسلم تحل له الكافرة، فلا يجوز إلا ما استثناه الدليل من الكتابية المحصنة، ﴿ وَآتُوهُمْ مَا أَنفَقُوا ﴾ يعني: إذا طالبوكم بنفقة زوجاتهم والمهور فآتوهم ذلك من بيت مال المسلمين حتىٰ لا يتكلموا ويقولوا: أخذوا علينا زوجاتنا وما أعطونا مقابل ذلك، ﴿ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ ﴾ أي: إذا انتهت عدتهن، وعدة المرأة إذا هاجرت وكان زوجها كافرًا أن تستبرئ بحيضة، أما إذا هاجر الزوج وأسلم وأدرك زوجته قبل أن تتزوج فهو أحق بها، وإن كانت قد تزوجت فلا سبيل له إليها، ﴿ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي: مهورهن، ﴿ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ الكافرات في عصمة المسلمين، ﴿ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ ﴾ من المهور ونحو ذلك، وهذا السؤال يسألونه من بيت مال المسلمين؛ لأن الكافر قد لا يعطي ذلك، وإن أعطىٰ فحسن، ﴿ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ﴾ كل يأخذ ما له وما عليه، ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ

الله يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ بين المسلمين والكافرين، ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ ﴾ بما يُصلح العباد، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ بوضع الأمور في مواضعها، وهذه الآية كان فيها فرج بعد شدة إذ نفس الله عن المؤمنات والمسلمات فإن رجوعهن إلىٰ الكفار شديد وقعه، والله المستعان.

ثم قال: ﴿ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَىٰ الْكُفَّارِ ﴾ إن ذهبت بعض أزواجكم مرتدات، ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ يعني: أردتم المعاقبة للكفار، ﴿ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنفَقُوا ﴾ أي: ردوا إليهم مهورهم ونفقاتهم، من بيت مال المسلمين ومن الغنائم ﴿ وَاتَّقُوا الله الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ بفعل المأمور وترك المحظور.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ نداء للنبي صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ ﴾ المسلمات، ﴿ يُبَايِعْنَكَ ﴾ أي: في البيعة، وبيعة النبي صلىٰ الله عليه وسلم للنساء إنما كان كلامًا، فعن عائشة رضي الله عنها: قالت: ما مَسَّ رسولُ الله - صلىٰ الله عليه وسلم - يدَ امرأةٍ قطُّ إلا أن يأخذَ عليها، فإذا أخذَ عليها فأعطتْه قال: «اذْهَبي فقد بايعتُكِ»، أخرجه أبو داود، ﴿ عَلَىٰ أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِالله شَيْئًا ﴾ وهذه البيعة عامة للرجال والنساء، إلا أن النساء يستثنين من بعض الشيء وإلا فإن النبي صلىٰ الله عليه وسلم كان يبايع الرجال وعلىٰ بيعة النساء، فعن عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم فِي مَجْلِسٍ فَقَالَ: «تُبَايِعُونِي عَلَىٰ أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا - قَرَأَ عَلَيْهِمُ الْآيَةَ - فَمَنْ وَفَّىٰ مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَىٰ الله، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ، فَهُوَ إِلَىٰ الله إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ»، متفق عليه.

﴿ عَلَىٰ أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا ﴾ في ربوبيته ولا في ألوهيته ولا في أسمائه وصفاته، ﴿ وَلا يَسْرِقْنَ ﴾ أموال الغير المحرزة فإن هذا حرام فجيب عليهن أن يؤدين حق الله بالتوحيد وأن يؤدين حق الناس بالأمانة، ﴿ وَلا يَزْنِينَ ﴾ لا يقعن في الفاحشة المستقبحة، ﴿ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ ﴾ بالوأد وقد كان فاشيًا في ذلك الزمن، ﴿ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ لا يكذبن علىٰ أنفسهن ولا علىٰ غيرهن، ﴿ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ والنبي صلىٰ الله عليه وسلم إنما يأمر بالمعروف، ﴿ فَبَايِعْهُنَّ ﴾ تطيبًا لخاطرهن وإحسان إليهن، ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ ﴾ من الذنوب والمعاصي، ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ يغفر لمن تاب إليه وعاد ورجاه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ لما افتتح السورة بالبراءة من المشركين والنهي عن موالاتهم أيضًا قال: ﴿ لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾ بسبب كفرهم وعصيانهم، ﴿ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ ﴾ لم يؤمنوا بالعبث والنشور واليوم الآخر، ﴿ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ كما أن الكفار يائسون من بعث من في القبور فهؤلاء كذلك يأسوا من الآخرة ولم يؤمنوا بها مع ظهور الحجج القويمة علىٰ إثبات اليوم الآخر وضرب الأمثال الدالة علىٰ النشأة الأخرىٰ كما كانت النشأة الأولىٰ.

وفيه: إثبات غضب الله عز وجل حيث يغضب علىٰ الكافرين ومن أراد من عصاة المسلمين.

وبهذا تعلم أن سبب كفر الكفار وبعدهم عن الإسلام هو كفرهم بالبعث والنشور، والله المستعان.

والحمد لله رب العالمين.

سورة الصف

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي سورة مدنية.

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تقدم الكلام علىٰ هذه الآية، وأن الله عز وجل نزه نفسه، وكذلك مخلوقاته تنزهه عن كل نقص وعيب، ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يغلب، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ التي تكون أفعاله علىٰ مقتضىٰ حكمته فيوضع كل شيء في موضعه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ وهذا كقوله: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[البقرة:٤٤]، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[النساء:٧٧]، وفي مستدرك الحاكم عن عَبْدُ الله بْنُ سَلَامٍ رَضِيَ الله عَنْهُ، قَالَ: قَعَدْنَا نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم، فَقُلْنَا: لَوْ نَعْلَمُ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَىٰ الله، عَمِلْنَا، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَىٰ: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ الله أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ إِنَّ الله يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ

صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ إِلَىٰ آخِرِ السُّورَةِ، وَقَرَأَهَا عَلَيْنَا رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم.

﴿ كَبُرَ ﴾ عَظُمَ: ﴿ مَقْتًا ﴾ المقت: البغض، ﴿ عِنْدَ الله ﴾ عز وجل، ﴿ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ أن تقول قولًا وتخالفه بالفعل فإن الله يبغض ذلك ومقت الله شديد، كما قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ الله أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَىٰ الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾[غافر:١٠]، نسأل الله السلامة والعافية.

﴿ إِنَّ الله يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ خبر من الله؛ لأن أحب الأعمال إليه القتال في سبيله والجهاد لإعلاء كلمته، وفيه: إثبات صفة المحبة لله عز وجل وهي من الصفات الفعلية، وكان القتال من أحب الأعمال إلىٰ الله؛ لأن المقاتل في سبيل الله يبذل نفسه ومهجته وربما ماله، ولذلك قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ» - يَعْنِي أَيَّامَ الْعَشْرِ - قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله؟ قَالَ: «وَلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله، إِلا رَجُلًا خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، ثُمَّ لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ»، أخرجه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «تَضَمَّنَ الله لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانًا بِي، وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي، فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَىٰ مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»، متفق عليه، ﴿ فِي سَبِيلِهِ ﴾ فيه الإخلاص، فمن قاتل حميةً أو شجاعة أو رياءً لا أجر له، فعَنْ أَبِي مُوسَىٰ، قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ

شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ الله؟ فَقَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله»، متفق عليه، ﴿ صَفًّا ﴾ فيه: استحباب صف المقاتلين فإن ذلك أهيب في قلوب أعدائهم وأجمع لكلمتهم، ﴿ كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ كأنهم البناء، وهكذا يتعين في الصلاة أن يتراص الناس في الصف، وقد قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ ، قَالَ: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُوَلَ ، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ»، أخرجه مسلم.

يقول الله عز وجل: واذكر يا محمد، ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ من بني إسرائيل حيث آذوه واتهموه أنه آدر أي: كبير الخصيتين، وهذا معيب عندهم، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَغْتَسِلُونَ عُرَاةً، يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ سَوْأَةِ بَعْضٍ. وَكَانَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَغْتَسِلُ وَحْدَهُ، فَقَالُوا: وَالله مَا يَمْنَعُ مُوسَىٰ أَنْ يَغْتَسِلَ مَعَنَا إِلَّا أَنَّهُ آدَرُ قَالَ: فَذَهَبَ مَرَّةً يَغْتَسِلُ فَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَىٰ حَجَرٍ، فَفَرَّ الْحَجَرُ بِثَوْبِهِ. قَالَ: فَجَمَحَ مُوسَىٰ بِإِثْرِهِ يَقُولُ: ثَوْبِي حَجَرُ، ثَوْبِي حَجَرُ، حَتَّىٰ نَظَرَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَىٰ سَوْأَةِ مُوسَىٰ قَالُوا: وَالله، مَا بِمُوسَىٰ مِنْ بَأْسٍ، فَقَامَ الْحَجَرُ حَتَّىٰ نُظِرَ إِلَيْهِ، قَالَ: فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا»، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «وَالله إِنَّهُ بِالْحَجَرِ نَدَبٌ سِتَّةٌ، أَوْ سَبْعَةٌ، ضَرْبُ مُوسَىٰ بِالْحَجَرِ»، متفق عليه.

وقد أنزل الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ الله مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ الله وَجِيهًا ﴾[الأحزاب:٦٩]، وقد أُوذي موسىٰ عليه السلام أيما أذىً حتىٰ قال

النبي صلىٰ الله عليه وسلم: « يَرْحَمُ الله مُوسَىٰ، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»، متفق عليه عن ابن مسعود رضي الله عنه، ﴿ لِمَ تُؤْذُونَنِي ﴾ أي: بالتعيير والسب ونحو ذلك، بل قد أُذي الله ففي الحديث القدسي قال الله عز وجل: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ »، ﴿ وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ ﴾ أرسله وأنزل معه التوراة وكلمه تكليمًا، ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا ﴾ مالوا عن الحق، ﴿ أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ ﴾ أمالها فانحرفت، ففي هذا دليل علىٰ الإيمان بالقدر، وأن الهدىٰ والزيغ بيد الله يهدي من يشاء فضلًا ويضل من يشاء عدلًا، ﴿ وَالله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ الكافرين؛ لعلمه أنهم ليسوا أهلًا للهداية، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ الله فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾[الأنفال:٢٣].

واذكر يا محمد: ﴿ إِذْ قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ الذي خلقه الله عز وجل من أم بدون أب كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[آل عمران:٥٩]، ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وإسرائيل: هو يعقوب بن إسحاق عليه السلام، فينادي ذريته: ﴿ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ ﴾ أرسلني الله عز وجل وأنزل معه الإنجيل، ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ ﴾ أي: مما أنزل من الكتب، ﴿ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ وهي الكتاب العظيم لبني إسرائيل، ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ وهذه بشارة عيسىٰ بأحمد وهي موجودة عندهم في الإنجيل وإنما حرفوها وبدلوها وإلا فكثير من النصارىٰ والقساوسة يعلمون أن وصف محمد صلىٰ الله عليه وسلم في الإنجيل، وربما سُمي بالفرقليط أو نحو ذلك من الأسماء؛ لكن أسماؤه وصفاته دالة علىٰ أنه محمد صلىٰ الله عليه وسلم؛ ولذلك آمن بالنبي صلىٰ الله عليه وسلم كثير من النصارىٰ، وقال هنا: ﴿ اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ لأنه لم يوجد

بعد أي: أنه سيكون حامدًا لله عز وجل، وسماه بعد وجوده محمد أي: أنه حامد في الحال، فأسماء النبي صلىٰ الله عليه وسلم كلها أسماء مدح وكمال وصفات عظيمة جليلة، فهو كثير حمد لربه وهو محمود علىٰ كثرة أفعاله العظيمة الجليلة، ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ جاءهم بالقرآن، ﴿ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ كما ادعوا أن التوراة سحر: ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾[الذاريات:٥٢-٥٣].

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أي: لا أظلم، ﴿ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللهِ الْكَذِبَ ﴾ من اليهود والنصارىٰ، ﴿ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَىٰ الإِسْلامِ ﴾ إلىٰ الدخول في دين محمد صلىٰ الله عليه وسلم، وقد قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»، أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، ﴿ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ الكافرين.

﴿ يُرِيدُونَ ﴾ أي: الكفار، ﴿ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ يكذبون ويتمالؤون ويتحزبون لإطفاء نور الإسلام: ﴿ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ أي: أنهم يتكلمون فيه بالباطل ويزهدون ويحذرون منه، ﴿ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ ﴾ سيتم نور الإسلام فعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «لَا يَبْقَىٰ عَلَىٰ الْأَرْضِ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ الْإِسْلَامَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ»، أخرجه أحمد، هكذا يقول النبي صلىٰ الله عليه وسلم، وعن أبي ابن كعب رضي الله عنه قال قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالرِّفْعَةِ، وَالدِّينِ، وَالنَّصْرِ، وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ»، أخرجه أحمد، وعن ثوبان

رضي الله عنه قال صلىٰ الله عليه وسلم: «إِنَّ الله زَوَىٰ لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»، ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ لكن هذا إلىٰ ما شاء الله ثم يرجع الناس إلىٰ عبادة اللات والعزىٰ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّىٰ تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّىٰ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ حِينَ أَنْزَلَ الله: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾[التوبة: ٣٣]، أَنَّ ذَلِكَ تَامًّا قَالَ: «إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ الله، ثُمَّ يَبْعَثُ الله رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَوَفَّىٰ كُلَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَيَبْقَىٰ مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ، فَيَرْجِعُونَ إِلَىٰ دِينِ آبَائِهِمْ» أخرجه مسلم.

﴿ هُوَ ﴾ أي: الله، ﴿ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﴾ أي: محمد صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ بِالْهُدَىٰ ﴾ أي: بالعلم النافع، ﴿ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ أي: العمل الصالح، ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ ليعليه علىٰ جميع الأديان والملل، ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ ولو تمالؤوا وتحزبوا إلىٰ غير ذلك، وفي هذا دليل علىٰ أن ظهور الدعوة يكون بالعلم والعمل؛ ولهذا قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ الله، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ الله وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَىٰ النَّاسِ» متفق عليه عن معاوية والمغيرة رضي الله عنه، فمن علم ولم يعمل كان مشابهًا لليهود، ومن عمل ولم يعلم كان مشابهًا للنصارىٰ، ومن علم وعمل كان من الطائفة المنصورة الفرقة الناجية.

ثم قال الله عز وجل حاثًا للمؤمنين علىٰ مكارم الأخلاق وفضائل الطاعات: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾ أرشدكم وأخبركم، ﴿ عَلَىٰ تِجَارَةٍ ﴾ تكون بينكم وبين الله، ﴿ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ يسلمكم الله بسببها من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ والإيمان بالله أفضل الأعمال فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «إِيمَانٌ بِالله»، قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله» قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «حَجٌّ مَبْرُورٌ»، متفق عليه.

ويدخل فيه: الإيمان بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته كما قال تعالىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾[النساء:١٣٦]، ﴿ وَرَسُولِهِ ﴾ وهو محمد صلىٰ الله عليه وسلم، والإيمان به يتضمن الإيمان بجميع الرسل كما قال تعالىٰ: ﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾[البقرة:٢٨٥]، ويتضمن الإيمان بما أخبر أن يطاع فيما أمر، والانتهاء عما نهىٰ عنه وزجر، وألا يعبد الله عز وجل إلا بما شرع، كما قال: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾[الحشر:٧]، ﴿ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ سواءً جهاد النفس أو جهاد الشيطان أو جهاد المنافقين أو جهاد الكافرين، لكن هي في حق جهاد الكافرين أظهر، ﴿ بِأَمْوَالِكُمْ ﴾ بالبذل والعطاء لتجهيز الجيوش، فعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ، فَقَالَ: هَذِهِ فِي سَبِيلِ الله، فَقَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُ مِائَةِ نَاقَةٍ، كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ»، أخرجه مسلم، ولما جهز عثمان بن عفان جيش العسرة بشره رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم بالجنة، ﴿ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ أي: ببذلها في ساحات الوغىٰ وساحات

القتال لإعلاء كلمة الله عز وجل، ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالنصر والتمكين وإذلال الكافرين، وفي الآخرة بالرفع بالدرجات: ﴿ إِنَّ الله اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ الله فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[التوبة:١١١]، ﴿ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ بجميع أعمالكم.

فإن فعلتم ذلك: ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ السابقة وإن متم مغفرة جميع الذنوب؛ لأن القتل في سبيل الله كفارة لكل ذنب إلا الدين كما أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ ﴾ يوم القيامة، ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ أي: تجري فيها الأنهار؛ لأن أنهار الجنة لا أخاديد لها، ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾ من فضة وذهب، كما قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا» أخرجه مسلم عن أبي موسىٰ رضي الله عنه، ﴿ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ في جنات عظيمات، ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الذي لا فوز بعده؛ لأنه فوز الدنيا والآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[آل عمران: ١٨٥].

﴿ وَأُخْرَىٰ ﴾ وهي ما تكون في الدنيا، ﴿ تُحِبُّونَهَا ﴾ تودونها، ﴿ نَصْرٌ مِنَ الله ﴾ فبشر الله عز وجل المؤمنين بأمرين: الأمر الأول: جزاء المجاهدين في سبيل الله في الآخرة، والأمر الثاني: جزاء المجاهدين في سبيل الله في الدنيا، وكله محبوب إلىٰ نفوسهم، والنصر محبوب: ﴿ نَصْرٌ مِنَ الله وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ يفتح علىٰ المؤمنين بالنصر والتمكين، ﴿ وَبَشِّرِ

﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ بشر المنقادين لشرع الله المجاهدين في سبيل الله بكل خير في الدنيا والآخرة كما قال تعالىٰ: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[النور:٥٥].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيقع لكم النصر كما قال الله: ﴿كُونوا أَنصَارَ اللهِ﴾ وفي قراءة: (كونوا أنصارًا لله) تنصرون دينه وتجاهدون لإعلاء كلمته: ﴿إِنْ تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[محمد:٧]، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾[آل عمران:١٢٦]، وأقول لكم: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ﴾ الذين نصروه؛ لأن الحواري الناصر، قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ»، متفق عليه، ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَىٰ اللهِ﴾ من ينصرني في تبليغ دين الله، ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ وكانوا اثنا عشر، ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ﴾ ننصرك ونبلغ دينك ونقوم معك، ﴿فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ حين بلغتهم الرسالة النبوية، ﴿وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ أعرضت وهم اليهود حيث أرادوا قتل عيسىٰ عليه السلام وسلمه الله منهم، ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ عالين عليهم وهذا في آخر الأمر بعد بعث النبي صلىٰ الله عليه وسلم، انتصر أهل الحق الذين يقولون: بأن عيسىٰ عبد الله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه، وأما بعد رفع عيسىٰ عليه السلام فقد اختلفت النصارىٰ إلىٰ ثلاث طوائف:

الأولىٰ: طائفة قالت: بأنه الله وارتفع.

الثانية: طائفة قالت: بأنه ابن الله رفعه الله إليه.

الثالثة: طائفة قالت: بأنه عبد الله ورسوله، وهذه الطائفة قاتلوهم المشركون وأهانوهم، فلما كان مبعث النبي صلىٰ الله عليه وسلم انتشر الإسلام ودخل من دخل منهم في هذا الدين وأصبح الذين هم علىٰ طريقة عيسىٰ حقًا هم الذين هم علىٰ طريقة محمد صلىٰ الله عليه وسلم حقًا وهذا معنىٰ قول الله عز وجل: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[آل عمران:٥٥]، فليس المعنىٰ الذين اتبعوا عيسىٰ في قولهم بأن عيسىٰ رب أو ابن؛ فهؤلاء لم يتبعوا عيسىٰ حقًا وإنما المراد الذين اتبعوه أي: اتبعوا ما جاء به من الوحي الذي أقره النبي صلىٰ الله عليه وسلم ودعا إليه، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين.

سورة الجمعة

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الجمعة مدنية.

﴿ يُسَبِّحُ ﴾ قد تقدم الكلام عليه، والتسبيح: التنزيه والتقديس، ﴿ مَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾ أي: الذين في السموات من المخلوقات وهم الملائكة، ﴿ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ أي: الذي في الأرض من جميع الكائنات، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[الإسراء:٤٤]، ﴿ الْمَلِكِ ﴾ الذي له الملك المطلق وقال: ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[الفرقان:٢]، ﴿ الْقُدُّوسِ ﴾ المنزه من كل عيب ونقص، ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ القوي الذي لا يغلب، والقاهر الذي لا يعجز، ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ الذي يكون في ملكه ما هو علىٰ مقتضىٰ حكمته وعلمه.

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ من أنفسهم بل من خيرتهم قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «فَأَنَا مِنْ خِيَارٍ إِلَىٰ خِيَارٍ»، وهكذا يبعث الله عز وجل في كل أمة رسول منها من خيرتها نسبًا وهو محمد صلىٰ الله عليه وسلم، والأميون: العرب سموا بالأميين؛ لأنهم لم يكونوا يقرأون ويكتبون في الغالب، قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَحْسُبُ وَلَا نَكْتُبُ، وَالشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا»، أي: بالإشارة، وهكذا كان العرب يتبايعون بالإشارة فالكتابة كانت قليلة فيهم، فبعث الله إليهم محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم، ولهذا إذا قيل: الأمة الأمية يريدون بها الأمة التي بعث فيها محمد صلىٰ الله عليه وسلم نسبة إلىٰ أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم كان أميًا لا يقرأ المكتوب ولا يكتب، وأما من زعم أن الأمي نسبة إلىٰ أم القرىٰ فهذا تفسير باطل تفسير الرافضة ومن إليهم، أما تفسير

المسلمين: أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم لم يكن يكتب قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾[العنكبوت:٤٨]، وما جاء أنه كتب يوم الحديبية إنما هي آية من آيات الله كتب اسمه وكتب بسمك اللهم؛ لأن علي بن أبي طالب رضي الله عنه رفض أن يمحها قال: والله يا رسول الله إنك رسول الله، فرفض أن يمحها فرآها النبي صلىٰ الله عليه وسلم فمحاها ثم كتب بدلها، وهذه آية وليس معنىٰ ذلك أنه كان يكتب فعَنِ الْبَرَاءِ، قَالَ: لَمَّا أُحْصِرَ النَّبِيُّ صلىٰ الله عليه وسلم عِنْدَ الْبَيْتِ، صَالَحَهُ أَهْلُ مَكَّةَ عَلَىٰ أَنْ يَدْخُلَهَا فَيُقِيمَ بِهَا ثَلَاثًا، وَلَا يَدْخُلَهَا إِلَّا بِجُلُبَّانِ السِّلَاحِ، السَّيْفِ وَقِرَابِهِ، وَلَا يَخْرُجَ بِأَحَدٍ مَعَهُ مِنْ أَهْلِهَا، وَلَا يَمْنَعَ أَحَدًا يَمْكُثُ بِهَا مِمَّنْ كَانَ مَعَهُ، قَالَ لِعَلِيٍّ: «اكْتُبِ الشَّرْطَ بَيْنَنَا، بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا مَا قَاضَىٰ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ»، فَقَالَ لَهُ الْمُشْرِكُونَ: لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ تَابَعْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، فَأَمَرَ عَلِيًّا أَنْ يَمْحَاهَا، فَقَالَ عَلِيٌّ: لَا وَاللهِ، لَا أَمْحَاهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم: «أَرِنِي مَكَانَهَا»، فَأَرَاهُ مَكَانَهَا فَمَحَاهَا، وَكَتَبَ ابْنُ عَبْدِ اللهِ، فَأَقَامَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا أَنْ كَانَ يَوْمُ الثَّالِثِ قَالُوا لِعَلِيٍّ: هَذَا آخِرُ يَوْمٍ مِنْ شَرْطِ صَاحِبِكَ، فَأْمُرْهُ فَلْيَخْرُجْ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ: «نَعَمْ»، فَخَرَجَ، وقَالَ ابْنُ جَنَابٍ فِي رِوَايَتِهِ مَكَانَ تَابَعْنَاكَ: بَايَعْنَاكَ». أخرجه مسلم.

﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ يقرأ عليهم القرآن الذي أوحاه الله إليه، ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ يزكي نفوسهم بطاعة الله عز وجل، وعن زيد بن ثابت أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم كان يقول: «اللهمَّ آتِ نَفْسِي تقْوَاهَا ، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا »، أخرجه مسلم، وفي قول الله عز وجل: ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾[النور:٢١]، فالنبي صلىٰ

الله عليه وسلم سبب للزكاة، ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ﴾ يعلمهم القرآن، ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ السنة، فكله وحي الله كما قال الله عز وجل: ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾[الأحزاب:٣٤].

﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ أن يرسل إليهم محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ حيث كانوا يعبدون الأصنام، ويأكلون الميتة، ويقتل القوي الضعيف، وعن السائب بن يزيد أَنَّ أَهْلَهُ بَعَثُوا مَعَهُ بِقَدَحٍ فِيهِ زُبْدٌ وَلَبَنٌ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ، قالَ: فَمَنَعَنِي أَنْ آكُلَ الزُّبْدَ لِمَخَافَتِهَا، قَالَ: " فَجَاءَ كَلْبٌ فَأَكَلَ الزُّبْدَ وَشَرِبَ اللَّبَنَ، ثُمَّ بَالَ عَلَىٰ الصَّنَمِ وَهُوَ: إِسَافٌ، وَنَائِلَةُ" أخرجه الدارمي.

وفي مسند أحمد في قصة جعفر قال: «أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، " فَدَعَانَا إِلَىٰ اللهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ، وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ "، قَالَ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ».

﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ هذا من دلائل نبوة النبي صلىٰ الله عليه وسلم أخبره الله به، وقد نزلت هذه في سلمان الفارسي ومن إليه، فانتصر الإسلام بعد فتح فارس وما

وراء النهر، وتجد أن كثيرًا من علماء المسلمين كانوا من تلك البلدان: البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وأبو داود وغيرهم كثير من أئمة الهدىٰ ومصابيح الدجىٰ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم لَمَّا قَرَأَ: ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾[الجمعة:٣]، قَالَ رَجُلٌ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا رَسُولَ الله؟ فَلَمْ يُرَاجِعْهُ النَّبِيُّ صلىٰ الله عليه وسلم حَتَّىٰ سَأَلَهُ مَرَّةً، أَوْ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا، وَفِينَا سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ، قَالَ: فَوَضَعَ النَّبِيُّ صلىٰ الله عليه وسلم يَدَهُ عَلَىٰ سَلْمَانَ، وَقَالَ: «لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا، لَنَالَهُ رِجَالٌ مِنْ هَؤُلَاءِ»، متفق عليه، ولكن ليس في الآية فضيلة لإيران الآن؛ لأنهم قد انقلبوا من المذهب السني والدين المستقيم الذي جاء به النبي صلىٰ الله عليه وسلم إلىٰ مذهب الرافضة الاثنا عشرية، ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

﴿ ذَلِكَ ﴾ الهداية إلىٰ الإسلام ﴿ فَضْلُ الله ﴾ منة الله عز وجل علىٰ عباده، ﴿ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ من علم فيه الهدىٰ والخير، ﴿ وَالله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ الواسع، فالجنة فضله، والدين فضله، والعلم فضله، وكل خير في الدنيا والآخرة فهو فضل الله، وقد قال تعالىٰ: ﴿ وَاسْأَلُوا الله مِنْ فَضْلِهِ ﴾[النساء:٣٢]، وعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ، أَو عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ، فَلْيَقُلْ: اللهمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ، فَلْيَقُلْ: اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ»، وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال: «إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ فَاسْأَلُوا الله مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا»، ﴿ وَالله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ الواسع.

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ﴾ أي: اليهود، الذين أعطوا التوراة: ﴿ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ لم يعملوا بها بل وحرفوها، ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ ﴾ وهو من أخس الحيوان عنده صبر علىٰ العمل وصبر علىٰ الأحمال؛ ولكنه لا يستفيد شيئًا منها، وضُرب به المثل في البلادة، فالله عز وجل مثل اليهود بالحمير؛ لبلادتهم وملازمتهم لدينهم المحرف، ﴿ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ يحمل الكتب الكثيرة علىٰ ظهره حسًا لكن لا يستفيد منها، وهكذا من انحرف عن العمل بالكتاب من أجل الدنيا كالكلب، قال تعالىٰ: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَىٰ الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الأعراف: ١٧٥-١٧٦]، فضرب الله مثلين لحامل العلم الذي لم يعمل به أحدهما بالحمار والآخر بالكلب، ﴿ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ ﴾ بئس هذا المثل المضروب لهذا الصنف، ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ الله ﴾ كفروا بها وردوها، ﴿ وَالله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ لا يهدي الكافرين لعلمه أنهم ليسوا أهل الهداية وإلا فقد أنزل القرآن والوحي لهدايتهم لكن لم يستجيبوا كما قال تعالىٰ: ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾[القصص:٥٠]، وقال: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ الله فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾[الأنفال:٢٣].

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا ﴾ يا معاشر اليهود، ﴿ إِنْ زَعَمْتُمْ ﴾ أخبرتم وقلتم، ﴿ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ ﴾ كما قالوا: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾[المائدة:١٨]، ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ

﴾[البقرة:١١١]، فزعموا أنهم أبناء الله وأحباء الله، فإن كنتم كما تقولون: ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ ﴾ وهذا كالمباهلة ولو تمنوه لنالهم؛ لكنهم لن يتمنوه لعلمهم بصدق النبي صلىٰ الله عليه وسلم ولذلك قال الله: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ الله خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَالله عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ ﴾[البقرة:٩٤-٩٥]، ﴿ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ لأن ما عند الله خير لكم وأبقىٰ، لكن الواقع أنهم ليسوا بأولياء لله فإذا ماتوا كانوا للنار وبئس القرار.

﴿ وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا ﴾ أي: يستحيل أن يتمنىٰ اليهودي الموت لعلمه أنه كاذب في دعواه، ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ من الكفر وقتل الأنبياء واستحلال الحرام وتحريف التوراة، ﴿ وَالله عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ بالكافرين المتمردين علىٰ شرعه العظيم فلا تخفىٰ عليه خافية ويجازون علىٰ أعمالهم.

﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ ﴾ أي: الموت الذي ترهبون منه وتخشونه، ﴿ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ﴾ يعترضكم وأنتم في حياتكم، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾[النساء: ٧٨] وانظر كيف قال الله عز وجل: ﴿ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ﴾ ولم يقل يدرككم؛ وذلك أن الفار من الشيء إذا كان المتابع يأتيه من الخلف قد يفوته لكن عند أن تفر ثم يأتيك فجأة فإنه يقطعك، ولهذا رسم النبي صلىٰ الله عليه وسلم خطًا طويلًا بعد أن رسم الإنسان قال: «هَذَا الْإِنْسَانُ وَهَذَا أَجَلُهُ قَدْ أَحَاطَ بِهِ، وَهَذَا الْخَطُّ الْخَارِجُ:

أَمَلُهُ»، بعيد، ثم خط خطًا عرضًا قال: «وَهَذَا أَجَلُهُ» أخرجه البخاري، يعني: بينما الإنسان يؤمل في البعيد يأتيه الأجل:

والمــــوت يــــأتي بغتــــةً   والقــــبر صــــندوق العمــــل

﴿ ثُمَّ ﴾ ماذا بعد الموت ﴿ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ إلىٰ الله الذي يعلم الغيب غاب عنكم، والمشهود فلا تخفىٰ عليه خافية، ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ ﴾ يخبركم يوم القيامة، ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وهذه في حال تقرير الله عز وجل للعبد فعن عدي بن حاتم رضي الله عنه أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَىٰ إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَىٰ إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَىٰ إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»، متفق عليه، والحال ما قاله الله: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ ﴾[الزخرف:٨٠]، نعلم سرهم ونجواهم، وزد علىٰ ذلك: ﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾[الزخرف:٨٠]، كما قال تعالىٰ: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[ق:١٨]، فإذا كان المؤمن قرره الله بذنوبه سترًا له ثم يبدل السيئات حسنات، وإذا كان الكافر والمجرم قرره الله بذنوبه، فَيُنَادَىٰ عَلَىٰ رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ: ﴿ أَلا لَعْنَةُ اللهِ عَلَىٰ الظَّالِمِينَ ﴾[هود:١٨].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يا معاشر أهل الإيمان، ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ أي: لصلاة الجمعة التي هي في وقت صلاة الظهر، ﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ ﴾ فامضوا إلىٰ طاعة الله وسماع الذكر والعلم الذي يُلقىٰ عليكم، ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ أي: واتركوا البيع والشراء ويدخل فيه العتاقة والهبة وعقد النكاح وجميع العقود في وقت خطبة الجمعة، ﴿

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي شهود الجمعة والخير خير لكم في الدنيا والآخرة، ﴿إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما ينفعكم.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ﴾ أي: انتهيتم من صلاة الجمعة، ﴿فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ﴾ وهذا أمر للإباحة فلا يلزم أن تخرج من المسجد ؛ لكن إذا أحببت أن تخرج خرجت، ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾ من رزقه، ﴿وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا﴾ في أدبار صلواتكم وصبحكم ومساءكم وفي جميع شأنكم، كان النبي صلىٰ الله عليه وسلم يذكر الله علىٰ كل أحيانه متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾[العنكبوت:٤٥]، وقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[البقرة:١٥٢]، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تحصلون علىٰ المطلوب وتأمنون من المرهوب، فمن أعظم أسباب الفلاح ذكر الله، فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، قَالَ مَكِّيٌّ: وَأَزْكَاهَا، عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ»، قَالُوا: وَذَلِكَ مَا هُوَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «ذِكْرُ الله عَزَّ وَجَلَّ»، أخرجه أبو داود.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً﴾ هذا خبر عما حصل من المسلمين في ذلك اليوم، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله: أَنَّ النَّبِيَّ صلىٰ الله عليه وسلم، كَانَ يَخْطُبُ قَائِمًا يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَجَاءَتْ عِيرٌ مِنَ الشَّامِ، فَانْفَتَلَ النَّاسُ إِلَيْهَا، حَتَّىٰ لَمْ يَبْقَ إِلَّا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، وفيهم أبو بكر وعمر فَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْجُمُعَةِ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾[الجمعة: ١١].

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً ﴾ بيعًا وشراءً، ﴿ أَوْ لَهْوًا ﴾ من اللعب، ﴿ انفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾ أي: انفضوا من المجلس وخرجوا منه إلىٰ هذا الأمر المذكور وتركوك قائمًا تخطب، ﴿ قُلْ مَا عِنْدَ الله خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ﴾ ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾[الضحىٰ:٤-٥]، كما قال تعالىٰ: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[الأعلىٰ:١٦-١٧]، وقال: ﴿ وَالله خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ خير المعطين، ومن أسباب رزق الله عز وجل: المحافظة علىٰ الصلاة، وقد ذهب بعض أهل العلم إلىٰ اشتراط حضور اثني عشر رجلًا للجمعة بسبب نزول هذه الآية، ولا دلالة لهم فيه، بل الجمعة تصح بما تصح به الجماعة علىٰ القول الصحيح من أقوال أهل العلم، وفيها أيضًا أن الخطيب يكون قائمًا فعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ، قَالَ: دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ أُمِّ الْحَكَمِ يَخْطُبُ قَاعِدًا، فَقَالَ: انْظُرُوا إِلَىٰ هَذَا الْخَبِيثِ يَخْطُبُ قَاعِدًا، وَقَالَ الله تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾[الجمعة: ١١]، متفق عليه.

وفي فضل الجمعة:

عَنْ حُذَيْفَةَ، قَال: قَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «أَضَلَّ الله عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَىٰ يَوْمُ الْأَحَدِ، فَجَاءَ الله بِنَا فَهَدَانَا الله لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ، وَالسَّبْتَ، وَالْأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ»، متفق عليه.

و عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم ذَكَرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَقَالَ: «فِيهِ سَاعَةٌ، لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ، وَهُوَ يُصَلِّي، يَسْأَلُ الله شَيْئًا، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ»، متفق عليه.

و عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ صلىٰ الله عليه وسلم، قَالَ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ»، متفق عليه.

انتهينا من تفسير هذه السورة.

والحمد لله رب العالمين.

سورة المنافقون

بسم الله الرحمن الرحيم

مدنية، ويقال: المنافقون، والكافرون، والمؤمنون علىٰ الحكاية، وإلا لو جعلت علىٰ الإعراب لقال سورة المنافقين، وسميت بهذا الاسم لذكر المنافقين فيها، وقد كان فشوا النفاق بعد غزوة بدر حين أعلىٰ الله عز وجل شوكة المسلمين وأذل الشرك والمشركين فاعتقد قوم من الأوس والخزرج النفاق وهو إظهار الإسلام وإبطان الكفر، ولذلك قال الله عز وجل في شأنهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[النساء:١٤٥]، لشدة بغضهم للإسلام ومناصرتهم لأعداء الإسلام.

وقد تمالؤوا علىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم وأرادوا قتله في غزوة تبوك، وتمالؤوا علىٰ المسلمين وبنوا مسجد الضرار فأحرقه النبي صلىٰ الله عليه وسلم، ووقعوا في عرض عائشة رضي الله عنها واتهموها بما هي بريئة منه، وكانت لا تقع غزوة مع الكافرين إلا ولهم نصيب من التخذيل، ويزعمون أنهم أهل الصلاح وهم أهل الفساد.

وهم متوفرون في كل زمن وحين فمنهم: الباطنية، والرافضة، وغلات الصوفية، والحداثيون والعلمانيون كثير منهم منافقون وهكذا الاشتراكيون والبعثيون والناصريون، فكل من أظهر الإسلام واعتقد عقيدة أهل الكفر والإجرام كان من المنافقين المتوعدين بهذا العذاب الأليم.

ومن أظهر علاماتهم فرحهم بضعف الإسلام، وحزنهم إذا فضح طريق أهل الإجرام والله المستعان، ولا يجدون فرصة إلا ووجد طعنهم يتسارع إلىٰ المسلمين وإلىٰ

خذيلتهم، وضررهم علىٰ أهل الإسلام أكثر من ضرر اليهود والنصارىٰ؛ لأن اليهودي والنصراني عداوته ظاهرة أما هذا في ظاهره مسلم وفي باطنه الكفر الصراح.

انظر إلىٰ اليهود والنصارىٰ ما استطاعوا أن يقولوا بأن القرآن محرف مكذوب وإن كانوا في واقعهم يكذبون القرآن، حتىٰ جاء بعض الهلكىٰ من الرافضة وألف كتابًا بعنوان: فصل الخطاب في بيان تحريف كتاب رب الأرباب، يزعم أن هذ القرآن الذي بين أيدينا ناقص، ويزعمون أن هناك قرآن لفاطمة لم يظهر، فبعد ذلك أخذ بعض اليهود والنصارىٰ من هذا الكتاب ما يطعنون به علىٰ القرآن العظيم الذي: ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ﴾[فصلت:٤٢]، والحمد لله هم مهزومون كما قال تعالىٰ: ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴾[الأحزاب:٦٠-٦١]، وإن ارتفعت رؤوسهم فمآلها إلىٰ الهزيمة، وكم تملك العبيديون علىٰ بلاد المسلمين وأبىٰ الله إلا أن يعلي دينه ويرفع كلمته.

يقول الله عز وجل: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ إذا جاءك يا محمد المنافقون الذين يظهرون الإسلام بأقوالهم وبعض أفعالهم ويبطنون الكفر، ﴿ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ﴾ قالوا بألسنتهم ولم يقروا بقلوبهم إنك لرسول الله حقًا، ﴿ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ أي: أن الله مطلع علىٰ أنك رسوله فهو الذي أرسلك، ﴿ وَاللهُ يَشْهَدُ ﴾ يخبر ويُعلِم، ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ في اعتقادهم وإن كان قولهم مطابق للواقع إلا أنهم يخالفونه بالاعتقاد فأخبر الله عز وجل بكذبهم، فلذلك لا بد من إصلاح الطوية؛ لأن النبي صلىٰ الله

عليه وسلم يقول: « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، وقال الله عز وجل في بيان شرط قبول توبتهم: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[النساء: ١٤٦].

﴿ اتَّخَذُوا ﴾ أي: من طريقتهم أنهم : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ ﴾ يحلفون بالله كثيرًا: ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَىٰ الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[المجادلة:١٤]، ﴿ جُنَّةً ﴾ يتقون بها التهمة التي تنزل عليهم، فالجُنة: الشيء الذي يستجن به ويُختفىٰ خلفه، فقد كانوا إذا ثبتت عليهم تهمة يأتون إلىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم ويحلفون بالله ما قالوا وقد نزل القرآن بتكذيبهم: ﴿ وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ ﴾[التوبة:٧٤]، ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ أي: بهذا الأسلوب أنهم يصدون ويحذرون من المسلمين ويؤذونهم، ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ بئس الأفعال أفعالهم السيئة المخالفة للكتاب والسنة، وسبب نزول هذه السورة ما في الصحيحين عن زيد بن أرقم أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم خرج في غزوة بني المصطلق فقال عبد الله بن أُبيّ بن سلول لعنه الله: ﴿ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَىٰ الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾[المنافقون:٨]، فسمعه زيد بن أرقم فقال: والله لأخبرن النبي صلىٰ الله عليه وسلم، فذهب وأخبر النبي صلىٰ الله عليه وسلم فجاء ابن أُبيّ وقال: والله ما قلت يا رسول الله، فبلغ الهم بزيد مبلغًا عظيمًا وقال له عمه: كذبت رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، قال: والله ما كذبت فأنزل الله عز وجل هذه السورة فضح بها ابن أُبيّ»؛ ولكن ليس للمنافق وجه فالرجل الصادق المؤمن والحيي إذا ظهرت منه كذبة أو غلطة يبقىٰ ضعيفًا

متحرجًا أما المنافق ما له وجه يكذب ويحلف علىٰ الكذب ويفضحه الله علىٰ الملأ وما زال في غيه، فانظر إلىٰ هذا الرجل الفاجر مع أنه كان من كبار قومه كيف يتعاطىٰ الكذب.

﴿ ذَلِكَ ﴾ السبب الذي جعلهم لا يبالون بالأيمان فيحلفون بالله علىٰ الكذب ولا يعظمونه: ﴿ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ﴾ ظاهرًا، ﴿ ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ باطنًا، ﴿ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ طبع الله علىٰ قلوبهم بطابع الكفر والضلال، ﴿ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴾ لا يعقلون شيئًا من حكم الله.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ ﴾ يا محمد ومن معك، ﴿ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ جميلة أجسامهم، لذيذة أصواتهم كما قال الله عز وجل: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾[محمد:٢٩-٣٠]، ﴿ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ يأتون بكلام منمق مزين، ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ﴾ لا يستفاد منها مثل الخشبة التي تلقىٰ في عرض بيت لا يستفاد منها؛ لعدم إخلاصهم وصدقهم، ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ كل ما نزل حكم من أحكام الله ظنوه عليهم، وكلما وقع أمر بالمسلمين ظنوه عليهم يرهبون من الموت، ويرهبون من الأحكام الشرعية، ويرهبون من الزكاة والصيام والحج وغير ذلك، لفساد قلوبهم، ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ ﴾ حقًا ومن أشدهم ضررًا علىٰ المسلمين لأنهم من الداخل يعرفون المدخل والمخرج والضعف والقوة، ﴿ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ كن علىٰ حذر منهم، ﴿ قَاتَلَهُمُ اللهُ ﴾ أي: لعنهم الله، ﴿ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ أي: كيف يصرفون عن الحق إلىٰ الضلال.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أي: للمنافقين، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا ﴾ هلموا، ﴿ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ يسأل الله لكم المغفرة والرحمة، ﴿ رَسُولُ اللهِ ﴾ محمد صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ لَوَّوْا

رُءُوسَهُمْ ﴾ كبرًا وعنادًا، ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ ﴾ يذهبون ويولون، ﴿ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي: حال استكبارهم.

وفي مسلم (٢٧٨٠) من حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «مَنْ يَصْعَدُ الثَّنِيَّةَ، ثَنِيَّةَ الْمُرَارِ، فَإِنَّهُ يُحَطُّ عَنْهُ مَا حُطَّ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ»، قَالَ: فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ صَعِدَهَا خَيْلُنَا، خَيْلُ بَنِي الْخَزْرَجِ، ثُمَّ تَتَامَّ النَّاسُ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «وَكُلُّكُمْ مَغْفُورٌ لَهُ، إِلَّا صَاحِبَ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ»، فَأَتَيْنَاهُ فَقُلْنَا لَهُ: تَعَالَ، يَسْتَغْفِرْ لَكَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم، فَقَالَ: وَالله لَأَنْ أَجِدَ ضَالَّتِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِي صَاحِبُكُمْ، قَالَ وَكَانَ رَجُلٌ يَنْشُدُ ضَالَّةً لَهُ.

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: حالهم واحد يا محمد، ﴿ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ كما قال الله عز وجل: ﴿ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ الله لَهُمْ ﴾[التوبة:٨٠]، لأنهم كفار في الباطن، ﴿ لَنْ يَغْفِرَ الله لَهُمْ ﴾ مهما استغفرت لهم، ﴿ إِنَّ الله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ الكافرين.

ثم ذكر من صفاتهم: ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ الله ﴾ أي: من صفاتهم التحذير من نصرة الإسلام بقولهم لا تعطوهم الأموال أتركوهم يفتقرون ما يعلمون أن الرزق من عند الله عز وجل، ويظنون أن أهل الإسلام يتنازلون عن دينهم لذلك؛ لا، المستقيم لا يتنازل عن دينه وإن قل ماله وكثر أعداؤه وأُذيَّ، وهذا دليل علىٰ أن طريق المنافقين الصد عن سبيل الله بأنواع الصدود، ﴿ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا ﴾ أي: يذهبوا من حوله، ﴿ وَلله خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ فعن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ الله صلىٰ الله

عليه وسلم، قَالَ: «يَدُ الله مَلْأَىٰ لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ»، متفق عليه، ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴾ لا يعلمون عظمة الله عز وجل وأنه لا يعجزه شيء وأنه: ﴿ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾[الذاريات:٥٨].

ومن قولهم: ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ﴾ أي: إذا رجعنا إلىٰ مدينة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم من هذه الغزوة، فعن زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ، قال: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم فِي سَفَرٍ أَصَابَ النَّاسَ فِيهِ شِدَّةٌ» فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ لِأَصْحَابِهِ: لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ الله حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ، وَقَالَ: ﴿ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَىٰ الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾[المنافقون: ٨]، قَالَ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صلىٰ الله عليه وسلم، فَأَخْبَرْتُهُ بِذَلِكَ فَأَرْسَلَ إِلَىٰ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ فَسَأَلَهُ فَاجْتَهَدَ يَمِينَهُ مَا فَعَلَ، فَقَالَ: كَذَبَ زَيْدٌ رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم قَالَ: فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِمَّا قَالُوهُ شِدَّةٌ حَتَّىٰ أَنْزَلَ الله تَصْدِيقِي: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾[المنافقون: ١]، قَالَ: ثُمَّ دَعَاهُمُ النَّبِيُّ صلىٰ الله عليه وسلم لِيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ، قَالَ: فَلَوَّوْا رُءُوسَهُمْ، وقَوْلُهُ: ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ﴾[المنافقون: ٤]، وَقَالَ: كَانُوا رِجَالًا أَجْمَلَ شَيْءٍ»، أخرجه مسلم.

﴿ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ ﴾ يقصد نفسه وهو الذليل، ﴿ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ يقصد النبي صلىٰ الله عليه وسلم وأصحابه وهم الأعزة أعزهم الله بدينه ورفع شأنهم، ﴿ وَللهِ الْعِزَّةُ ﴾ الكاملة، ﴿ وَلِرَسُولِهِ ﴾ بما أعطاه الله عز وجل من العزة والرفعة، ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ المتابعين لرسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ لا يعلمون ذلك لجهلهم

بالإسلام وعظمته ومنزلته وأن الرفعة بالتقوىٰ كما قال تعالىٰ: ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[طه:١٣٢]، وقال: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[الحجرات:١٣]، وقد قال الله عز وجل: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾[فاطر:١٠].

ولما ذكر الله حال المنافقين نادىٰ المؤمنين بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ ﴾ إياكم أن تنشغلوا عن طاعة الله عز وجل بالأموال من تجارات ونحوها، والأولاد ويدخل فيهم الأحفاد، ﴿ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ﴾ عن طاعة الله، ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾ في الدنيا، ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ في الآخرة؛ لأنهم حرموا من الطاعة التي بها تُرفع الدرجات وتكفر السيئات نسأل الله السلامة والعافية.

وفي هذا دليل علىٰ أن الإنسان قد يُشغل عن طاعة الله بأقرب الناس إليه كما سيأتي في قوله تعالىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾[التغابن:١٤]، وفي صحيح مسلم عَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ، قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ؟ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ الله مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّىٰ كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَالله إِنَّا لَنَلْقَىٰ مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّىٰ دَخَلْنَا عَلَىٰ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يَا رَسُولَ الله فَقَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّىٰ كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ الله صلىٰ

الله عليه وسلم: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَىٰ مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَىٰ فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً»، ثَلَاثَ.

﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ أمرهم بطاعة الله ومنها الإنفاق في سبيل الله؛ لأن المنافقين أهل البخل والإقتار، ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ من قبل حلول الأجل فيتمنىٰ لو يتأخر فيتصدق، ﴿ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ هلا أخرتني: ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ حتىٰ أتمكن من العمل الصالح، ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: أَتَىٰ رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ؟ فَقَالَ: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَخْشَىٰ الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَىٰ، وَلَا تُمْهِلَ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَتْ الْحُلْقُومَ قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا، أَلَا وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ»، أخرجه مسلم.

وفيه عظيم أجر الصدقة لا سيما إذا كانت في الأمور الجاريات من بناء المساجد وشراء الكتب وحفر الآبار ونحو ذلك، فالإنسان عليه أن يكون باذلًا لماله في طاعة الله عز وجل، فانظر إلىٰ هذا الميت يتمنىٰ لو أُخر حتىٰ يتصدق ما قال أصلي ولا أصوم ولا أحج وإن كانت هذه من الطاعات لكن ذكر الصدقة لفضلها، ﴿ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ المبادرين إلىٰ مرضات رب العالمين، كقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾[المؤمنون:٩٩-١٠٠].

﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ الله نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ أي: اعملوا قبل أن يأتي الأجل فتتمنون العودة؛ فإنه إذا جاء الأجل لا تؤخر النفس يوم ولا ساعة، كما قال تعالىٰ: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ

﴾[الرعد:٣٨]، ﴿ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ مطلع علىٰ أعمالكم خيرها وشرها فيجازي المؤمن والكافر كل منهما علىٰ عمله.

والحمد لله رب العالمين.

سورة التغابن

بسم الله الرحمن الرحيم

مدنية وقيل مكية والصحيح الأول.

﴿ يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يخبر الله عز وجل عن تسبيح المخلوقات له منزهة له عن النقائص مثنية له علىٰ المحامد، فهو الموصوف سبحانه وتعالىٰ بكل كمال، والمنزه عن النقص في كل حال كما قال ذو الجلال: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[الشورىٰ:١١]، ﴿ فَلا تَضْرِبُوا للهِ الأَمْثَالَ إِنَّ الله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾[النحل:٧٤]، ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[الإخلاص:٤]، فهو المتصف بكل كمال في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله، ﴿ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ المطلق في السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ المطلق يحمد علىٰ كماله، ويحمد علىٰ جماله، ويحمد علىٰ إنعامه وإفضاله سبحانه وتعالىٰ، والله عز وجل يحب الحمد ولهذا حمد نفسه وافتتح كتابه بالحمد: ﴿ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الفاتحة:٢]، وفرض علىٰ المسلمين أن يقرؤوها في كل ركعة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال الله عز وجل: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الفاتحة:٢]، قَالَ الله تَعَالَىٰ: حَمِدَنِي عَبْدِي»، أخرجه مسلم، **والحمد**: هو ذكر محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه وإجلاله، وآلته اللسان والقلب ومتعلقة الصفات اللازمة والمتعدية ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا

يعجزه شيء لكمال علمه وقدرته، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾[فاطر: ٤٤].

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ أي: الله الذي أوجدكم من العدم، ﴿ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ ﴾ علىٰ طريق أهل الكفر والإعراض، ﴿ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ موحد له فالله عز وجل يبتلي المؤمنين بالكافرين، وهذا كقوله: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[الملك:٢]، وكما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[الإنسان:٣]، ﴿ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ مطلع فيجازي المؤمن علىٰ إيمانه ويجازي الكافر علىٰ إجرامه وهو أعلم بأهل التقوىٰ وأهل الهدىٰ فيوفق من يشاء فضلًا ويضل من يشاء عدلًا.

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أي: أن من تمام قدرته أنه خلق السموات العالية والأرض الواسعة، ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي: بغير عبث كما قال: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾[المؤمنون:١١٥]، وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾[ص: ٢٧]، ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ كما قال: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[التين:٤]، ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾[الإسراء:٧٠]، ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ صورك في أحسن صورة: ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾[الانفطار:٧-٨]، جعل لك سمعًا وبصرًا وقدرةً وإرادةً وقوةً وعلمًا وفضلك علىٰ كثير من الحيوان البهيم الذي لا يعقل ولا يعلم، ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ إليه الرجوع فيجازي المؤمن بإيمانه والمسيء بإساءته.

ومن تمام كماله أنه: ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ لا تخفىٰ عليه خافية، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾[الأنعام: ٥٩]، ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ ﴾ في نفوسكم، ﴿ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ لغيركم، ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ولو عاجلنا بما في نفوسنا لهلكنا، فإن الإنسان تأتيه من الخواطر ما يستحي عن إظهارها سواء في باب العبادات أو المعاملات أو الظنون والشهوات والشبهات، والله مطلع علىٰ كل ذلك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ، وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَىٰ أَعْمَالِكُمْ، وَقُلُوبِكُمْ» أخرجه مسلم.

ثم قال الله عز وجل للمشركين: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ يا معشر قريش يا من تعرضون عن دعوة محمد صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ نَبَأُ ﴾ خبر، ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ كقوم نوح وعاد وثمود وفرعون ولوط وغيرهم، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾[هود: ٨٩]، ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أي: نزل بهم العذاب الأليم والخزي الجسيم بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ موجع في الدنيا والآخرة.

﴿ ذَلِكَ ﴾ سبب ما أصابهم من الذل والهوان والعقوبة، ﴿ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ كانت تأتيهم الرسل بالآيات والعظات يدعونهم إلىٰ التوحيد فيأبون إلا الشرك والتنديد، ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ الكتب المنزلة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَات

وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾[الحديد:٢٥]، ﴿ فَقَالُوا ﴾ أي: أنهم لم يؤمنوا وكان قولهم في الاعتذار: ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ كيف نهتدي بدعوة بشر مثلنا وهذا قول قبيح تتابعوا عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ ﴾[الأنعام:٣٣]، وقالوا: ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾[المؤمنون:٢٤]، وسألوا الله أن يأتيهم بملك: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾[الأنعام:٩-١٠].

﴿ يَهْدُونَنَا ﴾ أي: يدلوننا ويرشدوننا، ﴿ فَكَفَرُوا ﴾ أعرضوا عن الإيمان، ﴿ وَتَوَلَّوْا ﴾ زادوا في الإعراض حتىٰ نهوا عنه، ﴿ وَاسْتَغْنَىٰ الله ﴾ عنهم وهو الغني الحميد، ﴿ وَالله غَنِيٌّ ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله، ﴿ حَمِيدٌ ﴾ متصف بصفات الحمد والمجد، والله عز وجل متصف بالغنىٰ المطلق فهو الغني في كل حال وغناه ذاتي لا ينفك عنه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَىٰ الله وَالله هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾[فاطر:١٥]، سواء آمنوا أو أعرضوا، ففي الحديث القدسي، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: « يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»، أخرجه مسلم.

ومن أسباب كفرهم أيضًا زعمهم عدم البعث: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ﴾ قالوا: ما هناك بعث ولا نشور وإنما هي موتة واحدة، كما قال تعالىٰ: ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا

يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾[الجاثية:٢٤]، ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ أمره الله أن يقسم علىٰ البعث والنشور، وقد أمر الله محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم بالقسم في القرآن في ثلاثة مواطن: ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾[يونس:٥٣]، وكلها أيمان علىٰ البعث: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾[التغابن:٧]، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ﴾[سبأ:٣]، ﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ لتُخبرنّ بجميع أعمالكم لا تخفىٰ علىٰ الله خافية، ومنها أن الله يبلىٰ السرائر، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ تُبْلَىٰ السَّرَائِرُ ﴾[الطارق: ٩]، ﴿ وَذَلِكَ عَلَىٰ اللهِ يَسِيرٌ ﴾ لا يعجزه ولا يكرثه ولا يتعبه، فهو عالم بكل شيء ومع ذلك يأتي الكرام الكاتبين بما سطروه علىٰ هذا العبد الضعيف، ويأمر الله عز وجل الجوارح أن تتكلم بما عمل، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾[الزخرف: ٨٠].

﴿ فَآمِنُوا ﴾ يا معاشر السامعين، ﴿ بِاللهِ ﴾ ربًا، ﴿ وَرَسُولِهِ ﴾ نبيًا، والمراد به هنا محمد صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾ وهو القرآن سماه الله نورًا لوضوح دلالته ولتمييزه بين الحق والباطل، ﴿ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ مطلع.

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ أي: يوم القيامة حيث يحشر الناس من كل حدب وصوب فيكونون في أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد، ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ سُمي يوم التغابن لشدة الغبن الذي يحصل للناس فيه، فيغبن الكافر ويعذب في النار وتحيط به ذنوبه ويهلك، ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ ﴾ ربًا، ﴿ وَيَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ ينقاد لأمره،

﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ﴾ كما قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «الصلاةُ إلىٰ الصلاةِ، والجمعةُ إلىٰ الجمعةِ، ورمضانُ إلىٰ رمضانَ، كفَّاراتٌ لما بينهنَّ ما اجتُنبت الكبائرُ»، متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾[هود:١١٤]، فالحسنات من أعظم أسباب تكفير السيئات، وقد ذكر ابن أبي العز رحمه الله إحدىٰ عشر مُكفِرًا منها: الإسلام، والتوبة، والدعاء، والاستغفار، والمبادرة إلىٰ الطاعات ونحو ذلك، ﴿ وَيُدْخِلْهُ ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ جمع جنة، ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ أي: تجري فيها الأنهار كما تقدم؛ لأن أنهار الجنة ليس فيها أخاديد، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ دليل علىٰ أبدية الجنة وهو عقيدة أهل السنة والجماعة: أن الجنة والنار لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان، إذ أن الله يأمر بذبح الموت ثم يقال: يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت، ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الذي لا فوز بعده إذ يجاورون رب العالمين وينظرون إليه ويتنعمون بما أعطاهم الله عز وجل من النعيم المقيم، ومن أعظمه النجاة من النار، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[آل عمران:١٨٥].

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أعرضوا عن دين الله، ﴿ وَكَذَّبُوا ﴾ ردوا آيات الله عز وجل حالهم علىٰ عكس حال المؤمنين، ﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ يعذبون فيها، كما قال تعالىٰ: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ لا يخرجون منها: ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾[البقرة:١٦٧]، وقال: ﴿ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾[فاطر:٣٦-٣٧]، وقال: ﴿ وَنَادَوْا يَا

مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ﴾[الزخرف:٧٧]، ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾[المؤمنون:١٠٦]، ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾[المؤمنون:١٠٧-١١١]، ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ بئس الرجوع رجوعهم حيث يرجعون إلىٰ نار تلظىٰ لا يتنعمون فيها بنوم ولا شرب ولا أكل وبشيء مما فيها.

ثم قال الله عز وجل آمرًا وحاثًا علىٰ الإيمان بالقدر: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ ﴾ أي: في هذا العالم أو علىٰ هذا الإنسان، ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ الله ﴾ الكوني القدري، ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِالله يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ ومن يصبر علىٰ أقدار الله عز وجل الكونية ويلتزم أقداره الشرعية يهدي قلبه إلىٰ سبيل الحق والصواب وإلىٰ طريق الهدىٰ والرضا، يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ﴿ وَالله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ عليم بأحوالكم أيها الناس كما أنه عليم بمآلكم، لا تخفىٰ عليه خافية.

﴿ وَأَطِيعُوا الله ﴾ في أمره واجتناب نهيه، ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ في أمره واجتناب نهيه، وطاعة الرسول صلىٰ الله عليه وسلم طاعة لله كما قال الله عز وجل: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ الله ﴾[النساء:٨٠]، ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ عن طاعة الله ورسوله صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ ﴿ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾[الزمر:٤١]، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾[الغاشية:٢١-

٢٢]، ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَىٰ * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَىٰ * وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَىٰ ﴾[الأعلىٰ:٩-١١]، فليس علىٰ الرسول صلىٰ الله عليه وسلم غير النذارة، كما قال تعالىٰ: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ الله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾[البقرة:٢٧٢]، ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[الأنعام:١١٧].

﴿ الله ﴾ أي: الله الذي: ﴿ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا شريك في ألوهيته كما لا شريك له في ربوبيته ولا في أسمائه وصفاته، ﴿ وَعَلَىٰ الله فَلْيَتَوَكَّلِ ﴾ يعتمد، ﴿ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ في قضاء حوائجهم وتيسير أمورهم فإن الله عز وجل بيده الخير، كما قال تعالىٰ: ﴿ قُلِ اللهمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[آل عمران:٢٦]، وقال: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴾[الفرقان:٥٨]، يرزقك ويعطيك ويعينك: وعن عمر رضي الله عنه قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَىٰ الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»، أخرجه الترمذي.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يا معشر من آمن بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًا، ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ أي: إن أزواجكم، ﴿ وَأَوْلادِكُمْ ﴾ أبناؤكم من ذكورهم وإناثهم، ﴿ عَدُوًّا لَكُمْ ﴾ أي: بإشغالكم عن طاعة الله وإن لم تكن العداوة الظاهرة الموجبة للقتل والقتال؛ ولكن عداوتهم من حيث أنهم يشغلون عن طاعة الله، ﴿ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ كن علىٰ حذر أن تعصي الله عز وجل بسبب زوجتك أو ابنك، فكم من إنسان قطع رحمه، وحصلت له من البلايا بسبب زوجته، وولده ﴿ وَإِنْ تَعْفُوا ﴾ فيما يقع منهم من الخطأ، ﴿ وَتَصْفَحُوا ﴾ تتجاوزوا،

﴿ وَتَغْفِرُوا ﴾ تعفوا عما تقدم ومضىٰ، ﴿ فَإِنَّ الله ﴾ لكم ولهم، ﴿ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ يستر العيب ويوفق لما يأتي.

وعند أحمد عن بريدة رضي الله عنه قال قَالَ: «بَيْنَما رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم عَلَىٰ الْمِنْبَرِ يَخْطُبُ إِذْ أَقْبَلَ الْحَسَنُ، وَالْحُسَيْنُ عَلَيْهِمَا السَّلامُ عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ، فَنَزَلَ وَحَمَلَهُمَا، فَقَالَ: «صَدَقَ الله: ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾[التغابن: ١٥]، رَأَيْتُ هَذَيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فِي قَمِيصَيْهِمَا فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّىٰ نَزَلْتُ فَحَمَلْتُهُمَا».

﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ ﴾ أموالكم التي تجمعونها إن لم تكن في طاعة الله عز وجل وموصلة إلىٰ مرضاته، ﴿ وَأَوْلادُكُمْ ﴾ إن لم يكونوا علىٰ طاعة الله عز وجل، ﴿ فِتْنَةٌ ﴾ يفتنونكم عن دينكم، ويشغلونكم عن طاعة ربكم، ﴿ وَالله عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لمن آمن واتبع هداه وسلك سبل رضاه.

﴿ فَاتَّقُوا الله ﴾ يا معاشر المسلمين بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾، أي جهدكم، كما قال تعالىٰ: ﴿ لا يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البقرة:٢٨٦]، وقال: ﴿ لا يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾[الطلاق:٧]، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ» متفق عليه، وهذا من فضل الله؛ أن الإنسان لا يأتي إلا بما استطاع وقد عليه، ﴿ وَاسْمَعُوا ﴾ لربكم ولنبيكم، ﴿ وَأَطِيعُوا ﴾ أمر الله وأمر رسوله صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ﴾ ابذلوا المال في سبيل الله، لأن ما أنفقه الإنسان يجده عند الله، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ

خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾[البقرة:٢٧٣]، ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[البقرة:٢٤٥]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه: قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ، قَالَ: «فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ»، أخرجه البخاري، ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ من يُوقَ شدة البخل الذي يجعل الإنسان يمنع الواجب عليه من النفقات والزكوات، ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ فإن نفس المؤمن سمحه متجاوزة، والشح من أشد الذنوب قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «وَإِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَىٰ أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»، أخرجه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ ﴾ بالصدقات في سبيل الله، وإلا فإن الله غني عن العالمين، ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ بغير منة ورياء وسمعة؛ ففي الحديث: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ» متفق عليه عن جندب رضي الله عنه، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾[المدثر:٦]، ﴿ يُضَاعِفْهُ ﴾ يكثره له أضعاف ما أعطىٰ: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة:٢٦١]، ﴿ لَكُمْ ﴾ أي: للمؤمنين، ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ تقصيركم وذنوبكم لا سيما إذا اقترن العمل الصالح بالتوبة، ﴿ وَاللهُ شَكُورٌ ﴾ يجازي علىٰ القليل بالكثير، ﴿ حَلِيمٌ ﴾ يتجاوز عن المؤمنين ويؤخر العقوبة حتىٰ تقع منهم التوبة والإنابة.

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ أي: أن الله عز وجل عالم بما غاب عن الشهود، ﴿ وَالشَّهَادَةِ ﴾ عالم بما ظهر، ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يُغلب، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي لا يظلم سبحانه وتعالىٰ.

وختم الله عز وجل هذه السورة بهذه الأسماء؛ ليدلل أنه سبحانه كريم عظيم يتجاوز عن عباده ويُكرِم من علمه أهلًا للكرامة ويؤخر العقوبة عن من علمه أهل لها حتىٰ يتوب أو يؤوب، والله المستعان.

سورة الطلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي مدنية.

﴿يا أيها النَّبِيُّ ﴾ نداء للنبي صلىٰ الله عليه وسلم، قيل: لأنها نزلت في شأن طلاقه لحفصه، ولأنه السيد المقدم ثم خاطب أمته بقوله: ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ لأنه تبع له أي: إذا طلقتم أزواجكم، ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ أي: لحين عدتهن، وهو الطهر والعدة التي أمر الله بالطلاق لها أن تكون حاملًا قد تبين حملها أو تكون في طهر لم يجامعها فيه، فعن عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا: أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ، عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم، فَسَأَلَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا، ثُمَّ لِيُمْسِكْهَا حَتَّىٰ تَطْهُرَ، ثُمَّ تَحِيضَ ثُمَّ تَطْهُرَ، ثُمَّ إِنْ شَاءَ أَمْسَكَ بَعْدُ، وَإِنْ شَاءَ طَلَّقَ قَبْلَ أَنْ يَمَسَّ، فَتِلْكَ العِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ الله أَنْ تُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ».

قال البغوي في تفسيره (٥/ ١٠٧):اعْلَمْ أَنَّ الطَّلَاقَ فِي حَالِ الْحَيْضِ وَالنِّفَاسِ بِدْعَةٌ وَكَذَلِكَ فِي الطُّهْرِ الَّذِي جَامَعَهَا فِيهِ.

لِقَوْلِ النَّبِيُّ صلىٰ الله عليه وسلم: «وَإِنْ شَاءَ طَلَّقَ قَبْلَ أَنْ يَمَسَّ»، وَالطَّلَاقُ السُّنِّيُّ أَنْ يُطَلِّقَهَا فِي طُهْرٍ لَمْ يُجَامِعْهَا فِيهِ، وَهَذَا فِي حَقِّ امْرَأَةٍ تَلْزَمُهَا الْعِدَّةُ بِالْأَقْرَاءِ، فَأَمَّا إِذَا طَلَّقَ غَيْرَ الْمَدْخُولِ بِهَا فِي حَالِ الْحَيْضِ أَوْ طَلَّقَ الصَّغِيرَةَ الَّتِي لَمْ تَحِضْ قَطُّ أَوِ الْآيِسَةَ بَعْدَ مَا جَامَعَهَا، أَوْ طَلَّقَ الْحَامِلَ بَعْدَ مَا جَامَعَهَا، أَوْ فِي حَالِ رُؤْيَةِ الدَّمِ لَا يكون بِدْعِيًا وَلَا سُنَّةَ وَلَا

بِدْعَةَ فِي طَلَاقِ هَؤُلَاءِ لِأَنَّ النَّبِيَّ صلىٰ الله عليه وسلم قَالَ: «ثُمَّ لِيُطَلِّقْهَا طَاهِرًا أَوْ حَامِلًا» وَالْخُلْعُ فِي حَالِ الْحَيْضِ أَوْ فِي طُهْرٍ جَامَعَهَا فِيهِ لَا يَكُونُ بِدْعِيًّا لِأَنَّ النَّبِيَّ صلىٰ الله عليه وسلم أَذِنَ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ فِي مُخَالَعَةِ زَوْجَتِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْرِفَ حَالَهَا، وَلَوْلَا جَوَازُهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ لا شبه أَنْ يَتَعَرَّفَ الْحَالَ، وَلَوْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ فِي حَالِ الْحَيْضِ أَوْ فِي طُهْرٍ جَامَعَهَا فِيهِ قَصْدًا يَعْصِي الله تَعَالَىٰ.

وَلَكِنْ يَقَعُ الطَّلَاقُ لِأَنَّ النَّبِيَّ صلىٰ الله عليه وسلم أَمَرَ ابْنَ عُمَرَ بالمراجعة ولولا وقوع الطلاق لكان لا يأمره بِالْمُرَاجَعَةِ، وَإِذَا رَاجَعَهَا فِي حَالِ الْحَيْضِ يَجُوزُ أَنْ يُطَلِّقَهَا فِي الطُّهْرِ الَّذِي يَعْقِبُ تِلْكَ الْحَيْضَةَ قَبْلَ الْمَسِيسِ.

كَمَا رَوَاهُ يُونُسُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَنَسُ بْنُ سِيرِينَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، وَمَا رَوَاهُ نَافِعٌ عَنِ ابْنِ عُمَرَ: «ثُمَّ لِيُمْسِكْهَا حَتَّىٰ تَطْهُرَ ثُمَّ تَحِيضَ ثُمَّ تَطْهُرَ» فَاسْتِحْبَابُ اسْتَحَبَّ تَأْخِيرَ الطَّلَاقِ إِلَىٰ الطُّهْرِ الثَّانِي حَتَّىٰ لَا يَكُونَ مُرَاجَعَتُهُ إِيَّاهَا لِلطَّلَاقِ كَمَا يَكْرَهُ النِّكَاحُ لِلطَّلَاقِ، وَلَا بِدْعَةَ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ الطَّلَقَاتِ الثَّلَاثِ عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ، حَتَّىٰ لَوْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ فِي حَالِ الطُّهْرِ ثَلَاثًا لَا يَكُونُ بِدْعِيًا وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ، وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ أَنَّهُ بِدْعَةٌ وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَأَصْحَابِ الرَّأْيِ. اهـ

وهل يقع الطلاق البدعي؟:

الصحيح أنه يقع علىٰ ما بينت ذلك في شرحي علىٰ عمدة الأحكام، لأن النبي صلىٰ الله عليه وسلم يقول لعمر: «فليراجعها»، ويحمل اللفظ علىٰ معناه الشرعي.

قال الله عز وجل: ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ يعني: أحصوا عدة المطلقة من حيث عدد أقرائها من أجل أن تأخذ مالها من الحقوق فينفق عليها وتراجع إن أراد مراجعتها في العدة فإن الزوج أحق بزوجته إذا كانت في الطلقة الأولىٰ أو الثانية، ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ ﴾ أي: في شأن النساء وفي طلاقهن، ﴿ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ﴾ حتىٰ وإن طلقتها ما دامت في الطلاق الرجعي، ﴿ وَلا يَخْرُجْنَ ﴾ بأنفسهن، إلا لحالة ضرورة، والواقع أن كثير من النساء الآن يخالفن هذا الأمر، ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾ قيل: الزنا، وقيل: السب والشتم والأذية فيجوز عند ذلك أن تخرج لكف شرها؛ لأن بعض النساء إذا طُلّقت ربما أحرقت وكسرت وهشمت وغير ذلك، ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ ﴾ أي: ما ذكر في شأن الطلاق والرجعة، ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ ﴾ باللفظ أو الفعل فقد ظلم نفسه، ومن ذلك ما يفعله كثير من الناس بقوله: أنتِ طالق طالق طالق، أو أنتِ طالق بالثلاث، أو أنتِ كذا وكذا من هذه الألفاظ، وكان ابن عباس إذا جاءه أحدهم يقول: طلقت زوجتي ثلاث يقول: ما اتقيت الله فما لك مخرج؛ والصحيح في هذا أن طلاق الثلاث في مجلس واحد يعتبر واحدة، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: " كَانَ الطَّلَاقُ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم، وَأَبِي بَكْرٍ، وَسَنَتَيْنِ مِنْ خِلَافَةِ عُمَرَ، طَلَاقُ الثَّلَاثِ وَاحِدَةً، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: إِنَّ النَّاسَ قَدِ اسْتَعْجَلُوا فِي أَمْرٍ قَدْ كَانَتْ لَهُمْ فِيهِ أَنَاةٌ، فَلَوْ أَمْضَيْنَاهُ عَلَيْهِمْ، فَأَمْضَاهُ عَلَيْهِمْ" أخرجه مسلم.

﴿ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ بهذه الآية احتجت فاطمة بنت قيس علىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه علىٰ أن المطلقة ثلاثًا لا سكنىٰ لها ولا نفقة، وكان عمر

رضي الله عنه يرىٰ لها السكنة والنفقة، والصحيح: أن المطلقة ثلاثًا وهي المسماة بالمبتوتة لا سكنىٰ ولا نفقة؛ لأنه لا أمر يحدث بعد ذلك إلا أنها تتزوج غيره، أما الطلقة الأولىٰ فقد يراجعها في العدة أو يخطبها بعد العدة وتعود إليه بعقد ومهر جديد، وهكذا الطلقة الثانية، وأما الثالثة فلا تحل له حتىٰ تنكح زوجًا غيره فيذوق من عسيلتها كما ذاق زوجها الأول من عسيلتها، كما قال الله عز وجل: ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ ﴾[البقرة: ٢٣٠]، وعن عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: جَاءَتِ امْرَأَةُ رِفَاعَةَ إِلَىٰ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم، فَقَالَتْ: كُنْتُ عِنْدَ رِفَاعَةَ، فَطَلَّقَنِي، فَبَتَّ طَلَاقِي، فَتَزَوَّجْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الزَّبِيرِ، وَإِنَّ مَا مَعَهُ مِثْلُ هُدْبَةِ الثَّوْبِ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم، فَقَالَ: «أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَىٰ رِفَاعَةَ؟ لَا، حَتَّىٰ تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ، وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ»، متفق عليه ، ولا يجوز جواز التحليل: «لَعَنَ الله الْمُحَلِّلَ ، وَالْمُحَلَّلَ لَهُ»، أخرجه أحمد، وكان يسمىٰ التيس المستعار.

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي: قربن انتهاء عدتهن، ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي: راجعوهن بمعروف إذا أردتم البقاء معهن، ﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ إذا أردتم الفراق، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾[البقرة:٢٣٧]، ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ علىٰ الرجعة والفراق وبهذه الآية أُستدل علىٰ وجوب الإشهاد في العقد والرجعة، وهذا لا يتأتىٰ إلا علىٰ من قال: بأن الرجعة لا بد أن تكون باللفظ، أما من ذهب إلىٰ أن الرجعة تكون بالجماع ونحو ذلك فلا يشترط الإشهاد، وإنما هو زيادة تأكد وتوضيح، ﴿ مِنْكُمْ ﴾ أي: من المسلمين، ﴿ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾ علىٰ الوجه الذي سمعتموها ورأيتموها بدون

زيادة ولا نقصان فإن شهادة الزور من أكبر الكبائر، فعن أبي بكرة رضي الله عنه قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «الكَبَائِرِ: الإِشْرَاكُ بِالله، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ»، متفق عليه، ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ أي: ما تقدم، ﴿ يُوعَظُ ﴾ يذكر به ﴿ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ فيلتزم أمر الله ويرجوا ثوابه، ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ ذهب بعض أهل العلم إلىٰ أن معنىٰ الآية: من يتق الله في الطلاق ونحو ذلك يجعل له مخرجًا، والصحيح: أن الآية عامة في جميع الأمور، من يتق الله في ليله ونهاره وسره وجهاره يجعل له مخرجًا من كل هم وغم هذا وعد الله، فتقوىٰ الله سبب لتفريج الكرب وقضاء الحاجات.

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ أي: يوسع له في رزقه ويأتيه الرزق الحلال من حيث لا يظن ولا يؤمل وهذا أبرك رزق، فلم يقع فيه استشراف ولم يؤخذ من الحرام ولا يلحقه شيء مما يشوب بركته، ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الله ﴾ أي: يعتمد علىٰ الله في جميع شأنه ويعتمد عليه ظاهرًا وباطنًا، ﴿ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ كافيه ما أهمه وما آذاه، ﴿ إِنَّ الله بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ أي: أن ما قضاه الله وقدره سيكون، وما شرعه الله عز وجل لا بد أن يؤتىٰ به علىٰ الوجه الذي شرعه الله، ﴿ قَدْ جَعَلَ الله لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ سواءً في باب النكاح والطلاق أو البيع والشراء قد جعل الله شريعة يسير الناس عليها.

ولما ذكر الله الطلاق ناسب ذكر أحكام العدة فقال: ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ ﴾ أي: من زوجاتكم، واليائسة هي التي بلغت سن الخمسين أو أكثر من ذلك وانقطع عنها الحيض، ﴿ إِنِ ارْتَبْتُمْ ﴾ لها معنيان: الأول: إن رأيتم الدم فشككتم هل هو دم حيض أم لا.، الثاني: إن ارتبتم وجهلتم حكم عدتهن ﴿ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ أي: أن

اليائسة والصغيرة التي لم تحض عدتها ثلاثة أشهر، فالعدة تكون بالحيض، والوضع، والشهر، فاليائسة والصغيرة تعتد بثلاثة أشهر، والحامل تعتد بالوضع، والتي يأتيها الحيض تعتد بثلاثة قروء والقرء: الطهر علىٰ الصحيح وهو اختيار عائشة رضي الله عنها، ﴿ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ أي: عدتهن أيضًا ثلاثة أشهر، ﴿ وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ وهذا هو القول الصحيح سواءً في عدة الوفاة أو في عدة الطلاق، فالحامل متىٰ وضعت انتهت عدتها ولو وضعت بعد طلاقها أو وفاة زوجها بساعة فعن أبي سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَابْنَ عَبَّاسٍ، أنهما اجْتَمَعَا عِنْدَ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَهُمَا يَذْكُرَانِ الْمَرْأَةَ تُنْفَسُ بَعْدَ وَفَاةِ زَوْجِهَا بِلَيَالٍ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عِدَّتُهَا آخِرُ الْأَجَلَيْنِ، وَقَالَ أَبُو سَلَمَةَ: قَدْ حَلَّتْ، فَجَعَلَا يَتَنَازَعَانِ ذَلِكَ، قَالَ: فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَنَا مَعَ ابْنِ أَخِي - يَعْنِي أَبَا سَلَمَةَ - فَبَعَثُوا كُرَيْبًا مَوْلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ، إِلَىٰ أُمِّ سَلَمَةَ، يَسْأَلُهَا عَنْ ذَلِكَ، فَجَاءَهُمْ فَأَخْبَرَهُمْ، أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ قَالَتْ: «إِنَّ سُبَيْعَةَ الْأَسْلَمِيَّةَ نُفِسَتْ بَعْدَ وَفَاةِ زَوْجِهَا بِلَيَالٍ، وَإِنَّهَا ذَكَرَتْ ذَلِكَ لِرَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم، فَأَمَرَهَا أَنْ تَتَزَوَّجَ»، أخرجه مسلم، وعليه جمهور العلماء، ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ ييسر له الخير حيث كان.

﴿ ذَلِكَ أَمْرُ الله ﴾ أي: ما تقدم من أمر الطلاق والعدة، ﴿ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ﴾ أي: أنزله علىٰ محمد صلىٰ الله عليه وسلم لتلتزموا به، ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ الله ﴾ في شأنه بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ﴾ أي: يكفر عنه ذنوبه، ﴿ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ قيل: من التزم أمر الله بتقواه كفر عنه سيئاته وأعظم أجره.

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ ﴾ أي: المطلقات من نسائكم، ﴿ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُمْ ﴾ أي: لا يشترط أن تسكنها فِلِة أو عمارة إذا كنت لا تملك لك أن تستأجر لها أو تسكن فيما يسير الله، ﴿ مِنْ وُجْدِكُمْ ﴾ من جدتكم وقدرتكم، ﴿ وَلا تُضَارُّوهُنَّ ﴾ تؤذوهن ﴿ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ مساكنهن فيخرجن، وفي هذا دليل علىٰ أن المرأة تسكن في بيت الرجل وما اعتاده أهل المهرة وغيرهم من البلدان بسكنىٰ الرجل في بيت المرأة من الأمور المخالفة للشرع والمخالفة للواقع والفطرة، فينبغي للناس أن يحاربوا هذه العادة والمرأة تزف إلىٰ بيت زوجها علىٰ ما كان وتسكن معه علىٰ أحسن حال، أما أن يسكن في بيت أبيها فهذا لم يكن في عهد النبي صلىٰ الله عليه وسلم ولا في عهد غيره، مع ما يسبب من الاختلاطات بين الأزواج والزوجات، ﴿ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ يعني: لا تضاروهن بالنفقة أو تضاروهن بالطلاق لتضيقوا عليهن، إن أحببت أن تمسكها أمسكتها وإلا فارقتها، ﴿ وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ ﴾ إذا كانت المطلقة حاملًا فأنفقوا عليها، ﴿ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ فإذا وضعن الحمل وما زالت مطلقة: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي: بالمعروف، ﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ فلو طلبت المرأة المطلقة قيمة الحليب تعطىٰ أجرة الحضانة وجميع شأنها؛ لأنها لم تعد في عصمة الزوج بحيث تتطوع له برعاية ولده وإنما هي امرأة قد صارت مطلقة فلها الحق في حق الحضانة، وفي حق الرضاع، وفيما هو من شأن الطفل، ﴿ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ ﴾ طلبت فوق ما يستطيعه الزوج، ﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴾ ييسر الله بمن يرضعه من نسائه القريبات ونحو ذلك.

قال البغوي في تفسيره (٥/ ١١١): اعْلَمْ أَنَّ الْمُعْتَدَّةَ الرَّجْعِيَّةَ تَسْتَحِقُّ عَلَىٰ الزَّوْجِ النَّفَقَةَ وَالسُّكْنَىٰ مَا دامت في العدة وتعني بِالسُّكْنَىٰ مُؤْنَةَ السُّكْنَى فَإِنْ كَانَتِ الدَّارُ الَّتِي طَلَّقَهَا فِيهَا مِلْكًا لِلزَّوْجِ يَجِبُ عَلَىٰ الزَّوْجِ أَنْ يخرج منها وَيَتْرُكَ الدَّارَ لَهَا مُدَّةَ عِدَّتِهَا، وَإِنْ كَانَتْ بِإِجَارَةٍ فَعَلَىٰ الزَّوْجِ الأجرة وإن كانت عارية ورجع الْمُعِيرُ فَعَلَيْهِ أَنْ يَكْتَرِيَ لَهَا دَارًا تَسْكُنُهَا، فَأَمَّا الْمُعْتَدَّةُ الْبَائِنَةُ بالخلع أو بالطلقات الثَّلَاثِ أَوْ بِاللِّعَانِ فَلَهَا السُّكْنَىٰ حَامِلًا كَانَتْ أَوْ حَائِلًا عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ. رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: لَا سُكْنَىٰ لَهَا إِلَّا أَنْ تَكُونَ حَامِلًا وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ وَعَطَاءٍ والشعبي.

وَاخْتَلَفُوا فِي نَفَقَتِهَا فَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَىٰ أَنَّهُ لَا نَفَقَةَ لَهَا إِلَّا أَنْ تَكُونَ حَامِلًا [رُوِيَ ذَلِكَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ وَعَطَاءٍ وَالشَّعْبِيِّ]، وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَمِنْهُمْ مَنْ أَوْجَبَهَا بِكُلِّ حَالٍ رُوِيَ ذَلِكَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَهُوَ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ وَبِهِ قَالَ الثَّوْرِيُّ وَأَصْحَابُ الرَّأْيِ وَظَاهِرُ الْقُرْآنِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهَا لَا تَسْتَحِقُّ إِلَّا أَنْ تَكُونَ حَامِلًا لِأَنَّ الله تَعَالَىٰ قَالَ: وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ السُّنَّةِ.

مَا أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ السَّرَخْسِيُّ أَنَا زَاهِرُ بْنُ أَحْمَدَ أَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الْهَاشِمِيُّ أَنَا أَبُو مُصْعَبٍ عَنْ مَالِكٍ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ يَزِيدَ مَوْلَىٰ الْأَسْوَدِ بْنِ سُفْيَانَ عَنْ أَبِي سلمة بن عبد الرحمن فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ أَنَّ أَبَا عَمْرِو بْنَ حَفْصٍ طَلَّقَهَا الْبَتَّةَ وَهُوَ غَائِبٌ بِالشَّامِ فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا وكيله بشعير فسخطته، فقالت: والله مالك عَلَيْنَا مِنْ شَيْءٍ فَجَاءَتْ رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ لَهَا: «لَيْسَ لَكِ عَلَيْهِ نَفَقَةٌ»، وَأَمَرَهَا أَنْ تَعْتَدَّ فِي بَيْتِ أُمِّ شَرِيكٍ، ثُمَّ قَالَ: «تِلْكَ امْرَأَةٌ يَغْشَاهَا أَصْحَابِي فَاعْتَدِّي عِنْدَ ابْنِ أُمِّ

مَكْتُومٍ فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَعْمَىٰ تَضَعِينَ ثِيَابَكِ فَإِذَا حَلَلْتِ فَآذِنِينِي»، قَالَتْ: فَلَمَّا حَلَلْتُ ذَكَرْتُ لَهُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ وَأَبَا جَهْمٍ خَطَبَانِي، فَقَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «أَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ، وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ لَا مَالَ لَهُ انْكِحِي أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ»، قَالَتْ فَكَرِهْتُهُ، ثم قال: «انكحي أسامة بن زيد» فَنَكَحْتُهُ فَجَعَلَ الله فِيهِ خَيْرًا وَاغْتَبَطْتُ بِهِ.

وَاحْتَجَّ مَنْ لَمْ يَجْعَلْ لَهَا السُّكْنَىٰ بِحَدِيثِ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ: أَنَّ النَّبِيَّ صلىٰ الله عليه وسلم أَمَرَهَا أَنْ تعتد في بيت عَبْدِ الله ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ وَلَا حُجَّةَ فِيهِ.

لِمَا رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَتْ فَاطِمَةُ فِي مَكَانٍ وَحْشٍ فَخِيفَ علىٰ ناحيتها.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: إِنَّمَا نُقِلَتْ فَاطِمَةُ لِطُولِ لِسَانِهَا عَلَىٰ أَحْمَائِهَا وَكَانَ لِلِسَانِهَا ذَرَابَةٌ أَمَّا الْمُعْتَدَّةُ عَنْ وَطْءِ الشُّبْهَةِ وَالْمَفْسُوخُ نِكَاحُهَا بِعَيْبٍ أَوْ خِيَارِ عِتْقٍ فَلَا سُكْنَىٰ لَهَا وَلَا نَفَقَةَ وَإِنْ كَانَتْ حَامِلًا، وَالْمُعْتَدَّةُ عَنْ وَفَاةِ الزَّوْجِ لَا نَفَقَةَ لَهَا حَامِلًا كَانَتْ أَوْ حَائِلًا عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ.

وَرُوِيَ عَنِ عَلِيٍّ رَضِيَ الله تَعَالَىٰ عَنْهُ أن لهذه النَّفَقَةَ إِنْ كَانَتْ حَامِلًا مِنَ التَّرِكَةِ حَتَّىٰ تَضَعَ، وَهُوَ قَوْلُ شُرَيْحٍ وَالشَّعْبِيِّ وَالنَّخَعِيِّ وَالثَّوْرِيِّ، وَاخْتَلَفُوا فِي سُكْنَاهَا وَلِلشَّافِعِيِّ رَضِيَ الله عَنْهُ فِيهِ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: لَا سُكْنَىٰ لَهَا بَلْ تَعْتَدُّ حَيْثُ تَشَاءُ، وَهُوَ قَوْلُ عَلِيٍّ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَعَائِشَةَ، وَبِهِ قَالَ عَطَاءٌ وَالْحَسَنُ وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ.

وَالثَّانِي: لَهَا السُّكْنَىٰ وَهُوَ قَوْلُ عُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَبْدُ الله بْنُ مَسْعُودٍ وَعَبْدُ الله بْنِ عُمَرَ، وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَأَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ، وَاحْتَجَّ مَنْ أَوْجَبَ لَهَا السُّكْنَىٰ بِمَا.

أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ السَّرَخْسِيُّ أَنَا زَاهِرُ بْنُ أَحْمَدَ أَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الْهَاشِمِيُّ أَنَا أَبُو مصعب عن مالك عن سعد بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ عَنْ عَمَّتِهِ زَيْنَبَ بِنْتِ كَعْبٍ أَنَّ الْفُرَيْعَةَ بِنْتَ مَالِكِ بْنِ سِنَانٍ وَهِيَ أُخْتُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَخْبَرَتْهَا أَنَّهَا جَاءَتْ إِلَىٰ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم تَسْأَلُهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَىٰ أَهْلِهَا فِي بَنِي خُدْرَةَ فَإِنَّ زَوْجَهَا خَرَجَ فِي طَلَبِ أَعْبُدٍ لَهُ أَبَقُوا حَتَّىٰ إِذَا كَانَ بِطَرَفِ الْقَدُومِ لِحِقَهُمْ، فَقَتَلُوهُ فَسَأَلَتُ رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم أَنْ أَرْجِعَ إِلَىٰ أَهْلِي فَإِنَّ زَوْجِي لَمْ يَتْرُكْنِ فِي مَنْزِلٍ يَمْلِكُهُ وَلَا نَفَقَةٍ، فَقَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: نَعَمْ، فَانْصَرَفْتُ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُ فِي الْحُجْرَةِ أَوْ فِي الْمَسْجِدِ دَعَانِي أَوْ أَمَرَ بِي رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم فَدُعِيتُ لَهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «كَيْفَ قُلْتِ» ؟ قَالَتْ: فَرَدَدْتُ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ الَّتِي ذَكَرْتُ مِنْ شَأْنِ زَوْجِي، فَقَالَ: «امْكُثِي فِي بَيْتِكِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ»، قَالَتْ: فَاعْتَدَدْتُ فِيهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا، قَالَتْ: فَلَمَّا كَانَ عُثْمَانُ أَرْسَلَ إِلَيَّ فَسَأَلَنِي عَنْ ذَلِكَ فَأَخْبَرْتُهُ فَاتَّبَعَهُ وَقَضَىٰ بِهِ.

فَمِنْ قَالَ بِهَذَا الْقَوْلِ قَالَ: إِذْنُهُ لِفُرَيْعَةَ أَوَّلًا بِالرُّجُوعِ إِلَىٰ أَهْلِهَا صَارَ مَنْسُوخًا بِقَوْلِهِ آخِرًا: «امْكُثِي فِي بَيْتِكِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ»، وَمَنْ لَمْ يُوجِبِ السُّكْنَىٰ قَالَ أَمَرَهَا بِالْمُكْثِ فِي بَيْتِهَا آخِرًا اسْتِحْبَابًا لَا وُجُوبًا. اهـ

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ﴾ أي: كل ينفق بقدر ما عنده، ﴿ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ ضيق رزقه، ﴿ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ الله ﴾ علىٰ قدر رزقه كما يقول المثل اليمني: علىٰ قدر فراشك مط رجليك، فكذلك في باب الإنفاق، ﴿ لا يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾، كقوله: ﴿ لا يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البقرة:٢٨٦]، فإن الإنسان لا يؤاخذ إلا بما يستطيع، كما

قال: ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾[التغابن:١٦]، ﴿ سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ وهذه الآية فيها فرج عظيم ووعد من رب كريم: أنه ما من عسر إلا ويأتي بعده اليسر، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾[الشرح:٥-٦]، وفي القول: لا يغلب عسر يسيرين فاستبشر يا مسلم بوعد الله عز وجل:

عَسىٰ الكَربُ الَّذي أَمسَيتُ فيهِ ... يَكونُ وَراءَهُ فَرَجٌ قَريبُ

ما بين غَمضةِ عَين وانتباهتها ... يغيّر الله من حالٍ إلىٰ حالِ

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ ﴾ كأين من قبيلة أو قرية أو مدينة تكبرت وتجبرت وعصت، ﴿ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا ﴾ سبحانه وتعالىٰ، ﴿ وَرُسُلِهِ ﴾ وأمر رسوله صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا ﴾ أي: يوم القيامة بالمناقشة والاستقصاء، ﴿ وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا ﴾ منكرًا فضيعًا، قيل: في الدنيا، بالجوع والعطش والقتل والزلازل ونحو ذلك، والحساب الشديد في الآخرة، وقيل: بأن هذا كله في الآخرة.

﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ جزاء ذنبها، ﴿ وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ نالها الخسارة بسبب كفرها في الدنيا والآخرة، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[فصلت:١٧]، فدمدم الله علىٰ كثير من الأمم بسبب معاصيهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٠]، وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ

جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾[الفجر: ٦ - ١٤].

﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ ﴾ أي: للكافرين، ﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ في القبر والآخرة، ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ ﴾ بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ يا أصحاب العقول السليمة والفطر المستقيمة، ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالله وبرسله، ﴿ قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ القرآن والسنة التي أوحاها إلىٰ النبي عليه الصلاة والسلام، وقيل الذكرىٰ هو هذا الرسول صلىٰ الله عليه وسلم.

﴿ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ بينات واضحات لا إشكال فيها ولا لبس، فهو يتكلم بلغتكم ومن أنفسكم، ﴿ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أصحاب الإيمان والمبادرة إلىٰ طاعة الرحمن، ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ ظلمات الكفر والبدعة والإجرام، ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ نور التوحيد والسنة، ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ ﴾ ربًا، ﴿ وَيَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ متابعًا للنبي صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ ﴾ يوم القيامة، ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ فيها الأنهار، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أي: لا مقطوعة ولا ممنوعة، ومن دخلها ينعم لا يبأس لا تبلىٰ ثيابه ولا يفنىٰ شبابه، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا»، أخرجه مسلم، ﴿ قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا ﴾ أي: في الجنة كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾[ص: ٥٤]، وفيها من كل ما لذ وطاب، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾[البقرة:٢٥].

﴿ الله الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ أي: الذي وعدك بهذا الوعد وجازاك هذا الجزاء هو الله الذي من شأنه: أنه خلق سبع سموات شديدات عظام، ﴿ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ سبع أراضين، وليس معنىٰ ذلك أنها سبع أراضين منفصلة كما يظن البعض أن كل أرض فيها سكان وفيها من المكلفين، وإنما هي أراضي طباقًا، ﴿ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ أي: بين السماء السابعة والأرض السفلىٰ، كما قال الله عز وجل: ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَىٰ الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾[السجدة:٥].

﴿ لِتَعْلَمُوا ﴾ أي: أن الله ضرب لكم هذا المثل، وأنه خلق السموات والاراضين ولا يعجزه شيء، ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا يعجزه شيء ولا يكرثه شيء لكمال علمه وقدرته: ﴿ وَمَا كَانَ الله لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾[فاطر:٤٤]، ﴿ وَأَنَّ الله قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ لا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ * وَالله يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾[غافر:١٩-٢٠].

والحمد لله رب العالمين.

سورة التحريم

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي مدنية بالإجماع.

سميت بالتحريم؛ لأن النبي صلىٰ الله عليه وسلم حرم علىٰ نفسه العسل، وقيل: حرم علىٰ نفسه جارية؛ وذلك أَنَّ النَّبِيَّ صلىٰ الله عليه وسلم كَانَ يَمْكُثُ عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ وفي رواية (عند حفصة) فَيَشْرَبُ عِنْدَهَا عَسَلًا، قَالَتْ: فَتَوَاطَأْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ أَنَّ أَيَّتَنَا مَا دَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ صلىٰ الله عليه وسلم، فَلْتَقُلْ: إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرَ، أَكَلْتَ مَغَافِيرَ؟ فَدَخَلَ عَلَىٰ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، وَلَنْ أَعُودَ لَهُ»، فَنَزَلَ: ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾[التحريم: ١]، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿ إِنْ تَتُوبَا ﴾[التحريم: ٤]، لِعَائِشَةَ وَحَفْصَةَ، ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ﴾[التحريم: ٣]، لِقَوْلِهِ: «بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا»، أخرجه مسلم عن عائشة رضي الله عنها، وقيل: حرم علىٰ نفسه جارية ألا يطؤها فأنزل الله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾.

وقد اختلف العلماء في حرام هل هو يمين أم طلاق أم لا يمين ولا طلاق، فذهب بعض أهل العلم إلىٰ أنه طلاق، وذهب بعض أهل العلم إلىٰ أنها يمين تكفر، وذهب بعضهم إلىٰ أنها ليست بشيء، والصحيح: التفصيل، أما الطلاق فلا تكون طلاقًا إلا مع النية، وإما إذا لم تقترن بذلك قال ابن عباس: ما باليت حرمت امرأتي أو قصعة من ثريد، فتقع طلقة رجعية إن كانت الأولىٰ أو الثانية، وإن كانت الثالثة لا تحل له حتىٰ تنكح زوجًا غيره، وأما من جهة اليمين من حرم علىٰ نفسه عسلًا أو نوعًا من اللباس أو الطعام والشراب فليست

بشيء؛ لأن اليمين لا بد أن تصدر باسم أو صفة من صفات الله عز وجل كقولهم: والله، وبالله، وتالله.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ هذا عتاب من الله لرسوله صلىٰ الله عليه وسلم حين حرم علىٰ نفسه شرب العسل أو سريته، تكريم الله عز وجل لنبيه محمد حيث خاطبه بالنبوة والرسالة، فقد ناداه بها في مواطن: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾[المائدة:٦٧]، يقول: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ أي: أن التحليل والتحريم ليس إليك، ولا يجوز للإنسان أن يحرم علىٰ نفسه ما أحل الله لا زوجةً ولا شرابًا ولا طعامًا، ولذلك لما ترك النبي صلىٰ الله عليه وسلم أكل الثوم قالت الصحابة: حرمت حرمت، قال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَيْسَ بِي تَحْرِيمُ مَا أَحَلَّ الله لِي، وَلَكِنَّهَا شَجَرَةٌ أَكْرَهُ رِيحَهَا» أخرجه مسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه، ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ﴾ أي: حرمت العسل علىٰ نفسك أو حرمت اتيان جاريتك ابتغاء رضا زوجاتك ﴿ وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ متجاوز عما مضىٰ وموفق لما يأتي، وهذا دليل علىٰ أن الله عز وجل قد تجاوز عن نبيه صلىٰ الله عليه وسلم.

﴿ قَدْ فَرَضَ الله لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ وهذا علىٰ معنىٰ حديث: «مَنْ حَلَفَ عَلَىٰ يَمِينٍ فَرَأَىٰ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ»، متفق عليه عن أبي موسىٰ رضي الله عنه، فيقول: ﴿ قَدْ فَرَضَ الله لَكُمْ ﴾ شرع الله لكم، ﴿ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ التحلل من اليمين بأداء كفارته: وهي عتق رقبة، أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم، فإن عجز عن ذلك صام ثلاثة أيام؛ كما قال الله عز وجل: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ الله بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾[البقرة:٢٢٥]، وقد استدل جمهور أهل العلم بهذه الآية علىٰ أن الحرام يمين، والصحيح أن هذا في

اليمين حيث قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «وَاللهِ لَا أَشْرَبُهُ»، فهي يمين؛ متضمنة للتحريم، ﴿ وَاللهُ مَوْلاكُمْ ﴾ أي: متولي أموركم فهو ولي المؤمنين، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾[الأعراف:١٩٦]، يحفظهم ويكلؤهم وينصرهم، مما فيه مصالح العباد، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بمصالحكم، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في أفعاله وشرعه.

ثم قال: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ ﴾ حفصة وعائشة رضي الله عنهما ﴿ حَدِيثًا ﴾ وهو قوله: «وَاللهِ لَا أَشْرَبُهُ»، جعله بينه وبينها، فنبأت بهذا الأمر وأفشته إلىٰ غيرها من نساء النبي صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ ﴾ خبرت به، ﴿ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ ﴾ أطلعه الله علىٰ أنها أفشت السر، ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ خاطبها وعرفها بما فعلت، وأعرض عن بعضه صفحًا وعفوًا وتجاوزًا، ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ ﴾ أخبرها بما حصل منها، ﴿ قالت مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا ﴾ من أخبرك الخبر، ﴿ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ أخبرني الله العليم بظواهر الأمور الخبير ببواطنها، فإذا جُمع العلم والخبرة في موطن فالمراد بالعلم العلم بالظواهر والخبير بالبواطن، وإن افترقا دل كل منهما علىٰ معنىٰ الآخر.

﴿ إِنْ تَتُوبَا ﴾ لعائشة وحفصة ففي الصحيحين عن ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا، قَالَ: مَكَثْتُ سَنَةً أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ عَنْ آيَةٍ، فَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسْأَلَهُ هَيْبَةً لَهُ، حَتَّىٰ خَرَجَ حَاجًّا فَخَرَجْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا رَجَعْنَا وَكُنَّا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ عَدَلَ إِلَىٰ الأَرَاكِ لِحَاجَةٍ لَهُ، قَالَ: فَوَقَفْتُ لَهُ حَتَّىٰ فَرَغَ ثُمَّ سِرْتُ مَعَهُ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ مَنِ اللَّتَانِ تَظَاهَرَتَا عَلَىٰ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم مِنْ أَزْوَاجِهِ؟ فَقَالَ: تِلْكَ حَفْصَةُ وَعَائِشَةُ، قَالَ: فَقُلْتُ: وَاللهِ إِنْ

كُنْتُ لَأُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ هَذَا مُنْذُ سَنَةٍ، فَمَا أَسْتَطِيعُ هَيْبَةً لَكَ، قَالَ: فَلاَ تَفْعَلْ مَا ظَنَنْتَ أَنَّ عِنْدِي مِنْ عِلْمٍ فَاسْأَلْنِي، فَإِنْ كَانَ لِي عِلْمٌ خَبَّرْتُكَ بِهِ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: وَاللهِ إِنْ كُنَّا فِي الجَاهِلِيَّةِ مَا نَعُدُّ لِلنِّسَاءِ أَمْرًا، حَتَّىٰ أَنْزَلَ اللهُ فِيهِنَّ مَا أَنْزَلَ، وَقَسَمَ لَهُنَّ مَا قَسَمَ، قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا فِي أَمْرٍ أَتَأَمَّرُهُ، إِذْ قَالَتِ امْرَأَتِي: لَوْ صَنَعْتَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: فَقُلْتُ لَهَا: مَا لَكِ، وَلِمَا هَا هُنَا وَفِيمَ تَكَلُّفُكِ فِي أَمْرٍ أُرِيدُهُ، فَقَالَتْ لِي: عَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ، مَا تُرِيدُ أَنْ تُرَاجَعَ أَنْتَ وَإِنَّ ابْنَتَكَ لَتُرَاجِعُ رَسُولَ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم حَتَّىٰ يَظَلَّ يَوْمَهُ غَضْبَانَ، فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ مَكَانَهُ حَتَّىٰ دَخَلَ عَلَىٰ حَفْصَةَ، فَقَالَ لَهَا: يَا بُنَيَّةُ إِنَّكِ لَتُرَاجِعِينَ رَسُولَ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم حَتَّىٰ يَظَلَّ يَوْمَهُ غَضْبَانَ، فَقَالَتْ حَفْصَةُ: وَاللهِ إِنَّا لَنُرَاجِعُهُ، فَقُلْتُ: تَعْلَمِينَ أَنِّي أُحَذِّرُكِ عُقُوبَةَ اللهِ، وَغَضَبَ رَسُولِهِ صلىٰ الله عليه وسلم، يَا بُنَيَّةُ لاَ يَغُرَّنَّكِ هَذِهِ الَّتِي أَعْجَبَهَا حُسْنُهَا حُبُّ رَسُولِ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم إِيَّاهَا - يُرِيدُ عَائِشَةَ - قَالَ: ثُمَّ خَرَجْتُ حَتَّىٰ دَخَلْتُ عَلَىٰ أُمِّ سَلَمَةَ لِقَرَابَتِي مِنْهَا، فَكَلَّمْتُهَا فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: عَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ، دَخَلْتَ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ تَبْتَغِيَ أَنْ تَدْخُلَ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم وَأَزْوَاجِهِ، فَأَخَذَتْنِي وَاللهِ أَخْذًا كَسَرَتْنِي عَنْ بَعْضِ مَا كُنْتُ أَجِدُ، فَخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهَا، وَكَانَ لِي صَاحِبٌ مِنَ الأَنْصَارِ إِذَا غِبْتُ أَتَانِي بِالخَبَرِ، وَإِذَا غَابَ كُنْتُ أَنَا آتِيهِ بِالخَبَرِ، وَنَحْنُ نَتَخَوَّفُ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ غَسَّانَ، ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسِيرَ إِلَيْنَا، فَقَدِ امْتَلَأَتْ صُدُورُنَا مِنْهُ، فَإِذَا صَاحِبِي الأَنْصَارِيُّ يَدُقُّ البَابَ، فَقَالَ: افْتَحِ افْتَحْ فَقُلْتُ: جَاءَ الغَسَّانِيُّ، فَقَالَ: بَلْ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ، اعْتَزَلَ رَسُولُ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم أَزْوَاجَهُ، فَقُلْتُ: رَغَمَ أَنْفُ حَفْصَةَ وَعَائِشَةَ، فَأَخَذْتُ ثَوْبِي فَأَخْرُجُ حَتَّىٰ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم فِي مَشْرُبَةٍ لَهُ يَرْقَىٰ

عَلَيْهَا بِعَجَلَةٍ، وَغُلاَمٌ لِرَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم أَسْوَدُ عَلَىٰ رَأْسِ الدَّرَجَةِ، فَقُلْتُ لَهُ: قُلْ: هَذَا عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ فَأَذِنَ لِي، قَالَ عُمَرُ: فَقَصَصْتُ عَلَىٰ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم هَذَا الحَدِيثَ، فَلَمَّا بَلَغْتُ حَدِيثَ أُمِّ سَلَمَةَ تَبَسَّمَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم، وَإِنَّهُ لَعَلَىٰ حَصِيرٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ، وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ، وَإِنَّ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَرَظًا مَصْبُوبًا، وَعِنْدَ رَأْسِهِ أَهَبٌ مُعَلَّقَةٌ، فَرَأَيْتُ أَثَرَ الحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: «مَا يُبْكِيكَ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ كِسْرَىٰ وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ الله، فَقَالَ: «أَمَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ».

والتوبة: الرجوع إلىٰ الله مما بدر منهما، ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ به استدل علىٰ أن أقل الجمع اثنان؛ لأنهما اثنتان ولهما قلبان ومع ذلك قال: ﴿ قُلُوبُكُمَا ﴾ أي: لأمر الله وحكمه، وقيل قد مالت عما ينبغي مع رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾ إن أبيتن إلا المظاهرة وهي التعاون علىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم وقد وقع منهن رضوان الله عليهن المظاهرة عليه حتىٰ هجرهن شهرًا كما تقدم، وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا: أَنَّ نِسَاءَ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم كُنَّ حِزْبَيْنِ، فَحِزْبٌ فِيهِ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ وَصَفِيَّةُ وَسَوْدَةُ، وَالحِزْبُ الآخَرُ أُمُّ سَلَمَةَ وَسَائِرُ نِسَاءِ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم، وَكَانَ المُسْلِمُونَ قَدْ عَلِمُوا حُبَّ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم عَائِشَةَ، فَإِذَا كَانَتْ عِنْدَ أَحَدِهِمْ هَدِيَّةٌ يُرِيدُ أَنْ يُهْدِيَهَا إِلَىٰ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم، أَخَّرَهَا حَتَّىٰ إِذَا كَانَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم فِي بَيْتِ عَائِشَةَ، بَعَثَ صَاحِبُ الهَدِيَّةِ بِهَا إِلَىٰ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم فِي بَيْتِ عَائِشَةَ، فَكَلَّمَ حِزْبُ أُمِّ سَلَمَةَ فَقُلْنَ لَهَا: كَلِّمِي رَسُولَ الله

صلىٰ الله عليه وسلم يُكَلِّمُ النَّاسَ، فَيَقُولُ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يُهْدِيَ إِلَىٰ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم هَدِيَّةً، فَلْيُهْدِهِ إِلَيْهِ حَيْثُ كَانَ مِنْ بُيُوتِ نِسَائِهِ، فَكَلَّمَتْهُ أُمُّ سَلَمَةَ بِمَا قُلْنَ، فَلَمْ يَقُلْ لَهَا شَيْئًا، فَسَأَلْنَهَا، فَقَالَتْ: مَا قَالَ لِي شَيْئًا، فَقُلْنَ لَهَا، فَكَلِّمِيهِ قَالَتْ: فَكَلَّمَتْهُ حِينَ دَارَ إِلَيْهَا أيضًا، فَلَمْ يَقُلْ لَهَا شَيْئًا، فَسَأَلْنَهَا، فَقَالَتْ: مَا قَالَ لِي شَيْئًا، فَقُلْنَ لَهَا: كَلِّمِيهِ حَتَّىٰ يُكَلِّمَكِ، فَدَارَ إِلَيْهَا فَكَلَّمَتْهُ، فَقَالَ لَهَا: «لاَ تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ فَإِنَّ الوَحْيَ لَمْ يَأْتِنِي وَأَنَا فِي ثَوْبِ امْرَأَةٍ، إِلَّا عَائِشَةَ»، قَالَتْ: فَقَالَتْ: أَتُوبُ إِلَىٰ الله مِنْ أَذَاكَ يَا رَسُولَ الله، ثُمَّ إِنَّهُنَّ دَعَوْنَ فَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم، فَأَرْسَلَتْ إِلَىٰ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم تَقُولُ: إِنَّ نِسَاءَكَ يَنْشُدْنَكَ الله العَدْلَ فِي بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ، فَكَلَّمَتْهُ فَقَالَ: «يَا بُنَيَّةُ أَلاَ تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ؟»، قَالَتْ: بَلَىٰ، فَرَجَعَتْ إِلَيْهِنَّ، فَأَخْبَرَتْهُنَّ، فَقُلْنَ: ارْجِعِي إِلَيْهِ، فَأَبَتْ أَنْ تَرْجِعَ، فَأَرْسَلْنَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ، فَأَتَتْهُ، فَأَغْلَظَتْ، وَقَالَتْ: إِنَّ نِسَاءَكَ يَنْشُدْنَكَ الله العَدْلَ فِي بِنْتِ ابْنِ أَبِي قُحَافَةَ، فَرَفَعَتْ صَوْتَهَا حَتَّىٰ تَنَاوَلَتْ عَائِشَةَ وَهِيَ قَاعِدَةٌ فَسَبَّتْهَا، حَتَّىٰ إِنَّ رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم لَيَنْظُرُ إِلَىٰ عَائِشَةَ، هَلْ تَكَلَّمُ، قَالَ: فَتَكَلَّمَتْ عَائِشَةُ تَرُدُّ عَلَىٰ زَيْنَبَ حَتَّىٰ أَسْكَتَتْهَا، قَالَتْ: فَنَظَرَ النَّبِيُّ صلىٰ الله عليه وسلم إِلَىٰ عَائِشَةَ، وَقَالَ: «إِنَّهَا بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ»، متفق عليه.

﴿ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ ﴾ ناصره ومعينه وحافظه ومؤيده، ﴿ وَجِبْرِيلُ ﴾ مولاه، ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أبو بكر وعمر، ﴿ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ كلهم أعوان لمحمد صلىٰ الله عليه وسلم.

﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ ﴾ هذا قول عمر لأنه قال له: يا رسول الله إن طلقتهن أبدلك الله أزواجًا خيرًا منهن، فأنزل الله: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ ﴾ وعسىٰ في حق الله موجبة، لكن هذا الأمر لم يقع؛ لأنهن التزمن بما خيرهن به النبي صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ إِنْ طَلَّقَكُنَّ ﴾ جميعًا، ﴿ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ ﴾ كما قال الله عزو جل: ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾[محمد:٣٨]، ﴿ مُسْلِمَاتٍ ﴾ مستسلمات لله طائعات منقادات، ﴿ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ مصدقات وموحدات، ﴿ قَانِتَاتٍ ﴾ كثيرات القيام بأمر الله عز وجل ومداومات علىٰ ذلك، من دعاء وصلاة وغير ذلك ولما طلق النبي صلىٰ الله عليه وسلم حفصة جاءه جبريل يأمره أن يراجعها فإنها صوامة قوامة، فكنَّ علىٰ خير في باب الطاعة والعبادة، وما اصطفاهن الله عز وجل لمحمد صلىٰ الله عليه وسلم إلا لعظيم شأنهن ولجميل فعلهن، ﴿ تَائِبَاتٍ ﴾ مما حصل منهن من اللمم أو نحو ذلك، ﴿ عَابِدَاتٍ ﴾ كثيرات العبادة، ﴿ سَائِحَاتٍ ﴾ قيل: صائمات وقيل مهاجرات، ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ يزوجك ثيبات وأبكارًا، وأما في الواقع لم يتزوج النبي صلىٰ الله عليه وسلم بكرًا غير عائشة.

ثم قال الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ خطاب للمؤمنين المتقين المنيبين،﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ أي: اسعوا في سلامة أنفسكم، ﴿ وَأَهْلِيكُمْ ﴾ أزواجكم وأبنائكم مروهم بالخير، وحذروهم من الشر، ﴿ نَارًا ﴾ تكون يوم القيامة للمخالفين لشرع الله، ومن حالها: ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ ﴾ لعذابهم ﴿ وَالْحِجَارَةُ ﴾، ﴿ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ ﴾ يحرسونها، ﴿ غِلاظٌ ﴾ في صفاتهم، حيث وفيهم فضاضة علىٰ أهل النار، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ﴾[الزخرف: ٧٧]، ﴿ شِدَادٌ ﴾ في قوتهم لا يفوتهم

فائت ولا يرحمهم مُسْتَرْحِم، ﴿ لا يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ ﴾ لطاعتهم لله عز وجل، كما قال تعالىٰ: ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾[الأنبياء: ٢٧]، ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ فتجد أنهم يحشون النار ويقيدون فيها الكفار ويسقونهم الحميم إلىٰ غير ذلك مما وكلوا به.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لم يأتِ في القرآن نداء الكافرين غير هذا الموطن، ﴿ لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ ﴾ فقد أمهلتم في الدنيا وأُخرتم واختبرتم فأبيتم إلا الكفر، فيوم القيامة ليس بموطن عتاب وليس بموطن اعتذار: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ﴾[المؤمنون:١٠٧-١٠٨]، ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ ﴾ يوم القيامة، ﴿ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فعذابكم بسبب ذنوبكم، وكما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾[فصلت:٤٦].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَىٰ الله تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ هذا نداء من الله عز وجل للمؤمنين بالتوبة إليه والتوبة واجبة من كل ذنب، فيجب علىٰ الإنسان أن يتوب من ذنوبه في ليله ونهاره، فعن أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «إِنَّ الله يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ ، حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» أخرجه مسلم، والتوبة: هي الرجوع، ﴿ نَصُوحًا ﴾ أي: مستوفاة الشروط بحيث يندم علىٰ الفعل ويترك الذنب ويعزم أن لا يعود ويتحلل من المظالم، وقيل: النصوح هي التي لا يرجع فيها إلىٰ الذنب وهذا القول غير صحيح؛ لأن النبي صلىٰ الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا - وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذَنْبًا - فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ -

وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ - فَاغفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ الله ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا، أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ - أَوْ أَصَبْتُ - آخَرَ، فَاغْفِرْهُ؟ فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ الله، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذَنْبًا، قَالَ: قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ - أَوْ قَالَ أَذْنَبْتُ - آخَرَ، فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلاَثًا، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»، أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، وليس في الحديث إباحة المعصية ولكن لبيان فضل التوبة.

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ ﴾ إن تبتم توبةً نصوحًا، ﴿ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ أن يذهب عنكم سيئاتكم بمغفرتها والتجاوز عنها، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾[هود:١١٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا ﴾[البقرة:١٦٠]، وقال عز وجل: ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا ﴾[الفرقان:٧٠].

﴿ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ أي: جزاء توبتكم وتحللكم من معاصيكم وذنوبكم، ﴿ يَوْمَ لا يُخْزِي الله النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ وهذا يوم القيامة حين يخزي الله الكفار علىٰ رؤوس الأشهاد: ﴿ أَلا لَعْنَةُ الله عَلَىٰ الظَّالِمِينَ ﴾[هود:١٨]، ويُكرم محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم ومن إليه علىٰ رؤوس الأشهاد وتظهر فضائلهم ويشربون من الحوض المورود ويكون هو وأمته أول من يجيزون علىٰ الصراط وأول من يدخلون الجنة.

﴿ نُورُهُمْ ﴾ أي: علىٰ الصراط، ﴿ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ لما كانوا في الدنيا علىٰ نور أكرمهم الله في الآخرة بنور، وأما أهل النفاق فكانوا يُظهرون الإسلام ويبطنون الكفر فأعطاهم الله نورًا فلما علوا علىٰ الصراط انطفأ النور الذي معهم فقالوا للذين أمنوا: ﴿ انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ ﴾[الحديد:١٣-١٤]، الآية، فالمؤمن نوره تام لما كان علىٰ نور تام: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[هود:١٧].

﴿ يَقُولُونَ ﴾ من هجيرهم في ذلك اليوم حين يرون من يتساقط في النار ومن ينطفئ نوره، ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ حتىٰ ندخل إلىٰ الجنة، ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا ﴾ تجاوز عن ذنوبنا ومعاصينا، ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا يعجزك شيء في السموات ولا في الأرض، وهذه الآية تدل علىٰ عظيم فضل التوبة التي قد يسوفها الكثير من الناس، قال الله عز وجل: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾[طه:٨٢]، وفيها: إشارة إلىٰ إثبات الصراط؛ لأن هذا النور يكون علىٰ الصراط يوم القيامة.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ نداء للنبي صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ جَاهِدِ الْكُفَّارَ ﴾ بلسانك وسيفك ومالك، ﴿ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ وقد جاهدهم بلسانه لا بسيفه، ﴿ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ في الكلام والإنكار؛ لأنهم لا يستحقون الرفق لشدة عداوتهم وكثرة خلافهم للمسلمين، ﴿ وَمَأْوَاهُمْ

﴿ جَهَنَّمُ ﴾ في الآخرة، ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ مصيرهم، وأما قول الله عز وجل: ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الأحزاب: ٦٠]، فهذا الإغراء لم يقع.

ثم قال: ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾[العنكبوت:٤٣]، ﴿ اِمْرَأَةَ نُوحٍ ﴾ لو كان النسب أو القرب ينفع لنفع ابن نوح وامرأة نوح لكن لا ينفع، ﴿ وَامْرَأَةَ لُوطٍ ﴾ ذكر الله عز وجل نبيين كريمين وذكر امرأتيهما وكانتا لئيمتين تمالأتا مع أقوامهن علىٰ الكفر، ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ ﴾ رسل وأنبياء وفي غاية من العبادة والصلاح والعلم، ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ الخيانة في الدين وليست خيانة الزنا، قال ابن عباس: ما زنت امرأة نبي قط، وفي هذا رد علىٰ الرافضة الذين يتهمون عائشة بما برأها الله منه، فالله يصون نبيه وجنابه أن تكون تحته امرأة عاهر تكون مع غيره ثم تعود إليه، هذا أمر لو وقع لعوام الناس لرأوه نقيصة فكيف يظن بالأنبياء عليهم الصلوات والسلام؛ ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا ﴾ لم يغنِ نوح عن زوجه ولا لوط عن زوجه، ﴿ مِنَ الله شَيْئًا ﴾ لأن الكافر كما قال الله: ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾[المدثر:٤٨]، وقال: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾[غافر:١٨]، ﴿ وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ من الكفار والمنافقين.

﴿ وَضَرَبَ الله مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ حتىٰ يقع منهم الاستبشار والثبات، ﴿ اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ ﴾ وهي آسيا بنت مزاحم كانت علىٰ الإيمان وتحت أشد الناس كفرًا إذ ادعىٰ الربوبية، حيث قال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾[النازعات:٢٤]، ﴿ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ دعت

الله أن يخلصها من فرعون وأن يبني لها بيتًا في الجنة، وقولها عندك تشعر بالعلو؛ لأن العندية من أدلة العلو وأن الله علىٰ عرشه بائن من خلقه، ﴿ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ من كفره وبغيه، ﴿ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ويذكرون في معنىٰ قول الله عز وجل: ﴿ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ ﴾[ص:١٢]، أنه غرس أربعة أوتاد فربط كل طرف من أطراف زوجته في تلك الأوتاد الأربعة ثم جاء بصخرة عظيمة فألقاها عليها فماتت وهي تضحك، هكذا يذكرون والشاهد: أنها دعت الله عز وجل أن يكرمها بكرامة الصالحين ومع ذلك لم يضرها أنها كانت زوجة لفرعون، ففرعون كافر وعمله له وهي علىٰ الإيمان وهي من كُمل المؤمنات قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: « كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَىٰ النِّسَاءِ، كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَىٰ سَائِرِ الطَّعَامِ» أخرجه أحمد، وما جاء: (وفاطمة بنت محمد وخديجة بنت خويلد)، قد تكلم العلماء في هذه اللفظة علىٰ أنها من رواية قتادة وفيها كلام.

﴿ وَمَرْيَمَ ﴾ وأيضًا ضرب الله للذين أمنوا مثل بمريم ابنة عمران الصالحة القانتة التي تُكلم في عرضها واتهمت بالزنا وهي بريئة منه وما ضرها ذلك؛ لأن الله رفعها: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ

قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا * فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا * فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾[مريم:١٦-٣٢]، ومع ذلك أبوا إلا اتهامها بما برآها الله منه.

﴿ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ عن الرجال وحافظت علىٰ نفسها وعفتها، ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ أرسل الله عز وجل إليها جبريل عليه السلام فنفخ من روحه أي: من الأرواح التي عنده فكان هذا الغلام، ولما جاءها جبريل قالت: ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾[مريم:٢٠]؛ لأن الغلام يأتي إما بالزوج وإما بالزنا، فقال لها: ﴿ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾[مريم:٢١]، كما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[يس:٨٢]، وعيسىٰ مخلوق وليس برب ولا خالق كما تزعم النصارىٰ عليهم لعائن الله تترًا، فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَىٰ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْ عَمَلٍ»، متفق عليه .

﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا ﴾ التي جاءها الوحي بها في هذا الأمر بعينه وهي ليست بنبية علىٰ الصحيح وإن ذهب ابن حزم والقرطبي وإنما هي صديقة فليس من النساء نبي، قال الله عز وجل: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾[المائدة: ٧٥]، فلو كانت نبيه لذكرت به، إذ أن هذا موطن مدح وثناء، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾[يوسف: ١٠٩]، ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا ﴾ الشرعية، ﴿ وَكُتُبِهِ ﴾ المنزلة علىٰ أنبيائه ورسله، ﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ من العابدين الطائعين لرب العالمين والملازمين لذلك، والحمد لله رب العالمين.(١)

---

(١) انتهينا في الثاني والعشرين من رمضان لعام ١٤٤١هـ من تفسير جزء المجادلة.

سورة المُلك

بسم الله الرحمن الرحيم

مكية.

من أهم المهمات معرفة معاني كلام الله عز وجل، فإن الله سبحانه وتعالىٰ تكلم بهذا القرآن وأوحاه إلىٰ محمد عليه الصلاة والسلام ليعلم معناه ويعمل به، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾[القمر:١٧]، ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾[الأعراف:٣]، ومعلوم أن الإنسان لا يمكنه الاتباع إلا إذا علم المعاني.

وأشرف ما بُذِلت الأوقات لفهمه وعلمه والعمل به لهو كتاب الله عز وجل الذي: ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[فصلت:٤٢]، ولما كان شأن السور القصيرة أن يقرأها الكبار والصغار، وتُقرأ في الصلوات، ولها من الفضائل الكثيرات، رأينا أن نمر علىٰ ما يسره الله عز وجل منها.

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ هذه آية افتتح الله بها سور القرآن إلا سورة التوبة، وعدد البسملة في القرآن الكريم مائة وأربعة عشر بعدد السور، والرابعة عشر بعد المائة في سورة النمل في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾[النمل:٣٠].

﴿ بِسْمِ اللهِ ﴾ الباء للاستعانة، وإذا أعانك الله عز وجل سهل لك العسير

وقرب لك البعيد.

قال: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، ﴿ تَبَارَكَ ﴾ وصف لله عز وجل معناه: تعالىٰ وتعاظم عن صفات المخلوقين، تعالىٰ عن النقائص والمعايب فهو الكامل عز وجل في ذاته وصفاته وأسمائه، كما قال تعالىٰ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[الشورىٰ:١١]، وقد افتتح الله هذه السورة وسورة الفرقان بهذا المعنىٰ العظيم: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾[الفرقان:١]، وقال: ﴿ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾[المؤمنون:١٤]، أي: أنه عز وجل متعاظم ومتعالي عن صفات المحدثين والمخلوقين، لكماله المقدس من كل وجه في صفاته وأسمائه وذاته وأفعاله.

﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ أي: هو الذي بيده الملك المطلق فالملك ملكه، السموات والاراضين وما فيها وما بينهما: ﴿ قُلِ اللهمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ﴾[آل عمران:٢٦]، ولتمام ملكه فهو تعالىٰ: ﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾[هود:١٠٧].

﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وكل من ألفاظ العموم، فلا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض لكمال علمه وكمال قدرته سبحانه وتعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ الله لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾[فاطر:٤٤].

﴿ الَّذِي ﴾ أي: الله، ﴿ خَلَقَ الْمَوْتَ ﴾ خلق الموت مع أن الموت عدم إلا

أن الله عز وجل أوجد الإنسان منه بعد أن لم يكن فصار شيئًا مذكورًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ ﴾[الإنسان:١-٢]، ﴿ وَالْحَيَاةَ ﴾ ما أنتم فيها من المآكل والمشارب وغير ذلك، ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ يختبركم، ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ وحسن العمل يكون بأمرين: بالإخلاص لله عز وجل، والمتابعة للنبي صلىٰ الله عليه وسلم، ولهذا قال فضيل بن عياض: أخلصه وأصوبه، أي: أن أحسن العمل ما كان خالصًا لله وكان صوابًا علىٰ سنة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، وهذه هي الحكمة من خلقنا للاختبار والابتلاء، كما قال تعالىٰ: ﴿ الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾[العنكبوت:١-٢]، وكما قال عز وجل في سورة الإنسان: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾[الإنسان:٢].

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يعجزه شيء، ﴿ الْغَفُورُ ﴾ الذي يتجاوز عن أوليائه وأصفيائه، وجمع بين العزة والمغفرة لبيان عجيب تصرفه، فالعزيز هو العظيم: الذي لا يغلب، ومع ذلك غفور رحيم متجاوز عن أوليائه.

ثم قال: ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ هو أيضًا الذي خلق سبع سموات كل سماء فوق الثانية، وهل هي متصلة ببعضها أو متفارقة؟ الصحيح: أنها متفارقة كما جاء في الأثر عن عبد الله بن مسعود أنه قال : « " مَا بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَبَيْنَ السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا مَسِيرَةُ خَمْسِمَائةِ عَامٍ، وَمَا بَيْنَ كُلِّ

سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمَائَةِ عَامٍ، وَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ خَمْسُمَائَةِ عَامٍ، وَمَا بَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ مَسِيرَةُ خَمْسِمَائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ عَلَىٰ الْمَاءِ، وَاللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَىٰ الْعَرْشِ، يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ" أخرجه الطبراني: ﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾ أي: إذا نظرت إلىٰ السماء لا تجد فيها ما يدل علىٰ نقصان بنائها، أو ما يدل علىٰ عدم إتقانها، ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ ﴾ مرةً بعد أخرىٰ، ﴿ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ﴾ هل ترىٰ من نقص في السموات وفي تكوينها؟ وفي كواكبها ونجومها وغير ذلك؟ أبدًا.

﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ أعد النظرة بعد النظرة، ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ ﴾ يعود إليك بصرك، ﴿ خَاسِئًا ﴾ ذليلًا صاغرًا ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ عليل، والمعنىٰ: أنك لو كررت النظر لترىٰ خللًا لن يكون ذلك.

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ وهي الكواكب التي وضعت فيها من السيارات والثوابت، ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ أي: وبعضها ترمىٰ بها الشياطين الشهب، وقيل: من هذه الكواكب تخرج هذه الشهب التي يرمي الله عز وجل بها الشياطين التي تسترق السمع من السماء، وقد سلطت عليهم الشهب قبل بعثة النبي صلىٰ الله عليه وسلم علىٰ ما يأتي في تفسير سورة الجن إن شاء الله، قال قتادة: خلقت النجوم لثلاثة: الأمرين الذي ذكرهما الله في هذا الموطن زينة للسماء، ورجوم للشياطين، وعلامات يهتدىٰ بها، ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ ﴾ أي: للشياطين: ﴿ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ بسبب كفرهم وعنادهم فأخزاهم

الله في الدنيا وعذبهم في الآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾[الصافات: ٦ - ١٠].

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ كما أن للشياطين عذاب السعير كذلك للذين كفروا وأعرضوا عن دين الله عز وجل، ﴿ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ نار جهنم وهو عذاب موجع، ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ بئس المصير مصيرهم كما أن نعم المصير مصير المؤمنين إذ ينعمون في جنة النعيم.

وقال في وصف أحوالهم: ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا ﴾ إذا أُلقوا في النار، وسبحان الله أهل الجنة يمشون إليها مشيًا وتفتح أبوابها، وأهل النار يساقون إليها سوقًا ويلقون فيها إلقاءً، ﴿ سَمِعُوا لَهَا ﴾ أي: النار، ﴿ شَهِيقًا ﴾ صوتًا عظيمًا كما بدأ صوت نهيق الحمير، ﴿ وَهِيَ تَفُورُ ﴾ من شدة غليانها.

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ ﴾ تنقطع ﴿ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ لشدة غيضها علىٰ الكفار وحنقها عليهم تتميز وينفصل بعضها عن بعض، ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ من الكفار، ﴿ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ ملائكة الله الذين وكلوا بإعدادها والقيام علىٰ من فيها، ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ وهذا سؤال للتكبيت وسؤال إنكار عليهم، ألم يرسل الله عز وجل إليكم رسلًا وينزل كتبًا يدعوكم إلىٰ عبادته، وطاعته، وامتثال أمره، وهذا دليل علىٰ أن الله عز وجل لا يعذب أحدًا حتىٰ يبعث إليه رسولًا، كما

قال: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[الإسراء:١٥]، وفي سورة الزمر: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[الزمر:٧١]، والنذارة تكون بالتخويف، والبشارة تكون بالترغيب.

﴿ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ أي: نعم، ﴿ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا ﴾ أي: رددنا دعوته وأعرضنا عن كلامه، ﴿ وَقُلْنَا ﴾ للرسل ﴿ مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ وهذا لكبرهم وعنادهم وإلا فإن الرسول صلىٰ الله عليه وسلم صاحب الصدق والأمانة وكانوا يلقبونه بهذا قبل مبعثه، ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ ﴾ يقولون للمؤمنين: أنتم في ضلال كبير ونعوذ بالله من الخذلان، من الذي في ضلال كبير؟ الذي يعبد الأصنام والشجر والحجر؟ أم الذي يعبد الله عز وجل الذي لا يعجزه شيء؟

﴿ وَقَالُوا ﴾ أي: الكفار ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ قالوا: لو كنا نسمع الحق ونعقل ما ينفعنا، إذ أنهم كانوا يسمعون الأصوات لكن لم تنفعهم، لما علم من حالهم: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[الأعراف: ١٧٩] ﴿ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ ما كنا مع أصحاب الجحيم نعذب.

﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ ﴾ لكن في وقت لا ينفع الاعتراف؛ لأن الدنيا دار عمل

ولا حساب، والآخرة دار حساب ولا عمل، فعند ذلك كل يعترف: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[المؤمنون:١٠٠]، ﴿ فَسُحْقًا ﴾ بعدًا، ﴿ لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾.

ولما ذكر الكافرين وما هم فيه من الخزي ذكر المؤمنين وما هم عليه من حسن الحال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ﴾ أي: يخافون الله مع تعظيمه، ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ يراقبونه في ليلهم ونهارهم وسرهم وجهارهم، ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ تكفر ذنوبهم وستر عيوبهم، ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ يلقونه في الدنيا والآخرة، ويدل علىٰ هذا المعنىٰ ما في الصحيحين: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ:... وذكر منهم: وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ».

﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ ﴾ أيها الناس أسروا قولكم فلا يسمع، ﴿ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ﴾ حتىٰ يسمع ﴿ إِنَّهُ ﴾ فإن الله عز وجل: ﴿ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ كما قال: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾[غافر:١٩]، ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾[الطارق:٩]، فهذا نذارة من الله:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلا تَقُلْ ... خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ
وَلَا تَحْسَبَنَّ الله يَغْفُلُ سَاعَةً ... وَلَا أَنَّ مَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ يَغِيبُ

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ أي: كيف لا يعلمكم يا معاشر الإنس والجن ما في صدوركم وهو الذي خلقكم وركب فيكم أسماعكم وأبصاركم وقلوبكم

وعقولكم وجميع شأنكم، ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ ﴾ العليم بما لطف ودق وخفي، ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ العليم بالظواهر والبواطن.

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ﴾ أي: من صفاته عز وجل أنه خلق لكم الأرض: ﴿ ذَلُولًا ﴾ مذللة وهادها تمشون فيها وتتكسبون منها، ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ امشوا في جبالها وسهولها، ﴿ وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ مما خلقه الله لكم، ﴿ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ في آخر حياتكم حيث تبعثون من قبوركم فيسألكم عن أعمالكم، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾[البقرة:٢٨١].

ثم قال عز وجل: ﴿ أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾ هل أمنتم من بطش الله الذي هو تعالىٰ ذكره في السماء سبحانه وتعالىٰ، أي: علىٰ السماء استوىٰ علىٰ عرشه: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾[طه:٥]، وهذا من أدلة أهل السنة والجماعة علىٰ أن الله عز وجل في العلو مستوٍ علىٰ عرشه بائن من خلقه، ﴿ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ ﴾ أن يزلزل بكم هذه الأرض التي تمشون عليها، ﴿ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ فإذا هي تتحرك بأهلها، وقيل تهوىٰ بهم.

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾ كررها للتخويف والوعيد، هل أمنتم من في السماء وهو الله، ﴿ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ ريحًا ومطرًا، ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ يعني: عند أن يهلككم عند ذلك تستيقنون ما لحق بكم، وفعلًا أن الإنسان يعرف ضعيف نفسه ففي هذه الأيام لحق البشرية من فيروس

كورونا كيف أصبح الناس؟ أصبح الناس في وضع كما يقال: لا يحسدون عليه، في ضيق مال، وضيق عيش، وضيق أمنٍ: ﴿ فَأَتَاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾[الحشر:٢].

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي: من قبل كفار العرب من اليهود والنصارىٰ وغيرهم، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ كيف أنكر الله فعلهم إذ عذبهم وسلط عليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[العنكبوت:٤٠].

ثم قال الله عز وجل مبينًا الآية العظيمة التي يراها كل واحد منا: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ الطَّيْرِ ﴾ ألم تتفكر يا عبد الله في الطير، ﴿ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ ﴾ أي: تخرج جماعات، ﴿ وَيَقْبِضْنَ ﴾ تقبض جناحها وما تسقط، انظر في شأنك لو أنك في سطح متقبض بحبل ثم أفلت الحبل تسقط، وهذا الطير يطير في السماء ويقبض جناحه ولا يسقط ويرسل جناحه ولا يسقط، ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ ﴾ أي: الله الذي يمسكهن، ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ كل شيء مطلع ببصره الذي لا يخفىٰ عليه شيء.

﴿ أَمَّنْ هَذَا ﴾ استفهام إنكار ﴿ الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ ﴾ منعة لكم ﴿ يَنصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ﴾ أخبروني من هم الجند الذين ينصرونكم من دون الرحمن حين إعراضكم وكفركم؟ لا راد لحكمه ولا غالب له، ﴿ إِنِ

﴿ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ في غرور من الشيطان وغرتهم الدنيا وفيها من الأماني.

﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ ﴾ أي: من الذي يرزقكم المطر، ﴿ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ﴾ إن منع الله عز وجل رزقه عنكم، ﴿ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ وقعوا في كبر وبعد وإلا فإن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، ولو منعك الله لقمة لو اجتمع عليك أطباء الدنيا علىٰ أن تأكلها لعجزت عنها، ولو كانت لك لقمة لو اجتمع أعداء الدنيا علىٰ أن يحولوا بينك وبينها ما استطاعوا، وفي حديث جابر رضي الله عنه: «لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّىٰ تَسْتَوْفِي رِزْقَهَا ، فَاتَّقُوا الله وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ»، أخرجه ابن ماجه.

﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ ﴾ أي: في الدنيا بالبدع والخرافات والكفريات، وفي الآخرة يمشي علىٰ وجهه حقيقةً كما في حديث أنس: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِرَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم: كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ: «إِنَّ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَىٰ رِجْلَيْهِ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ»، أخرجه مسلم، ﴿ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ يمشي علىٰ الكتاب والسنة وفي الآخرة يمشي علىٰ الصراط حتىٰ يدخل الجنة.

ثم أخبر الله عن عظيم شأنه: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ ﴾ خلقكم وأوجدكم، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ ﴾ أي: أوجد لكم السمع تسمعون به، ﴿ وَالأَبْصَارَ ﴾ تبصرون به بها، ﴿ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ تتفكرون بها، ﴿ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ لكن

الواقع أن قليلًا من عباد الله من يشكر هذه النعمة ويستعملها في طاعته، وكان الواجب عليهم أن يشكروا الله عليها ويذكروه بها.

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ هو الذي أوجدكم في الأرض وجعلكم مستخلفين فيها، ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ بعد موتكم ونشوركم.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ ﴾ حين أخبرهم بالحشر قال الكفار: متىٰ هذا الوعد؟ مستبعدين له، ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ إن كنتم صادقين في دعواكم متىٰ الساعة؟ وقد سُئل به النبي صلىٰ الله عليه وسلم كثير، قال تعالىٰ: ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ ﴾[الأحزاب:٦٣]، وقال: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾[النازعات:٤٢]، ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾[المعارج:١-٢]، وقال: ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ * كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ [النبأ: ١ - ٥].

﴿ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ ﴾ علم الساعة عند الله، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾[لقمان: ٣٤]، وقال: ﴿ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى ﴾[طه:٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ

مُبِينٍ ﴾[الأنعام:٥٩]، ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ ﴾ لكم بين يدي عذاب شديد، ﴿ مُبِينٌ ﴾ مبين لكم ما ينفعكم الله به في دنياكم وأُخراكم.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾ أي: العذاب، ﴿ زُلْفَةً ﴾ قد قرب منهم، ﴿ سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ تغيرت واسودت، ﴿ وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ ﴾ هذا الذي كنتم تدعون به وتتعجلونه، وتتغير وجوههم كما قال الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[آل عمران:١٠٦]، وكما قال الله عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾[طه:١٢٤].

﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾، أخبروني يا معشر قريش، ﴿ إِنْ أَهْلَكَنِيَ الله وَمَنْ مَعِيَ ﴾ إن أهلكني الله وأهلك أصحابي، ﴿ أَوْ رَحِمَنَا ﴾ بسعة الأرزاق وحفظ الأرواح، ﴿ فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ والمعنىٰ: سواء أُهلكنا أو رحمنا من الذي يجيركم من عذاب أليم.

﴿ قُلْ ﴾ قل لهم يا محمد ﴿ هُوَ الرَّحْمَنُ ﴾ الذي يجير من العذاب الأليم هو الرحمن الذي يرحم عباده المؤمنين، ﴿ آمَنَّا بِهِ ﴾ أقررنا وصدقنا وانقدنا، ﴿ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ اعتمدنا، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الله فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[الطلاق:٣]، وقال: ﴿ وَعَلَىٰ الله فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[المائدة:٢٣]، وعن عمر رضي الله عنه: «لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَىٰ الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا

يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»، أخرجه أبو داود، ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ أي: سوف تعلمون إذا جاء أمر الله، ﴿ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ في بعد بين نحن أم أنتم يا معاشر الكافرين.

﴿ قُلْ ﴾ قل لهم يا محمد، ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أخبروني، ﴿ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ﴾ إن صار ماؤكم الذي تشربون منه غائرًا في الدنيا لا تتوصلون إليه بحفر ولا بحبل ولا بشيء من ذلك، ﴿ فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾ ظاهر تراه العيون يجري علىٰ الأرض فغير الله لا يمكن.

فقد تضمنت هذه السورة كثيرًا من العبر والآيات التي حاجج بها رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم الكافرين، وقد جاء في شأنها عن أبي هريرة ا عند أبي داود : «سُورَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هِيَ إِلَّا ثَلَاثُونَ آيَةً، خَاصَمَتْ عَنْ صَاحِبِهَا حَتَّىٰ أَدْخَلَتْهُ الْجَنَّةَ، وَهِيَ سُورَةُ تَبَارَكَ»، فهي من السور التي تحاج عن صاحبها وتشفع له، وأما ما جاء في فضل قراءتها قبل النوم وإن كان ظاهره الصحة إلا أن أهل العلم قد تكلموا عليه، وأما ما يفعله بعض الناس من تعلقيها كحروز وتمائم فهذا من المحدثات.

والحمد لله رب العالمين.

سورة القلم

بسم الله الرحمن الرحيم

مكية علىٰ القول الصحيح.

﴿ ن ﴾ قيل: اسم للحوت وقيل: اسم للدواه التي يكون فيها الحبر، وقيل: من الحروف المقطعة التي افتتح الله عز وجل بها كثيرًا من السور، واختلف العلماء في معاني هذه الحروف، فقيل: بأنها أسماء للسور التي تفتتح بها، وقيل: بأنها أسماء لله عز وجل، وقيل: بأنها إشارة لأكثر الحروف التي تتكون منها السورة، وقيل: بأنها بيان لعمر أمة محمد وهذا أبعد الأقوال إذ أن صاحبه يسير علىٰ طريقة اليهود في حساب الأعمار، ﴿ وَالْقَلَمِ ﴾ قيل: بأنه القلم العام الذي خلقه الله عز وجل، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : «لما خلق الله القلم قال اكْتُبِ الْقَدَرَ، فَجَرَىٰ الْقَلَمُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ »، أخرجه أبو داود وغيره، وقيل: بأنه القلم الذي كتب الله عز وجل به الذكر، والشاهد: أن الله أقسم بالقلم: ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أي: وأقسم بما يسطرونه، وهو المكتوب بقلم الوحي، أو القلم العام، أو جميع الأقلام لشرفها؛ فإن تصريف أمور الناس تكون بها حتىٰ اختلف العلماء في أيهما يقدم دم الشهداء أم مداد العلماء فكان المقدم مداد العلماء؛ لأن الشهيد لا يكون شهيدًا إلا إذا صدر فعله عن فتوىٰ العلماء.

قال ابن القيم في التبيان في أقسام القرآن (ص: ٢٠٧): فصل

والأقلام متفاوتة في الرتب فأعلاها وأجلها قدرًا: قلم القدر السابق الذي كتب الله به مقادير الخلائق كما في سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله يقول: «إن أوَّلَ ما خلقَ الله القلمُ، فقال له: اكتُبْ، قال: ربِّ، وماذا أكتُبُ؟ قال: اكتُبْ مقاديرَ كل شيءٍ حتىٰ تقومَ الساعةُ»، واختلف العلماء هل القلم أو المخلوقات أو العرش علىٰ قولين ذكرهما الحافظ أبو يعلىٰ الهمداني أصحهما أن العرش قبل القلم لما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله: «أَنَّ الله قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِق قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَة ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاء» فهذا صريح أن التقدير وقع قبل خلق العرش والتقدير وقع عند أول خلق القلم لحديث عبادة هذا

ولا يخلو قوله إن أول ما خلق الله القلم إلىٰ آخره إما أن يكون جملة أو جملتين فإن كان جملة وهو الصحيح كان معناه أنه عند أول خلقه قال له أكتب كما في لفظ أول ما خلق الله القلم قال له أكتب بنصب أول والقلم فإن كانا جملتين وهو مروىٰ برفع أول والقلم فيتعين حمله علىٰ أنه أول المخلوقات من هذا العالم ليتفق الحديثان إذ حديث عبد الله بن عمر صريح في أن العرش سابق علىٰ التقدير والتقدير مقارن لخلق القلم وفي اللفظ الآخر: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ»، فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها وقد قال غير واحد من أهل التفسير أنه القلم الذي أقسم الله به

فصل

القلم الثاني: قلم الوحي وهو الذي يكتب به وحي الله إلىٰ أنبيائه ورسله وأصحاب هذا القلم هم الحكام علىٰ العالم والعالم خدم لهم وإليهم الحل والعقد والأقلام كلها خدم لأقلامهم وقد رفع النبي ليلة الإسراء إلىٰ مستوىٰ يسمع فيه صريف الأقلام فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالىٰ من الأمور التي يدبر بها أمر العالم العلوي والسفلي

فصل

والقلم الثالث: قلم التوقيع عن الله ورسوله وهو قلم الفقهاء والمفتين، وهذا القلم أيضًا حاكم غير محكوم عليه فإليه التحاكم في الدماء، والأموال، والفروج، والحقوق، وأصحابه مخبرون عن الله بحكمه الذي حكم به بين عباده وأصحابه حكام وملوك علىٰ أرباب الأقلام وأقلام العالم خدم لهذا القلم

فصل

القلم الرابع: قلم طب الأبدان التي تحفظ بها صحتها الموجودة، وترد إليها صحتها المفقودة، وتدفع به عنها آفاتها وعوارضها المضادة لصحتها، وهذا القلم أنفع الأقلام بعد قلم طب الأديان وحاجة الناس إلىٰ أهله تلتحق بالضرورة.

فصل

القلم الخامس التوقيع عن الملوك ونوابهم وسياس الملك ولهذا كان أصحابه أعز أصحاب الأقلام والمشاركون للملوك في تدبير الدول فإن صلحت أقلامهم صلحت المملكة وإن فسدت أقلامهم فسدت المملكة وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم

فصل

القلم السادس: قلم الحساب وهو القلم الذي تضبط به الأموال مستخرجها ومصروفها ومقاديرها، وهو قلم الأرزاق وهو قلم الكم المتصل والمنفصل الذي تضبط به المقادير وما بينها من التفاوت والتناسب، ومبناه علىٰ الصدق والعدل فإذا كذب هذ القلم وظلم فسد أمر المملكة.

فصل

القلم السابع: قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق، وتنفذ به القضايا، وتراق به الدماء، وتؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية، فترد إلىٰ اليد المحقة، ويثبت به الإنسان، وتنقطع به الخصومات، وبين هذا القلم وقلم التوقيع عن الله عموم وخصوص، فهذا له النفوذ واللزوم، وذاك له العموم والشمول، وهو قلم قائم بالصدق فيما يثبته وبالعدل فيما يمضيه وينفذه.

فصل

القلم الثامن: قلم الشهادة: وهو القلم الذي تحفظ به الحقوق، وتصان به عن الإضاعة، وتحول بين الفاجر وإنكاره، ويصدق الصادق ويكذب

الكاذب، ويشهد للمحق بحقه وعلىٰ المبطل بباطله، وهو الأمين علىٰ الدماء، والفروج، والأموال، والأنساب، والحقوق، ومتىٰ خان هذا القلم فسد العالم أعظم فساد وباستقامته يستقيم أمر العالم ومبناه علىٰ العلم وعدم الكتمان.

فصل

القلم التاسع: قلم التعبير: وهو كاتب وحي المنام وتفسيره وتعبيره، وما أريد منه وهو قلم شريف جليل مترجم للوحي المنامي كاشف له وهو من الأقلام التي تصلح للدنيا والدين، وهو يعتمد طهارة صاحبه ونزاهته وأمانته وتحريه للصدق والطرائق الحميدة والمناهج السديدة مع علم راسخ وصفاء باطن وحس مؤيد بالنور الإلهي ومعرفة بأحوال الخلق وهيئاتهم وسيرهم، وهو من ألطف الأقلام وأعمها جولانا وأوسعها تصرفًا وأشدها تشبثًا بسائر الموجودات علويها وسفليها وبالماضي والحال والمستقبل، فتصرف هذا القلم في المنام هو محل ولايته وكرسي مملكته وسلطانه.

فصل

القلم العاشر: قلم تواريخ العالم ووقائعه: وهو القلم الذي تضبط به الحوادث، وتنقل من أمة إلىٰ أمة ومن قرن إلىٰ قرن فيحصر ما مضىٰ من العالم وحوادثه في الخيال وينقشه في النفس حتىٰ كأن السامع يرىٰ ذلك ويشهده فهو قلم المعاد الروحاني، وهذا القلم قلم العجائب فإنه يعيد لك

العالم في صورة الخيال فتراه بقلبك وتشاهده ببصيرتك.

فصل

القلم الحادي: عشر قلم اللغة وتفاصيلها من شرح معاني ألفاظها ونحوها وتصريفها وأسرار تراكيبها، وما يتبع ذلك من أحوالها ووجوهها وأنواع دلالتها علىٰ المعاني وكيفية الدلالة، وهو قلم التعبير عن المعاني باختيار أحسن الألفاظ وأعذبها وأسهلها وأوضحها، وهذا القلم واسع التصرف جدًا بحسب سعة الألفاظ وكثرة مجاريها وتنوعها.

فصل

القلم الثاني عشر: القلم الجامع: وهو قلم الرد علىٰ المبطلين ورفع سنة المحقين وكشف أباطيل المبطلين علىٰ اختلاف أنواعها وأجناسها، وبيان تناقضهم وتهافتهم وخروجهم عن الحق ودخولهم في الباطل، وهذا القلم في الأقلام نظير الملوك في الأنام وأصحابه أهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل المحاربون لأعدائهم وهم الداعون إلىٰ الله بالحكمة والموعظة الحسنة المجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدال، وأصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل وعدو لكل مخالف للرسل فهم في شأن وغيرهم من أصحاب الأقلام في شأن فهذه الأقلام التي فيها انتظام مصالح العالم، ويكفي في جلالة القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به، وأن الله سبحانه أقسم به في كتابه وتعرف إلىٰ غيره بأن علم بالقلم وإنما وصل إلينا ما بعث به نبينا بواسطة

القلم، ولقد أبدع أبو تمام إذ يقول في وصفه:

لك القلم الأعلىٰ الذي بشباته ... يصاب من الأمر الكلىٰ
له ريقة طل ولكن وقعها ... بآثاره في الغرب والشرق وابل
لعاب الأفاعي القاتلات لعابه ... وأرىٰ الجنا اشتارته أيد عواسل
له الخلوات اللاء لولا نجيها ... لما احتفلت للملك تلك المحافل
فصيح إذا استنطقته وهو راكب ... وأعجم إن خاطبته وهو راجل
إذا ما امتطىٰ الخمس اللطاف ... عليه شعاب الفكر وهي حوافل
أطاعته أطراف القنا وتقوضت ... لنجواه تقويض الخيام الجحافل
إذا استغزر الذهن الذكي وأقبلت ... أعاليه في القرطاس وهي أسافل
وقد رفدته الخنصران وسددت ... ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل
رأيت جليلًا شأنه وهو مرهف ... ضنًا وسمينًا خطبه وهو ناحل

اهـ

﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ أي: ما أنت يا محمد بمجنون كما يزعمون ويدعون، وهذه تهمة يتتابعون عليها كما قال الله: ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾[الذاريات:٥٢-٥٣]، وقد أشاع الكفار في مكة أن محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم به جنون حتىٰ جاء ضماد رضوان الله عليه إلىٰ النبي صلىٰ الله عليه

وسلم فقال: يا محمد إني أرقي من هذه الريح فهل لك، فقال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ الله فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ»، قَالَ: فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ، وَقَوْلَ السَّحَرَةِ، وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ، فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ، أخرجه مسلم، ثم إن الخير الذي أتىٰ به النبي صلىٰ الله عليه وسلم يدل علىٰ عدم جنونه إذ أن المجنون يتصرف في أمور لا يحسنها والنبي صلىٰ الله عليه وسلم كان ذو عقل راجح ورأي صائب.

﴿ وَإِنَّ لَكَ ﴾ أي: إن لك يا محمد عند الله عز وجل بسبب دعوتك إلىٰ الخير، ﴿ لَأَجْرًا ﴾ جزاء دعوتك إلىٰ الخير، ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ غير منقطع، كما قال تعالىٰ في وصف الجنة: ﴿ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴾[الواقعة:٣٣]، وذلك أن الدلالة علىٰ الخير أجرها عظيم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم، قَالَ: «مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»، أخرجه مسلم .

وعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ الله، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا

يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»، أخرجه مسلم .

﴿ وَإِنَّكَ ﴾ يا محمد ﴿ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ علىٰ خلق عظيم ومنزلة رفيعة، وكان خلقه صلىٰ الله عليه وسلم القرآن كما قالت عائشة رضي الله عنها، فكان خلقه عظيمًا في العبادات، والمعاملات، والأخلاق وجميع الأبواب، فهذا لفظ عام يدخل تحته كل فعل حسن، و«كان رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أحسن الناس خلقًا»، متفق عليه عن أنس رضي الله عنه.

﴿ فَسَتُبْصِرُ ﴾ ما يكون لهم وما يكون لك، ﴿ وَيُبْصِرُونَ ﴾ ما يكون لهم وما يكون لك، وعند ذلك يُعرف المحق من المبطل، والمصيب من المخطئ.

﴿ بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾ أنت أم هم، والصحيح الذي لا مناص ولا معدل عنه أن المفتون هم كفار قريش إذ كانوا يعبدون الأصنام والأوثان، وكانوا يشركون بالله سبحانه وتعالىٰ وينددون.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ يا محمد، ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ من الكفار والمعرضين، ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ السالكين لسبل الهداية والمستقيمين علىٰ أمر الله وشرعه والمبتعدين عن طريق الغواية.

﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ إياك أن تكون منك طاعة للمكذبين الكافرين، فإن

من أطاعهم أردوه وحرفوه، وقد أمرنا الله أن نتخذهم أعداء فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾[الممتحنة:١].

﴿ وَدُّوا ﴾ أي: الكفار، ﴿ لَوْ تُدْهِنُ ﴾ تقرب منهم، ﴿ فَيُدْهِنُونَ ﴾ يقربون منك، أو قيل: ودوا لو تتنازل عن دينك فيتنازلون عن شيء من دينهم، المهم: أنهم يطلبون من النبي صلىٰ الله عليه وسلم كتنازل عن الحق، وربما تنازلوا عن شيء من باطلهم لكن هذا لا يستقيم، وفي هذا توجيه رباني للدعاة إلىٰ الله عز وجل بعدم الميل إلىٰ أهل البدع والركون إليهم كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾[هود:١١٣]، حتىٰ وإن قالوا لك: نتعاون ونتفق ونحو ذلك، قل لهم: ما أمرنا الله بهذا، أمرنا الله عز وجل بالصفاء والنقاء.

﴿ وَلا تُطِعْ ﴾ أي: يا محمد، ﴿ كُلَّ حَلَّافٍ ﴾ أي: كثير الحلف بالله عز وجل من أجل أن تصدقه، ﴿ مَهِينٍ ﴾ في نفسه وفي طريقته لمخالفته لأمر نبيه صلىٰ الله عليه وسلم.

﴿ هَمَّازٍ ﴾ حاله أنه هماز مغتاب، وقد قال تعالىٰ: ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾[الهمزة:١]، كثير الغيبة، ﴿ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ يفرق بين الناس بالنميمة، وقد جاء عن حذيفة ا قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ»، وفي لفظ: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ» متفق عليه، وهذا درس بليغ: أن الإنسان يكون بعيدًا عن الهمازين واللمازين، وعن المغتابين والنمامين؛ لأنهم بهذا يريدون

العنت للمسلمين.

ومن صفات هذا الرجل أيضًا أنه: ﴿ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ ﴾ لا يبذل الخير الواجب عليه ولا يأمر به، ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ معتد فيما يتعلق بتوحيد ربه بالشرك، ومعتد علىٰ محمد صلىٰ الله عليه وسلم بتكذيبه، ومعتدي علىٰ المستضعفين بتعذيبهم، ﴿ أَثِيمٍ ﴾ أي: أنه كثير الآثام؛ بسبب المعاصي والإجرام الذي يرتكبه.

﴿ عُتُلٍّ ﴾ متكبر جواظ وقد قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم لما سئل عن أهل النار: «كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُتَكَبِّرٍ»، أخرجه مسلم ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ قيل: بعيد ملتصق ليس من أصل قريش، وإنما هو دعي ملتصق بهم ومع ذلك يريد أن يظهر أنه صاحب شأن وأنه تربص بمحمد صلىٰ الله عليه وسلم الدوائر.

﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ أي: لا تغتر به أو يركن إلىٰ نفسه أن كان ذا مال قد أعطاه الله وبنينًا فإن هذا لا يدل علىٰ رضوان الله عليه كما يزعم الكفار، فإنهم حين يرون ما هم فيه من النعيم يظنون أن هذا لكرامتهم ومنزلتهم، وحاشا وإنما هو كما قال الله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الأنعام:٤٤-٤٥]، وقال الله عز وجل: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا * كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا * وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾[مريم:٧٧-٨٠].

﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ ومن عجيب شأنه أن الله وهب له مالًا وبنيًا ومع ذلك إذا سمع القرآن: ﴿ قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ أي: أحاديث الأولين وقصصهم أخذها النبي صلىٰ الله عليه وسلم ممن سبقه، والأساطير الترهات والأباطيل، وهذا قول كثير من المشركين، كما قال: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾[الفرقان:٥]، مع أنه وحي الله سبحانه وتعالىٰ، والنبي صلىٰ الله عليه وسلم كان بعيدًا عن مجالسة الأولين، في أوله صغيرًا كان سعد، ثم يتيمًا في حجر جده، ثم في حجر عمه، ثم كان راعيًا للغنم، فلم يكن من أصحاب سماع الأساطير حتىٰ يقولها.

قال: ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ أي: نجعل له علامة علىٰ خرطومه وهي أنفه، قيل: هذه العلامة كانت في غزوة بدر حيث ضُرب في أنفه وقيل: تكون يوم القيامة علامة في وجهه علىٰ أنه هو المعني بهذا الشأن.

ثم قال الله عز وجل مهددًا قريش الذين عصوا وتمردوا وأعرضوا: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ ﴾ أي: معشر قريش اختبروا بما هم فيه من الخير والنعيم، ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ أصحاب الجنة يذكرون أنها في ضروان من بلاد صنعاء وسيأتي شأنهم، والمراد بالجنة المزرعة المليئة بالثمار والأشجار، ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا ﴾ تقاسموا فيما بينهم، ﴿ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ ليقومون بجذاذها وقطفها في الصباح قبل وصول الفقراء والمساكين إليهم؛ وهذا لشدة بخلهم ولعظيم تحيلهم في منع حق الله عز وجل؛ لكن حل بهم ما لم يتوقع وهو أن

الله أذهب هذه المزرعة، فعليك أيها المسلم أن تتقي الله عز وجل بأداء ما وجب عليك قبل أن يحال بينك وبينهم.

﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ حتىٰ أنهم ما قالوا: إن شاء الله نأتي الصباح ونقطف ثمارنا بل عزموا علىٰ الشر وتيقنوا وقوعه، فكان خلاف ما أملوه.

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ ﴾ طاف عليها طائف من النار، أو طائف من الملائكة أحرقها وذهب بخيرها وبركتها، ﴿ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ راقدون لم يعلموا بما حل بها، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[الأنفال:٣٠].

﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ أصبحت كالشيء البالي الذي لا تلوي فيه علىٰ شيء، كأنها مصرومة مقطوعة، وقيل: كالليل الأسود.

﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴾ أي: لما كان وقت الصبح، فقام بعضهم يوقظ بعضًا، هلموا إلىٰ مزرعتكم وحديقتكم وعاجلوا بجني ثمارها قبل أن يأتي المساكين والفقراء.

﴿ أَنِ اغْدُوا ﴾ بكروا وعجلوا بالغدو، ﴿ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ ﴾ علىٰ مزرعتكم، ﴿ إِنْ كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴾ قد عزمتم علىٰ جذاذها وعلىٰ أخذ ثمارها.

﴿ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴾ خرجوا من دارهم يتكلمون بصوت خافت حتىٰ لا يتفطن لهم فقراء القرية فيتبعونهم.

﴿ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ ﴾ يعني: كحال المسرور الذي

يضحك مع بعضه، لا تمكنوا اليوم فقيرًا يدخل عليكم، وظنوا أنهم بمنعهم حق الله تزداد أموالهم وبركاتهم وكان خلاف ذلك.

﴿ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴾ غدوا علىٰ شدة غضب وغيض وجد يعتقدون القدرة علىٰ الجذاذ والفوت للفقراء والمساكين.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا ﴾ وقد لحقها ما لحقها، ﴿ قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: لقد أخطأنا الطريق إلىٰ جنتنا بسبب ظلمة الليل.

ثم استدركوا: ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي: إن ما لحقنا هو الحرمان، حرمنا الله الرزق والخير بسبب مكرنا وبغينا، وهكذا من منع حق الله يوشك أن يمنعه الله عز وجل حقه.

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أي: خيرهم، وأعقلهم، ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ ﴾ قولوا: إن شاء الله، واستثنوا.

﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أي: قالوا سبحان الله، واستثنوا في هذا الحال، ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أي: بمقولتنا السابقة بمنع الفقراء والمساكين، ولكن متىٰ قالوا هذا؟ حين لا ينفع الندم، بعد حصول العذاب، وعسىٰ أن تقبل منهم هذه التوبة إلىٰ الآخرة إن أحسنوا، وأما في شأن الدنيا فقد وقع العذاب.

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ ﴾ أقبل الإخوة كل يلوم الآخر أنت الذي وأنت الذي، أنت الذي أمرتني قال: وأنت الذي أقررتني، قال: وأنت

الذي فعلت معي.

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا ﴾ دعوا علىٰ أنفسهم بالويل والثبور، ﴿ إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ أي: بمنع الفقراء والمساكين فإن هذا من الطغيان العظيم نسأل الله السلامة والعافية، فالطغيان: هو مجاوزة الحد، إذا منعت الفقير حقه فأنت طاغي، وإذا أخذت حق الناس فأنت طاغي.

﴿ عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا ﴾ أي: أنهم دعوا الله عز وجل ورجوه أن يبدلهم جنةً خيرًا من جنتهم، ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ أي: راجعون وطامعون في بركات ما عند الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ ﴾ هذا هو العذاب: أن الله عز وجل يذهب ما بين يديك في لمحة عين وبصر، حيث كانوا أصحاب جنة، وغنىٰ وخير، وإذا بهم لا يلون علىٰ شيء، وكانوا يؤملون أن تزداد أموالهم من هذه الجنة فصارت حطيمًا، والحال كما قال الله: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[هود:١٠٢]، ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ لمن كفر وتمرد وتكبر، ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ما أوحاه الله عز وجل إلىٰ أنبياءهم ورسله صلوات الله وسلامه عليهم.

ولما ذكر الله عز وجل شأن الكافرين والمخالفين ناسب أن يأتي بشأن المؤمنين ترغيبًا لهم في الإقبال علىٰ عبادة الله: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي: في الآخرة، ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي: عند خالقهم ورازقهم ومالكهم، ﴿ جَنَّاتِ النَّعِيمِ

﴿ جنات فيها الخير العظيم من دخلها ينعم لا ييأس لا تبلىٰ ثيابه ولا يفنىٰ شبابه، وهي جنة واحدة وإنما جمعها لكثرة من يكون فيها؛ ولأن لكل واحد موطن يحويه ويتنعم فيه.

﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ أهذا يعقل أن يكون المسلم الموحد الطائع، المصلي، والصائم، والمزكي لله عز وجل كالمجرم الكافر قاطع الصلاة، والمضيع للزكاة، والمضيع لحق الله؛ أبدًا ولا يمكن أن يستوي المؤمن والكافر، ولا يمكن أن يستوي البر والفاجر، لا يمكن أن يستوي السني والبدعي، لا يمكن أن يستوي الطائع والعاصي.

في البخاري عن سهل بن سعد قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَىٰ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم، فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ، قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لاَ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لاَ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لاَ يُسْتَمَعَ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا»، أخرجه البخاري.

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أي: كيف تظنون هذا الحكم الجائر المخالف لكتاب الله وسنة رسوله ج: فتظنوا أن محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم ومن إليه من الصحابة كأبي جهل ومن إليه من المجرمين وطواغيت الكفر لا يكون هذا أبد، كما قال الله عز وجل: ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾[الحشر: ٢٠].

﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ أم عندكم كتاب فيه هذا الخبر أرونا كتابكم إن كنتم صادقين.

﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ أي: لكم في هذا الكتاب ما ترجونه وتتخيرونه.

﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ أم لكم عهد من الله أنكم أفضل من محمد أو أنكم مثل محمد صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ أي: أنه سيحصل لكم ما تريدون وتأملون.

﴿ سَلْهُمْ ﴾ يا محمد ﴿ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴾ من هو ضمينكم في هذه المقولة التي قلتموها وزعمتموها أن المسلم كالمجرم وأن البر كالفاجر وأن المؤمن كالكافر، والواقع أنه ليس عندهم ضمين ولا زعيم وإنما هو التخرف والضلال.

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾ من أصنامهم وأربابهم المزعومة الله حيث يعبدونها ويدعونها ويتبركون بها من دون، ﴿ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ ﴾ ليقرروا لهم هذه الحقيقة، ﴿ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ لكن هؤلاء الشركاء صم بكم عميٌ أنىّ لهم ولها أن تقرر مثل هذا الأمر.

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ أي: يوم القيامة حين حصول الزلازل، والأمور العظيمة، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ

عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ الله شَدِيدٌ ﴾[الحج: ١-٢]، ويأتي الجبار، كما قال عز وجل: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[الفجر: ٢٢]، ويكشف الله عن ساقه على القول الصحيح في تفسير هذه الآية ففي حديث أبي سعيد رضي الله عنه : «تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، قَالُوا: يَا رَبَّنَا، فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ، وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِالله مِنْكَ لَا نُشْرِكُ بِالله شَيْئًا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ الله لَهُ بِالسُّجُودِ، وَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلَّا جَعَلَ الله ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ»، أخرجه مسلم، ﴿ فَلا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ لا يستطيعون؛ لأنهم قد حرموا أنفسهم من الصلاة والصيام والحج والقيام وغير ذلك وهم في حال الدنيا وحال التزود، فيا تارك الصلاة انتبه لنفسك قبل أن يحال بينك وبين السجود في يوم: ﴿ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[الشعراء:٨٨-٨٩].

وهم في هذا الحال: ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ ﴾ قد رفعت أبصارهم إلى السماء، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الله غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ

طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾[إبراهيم: ٤٢-٤٣]، ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ تعلوهم قترة وسواد وجه وخزي ومهانة، ﴿ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَىٰ السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ يدعون في الدنيا إلىٰ السجود والصلاة وهم سالمون فأبوا إلا الكفر، وهذا من أدلة القائلين بكفر تارك الصلاة، فإن تارك الصلاة لا علامة له يُعرف بها يوم القيامة، بينما المُصلي وإن دخل النار فحين يأذن الله لنبيه محمد صلىٰ الله عليه وسلم في الشفاعة يعرفهم بمواطن السجود.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: «حَتَّىٰ إِذَا فَرَغَ الله مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ لَا يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا مِمَّنْ أَرَادَ الله تَعَالَىٰ أَنْ يَرْحَمَهُ مِمَّنْ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ، يَعْرِفُونَهُمْ بِأَثَرِ السُّجُودِ، تَأْكُلُ النَّارُ مِنَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ، حَرَّمَ الله عَلَىٰ النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيُخْرَجُونَ مِنَ النَّارِ وَقَدِ امْتَحَشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ مِنْهُ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفْرُغُ الله تَعَالَىٰ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ»، أخرجه مسلم.

﴿ فَذَرْنِي ﴾ دعني، ﴿ وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ من الكافرين بالقرآن وبالوحي المبين، ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ ﴾ بالنعم، ﴿ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ﴾ وهم يظنون أنها دليل علىٰ الرضا وليست كذلك وإنما هي من أسباب البلوىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا

فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥].

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ أي: أني أأخرهم لا أُعاجلهم بالعذاب، ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أي: عظيم، إذا كادهم الله أتىٰ عليهم وأهلكهم ودمرهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾[الطارق:١٥-١٧]، وفيه إثبات صفة الكيد لله عز وجل، وهي من صفات المقابلة علىٰ ما هو معلوم في عقيدة أهل السنة والجماعة.

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا ﴾ أي: ما السبب الذي جعلهم يعرضون عن دخول الإسلام؟ ألأنك تسألهم أجرًا؟ ، والواقع خلاف ذلك فإن حال النبي صلىٰ الله عليه وسلم ما قال الله: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[ص:٨٦]، ﴿ فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ أبوا الدخول في الإسلام؛ لأن الإسلام سيكلفهم بذل الأموال الكثيرة؛ والواقع أن الإسلام وعدهم بالغنىٰ والخير العظيم، ودخل أناس في الإسلام لا يلون علىٰ شيء فأغناهم الله.

﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ ﴾ عندهم علم الغيب أنك لست علىٰ حق وأنهم علىٰ هدىٰ وأنهم موعودون بالنعيم يوم القيامة ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ يكتبونه ويملونه، ما عندهم لا هذا ولا هذا، ما كان من النبي صلىٰ الله عليه وسلم أن سألهم أجرًا وما كان عندهم غيبًا وإنما منعهم الكبر والعناد والحسد من الإيمان.

ثم قال الله مصبرًا نبيه صلىٰ الله عليه وسلم علىٰ كثرة المعرضين والمخالفين: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ اصبر لقضاء ربك فإنه إن شاء نصرك وإن شاء أخر ذلك لحكمة أرادها، ثم شرع الله عز وجل بعد الهجرة الجهاد، ﴿ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ إياك أن تكون كيونس عليه السلام إذ خرج من قومه مغاضبًا فاضطرب البحر فقالوا: لا بد أن ننقص من حمل السفينة فتم أنهم بعد المساهمة يلقون يونس عليه السلام فألقوه في ذلك البحر الخضم فالتقمه حوت عظيم وسار به في بحار عميقة حتىٰ ذكروا أن يونس عليه السلام سمع تسبيح الكائنات البحرية وعند ذلك سبح الله، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَىٰ الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[الصافات:١٣٩-١٤٤]، وكان تسبيحه هو قوله: ﴿ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾[الأنبياء:٨٧-٨٨]، وأمر الله عز وجل نبيه بالصبر علىٰ قومه وأمره أن لا يكون كصاحب الحوت، ﴿ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ إذ نادىٰ في الظلمات وهو مكروب مغموم لشدة ما لحقه ونزل به.

﴿ لَوْلا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ لولا أن الله عز وجل تداركه وأنقذه وسلمه وهذه نعمة منه، ﴿ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ يُنبذ وهو علىٰ حال سيء؛ لكن أكرمه الله عز وجل وأنبت عليه شجرة من يقطين تقيه وقع الذباب

ووقع الآفات ثم رده إلىٰ قومه فآمنوا، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[يونس: ٩٨] ، ولا ينبغي لأحد أن يحتقر يونس عليه السلام فهو نبي كريم، فعن عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود ا عَنِ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم قَالَ: «مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ»، متفق عليه.

﴿ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ ﴾ أي: يونس عليه السلام، ﴿ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ المقربين والمتقربين إليه، فأنت يا محمد سيكون شأنك أعظم من هذا ما عليك إلا الصبر علىٰ أذىٰ الكافرين وأبشر من الله بالرفعة والخير العظيم، وقد حقق الله ما وعده، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾[الضحىٰ: ٥].

﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ﴾، يعني: أن الكفار لشدة حسدهم للنبي صلىٰ الله عليه وسلم وبغضهم له كادوا يعونونه حيث يطلقون عليه الأعين والعين حق كما قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «الْعَيْنُ تُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ، وَتُدْخِلُ الْجَمَلَ الْقِدْرَ»، وقال : «العّين حَقٌّ» لكن مع ذلك سلمه الله، وهذا يدل علىٰ حسدهم، ﴿ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ﴾ أي: القرآن، ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ محمد صلىٰ الله عليه وسلم وقولهم باطل علىٰ ما تقدم.

﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ أي: أن هذا القرآن ذكر من الله عز وجل، ﴿ لِلْعَالَمِينَ

لعالم الجن وعالم الإنس من المكلفين، فمن استقام علىٰ شرع الله ودخل في دين الله كان من المُكرمين، ومن أبىٰ إلا الكفر والعناد كان من الملعونين.

والحمد لله رب العالمين.

سورة الحاقة

بسم الله الرحمن الرحيم

مكية.

﴿ الْحَاقَّةُ ﴾ اسم من أسماء القيامة سميت بالحاقة؛ لأن الحقوق تؤدىٰ فيها، أو لأنها واقعة لا محالة.

﴿ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ عظمها وسأل عنها تعظيمًا لشأنها، كأنه يقول: شأنها عظيم، ومن أسماء القيامة: والقارعة، والزلزلة، والصاخة، والطامة وكل اسم مشتق من معناه.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ لتعظيم شأنها، كقول العرب: زيد وما أدراك ما زيد.

﴿ كَذَّبَتْ ﴾ كفرت وأعرضت ﴿ ثَمُودُ ﴾ وهم قوم الحجر الذين أُرسل إليهم صالح عليه السلام، ﴿ وَعَادٌ ﴾ سكان حضرموت وما إليها التي أُرسل إليهم هود عليه السلام، وقد ذكر الله لا الأمتين في عدة مواطن من كتابه لشدة إعراضهم وكفرهم وبغيهم ﴿ بِالْقَارِعَةِ ﴾ بالقيامة، وزعموا ألا بعث بعد الموت، وهذا هو ديدن كثير من المشركين في الغالب: أنهم لا يؤمنون ببعث ولا نشور، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[الجاثية:٢٤].

ثم قال الله عز وجل: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا ﴾ أي: أن قوم ثمود كان من

شأنهم: أنهم أُهلكوا وزلزلوا ودمروا ﴿ بِالطَّاغِيَةِ ﴾ قيل: بالصيحة وقيل: بسبب ذنوبهم ومعاصيهم: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾[الشمس:١١]، وقيل: بسبب طغيان ذلك الرجل الذي عقر الناقة، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[فصلت: ١٧]

﴿ وَأَمَّا عَادٌ ﴾ حين كفروا وأعرضوا،، ﴿ فَأُهْلِكُوا ﴾ دُمروا، ﴿ بِرِيحٍ ﴾ عظيمة، ﴿ صَرْصَرٍ ﴾ باردة، ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ شديدة، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾[الفجر:٦-١٢]، وهذا من أشد ما يكون ريح صوتها وهبوبها عذاب، قيل في شأنها: أن الريح تكون بتصرف الملائكة الموكلين بها إلا هذه الريح فإنها كانت علىٰ خلاف ذلك فإنها أُرسلت عليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾[الأحقاف: ٢٤- ٢٥].

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي: جعلها الله عز وجل عليهم، ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ متتابعات متتاليات لم تتوقف، ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ ﴾ أي: قوم عاد : ﴿ فِيهَا صَرْعَىٰ ﴾ موتىٰ هلكىٰ، ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾

قيل: أعجاز مؤخرات النخل حين تقطع كان هؤلاء الناس مثل هذه الأعجاز رؤوسهم قد شدخت إذ ذكر المفسرون أنها كانت ترفعهم ثم تكبهم علىٰ رؤوسِهم ثم تبقىٰ أجسام هامده كأعجاز النخل البالية، وذُكر أن هذه الريح كانت في آخر الشتاء وهي التي تسمىٰ عند العامة بليالي العجوز، وذكروا أن سبب تسميتها بليالي العجوز أن عجوزًا من عاد اختفت أو دخلت لتختبئ من هذه الريح في نقب في جبل ومع ذلك تبعتها حتىٰ ماتت.

﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ سؤال تقرير، يقول: لا ترىٰ لهم من باقية أُهلكوا ولم يبقَ لهم نسل ولم يبقَ منهم مخبر.

﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ ﴾ أي: وممن أهلكهم الله ما كان من شأن فرعون وهو ملك مصر الذي أُرسل إليه موسىٰ عليه السلام، ﴿ وَمَنْ قَبْلَهُ ﴾ قُرئت بكسر القاف وبفتحه، فعلىٰ الكسر أي: جاء فرعون ومن قِبله من كان في زمرته وطريقته، وعلىٰ الفتح: جاء فرعون والذين كفروا من قبله، ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ ﴾ قرىٰ قوم لوط عليه السلام الذين جمعوا بين الشرك بالله وفعل الفاحشة المستقبحة، ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ أي: بالخطيئة وهي الذنب من الشرك فما دونها بالمعاصي حيث والسيئات أُهلكت بسببها الأمم الخاليات.

﴿ فَعَصَوْا ﴾ تمردوا وتكبروا، ﴿ رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ أي: رُسل الله وإنما أُفرد وأُضيف ليفيد العموم وكانت معاصيهم متفاوتة منهم من يُشرك ويقع في اللواط، ومنهم من يشرك ويطفف المكيال والميزان، ومنهم من يشرك ويظلم

ويقتل، ﴿ فَأَخَذَهُمْ ﴾ الله: ﴿أَخْذَةً رَابِيَةً ﴾ أي: أخذة قوية، وبطش شديد، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[هود:١٠٢].

﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَىٰ الْمَاءُ ﴾ في زمن نوح حين دعا علىٰ قومه بالغرق والهلكة، ﴿ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ أي: حملنا أصلكم وآباؤكم الذين كنتم في أصلابهم، وهذه دلالة عظيمة أن الله أهلك من كان في الأرض إلا أصحاب السفينة.

﴿ لِنَجْعَلَهَا ﴾ أي: هذه السفينة وما كان من شأنها: ﴿ لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ مذكرة بنعيم الله عليكم وبما حل من العقاب الأليم علىٰ الكافرين، ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ أي: أن هذه التذكرة تسمعها الأُذن الواعية السامعة المستفيدة، ويعرض عنها أهل الكبر والعناد، كما قال الله : ﴿ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[يونس: ١٠١].

فلما أخبر عن دمار وإهلاك الأمم السابقة بسبب ذنوبهم ومعاصيهم في الدنيا ذكر ما يكون من شأنهم في الآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ ونفخات الصور اثنتان: الأولىٰ للإماتة، والثانية للبعث والنشور: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾[الزمر:٦٨]، والصور قرن عظيم ينفخ فيه فإذا أراد الله بعث الناس من قبورهم نزل مطر كمني الرجال

فينبتون من قبورهم ثم ينفخ في الصور فتذهب كل روح إلىٰ جسدها التي كانت فيه بنفخة واحدة دليل علىٰ عظم قوة الله وما جعله في أملاكه الذين سخرهم لشأن العالم، وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: «ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَىٰ لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا، قَالَ: وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ، قَالَ: فَيَصْعَقُ، وَيَصْعَقُ النَّاسُ، ثُمَّ يُرْسِلُ الله - أَوْ قَالَ يُنْزِلُ الله - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ - نُعْمَانُ الشَّاكُّ - فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَىٰ، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ، وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ، فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، قَالَ فَذَاكَ يَوْمَ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا، وَذَلِكَ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ»، أخرجه مسلم .

﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ ﴾ هذه الأرض الكبيرة المترامية الأطراف تُحمل وتبدل، ﴿ وَالْجِبَالُ ﴾ حُملت وصارت كالعهن المنفوش، وتسير كما قال الله: ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾[التكوير:٣]، ثم تتبدد: ﴿ لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾[طه:١٠٧]، ﴿ فَدُكَّتَا ﴾ الأرض والجبال، ﴿ دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ زلزلتا ودكتا وهذا دليل علىٰ عظمه الله وقوته.

﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أي: في هذا اليوم، ﴿ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ جاءت القيامة، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾[الواقعة:١]، وحصل ما كنتم تكذبون به يا معاشر المشركين.

﴿ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ ﴾ تشققن لنزول الله لاَ وملائكته، كما قال: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا * أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا * وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴾[الفرقان:٢٣-٢٥]، وقال: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴾[الانفطار:١]، ﴿ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ ضعيفة البناء بعد تلك القوة التي كانت عليها.

قال: ﴿ وَالْمَلَكُ ﴾ أي: ملائكة الله، ﴿ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ﴾ في حوافها تنتظر ما تؤمر به وحالهم كما قال الله: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾[المدثر:٣١]، ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ العرش الذي استوىٰ الله عليه وارتفع وعلىٰ العرش العظيم الذي ما الكرسي فيه إلا كحلقة في فلاة يحمله ثمانية من الملائكة الشداد، ذكر النبي صلىٰ الله عليه وسلم من شأن بعضهم: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ الله مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ ، مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَىٰ عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ، قَد مَرِقت رِجلاه في الأرض السفلىٰ وَرأسُه منعطف تحت العرش يقول: سبحانك»، أخرجه أبو داود عن جابر ا، ﴿ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ ثمانية أملاك يحملون العرش العظيم، من الذي قواهم؟ خلقهم؟ وأعانهم؟ إنه الله الغني الحميد.

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم القيامة ﴿ تُعْرَضُونَ ﴾ تعرضون مع أعمالكم، ﴿ لا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ قد ظهرت أجسامكم وبانت صفاتكم وظهرت أعمالكم لا صغيرة ولا كبيرة لا عظيمة ولا حقيرة، إلا والله لاَ مطلع عليها، كما قال

تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾[الطارق: ٩].

ثم أخبر الله عز وجل عن تقسيم الناس في ذلك اليوم: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ أي: أهل الإسلام الذين يؤتىٰ أحدهم كتابه الذي دونت فيه أعماله بيمينه، ﴿ فَيَقُولُ ﴾ أي صاحب اليمين بصوت مرتفع: ﴿ هَاؤُمُ ﴾ هلموا، ﴿ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ لما فيه من الخير والرفعة والأعمال الصالحة المبشرة بالكرامة، وهذا حال الإنسان إذا بُشر بالخير يريد أن يطلع جميع الناس عليه، بينما إذا كان عنده الشر يخشىٰ من اطلاعهم عليه.

﴿ إِنِّي ظَنَنتُ ﴾ أي: استيقنت فالظن تأتي بمعنىٰ الاستيقان كقوله: ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾[الأنبياء:٨٧]، استيقن، ﴿ أَنِّي مُلاقٍ ﴾ أني سألقىٰ، ﴿ حِسَابِيَهْ ﴾ يوم القيامة وأُجازىٰ علىٰ أعمالي؛ ولذلك عمل الصالحات، ومن نوقش الحساب عذب، ومن ستر الله لا عليهم سلم، فعن عَائِشَةَ ك عَنِ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم، قَالَ: «لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ إِلَّا هَلَكَ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَلَيْسَ الله يَقُولُ: حِسَابًا يَسِيرًا؟ قَالَ: «ذَاكِ الْعَرْضُ، وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكَ»، متفق عليه.

﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ عيشته قد رضيها، كما في حديث أبي سعيد قال: « إِنَّ الله يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَىٰ؟ يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا

رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا »، متفق عليه.

﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ أي: عيشته الراضية الهنية في جنة مرتفعة كما قال الله عز وجل: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾[الغاشية:٨-١٠]، مرتفعة، وفي حديث: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ مِنَ الْأُفُقِ»، أخرجاه.

﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ ثمارها دانية قريبة، وأنت علىٰ سريرك أو متكئ ويأتيك ما تتمناه وتشتيه، لا يُمنعون من شيء منها، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾[الإنسان: ١٤].

﴿ كُلُوا ﴾ من ثمارها ولحومها وخيرها وبركاتها، ﴿ وَاشْرَبُوا ﴾ من خمرها وعسلها ولبنها ومائها، ﴿ هَنِيئًا ﴾ لكم الهنا والشفا، ﴿ بِمَا أَسْلَفْتُمْ ﴾ بسبب ما سلف ومضىٰ من أعمالكم، ﴿ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ في الأيام الماضية، فهذا دليل علىٰ أن الجنة إنما تُنال بالعمل الصالح بعد رحمة الله عز وجل، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ؟ يَا رَسُولَ الله قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ الله مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ».

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ﴾ وهو القسيم الثاني الكافر الفاجر، يؤتىٰ كتابه بشماله دليل علىٰ سخط الله عليه وعلىٰ كثرة سيئاته، ﴿ فَيَقُولُ ﴾ بصوت

مرتفع، ﴿ يَا لَيْتَنِي ﴾ يتمنىٰ، ﴿ لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴾ لم يكن لي كتاب فيه أعمالي، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف: ٤٩].

﴿ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴾ ولم أعلم بهذا الجزاء وما سيكون في شأني، أو أنه دعا علىٰ نفسه بالموت كقوله: ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ﴾[مريم:٢٣].

﴿ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾ تمنىٰ أن الموتة التي جاءته لم يكن بعدها بعث ولكن هيهات فإن الله عز وجل خلقنا لحكمة سامية وأمر عظيم.

﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴾ أي: لم أنتفع بمال، وذلك لأنه لم يبذلها في أوجه الخير ولم يستخدمها في طاعة الله.

﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ الأبناء والأزواج والأتباع كلهم لا معين ولا نصير ولا مجير فما أشدها من خسارة، هذا إذا خرج من تبعاتهم ما بالك إذا كانت تبعاتهم عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿ الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ * يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾[الزخرف:٦٧-٦٨].

ثم يأتي الخطاب من الله عز وجل لملائكة العذاب، ﴿ خُذُوهُ ﴾ هذا المجرم، ﴿ فَغُلُّوهُ ﴾ ضموا رجليه إلىٰ عنقه، ولو أُلقي في النار بغير هذا الحال لكان في أشد العذاب فما بالك حين تُغل رجلاه إلىٰ عنقه.

﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ أي: أنهم يقلبونه فيها هكذا وهكذا لزيادة عذابه ونكاله.

﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ﴾ معروفة، ﴿ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ قيل: تُدخل من دبره وتُخرج من فمه ويعذب بها عذابًا شديدًا، يتعذب من داخله ومن خارجه نعوذ بالله من النار.

﴿ إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللهِ ﴾ أي: سبب ما لحقه من الذل والهوان والعذاب كان لا يؤمن بالله ربًا ولم يوحده ولم يستقم علىٰ دينه، ﴿ الْعَظِيمِ ﴾ الكبير الواسع القوي العزيز.

﴿ وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ وكان من حاله أنه لا يأمر بإطعام المساكين ولا يُنفق عليهم بل ربما منع من ذلك، فلم يرحم مخلوقًا ولم يوحد خالقًا، وأصل سعادة الإنسان في أداء حق الخالق والإحسان إلىٰ المخلوقين.

﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴾ ليس له يوم القيامة حميم وصديق يشفع فيه، كما قال تعالىٰ: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾[غافر:١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ * فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾[المدثر:٤٨-٤٩].

﴿ وَلا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ ليس لهم طعام إلا ما يخرج من نتن الكفار وقيحهم.

﴿ لا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ أي: أنه يأكله الخاطئون المتلوثون بالشرك والمعاصي.

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴾ أي: أنه أقسم تعالىٰ بمخلوقاته المبصرة.

﴿ وَمَا لا تُبْصِرُونَ ﴾ أقسم بمخلوقاته التي لا تُبصر أو بما هو أعم، أقسم بما يُبصر وبما لا يُبصر حتىٰ يدخل هو تعالىٰ فيما يُقسم به؛ فإنه تعالىٰ لا يرىٰ يوم القيامة، وهذا لعظيم ما أقسم عليه.

﴿ إِنَّهُ ﴾ أي: القرآن، ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ ﴾ أُضيف إلىٰ الرسول محمد ج؛ لأنه المبلغ وإلا فهو كلام الله ووحيه وتنزيله، وقد أضيف في سورة التكوير إلىٰ جبريل عليه السلام فقال: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾[التكوير:١٩-٢٠]، ﴿ كَرِيمٍ ﴾ أي: جميل الخصال، وعظيم الفعال، ونبيل الصفات فليس الكرم فقط علىٰ العطاء بل هو لفظ أوسع من ذلك.

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ أي: أن هذا القرآن ليس بقول شاعر كما يزعم كفار قريش، ﴿ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴾ لكن الواقع أنكم لا تؤمنون مع أنكم تعرفون أن القرآن ليس بقول شاعر؛ ففي الصحيح قَالَ أُنَيْسٌ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ، فَمَا هُوَ بِقَوْلِهِمْ، وَلَقَدْ وَضَعْتُ قَوْلَهُ عَلَى أَقْرَاءِ الشِّعْرِ، فَمَا يَلْتَئِمُ عَلَىٰ لِسَانِ أَحَدٍ بَعْدِي، أَنَّهُ شِعْرٌ، وَاللهِ إِنَّهُ لَصَادِقٌ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ.

﴿ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ﴾ وأيضًا القرآن ليس بقول كاهن عراف ساحر، فأقوال الكهنة والعرافين أقوال مكسرة، وأقوال الشعراء إلا من رحم الله أقوال غير

منضبطة، ﴿ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ومع ذلك لم يقع لكم تذكر وتدبر والرجوع إلىٰ الله عز وجل.

بل هو أي: القرآن: ﴿ تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾[الشعراء:١٩٣-١٩٤]، ﴿ تَنزِيلٌ ﴾ أي: منزلة، ﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ من الله ومن للابتداء حيث تكلم به حقيقةً فسمعه منه جبريل، وبلغ جبريل محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم.

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ ﴾ أي: محمد كما تزعمون أنه كاذب وقال أن الله أرسله متقولًا كاذبًا، ﴿ بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴾ فضلًا أن يأتي بهذا الكتاب العظيم.

﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ أخذه الله بيمينه وبقوته وأهلكه كما أهلك كثيرًا من أدعياء الرسالة والنبوة، وقد أهلك مسيلمة والأسود العنسي وقبلهم وبعدهم؛ لأن الكذب علىٰ الله عظيمة ولا يمكن الله لمن يكذب عليه، ولو مكن لهم لأصبحوا يتجرؤون علىٰ الكذب علىٰ الله.

﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ وهو الوريد الذي يخرج من مناط القلب، فإذا قُطع مات الإنسان.

وأُستدل بهذه الآية علىٰ أن الكاذب لا يُمكن ويتم أمره ولو طال.

﴿ فَمَا مِنْكُمْ ﴾ أيها الكفار، ﴿ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ أي: كلكم تحت القوة والقهر والقدرة لا تعجزوننا في الوصول إليكم وإهلاككم وتدميركم.

﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أو أن هذا الرسول تذكره للمتقين، أو أن القرآن

تذكرة للمتقين يتذكر به أهل التقوىٰ، وأما الكفار، فحالهم كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[يونس:١٠١]، كلما جاءتهم آية من الله ازدادوا عتوًا ونفورًا، وإنما يتذكر أهل التقوىٰ: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾[الغاشية:٢١]، ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَىٰ * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَىٰ * وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَىٰ ﴾[الأعلىٰ:٩-١١]، ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين يفعلون المأمور ويتركون المحظور.

﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴾ أي: أن الله عز وجل يعلم أن من قريش ومن غيرهم من يكذب بهذا القرآن وهذا الوحي وهذا الرسول.

﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي: هذا التكذيب، ﴿ لَحَسْرَةٌ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ ﴾ يوم القيامة.

﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ أي: ما أخبر الله به وقصه الله علينا.

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ سبح الله باسمه العظيم، وما جاء أن الله عز وجل حين أنزل هذه الآية أمرهم أن يضعوها في ركعوهم، وحين أنزل: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَىٰ ﴾[الأعلىٰ:١]، أمرهم أن يجعلوها في سجودهم لا يثبت؛ لكن المعنىٰ العام في قوله: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أي: نزه عن النقائص والمثالب والعيوب.

وسبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

سورة المعارج

بسم الله الرحمن الرحيم

مكية، وسيمت بهذا الاسم لما يأتي من قول الله عز وجل: ﴿ مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾[المعارج:٣]، وهي الدرجات، وقيل: ما يعرج به إليه.

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ أي: أن رجلًا من الكفار استعجل العذاب، قيل: هو النظر بن الحارث، أي: متىٰ سيأتي، ﴿ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ أنه لا محاله سيكون ولا مدفع له.

﴿ لِلْكَافِرِينَ ﴾ هذا العذاب يكون للكافرين المعرضين عن دين رب العالمين، ﴿ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ لا يدفعه ولا يرفعه شيء، كما قال تعالىٰ: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾[الجن:٢٣]، ومن سوء صنيعهم أنهم استعجلوا العذاب في الدنيا واستعجلوه في الآخرة: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللهمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[الأنفال:٣٢]، فلو قالوا: اهدنا لكان خيرًا لهم.

﴿ مِنَ اللهِ ﴾ أي: هذا العذاب سيكون من الله عز وجل، ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ أي: صاحب الدرجات معارج السماء، وقال قتادة: ذو الفضائل والنعم.

﴿ تَعْرُجُ ﴾ أي: تصعد؛ لأن العروج من أسفل إلىٰ أعلىٰ، ﴿ الْمَلائِكَةُ ﴾ الذين كلفهم الله شأن المكلفين، فعن أبي هريرة ا أَنَّ رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم، قَالَ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي

صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ »، متفق عليه.

والإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الستة، وهم خلق من خلق الله خلقهم الله من نور: ﴿ لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[التحريم:٦]، ﴿ وَالرُّوحُ ﴾ جبريل عليه السلام، فكان هذا من عطف الخاص علىٰ العام، ﴿ إِلَيْهِ ﴾ أي: إلىٰ الله وهذا دليل علىٰ أن الله في السماء علىٰ عرشه وليس في كل مكان كما يقول المبطلون، ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قيل: هذا العروج يكون علىٰ مقدار يوم مقداره خمسين ألف سنة وهي المائة ما بين الأرض السفلىٰ وبين العرش وقيل: بأن هذا يكون بين يوم القيامة وبين الدنيا وهذا غير صحيح، وقيل: بأن هذا طول يوم القيامة وهذا هو الصحيح: أن يوم القيامة طوله خمسين ألف سنة كما قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «إ مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ، لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَىٰ بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّىٰ يُقْضَىٰ بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَىٰ سَبِيلَهُ، إِمَّا إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَىٰ النَّارِ...»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ؟ قَالَ: «وَلَا صَاحِبُ بَقَرٍ، وَلَا غَنَمٍ، لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ»، متفق عليه،

الحديث.

﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ أي: اصبر يا محمد علىٰ أذىٰ الكفار صبرًا جميلًا فإن النصر آتي لا محالة.

﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أي: إن الكفار ﴿ يَرَوْنَهُ ﴾ يوم القيامة ﴿ بَعِيدًا ﴾ لتكذيبهم باليوم الآخر مع أن كل ما هو آتٍ قريب.

﴿ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ والنبي صلىٰ الله عليه وسلم حين بعثه الله قال: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» متفق عليه، ويُخبر النبي صلىٰ الله عليه وسلم أن هذه الأمة ما هي في الأمم كمثل صلاة العصر إلىٰ غروب الشمس، فعن ابن عمر ا عَنِ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم قَالَ: «مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الكِتَابَيْنِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةَ إِلَىٰ نِصْفِ النَّهَارِ عَلَىٰ قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ اليَهُودُ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَىٰ صَلاَةِ العَصْرِ عَلَىٰ قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَىٰ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنَ العَصْرِ إِلَىٰ أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَىٰ قِيرَاطَيْنِ؟ فَأَنْتُمْ هُمْ»، فَغَضِبَتِ اليَهُودُ، وَالنَّصَارَىٰ، فَقَالُوا: مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا، وَأَقَلَّ عَطَاءً؟ قَالَ: «هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟» قَالُوا: لاَ، قَالَ: «فَذَلِكَ، فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ»، أخرجه البخاري.

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾[الأحزاب:٦٣].

﴿ يَوْمَ ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴾ هذه السماء العظيمة

المترابطة الصماء كالمهل: الرصاص الذي قد ذاب من شدة الحر تتفطر وتسيل سيلانًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾[الرحمن: ٣٧].

﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ هذه الجبال العظيمة تكون كالريش والصوف الذي يتطاير في الهواء، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾[القارعة:٥].

﴿ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ أي: لا يسأل صديق أو قريب صديقه وقريبه، وهو يراه في أسوء الأحوال، فكلٌّ مشغول بنفسه، الأب والأم والزوج والأخ والابن، لا يلوي أحد علىٰ أحد.

﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ أي: أن كل واحد يرىٰ صاحبه في الآخرة، فيرىٰ أباه، وأخاه، وأمه، وعدوه، وصاحبه؛ لأن الله عز وجل جعل الأرض: ﴿ قَاعًا صَفْصَفًا * لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾[طه:١٠٦-١٠٧]، ومع ذلك: ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ ﴾ يتمنىٰ الكافر، ﴿ لَوْ يَفْتَدِي ﴾ لو يشتري نفسه ويعتقها من سوء ما هي فيه، ﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ ﴾ من عذاب الله في ذلك اليوم، ﴿ بِبَنِيهِ ﴾ الذين هم أحب الناس إليه في الدنيا، قد يضحي بنفسه في الدنيا من أجلهم ويظلم ويجور ويفجر ويقتل ويُسجن إلىٰ غير ذلك.

﴿ وَصَاحِبَتِهِ ﴾ زوجته يتمنىٰ أن يفتدي بزوجته، ﴿ وَأَخِيهِ ﴾ من صلبيته ابن أبيه وأمه.

﴿ وَفَصِيلَتِهِ ﴾ بعشيرته، ﴿ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴾ تناصره وتعاضده.

بل: ﴿ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ يفتدي هذا الكافر بمن في الأرض جميعًا علىٰ أن يسلم، ﴿ ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴾ أي: ينجو من هذا العذاب.

والحال كما قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾[عبس: ٣٤-٣٧]، وفي حديث عن أنس رضي الله عنه: «لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ - أَحْسِبُهُ قَالَ: وَلَا أُدْخِلَكَ النَّارَ - فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ»، أخرجه مسلم.

﴿ كَلَّا ﴾ حقًا، وهو صرف ردع وزجر، وكلا إنما أتت في النصف الأخير من القرآن، ﴿ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴾ أي: إن هذه النار لظىٰ لشدة حرارتها وغليانها تلتهب علىٰ أهلها.

﴿ نَزَّاعَةً لِلشَّوَىٰ ﴾ تنزع الجلد الذي علىٰ الرأس والوجه، لشدة حرارتها وعظيم شأنها.

﴿ تَدْعُوا ﴾ تتبع وقيل: تدعوهم بلسان ناطق أفصح ما يكون، ﴿ مَنْ أَدْبَرَ ﴾ من أعرض عن دين الله، ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ عن العمل بسنة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم.

وكان من شأنه: ﴿ وَجَمَعَ ﴾ المال، ﴿ فَأَوْعَىٰ ﴾ حَصَّلَ منه الشيء الكثير؛

لكنه لم ينفقه في سبيل الله ولم يستخدمه في مرضات الله فكان عليه وبالا كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ ، مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يَتْبَعُ صَاحِبَهُ حَيْثُمَا ذَهَبَ فَاتِحًا فَاهُ، وَهُوَ يَفِرُّ مِنْهُ فَيَقُولُ: وَيْلَكَ مَا أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا مَالُكَ الَّذِي كُنْتَ تَبْخَلُ بِهِ، أَنَا كَنْزُكَ الَّذِي خَبَأْتَهُ، قَالَ: فَوَاللهِ لَنْ يَزَالَ يَطْلُبُهُ حَتَّىٰ يُطَوَّقَهُ فَيَتَقِيهِ بِيَدِهِ، فَيَلْقَمُهَا، فلَا يَزَالُ يَقْضَمُهَا كَمَا يَقْضَمُ الْفَحْلُ، ثُمَّ يُتْبِعُهُ بِسَائِرِ جَسَدِهِ»، متفق عليه، وعادة الإنسان أنه جماع مناع إلا ما رحم ربي.

ثم يقول تعالىٰ مخبراً عن جنس الإنسان وما جبل عليه من الأخلاق: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ بخيلًا شديد الحرص علىٰ المال، ثم فسره بقوله: ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ إذا نزل به الشر والفقر والحاجة المرض ﴿ جَزُوعًا ﴾ أي: أصيب بالجزع وتجد أنه يتسخط ويتشكىٰ، وينخلع قلبه من الخوف ونحو ذلك.

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾[الفجر: ١٥-٢٠]، المال والجاه والمنصب وغير ذلك ﴿ مَنُوعًا ﴾ يمنع استخدام الخير في أوجه الخير، فهذا عادة جميع الناس إلا من استثناهم الدليل الذي سيأتي.

﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ أي: الذين يحافظون علىٰ الصلاة ويبادرون إليها، وهذا دليل علىٰ أن الصلاة مفتاح كل خير، وأن أصحابها هم أحسن الناس وأزكاهم.

﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ من شأنهم: أنهم علىٰ صلاتهم دائمون، والمراد بها الصلوات المفروضات يلازمونها ويصلونها في أوقاتها كما سيأتي في آخر الآيات، لا يصلي يوم ويترك أو يصلي الجمعة وترك غيرها.

﴿ وَالَّذِينَ ﴾ أي: وممن يسلم من هذا الوصف: ﴿ الَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾ من زكاة، وصدقة، وهبة، ووقف، وعمرىٰ ونحو ذلك مما أباحه الله، والمال المعلوم في هذه إن كان من الصامت ربع العشر إذا حال عليه الحول، وإن كان من الزراعة ففيها العشر إذا كان سُقياها بالمطر، ونصف العشر إذا كان سُقياها بالسانية، في تفصيل لأهل العلم مذكورة في كتب الفقه.

﴿ لِلسَّائِلِ ﴾ أي: الطالب الذي يأتي من مكان إلىٰ مكان يسأل الناس أن يعطوه، ﴿ وَالْمَحْرُومِ ﴾ الممنوع من الرزق الذي لحقه الضرر.

قال: ﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ وأيضًا من أوصافهم العظيمة أنهم: ﴿ يُصَدِّقُونَ ﴾ يؤمنون، ﴿ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ يوم الجزاء والحساب وهو يوم القيامة، وهذا مما يجب الإيمان به وهو أحد أركان الإيمان الستة.

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ أيضًا من صفاتهم: أنهم يخافون

عذاب الله ويخشونه ويرهبون منه، وهؤلاء الذين يُرجىٰ لهم الخير، أما الآمن من مكر الله يُخشىٰ عليه، واليائس من رحمة الله يُخشىٰ عليه.

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ وهذا توكيد من عذاب الله واق بالكافرين فلا يجوز أن تأمن مكر الله حتىٰ يدخل المرء الجنة.

أما قبل ذلك فلا يدري أحد ما في كتاب الله المحفوظ وما في علم الله، فعن ابن مسعود رضي الله عنه: «يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا»، متفق عليه، فكيف تأمن عذاب الله، بل عليك أن تدعُ الله عز وجل: «رَبِّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَجْمَعُ عِبَادَكَ».

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ ومن أوصافهم: أنهم يحفظون فروجهم عن الزنا، واللواط، والعادة السرية، وغير ذلك من الأمور المنكرة التي يتعاطاها الناس إلا من رحم الله لا سيما في هذه الأيام بسبب النظر إلىٰ التلافز والدشوش، والمقاطع الخليعة والله المستعان.

فينبغي للمرء أن يحفظ فرجه فعن علي ا قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «احْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ ، أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ»، وعن عبادة بن الصامتا أَنَّ النَّبِيَّ صلىٰ الله عليه وسلم قَالَ: «اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ»، أخرجه أحمد.

ومن حفظ الفروج: عدم إظهار الفروج فقد صح عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «يَا جَرْهَدُ، غَطِّ فَخِذَكَ فَإِنَّ يَا جَرْهَدُ، الْفَخِذَ عَوْرَةٌ».

﴿ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ ﴾ أي: أن فروجهم محفوظة إلا علىٰ أزواجهم؛ لأن الله أباح لهم أن يستمتعوا بهن في مكان الحرث، قال تعالىٰ: ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾[البقرة:٢٢٣]، ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ أي: الإماء الجواري، ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ أي: لا لوم يتبعهم في الاستمتاع بما أباحه الله لهم بالنظر واللمس والمعاشرة وغير ذلك.

﴿ فَمَنِ ابْتَغَىٰ ﴾ في فرجه، ﴿ وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾ من الأعمال المحرمة، ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ المعتدون لحدود الله، وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾[الطلاق:١].

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ من أوصافهم أنهم يؤدون الأمانات ويوفون بالعهود ويرعونها، فلا ينقضونها بخلف ولا بغير ذلك، قال الله عز وجل: ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ الله وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾[الرعد:٢٠]، وقال الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾[المائدة:١].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم قَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»، متفق عليه.

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ ومن أوصافهم أنهم إذا عندهم شهادة بادروا إلىٰ أدائها ولم يكتموها قال الله عز وجل: ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ

﴾[البقرة:٢٨٣]، فلا يجوز كتم الشهادة كما أنه لا يجوز المبادرة بالشهادة إلا إذا خشي ضياع الحق، فعن زيد بن خالد ا قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «خَيْرُ الشُّهَدَاءِ مَنْ أَدَّىٰ شَهَادَتَهُ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا»، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم في وصف المتسرعين للشهادة مع توافر الشهود وظهور الحق: «وَيَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ»، ويجب أن تقوم بالشهادة علىٰ الوجه الذي رأيت وسمعت وعلمت لا يجوز أن تشهد بالزور فإن النبي صلىٰ الله عليه وسلم أخبر أنه من الكبائر فعن أبي بكرة ا قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم فَقَالَ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟»، ثَلَاثًا «الْإِشْرَاكُ بِالله، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ - أَوْ قَوْلُ الزُّورِ -» وَكَانَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم مُتَّكِئًا، فَجَلَسَ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّىٰ قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ»، متفق عليه.

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ ومن أوصافهم أنهم يحافظون علىٰ صلواتهم ولعظيم شأن الصلاة ذكرها مرتين: **الأولىٰ**: أنهم يداومون عليها، **والثانية**: أنهم يحافظون عليها، ومعنىٰ ذلك: يحافظون علىٰ وضوئها، وركوعها، وسجودها، ووقتها كما قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ افْتَرَضَهُنَّ الله عَلَىٰ عِبَادِهِ مَنْ أَحْسَنَ وُضُوءَهُنَّ وَصَلَّاهُنَّ لِوَقْتِهِنَّ، فَأَتَمَّ رُكُوعَهُنَّ وَسُجُودَهُنَّ وَخُشُوعَهُنَّ كَانَ لَهُ عِنْدَ الله عَهْدٌ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ الله عَهْدٌ إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ»، أخرجه أبو

داود.

﴿ أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴾ أي: أن من تقدمت أوصافهم في جنات وزرع مكرمون بأنواع الملاذ من الملابس، والمآكل، والمشارب، وما يستمتع به من النساء، وفي سورة المؤمنون يقول: ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[المؤمنون:١٠-١١].

ثم قال الله عز وجل: ﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ ﴾ مال هؤلاء الكفار ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾[المدثر: ٤٩ – ٥١] .

﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ ﴾ أي: يقعدون، ﴿ عِزِينَ ﴾ حال كونهم متفرقين لا يستفيدون من نصح ولا ينزجرون عن باطل.

﴿ أَيَطْمَعُ ﴾ أيظن ويتمنىٰ، ﴿ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ ﴾ كل واحد منهم ﴿ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ يتنعم فيها ولا يمكن أن يدخل الجنة إلا بعمل يقدمه: وهو الإيمان بالله وما يكون منه.

ثم قال مقررًا حصول المعاد: ﴿ كَلَّا ﴾ حقا، ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴾، ﴿ من ماء دافق يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾[الطارق:٧]، وأصلهم أنه خلق آدم من تراب.

ثم قال عز وجل: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ ﴾ أقسم بمخلوقات عظيمة، وله أن يقسم بما شاء، أما أنت فلا يجوز لك أن تُقسم إلا بالله سبحانه وتعالىٰ أو بصفة من

صفاته، قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ أَشْرَكَ»، ﴿ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ ﴾ المشارق المراد بها: مطالع الشمس ومطالع القمر، والمغارب: المراد بها مغارب الشمس والقمر؛ لأن لكل يوم مطلع وغروب، فعدد المطالع ثلاثمائة وستين مطلعًا، وما جاء في قول الله عز وجل: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾[الشعراء:٢٨]، فالمراد مشرق الشمس و مغربها، وأما قوله: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾[الرحمن:١٧]، فالمراد به الصيف والشتاء، ﴿ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴾ أي: علىٰ جمعهم وإعادتهم.

بل: ﴿ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ علىٰ الإيمان والاستقامة، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ بمعجزين فلا يعجز الله شيئًا؛ لكمال قدرته وعلمه كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ الله لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾[فاطر:٤٤]، قال تعالىٰ: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[الواقعة: ٦٠-٦١].

﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ اتركهم يا محمد، ﴿ يَخُوضُوا ﴾ في باطلهم، ﴿ وَيَلْعَبُوا ﴾ في نواديهم، ﴿ حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ يوم القيامة فيجازون علىٰ أعمالهم، هم الآن لا يقبلون المواعظ ولا يقبلون الذكرىٰ والحال: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾[الغاشية:٢١-٢٢]، سيكون شأنهم ما قاله الله عز وجل: ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾[الشعراء:٢٢٧].

﴿ يَوْمَ ﴾ أي: أنهم يلاقون يومهم الذي يوعدونه في: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ

﴿الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ يخرجون من القبور مسرعين، ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ﴾ إلىٰ صنم، ﴿يُوفِضُونَ﴾ يُسرعون كحال الكفار في الدنيا في إسراعهم إلىٰ الشرك، وذكر الله لأ حالهم حين يذهبون إلىٰ عبادة الأصنام كل منهم يريد يسبق ويصل إلىٰ الصنم قبل صاحبه من أجل أن يتبرك به ويتمسح به، فهم سيخرجون من الأجداث سراعًا كما قال الله عز وجل: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾[يس:٥١]، أي: يسرعون في مشيهم.

﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ مرفوعة من شدة الخوف والهلع كمن ينتظر أن يأتيه العدو من مكان فيبقىٰ ينظر بعينه لا يجاوزها، ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ تعلوهم قترة وسواد وخوف، ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ الذي كنت يخبرهم به الأنبياء والمرسلون ولكنهم أبوا إلا الكفر والعناد، والله المستعان، والحمد لله رب العالمين.

سور نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

مكية.

يخبر الله عز وجل في هذه السورة: أنه أرسل نوحًا إلىٰ قومه فقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا ﴾ علىٰ التعظيم وإلا فالمُرسل، ونوح هو أول رسول إلىٰ أهل الأرض كما في حديث أبي هريرة في قصة الشفاعة، ﴿ إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ الذين هو منهم، وأما قول الله عز وجل: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾[الشعراء:١٠٥]، أي: أنهم بتكذيبهم لنوح كذبوا جميع المرسلين، ولهذا من كفر برسول ونبي واحد كان كافرًا بجميعهم، ﴿ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ﴾ أي: أمره الله عز وجل بإنذار قومه وهو دعوتهم إلىٰ التوحيد وتحذيرهم من الشرك والتنديد، ﴿ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ عذاب موجع بسبب كفرهم وبغيهم، وفعلًا جاءهم عذاب في الدنيا وهو الغرق، وعذاب الآخرة أشد وأنكىٰ.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ ﴾ أي: أنه التزم أمر الله وخرج يدعوهم إلىٰ الله: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ ﴾ أُنذركم وأبين لكم ما أدعوكم إليه، وكان لهم من الناصحين إذ قد قال: ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف:٦٢]، وهكذا كل رسول بعثه الله كان مبينًا لما أُرسل به.

﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ ﴾ وحده، ﴿ وَاتَّقُوهُ ﴾ بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ إذ أن طاعة الرسول طاعة لله، كما قال تعالىٰ: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ

﴿فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾[النساء:٨٠]، ويقول الله عز وجل في شأنه: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾[الشعراء:١٠٨].

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: يغفر لكم ذنوبكم، قيل: ﴿مِنْ﴾ صلة وتوكيد وقيل: للتبعيض وقيل: بمعنىٰ عن: يغفر لكم عن ذنوبكم، ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: يطيل في أعماركم علىٰ طاعته، إلىٰ أجل معلوم مكتوب، ففي حديث ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا»، أخرجه مسلم.

ويستدل بهذه الآية مع حديث أبي هريرة وأنس رضي الله عنهما: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»، علىٰ أن الأعمال الصالحة من أسباب طول العمر، والصحيح أن العمر في علم الله لا واحد، ولكن يبارك اصاحب العمل الصالح في عمره وعمله، ﴿إِنَّ أَجَلَ اللهِ

﴿ إِذَا جَاءَ ﴾ أي: الموت الذي قدره علىٰ العباد، وكما قال تعالىٰ: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾[الرعد:٣٨]، ﴿ لا يُؤَخَّرُ ﴾ عنكم مهما فعلتم، ﴿ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك وتدركونه.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾، هذه شكاة من نوح عليه السلام إلىٰ ربه؛ بسبب إعراض قومه قال: يا رب: ﴿ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي ﴾ إلىٰ عبادتك وتوحيدك، ﴿ لَيْلًا ﴾ أي: في ليلهم، ﴿ وَنَهَارًا ﴾ أي: في نهارهم.

ومع ذلك: ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴾ لم يزدادوا بكثرة دعوتي لهم إلا فرارًا وبعدًا وإعراضًا وهذا غاية الإعراض أن الإنسان يستمر معه الناصح وكلما سمع النصيحة ردها والله المستعان، وفي هذا إرشاد إلىٰ الدعاة إلىٰ الله عز وجل بالصبر والتأني وعدم العجلة والتأسي بهؤلاء.

بل بلغ بهم الإعراض: ﴿ إِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ ﴾ إلىٰ عبادة الله عز وجل ودعوتهم: ﴿ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ ذنوبهم إذا استجابوا للدعوة: ﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ حتىٰ لا يسمعوا ما يلقىٰ عليهم، ﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ غطوا أنفسهم حتىٰ لا يُعرفوا، ﴿ وَأَصَرُّوا ﴾ علىٰ ما هم فيه من الباطل، ﴿ وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ وكان السبب في إعراضهم هو الكبر، وهكذا أغلب الكفار علىٰ هذا الحال، كما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[الصافات:٣٥]، وهذا الصنيع منهم كصنيع كفار قريش إذ أنهم تمالؤوا علىٰ عدم سماع القرآن وعلىٰ اللغو فيه حتىٰ لا تقع لهم

الاستجابة، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[فصلت: ٢٦]، والمصر علىٰ باطله قد دعا عليه النبي صلىٰ الله عليه وسلم بقوله: «وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ، الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ»، أخرجه أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، بينما المؤمن تجد منه التوبة والرجوع وعدم الإصرار، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَالله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا الله فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا الله وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[آل عمران:١٣٣-١٣٥].

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ جهر لهم بالدعوة في نواديهم وطرقهم وجميع حالاتهم.

﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ ﴾ الدعوة، ﴿ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ دعوتهم سرًا وجهرًا ومع ذلك أبوا إلا الكفر والعناد، وكان من دعوته أنه دعاهم إلىٰ الاستغفار.

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ أي: أنه أمرهم بالاستغفار وهو طلب المغفرة، وأمرهم بالتوبة من الشرك فما دونه، والاستغفار شأنه عظيم بعثت به الرسل كما قال الله عز وجل: ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ

مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾[هود:١-٣]، فالاستغفار سبب لسعة الأرزاق وصلاح الأحوال، وهود عليه السلام يقول لقومه: ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾[هود:٥٢]، ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ صيغة مبالغة من مغفرة الذنوب وسترها، فإن الغفر هو الستر: ﴿ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ ﴾[آل عمران:١٣٥].

﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ ﴾ ينزل المطر منها السحاب، ﴿ مِدْرَارًا ﴾ دفاقًا فيسقي به الأرض فتعود خضرة نضرة بعد أن كانت مواتًا.

وإن حصلت منكم التوبة والإنابة: ﴿ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ ﴾ كثيرات مباركات، ﴿ وَبَنِينَ ﴾ أبناء وبنات فيهم الصلاح والخير، ﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ ﴾ مزارع وافرات فيها من كل ما لذ وطاب، ﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ تتدفق بين مزارعكم وبيوتكم فتشربون وتغتسلون وتروون أنعامكم منها؛ ولكنهم أبوا إلا الكفر والعناد.

ثم قال منكرًا عليهم شدة إعراضهم: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا ﴾ يا معاشر الكفار لا تعظمون الله عز وجل: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا

يُشْرِكُونَ ﴾[الزمر:٦٧]، فلو قدروا الله حق قدره ما عصوا ولا كفروا به ولا تمردوا علىٰ شرعه، ولكنهم لا يعظمون الله عز وجل فأنكر عليهم هذا الصنيع.

﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ خلقكم طور بعد طور، يكون نطفة أمشاج، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظام، ثم تكسىٰ العظام لحم، ثم يخرج طفلًا وهكذا يتدرج في الحياة إلىٰ أن يكون شيخًا كبيرًا ويموت، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾[المؤمنون: ١٢-١٦]، وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّىٰ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾[الحج: ٥].

﴿ أَلَمْ تَرَوْا ﴾ ألا تنظرون إلىٰ هذا العالم من حولكم، ﴿ كَيْفَ خَلَقَ الله ﴾ عز وجل، ﴿ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ عظيمات مرتفعات، ﴿ طِبَاقًا ﴾ كل واحدة فوق الأخرىٰ.

﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾ جعل القمر في السماء منيرًا لا حرارة فيه، ويبدأ بالهلال وينتهي بالمحاق: ﴿ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾[يونس:٥]، ﴿ وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ منيرة محرقة، ولله الحكمة لو كانت الشمس نورًا بدون حرارة لربما فسدت كثير من حياة الناس بسبب الرطوبة؛ ولكن تأتي هذه الشمس الحارة فتبدد الرطوبة وتنضج الثمار وتحصل بها كثير من المصالح.

﴿ وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ أي: أن الله خلق أباكم آدم من الأرض كما في الحديث: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَىٰ قَدْرِ الأَرْضِ، فَجَاءَ مِنْهُمُ الأَحْمَرُ وَالأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالحَزْنُ والخبيث والطيب» أخرجه أبو داود (٤٦٩٣).

﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾ بعد الموت، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴾[المرسلات: ٢٥-٢٦] ، ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ أي: يوم القيامة تخرجون من قبوركم كما تقدم في قوله تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾[المعارج:٤٣-٤٤].

ثم بين لهم امتنان الله عليهم: ﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ هذه الأرض العظيمة الواسعة جعلها لكم بساطًا تستفيدون منها.

﴿ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا ﴾ من الأرض ﴿ سُبُلًا ﴾ طرقًا ﴿ فِجَاجًا ﴾ واسعة،

وجعلها جبالًا وهاد ولكل فائدة عظيمة، فلو كانت كلها مسطحة مستوية لربما إذا جاءت السيول لأغرقتها وفسدت المزارع والبيوت والحال، ولو جعلها كلها جبال لشق ذلك علىٰ الناس، ولكن بعضها وهاد وبعضها جبال.

ثم قال شاكيًا مرة أخرىٰ: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ﴾ أي: إن قومي عصوني وتمردوا علىٰ دعوتي لهم، وقد كان عليه السلام لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عام يدعوهم إلىٰ الله ومع ذلك أبوا إلا الإعراض، ﴿ وَاتَّبَعُوا ﴾ أي: تابعوا، ﴿ مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾ تابع بعضهم بعضًا علىٰ ما رُزقوا من الأموال والأولاد ولكنهم لم يشكروا نعمة الله عز وجل فلم يدخلوا في دينه، وما ازدادوا بأموالهم وأولادهم إلا خسارة كما قال الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾[التغابن:١٤]، هذا إذا كانا مسلمين، فكيف إذا كانا كافرين.

﴿ وَمَكَرُوا ﴾ أي: قوم نوح بنوح ومن آمن معه ﴿ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ أي: عظيمًا ومع ذلك مكر الله بهم، كما قال: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[الأنفال:٣٠]، ومن مكرهم: أنهم تمالؤوا علىٰ عدم الإيمان به، وأنهم كانوا يمرون به وهو يصنع السفينة فيضحكون عليه ويسخرون منه، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾[هود: ٣٨-٣٩].

﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ﴾ أي: من مكرهم أنهم قالوا: لا تتركوا آلهتكم، ﴿ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ هذه أصنام كانوا يتعبدون لها قيل: بأنها صور لقوم صالحين كانوا يجلسون عندها لتذكرهم العمل ثم طال عليهم العهد فعبدوها من دون الله عز وجل، فعن ابن عباس ا في البخاري: فِي قَوْلِهِ: ﴿ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ﴾[النجم: ١٩]، «كَانَ اللَّاتُ رَجُلًا يَلُتُّ سَوِيقَ الحَاجِّ»، فانظر كيف يتمالؤون عبادة الأصنام ويشجع بعضهم بعضًا، بل إنهم كما قال الله عز وجل يقولون: ﴿ إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[الفرقان:٤٢].

﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ أي: بهذه الدعوة وهذا المكر أضلوا كثيرًا إلىٰ عبادة الأصنام وعبادة الأوثان بينما كان قبل ذلك ما بين نوح وآدم عشرة قرون كلها علىٰ التوحيد حتىٰ دخل بعد ذلك الشرك والتنديد، ﴿ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلالًا ﴾ أي: أن الظالمين لا يزدادون بظلمهم إلا ظلالًا وإعراضًا عن دين ربهم؛ لأن الله عز وجل يهدي من علمه أهلًا للهداية، ويضل من علمه أهلًا للضلال.

﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ ﴾ بسبب خطيئتهم، وذنوبهم ومعاصيهم، ﴿ أُغْرِقُوا ﴾ أي: في الدنيا بسبب دعوة نوح إذا أنه دعا الله عز وجل أن يغرقهم وما سلم إلا أصحاب السفينة، ﴿ فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾ نارًا تلظىٰ، وهذا دليل علىٰ عذاب القبر أُدخلوا نارًا بعد موتهم، وكذلك يعذبون في النار في أُخراهم، ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا

لَهُمْ مِنْ دُونِ الله أَنْصَارًا ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ الله إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾[هود:٤٣]، وقال: ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ الله فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَىٰ الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[آل عمران:١٦٠].

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ ﴾ داعيًا ربه تعالىٰ بتلك الدعوة التي أعطاه الله فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ الله مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا»، متفق عليه، وهذا دليل علىٰ فضله وعلو منزلته وعظيم شفقته بأمته، ورحمة الله لهذه الأمة إذ أنه قبض نبيها قبلها، وأما الأمم السابقة فكان يعذبها ونبيها حي حتىٰ يقر عينه بهلاكهم، وفي هذا جواز الدعاء علىٰ الكافرين بالهلاك والعذاب ونحو ذلك،﴿ لا تَذَرْ ﴾ لا تترك، ﴿ عَلَىٰ الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ أي: صاحب دار بل أهلكهم ودمدم عليهم.

والسبب: ﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ إنك يا رب إن تتركهم علىٰ ما هم عليه يضلوا عبادك إلىٰ الشرك والكفر، ﴿ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ يعني: قد راقب أحوالهم وجد أن الأول يلد الثاني والثاني أفجر من الأول كلهم علىٰ فجور وكلهم علىٰ إعراض، بينما النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال في شأن أهل مكة: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ الله لَا يُشْرِكُ بِهِ

شَيْئًا»، وفعلًا أخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئًا، فانظر من أبي جهل عكرمة، ومن الوليد بن المغيرة خالد بن الوليد وغيرهم.

بعد أن أغرق الله عز وجل قوم نوح وأكرمه باستجابة دعوته وسلامة أتباعه في السفينة شكر الله علىٰ ذلك وقال: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي ﴾ أي: ذنبي وتجاوز عني، ﴿ وَلِوَالِدَيَّ ﴾ فيه فضيلة الدعاء للوالدين، ودليل علىٰ أن والدي نوح كانا علىٰ الإسلام أما إبراهيم كان أبوه علىٰ الكفر ولذلك لما دعا لأبيه نهاه الله عز وجل عن ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾[التوبة:١١٣]، ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾[التوبة:١١٣-١١٤]، ﴿ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا ﴾ فيه الدعاء للمؤمنين وللمؤمنات، فالمسلم يُشرك في دعوته أهل الإسلام، ولهذا كان في التشهد: «السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ عِبَادِ الله الصَّالِحِينَ، فإنه إن قال ذلك أصابت كل عبد صالح في السموات والأرض»، متفق عليه عن ابن مسعود رضي الله عنه، ﴿ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ لا تزد الظالمين إلا هلاكًا وبعدًا ودمارًا، وفعلًا استجاب الله عز وجل دعوته وإلىٰ الآن يمكر الماكرون ويتربص المتربصون، والعاقبة للتقوىٰ كما قال الله عز وجل: ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[طه:١٣٢]، وكما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾[غافر:٥١].

والحمد لله رب العالمين.

سورة الجن

بسم الله الرحمن الرحيم

مكية.

وكان من شأن ذلك؛ أن الجن كانوا يسترقون خبر السماء، فلما كان مبعث النبي صلىٰ الله عليه وسلم حيل بينهم وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب، فتراجعوا بينهم فقالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا أمر فضربوا مشارق الأرض ومغاربها يبحثون عن السبب الذي حال بينهم وبين خبر السماء، فمروا والنبي صلىٰ الله عليه وسلم يصلي الفجر بنخلة بين مكة والطائف فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، كما في حديث ابن عباس ا في الصحيحين فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۞ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ ﴾[الأحقاف:٢٩-٣١]، وأنزل الله عز وجل في شأنهم هذه السورة التي بين فيها أمرًا عظيمًا.

وقد جاءهم النبي صلىٰ الله عليه وسلم في ليلة أخرىٰ واعدهم ليلةً يعلمهم دين الله فعلمهم ما شاء الله أن يُعلم وجعل لهم كل عظم ذكر اسم الله عليه أوفر ما يكون لحمًا، وكل بعرة علف لدوابهم.

قوله: ﴿ قُلْ ﴾ أي: يا محمد، ﴿ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ أي: أنزل الله وحيًا يتلىٰ وأخبره بذلك، ﴿ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ ﴾ مجموعة من الجن سمعوا لقراءة النبي صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ فَقَالُوا ﴾ لقومهم، ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ سمعنا مقروءً عجيبًا في نظمه وخبره وسياقته وحججه فهو كلام الله الذي: ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ﴾[فصلت:٤٢]، وإنما حين قلت علوم الناس وقل تدبرهم وتفكرهم صار أحدهم يقرأ القرآن يهذه هذًا لا يدري ما فيه وإلا فلو تؤملت معاني القرآن لوجدت الشيء التي تحار فيه عقول وقلوب أُلي الألباب.

ومن عجبه: ﴿ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾ يرشد إلىٰ سبيل الفلاح والصلاح في الدنيا والآخرة، فكلمة الرشد كلمة عامة، تدل علىٰ كل فلاح، قال الله لأ عن إبراهيم: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾[الأنبياء: ٥١]، ﴿ فَآمَنَّا بِهِ ﴾ صدقناه واتبعناه، ﴿ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ وسنكون في بعد عن الشرك؛ لأن الشرك ظلم عظيم، وهذا من حسن خطاب هؤلاء النفر من الجن؛ أنهم آمنوا بالله وجاءوا بالمأمور وتركوا المحظور وهذا تمام التقوىٰ.

﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ أي: وأخبروا أن الله تعالىٰ تقدس وتعاظم عن صفات المخلوقين، ﴿ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ عظمة ربنا فالجد بالفتح: العظمة كما قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ، مِنْكَ الْجَدّ»، أي: لا ينفع صاحب العظمة عظمته أمام عظمة الله عز وجل، ﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً ﴾ كما

يقول الجن وغيرهم، ومن زعم أنه بالكسر فقد أخطأ، فإن معناه الغنىٰ، وهو من أفراد العظمة، ﴿ وَلا وَلَدًا ﴾ كما يقول النصارىٰ وغيرهم، فلا يكون عظيمًا غنيًا كاملًا في جميع صفاته ويتخذ زوجة أو يتخذ طفل، هذا إنما يحتاجه المخلوق الضعيف الذي يموت، ويعجز، ويضعف، ويحتاج وأما الله عز وجل فهو العظيم المنزه عن هذا كله.

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَىٰ اللهِ شَطَطًا ﴾ أي: أن هذا القول كان يقوله السفهاء، والسفهاء شؤم وبلاء لا يرعوون عن باطل ولا يسكتون عن سفه، كما قال تعالىٰ: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾[البقرة:١٤٢]، فلا أسوأ من سفه الكافرين، والمنافقين، وثم سفه المبتدعين الضالين، ثم سفه العصاة المخالفين لدين رب العالمين، فإن لم يكن الإنسان مستقيمًا علىٰ دين الله ففيه من السفه بقدر إعراضه، ﴿ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ أي: سفهاء الجن، ﴿ عَلَىٰ اللهِ شَطَطًا ﴾ قولًا باطلًا ودعوىٰ سيئة من أن له صاحبة وولدًا.

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا ﴾ أي: لتعظيمهم لله، ﴿ أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنسُ ﴾ أي: المتمردين علىٰ الله، ﴿ وَالْجِنُّ ﴾ أي: جنسهم، ﴿ عَلَىٰ اللهِ كَذِبًا ﴾ ولكنهم قد قالوا عليه الكذب زعموا أنه اتخذ صاحبه، له ولد، وزعموا أن له شريكًا في ملكه وعبادته إلىٰ غير ذلك.

وكان يسافر المسافر من الإنس فإذا مر بوادي من الوديان يقول: يا

صاحب هذا الوادي أو يا سيد هذا الوادي أنا في جوارك فعند ذلك يرسل عليه هذا السيد سفهاء الجن فيزدادون به لعبة ويزداد شركًا وتعلقًا بهؤلاء، ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ ﴾ أي: من المسافرين ونحوهم، ﴿ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ ﴾ أي: يلوذون بهم في دفع الضرر عليهم، ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أي: طغيانًا وغيًا؛ لأنهم كانوا يقولون سدنا الجن والإنس.

﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا ﴾ أي: هؤلاء الذين تقدم ذكرهم من الجن ومن الإنس، ﴿ كَمَا ظَنَنتُمْ ﴾ يا معشر قريش، ﴿ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ الله أَحَدًا ﴾ وبسبب عدم الإيمان باليوم الآخر فوقع منهم ما وقع؛ لأن الإنسان إذا ضعف أيمانه باليوم الآخر ولم يجعل نصب عينيه ما يأتيه من الأهوال والحساب والعقاب والنعيم والجزاء لربما تمادىٰ في شره وبعده.

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ ﴾ أي: صعدنا إلىٰ السماء لاستراق السمع كما كنا نصنع، والمراد باللمس القرب، ﴿ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا ﴾ من الملائكة يحرسونها من سراق الجن، ﴿ وَشُهُبًا ﴾ من النجوم يُرمون، ففي الصحيحين: «إِذَا قَضَىٰ الله الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الحَقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ - وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا، وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَىٰ

مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّىٰ يُلْقِيهَا عَلَىٰ لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا، فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنَ السَّمَاءِ »، متفق عليه.

﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ ﴾ نجلس، ﴿ مِنْهَا ﴾ السماء، ﴿ مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾ مجالس لاستراق السمع ﴿ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴾ شهابًا يرصده ويتبعه ويقضي عليه.

﴿ وَأَنَّا لا نَدْرِي ﴾ أي: لا نعلم السبب الذي حال بيننا وبين خبر السماء، ﴿ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ ﴾ لم يقولوا: أراد بهم ربهم شرًا وإنما قالوا: ﴿ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ ﴾ علىٰ البناء للمجهول وهذ من حسن خطابهم، ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ وهذا هو الواقع، فإن الله أنزل محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم بالرشد وقد جاء في خطبة الصحابي: «من يطع الله ورسوله فقد رشد» أخرجه مسلم عن عدي بن حاتم رضي الله عنه.

قال: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ ﴾ يخبر الجن عن أصنافهم، ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ ﴾ المستقيمون علىٰ دين الله، ﴿ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ المفرطون في طاعة الله، ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴾ أي: أنهم فرق متنوعة كما هو حال الناس من بني آدم تجد أنهم في كل بلد ينقسمون إلىٰ فرق وأحزاب وطوائف وغير ذلك.

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ الله فِي الأَرْضِ ﴾ أي: لن نفوته إذا أراد بنا أمرًا

فهو صاحب القدرة النافذة، ﴿ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴾ لو هربنا والواقع أنهم عاجزون عن الفرار من الله ولا فرار من الله إلا إليه كما قال تعالىٰ: ﴿ فَفِرُّوا إِلَىٰ الله إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾[الذاريات:٥٠].

﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ﴾ أي: القرآن الذي أنزل علىٰ محمد صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ آمَنَّا بِهِ ﴾ اتبعناه وأيقنا به، ﴿ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ ﴾ يوحد ربه عز وجل، ﴿ فَلا يَخَافُ بَخْسًا ﴾ نقصًا، ﴿ وَلا رَهَقًا ﴾ ولا زيادة، بل يجد من الله عز وجل الجزاء الأوفىٰ كما أخبر الله عز وجل: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾[النجم:٣٧]، فأعطاه الله الجزاء الأوفىٰ، كما قال: ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾[النجم: ٤١].

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ ﴾ أي: منا من دخل في دين الله واستقام عليه، ﴿ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ﴾ أي: المتمردون علىٰ شرع الله، ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ ﴾ لله عز وجل بجوارحه وقلبه وقوله، ﴿ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ فأولئك سلكوا سبيل الرشد وأخذوا به.

﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ ﴾ أي: المائلون عن الحق الذين كفروا بالله ورسله، ﴿ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ أي: يوم القيامة يكونون حطب جهنم، وجعله الله بصيغة الماضي مع أنه من الآتي لتحقق وقوعه كما قال الله عز وجل: ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾[التحريم:٦].

ثم قال: ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا ﴾ أي: الناس، ﴿ عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ ﴾ الحقة التي

أنزلها الله، ﴿ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ وسعنا لهم فيما يرزقون من المياه والنبات وغير ذلك فتشرب الأنعام وتكثر الثمار ويبارك فيها؛ ولكنهم أعرضوا فجازاهم الله بالقحط والسنين.

﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أي: لنخبرهم كيف شكرهم، فمن التزم شرع الله في الشدة والرخاء فهو المؤمن المثاب، ومن التزم شرع الله في الشدة دون الرخاء أو في الرخاء دون الشدة فهذا والعياذ بالله ضعيف إيمان، ومن لم يلتزم شرع الله لا في الشدة ولا في الرخاء فهؤلاء كفرة معرضون إذا كان إعراضهم كليًا، ﴿ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ ﴾ أي: ومن يعرض عن طاعة ربة فإن ذكر الله تأتي بمعنىٰ طاعة الله، ﴿ يَسْلُكْهُ ﴾ ندخله ﴿ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ شاقًا، وهذا إنما يكون في حق الكافر، وأما المؤمن فقد يعفو الله عز وجل عنه ويتجاوز إن شاء.

﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلهِ ﴾ أي: المواضع التي بنيت للصلاة لله عز وجل، فقد جعل الله لهذه الأمة الأرض مسجدًا وطهورًا، كما في حديث جابر ا وغيره، وقال سعيد بن جبير : المراد بالمساجد الأعضاء التي يقع عليها السجود، والأول أصح، ﴿ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا ﴾ أي: لا تشركوا مع الله غيره في الدعاء وغيره، والمعنىٰ: أن العبادة لله، فلا يجوز أن يبنىٰ عليها قبر ولا قبة ولا أن يدعىٰ من دون الله: لا ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا مهما علىٰ شأنه وعظمت منزلته فقد قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم لما قالت تلك المرأة: وفينا رسول الله يعلم ما في الغد قال: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ عِيسَىٰ

ابْنَ مَرْيَمَ» أخرجه البخاري.

﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ الله يَدْعُوهُ ﴾ أي: لما قام محمد صلىٰ الله عليه وسلم يعبد الله ويقرأ القرآن، ﴿ كَادُوا ﴾ يعني الجن ﴿ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ أي: اجتمعوا عليه حتىٰ كادوا أن يطؤوه، وهذا من حرصهم علىٰ سماع الحق، وفي هذا دليل علىٰ أن طالب العلم ينبغي أن يكون قريبًا من شيخه لا متنافرًا هاهنا وهاهنا، فإن النبي صلىٰ الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ تَفَرُّقَكُمْ فِي هَذِهِ الشِّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ، إِنَّمَا ذَلِكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ» أخرجه أبي داود، فلا يكون الجن أحسن حالًا من كثير من الإنس يقربون لسماع الهدىٰ والخير.

﴿ قُلْ ﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء الجن الذين جاءوا يسترشدون ويسمعون، ﴿ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي ﴾ أدعو إلىٰ إفراد الله لأ بالتوحيد والعبادة، ﴿ وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ لا ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا.

﴿ قُلْ ﴾ أي: يا محمد، ﴿ إِنِّي لا أَمْلِكُ ﴾ يا معاشر الجن والإنس، ﴿ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا ﴾ أي: لا أقدر علىٰ دفع ضر عنكم ولا جلب رشد لكم، إنما هو رسول الله لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا فضلًا عن غيره، كما قال الله عز وجل مخبراً عنه: ﴿ قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ الله ﴾[الأعراف:١٨٨]، وقال الله عز وجل: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ الله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[القصص:٥٦]، فلم يستطع أن يهدي عمه وقال لابنته: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ

الله شَيْئًا»، متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ قُلْ ﴾ قل لهؤلاء الجن ولغيرهم ممن يسمع دعوتك، ﴿ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي ﴾ يمنعني ﴿ مِنَ الله ﴾ إن تمردت علىٰ شرعه ودينه: ﴿ أَحَدٌ ﴾ مهما كان، ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي: من دون الله، ﴿ مُلْتَحَدًا ﴾ مهربًا وملجأ، فالأمر إلىٰ الله عز وجل أولًا وآخر، وإنما جعل الله ما يجر رسوله ج ما أُكرم به من النبوة والرسالة: ﴿ إِلَّا بَلاغًا مِنَ الله وَرِسَالاتِهِ ﴾ يقول: ليس لي من الأمر شيء إلا أن الله اختصني ببلاغ رسالته كما قال الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾[المائدة:٦٧]، «أَتَتْنِي رِسَالَةٌ مِنْ رَبِّي فَضِقْتُ بِهَا ذَرْعًا وَرَوَيْتُ أَنَّ النَّاسَ سَيُكَذِّبُونَنِي، فَقِيلَ لِي: لَتَفْعَلَنَّ أَوْ لَيُفْعَلَنَّ بِكَ»، أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد، ﴿ وَمَنْ يَعْصِ الله ﴾ أي: بالشرك، ﴿ وَرَسُولَهُ ﴾ محمد صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ هذا في حق المشرك شرك أكبر مخرج من الملة وكذلك علىٰ الوعيد في كثير من الذنوب وإلا فإن المؤمن مآله إلىٰ الجنة كما قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «شَفَاعَتِي لأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي»، أخرجه الترمذي عن أنس رضي الله عنه، وكما قال: «خُيِّرْتُ بَيْنَ الشَّفَاعَةِ، وَبَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ، فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ، لِأَنَّهَا أَعَمُّ وَأَكْفَىٰ، أَتُرَوْنَهَا لِلْمُتَّقِينَ؟ لَا، وَلَكِنَّهَا لِلْمُذْنِبِينَ، الْخَطَّائِينَ الْمُتَلَوِّثِينَ»، أخرجه أحمد عن أبي موسىٰ رضي الله عنه، وفي الآية دليل علىٰ أن النار أبدية لا كما يقول المعتزلة

بفنائها.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ ﴾ أي: يوم القيامة حين يرىٰ الناس ما وعدهم الله، ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ عند نزول العذاب، ﴿ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا ﴾ من لا ناصر له، ﴿ وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ أهم أم المؤمنون حيث يفر منه أبوه وأمه وزوجه وأخوه وابنه، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾[عبس: ٣٤ - ٣٧].

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِي ﴾ أي: ما أدري، ﴿ أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ ﴾ قبل العذاب، وقبل القيامة ﴿ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴾ لأن الله لم يطلع علىٰ ذلك ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا فالأمر أمره والحكمة حكمته: ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾[الأنبياء:٢٣].

ثم قال واصفًا لربه الذي أرسله إذ أنه: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ ﴾ يطلع، ﴿ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ لا سيما مفاتح الغيب ويعلم ما يكون في الغد إلا الله، ولا يعلم متىٰ الساعة إلا الله، ولا يعلم ما في بطون الأرحام إلا الله، ولا يعلم متىٰ تموت نفس إلا الله، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾[لقمان:٣٤]، وفي هذا رد علىٰ السحرة والمشعوذين والكهان العرافين الذين يدعون علم الغيب المطلق فإنهم كفروا بذلك ويكفر من يصدقهم، فعن أبي هريرة وجابر رضي الله عنهما: «مَنْ أَتَىٰ كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا

فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ - صلىٰ الله عليه وسلم-»، ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ فالغيب عنده علانية، ﴿ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ لا يطلع أحدًا من البشرية.

﴿ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ﴾ إكرامًا له وتنويهًا لشأنه، حيث يعلمه ببعض ما يكون من شأن الغيب، فقد أخبر النبي صلىٰ الله عليه وسلم بكثير من شأن الغيب ويظهر ذلك فيما يُسمىٰ بدلائل النبوة ومع ذلك لم يكن يعلم رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم من الغيب إلا ما أعلمه الله، ولهذا لما قالت الجارية: وفينا رسول الله يعلم في الغد أنكر عليها النبي صلىٰ الله عليه وسلم وقال: «مَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا الله»، ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ أي: يجعل له حراسًا من الملائكة يحفظونه من الجن أن يسترقوا السمع.

﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ علم وقوع وإلا فإن الله بكل شيء عليم، وقيل ليعم الملائكة ﴿ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا ﴾ أي: الرسل، ﴿ رِسَالاتِ رَبِّهِمْ ﴾ التي أوحاها إليهم، ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ أحاط بعلمهم وبما عملوه من البلاغ وغيره، ﴿ وَأَحْصَىٰ ﴾ حفظ، أحصاه وعده عدًا، فالإحصاء تأتي بمعنىٰ الحفظ وتأتي بمعنىٰ العد ﴿ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾، معناها: أن الله عز وجل أحصىٰ أعمال البشرية وعدها وسطرت عليهم يجدونها في كتاب: ﴿ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف:٤٩]، وكما قال الله عز وجل: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ

مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾[الأنبياء: ٤٧]، والحمد لله.

سورة المزمل

بسم الله الرحمن الرحيم

مكية.

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ هذا نداء من الله عز وجل لمحمد صلىٰ الله عليه وسلم، وقيل في ذلك: أنه لما رجع من غار حراء بعد أن رأىٰ الملك جبريل عليه السلام علىٰ صورته التي خلقه الله عليها وله ستمائة جناح رجع يقول: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي»، «دَثِّرُونِي، دَثِّرُونِي»، وجاء في هذا حديث ضعيف أن كفار قريش تمالؤوا عليه فتزمل بثيابه، وذهب جمع من المفسرين إلىٰ أن المزمل هو المتغطي بالليل، فهذه دعوة إلىٰ القيام لقوله: ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وهذا في مبدأ الإسلام كان قيام الليل فريضة فصلىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم وأصحابه سنةً حتىٰ تفطرت أقدامهم ثم نسخها الله عز وجل بما يأتي في آخر السورة: ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾[المزمل:٢٠]، وبفريضة الصلاة، فعن عائشة رضي الله عنها: أَنْبِئِينِي عَنْ قِيَامِ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم، فَقَالَتْ: «أَلَسْتَ تَقْرَأُ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ؟» قُلْتُ: بَلَىٰ، قَالَتْ: «فَإِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَقَامَ نَبِيُّ الله صلىٰ الله عليه وسلم وَأَصْحَابُهُ حَوْلًا، وَأَمْسَكَ الله خَاتِمَتَهَا اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا فِي السَّمَاءِ، حَتَّىٰ أَنْزَلَ الله فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ التَّخْفِيفَ، فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَةٍ» أخرجه مسلم (٧٤٦).

﴿ نِصْفَهُ ﴾ أي: نصف الليل، ﴿ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴾ لأنها لم تكن لديهم ساعات وإنما كانوا يقدرون تقديرًا.

﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ علىٰ نصف الليل، ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ أي: اقرأ القرآن مرتلًا، فعن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ: أنه سئل كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم؟ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم إِذَا قَرَأَ مَدَّ صَوْتَهُ مَدًّا».

وأيضًا من الترتيل أنه ربما قرأ الآية أو السورة وكانت أطول من التي هي أطول منها كما في حديث عائشة.

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ أي: العمل به وكان الوحي ثقيل في نزوله حين يأتي النبي صلىٰ الله عليه وسلم فيشتد عليه، ذكر زيد بن ثابت رضي الله عنه: أن الوحي نزل علىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم ورجل النبي صلىٰ الله عليه وسلم علىٰ رجله فكادت أن ترض فخذه، وكان النبي صلىٰ الله عليه وسلم إذا كان علىٰ راحلته فجاءه الوحي اشتد ذلك عليها وعن الحارث بن هشام ا قال صلىٰ الله عليه وسلم: «أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ» أخرجه البخاري، وقيل: بأنه ثقيل في أجره كما هو في أحكامه مع أن الله عز وجل يقول: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾[القمر:١٧].

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ ﴾ قيام الليل بالحبشية ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾

يقول: إن الليل فيه الفراغ والهدوء والسكينة فقراءتك فيه أحرىٰ علىٰ التدبر والاستفادة، لأنه أجمع للنفس والفكر، فالليل كله ناشئة والقراءة فيه مؤثرة علىٰ القلوب والأنفس، ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ أي: في قراءتها؛ لأن الإنسان قد تفرغ للطاعة.

﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ قيل: فراغًا وشغلًا، ومعنىٰ ذلك: أن قيام الليل كان واجبًا عليه وفي النهار يذهب لحوائجه وشأنه، ثم نسخت هذه بما تقدم، وقيل تطوعًا كثيرًا.

﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ ﴾ اذكر الله سبحانه وتعالىٰ بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ، ﴿ وَتَبَتَّلْ ﴾ أي: انقطع للعبادة، ﴿ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾، وقد نهىٰ رسول الله عز وجل عثمان بن مضعون عن التبتل، وهو التفرغ التام والانقطاع عن الزواج ونحوه مما أباحه الشرع.

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ ﴾ علىٰ الابتداء وجاءت: (رَبِ المشرِقِ)، ﴿ وَالْمَغْرِبِ ﴾ أي: أن الرب الذي تعبده وتتبتل إليه هو رب المشرق ورب المغرب، ﴿ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا شريك له في أُلوهيته ولا في ربوبيته ولا في أسمائه وصفاته، ﴿ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ كما قال: ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ فيحفظك مما ينوبك ويرعاك ويحوطك

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أي: الكفار، ﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ هذا كان في أول الإسلام حيث أمر النبي صلىٰ الله عليه وسلم بالصبر علىٰ الأذىٰ

ثم بعد ذلك أذن الله له في قتال الكفار وفي دفع أذاهم، ولهذا قال بعض أهل العلم بأن هذه الآية منسوخة بقول الله عز وجل: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالله وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾[التوبة:٢٩]، ﴿ وَاصْبِرْ ﴾ يا محمد، ﴿ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ من السب والشتم والثلب وغير ذلك، ﴿ وَاهْجُرْهُمْ ﴾ أي: اهجر مجالسهم وأماكنهم، ﴿ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ لا سخب فيه ولا شيء من ذلك.

﴿ وَذَرْنِي ﴾ وهذا وعيد عظيم من الله عز وجل للكافرين يقول: دعني، ﴿ وَالْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي: الكفار، ﴿ أُولِي النَّعْمَةِ ﴾ الذين أنعم الله عليهم بالنعم الكثيرة، ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ إلىٰ أن يأتي وعد الله: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[هود:١٠٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾.

﴿ إِنَّ لَدَيْنَا ﴾ يقول: إن لنا: ﴿ أَنكَالًا ﴾ سلاسل يربط بها الكفار ويعذبون فيها، ﴿ وَجَحِيمًا ﴾ نارًا موقدة.

﴿ وَطَعَامًا ﴾ ولهم أيضًا في هذه النار طعامًا، ﴿ ذَا غُصَّةٍ ﴾ لا يستصيغون أكله ولا يستصيغون بلعه زد علىٰ ذلك: ﴿ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

ويكون هذا الأمر: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ تزلزل الأرض الواسعة وتتهاوىٰ الجبال العظيمة، ﴿ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴾ تكون كالرمل يتساقط وهذا يوم القيامة، فتحول الجبال الشاهقة إلىٰ رمال تتناثر وتتطاير في هذه البسيطة ثم لا يرىٰ لها أثر وللجبال حالات:

الأولى: أنها تسير، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾[التكوير: ٣].

الثانية: أنها تتهاوىٰ فتكون كالرمال المتطاير، كما في هذه الآية.

الثالثة: أنها تكون : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾[القارعة:٥].

الرابعة: أنها ترىٰ كالسراب. كما قال تعال: ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾[النبأ:٢٠]، الخامسة أنك ترىٰ في الأرض عوجا ولا أمتًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾[طه:١٠٧].

ثم قال الله عز وجل لأهل مكة: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا ﴾ وهو محمد صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ شَاهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾ يوم القيامة، ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ وهو موسىٰ عليه السلام.

﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ ﴾ أعرض وكفر، ﴿ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ أخذه الله وأغرقه في اليم، وجعل حين جاءه الموت يقول: ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[يونس:٩٠-٩١].

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ ﴾ فزع يوم القيامة، وما فيها من الأهوال ﴿ إِنْ كَفَرْتُمْ ﴾ إذا بقيتم علىٰ كفركم يا معاشر قريش ويا كفار العرب كيف تسلمون من تبعات يوم القيامة، ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ وهو يوم القيامة لشدة أهواله كما قال الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا

وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[الحج:١-٢]، فالولد الصغير يشيب رأسه بسبب أهوال ذلك اليوم نسأل الله السلامة، إن تكلمت عن عطشه فماذا تقول؟ وإن تكلمت عن حر شمسه فماذا تقول؟ وإن تكلمت عن حال أهله فماذا تقول؟ يموج بعضهم في بعض، والأعمال ظاهره، والأقوال محفوظة، والأفعال مكتوبة، والرب سبحانه وتعالىٰ غضبان، والملائكة صفوف حول بني آدم، والنار قد قربت، والجنة قد أزلفت للمتقين، وما أحد عنده براءة أنه للجنة ولكنه الأمل للمؤمنين والله المستعان.

فيكون الحال شديدًا حتىٰ علىٰ رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم لا يتكلمون إلا بقولهم: «اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ »، مع أنهم موعودون بالجنة ولخير العظيم، فعن أبي هريرة ا أَخْبَرَهُ أَنَّ نَاسًا قَالُوا لِرَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم: يَا رَسُولَ الله، هَلْ نَرَىٰ رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ، كَذَلِكَ يَجْمَعُ الله النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ، فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَىٰ هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا، فَيَأْتِيهِمُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِالله مِنْكَ، هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا

جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا فَيَتَّبِعُونَهُ وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَىٰ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللهُمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمُ السَّعْدَانَ؟»، قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا قَدْرُ عِظَمِهَا إِلَّا اللهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمُ الْمُؤْمِنُ بَقِيَ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمُ الْمُجَازَىٰ حَتَّىٰ يُنَجَّىٰ، حَتَّىٰ إِذَا فَرَغَ اللهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا مِمَّنْ أَرَادَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنْ يَرْحَمَهُ مِمَّنْ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ، يَعْرِفُونَهُمْ بِأَثَرِ السُّجُودِ، تَأْكُلُ النَّارُ مِنَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ، حَرَّمَ اللهُ عَلَىٰ النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيُخْرَجُونَ مِنَ النَّارِ وَقَدِ امْتَحَشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ مِنْهُ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفْرُغُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَيَبْقَىٰ رَجُلٌ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَىٰ النَّارِ وَهُوَ آخِرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ، فَإِنَّهُ قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا، وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا، فَيَدْعُو اللهَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدْعُوَهُ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ فَعَلْتُ ذَلِكَ بِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَيُعْطِي رَبَّهُ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ مَا شَاءَ اللهُ، فَيَصْرِفُ اللهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ، فَإِذَا أَقْبَلَ عَلَىٰ الْجَنَّةِ وَرَآهَا سَكَتَ مَا شَاءَ اللهُ

أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ، قَدِّمْنِي إِلَىٰ بَابِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ الله لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ لَا تَسْأَلُنِي غَيْرَ الَّذِي أَعْطَيْتُكَ، وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، مَا أَغْدَرَكَ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، يَدْعُو الله حَتَّىٰ يَقُولَ لَهُ: فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ أَعْطَيْتُكَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ، فَيُعْطِي رَبَّهُ مَا شَاءَ الله مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ، فَيُقَدِّمُهُ إِلَىٰ بَابِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا قَامَ عَلَىٰ بَابِ الْجَنَّةِ انْفَهَقَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، فَرَأَىٰ مَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ وَالسُّرُورِ، فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ الله أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ مَا أُعْطِيتَ؟، وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، مَا أَغْدَرَكَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، لَا أَكُونُ أَشْقَىٰ خَلْقِكَ، فَلَا يَزَالُ يَدْعُو الله حَتَّىٰ يَضْحَكَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنْهُ، فَإِذَا ضَحِكَ الله مِنْهُ قَالَ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَإِذَا دَخَلَهَا قَالَ الله لَهُ: تَمَنَّهْ، فَيَسْأَلُ رَبَّهُ وَيَتَمَنَّىٰ حَتَّىٰ إِنَّ الله لَيُذَكِّرُهُ مِنْ كَذَا وَكَذَا، حَتَّىٰ إِذَا انْقَطَعَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ، قَالَ الله تَعَالَىٰ: ذَلِكَ لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ»، قَالَ عَطَاءُ بْنُ يَزِيدَ، وَأَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ، مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ لَا يَرُدُّ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِهِ شَيْئًا، حَتَّىٰ إِذَا حَدَّثَ أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّ الله قَالَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ: «وَمِثْلُهُ مَعَهُ»، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: «وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ مَعَهُ»، يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: مَا حَفِظْتُ إِلَّا قَوْلَهُ: «ذَلِكَ لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ»، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: أَشْهَدُ أَنِّي حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم قَوْلَهُ: «ذَلِكَ لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ»، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «وَذَلِكَ الرَّجُلُ آخِرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ» متفق عليه.

فالأمر خطير والخطب جلل فمن الآن علينا أن نستعد ونتأهب لذلك اليوم.

﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ﴾ السماء مشققة ومطوية، كما قال : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾[الأنبياء:١٠٤]، ﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴾ كان هذا الأمر واقعًا لا محالة.

﴿ إِنَّ هَذِهِ ﴾ أي: ما تقدم من المواعظ، ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ للمؤمنين، ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ طريقًا، وأما الكفار فما تنفعهم هذه التذكرة بل يزدادون بعدًا وعتوًا والله المستعان.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ ﴾ إعادة إلىٰ ما كان قد فرض علىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم وأصحابه من القيام فطبقوه وامتثلوا شرع الله، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ ﴾ يا محمد، ﴿ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ ﴾ يعني: دون الثلثين، ﴿ وَنِصْفَهُ ﴾ ونصف الليل، ﴿ وَثُلُثَهُ ﴾ وثلث الليل يعني: علىٰ حسب النشاط والقوة، ﴿ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ أيضًا يقومون أدنىٰ من ثلثي الليل، وربما قاموا نصف الليل، وربما قاموا ثلث الليل، ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ يقدر ساعاته ويقدر طوله وقصره، ﴿ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ ﴾ علم سبحانه وتعالىٰ أنكم لن تطيقوا القيام لو فرض عليكم أبدًا، ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ خفف عنكم ونسخ فرضيته فصار مستحبًا وقد قال الله عز وجل لنبيه: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا

﴾[الإسراء:٧٩].

﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ ما يسره الله لكم من غير تطويل يتعبكم أو تقصير لا تستفيدون منه شيئًا كثيرًا ولكن بين ذلك، واستدل بهذه الآية الحنفية علىٰ أنه يجزئ في القراءة في الصلاة ما تيسر ولو بغير الفاتحة، والصحيح: أن ما تيسر من القرآن هو الفاتحة؛ لأن النبي صلىٰ الله عليه وسلم يقول: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ» متفق عليه عن عبادة رضي الله عنه.

﴿ عَلِمَ ﴾ أي: أن هذا التخفيف لعلم الله عز وجل: ﴿ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ ﴾ يعجزون عن القيام، ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ يسافرون، ﴿ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ الله ﴾ إما للتجارة أو نحو ذلك فيشق عليهم قيام الليل مع سفر النهار، ﴿ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله ﴾ يجاهدون فربما عجزوا عن قيام الليل لكثرة أتعابهم بالنهار، ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ أي: من القرآن في ركعات ليلكم ولو أن تصلي بركعة، ولو أن تصلي بثلاث، ولو أن تصلي بخمس، ولو أن تصلي بسبع، ولو أن تصلي بتسع، ولو أن تصلي بإحدىٰ عشرة كما جاء عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم، فإن كنت مسافرًا صلي علىٰ راحلتك كما ثبت عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم، فإن عجزت عن القيام صلي قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلىٰ جنب.

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ وهي المفروضة وهي خمس صلوات في اليوم والليلة، وهذا يُشعر أن هذا التخفيف كان بعد فرض الصلوات، ﴿ وَآتُوا

﴿الزَّكَاةَ﴾ أي: المفروضة، وهذا دليل علىٰ أن الزكاة فرضت في مكة وحددت أنصبتها بالمدينة وفي العام التاسع أرسل النبي صلىٰ الله عليه وسلم من يجمعها من الناس، ﴿وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: بالصدقات والله غني عن عباده ولكن جعل الصدقة علىٰ الفقير والمسكين كالقرض الحسن يُضاعف لصاحبها في الدنيا والآخرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا» أخرجه مسلم، وقال تعالىٰ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٦١].

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ في هذه الدنيا، ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ﴾ يوم القيامة، ﴿هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ يُضاعف أكثر مما قدمتموه وتلقون بركته وثمرته في: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الشعراء:٨٨-٨٩]، وهذا دليل علىٰ أنك ما من عمل تقدمه بين يديك إلا وستجده يوم القيامة إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ﴾ من تقصيركم وذنوبكم فإن الله غفار الذنوب ويستر العيوب قال الله عز وجل: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾[طه:٨٢]، ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ متجاوز عن السيئات فيما مضىٰ ويوفق العبد المؤمن فيما يأتي، والله المستعان، والحمد لله رب العالمين.

سورة المدثر

بسم الله الرحمن الرحيم

مكية.

واختلفوا في وقت نزولها فذهب جمع من أهل العلم إلىٰ أنها أول سورة أُنزلت لما جاء عن أَبي سَلَمَةَ أنه سئل: أَيُّ الْقُرْآنِ أُنْزِلَ قَبْلُ؟ قَالَ: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، فَقُلْتُ: أَوِ اقْرَأْ؟ فَقَالَ: سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله أَيُّ الْقُرْآنِ أُنْزِلَ قَبْلُ؟ قَالَ: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، فَقُلْتُ: أَوْ اقْرَأْ؟ قَالَ جَابِرٌ: أُحَدِّثُكُمْ مَا حَدَّثَنَا رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم، قَالَ: «جَاوَرْتُ بِحِرَاءٍ شَهْرًا، فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي نَزَلْتُ فَاسْتَبْطَنْتُ بَطْنَ الْوَادِي، فَنُودِيتُ فَنَظَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، فَلَمْ أَرَ أَحدًا، ثُمَّ نُودِيتُ فَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَ أَحدًا، ثُمَّ نُودِيتُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا هُوَ عَلَىٰ الْعَرْشِ فِي الْهَوَاءِ -يَعْنِي جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ- فَأَخَذَتْنِي رَجْفَةٌ شَدِيدَةٌ، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ، فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي، فَدَثَّرُونِي، فَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً، فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر:٢]» متفق عليه.

والصحيح: أن أول خمس آيات أُنزلت علىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم كانت من أول اقرأ ثم فتر الوحي ثم نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾[المدثر:١]، فكان نزول ما تقدم من آيات العلق تنبيئ للنبي صلىٰ الله عليه وسلم، وكان نزول الخمس الآيات من المدثر إرسال للنبي صلىٰ الله عليه وسلم، ولذلك يقول

بعض أهل العلم نُبئ باقرأ وأُرسل بالمدثر.

قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ تقدم أنه قيل: بأن المدثر الذي تدثر بالثياب وذلك لما لحقه من الفزع حين جاءه الوحي في غار حراء، وقيل غير ذلك.

﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ أي: قم بالنذارة للناس لدعوتهم إلىٰ التوحيد وتحذيرهم من الشرك والتنديد.

﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أي: عظم ربك.

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قيل: طهر نفسك من الذنوب والمعاصي والشركيات؛ لأن الإنسان قد يُطلق علىٰ عمله ثوب قال عنلان بن سلمة الثقفي:

وَإِنِّي بِحَمْدِ الله لا ثَوْبَ فَاجِرٍ   لَبِسْتُ وَلا مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ

وقيل: طهر ثيابك وهي دالة علىٰ وجوب طهارة الظاهر والباطن.

﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ أي: اهجر الأصنام وعبادها فلا تحضر مجالسهم ولا تُكثر سوادهم، وهو بمعنىٰ قول الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾[الأنعام:٦٨].

﴿ وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾ أي: لا تمنن بعطائك استكثارًا أو لا تمن علىٰ الله عز وجل بعملك من أجل الاستكثار من الدنيا وقيل غير ذلك، **والشاهد**: أن الآية فيها تحريم المنّ، والنبي صلىٰ الله عليه وسلم يقول: «ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»، قُلْنَا: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَدْ خَابُوا وَخَسِرُوا؟ فَقَالَ: «المَنَّانُ، وَالمُسْبِلُ إِزَارَهُ، وَالمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالحَلِفِ

الكَاذِبِ» متفق عليه.

﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ أي: اصبر علىٰ قضائه وقدره فهو أعلم وأحكم سبحانه وتعالىٰ بما يصلح به الحال والمآل.

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾ إذا نفخ في الصور يوم القيامة؛ لأن الناقور هو القرن الذي يُنفخ فيه.

﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ ذلك اليوم يوم شديد؛ لأن الناس يبعثون من قبورهم حفاةً عراةً غرلًا ويجازون علىٰ أعمالهم، وتدنو الشمس من الخلائق بمقدار ميل فيشتد الحر ويكثر العرق ويقع العطش ويزدحم الناس ويجازىٰ كل واحد بعمله، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: أُتِيَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم يَوْمًا بِلَحْمٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً فَقَالَ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ، وَمَا لَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: ائْتُوا آدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ الله بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ،

وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَىٰ الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ الله عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَىٰ مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَىٰ قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ صلىٰ الله عليه وسلم، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ نَبِيُّ الله وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ مُوسَىٰ، فَيَأْتُونَ مُوسَىٰ صلىٰ الله عليه وسلم، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَىٰ، أَنْتَ رَسُولُ الله فَضَّلَكَ الله بِرِسَالَاتِهِ، وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَىٰ النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَىٰ مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَىٰ صلىٰ الله عليه وسلم: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ عِيسَىٰ صلىٰ الله عليه وسلم، فَيَأْتُونَ عِيسَىٰ، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَىٰ أَنْتَ رَسُولُ الله، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ، وَكَلِمَةٌ مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَىٰ مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَىٰ صلىٰ الله عليه وسلم: إِنَّ رَبِّي قَدْ

غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ مُحَمَّدٍ، فَيَأْتُونِّي فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ الله، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَغَفَرَ الله لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ، وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَىٰ مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَأَنْطَلِقُ، فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي، ثُمَّ يَفْتَحُ الله عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لِأَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَىٰ ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَىٰ».

﴿ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ أي: أن المؤمن قد يُظل بظل عرش الله، وقد يُسقىٰ أكثرهم من حوض النبي صلىٰ الله عليه وسلم وتشملهم الشفاعة فيلحقهم الأمل، بينما الكافر كلما ازدادت شدته ازداد همه وغمه؛ لأنه يقرب من النار وبئس القرار.

﴿ ذَرْنِي ﴾ اتركني ودعني، ﴿ وَمَنْ خَلَقْتُ ﴾ والذي خلقت: ﴿ وَحِيدًا ﴾ أي: في بطن أمه ليس له معين ولا نصير ولا ظهير وإنما هو الله الذي يربيه ويرزقه ويعطيه، قيل هو الوليد بن المغيرة.

﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴾ بعد أن خرج إلىٰ هذه الدنيا أنعم الله عليه بالأموال حتىٰ كثر ماله وكثر عبيده وإماؤه.

﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾ وأعطيته أبناء يشهدون مجلسه ويحضرون معه، وكانوا يرسلون عبيدهم للتجارة ونحوها وهم في خير حال.

﴿ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴾ بأنواع النعم سواء كانت في لبسه أو أكله وشربه وأثاثه وغير ذلك.

﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ يطمع الزيادة مع كفره وبغيه وإعراضه وأذيته للنبي صلىٰ الله عليه وسلم.

﴿ كَلَّا ﴾ يعني: لا يكون هذا بل سيأتي الله عليه وعيد الله الكافرين والمعرضين: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[هود:١٠٢]، فعن أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «إِنَّ الله لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» متفق عليه، أو المعنىٰ حقًا لن تكون له الزيادة، ﴿ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾ كان معارضًا مُكابرًا لم يستجب لدعوة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ولم تنفعه آيات الله لشدة كبره وإعراضه.

﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ هذا في الآخرة أنه يعذب في النار بشدة العذاب وزيادته ونكاله، وقيل: بأنه يصعد في جبل في النار وقيل غير ذلك لكن المعنىٰ: أن الله عز وجل يغطيهم العذاب وتأتيهم النار من كل جهة.

﴿ إِنَّهُ ﴾ أي: هذا الرجل، ﴿ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ كيف يطعن في النبي صلىٰ الله عليه وسلم؛ لأنهم اجتمعوا وكل يريد أن يذم النبي صلىٰ الله عليه وسلم فهذا فكر في عقله.

﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ لُعن بسبب فكره وتقديره.

﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ زيادة في اللعن والطرد من رحمة الله.

﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ أي: إلىٰ الحاضرين.

﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ يعني: انقبض ما بين عينيه، ﴿ وَبَسَرَ ﴾ تغير وجهه.

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ جعل يقدم ويتأخر من أجل أن يأتي بمقولة شنعاء يحذر فيها من القرآن والنبي عليه الصلاة والسلام.

﴿ فَقَالَ ﴾ قولةً مشؤمة، ﴿ إِنْ هَذَا ﴾ أي: القرآن، ﴿ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ أي: تعلمه محمد ج من الأمم السابقة كما قال الله عنهم: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾[الفرقان:٥]، فهم كانوا يزعمون أن القرآن جاء من قبل المتقدمين، ثم أتىٰ بمقولة أخرىٰ.

﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ يعني: هذا القرآن قول البشر، وكذب في هذه الدعوىٰ فإن القرآن كلام الله ووحيه وتنزيله أنزله إلىٰ محمد صلىٰ الله عليه وسلم تكلم به ربنا حقيقةً وسمعه منه جبريل وجاء به جبريل إلىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم، كما قال الله عز وجل: ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾[التوبة: ٦]، فمن زعم أن القرآن قول البشر فقد كفر، وشأنه كما قال

تعالىٰ: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ سيعذبه الله عز وجل في النار وتحيط به من جميع جوانبها.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾ تعظيم لشأنها.

﴿ لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ ﴾ لا تبقي له لحمًا ولا عصبًا ولا عظمًا ولا شحمًا ولا شيء، بل يؤكل جميع جسمه، كما قال تعالىٰ: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾[النساء:٥٦]، نعوذ بالله من النار.

﴿ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴾ أي: للجلد حيث تلفح الوجه لفحة فتدعه أسود من الليل، قال ابن عباس رضي الله عنه: تحرق جلد الإنسان.

﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ أي: المقدمين من زبانية النار وخزان النار تسعة عشر، وإنما ذكر الله هذا العدد مع أنه لا يعلم جنود الله إلا الله فتنة للكافرين فإنه لما قال: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ قالوا: إذًا هؤلاء سنكفاهم عدد يسير وعدد قليل.

قال الله ردًا علىٰ هذا: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً ﴾ أي: أن الله جعل خزان النار ملائكة: ﴿ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[التحريم:٦]، قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «فَأَتَيْنَا عَلَىٰ رَجُلٍ كَرِيهِ الْمَرْآةِ، كَأَكْرَهِ مَا أَنْتَ رَاءٍ رَجُلًا مَرْآةً، وَإِذَا عِنْدَهُ نَارٌ يَحُشُّهَا وَيَسْعَىٰ حَوْلَهَا، قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟.... وَأَمَّا الرَّجُلُ الكَرِيهُ المَرْآةِ، الَّذِي عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّهَا وَيَسْعَىٰ حَوْلَهَا، فَإِنَّهُ مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ» أخرجه البخاري عن سمرة رضي الله

عنه، خلقه الله عز وجل ولا رحمة فيه ولا شفقة، ولذلك يقول أهل النار: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ﴾[الزخرف:٧٧].

﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ ﴾ أي: بهذا العدد تسعة عشر، ﴿ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يُفتنون فيزدادون كفرًا إلىٰ كفرهم وبغيًا إلىٰ بغيهم، ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ أي: الذين يؤمنون بما أخبر الله عز وجل وبالنبي صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ لعلمهم أن الله علىٰ كل شيء قدير، وفي هذه الآية إثبات زيادة الإيمان ونقصانه وهذا هو مذهب أهل الحق أهل السنة، وإنما خالف المبتدعة فزعموا أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص زيادته ونقصانه كفر، ورأس هؤلاء المبتدعة الخوارج، والمعتزلة، والمرجئة، والرافضة، والجهمية ومن إليهم، فالإيمان يزيد وينقص تزيده الطاعات وتنقصه المعاصي والسيئات، والأدلة علىٰ ذلك متوافرة متكاثرة من الكتاب والسنة والإجماع، ﴿ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي: لا يلحقهم الريب والشك؛ لأنهم يعلمون أنما جاء من عند الله هو الحق الذي لا باطل فيه، والنور الذي لا ظلام فيه، ﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ ﴾ أصحاب الشكوك من الكافرين وغيرهم وأهل النفاق، ﴿ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ أي: لماذا ذكر تسعة عشر دون غيرهم، ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ بهذه الأمثال: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾[العنكبوت:٤٣]، ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ يضل من يشاء عدلًا لعلمه أنه

ليس أهلًا للهداية ويهدي من يشاء فضلًا لعلمه أنه أهل للهداية، ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ ما يعلم كثرة ملائكة الله وما اتخذهم جنودًا إلا الله عز وجل، ﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ أي: ما تقدم من الآيات ذكرىٰ يتعظ بها من أراد الله به الخير، ويعرض عنها من أراد الله به الشر والضير، وقد ذكر النبي صلىٰ الله عليه وسلم أن البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك آخر ما عليهم، متفق عليه عن أنس ا، انظر منذ خلق الله الخليقة وإلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها ويدخله كل يوم سبعون ألف ملك عدد لا يعلمه إلا الله، وعن أبي ذر رضي الله عنه : «إِنَّهُ لَيْسَ فِيهَا مَوْضِعُ قَدَمٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ قَائِمٌ أَوْ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ» أخرجه أحمد، وذكر أهل العلم أنما من قطرة تنزل من السماء إلا ومعها ملك ووكل الله عز وجل بكل إنسان ملكين يكتبان حسناته وسيئاته، زد علىٰ ذلك الحافظين الذين يحفظونه من بين يديه ومن خلفه من أمر الله، وهكذا الملائكة السيارة التي تتبع حلق الذكر، وهكذا الملائكة التي تتعاقب بالليل والنهار، والملائكة التي تكون علىٰ أبواب المساجد فتكتب الأول فالأول، فجنود الله عدد كثير، وفي ليلة القدر يقع الخير العظيم: ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾[القدر:٤]، لكثرتهم، وهم مخلوقات عظيمة خلقهم الله عز وجل من نور كما أنه سبحانه وتعالىٰ خلق الشياطين من نار وخلق الإنسان من تراب كما في حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه مسلم.

والشاهد: أن الكفار حين أُخبروا بما أُخبروا عن خزنة النار استقللوا هذا العدد وقالوا: هذا سنُكفاهم، وحين ذكر الله لهم شجرة الزقوم قالوا: سنتزقم عليه يعني: نشرب بعض الذي يذهب حرارتها فكان ما أخبر الله: ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾[الدخان:٤٣-٤٩]، فلا يجوز أن يواجه وعيد الله بالاستهزاء والسخرية والاعراض بل علىٰ العبد أن يكون رجاعًا إلىٰ ربه مستغفرًا من ذنبه.

﴿ كَلَّا ﴾ أي حقًا، ﴿ وَالْقَمَرِ ﴾ أقسم الله عز وجل بالقمر.

﴿ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ الليل إذا ولىٰ.

﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴾ ظهر، وكثيرًا ما يُقسم الله عز وجل بالليل والصبح؛ وذلك أن الله يُقسم بما شاء من مخلوقاته، وأما أنت أيها المسلم فلا يجوز لك أن تقسم إلا بالله فعن عمر رضي الله عنه: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ» متفق عليه.

﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَىٰ ﴾ أي: هذه النذارة التي جاء بها محمد صلىٰ الله عليه وسلم ﴿ الْكُبَرِ ﴾ أي: العظائم.

﴿ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴾ أي: أن الله أرسل محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم وجاء بهذه الآيات نذارة للبشر يخوفون من النار ويبشرون بالجنة، ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ ﴾

يا معاشر المكلفين، ﴿ أَنْ يَتَقَدَّمَ ﴾ بفعل الطاعات وسلوك سبيل المكرمات، ﴿ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ بفعل المعاصي والسيئات.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ من المكلفين سواء من الجن أو الإنس، ﴿ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ مرتهنة في النار ومحاسبة وتجازىٰ عليه يوم القيامة.

﴿ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم بل هم مرحومون ومغفور لهم، وأصحاب اليمين هم أهل الإيمان.

﴿ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ وهذا بعد أن يُكرمهم الله عز وجل بدخول الجنة ولا تعارض بين هذه الآية وبين قوله: ﴿ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾[المعارج:١٠]، ونحوها فهي مواطن تقع مواطن شدة لا يلتفت أحد لأحد، ويقع للمؤمنين بعد دخولهم الجنة والاطمئنان الذي حصل لهم أنهم يتساءلون عمن كانوا يعرفونه من أهل الدنيا.

﴿ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ الكافرين ممن كان يعارضهم ويؤذيهم ويتنكر لهم.

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ ما السبب الذي جعلكم تدخلون النار وبئس القرار.

﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ وذكر الصلاة قبل غيرها؛ لعظيم شأنها وعلو مرتبتها، وبهذا استدل أهل العلم علىٰ أن تارك الصلاة كافر كفر أكبر مخرج من الملة وقد قال الله عز وجل: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾[الماعون:٤-٧]،

وقال الله عز وجل: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾[مريم:٥٩].

﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾ وذلك بمنع الزكاة والحقوق الواجبة فجمع هذا الكافر بين تضييع حق الله وحق عباده، فإطعام المسكين من المتعينات إن كانت الزكاة المفروضة فتجب، وإن كانت الصدقات المندوبة فقد رغب الله عز وجل فيها.

﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ بالباطل ورد الحق ومنه نشر البدع والشركيات والخرافات وغير ذلك فهذا من أسباب دخول النار، كما قال الله عز وجل: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾[النحل:٢٥].

﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ أي: ومن أعمالهم الشنيعة: أنهم كانوا يكذبون بيوم القيامة يوم الجزاء، فالدين بمعنىٰ: الجزاء، فكانوا يقولون: بأنه لا جنة ولا نار ولا بعث ولا نشور بل حالهم كما قال الله عز وجل: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[يس:٧٨-٧٩].

﴿ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ الموت فعلموا أنما أخبر به النبي صلىٰ الله عليه وسلم من البعث والنشور واقع لا محالة.

﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ كما قال الله عز وجل: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ

مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾[غافر:١٨]، فلا تنفعهم شفاعة بتخفيف العذاب عنهم ولا يخرجون من النار: ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾[الحج:٢٢]، وإنما ينتفع بالشفاعة المؤمن إذ أن الله عز وجل لا يقبل الشفاعة إلا بثلاثة شروط:

الأول: إذن الله للشافع.

الثاني: رضا الله عن الشافع.

الثالث: رضا الله عن المشفوع، وعن أنس رضي الله عنه: قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «شَفَاعَتِي لأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي »، أخرجه الترمذي، وقال الله عز وجل: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾[البقرة:٢٥٥]، وقال: ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾[الأنبياء:٢٨]، إلا أن أبا طالب شفع له النبي صلىٰ الله عليه وسلم في تخفيف العذاب لا في الخروج من النار، فعن العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ رَضِيَ الله عَنْهُ، قَالَ لِلنَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم: مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: «هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلاَ أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ» أخرجه البخاري.

﴿ فَمَا لَهُمْ ﴾ أي: كفار قريش ومن إليهم، ﴿ عَنِ التَّذْكِرَةِ ﴾ التي جاء بها النبي صلىٰ الله عليه وسلم من القرآن والسنة ﴿ مُعْرِضِينَ ﴾ مدبرين غير مقبلين.

﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ ﴾ جمع حمار ﴿ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴾ نافرة ومنفرة.

﴿ فَرَّتْ ﴾ هربت ﴿ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ فرت من الأسد إذا رأته فإن القسورة أحد أسمائه، وهذا تشبيه بليغ مثل ومثل الله عز وجل الكفار المعرضين عن الحق بالحمر الشاردة الهاربة من عدوها وهو الأسد إذ يتبعها ومثل النبي صلىٰ الله عليه وسلم المنافق: «كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ».

﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنَشَّرَةً ﴾ أي: أن كفار قريش يطلبون أن يكون لكل واحد منهم كتابًا يؤتاه، كما قال تعالىٰ: ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[الزخرف:٣١]، أي: هلا أنزل هذا القرآن علىٰ رجل من القريتين عظيم، ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ ﴾[الأنعام:١٢٤]، وكفروا بما أوتي رسل الله، وكل يريد أن ينزل عليه الكتاب ما هكذا الحكمة الإلهية بل إن الله يصطفي من عباده من شاء كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴾[آل عمران:٣٣]، فهم يقولون: ﴿ بَلْ يُرِيدُ ﴾ يتمنىٰ ويحب، ﴿ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ ﴾ أي: من الكفار، ﴿ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا ﴾ كتابًا من عند الله، ﴿ مُنَشَّرَةً ﴾ منشور وفيه أخبار من مضىٰ وأخبار من أتىٰ كما هو حال النبي صلىٰ الله عليه وسلم.

﴿ كَلَّا ﴾ هذا لا يكون ولا يجوز شرعًا ولا عقلًا، وأيضًا معناها حقًا، ﴿ بَلْ لا يَخَافُونَ الآخِرَةَ ﴾ الحامل لهم علىٰ هذا الصنيع أنهم لا يخافون الآخرة؛ لزعمهم أنها لا تكون ولتكذيبهم وكفرهم ولعدم علمهم بحق الله إلىٰ غير ذلك، وهذا هو السبب الذي أودىٰ بهم إلىٰ النار وبئس القرار، فخوف

الآخرة ينبغي أن يلازم المسلم حتىٰ يحمله علىٰ فعل الطاعات والقربات.

﴿ كَلَّا ﴾ أي: حقًا، ﴿ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴾ إن هذا القرآن تذكرة للمؤمنين يستفيدونها ويستجيبون لها.

﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ من شاء أن يتذكر تذكر، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[الكهف: ٢٩].

﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ﴾ لن يستقيم ويدخل في الإيمان إلا من شاء الله له ذلك وعلمه أهلًا لذلك كما قال عز وجل: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ﴾[الإنسان:٣٠]، ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ ﴾ هو أهل أن يُتقىٰ فيطاع بالتوحيد وينزه عن الشرك والتنديد، ويطاع بالطاعات ويبتعد عن المعاصي والسيئات، فهو سبحانه وتعالىٰ يراك حين تقوم، ﴿ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ أهل أن يغفر للمؤمنين والمسلمين والموحدين قال الله: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾[طه:٨٢]، وأخرج الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ الله – صلىٰ الله عليه وسلم – قَرَأَ – أَوْ تَلَا – هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ [المدثر: ٥٦] فَقَالَ: «قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا أَهْلٌ أَنْ أُتَّقَىٰ، فَلَا يُجْعَلْ مَعِي إِلَهٌ آخَرُ، فَمَنْ اتَّقَىٰ أَنْ يَجْعَلَ مَعِي إِلَهًا آخَرَ، فَأَنَا أَهْلٌ أَنْ أَغْفِرَ لَهُ».

والحمد لله رب العالمين.

سورة القيامة

بسم الله الرحمن الرحيم

مكية، وسيمت بالقيامة؛ لأن الله ذكر فيها يوم القيامة.

﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ أي: أقسم بيوم القيامة، وأقسم الله به لعظمة ما يكون فيه من الأهوال ومجيء الرب عز وجل للفصل بين العباد.

﴿ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ قيل: لا أقسم بالنفس اللوامة، أي: لم يقسم الله عز وجل بها، والصحيح: أنه أقسم بيوم القيامة وأقسم بالنفس اللوامة؛ لأن النفس تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

الأول: المطمئنة: وهي نفس المؤمن المسارع إلىٰ الخيرات والمبرات.

الثاني: وأمارة بالسوء: وهي النفس التي ترغب في السوء وتزينه.

والثالثة: اللوامة: وهي النفس التي إن فعل الخير لامته وإن فعل الشر لامته، وقيل: بأنها الفاجرة والأول أصح يعرفه كل واحد من نفسه، تتكلم بالكلمة ثم تقول لك نفسك لِمَّ تكلمت بهذا، وربما تأكل الأكلة قالت لك: لما أكلت كذا فإن فعلت الخير لامتك وإن فعلت الشر لامتك؛ لترددها، وأحسنها حالًا المطمئنة، قال الله عز وجل: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾[الفجر: ٢٧].

﴿ أَيَحْسَبُ ﴾ أيظن الكافر ﴿ الإِنسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ أن الله عاجز عن جمع عظامه بعد أن صارت مفتتة وصارت ضلالًا في الأرض؛ والله لا

يعجزه شيء، قال تعالىٰ: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَىٰ الله الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾[المؤمنون:١١٥-١١٦]، ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[يس:٧٨-٧٩].

﴿ بَلَىٰ ﴾ جواب لهذا الاستفهام، ﴿ قَادِرِينَ ﴾ علىٰ التعظيم أي لا يعجزه شيء، ﴿ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ يقول الله عز وجل: بلىٰ إن في قدرتنا إحيائه بعد إماتته وزيادة علىٰ ذلك لا يعجزنا أن نسوي بنانه فتصير كيد الحافر من الدواب.

﴿ بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ جنس الإنسان يريد بالكفر والعصيان أن يفجر ويخالف أمر الله في أيامه المقبلات ويبارز الله بالمعاصي والسيئات، ولا يسلم من هذا إلا من سلمه الله وعصمه، وطبيعة الإنسان أنه كفور فجور وأنه ظلوم جهول: ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾[يوسف:٥٣]، ﴿ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾[ص:٢٤].

﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ لشدة كفره وبغيه يقول: متىٰ يوم القيامة؟ وأين يوم القيامة؟ وهذه الأسئلة قد تكررت من الكفار، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[يونس: ٤٨]، وقال: ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ الله وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾[الأحزاب:٦٣]، وقال: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴾[النازعات:٤٢-٤٤]، ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا

﴾[الأعراف:١٨٧].

﴿ فَإِذَا بَرِقَ ﴾ حار، كقوله: ﴿ لا يرتد إليهم طرفهم ﴾ ﴿ الْبَصَرُ ﴾ يوم القيامة يوم تبعث من قبرك أيها الإنسان فيشخص بصرك، كما قال تعالىٰ: ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾[القلم:٤٣]، يخرج لا يستطيع أن يغمض عينة من شدة الخوف والفزع، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾[إبراهيم:٤٢-٤٣].

﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ أي ذهب ضوؤه.

﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ يجمعان ويكوران في النار كما قال عز وجل: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾[التكوير:١]، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾[القيامة:٩].ولا يظن ظان أن إلقاؤهما في النار عذاب لهما وإنما هو تبكيت لمن كان يعبدهما من دون الله، فالشمس المحرقة العظيمة والقمر المضيء تتبدد أنوارهما وتنخسف أضواؤهما ويصبحان في النار.

﴿ يَقُولُ الإِنسَانُ ﴾ عند مشاهدة هذه الأهوال، ﴿ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ أين المهرب والفرار إلا إلىٰ الله، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَفِرُّوا إِلَىٰ الله ﴾[الذاريات:٥٠]، لا مهرب منه إلا إليه، لا عشيرة، ولا معين، ولا ظهير، ولا نصير في قاع صفصف يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، والأعمال قد أُحضرت، والنار قد سجرت، والخصوم كل يطالب بما له، ربما كان خصمك أمك أو أبوك أو

أخوك أو زوجك أو أبنك أو جارك أو صاحبك، وفوق ذلك الله عز وجل مطلع علىٰ السرائر: ﴿ يَوْمَ تُبْلَىٰ السَّرَائِرُ ﴾[الطارق:٩].

﴿ كَلَّا ﴾ حقًا، ﴿ لا وَزَرَ ﴾ لا مفر ولا مهرب.

﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ ليس إلا الله يجازي العباد علىٰ أعمالهم فالمحسن بإحسانه والمسيء بإساءته إلا أن يتجاوز الله عمن شاء من عصاة المسلمين، كما قال تعالىٰ: ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴾[الشورىٰ: ٤٧]، ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ الله ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾[البقرة:٢٨١]، وقال: ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف:٤٩].

﴿ يُنَبَّأُ ﴾ يُخبر، ﴿ الإنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ في ذلك اليوم بما قدم من الأعمال الكبير والصغير، والجليل والحقير، وما كان من أمثال النقير والقطمير فيُخبر بأعماله الصالحة التي قدمها وبأعماله السيئة التي ارتكبها.

﴿ بَلِ الإنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ يُسأل عن نفسه ويشهد عليها، فالمؤمن قد يُسأل كما في حديث ابن عمر: «فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، تَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ يَقُولُ: أَعْرِفُ، يَقُولُ: رَبِّ أَعْرِفُ مَرَّتَيْنِ»، فيظهر الله له صغار ذنوبه ويخفي عنه كبار ذنوبه، فيقول: «سَتَرْتُهَا فِي الدُّنْيَا، وَأَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ»، «فَيَقُولُ: رَبِّ، قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَا هُنَا»، أخرجه مسلم، يطمع في مغفرة الله، وأما الآخر فيقول الله له: «أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا»، والثالث يقول له: أكنت

تظن أنك ملاقي، فيقول: نعم يا رب، «فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَىٰ نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ»، أخرجه مسلم، والحال كما قال الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾[النور:٢٤-٢٥]، فهنا يقول: ﴿ بَلِ الإِنسَانُ ﴾ الواقع أن الإنسان: ﴿ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ عالم بأعمال نفسه وقد عرضت عليه وسُطرت.

﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ ولو ألقىٰ حجته وأنكر الفعل وأراد أن يكذب يقول: أردت كذا وقصدت كذا، لكن الواقع أنه عالم بنفسه وقيل: المعذر: هو الثياب في لغة أهل اليمن التي يُغطىٰ بها الإنسان، وقيل الاعتذار وهذا مردود فإنهم يكذبون كما قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[المجادلة:٦]

ثم قال الله عز وجل لمحمد صلىٰ الله عليه وسلم حيث كان يقرأ القرآن ويلاقي شدة عند إنزاله من أجل تحفظه فوعدّه الله بحفظه: ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ أي: حين يأتيك جبريل بالقرآن ولكن اسمع وانصت.

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ في صدرك، ﴿ وَقُرْآنَهُ ﴾ تقرأه بعد ذلك، فكان النبي صلىٰ الله عليه وسلم إذا جاءه جبريل بعد ذلك أنصت ثم يقرأه كما وعده الله،

ففي الصحيحين عن ابن عباس ا فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾[القيامة: ١٦] قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صلىٰ الله عليه وسلم إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ كَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَهُ وَشَفَتَيْهِ فَيَشْتَدُّ عَلَيْهِ، فَكَانَ ذَلِكَ يُعْرَفُ مِنْهُ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَىٰ: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾[القيامة: ١٦] أَخْذَهُ: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾[القيامة: ١٧]، وَقُرْآنَهُ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَجْمَعَهُ فِي صَدْرِكَ وَقُرْآنَهُ فَتَقْرَؤُهُ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾[القيامة: ١٨]، قَالَ: أَنْزَلْنَاهُ فَاسْتَمِعْ لَهُ: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾[القيامة: ١٩]، أَنْ نُبَيِّنَهُ بِلِسَانِكَ فَكَانَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ أَطْرَقَ فَإِذَا ذَهَبَ قَرَأَهُ كَمَا وَعَدَهُ الله».

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ ﴾ أي: قرأه جبريل، ﴿ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ اقرأه كما قرأه.

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ علينا أن تقرأهُ للناس، كما قال تعالىٰ: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ * إِلَّا مَا شَاءَ الله ﴾[الأعلىٰ:٦-٧]، أي: أن ينسخه وإلا فإن الله قد حفظ القرآن.

ثم قال الله عز وجل مبينًا سبب كفر الكافرين وإعراض المعرضين: ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾ السبب الذي جعلكم تكفرون بمحمد صلىٰ الله عليه وسلم وتنكرون اليوم الآخر وما فيه: أنكم تحبون الدنيا العاجلة وتطمعون في ملذاتها وترغبون فيها.

﴿ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ ﴾ تزهدون في الآخرة التي هي خير وأبقىٰ أعدها الله عز وجل للبقاء لا للفناء.

ثم قال مخبرًا عن حال المؤمنين في ذلك اليوم: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾ تعلوها النضارة والبهاء والجمال.

﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ بعينيها فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أَخْبَرَهُ أَنَّ نَاسًا قَالُوا لِرَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم: يَا رَسُولَ الله هَلْ نَرَىٰ رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ»، متفق عليه، وهذه مسألة عليها أهل السنة أجمعون من زمن الصحابة رضوان الله عليهم إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها أن الله عز وجل يُرىٰ يوم القيامة في موطنين:

الأول: في عرصات القيامة، ودليله هذه الآية.

الثاني: في الجنة كما قال تعالىٰ: ﴿ عَلَىٰ الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾[المطففين:٢٣]، أي: إلىٰ وجه الله العظيم، وقال: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ ﴾ الجنة، ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾[يونس:٢٦]، النظر إلىٰ وجه الله عز وجل، فعن صهيب ا عَنِ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم فِي قَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ نَادَىٰ مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ الله مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنجِزَكُمُوهُ، قَالُوا: أَلَمْ يُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وَيُنْجِنَا مِنَ النَّارِ وَيُدْخِلْنَا الجَنَّةَ؟ قَالَ: فَيُكْشَفُ الحِجَابُ قَالَ: فَوَالله مَا أَعْطَاهُمُ الله شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمِ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ»، وعدي النظر هنا بإلىٰ الذي يفيد نظر العين حقيقةً، فنضرت وجوههم بنظرها إلىٰ وجه ربهم سبحانه وتعالىٰ.

﴿ وَوُجُوهٌ ﴾ وهذه وجوه الكفار ﴿ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ كالحة مغبرة مرهقة عليها قترة مسودة: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾[آل عمران:١٠٦]، ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾[عبس:٣٨-٤٢]، فجمال الجسم لذلك اليوم يكون بحسب جمال الدين فمن كان من أصحاب الدين كان من أصحاب الوجوه المضيئة المشرقة الجميلة، ومن كان من المفرطين ناله من قترة الوجه بقدر تفريطه.

﴿ تَظُنُّ ﴾ استيقنت ﴿ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ أن تقع بها الفاقرة وهو الأمر العظيم الذي لا تتحمله، فالظن في القرآن يأتي كثيرًا بمعنىٰ الاستيقان.

﴿ كَلَّا ﴾ أي: حقًا، ﴿ إِذَا بَلَغَتِ ﴾ النفس ﴿ التَّرَاقِيَ ﴾ الحلقوم وذلك إذا كان الإنسان في النزع وبلغت نفسه التراق وهو العظم الذي بين الرقبة والعاتق، فيحشر عند الموت.

﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ سأل أهله أين الأطباء والرقاة، وهذا كقوله: ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[الواقعة: ٨٣ – ٨٧].

﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴾ استيقن أنه مفارق إذ قد عاين الملائكة؛ لأن الإنسان قبل موته إن كان من أهل الإيمان رأىٰ ملائكة الرحمة بيض الوجوه معهم

كفن من الجنة وحنوط من الجنة، وإن كان من أهل الإشراك والفجور جاءته ملائكة سود الوجوه معهم كفن من النار وحنوط من النار، كما في حديث البراء رضي الله عنه.

﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ قيل: أحواله، وقيل: ساقه حين تربط في الكفن.

﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ مآله إلىٰ ربه فيجازيه بعمله.

ومع هذا وذاك فإن الإنسان معرض للوعيد والعذاب الشديد والسبب أنه ﴿ فَلا صَدَّقَ ﴾ بوحي الله، ﴿ وَلا صَلَّى ﴾ لله، انظروا يا سبحان الله كم يذكر الله الصلاة دليل علىٰ عظم شأنها، وما أكثر المفرطين فيها في هذا الزمان بين تارك لها بالكلية وبين مضيع لأركانها وشروطها وأوقاتها، فربما اتخذ الصلاة لوقت الفراغ، اختبر نفسك أيها المسلم هل تقوم للصلاة من نومك؟ هل تترك العمل لصلاتك، هذا هو المسلم، أما من كان حاله كما قال الله لا: ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى ﴾[النساء:١٤٢]، وقال: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾[الماعون:٤-٥]، وقال: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾[مريم:٥٩]، ﴿ فَلا صَدَّقَ ﴾ برسالة الله، ﴿ وَلا صَلَّى ﴾ لله.

﴿ وَلَكِنْ كَذَّبَ ﴾ بالرسالة والنبوة، ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ أعرض.

﴿ ثُمَّ ذَهَبَ ﴾ رجع ﴿ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴾ متبخترًا متكبرًا مسرورًا، وهذا

حال كثير من الناس، يقول أحدهم: دعونا من المطاوعة ويضحك عليهم، يخشىٰ عليه والله من مقت الله وغضبه إن لم تبادر إلىٰ مرضات الله عز وجل فلا أقل من عدم السخرية من المؤمنين فإن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قد أخبر بأن المستهزئ بدين الله عز وجل من الكافرين: ﴿ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾[التوبة:٦٥-٦٦]، وقال: ﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾[المطففين:٣١-٣٣].

﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ تهديد من الله عز وجل لهذا الصنف، وقيل بأنه تهديد لأبي جهل لعنه الله.

﴿ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ إعادة التهديد والوعيد وأن هذا الصنف مآله إلىٰ الانحسار والخزي والبوار إن لم يبادر بتوبة قبل الموت وعودة قبل الفوت.

﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ ﴾ أيظن هذا الإنسان ﴿ أَنْ يُتْرَكَ سُدًىٰ ﴾ هملا لا يؤمر ولا ينهىٰ، وأنه خلق عبثًا؟ لا، لا يكون ذلك، قال الله لأ: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾[المزمل:١٥-١٦]، فالله عز وجل أرسل الرسل وأنزل الكتب حتىٰ لا يأتي آتي يقول يوم القيامة: يا رب ﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[المائدة:١٩].

﴿ أَلَمْ يَكُ ﴾ هذا المتكبر المتغطرس المتجبر الذي يرىٰ نفسه في يوم ﴿

نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴾ وهو عبارة عن حيوان منوي من ملايين الحيوانات المنوية يجتمع مع ماء المرأة فيصير نطفةً ومشيجًا كما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾[الإنسان: ٢]، « إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا»، متفق عليه، عن ابن مسعود، ﴿ مِنْ مَنِيٍّ ﴾ المني الذي يخرج من الرجل والمرأة، ﴿ يُمْنَىٰ ﴾ أي: حال الجماع.

﴿ ثُمَّ كَانَ ﴾ بعد النطفة ﴿ عَلَقَةً ﴾ معروفة شيء صغير يعلق في رحم المرأة مثاله ما يكون في المياه من العلق الأسود، ﴿ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ خلقه الله وسواه وجعل له سمعًا وبصرًا وقلبًا وشحمًا وعظمًا وسواه مخلوقًا، فلو خرج قبل الأربعة الأشهر لربما رأيته عبارة عن مضغة، وإذا خرج بعدها رأيته خلقًا سويًا.

﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ ﴾ خلق منه الزوجين، ﴿ الذَّكَرَ وَالأُنْثَىٰ ﴾ من أجل

التزاوج، والحفاظ على النسل، والتعاون وقضاء الوطر وغير ذلك.

﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ ﴾ أي: الذي خلقك وأنت لا شيء من نطفة بل من العدم، أليس بقادر ﴿ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ وهذا دليل على أن الله لا يعجزه شيء، وكما أسلفت أن الله عز وجل يقرر الكفار الذين ينكرون البعث والمعاد، فيقررهم بأن البدأة من الله وربما إذا سلمنا أن الإعادة صعبة ستكون البدأة أصعب، فمن استطاع على البدأة لا يعجزه الإعادة، ولهذا قال بعض أهل العلم استدل بالبدأة على الإعادة وقال بعضهم: أيضًا استدل بالإعادة على قدرته على البدأة، المهم أنه استدل بخلقه لهم قبل أن يكونوا شيئًا على قدرته على إعادتهم، ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ ﴾ أي: ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾[الانفطار:٧-٨]، ﴿ بِقَادِرٍ ﴾ يوم القيامة، ﴿ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ ويخرجهم من قبورهم، وقد جاء في سنن أبي داود عن موسى بن أبي عائشة كان رجلٌ يُصلي فوق بيته، وكان إذا قرأ: ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾[القيامة: ٤٠]، قال: سُبحانك فبلى، وأما ما جاء عن أبي هريرة: أن النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ قال: «بَلَى»، وكذلك: ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾[التين:٨]، عند أبي داود (٨٨٧) قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم -: «مَن قرأ منكم بـ ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾[التين: ١]؟ فانتهى إلى آخرها: ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾[التين: ٨]، فليقل: بلى»، وأنا على ذلك من الشاهدين فهو

من طريق رجل أعرابي عن أبي هريرة رضي الله عنه، والمبهم من قسم الضعيف.

والحمد لله رب العالمين.

سورة الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

مكية، وقيل: مدنية.

في صحيح مسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، «أَنَّ النَّبِيَّ صلىٰ الله عليه وسلم كَانَ يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ، يَوْمَ الْجُمُعَةِ: ﴿الم * تَنْزِيلُ﴾[السجدة:١-٢]، وَ: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَىٰ الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ ﴾[الإنسان:١]».

قال ابن القيم في زاد المعاد (١/ ٦٣): وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ صلىٰ الله عليه وسلم يَقْرَأُ فِي فَجْرِهِ سُورَتَي (السَّجْدَةِ) وَ (هَلْ أَتَىٰ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ) لِاشْتِمَالِهِمَا عَلَىٰ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ فِي هَذَا الْيَوْمِ، مِنْ خَلْقِ آدَمَ، وَذِكْرِ الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ، وَدُخُولِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَكَانَ يُذَكِّرُ الْأُمَّةَ فِي هَذَا الْيَوْمِ بِمَا كَانَ فِيهِ وَمَا يَكُونُ، فَهَكَذَا يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ بِأَعْظَمِ مَوَاقِفِ الدُّنْيَا - وَهُوَ يَوْمُ عَرَفَةَ - الْمَوْقِفَ الْأَعْظَمَ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ فِي هَذَا الْيَوْمِ بِعَيْنِهِ، وَلَا يَتَنَصَّفُ حَتَّىٰ يَسْتَقِرَّ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مَنَازِلِهِمْ، وَأَهْلُ النَّارِ فِي مَنَازِلِهِمْ. اهـ

﴿ هَلْ أَتَىٰ ﴾ قد أتىٰ، ﴿ عَلَىٰ الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾ أي: قبل أن يوجد في صلب أبيه وبطن أمه كان في العدم.

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ ﴾ حيث خلق الله آدم من تراب، ثم جعله طينًا، ثم جعله حمئًا مسنونًا، ثم نفخ فيه فكان إنسانًا سويًا قائمًا، ثم تتابعت الخلقة أن

خلقهم متناسلين، ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ من مني الرجال والنساء، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾[الطارق: ٧]، ﴿ أَمْشَاجٍ ﴾ مختلط مستقذر في المنظر ومع ذلك مبدأ الإنسان من هذه النطفة حتىٰ قال بعضهم: لماذا تتكبر وأولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة، ﴿ نَبْتَلِيهِ ﴾ أي: المقصد من خلق الإنسان الابتلاء والاختبار هل يشكر أم يكفر؟ هل يؤمن أو يعرض، كما قال تعالىٰ: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾[الملك: ٢]، ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ أي: خلق الله له سمعًا وبصرًا، سمع يدرك به المسموعات، وبصرًا يدرك به المبصرات، وأكثر معارف الإنسان تكون من هاتين الجارحتين مع جارحة القلب، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَالله أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[النحل:٧٨].

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ أي: جنس الإنسان يبني الله له سبيل الخير وسبيل الشر وهذه هداية عامة كقوله: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾[البلد:١٠]، أي: نجد الخير والشر، وأما هداية التوفيق فهي خاصة بالمؤمنين قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾[يونس:٩]، ﴿ إِمَّا شَاكِرًا ﴾ أي: جنس هذا الإنسان أما أن يكون شاكرًا لله علىٰ نعمه، ﴿ وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ كافرًا لنعم الله أو جاحدًا وكافرًا بالله، والمعنىٰ إنه في هذا الحال إما أن يكون مؤمنًا سعيدًا، وإما أن يكون كافرًا شقيًا، وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله

عنه: «الشَّقِيُّ مِنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَالسَّعِيدُ مَنْ سَعِدَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ»، أخرجه مسلم.

فلما بين حال الإنسان من حيث القسمة أخبر عن مآلهم: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ ﴾ يعني في جهنم فيه دليل علىٰ أن النار موجودة الآن إذ أن الله قد أعدها وجهزها وجعل الملائكة يحشونها، ﴿ سَلاسِلا ﴾ يقيدون بها، ﴿ وَأَغْلالًا ﴾ تغل أيديهم وأرجلهم إلىٰ حناجرهم، ﴿ وَسَعِيرًا ﴾ نار تحيط بهم فتحرقهم أعاذنا الله من ذلك.

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ ﴾ أصحاب الأعمال الصالحة تسمىٰ مبرات؛ لأنها تقرب من الله عز وجل، والبر كل أعمال الصلاح، كما قال الله عز وجل: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾[البقرة:١٧٧]، هذا من البر: ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾[البقرة:١٧٧]، الآية، وفي حديث النواس بن سمعان: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ»، أي: مع الله ومع الناس، ﴿ يَشْرَبُونَ ﴾ يوم القيامة، ﴿ مِنْ كَأْسٍ ﴾ معروف، الكأس ما تكون له عروة يمسك فيها، والكوب ما يكون بدون عروة، ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ مليئة بالخمر المختلط بالكافور فيزداد برودةً ولذةً وليس فيه من خصائص الدنيا شيء؛ لأن خمر الدنيا يسبب السكر شبه الجنون ورائحته كريهة ويلحق شاربه كثير من الضرر الديني والدنيوي، أما خمر الآخرة، فحاله كما قال الله عز وجل: ﴿ لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴾[الصافات:٤٧]، ممزوجة

بالكافور وهو نوع من الطيب.

﴿ عَيْنًا ﴾ أي: هذه الأكواب تملأ من عين، ﴿ يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله ﴾ أي: يشرب منها عباد الله المؤمنين الذين دخلوا الجنة، ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ يستمتعون بما فيها من الشراب وغير ذلك كما شاؤوا وأنىٰ شاؤوا كما قال الله عز وجل في وصف الجنة: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾[الرحمن:٥٠]، ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾[الرحمن:٦٦].

وسبب حصولهم علىٰ هذا الخير العظيم ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ﴾ يوفون في الدنيا بالنذور التي أوجبها الله عليهم وما جعلوها علىٰ أنفسهم، ألزموها بطاعة الله، ﴿ وَيَخَافُونَ يَوْمًا ﴾ يخافون من الله ويخافون من اليوم الذي سيحشرون إليه، ﴿ كَانَ شَرُّهُ ﴾ كان علىٰ المضي لكنه خبر عن الآتي لتحقق وقوعه، ﴿ مُسْتَطِيرًا ﴾ أي: ظاهرًا منتشرًا، في يوم القيامة في عرصاتها وجميع أحوالها إلا ما رحم الله.

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ ﴾ ومن طريقتهم؛ أنهم يطعمون الطعام للفقراء والمساكين والمحتاجين، ﴿ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ قيل حب الله لا وقيل مع حبهم للطعام واستظهره ابن كثير، ﴿ مِسْكِينًا ﴾ محتاجًا فقيرًا، ﴿ وَيَتِيمًا ﴾ لا أب له ينفق عليه، ﴿ وَأَسِيرًا ﴾ قد أُودع السجون وليس ثمة من ينفق عليه.

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله ﴾ سبب الاطعام ابتغاء مرضات الله كما قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ الله فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ

﴾[الروم:٣٩]، وفيها: إثبات صفة الوجه لله، وجه يليق بجلال الله عز وجل وهو من الصفات الذاتية الخبرية، وأدلتها كثيرة في الكتاب والسنة وعليها الإجماع، وفيها: فضيلة الاخلاص: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[الشورىٰ:١١]، ﴿ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ ﴾ علىٰ هذا الاطعام، ﴿ جَزَاءً ﴾ أي: نوالًا وعطاءً، ﴿ وَلا شُكُورًا ﴾ أي: مدح وثناءَ، وبهذا تعلم أن من أعظم أسباب الجنة الإحسان إلىٰ الغير، فالوفاء بالنذور، والاستعداد ليوم القيامة، والاطعام للمحتاجين من أفضل ما يقرب إلىٰ الله عز وجل، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي؟ قَالَ يَا رَبِّ: وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي»، أخرجه مسلم.

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا ﴾ هذا خبر عن المؤمنين، أيضًا من حسن فعلهم: أنهم يخافون الله، وخوف الله عبادة عظيمة تحول بين العبد وبين المعاصي والسيئات، قال في وصف الملائكة: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾[النحل:٥٠]، وقال: ﴿ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ ﴾[آل عمران:١٧٥]، ﴿ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾[المائدة:٤٤]، ﴿ يَوْمًا عَبُوسًا ﴾ شديدًا مهولًا، ﴿ قَمْطَرِيرًا ﴾ أي: عظيمًا يلحق الناس بسببه الأهوال العظيمة فتتغير فيه الوجوه، وتضيق الصدور.

﴿ فَوَقَاهُمُ اللهُ ﴾ أي: المؤمنين، ﴿ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴾ مهالك ومخازي

ومساوئ ذلك اليوم، ﴿ وَلَقَّاهُمْ ﴾ أعطاهم، ﴿ نَضْرَةً ﴾ جمال وجه وهذا لا يكون إلا بجمال باطن، فإن الإنسان إذا تغير باطنه تغير وجه ولا بد، وكم من إنسان يخرج من بيته وتقول له: ما لك يا أخي وجهك متغير وهو لم يفصح بما في قلبه؛ لكن المؤمنين حين يجازون بهذا الجزاء وتنشرح صدورهم تحسن ظواهرهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾[القيامة:٢٢]، من الضارة، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[القيامة:٢٣]، ﴿ وَسُرُورًا ﴾ فرحت بما هم فيه من الحال.

﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أي: أن الله جازاهم في الآخرة بسبب صبرهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[الزمر:١٠]، ﴿ جَنَّةً ﴾ أفردها؛ لأنها تفيد العموم، والجنة منقسمة إلىٰ جنان كثيرة، ﴿ وَحَرِيرًا ﴾ ألبسهم الحرير الذي كان ممنوعًا عليهم في الدنيا وإنما أُبيح لنسائهم، ولذلك قَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «مَنْ لَبِسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ»، متفق عليه عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه.

﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا ﴾ ومن نعيمهم في الجنة: أنهم يتكئون ويجلسون جلسة المستريح، ﴿ عَلَىٰ الْأَرَائِكِ ﴾ علىٰ السرر المرفوعة المفروشة، ﴿ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا ﴾ لا يرون فيها شمسًا تحرق وجوههم ﴿ وَلا زَمْهَرِيرًا ﴾ ولا برودةً تتعبهم.

﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا ﴾ أيضًا من جميل شأنها أن الضلال دانية علىٰ

أصحابها تظلهم بواكها وخضرتها ونعيمها، مع أن الجنة لا شمس فيها: ﴿ وَذُلِّلَتْ ﴾ شخرت وقربت: ﴿ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ ما فيها من الفواكه والخير يأتي إلىٰ المؤمن وهو علىٰ فراشه ويأكل ويشرب ولا ينقص منها شيئًا.

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ ﴾ أيضًا من نعيمهم أنه يطوف عليهم الولدان المخلدون ومن سخرهم الله لخدمة المؤمنين في الجنة، ﴿ بِآنِيَةٍ ﴾ جمع إناء وهو ما يؤكل ويُشرب فيه، ﴿ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ حُرمت الفضة علىٰ المسلمين في الدنيا وأعطوها في الجنة: فعن حذيفة رضي الله عنه: «لا تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَلا تَأْكُلُوا فِي صِحَافِهِمَا، فَإِنَّهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَكُمْ فِي الآخِرَةِ»، أخرجه مسلم، ﴿ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ ﴾ أكواب فيها الخمر والعسل واللبن والماء المصفىٰ وغير ذلك من قوارير لكن ليست من قوارير الدنيا فهو زجاج أو ربما صنعوه من غير ذلك من المصنوعات.

لكنها: ﴿ قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ وهذا شيء عجيب يدل علىٰ عظمة الخالق حيث خلق قوارير من فضة، فجمع لهم بين جمال الظاهر والباطن، ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ يشربون ما يكفيهم ولا يفضل شيء مقدرة لهم من عليم قدير.

﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا ﴾ أي: أن المؤمنون يُسقون أيضًا في الجنة كأسًا، ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴾ خمر مخلوط بالزنجبيل أو خمر مخلوط بالكافور أو ماء مخلوط بالزنجبيل أو ماء مخلوط بالكافور؛ لأن ذلك يحسنه ويجمله

ويرده.

﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾ أي: في الجنة عين توصف بأنها سلسبيلًا، ووصفت بذلك؛ لأن المؤمن يشرب منها ولا يغص، وقيل: المعنىٰ (سلسبيلًا يا محمد)؛ لكن الحديث ضعيف.

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: من عظيم نعمهم أيضًا أنه يطوف علىٰ المؤمنين وهم في قصورهم وخيامهم وأرائكهم مع نسائهم، ﴿ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴾ خلقهم الله لخدمة أهل الجنة وكتب لهم الخلد، ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ ﴾ لكثرتهم، ﴿ حَسِبْتَهُمْ ﴾ ظننتهم، ﴿ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا ﴾ لجمال وجوههم وبهاء صفاتهم وكثرة عددهم.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ﴾ أيها المسلم في الجنة، ﴿ ثَمَّ ﴾ هناك أي: في الجنة ونعيمها ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ واسعًا: «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُّونَ مِيلًا، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمِ الْمُؤْمِنُ فَلَا يَرَىٰ بَعْضُهُمْ بَعْضًا»، متفق عليه، خيمة يعني: الستين الميل تقارب تسعين كيلو متر أو أكثر قل: مائة وعشرة كيلو متر، وهذا دليل علىٰ عظمة الله عز وجل وعظيم جزاءه.

وفي صحيح مسلم عن المغيرة قَالَ: «سَأَلَ مُوسَىٰ رَبَّهُ، مَا أَدْنَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً، قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ،

فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَىٰ أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ»، قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[السجدة: ١٧]، الْآيَةَ.

﴿عَالِيَهُمْ﴾ أي: عليهم من لباسهم، ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ ثياب من سندس من الحرير الخالص، ﴿خُضْرٌ﴾ أخضر اللون، ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ نوع أيضًا من الحرير، فيلبسون ألبسة عظيمة ويفرش لهم أحسن الفرش كما ذكر الله عز وجل في سورة الرحمن: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾[الرحمن: ٥٤]، ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ زادهم أيضًا أن حلاهم أساور من فضة في أيديهم وأماكن الحلية إكرامًا لهم وتنعيمًا وتزيينًا، ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ مع ذلك كله، ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ شرابًا طاهرًا في نفسه مطهرًا للظاهر والباطن، وانظر إلىٰ هذا النعيم العظيم الذي ذكره الله لأهل الجنة دعوة إلىٰ هذا السبيل العظيم وإشادة بهذا الخير العميم حتىٰ لا يركن الإنسان إلىٰ دنيا فانية أو نعيم زائل.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ كل الذي تقدم ذكره في هذه السورة من حال المؤمنين، ﴿كَانَ

﴿ لَكُمْ ﴾ يا أهل الإيمان والإسلام، ﴿ جَزَاءً ﴾ مكرمةً، ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُمْ ﴾ عملكم، ﴿ مَشْكُورًا ﴾ عند ربكم سبحانه وتعالىٰ فيجازي علىٰ القليل بالكثير، وعلىٰ الصغير بالكبير، وعلىٰ النقير بالقناطير، فالله عز وجل اسمه الشكور فتعبد لله بمعنىٰ هذا الاسم، فلو أعطيت واحد شيئًا يسيرًا وأعطاك ضعفيه أو عملت لأحدهم علىٰ أجر معلوم فأعطاك أضعافه تقول: ما شاء الله هذا كريم، هذا رجل شكور؛ لكن ربنا له المثل الأعلىٰ: الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة، كما قال: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[الزمر:١٠]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي ، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»، متفق عليه، وقد قال تعالىٰ: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾[الأنعام:١٦٠].

ثم قال مُخبرًا عن حال محمد صلىٰ الله عليه وسلم وما امتن الله عليه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ الجمع لتعظيم نفسه المقدسة، ﴿ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾[الشعراء:١٩٣-١٩٤]، وفيه دليل: أن القرآن كلام الله ووحيه وتنزيله وأنه ليس بمخلوق، ﴿ تَنْزِيلًا ﴾ أي: نزله مفرقًا لم ينزله مرة واحدة.

﴿ فَاصْبِرْ ﴾ يا محمد ومن آمن معك، ﴿ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ الكوني والشرعي، ﴿ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ ﴾ أي: من الكفار والمخالفين لدين رب العالمين، ﴿ آثِمًا

﴿ أَوْ كَفُورًا ﴾ صاحب إثم أو كفر كن بعيدًا عنهم؛ لأنك إذا أطعتهم تسلطوا عليك وإذا واتيتهم زادوا في شروطهم لكن لا تلتفت إليهم.

﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ اذكر الله وسبحه وحمده وهلله فإن ذلك من أسباب نصرك وعزك ورفعتك فلا أكرم علىٰ المؤمن من ذكر الله، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾[العنكبوت:٤٥]، ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[البقرة:١٥٢]، وفي حديث أبي هريرة ا يقول: «فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»، متفق عليه، ﴿ وَاذْكُرِ ﴾ يا محمد ومن يتابع محمد صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ اسْمَ رَبِّكَ ﴾ أي: الله بأسمائه الحسنىٰ، ﴿ بُكْرَةً ﴾ في الصباح وهذا إشارة إلىٰ أذكار الصباح، وقد قال تعالىٰ: ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾[الروم:١٧]، ﴿ وَأَصِيلًا ﴾ الأصيل من بعد الزوال ويدخل فيه المساء، فالإنسان يتقرب إلىٰ الله بذكره وشكره وحسن عبادته، وهذا إشارة إلىٰ تعين إحياء الأوقات بطاعة الله عز وجل، أما من يقول: ساعة لربي وساعة لقلبي فهذا لا يستقيم ولا يجوز أن تشرك قلبك مع الله إنما في حديث حنضلة: «سَاعَةً وَسَاعَةً»، ساعة تكون في نشاط وساعة تكون في فتور، ولا يحملك هذا الفتور علىٰ معصية الله.

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ ﴾ يا محمد، ﴿ فَاسْجُدْ لَهُ ﴾ أي: صلي وذكر السجود؛ لأنه أشرف أركان الصلاة، فالإنسان يضع وجه الذي هو أكرم شيء إليه في

الأرض طاعةً لله وتقربًا إلىٰ الله، ﴿ وَسَبِّحْهُ ﴾ يعني التطوع بعد المكتوبة، ﴿ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ لا سيما في الشتاء فليله طويل يستطيع الإنسان أن يصلي فيه وينام ويذكر الله لكن الواقع أن كثير من الناس يصنع نصف الليل الأول مع الواتس أب، والفيس بوك، والتويتر، والتلجرام، والتلفزيون، والدش، وفي ثلث الليل الأخير كالجلد البالي؛ والله المستعان.

ثم قال مخبرًا عن المشركين الذين ضيعوا هذه العبادات والطاعات والقربات: ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ ﴾ أي: أهل الإشراك كما قال الله عز وجل: ﴿ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾ الدنيا، ﴿ وَيَذَرُونَ ﴾ يتركون، ﴿ وَرَاءَهُمْ ﴾ أمامهم وراء تأتي بمعنىٰ أمام: ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾[الكهف:٧٩]، ﴿ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ ثقيلة أهواله وثقيلة أحماله، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الْأَرْضِ، طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»، متفق عليه، وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال: «لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ الله، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ الله، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا

صِيَاحٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ»، فهذا يوم ثقيل يحمل الإنسان ذنوبه قال تعالىٰ: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾[النحل:٢٥]، مصيبة.

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ ﴾ أي: هؤلاء الذين يتمردون علىٰ الله خلقهم، ﴿ وَشَدَدْنَا ﴾ أحكمنا ﴿ أَسْرَهُمْ ﴾ خلقهم في أحسن تركيب وأحسن تقويم، ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ أهلكناهم وأتينا بغيرهم كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾[محمد:٣٨]، فالله لا يعجزه شيء، كانت الفضيلة في بني إسرائيل وحولها إلىٰ أمة محمد، وهكذا تكون الفضيلة في الشخص ما دام مستقيمًا علىٰ الكتاب والسنة وتحول إلىٰ غيره إذا انحرف وإنما هو ابتلاء واختبار.

﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ﴾ أي: هذه السورة وما فيها من العبر تذكرة لك أيها المسلم فاستفدها، ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ طريقًا موصلًا إلىٰ مرضات الله وإلىٰ جنته التي أعدها للمؤمنين.

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ ﴾ أيها الناس، ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الله ﴾ فما شاء كان وما لم يشأ

لم يكن، ولذلك قيل:

مَـا شِـئْتَ كَـانَ وَإِنْ لَـمْ أَشَـأْ ... وَمَا شِـئْتَ إِنْ لَـمْ تَشَـأْ لَـمْ يَكُـنْ

لكن ليس معنىٰ ذلك أن الإنسان يترك الطاعة ويقول: شاء الله، ما أدراه أن الله شاء ذلك، بل عليه يصلي ويصوم ويحج ويعتمر فهذا أمر الله لأ، فلا يجوز الاحتجاج بالقدر إلا إذا قد وقع الإنسان في مصيبة أو في محنة عند ذلك يعلم أن الله قد شاء ما كان قبل فما ندري بمشيئة الله له إلا بعد أن تقع وتكون، فلا يجوز الاحتجاج بالقدر علىٰ ترك الطاعة، ﴿ إِنَّ الله كَانَ عَلِيمًا ﴾ بأحوالكم، ﴿ حَكِيمًا ﴾ في أفعاله، يهدي من يشاء فضلًا، ويضل من يشاء عدلًا.

﴿ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ ممن علمه أهلًا للهداية والتوفيق والتسديد، ﴿ وَالظَّالِمِينَ ﴾ الكافرين، ﴿ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ موجعًا يوم القيامة، نسأل الله أن يغفر لنا ولكم.

والحمد لله رب العالمين.

سورة المرسلات

بسم الله الرحمن الرحيم

مكية، فقد جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: بينما نحن في منىٰ ورسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يقرأ علينا سورة المرسلات طرية إذ خرجت حية، فَقَالَ النَّبِيُّ صلىٰ الله عليه وسلم: «اقْتُلُوهَا»، فَابْتَدَرْنَاهَا، فَذَهَبَتْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلىٰ الله عليه وسلم: «وُقِيَتْ شَرَّكُمْ كَمَا وُقِيتُمْ شَرَّهَا»، أخرجه البخاري، وهي آخر ما قرأ النبي صلىٰ الله عليه وسلم في صلاته عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّ أُمَّ الْفَضْلِ بِنْتَ الْحَارِثِ، سَمِعَتْهُ وَهُوَ يَقْرَأُ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ لَقَدْ ذَكَّرْتَنِي بِقِرَاءَتِك هَذِهِ السُّورَةَ. إِنَّهَا لَآخِرُ مَا سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم يَقْرَأُ بِهَا فِي الْمَغْرِبِ». متفق عليه.

﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا﴾ قيل: الملائكة، وقيل: الرياح وهذا الذي رجحه ابن كثير: أنها الريح لقول الله عز وجل: ﴿يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾[الروم:٤٦].

﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ قيل: الرياح وقيل: الملائكة، ورجح ابن كثير: أنها الرياح تعصف بما أمامها.

﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾ قيل: الملائكة، وقيل: الرياح وفسرها ابن كثير: بأنها الرياح تُرسل وتنشر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾[الحجر:٢٢]، ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾[الفرقان:٤٨].

﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾ الملائكة.

﴿ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ الملائكة يأتون بالذكر من الله عز وجل.

﴿ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ إعذارًا للناس ونذارة لهم حتىٰ لا يقول قائل: ما جاءنا من بشير أو يقول قائل: ﴿ لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ ﴾[القصص:٤٧]، فقد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب للإعذار والإنذار، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[الإسراء:١٥].

أقسم الله عز وجل بما تقدم وكان جوابه: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ ﴾ يا معاشر الكفار من اليوم الآخر وما إليه، ﴿ لَوَاقِعٌ ﴾ لا محالة وقد أحسن من قال:

ما قضىٰ الله كائنًا لا محالة ... والشقي السعيد من لا محالة

﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ كقوله تعالىٰ: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾[التكوير:١-٢]، ينطمس ضوؤها وتتساقط إذ أن السماء تتحول وتطوىٰ.

﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾ بعد أن كانت محكمة لا شقوق فيها يوم القيامة تُفرج وتتكسر وتتهاوىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾[الرحمن: ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴾[المعارج:٨]، تسيل كالرصاص، ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلًا ﴾[الفرقان:٢٥].

﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ هذه الجبال العالية تنسف وتتبدد، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾[طه:١٠٥]، والنسف: هو

الإزالة بسرعة فتنسف سريعًا ثم تكون الأرض مستوية لا عوج فيها ولا أمتا، ومبدأ الجبال أنها تسير، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾[النمل:٨٨]، ثم تكون كالعهن المنفوش، ثم تنسف ثم تتبدد، كما تقدم.

﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ قيل: أُجلت، وقيل: جمعت يوم القيامة، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾[المائدة:١٠٩]، فيجمع الله الرسل للشهادة علىٰ أممهم، كما قال الله عز وجل: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ الله حَدِيثًا ﴾[النساء:٤١-٤٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾[الزمر: ٦٩].

﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴾ أي: أجلت ليوم الفصل، وسمي بيوم الفصل؛ لأنه يفصل فيه بين الناس بين أهل الحق وأهل الباطل، وترد المظالم إلىٰ أهلها، ويحكم علىٰ كل بما يستحق، ويسمىٰ بيوم الفتح، ويوم الجمع، ويوم التغابن وأسماء كثيرة في القرآن والسنة.

فيوم الفصل يوم شديدة أهواله وعظيمة أحواله إلا ما رحم ربي ولذلك قال الله: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ أي: أنه يوم عظيم الأهوال، أمامك

تسمع صوتًا وترهب من سقوطه، تتشقق فيه السموات السبع مع شدتها وصلابتها وأهوال تذهب معها العقول، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾[الحج:٢]، يبصر الرجل ابنه ولا يلتفت إليه، وتنظره الأم ولا تبالي به، ويفر الزوج من زوجته، بل يود المجرم لو يفتدي بجميع الناس ويسلم.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ تهديد ووعيد للمكذبين بالرسل؛ أنهم يعذبون عذابًا أليمًا موجعًا.

ثم يقول الله عز وجل: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ ﴾ يقول للكفار: ما لكم لا تنزجرون عن كفركم وباطلكم: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ ﴾ كقوم نوح، وعاد، وثمود، وفرعون، ولوط ومن إليهم أهلكهم الله: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾[العنكبوت:٤٠]، ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ ﴾[فاطر:٤٤]، فليكن لك عبرة يا أيها المسلم إذا دمدم الله علىٰ بعض الكافرين أو بعض العصاة والملحدين ليكن لك عبرة وعليك بالتوبة والإنابة.

﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ ﴾ نلحقهم بالآخرين الذين يسلكون سبيلهم، يلحقهم الدمار والخزي والبوار.

﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ في كل زمن وحين يدمدم الله علىٰ

المجرمين: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾[الأنعام:٤٤]، وأقرب ما حل بالعالم جائحة كورونا أقرب مثل، اصبح الناس حبيسوا البيوت، قليلوا الأرزاق، كثيروا الفوت، عظيم الموت واشتد بهم الخوف والفزع، فهذه من آيات الله التي يعذب الله عز وجل بها من شاء.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ كررها لشدة الوعيد عليهم.

ثم قال عز وجل مبينًا خلق الإنسان: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ ﴾ ألم نخلقكم يا معاشر الناس من ماء يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة ﴿ مَهِينٍ ﴾ حقير ضعيف لا حيلة له.

﴿ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ ﴾ رحم المرأة، يستقر فيه ﴿ مَكِينٍ ﴾ يمسكه ويحفظه وإلا ربما سقط الجنين مع كبر حجمه لكن يحفظه الله فجعله في قرار مكين مستمكن، ربما تسقط المرأة حتىٰ لا يسقط الجنين.

﴿ إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ أقله ستة أشهر أو تسعة أشهر وربما زاد عن التسعة لكن غالبه تسعة أشهر، وقد وجد أن بعض النساء حملت أربع سنين وبعضها حملت سنتين وربما خرج ولدها وله أسنان.

﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ أي: ما تقدم بيانه، ﴿ فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ إذ أن الله لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بالرسل مع ظهور هذه الحجج القويمة علىٰ

صدق نبوتهم وعلىٰ عظيم شأن الله عز وجل.

ثم امتن عليهم بنعم أخرىٰ فقال: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ ألم نجعل لكم هذه الأرض التي تسيرون عليها كفاتًا تكفت أذاكم أبوالكم وما يخرج منكم في حياتكم ثم تكفتون فيها عند موتكم فلا تظهر رائحتكم الكريهة ولا مناظركم المتغيرة، فكيف لو جعلنا الله عز وجل كبقية الحيوان تنهشنا الكلاب وتتساقط العظام ويرىٰ الاب ابنه والابن أباه والزوج زوجه والأخ أخاه علىٰ هذا الحال، وكيف إذا كان ما يخرج منا يبقىٰ ظاهرًا علىٰ وجه هذه الأرض لأنتنت.

﴿ أَحْيَاءً ﴾ بتغطية ما يخرج منكم، ﴿ وَأَمْوَاتًا ﴾ حين تموتون وتقبرون فيها.

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبال عظيمات، ﴿ شَامِخَاتٍ ﴾ عاليات طويلات، ﴿ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴾ ماءً عذبًا لذيذًا.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بعد هذه الحجج وهذه الأدلة الظاهرة علىٰ قدرة الله العظيمة: ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ * كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾[الانفطار:٧-٩].

ثم قال تعالىٰ: مبينًا حالهم يوم القيامة: ﴿ انطَلِقُوا ﴾ اذهبوا يا معاشر الكفار، ﴿ إِلَىٰ مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ مما بلغته لكم الرسل من وعيد يوم القيامة.

﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ﴾ انطلقوا إلىٰ نار يتصاعد منها لهب عظيم كالظل ولا ظل له، ﴿ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴾ مجزئ إلىٰ ثلاثة أجزاء، والنار ربما خرج منها العنق الطويل فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «يَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا، وَأُذُنَانِ يَسْمَعُ بِهِمَا، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ، فَيَقُولُ: إِنِّي وُكِّلْتُ بِثَلَاثَةٍ: بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنِ ادَّعَىٰ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ، وَالْمُصَوِّرِينَ» أخرجه الترمذي (٢٥٧٤) .

﴿ لَا ظَلِيلٍ ﴾ لا هو ظل تستظلون فيه، ﴿ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللهبِ ﴾ عنكم من شدة حر النار شيئًا، فالمعنىٰ أنه لا ظل فيه ولا يغني من الحر بل هو في نفسه عذاب والله المستعان.

﴿ إِنَّهَا تَرْمِي ﴾ أي: النار تلقي بشرر عظيم، يتطاير منها، ﴿ بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ كالقصور العظيمة، وقيل: كأجذاع النخل؛ لأنهم كانوا يقسمون جذع النخلة إلىٰ ثلاثة أقسام ثم يرمون بها، وأيًا كان فهو شرر عظيم.

﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ ﴾ كأنه جمال سود عظيمة، وقال بعضهم: حبال السفن الكبيرة، ﴿ صُفْرٌ ﴾ كالنحاس، لكن المعنىٰ الأول أقرب: أنه مثل الجمال يعني: في شدة صفاره وسواده.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ من هذا العذاب الشديد والخزي العظيم، نسأل الله السلامة والعافية.

﴿ هَذَا يَوْمُ ﴾ أي: يوم القيامة أشار إليه باسم الإشارة القريب لقربه وتحقق

وقوعه ﴿ لَا يَنطِقُونَ ﴾ لا يستطيعون الكلام ولا الدفاع عن الأنفس والاعتذار حيث يقول الله عز وجل لهم: ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾[المؤمنون:١٠٨]، ولهم مواقف، في موقف يتكلمون: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾[المؤمنون:١٠٧]، ومواقف يأمرهم الله بعدم الكلام فلا يستطيعون كلمة، وربما كان أهل الموقف لا يستطيعون إلا همسًا كما قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾[النبأ: ٣٨].

﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ أي: لا يؤذن لهم بالاعتذار كما قال تعالىٰ: ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا ﴾[المؤمنون:١٠٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾[الروم:٥٧]؛ لأن الاستعتاب قد يجعل لك حظا في الاعتذار وأمل في النجاة، لكن حين يبدأُك بالتأديب تعلم أن لا سلامة.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ في هذا اليوم شديد الحر شديد الأهوال.

﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ يعني: هذه الأحداث التي ذُكرت تكون في يوم الفصل، ﴿ جَمَعْنَاكُمْ ﴾ يا معاشر الكافرين، ﴿ وَالْأَوَّلِينَ ﴾ مع الأمم السابقة واللاحقة، يجمع الله الناس جميعًا في صعيد واحد، ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي.

﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ إن كان لكم مفر ومهرب وخلاص عاجلوا به؛ لكن: ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾[المؤمنون:٣٦].

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بمحمد صلىٰ الله عليه وسلم وبما جاء به مع هذه الحجج والدلائل والآيات.

ولما ذكر الله حال المشركين في دنياهم وأخراهم وما لحقهم من الذل والهوان ذكر حال المؤمنين: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ يقول: لكن أهل التقوىٰ يختلفون عن هؤلاء فإنهم ينعمون، ﴿ فِي ظِلالٍ ﴾ لا يؤذيهم الحر ولا القر، ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ من خمر، وماء، ولبن، وعسل ممزوجة بالكافور والزنجبيل في قوارير من فضة وأكواب من فضة يتنعمون بها ويتلذذون بالشرب منها.

﴿ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ زد علىٰ ذلك: أنهم يتنعمون بالفاكهة: ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[المؤمنون:١٩]، فواكه كثيرة متنوعة في جمالها وطعمها، قال ابن عباس: ليس مما في الجنة من الأرض إلا الأسماء، وهذا كقول الله عز وجل في سورة الواقعة: ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴾[الواقعة:٢٧-٣٣].

﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا ﴾ كلوا يا معاشر أهل الإيمان وتنعموا في الجنة بالشرب أيضًا هنيًا مريئًا لا يلحقهم فيه غصة ولا يلحقكم بسببه مرض: ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي: بسبب أعمالكم الصالحة، وهذا دليل علىٰ أن الجنة لا تُنال بالأماني إنما تُنال بالعمل، أي: سببها العمل وإلا فعن ابن مسعود رضي الله عنه: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ دَاخِلُ الْجَنَّةَ

بِعَمَلِهِ»، قِيلَ: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»، أخرجه مسلم، فالمنفي باء العوض، والمثبت في الآية السبب.

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ ﴾ بما تقدم ذكره من وعد الله تعالىٰ ﴿ نَجْزِي ﴾ نكرم وننعم علىٰ ﴿ الْمُحْسِنِينَ ﴾ بالتوحيد والمتابعة والطاعة

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ لكن المكذبين لهم الويل والعذاب والخزي.

ثم عاد إلىٰ تهديد قريش: ﴿ كُلُوا ﴾ يا معاشر أهل الكفر، ﴿ وَتَمَتَّعُوا ﴾ في هذه الدينا، ﴿ قَلِيلًا ﴾ عمرًا قليلًا بالنسبة لما بعده وإن طال، ﴿ إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ﴾ إنكم مشركون كافرون بالله ورسله مستحقون للعذاب والعقاب علىٰ ذلك.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ عذاب أليم لمن كان هذا حاله.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ أي: من كفرهم أنهم إذا قيل لهم: ﴿ ارْكَعُوا ﴾ صلوا، ﴿ لا يَرْكَعُونَ ﴾ لا يصلون وهذا دليل علىٰ كفر تارك الصلاة، ، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ، أَنَّ وَفْدَ ثَقِيفٍ قَدِمُوا عَلَىٰ رَسُولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم فَأَنْزَلَهُمُ الْمَسْجِدَ لِيَكُونَ أَرَقَّ لِقُلُوبِهِمْ، فَاشْتَرَطُوا عَلَيْهِ أَنْ لَا يُحْشَرُوا وَلَا يُعْشَرُوا وَلَا يُجَبُّوا وَلَا يَسْتَعْمِلَ عَلَيْهِمْ غَيْرَهُمْ فَقَالَ: «لَكُمْ أَنْ لَا تُعْشَرُوا، وَأَنْ لَا تُحْشَرُوا، وَلَا يُسْتَعْمَلَ عَلَيْكُمْ غَيْرُكُمْ»، وَقَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «لَا خَيْرَ فِي دِينٍ لَا رُكُوعَ فِيهِ»، أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة (٢/ ٥١٠) أي: لا نخرج معك جهاد، لا نعطي زكاة ولا نصلي يعني: الجبي أن الإنسان يجعل

وجهه في الأرض ويرفع مؤخرته فظنوا أن السجود من هذا الصنيع وهو تواضع لله فقال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «لَكُمْ أَنْ لَا تُحْشَرُوا وَلَا تُعْشَرُوا »، عفاهم في الجهاد والزكاة يتألف قلوبهم، «وَلَا خَيْرَ فِي دِينٍ لَيْسَ فِيهِ رُكُوعٌ»، ما هناك دين ما فيه صلاة؛ لا بد من الصلاة.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ الذين تركوا الصلاة وأعرضوا عن المجيء بها.

﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ فبأي حديث بعد القرآن يؤمنون ويصدقون وينقادون، فإذا لم ينقادوا لكلام الله وكلام رسوله صلىٰ الله عليه وسلم فبماذا يأخذون إذ لا وسع الله علىٰ من لم يسعه الكتاب والسنة والحمد لله(١).

---

(١) وكان الانتهاء من تفسير جزء تبارك في الحادي عشر من رمضان لعام واحد وأربعين وأربعمائة وألف بمسجد الصحابة بمدينة الغيضة.

تفسير جزء عم

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول، وأشهد ان لا إله إلا الله، وأشهد ان محمدًا عبده ورسوله -صلىٰ الله عليه وسلم-.

فإن من أهم المهمات لهو فهم كتاب الله العزيز الذي أنزله الله عز وجل علىٰ محمد، وجعله حجة بينه وبين عباده، فهو الهدىٰ والبيان والفرقان، وهو المحفوظ بحفظ الملك الديان، وقد ذكر الله عز وجل من صفاته ما يدل علىٰ ما تقدم قال تعالىٰ: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾[الإسراء: ٨٢]، وقال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾[الإسراء: ٩].

ومن باب فهم القرآن درست جزء عم في رمضان (١٤٤٠هـ)، ثم رأيت أن أنشره للناس لعل الله أن ينفع به، والله المستعان.

وجزء عم فيه وسط المفصل وقصاره، وقد جاء من حديث جَابِرٍ، أَنَّهُ قَالَ: صَلَّىٰ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ الْأَنْصَارِيُّ لِأَصْحَابِهِ الْعِشَاءَ، فَطَوَّلَ عَلَيْهِمْ، فَانْصَرَفَ رَجُلٌ مِنَّا، فَصَلَّىٰ، فَأُخْبِرَ مُعَاذٌ عَنْهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ. فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ الرَّجُلَ دَخَلَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَهُ مَا قَالَ مُعَاذٌ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ

صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتُرِيدُ أَنْ تَكُونَ فَتَّانًا يَا مُعَاذُ ؟ إِذَا أَمَمْتَ النَّاسَ فَاقْرَأْ بِـ ﴿ الشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾، وَ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ ﴾، وَ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾، ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾»، متفق عليه.

وكان تقسيم القرآن إلىٰ أحزاب ومنه المفصل مشهور علىٰ عهد الصحابة رضوان الله عليهم، فذهب جمهور أهل العلم إلىٰ أن المفصل من سورة ق إلىٰ آخر القرآن علىٰ القول المشهور، ووسط المفصل من سورة عم إلىٰ سورة الضحىٰ علىٰ القول المشهور، وقصار المفصل من سورة الضحىٰ إلىٰ الناس.

وهناك أقوال أخرىٰ، لكن هذا أرجحها.

وأغلب سور المفصل كان نزولها في بدأ الوحي حيث كان الناس لا يؤمنون بجنة ولا بنار، ولا ببعث ولا نشور، فقرر الله عز وجل لهم تلك الحقائق وجلاها وبينها وأوضحها، فثاب الناس من شركهم إلىٰ التوحيد، ومن الكفر إلىٰ الإسلام، ومن المعصية إلىٰ الطاعة، فعند ذلك أنزل الله بعد ذلك: يا أيها الذين آمنوا.. أقيموا الصلاة، آتوا الزكاة، لا تقربوا الزنا، ولا تقتلوا أنفسكم، إلىٰ غير ذلك من الأحكام، ففي البخاري عن عائشة رضي الله عنها: أنه جَاءَهَا عِرَاقِيٌّ فَقَالَ أَيُّ الْكَفَنِ خَيْرٌ قَالَتْ وَيْحَكَ وَمَا يَضُرُّكَ قَالَ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَرِينِي مُصْحَفَكِ قَالَتْ: لِمَ قَالَ لَعَلِّي أُوَلِّفُ الْقُرْآنَ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ يُقْرَأُ غَيْرَ مُؤَلَّفٍ قَالَتْ: وَمَا يَضُرُّكَ أَيَّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنْ

الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّىٰ إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ لَا تَزْنُوا لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾، وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ قَالَ: فَأَخْرَجَتْ لَهُ الْمُصْحَفَ فَأَمْلَتْ عَلَيْهِ آيَ السُّوَرِ. أخرجه البخاري.

ولما كان هذا هو الحال وأغلب الناس يقرؤون في صلاتهم بقصار المفصل إلا القليل ممن قد حفظ القرآن أو شيئًا منه، بل إن كثيرًا من حفاظ القرآن إن كانوا يصلون بالناس فإنهم يتوخون المفصل ووسطه وقصاره؛ رفقًا بالناس، وامتثالًا لسنة رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم-، فإن غالب قراءات النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- في الصلاة كانت من المفصل فعن أبي هريرة رضي الله عنه: (كان يطيل الركعتين الأوليين من الظهر ويخفف الأخريين ويخفف العصر ويقرأ في المغرب بقصار المفصل ويقرأ في العشاء بوسط المفصل ويقرأ في الصبح بطول المفصل) ولا أعلم ما يثبت عن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- في القراءة خارج المفصل إلا ما كان من قراءة سورة الصافات كما قَالَ ابن عمر: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُ بِالتَّخْفِيفِ، وَيَؤُمُّنَا بِالصَّافَّاتِ»، أخرجه النسائي.

وكذلك قراءة: ﴿ الم * تَنزِيلُ ﴾[السجدة:١-٢]، في فجر يوم الجمعة، وقراءة: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[المؤمنون:١]، حتىٰ أتىٰ علىٰ ذكر موسىٰ وهارون فأخذته سعلة، فركع صلىٰ الله عليه وسلم متفق عليه عن عبد الله بن سائب رضي الله عنه.

وأغلب الناس يقرؤون ولا يفهمون ما يقرؤون؛ ولهذا تعين علىٰ العلماء والمشائخ والدعاة أن يبينوا معاني هذه السور، القصيرة في مبناها العظيمة في معناها؛ فإن الإنسان إذا قرأ القرآن متدبرًا متفهمًا جره ذلك إلىٰ الخشوع، قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَىٰ اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[فاطر: ٢٨].

وقال الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[الأنفال: ٢].

وسبب زيادة الإيمان: أنهم علموا معاني ما يُتلىٰ عليهم، والله الهادي إلىٰ سواء السبيل، فأسأل الله عز وجل أن يجعل ما يكتب نافعاً لعباده مبلغاً إلىٰ مرضاته.

عبد الحميد الحجوري الزعكري

/ من ذي الحجة/ ١٤٤٠ هـ

مسجد الصحابة بالغيضة

تفسير سورة النبأ

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ * كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا * إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا * يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا * وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا * وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا * إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا * فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا * إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا * جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا * رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا * يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا * ذَلِكَ الْيَوْمُ

الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا * إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾[النبأ:١-٤٠].

سورة عم سورة مكية، والغالب علىٰ السور المكية أنها تقرر المبدأ والمعاد، لما تقدم من كفر الناس بذلك، ومن كفر بالمعاد لم ينفع معه وعظ ولا إرشاد، وفيها من آيات الله الظاهرة ومن حججه القاهرة ما تبين هذا الأمر، وتجليها وتقوم بها الحجة الرسالية علىٰ الناس، وفي هذه السور بيان قدرة الله عز وجل علىٰ ذلك وسهولة الأمر بالنسبة إليه، وما فيها من تقرير الناس بما ينظرونه من الأيات الكونية علىٰ صدق الآيات الشرعية.

وقد تضمنت هذه السورة ستة محاور:

الأول: سؤال الكفار وتشككهم في يوم القيامة

الثاني: ذكر آيات الله الدالة علىٰ قدرته وقوته، وغير ذلك من خصائص ربوبيته.

الثالث: إثبات يوم الفصل، وهو يوم القيامة ويوم المعاد

الرابع: بيان حال المشركين والكافرين في ذلك اليوم.

الخامس: بيان حال المؤمنين وسعة فضل الله عليهم في ذلك اليوم.

السادس: بيان شدة ذلك اليوم وما يقع فيه، من مجيء الملائكة، وما يلحق الناس علىٰ ما يأتي بيانه إن شاء الله.

يقول الله عز وجل: ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أي: عن أي شيء يتساءل هؤلاء المشركون ﴿ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ أي: أن تساؤلهم عن النبأ العظيم، قيل القرآن وقيل يوم القيامة وهو الصواب، فإنهم يتساءلون عن الساعة؛ لأنهم كانوا يكذبون بها، وقد وردت عدة أسئلة في ذلك قال تعالىٰ: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾[النازعات: ٤٢]، ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾[الأحزاب: ٦٣]، ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: ١٨٧].

فهو من أعظم الأنباء التي تحصل علىٰ الناس إذ تتغير بها الأحوال، فتزول الحياة الدنيا ويشرع الناس في الحياة الآخرة، نعيم أو عذاب أبدي.

﴿ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ بسبب شكهم وتكذيبهم للقرآن والسنة، ولو آمنوا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد -صلىٰ الله عليه وسلم- رسولًا ونبي، وآمنوا بكل ما أخبر الله عز وجل به لزال عنهم هذا الإختلاف؛ إذ أن منشأ الإختلاف هو ترك الدليل كما قال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾[النساء: ٨٢].

﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ حقًا سيعلمون هذا اليوم وما فيه، ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ توكيدًا لمعرفتهم بذلك اليوم، ولكن متىٰ؟ ﴿يَومَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الشعراء ٨٨-٨٩]، وكما قال تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾[الأعراف: ٥٣].

ثم قال الله عز وجل مبينًا قدرته العظيمة وأنه القوي الذي لا يعجز والقاهر الذي لا يغلب: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ ألم نجعل لكم يا معاشر الكفار الأرض مبسوطة ممهدة، تبنون فيها مساكنكم وتسلكونها لقضاء حوائجكم.

وهذه نعمة عظيمة، فكم من جبال شاهقة لا يستطيع الإنسان أن يطأ عليها أو يتسلقها، ولو كان هذا هو الحال لشق علىٰ الناس ولكن جعل الله الأرض ممهدة، تارة أودية، وتارة وهاد، وتارة تلال، وغير ذلك، ممهدة للمشي الزراعة والسكنىٰ.

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ جعل فيها جبالًا راسيات تثبتها؛ حتىٰ لا تميد بأهلها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[النحل: ١٥]، ونصب الجبال من آيات الله عز وجل الباهرات، ودلائله العظيمات منها بيض وغرابيب سود، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[فاطر: ٢٧]، فتنوعت حجاها وألوانها.

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: أصنافًا كما قال الله عز وجل: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾[الواقعة: ٧]، جعل لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها ذكرًا وأنثىٰ،

جعل بينهم مودة ورحمة وجعل بينهم التناكح والتناسل؛ لقضاء الشهوة وحصول الإربة.

﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ أي: راحة وسكون، وهذا من دلائل قدرة الله، فإن الإنسان إذا كان في حركة دائمة دائبة لحقه الفتور، وربما ضعفت قواه، وهزل جسمه، ولكن جعل الله له النوم؛ للدعة والراحة والسكون: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[القصص: ٧٢-٧٣]، وإذا عدم النوم من الإنسان دل ذلك علىٰ مرض، وعلة حاصلة به.

ويذكرون أن النوم الطبيعي ست ساعات، وللطفل أغلب اليوم، وكلما تقادم في العمر يقل نومه.

وللنوم فوائد منها:

١- ذهاب الهم والحزن، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ ﴾[الأنفال: ١١]، فكم من إنسان إذا حصلت به مصيبة وحصل علىٰ شيءٍ من النوم يقوم وقد انكسرت مصيبته وهدأ قلبه.

٢- راحة البدن، إلىٰ غير ذلك من المصالح، حتىٰ أن الله جعله من الآيات الباهرات: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾[الروم: ٢٣].

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ يغطي البسيطة، ويلبس الناس فيتغطون به عن ضوء النهار، ويتغطون به في كثير من حوائجهم، فيمشي فيه المتخفي ويرتاح فيه التاعب.

﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ سبب لتحصيل الرزق، ويخرج الناس من بيوتهم لطلب أرزاقهم وقضاء حوائجهم.

والليل والنهار آيتان عظيمتان يدلان علىٰ قدرة الملك القهار سبحانه وتعالىٰ.

وقد جعل الله عز وجل لكل من الليل والنهار سلطانًا، فالشمس هي سلطان النهار الظاهر، والقمر هو سلطان الليل الباهر.

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ أي: رفع الله عز وجل فوق الأرض سبع سماوات شديدة البناء بغير عمد، قال الله عز وجل: ﴿ءَأَنتُم أَشَدُّ خَلقًا أَمِ ٱلسَّمَاءُ بَنَيٰهَا * رَفَعَ سَمكَهَا فَسَوَّيٰهَا ﴾[النازعات ٢٧-٢٨].

وقد جاء في الأثر عن ابن مسعود رضي الله عنه: (ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، وما بين كل سماء خمسمائة عام وما بين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش علىٰ الماء، والله تعالىٰ علىٰ العرش لا يخفىٰ عليه من أعمالكم شيء).

ومع ذلك تكون هذه السماوات العظيمات في قبضة الله يوم القيامة: ﴿ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾[الزمر:٦٧]، ويلحقها التشقق: ﴿إِذَا ٱلسَّمَاءُ

ٱنشَقَّت﴾[الانشقاق:١]، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾، ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾[الفرقان: ٢٥-٢٦].

وزين سبحانه هذه السماوات بمصابيح، وجعلها علامات يهتدى بها، ورجومًا للشياطين.

وفي هذا رد على أصحاب الهيئة الجديدة الذي يقولون بتوسع العالم، وهو ما يسمى نظرية الانفجار العظيم، ويستدلون بقول الله عز وجل: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[الذاريات: ٤٧]، يقولون بأنه بتوسع العالم، وهذا استدلال فاسد، فإن تفسير السلف يقضي على أن الله عز وجل خلق السماوات والأرض واسعة، فإن أصحاب الهيئة لا يؤمنون بسماوات طباقًا، و بعرش ولا كرسي.

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ أي: خلق الشمس.

سِرَاجًا: أي ذات نور، وَهَّاجًا: أي ذات حرارة، فلو كانت ذات نور بغير حرارة لربما لحق الناس الفساد في معائشهم وغير ذلك، ولو كانت ذات وهاج ولم تكن ذات نور للحق الناس كثير من البلاء، ولكن من حكمة الله جعلها سراجًا وهاجًا، فيستفيدون من نورها ويستفيدون من حرارتها، تنضج به الفواكه، وتنشف به المبللات، ويحصل به خير عظيم.

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ أنزل الله من المعصرات، قيل السماوات، وقيل الرياح، وقيل السحاب، وهو الصحيح.

سميت معصرات؛ لأنها تعصر بإذن الله عز وجل فينزل منها المطر.

ثَجَّاجًا: أي أنه ينزل متدافعًا، ومنه حديث النبي صلىٰ الله عليه وسلم-: «أَيُّ الْحَجِّ أَفْضَلُ ؟ قَالَ: " الْعَجُّ، وَالثَّجُّ "».

الْعَجُّ: هو رفع الصوت بالتلبية والتكبير.

وَالثَّجُّ: هو إنهار الدم.

ومنه ذلك الحديث: «يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي امْرَأَةٌ أُسْتَحَاضُ حَيْضَةً كَثِيرَةً شَدِيدَةً، فَمَا تَرَىٰ فِيهَا قَدْ مَنَعَتْنِي الصَّلَاةَ وَالصَّوْمَ ؟ فَقَالَ: " أَنْعَتُ لَكِ الْكُرْسُفَ؛ فَإِنَّهُ يُذْهِبُ الدَّمَ ". قَالَتْ: هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: " فَاتَّخِذِي ثَوْبًا ". فَقَالَتْ: هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّمَا أَثُجُّ ثَجًّا» أي: أنه ينزل متدافعًا قويًا.

فيقول الله عز وجل: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ﴾ عظيمًا نافعًا، ﴿ ثَجَّاجًا ﴾ كثيرًا.

﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ ﴾ السبب في إنزال هذا الماء، ﴿ حَبًّا ﴾ من الذرة والشعير والقمح والرز وغير ذلك، ﴿ وَنَبَاتًا ﴾ من الفوكه والأعلاف، ﴿ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ جمع جنة، وهو ما يجن أي يغطي بشجره.

أَلْفَافًا: يلتف بعضها علىٰ بعض لكثرة أشجارها.

فهي حدائق غلبًا يغطي بعضها بعضًا؛ لكثرة أشجارها وطولها وعظيم خلقتها.

وهذه آيات باهرات تدل علىٰ عظمة الخالق سبحانه وتعالىٰ، فإنه ينزل المطر علىٰ الأرض القاحلة فإذا بها تنبت النبات وتظهر الزهور وتنمو الأشجار بعد أن كانت ميتًا، وكل هذا يدلل به الله عز وجل علىٰ قدرته في إحياء الناس بعد إماتتهم.

ثم قال الله عز وجل مخبرًا عن يوم القيامة: ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ ﴾ أي: يوم القيامة الذي يفصل الله عز وجل فيه بين العباد، ﴿ كَانَ مِيقَاتًا ﴾ له وقت معلوم لا يتأخر عنه ولا يتقدم كما قال الله عز وجل: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُم لَا يَستَأخِرُونَ سَاعَة وَلَا يَستَقدِمُونَ﴾[النحل ٦١]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾[النحل: ١]، وقال تعالىٰ: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾[القمر: ١].

ثم بين عظم هذا اليوم بقوله: ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾[الزمر: ٦٨].

والصور: قرن عظيم ينفخ فيه إسرافيل نفختين:

الأولىٰ: لقبض أرواح المخلوقات.

والثانية: لإحيائها، كما قال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ﴾[الزمر: ٦٨]، يصعقون كصعقة نفس واحدة: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾.

وفي حديث أبي هريرة، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» - قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَرْبَعُونَ يَوْمًا ؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً ؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا ؟ قَالَ: أَبَيْتُ -: «وَيَبْلَىٰ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَّا عَجْبَ ذَنَبِهِ فِيهِ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ»، متفق عليه.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَاسْتَمَعَ الْإِذْنَ مَتَىٰ يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ»، أخرجه الترمذي.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الصحيحين قَالَ: «اسْتَبَّ رَجُلَانِ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ قَالَ الْمُسْلِمُ وَالَّذِي اصْطَفَىٰ مُحَمَّدًا عَلَىٰ الْعَالَمِينَ فَقَالَ الْيَهُودِيُّ وَالَّذِي اصْطَفَىٰ مُوسَىٰ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ فَلَطَمَ وَجْهَ الْيَهُودِيِّ فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ الْمُسْلِمِ فَدَعَا النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُسْلِمَ فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تُخَيِّرُونِي عَلَىٰ مُوسَىٰ فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَصْعَقُ مَعَهُمْ، فَأَكُونُ

أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ فَإِذَا مُوسَىٰ بَاطِشٌ جَانِبَ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي أَوْ كَانَ مِمَّنْ اسْتَثْنَىٰ اللَّهُ».

﴿ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ أي: جماعات، تتدافع الرجال والنساء. حفاة عراة غرلًا بهمًا.

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا»، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ؟ فَقَالَ: «الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ»، متفق عليه.

ويكرم المؤمن ويساق الكافر، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾[مريم: ٨٥-٨٦].

﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ وفي قراءة، ﴿ وَفُتِّحَتِ ﴾ هذه السماء التي تشاهد الآن مغلقة محكمة تتفتح وتصير أبوابًا وطرقًا، تتنزل منها الملائكة حين يُحشر الناس إلىٰ المحشر كما قال تعالىٰ: ﴿ وَيَومَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَاءُ بِالغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ المَلَـٰئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾[الفرقان ٢٥]، ومبدأ ذلك قول الله عز وجل: ﴿ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾[الرحمن: ٣٧].

﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ ﴾ فهذه الجبال المرتفعة تسير يوم القيامة وتذهب حتىٰ لا يبقىٰ لها أثر، فيوم القيامة يجعلها الله كالعهن المنفوش كما قال: ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾[القارعة: ٥]، ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾[طه: ١٠٥ – ١٠٧]،

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾[النمل: ٨٨].

﴿ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ فجعل الله عز وجل للجبال حالات:

الأولىٰ: أنها مثبته للأرض.

الثانية: أنها تتحرك وتمر كمر السحاب.

الثالثة: أنها تتطاير وتكون كالعهن المنفوش.

الرابعة: أنهم يرونها كالسراب، كما في هذه الآية: ﴿ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ يرون جبالًا وليست بجبال وإنما أثرها.

ثم: ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجا وَلَا أَمتا ﴾[طه:١٠٧]، وفي حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلىٰ الله عليه وسلم- «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ لَيْسَ فِيهَا عَلَمٌ لأَحَدٍ»، أخرجه مسلم.

ثم قال عز وجل مخبرًا عن النار وما فيها من أهول أعاذنا الله منها: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ ﴾ اسم من أسماء النار، ﴿ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ مرصدة للكافرين لا سبيل إلىٰ الخلاص منها، وقيل مرصدة في طريق جميع الناس، لا يصل المؤمنون إلىٰ الجنة إلا بالمرور عليها، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِن مِّنكُم إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتما مَّقضِيّا ۞ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّا﴾[مريم:٧١-٧٢].

وهذا وعيد عظيم يهدد الله به المشركين: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ ﴾، يا معاشر المشركين، ﴿ كَانَتْ ﴾ أي: ما زالت، ﴿ مِرْصَادًا ﴾ مرصدة لكم ترصدكم ولا سبيل إلىٰ الخلاص منها: ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴾[الملك:٧].

﴿ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴾ للمجاوزين لأمر الله، طغوا وتجاوزوا الأمر فلم يفعلوه، والنهي فارتكبوه، وأعظم ما وقعوا فيه الشرك بالله عز وجل: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[لقمان:١٣].

﴿ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ يلبثون فيها مددًا طويلة قيل بأن الحقب ثمانون سنة والسنة اثنیٰ عشر شهرًا والشهر ثلاثون يومًا، وكل يوم بألف سنة مما تعدون والله أعلم.

واستدل بهذه الآية بعضهم علىٰ فناء النار، حيث زعم أنهم يلبثون أحقابًا ثم يخرجون منها، وهذا غير صحيح؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[البقرة ١٦٧].

ويقول الله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾[فاطر: ٣٦].

وإنما المعنىٰ هنا أنهم يمكثون مكثًا طويلًا ممتدًا، والعرب قد تأتي بالكلمة التي ظاهرها الانقطاع وتريد بها الاستمرار.

﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا ﴾ أي: لا يطعمون أو يجدون في هذه النار بردًا: برودة ماء وجسم ولا برودة جو، وقيل البرد هنا النوم، علىٰ تفسير لبعض أهل العلم لا يذوقون فيها نومًا ﴿ وَلَا شَرَابًا ﴾ أي: لا يجدون ماء صائغًا يذهب عطشهم، أو عصيرًا نافعًا يروي ضمأهم، ﴿ إِلَّا حَمِيمًا ﴾ وهو الذي انتهىٰ حره كما قال الله عز وجل: ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[الكهف: ٢٩].

وقوله: ﴿ وَغَسَّاقًا ﴾ أي: الذي قد انتهىٰ برده، وهو الزمهرير، وكأنه من المقابلة: لا يذوقون فيها بردًا ولا شرابًا إلا حميمًا حارًا وغساقًا باردًا، وقيل الغساق هو ما يسيل من جلود أهل النار، فيشربونه عذابًا أليما والله المستعان.

﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ سبب الذي هم فيه أن الله يجازيهم بأعمالهم الفاسدة كما تدين تدان: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت ٤٦]، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أي: السبب الذي أوردهم إلىٰ هذا العذاب وجزوا به، ﴿ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ كانوا لا يؤمنون ببعث ولا نشور، ولا يؤمنون بأن الله يبعث العباد ويجازيهم علىٰ أعمالهم، مع أن الله عز وجل قد بين ذلك علىٰ ألسنة رسله وفي محكم كتبه التي أنزلها.

﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ الشرعية التي أوحاها إلىٰ أنبيائهم ورسله، وربما الكونية حيث زعموا أن معه معين أو ظهير أو نصير، ﴿ كِذَّابًا ﴾ أي: تكذيباً يعني أنهم تمادوا في التكذيب والمغالطة والإيهام.

وهذا عام في كل عمل دق أم جل، صغر أم كبر، قولي أم فعلي، ﴿ أَحْصَيْنَاهُ ﴾ حفظناه، ﴿ كِتَابًا ﴾ مكتوبًا.

﴿ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ حفظناه مكتوبًا عليهم كما قال تعالىٰ: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾[الزخرف: ٨٠].

فالله عز وجل يعلم ما هم عليه، زد علىٰ ذلك أن الملائكة تكتب أعمال العباد، وليس هذا فحسب، يقول الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[النور: ٢٤].

فيحفظ عمل الإنسان بأمور:

الأول: الله عز وجل مطلع علىٰ كل شيء، لا تخفىٰ عليه خافية

الثاني: الملائكة الذي سطروا تلك الأعمال والأقوال: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[ق: ١٨].

الثالث: شهادة الجوارح تشهد عليك.

الرابع: إخبار الأرض، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾.

﴿ فَذُوقُوا ﴾ هذا العذاب الشديد، ﴿ فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ لا رحمة لهم، مع أن الله هو الرحمن الرحيم، لكن قد قال عن نفسه: ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ

وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾[الأعراف: ١٥٦].

بل يكتبهم بقوله: ﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾[المؤمنون: ١٠٨-١٠٩]، فنعوذ بالله من حال أهل النار.

ولما ذكر الله عز وجل حال الكافرين في الآخرة ثنَّا بحال المؤمنين جمعاً بين النذارة والبشارة، كما قال تعالىٰ: ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾[النساء ١٦٥].

والقرآن مليء بهذا، بترغيب وترهيب، فتارة يذكر الله أحوال الكافرين ثم يثنيها بحال المؤمنين، وتارة يذكر الله حال المؤمنين ثم يثنيها بحال الكافرين، وبضدها تتبين الأشياء.

يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ والمتقون هم الذين جعلوا بينهم وبين عقاب الله عز وجل وقاية بفعل المأمور وترك المحظور، وهم المذكورون في أول سورة البقرة: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[البقرة: ٢ - ٥]، والمذكور في سورة آل عمران.

﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ

ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران: ١٣٣ – ١٣٥].

﴿ مَفَازًا ﴾ لهم فوزًا، وقيل متنزها، ولا يمنع أن لهم فوزًا عند الله ولهم متنزه، يكونون فيه تذهب فيه أحزانهم، وتهدأ فيه أرواحهم، وتسكن فيه أجسامهم، زد علىٰ ذلك أن الله ينعمهم بأنواع النعيم المقيم الذي لا ينقطع كما قال تعالىٰ: ﴿لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ﴾.

﴿ حَدَائِقَ ﴾ هذا المتنزه الذي هم فيه حدائق جمع حديقة، وهي قطعة من الأرض ذات ماء، فيه أنواع الأشجار والثمار والزهور والروائح الطيبة وغير ذلك.

﴿ وَأَعْنَابًا ﴾ وإن كانت الأعناب من ضمن الحدائق إلا أن الله ذكرها؛ لعظيم جمالها وطعمها ورغبة الناس فيها.

﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ وفي هذه الحدائق، والمتنزهات التي أعدها الله للمؤمنين في جنات النعيم، ﴿ كَوَاعِبَ ﴾ نساء نواهد لم تتكسر أثدائهن؛ لطول السنين أو لكثرة الأولاد، ﴿ أَتْرَابًا ﴾ متقاربات في السن، قيل ثلاث وثلاثين سنة، وهذا من أجمل ما يتبعل به الرجل فليست بالصغيرة التي لا تشتهىٰ، ولا بالكبيرة التي قد زهدت في ذلك.

وقد قال الله عز وجل في وصف هذه الكواعب: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَـٰهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ [الواقعة ٣٥–٣٧]، فهن أبكارًا علىٰ أي حال

يأتيها زوجها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم ليفضي في اليوم الواحد إلىٰ مائة عذراء».

نعيم عظيم للموحدين لرب العالمين.

﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ يشربون فيها خمرًا لا لغو فيه ولا تأثيم، ويشربون من نعيمها ومن عيونها وأنهارها في أكواس تتدافق مليئة، لا يعتريها نقص ولا تغير حال، وإنما أحسن الملبس والمطعم والمشرب.

وحال الجنة كما قال الله عز وجل: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾[محمد: ١٥].

وقد وصف الله عز وجل هذا الشراب في سورة الدهر في عدة مواطن: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ أي: أنهم يشربون شرابًا مريئًا لا يغصون به، ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾[الإنسان: ٥]، وقوله: ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴾[الإنسان: ١٧]، إلىٰ غير ذلك.

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا ﴾ في الجنة.

﴿ لَغْوًا ﴾ كلام سيء ولا أذىٰ، ﴿ وَلَا كِذَّابًا ﴾ ولا كذب.

وهذا كقول الله عز وجل: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾[الواقعة: ٢٥، ٢٦].

وكقوله: ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾[الغاشية: ١١].

﴿ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي: أن هذا النعيم جزاءً للأعمال الصالحة التي بادر بها المؤمنون في الدنيا من ربك الحافظ لك، ﴿ عَطَاءً ﴾ يعطيك، ﴿ حِسَابًا ﴾ واسعًا لا نقص فيه ولا قلة ولا خشية انقطاع.

ثم بين الله عز وجل كمال عظمته فقال: ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ ﴾ أي: أن هذا الرب الذي أعطاك هذا العطاء الواسع العظيم الدال علىٰ كرمه هو رب السماوات والأرض وما بينهما، وهو الرحمن سبحانه وتعالىٰ، وقد جاءت قراءة: ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ ﴾ فجعلت الجملة مستأنفة، وكلا المعنيين صواب.

فالجنة جزاء من رب السماوات والأرض الرحمن، وكذلك رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ أي: لا يملك الناس منه خطابًا، ويكون هذا ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ﴾ يوم القيامة يسكت الناس في مواطن فلا تسمع إلا همسا، و﴿ لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ ودعوة الرسل عند الصراط: اللهم سلم سلم، ﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾[المؤمنون: ١٠٨].

﴿ يَوْمَ ﴾ أي هذا في يوم القيامة، ﴿ يَقُومُ الرُّوحُ ﴾ وهو جبريل وقيل أرواح بني آدم وقيل غير ذلك، ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ ملائكة الله تكون صفوفًا تحيط

بالناس، ﴿ صَفًّا ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[الفجر:٢٢].

وقال تعالىٰ: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾[الأنعام: ١٥٨].

﴿ لَا يَتَكَلَّمُونَ ﴾ أي: لا يتكلم الناس، ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ من أذن له أن يتكلم فَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيُكَلِّمُهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَيْسَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ...» متفق عليه.

﴿ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ قال حقًّا؛ لأن: ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ﴾ الذي سيكون ولا محالة، وفي قول النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «والساعة حق»، متفق عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

فلا يجوز أن يتكلم فيه بالباطل، إنما يتكلم بالباطل في هذه الدنيا التي جمعت حقًّا وباطلًا، وضلالًا وهدىٰ، وإيمانًا وكفرًا، أما ذلك اليوم فيوم حق وصدق، فلا يستطيع أن يتكلم أحد إلا بالحق، وإن تكلم بغير ذلك فضح علىٰ رؤوس الأشهاد.

﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴾ أي: في الدنيا ففي يوم القيامة لا يستطيع أحد أن يقدم أو يؤخر، ﴿ فَمَنْ شَاءَ ﴾ يا معاشر المكلفين من الجن والإنس،

﴿ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴾ سبيلًا وأوبًا ورجوعًا كما قال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور:٣١].

ثم قال: ﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ ﴾: خوفناكم بهذه الآيات البينات والدلائل الواضحات التي أنزلها على رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ﴿ عَذَابًا ﴾: موجعًا، ﴿ قَرِيبًا ﴾ لا يتأخر ولا يتخلف، وما بينه وبينه إلا أن يموت، فقد كان عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، إِذَا وَقَفَ عَلَىٰ قَبْرٍ يَبْكِي حَتَّىٰ يَبُلَّ لِحْيَتَهُ، فَقِيلَ لَهُ: تَذْكُرُ الْجَنَّةَ، وَالنَّارَ وَلَا تَبْكِي، وَتَبْكِي مِنْ هَذَا؟ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ»، أخرجه أبو داود.

ويكون هذا العذاب القريب: ﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ الرجل والمرأة، والجني والإنسي، ينظر ما قدمت يداه ما قدم من الأعمال، وذكر اليدين؛ لأن كثير من الأعمال يتعاطاها باليدين، والواقع أنه يجد كل الأعمال ما قدم فرجه و يداه، ورجلاه، ولسانه، وسمعه وبصره، نسأل الله السلامة

﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ﴾ كل إنسان ينظر أعماله كما في الحديث: «فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ، فَلَا يَرَىٰ إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ، فَلَا يَرَىٰ إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَا يَرَىٰ إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ» متفق عليه.

وكما قال تعالى: ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[الكهف ٤٩]

﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ ﴾ بلسان الحال أو المقال، وقيل الكافر إبليس فيكون من العام الذي أريد به الخصوص وذلك أنه سخر من أصل خلقة آدم عليه السلام: ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ أي: أنه كان ترابًا ولم يخلق أصلًا، وقيل المعنىٰ لما يرىٰ من أن الله عز وجل أحال الحيوانات إلىٰ تراب بعد القضاء بينهم، يقول: يا ليتني كنت مثل هذه الحيوانات أصير ترابا وأسلم من العذاب الأليم، والخزي العظيم، نسأل الله السلامة.

والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة النازعات

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ * هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ * فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ * فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ * فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ * فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ * أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ * فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ * فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ * يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَىٰ رَبِّكَ

مُنْتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾[النازعات:١-٤٦]

سورة النازعات سورة مكية، وهي مقررة لما يذكر في السور المكية من البعث والمعاد، ونحو ذلك من القصص الذي قصه الله علىٰ محمد -صلىٰ الله عليه وسلم-؛ تثبيتا لأمره وتنويها لفضله.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ هم الملائكة ينزعون أرواح الكفار، فيأخذونها من تحت كل شعرة وعصبة، فإذا ما قاربت من الخروج ردوها إلىٰ مكانها، ثم ينزعونها بشدة وهكذا؛ لزيادة عذابه.

وفي حديث البراء رضي الله عنه قال: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ جِنَازَةٍ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ الْقَبْرِ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّ عَلَىٰ رُءُوسِنَا الطَّيْرَ وَهُوَ يُلْحَدُ لَهُ، فَقَالَ: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» ثَلَاثَ مِرَارٍ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، تَنَزَّلَتْ إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ كَأَنَّ عَلَىٰ وُجُوهِهِمُ الشَّمْسَ، مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَفَنٌ وَحَنُوطٌ، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، حَتَّىٰ إِذَا خَرَجَ رُوحُهُ، صَلَّىٰ عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللهَ: أَنْ يُعْرَجَ بِرُوحِهِ مِنْ قِبَلِهِمْ، فَإِذَا عُرِجَ بِرُوحِهِ قَالُوا: رَبِّ عَبْدُكَ فُلَانٌ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُوهُ، فَإِنِّي عَهِدْتُ إِلَيْهِمْ

أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ " قَالَ: " فَإِنَّهُ يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ، إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ، فَيَأْتِيهِ آتٍ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَدِينِيَ الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَنْتَهِرُهُ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا [ص:٥٧٧] دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَدِينِيَ الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُ لَهُ: صَدَقْتَ، ثُمَّ يَأْتِيهِ آتٍ حَسَنُ الْوَجْهِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِكَرَامَةٍ مِنَ اللهِ وَنَعِيمٍ مُقِيمٍ، فَيَقُولُ: وَأَنْتَ فَبَشَّرَكَ اللهُ بِخَيْرٍ، مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، كُنْتَ وَاللهِ سَرِيعًا فِي طَاعَةِ اللهِ، بَطِيئًا عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ، فَجَزَاكَ اللهُ خَيْرًا، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ الْجَنَّةِ، وَبَابٌ مِنَ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا كَانَ مَنْزِلَكَ لَوْ عَصَيْتَ اللهَ، أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ هَذَا، فَإِذَا رَأَىٰ مَا فِي الْجَنَّةِ قَالَ: رَبِّ عَجِّلْ قِيَامَ السَّاعَةِ كَيْمَا أَرْجِعَ إِلَىٰ أَهْلِي وَمَالِي، فَيُقَالُ لَهُ: اسْكُنْ. وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَتْ عَلَيْهِ مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ، فَانْتَزَعُوا رُوحَهُ، كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ الْكَثِيرُ الشِّعْبِ مِنَ الصُّوفِ الْمُبْتَلِّ، وَتُنْزَعُ نَفْسُهُ مَعَ الْعُرُوقِ، فَيَلْعَنُهُ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ، إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللهَ: أَنْ لَا تَعْرُجَ رُوحُهُ مِنْ قِبَلِهِمْ، فَإِذَا عُرِجَ بِرُوحِهِ، قَالُوا: رَبِّ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ عَبْدُكَ،

قَالَ: أَرْجِعُوهُ، فَإِنِّي عَهِدْتُ إِلَيْهِمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ [ص:٥٧٨]، قَالَ: فَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ، إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ آتٍ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، فَيَقُولُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَوْتَ، وَيَأْتِيهِ آتٍ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِهَوَانٍ مِنَ اللهِ، وَعَذَابٍ مُقِيمٍ، فَيَقُولُ: وَأَنْتَ، فَبَشَّرَكَ اللهُ بِالشَّرِّ مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، كُنْتَ بَطِيئًا عَنْ طَاعَةِ اللهِ، سَرِيعًا فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، فَجَزَاكَ اللهُ شَرًّا، ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَىٰ أَصَمُّ أَبْكَمُ فِي يَدِهِ مِرْزَبَةٌ، لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ كَانَ تُرَابًا، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً حَتَّىٰ يَصِيرَ تُرَابًا، ثُمَّ يُعِيدُهُ اللهُ كَمَا كَانَ، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَىٰ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ».

وقيل: بأنه نزع القوس، وقيل: النجوم وقيل غير ذلك، والمعنىٰ الأول عليه الجماهير.

﴿ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾ قيل: الملائكة تنشط الأرواح، وقيل: المراد بها أرواح المؤمنين، فإنها تنشطها كما يفك وينشط العقال، وقد تقدم في حديث البراء رضي الله عنه بيان ذلك.

﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾ الملائكة، يسبحون في الآفاق بتصريف الأمور التي أوكلها الله عز وجل إليهم.

﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴾ الملائكة يسابقون بنزول الوحي، وقيل سابقوا إلىٰ الطاعات: ﴿ لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[التحريم:٦]، وفي كل ما تقدم خلاف، ولكن الصحيح ما سبق.

﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ هم الملائكة إجماعا، جعل الله إليهم تدبير شؤون العالم العلوي والسفلي، ولا يخرج عن تدبيرهم الذي أوكله الله إليهم شيء؛ وقد سخر الله لهم من القوىٰ ما يقومون بما أوكل إليهم.

وهذا القسم متعلق بالإخبار بيوم القيامة، وقيل هو إخبار عن الملائكة الذين أوجب الله علينا الإيمان بهم، فالإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة قال تعالىٰ: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾[البقرة: ٢٨٥]، في آيات كثيرات.

وهم خلق عظيم عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَىٰ عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ»، أخرجه أبو داود.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم- : «إنَّ اللهَ جلَّ ذِكْرُه أذِن لي أنْ أُحدِّثَ عن دِيكٍ قد مرَقَتْ رِجْلاه الأرضَ وعُنُقُه مُنْثَنِي تحتَ العَرشِ وهو يقولُ سُبْحانَكَ ما أعظَمَكَ ربَّنا، فرَدَّ عليه: ما يعلَمُ ذلك مَن حلَفَ بي كاذبًا»، أخرجه الطبراني.

وقد رأىٰ النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- جبريل له ستمائة جناح، قد سد بعظم خلقه ما بين السماء والأرض»، متفق عليه.

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ أي: يوم القيامة ترجف الأرض، فيموت من فيها، ويهلك من عليها ﴿ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ النفخة الثانية في الصور، النفخة الأولىٰ يقع بها الرجفة في الأرض والقلوب، ثم النفخة الثانية يقع بها البعث والنشور ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ﴾[يس ٥١]، يخرجون مسرعين إلىٰ عرصات القيامة.

جاء حديث من طريق محمد بن عبدالله بن عقيل عن أبي بن كعب رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ»، أخرجه الترمذي، وابن عقيل ضعيف.

ثم قال: ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ أي: قلوب الكفار يوم القيامة حين يخرجون من الأجداث سراعا، قلوبهم واجفة، ذابلة، خائفة؛ بسبب ما عاقرته من المعاصي في الدنيا والله المستعان.

﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ مرفوعة إلىٰ السماء، وأفئدتها هواء؛ لشدة الخوف والحال، كما قال الله عز وجل: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾[القمر: ٦- ٨]، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا

يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾[إبراهيم: ٤٢ - ٤٣].

﴿ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ بعد أن أخبر الله عز وجل بما سيقع يوم القيامة يقول: هؤلاء الذين تدعوهم يا محمد إلىٰ الإسلام والإيمان بالبعث والنشور وينكرون البعث ويقولون متعجبين ومستنكرين لذلك: ﴿ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ ﴾ أي سنخرج من قبورنا؟! فالحافرة القبر.

وقد أخبر الله عز وجل مرارًا الإعادة ليست بأصعب من البداءة ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[لقمان ٢٨].

﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ﴾ وقرأ ناخرة أي بالية، قال ابن عباس رضي الله عنه: وهو العظم إذا بلي ودخلت الريح فيه فيقولون أنبعث بعد أن نكون عظامًا جوفاء تسفها الريح، ليس فيها مخ ولا رطوبة ويسهل كسرها، كما جاء عن الخباب رضي الله عنه قَالَ: جِئْتُ الْعَاصَ بْنَ وَائِلٍ السَّهْمِيَّ أَتَقَاضَاهُ حَقًّا لِي عِنْدَهُ فَقَالَ لَا أُعْطِيكَ حَتَّىٰ تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: لَا حَتَّىٰ تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ قَالَ: وَإِنِّي لَمَيِّتٌ ثُمَّ مَبْعُوثٌ قُلْتُ: نَعَمْ قَالَ: إِنَّ لِي هُنَاكَ مَالًا وَوَلَدًا فَأَقْضِيكَهُ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾، متفق عليه.

وجاء عن المقدام أن رسول الله صلىٰ الله عليه و سلم قال: «أخذ أمية بن خلف عظمًا ففته ثم قال لصاحب له: أترىٰ الله يحيىٰ هذه وهي رميم، وأنزلت هذه الآية: ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾[يس:٧٨]، فلزم الحق بمنكبه».

﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ أي: إذا كان هذا الأمر سيقع فرجوعنا إليه سيكون حال الخسارة.

وفعلًا أنهم سيرجعون وأنهم خاسرون: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[الكهف:١٠٣-١٠٤]،

خسارة ولا أكبر منها، خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة: ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾[الزمر: ١٥].

ثم قال الله مبينًا سهولة ما تعاظموه: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ أي: فإنما هو أمر من الله لا يُثنىٰ تأكيدًا لسهولته، فينفخ في الصور نفخة واحدة وإذا جميع المخلوقات قد قامت من موتها: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾[الزمر: ٦٨]، من القبور.

﴿ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ فإذا هم بظاهر الأرض

الساهرة: ظاهر الأرض، أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد.

قال الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾[إبراهيم: ٤٨ – ٥٠].

وقال عز وجل: ﴿ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾[طه: ١٠٧].

فإنما هي نفخة واحدة فإذا بالناس قد برزوا على ظاهر الأرض.

وقيل: الساهرة جبل، وقيل: بيت المقدس، وقيل: الشام، لكن المعنى الأول الذي عليه جماهير العلماء.

ثم قال الله عز وجل لمحمد –صلى الله عليه وسلم– واعدًا له بالنصر والتمكين بما يقصه من قصص من سبقه من الأنبياء والمرسلين حيث مكنوا بعد ضعف: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ أي: قد أتاك حديث موسى في سور كثيرات وآيات بينات أخبر الله عز وجل عن هذا النبي الكريم أنه أرسله إلى فرعون ذلك المجرم الأثيم، فحفظ الله موسى ونصره، وهذا دليل على حفظ الله وكلاءته لأنبيائه ورسله.

قال عز وجل مخبرًا عن إرساله إلى فرعون: ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾[طه: ٤٣ – ٤٦]، فحفظه

الله من فرعون، في صغره وكبره، قال الله عز وجل: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[القصص: ٧ – ٩].

﴿ إِذْ نَادَاهُ ﴾ وهو النداء بصوت عالي مسموع، قال تعالىٰ: ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾[مريم:٥٢]، وبهذه الآية وغيرها يثبت لله عز وجل صفة الكلام، وأنه يتكلم متىٰ شاء وكيف شاء بما شاء بحرف وصوت، قال تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[الشورىٰ ١١]، وقد أخبر الله في آيات كثيرات عن هذا النداء وما قال لموسىٰ عليه السلام: ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾[طه:١٤].

﴿ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ بالواد المعظم، واسمه طوىٰ.

﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ بالرسالة قال له: ﴿ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ تجبر وتمر وعنّا وتمادىٰ في كبره وطغيانه وظلمه وجبروته سواء، في باب الألوهية حيث أدعىٰ أنه الرب الإله، وفي باب الظلم حيث ذبح بني إسرائيل واستعبدهم وقهرهم.

وقد أخبر الله عز وجل في سورة طه: أنه لما قال له: ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ قال: ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ

عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾[طه: ٢٥ - ٣٥].

فسأل الله عز وجل أسباب النصر والعزة، ومن أعظمها شرح الصدر؛ لأن الصدر إذا ضاق لم يبن ما فيه، وعجز الإنسان عن تحمل المشاق.

ولم يكن من موسىٰ عليه السلام إلا امتثال أمر الله: ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ ذهب، إلا أنه طلب أن يكون له وزير: أخ يسانده ويعينه ويستأنس به، فالإنسان وحده ليس بشيء:

تأبىٰ الرماحُ إذا اجتمعن تكسرًا وإذا افترقن تكسرت آحادًا

والنبوة والرسالة شأنها عظيم، حيث يبعثهم الله إلىٰ أقوام يخالفون في جميع الدين، فيُسفِّهون أحلامهم وآلهتهم، ويدعوهم إلىٰ إفراد الله بالعبادة، قال النبي - صلىٰ الله عليه وسلم-: «أَتَتْنِي رِسَالَةٌ مِنْ رَبِّي فَضِقْتُ بِهَا ذَرْعًا وَرَوَيْتُ أَنَّ النَّاسَ سَيُكَذِّبُونَنِي، فَقِيلَ لِي: لَتَفْعَلَنَّ أَوْ لَيُفْعَلَنَّ بِكَ». أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد.

﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ ﴾ اذهب الىٰ فرعون فقل له: يا فرعون! هل لك في طريق الزكاة، تزكي نفسك بطاعة الله عز وجل، وبتوحيده، فتزكوا في الدنيا والآخرة فإن النفس إذا لم تزكَ بالتوحيد والطاعة ليست بشيء، كما قال

تعالىٰ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾[الشمس: ٩-١٠]، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾[الأعلى ١٤].

وبعث الله الرسل لهذا المقصد، قال الله عز وجل: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[البقرة ١٢٩].

والزكاة: هي فضل من الله علىٰ عباده، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[النور:٢١].

﴿ وَأَهْدِيَكَ ﴾ أدلك وأرشدك، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[الشورىٰ: ٥٢]، ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ إلىٰ الطريق الموصل إلىٰ الله عز وجل، فيقع منك الخشية والخوف من الله عز وجل، فتبادر بالأعمال الصالحات والخشية تقع بالعلم، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَىٰ اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾، إذ أن الخشية خوف يشوبه تعظيم.

﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴾ أي أن موسىٰ عليه السلام أرىٰ فرعون آية تدل علىٰ صدقه، وقد دعاه بالمقال: ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ ثم دعاه بالفعال: ﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴾ وهي الحية المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾[الشعراء ٣٢-٣٣].

والسبب: في أن الله عز وجل جعل هذه الآيات لموسىٰ عليه السلام؛ أن وقومَ فرعون كانوا يتعاطون السحر، فجاءتهم آية من جنس فعلهم، إلا أنها آية حقيقية وليست بتخيل ولا تمويه.

وعند ذلك استكبر فرعون: ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴾ رد هذه الآية، وعصىٰ ربه، وتمرد علىٰ شرعه، ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴾ كبرًا وعنادًا، حيث أرسل في المدائن حاشرين طالبًا أن يأتوه بكل سحار عليم: ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾[الأعراف ١١٣- ١١٤]، ووعدهم أن يرفع شأنهم رشوة لهم من أجل أن يقفوا أمام الحق وأهله، فأبىٰ الله إلا أن يذلهم.

وانظروا إلىٰ هذا الوصف الدقيق: ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴾ لما أعرض عن آيات الله عز وجل الشرعية وصفه الله كالمدبر الذي يجري، وهذا يحصل من كثير من الناس اللئام، إذا وقع عليه شيء وإذا به يولي ظهره ذلة وحقارة.

﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴾ أي: جمع قومه، ونادىٰ السحرة، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ * قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى * فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ [طه ٥٦-٦٠].

﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ وفي الآية الأخرىٰ: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾[الزخرف:٥١]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾[القصص:٣٨].

وهذا القول منه كذب وزور؛ فإنه يعلم أنه مخلوق ضعيف يحتاج إلىٰ الأكل والشرب والزوجة والحمام، ثم يزعم أنه الرب الأعلىٰ الذي علىٰ عرشه استوىٰ! تعالىٰ الله عن هذا القول القبيح، فإن الرب الأعلىٰ هو الله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَىٰ﴾، ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ العَظِيمُ﴾، ﴿إِلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ﴾.

وقد ذكر العلماء: أن فرعون إنما قال هذه المقولة من باب المكابرة، كما قال الله عز وجل: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَٱستَيقَنَتهَا أَنفُسُهُم ظُلما وَعُلُوّا﴾[النمل ١٤].

وهو يقول: ما علمت لكم من إله غيري، وهو يعلم كذب نفسه، كما قال الله عز وجل مخبراً عن موسىٰ: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾[الإسراء:١٠٢].

فعند أن تكبر وعتىٰ وتجبر وأبىٰ الانقياد لشرع الله عز وجل أتاه الله من حيث لم يحتسب: ﴿ فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴾ أخذه الله نكالًا في الدنيا حيث أغرقه باليم والبحر وهو ينادي: ﴿ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ

الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾[يونس ٩٠-٩٢].

وأخذه الله في الآخرة بالعذاب والنكال، قال تعالىٰ: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾[غافر:٤٦]، فنكل به، ومزقه كل ممزق، وأزال مملكته، وأذهب دولته، وجعله عبرة للمعتبرين في الدنيا والآخرة، ولا يُذكر إلا بالذم.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ إن في قصة موسىٰ مع فرعون ﴿ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ لعبرة وذكرىٰ لمن يخشىٰ ربه، فينظر إلىٰ تمكين الله للمؤمنين ومكر الله بالكافرين، وأن الله عز وجل لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأراضين، وأنه يملي للظالم حتىٰ إذا أخذه لم يفلته: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[هود:١٠٢].

فأصبح ملك فرعون يبابًا بعد تكبره وتجبره، ومكن لموسىٰ بعد ضعفه ومسكنته: ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ﴾[آل عمران: ١٦٠].

وبعد أن ذكر الله عز وجل قصة موسىٰ وما فيها من العبر والتطمين لمحمد -صلىٰ الله عليه وسلم-، وما فيها من تهديد الكافرين الذين يتمردون علىٰ شرع الله: ﴿ أَأَنْتُمْ ﴾ يا معاشر من تكذبون بالبعث والنشور ﴿ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ﴾ وهذا مثل قوله: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾[غافر:٥٧]، وقد قال تعالىٰ: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾[يس: ٨١].

المراد بقوله: ﴿ أَمِ السَّمَاءُ ﴾ بل السماء، العالية، المبنية بغير عمر، المزينة في هيئتها وشكلها أشد منكم خلقاً ومع ذلك: ﴿ بَنَاهَا ﴾ أي: ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ أعلاها ورفعها وجملها وحصنها، كما قال الله عز وجل: ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾[الملك:٣-٤]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾[الحجر: ١٦- ١٧].

فهي مبنية علىٰ أتم وأكمل الهيئات، وسُمكها عظيم، فسُمك كل سماء خمسمائة عام كما جاء في الآثار.

﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ أي جعل ليلها أسود مظلماً حالكا، فإذا أظلم ليل السماء غطىٰ الليل الأرض ﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ جلاه وكان نيرًا واضحًا، فهذا أعظم من خلقكم يا معاشر الكفار الذين تكذبون بالبعث والنشور.

قال: ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ يقول و الأرض التي أنتم عليها خلقها الله قبل السماوات، كما قال الله عز وجل: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا

رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾[فصلت ٩-١١].

وتسخيرها للمعاش كان بعد ذلك، فهو يقول: ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ أي: بعد رفع السماء، ﴿ دَحَاهَا ﴾ لكن ما هو الدحو؟

الجواب: ذهب الزنداني ومن إليه من أصحاب الهيئة، الذين يأخذون تفاسيرهم من الكفار ومن أصحاب الجيلوجيا ومن اليونانيين إلىٰ أن الدحو: أن الأرض مثل البيضة، وهذا تفسير بغير دليل لا من كتاب الله ولا من سنة رسوله -صلىٰ الله عليه وسلم-، وإنما يريدون مواكبة العصر من أن الأرض كروية، وأنها تدور حول الشمس إلىٰ غير ذلك.

مسألة كروية الأرض مختلف فيها بين علماء أهل السنة، أما مسألة الدوران فإن أهل السنة يثبتون أن الأرض ثابتة، ثبتها الله بالجبال الرواسي، وأن الشمس والقمر هي التي تجري ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾[يس:٣٨].

إذًا معنىٰ دحاها: ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ إذ أنها قبل ذلك كانت عبارة عن حجارة صماء وأتربة لا شيء فيها، فأخرج الله منها الماء العذب وسخر ما سخر، حتىٰ أنبتت العشب وخرج منها الزرع، وما يدر به الضرع.

قال ابن عباس رضي الله عنه: ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعىٰ وشقق فيها الأنهار، وجعل منها الجبال والرمال والسبل والآكام.

﴿ وَمَرْعَاهَا ﴾ ما ترعىٰ فيه الغنم: البقر والدواب، وهو شامل لكل أنواع الثمار والحبوب.

ومن دحوها أنها ثبتها بالجبال فقال: ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ وضعها عليها؛ حتىٰ لا تتحرك أو تميد، ثبتها بالجبال الرواسي العظيمة، وكل هذا التسخير ودحو الأرض: ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾، ألا يرشدكم هذا إلىٰ وجوب طاعة الله عز وجل، والاستسلام والانقياد له؟!

وبعد أن قرر الله عز وجل عظيم قدرته يقرر المعاد، فيقول: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ ﴾ أي: إذا وقعت القيامة التي تطم الناس طمًا، وتغطيهم، ولا أحد يخرج منها، قال ابن عباس رضي الله عنه: سميت بذلك لأنها تطم عل كل أمر هائل مفظع، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾[القمر: ٤٦]، وهي من أسماء القيامة، كالواقعة، والحاقة، والقيامة، والساعة، والقارعة.

فإذا جاءت الطامة وما فيها: ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ﴾ أي: حينئذ يتذكر ابن آدم جميع عمله خيره وشره، كما قال: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾[الفجر: ٢٣].

﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ ﴾ أي: أن النار سميت بالجحيم لأنه شدة تأجج النار، فقُرِّبت وأظهرت وجُليت، يراها الناس يحطم بعضها بعضًا، وفي

الموقف عن ابن مسعود رضي الله عنه: «يُؤْتَىٰ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا»، أخرجه مسلم.

وهذا كقول الله عز وجل: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ [الشعراء ٩٠-٩١].

وحين يقول اليهود والنصارىٰ: «عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَىٰ النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ»، متفق عليه عن أبي سعيد رضي الله عنه.

﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ﴾ فأما من كان في هذه الدنيا طاغيًا مبارزًا لله بالمعصية، وأعظمها الشرك ﴿ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ قدم الدنيا علىٰ الآخرة، وتقديم الدنيا علىٰ الآخرة سبب للحرمان من أجر الآخرة كما قال تعالىٰ: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾[الشورىٰ:٢٠].

عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ»، أخرجه ابن ماجه.

﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ﴾ وهذا هو الكافر، ﴿ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ قربها وعظمها وأحبها علىٰ الآخرة، ﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ هي المستقر، وبئس القرار، فلا يستطيع أن يجاوزها إلىٰ غيرها.

يأكل من ضريعها، ويشرب من زقومها، وثيابه من نار كما أخبر الله عز وجل: ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾[الحج:١٩-٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾[البقرة: ١٦٧].

ولما ذكر حال الكافرين بين حال المؤمنين بقوله: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ من المؤمنين الموحدين الطائعين لرب العالمين حيث خاف الله وراقبه، وعمل بمقتضىٰ ذلك، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾[الرحمن:٤٦]

فالله عز وجل يعبد بالخوف والرجاء والمحبة: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾[الأنبياء:٩٠]

وعند الموت ينبغي للمسلم أن يقدم الرجاء، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يَقُولُ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ». أخرجه مسلم.

وعَنْ جَابِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَىٰ مَا مَاتَ عَلَيْهِ». أخرجه مسلم.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ يَقُولُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي»، متفق عليه.

وأما في الدنيا فقال بعضهم: ينبغي أن يقدم الخوف؛ حتىٰ يكون زاجرًا له من المعاصي والسيئات: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَىٰ اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[فاطر ٢٨]، وبقول الله عز وجل: ﴿ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾[المائدة:٤٤].

﴿ وَنَهَىٰ النَّفْسَ ﴾ جاهد النفس وزجرها ومنعها، ﴿ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ المخالف للحق؛ لأن الهوىٰ في الغالب يأتي علىٰ خلاف الحق ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾[الفرقان:٤٣]، وقال الله عز وجل: ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾[ص:٢٦].

وسمي هوىٰ؛ لأنه يهوي بصاحبه في النار.

فيقول: من خاف مقام ربه، وبادر بالطاعة والإنابة، وجاهد نفسه وزجرها عن اتباع هواه ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ الجنة هي داره، وقراره وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.

وفي الحديث: «مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبْلَىٰ ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَىٰ شَبَابُهُ»، أخرجه أحمد، وعن أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

«يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا»، أخرجه مسلم.

ثم قال الله عز وجل: ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾، أي: الكفار، ﴿ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ القيامة ﴿ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ متىٰ هي، لا يعلم ذلك إلا الله كما قال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- حين سأله جبريل: «مَتَىٰ السَّاعَةُ؟ قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»، أخرجه مسلم عن عمر رضي الله عنه، وقد قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾[طه:١٥]، وقال: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[الأعراف:١٨٧]، وقال: ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾[الأحزاب: ٦٣].

ولو كان للناس مصلحة شرعية أو دنيوية في الإخبار بالساعة لربما أخبرهم الله بها، لكن لا مصلحة لهم بالإخبار عنها، وإنما دلهم الله علىٰ ما فيه لهم من المصالح، وأما وقت الساعة فيغيبه حتىٰ عن أنبيائه ورسله، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[لقمان:٣٤].

﴿ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴾ أي: ليست في شيء من علمها وقد أخرج ابن جرير في تفسيره، وخرجه شيخنا مقبل رحمه الله في أسباب النزول: عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: لم يَزلِ النبيُّ صَلّىٰ اللهُ عليْهِ وعلىٰ آلهِ وسلَّمَ يسألُ عنِ الساعةِ حتىٰ أنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها * إِلىٰ رَبِّكَ مُنْتَهاها ﴾.

وله شاهد عند ابن جرير أيضًا من طريق طارق ابن شهاب قال: «كان رسولُ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم لا يزالُ يذكرُ مِن شأنِ السّاعةِ حتّىٰ نزَلَت: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السّاعَةِ أَيّانَ مُرْساها ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾.

والمعنىٰ العام ما الذي ينفعك إن أخبرناك بموعدها؟ لا تنتفع بشيء، ولا عليك من ذكرها، وإنما خوفهم بخروجها، ويجب عليهم الإيمان بوقوعها.

﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴾ أي: منتهىٰ علماها إلىٰ الله، فهو الذي يعلم متىٰ تكون، ولا يعجزه شيء ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾ أي: إنما عليك يا محمد، أن تنذر وتخوف من يخشىٰ قيامها فيستجيب.

والساعة يومها شديد، كما قال تعالىٰ: ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا * يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾[المعارج: ٤ - ١٠].

ويغضب الله في ذلك اليوم غضبًا، لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله.

﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ أي: الكفار المكذبين بها، ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَهَا ﴾ أي: الساعة، ويعاينون وقوعها، ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا ﴾ لم يمكثوا في هذه الحياة الدنيا وفي تلك القبور الخوالي وما فيها من الوحشة، ﴿ إِلَّا عَشِيَّةً ﴾ من الظهر إلىٰ المغرب، ﴿ أَوْ ضُحَاهَا ﴾ من الصبح إلىٰ الظهر.

وهذا هو الواقع فعند قرب الموت يشعر الإنسان بأن السنين الكثيرة التي مكثها في الأرض زالت في لحظة عين، وعند البعث: ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾[المؤمنون ١١٢-١١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾[الروم:٥٦].

والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة عبس

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ * قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ * كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ * فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ * فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾[عبس:١-٤٢].

مكية، وكان سبب نزول أوائلها: «أَنَّهُ أَتَىٰ النَّبِيَّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ يُنَاجِي عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ وَأَبَا جَهِلِ بْنَ هِشَامٍ وَعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأُبَيًّا وَأُمَيَّةَ ابْنَيْ خَلَفٍ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ وَيَرْجُو إِسْلَامَهُمْ، فَقَامَ ابْنُ أُمِّ

مَكْتُومٍ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمْنِي، مِمَّا عَلَّمَكَ اللهُ؛ وَجَعَلَ يُنَادِيهِ وَيُكَرِّرُ النِّدَاءَ وَلَا يَدْرِي أَنَّهُ مُشْتَغِلٌ مُقْبِلٌ عَلَىٰ غَيْرِهِ، حَتَّىٰ ظَهَرَتِ الْكَرَاهِيَةُ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِقَطْعِهِ كَلَامَهُ، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: «يَقُولُ هَؤُلَاءِ الصَّنَادِيدُ إِنَّمَا أَتْبَاعُهُ الْعُمْيَانُ وَالسِّفْلَةُ وَالْعَبِيدُ»، فَعَبَسَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَعْرَضَ عَنْهُ وَأَقْبَلَ عَلَىٰ الْقَوْمِ الَّذِينَ يُكَلِّمُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ هَذِهِ الْآيَاتِ »، كما جاء في أسباب النزول للنيسابوري.

وكان سبب إعراض النبي صلىٰ الله عليه وسلم وإقباله علىٰ أشراف قريش؛ طمعًا في إيمانهم وإسلامهم، وحرصًا علىٰ دعوتهم، فعاتبه الله عز وجل بهذا العتاب اللطيف، الدال علىٰ علو منزلته وعظيم فضله، حتىٰ أنه جعل الخطاب للغائب، فلم يقل: (عبست وتوليت).

﴿ عَبَسَ ﴾ أي: بوجهه والعبوس قطوب الوجه وتغيره، ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أي: ببدنه فحول عنه وجهه والتفت إلىٰ من يرجوا إسلامهم.

﴿ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴾ أي: حين جاءه ابن أم مكتوم، وهو عمرو وقيل عبد الله بن أم مكتوم.

وفيه: أن الكرامة عند الله بـالإيمان، وليست بالمال ولا بالحسب والنسب فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ». أخرجه مسلم،

وقد قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[الحجرات:١٣].

فانظر إلىٰ هذه المكرمة العظيمة لهذا الأعمىٰ المحتقر عند قريش ذكر الله شأنه في القرآن، معاتبًا في شأنه النبي عليه الصلاة والسلام، مع أن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- إنما همه الدعوة إلىٰ الله، وكان يجالس الضعفاء وغيرهم، ولكنه طمع في إسلام كفار قريش بإعراضه عنه.

وفيه جواز ذكر الشخص بوصفه الذي هو عليه كالأعمىٰ والأعرج للتعريف.

والعمىٰ ينقسم الىٰ قسمين:

الأول: عمىٰ بصر

الثاني: وعمىٰ بصيرة.

وأهونهما: عمىٰ البصر، فإن الله عز وجل وصف الكفار بأنهم: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾[البقرة:١٨]، مع أنهم يبصرون بأعينهم.

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴾ أي: أن هذا الأعمىٰ قد تقع منه الزكاة، فيطهر نفسه من الذنوب والمعاصي، ويطهرها بطاعة الله عز وجل، بخلاف من أقبلت عليه، ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ أو أن هذا الأعمىٰ قد يتذكر ويستفيد من المواعظ التي يسمعها منك بخلاف ذلك الكافر المعرض.

﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴾ أي: الكافر الذي ليس له رغبة في الإسلام، ﴿ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴾ فأنت تتعرض له وتجلس معه، ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾ كما قال الله جل جلاله: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾[البقرة ٢٧٢]، فهو أعلم بالمهتدين، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّستَ عَلَيهِم بِمُصَيطِرٍ ﴾[الغاشية ٢١-٢٢]، وقال: ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾[فاطر ٨]، والمعنىٰ ليست عليك زكاته وليست تحت قدرتك إلا أن يشاء الله.

﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴾ وهو الأعمىٰ جاء مسرعًا إلىٰ النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- ليأخذ منه علمًا وفقهًا، وهذا هو حال أهل الإيمان في كل زمان أنهم يحرصون علىٰ أخذ الخير والعمل به.

والسعي هنا قد يكون علىٰ ظاهره: سعي البدن أو المراد به السعي المعنوي، وهو السعي لتحصيل الخير والصلاح ﴿ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴾ حال كونه يخشىٰ الله عز وجل ويراقبه، ﴿ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ تُعرض وتقبل علىٰ الكافر مشتغلا به.

﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ أي: حقًا أن القرآن تذكره وما تقدم من عتاب الله عز وجل لمحمدً -صلىٰ الله عليه وسلم- ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ موعظة يستفيدها من أراد الله له الفائدة، فإذا كان الله قد عاتب محمدًا -صلىٰ الله عليه وسلم- النبي الكريم، فكيف بنا، مع أن نبينا -صلىٰ الله عليه وسلم- إنما طمع في إسلام

بعض عظماء قريش؛ ولعل في هدايتهم هداية لغيرهم واستقامة لغيرهم ومع ذلك عاتبه الله ووعظه بهذه الموعظة ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ أي: اتعظ واستفاد، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾[الكهف:٢٩].

ففي باب القدر الشرعي لا يرضىٰ الله الكفر ولَم يأذن به، ولا يحبه، بل يعاقب عليه بالطرد من رحمته، وأما القدر الكوني فلله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، يهدي من يشاء فضلًا، ويضل من يشاء عدلًا: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾[فصلت ٤٦].

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا ولا سعي لديه ضائع

إن عُذِّبوا فبعدله أو نعِّموا ... فبفضله وهو الكريم الواسع

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ثم ذكر مكان هذه الذكرىٰ وأنها لا تنال بالأيدي فيعبث بها العابثون.

﴿ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴾ أي: أن هذه التذكرة في صحف مكرمة، صُحف مكتوبة مُعظمة.

﴿ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴾ مرفوعة أن تنالها الأيادي عبثا، ومطهرة مما يخالف الشرع.

﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ بأيدي الملائكة السفرة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ»، وقد ذكر العلماء في معنىٰ السفرة أمرين:

الأول: أنهم الكتبة، من السفر كما قال الله عز وجل: ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ فيكون المعنىٰ أنهم الملائكة الذين يكتبون أعمال العباد وما يتعلق بذلك.

الثاني: أنهم سفراء بين الله عز وجل وبين المكلفين، فإن جبريل الروح الأمين هو الذي نزل بالوحي الشريف علىٰ محمد -صلىٰ الله عليه وسلم-.

﴿ كِرَامٍ ﴾ في صفاتهم، الكرم كثرة الخير، فهم علىٰ جمال في صفاتهم وذواتهم، ﴿ بَرَرَةٍ ﴾ قلوبهم وأعمالهم لكثرة أعمال البر، فإنهم كما قال جل جلاله: ﴿ لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[التحريم:٦].

والبر: كلمة خلقه تشمل كل طاعة لله عز وجل، من التوحيد فما دونه، قال تعالىٰ: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَىٰ الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَىٰ الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾[البقرة: ١٧٧].

ثم أخبره الله عز وجل عن حال الإنسان وكفرانه للنعم مع وضوح الحجج والبراهين الدالة علىٰ استحقاق الله جل جلاله للشكر والحمد عليها: ﴿ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ قيل هلك، وقيل لعن: ﴿ الْإِنْسَانُ ﴾ أي الكافر، وقيل جنس الإنسان وأكثر الناس علىٰ الكفر إلا من رحم الله.

﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ قيل ما سبب كفره، وقيل: أنها علىٰ التعجب أي ما أشد كفره وإعراضه عن دين الله عز وجل مع وجود الدلائل الواضحات والحجج الدامغات في بيان وجوب التوحيد علىٰ العباد! قال الله عز وجل: ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَىٰ الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَىٰ السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَىٰ الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَىٰ الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[الغاشية ١٧-٢٠]، فيكون في هذا النظر عبرة وآية يدخلون بها للإسلام: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأعراف ١٨٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾[الذاريات:٢١]، إلىٰ غير ذلك من الآيات، ومع ذلك ما أشد كفر الإنسان وجحود الإنسان بحق الملك الديان، والله المستعان.

﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ يقول: هو مخلوق حتىٰ يتعاظم ويتكبر، مع أنه من نطفة حقيرة تخرج من صلب الرجل وترائب المرأة، ثم تجتمع في رحم المرأة مشيج، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾[الإنسان: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ بدء نشأته.

من هذه النطفة في رحم المرأة، فقدره تقديرًا، حيث يكون نطفة ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظام، ثم يكسو العظام لحم، فإذا تم الأجل خرج من بطن أمه وبدأ رضيعًا، ثم يجلس، ثم يحبو، ثم يقوم وهكذا حتىٰ يرد إلىٰ أرذل العمر، كما قال الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾[الحج: ٥]

﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ أي: يسره لسبيل الخير والشر، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[الإنسان ٣]، وقال: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾[البلد:١٠]، وقال: ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه:٥٠]، والحال كما قال الله عز وجل: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾[الليل: ٥-٧]، وفي حديث علي رضي الله عنه: قَالَ: كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الغَرْقَدِ فَأَتَانَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ، وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ فَنَكَّسَ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ وَمَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً» قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلاَ نَتَّكِلُ عَلَىٰ كِتَابِنَا، وَنَدَعُ العَمَلَ؟ فَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَسَيَصِيرُ إِلَىٰ عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ،

وَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ، فَسَيَصِيرُ إِلَىٰ عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، قَالَ: «أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاءِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾[الليل: ٦] الآيَةَ، متفق عليه.

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ ﴾ بعد حياته الطويلة، ﴿ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أودعه في الأرض ووري بالتراب، كما قال الله عز وجل: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴾[المرسلات:٢٥-٢٦]، أي: تكفتكم أحياء بتغييب فضلاتكم وما يخرج منكم: ﴿ وَأَمْوَاتًا ﴾ أي: تغييبكم بعد موتكم.

والقبر يعتبر مكرمة للإنسان؛ لأن كل حيوان يموت يترك، فتظهر جيفته وربما أكلته السباع ونهشته الوحوش بخلاف الإنسان، فإنه يوارىٰ ويدفن في التراب، ولذلك حينما قتل ابن آدم أخاه، بعث الله غرابًا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري أخاه، قال تعالىٰ: ﴿ فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾[المائدة ٣١].

وكرم الله المسلمين بمزيد عناية في ذلك: فيحسن كفنهم، وتعمق قبورهم، ويلحد لهم، حتىٰ لا يصل إليهم التراب، ويوضعون علىٰ أيمانهم، ويدخلون بِاسْم الله علىٰ ملة ورسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم-، ثم صان الله قبورهم

بعد موتهم فحرم وطأها عَنْ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَجْلِسُوا عَلَىٰ الْقُبُورِ، وَلَا تُصَلُّوا إِلَيْهَا» أخرجه مسلم.

وقد نهىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم عن الكتابة عليها، بل وبالغ في إكرامها سُبحانه تعالىٰ حتىٰ قال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «يَا صَاحِبَ السِّبْتِيَّتَيْنِ، وَيْحَكَ أَلْقِ سِبْتِيَّتَيْكَ»، فَنَظَرَ الرَّجُلُ، فَلَمَّا عَرَفَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَلَعَهُمَا فَرَمَىٰ بِهِمَا. أخرجه أبو داود،

وقال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «وَمَا أُبَالِي أَوَسْطَ الْقُبُورِ قَضَيْتُ حَاجَتِي، أَوْ وَسْطَ السُّوقِ».

وحرم تعظيمها وتشييدها، ففي وصية النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- لعلي: «أَنْ لَا تَدَعَ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ، وَلَا تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ»، أخرجه مسلم عن علي رضي الله عنه.

والقبر بعد ذلك نعيم أو عذاب: «إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ»، أخرجه الترمذي عن عثمان رضي الله عنه.

﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ ثم للتعقيب، متىٰ شاء أنشرهُ، بعثهُ وأخرجه من قبرهِ إلىٰ أرض المحشر والمنشر، فيُجازىٰ علىٰ عمله، فإن كان من المسلمين المؤمنين الموحدين كان مآلهُ إلىٰ جنة النعيم، وإلىٰ إكرام رب العالمين، وإن كان من الكافرين المجرمين كان مآله إلىٰ الجحيم، نسال الله السلامة.

وإذا أراد أن ينشره فلا يعجزه شيء سُبحانه وتعالىٰ: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾[النازعات ١٠-١٤] صيحة واحدة في الصور فإذا هم علىٰ وجه الأرض، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَىٰ، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، أي: يعيد الله عز وجل خلق الإنسان بعد موته من عجب الذنب.

﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ جماهير المتقدمين من المفسرين يقولون حقاً بأن الإنسان عاجز أن يأتي بما أمره الله عز وجل علىٰ أكمل الوجوه، ولكنه يتقي الله ما استطاع؛ لقول الله عز وجل: ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾[التغابن:١٦]، وقوله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللهُ نَفسًا إِلَّا وُسعَهَا﴾[البقرة ٢٨٦]، ﴿ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾[الطلاق:٧].

وقيل المعنىٰ: ﴿ كَلَّا ﴾ أي: لا يقع البعث والنشور إلا متىٰ أراد الله عز وجل، وهذا القول استظهره ابن كثير، لكن المعنىٰ الأول أليق: ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ أي: أن الإنسان لم يأتي بما أمر به إلا مع وجود بعض الضعف، والنَّاس يتفاوتون.

ثم بين الله عز وجل قدرته ببيان حال الإنسان في الدنيا وأرشد إلىٰ النظر والتفكر في ذلك ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنسَانُ ﴾ أي: ليتأمل الإنسان في دلائل الله وآياته، وضرب له مثلًا بأقرب الأشياء إليه؛ حتىٰ يتوصل بها إلىٰ مزيد الإيمان ودرجات الإحسان، ﴿ فَلْيَنْظُرِ ﴾ والمراد بالنظر هنا: نظر تفكر وتعقل لا نظر

تفرج، فإن كثيرًا من الناس يذهبون إلىٰ المزارع وينظرون إلىٰ خضرتها وبهائها ويرجع إلىٰ بيته ليس له إلا ذاك، لكن المراد نظر تأمل وتعقل وتفكر تدله علىٰ قدرة الملك سُبحانه وتعالىٰ، ﴿ إلىٰ طعامه ﴾ إلىٰ مأكوله ومشروبه.

﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ أنزلنا الماء من السماء علىٰ الأرض بكثرة، ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾[الفرقان ٤٨]، يصبه من السحاب كما قال تعالىٰ: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾[النبأ:١٤].

وفِي نزول المطر آية من آيات الله العظيمات، إذ أن الله ينشأ سحابًا ربما لا جرم له، محسوس وإن كان يرىٰ، لكن لو مر السحاب من عندك تمد بيدك لا تجده إلا إذا وجدت رطوبته، ومع ذلك هذا السحاب يتكون فيه جبال من برد، وتنزل منه أمطار غزيرة، فيسقي الله عز وجل بها البلاد والعباد، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾[النور: ٤٣]

﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴾ أي: أمر المزارعين أمرًا كونيًا بالزراعة والحرث، وهو الذي علمهم بذلك.

﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴾ أي: أصنافا من الحب كالذرة والشعير والحنطة وغير ذلك.

﴿ وَعِنَبًا ﴾ أعناب منه الأخضر، والأحمر، والأسود والحلو، والمر، والحامض، ﴿ وَقَضْبًا ﴾ وهو القت علىٰ اختلاف أصنافه تأكله الدواب لاسيما البقر وغيرها، ويكون سببًا في در الحليب، وقد يكون المراد بالقضب نفس هذه الشجرة التي تسمىٰ قضب ويعرفها المزارعون، وقد يريد به جملة الأشجار التي تكون مرعىٰ للدواب والأنعام.

﴿ وَزَيْتُونًا ﴾ الشجرة المعروفة التي يستصبح ويدهن بزيتها، وتؤكل ثمرتها، وتتخذ إداما، فهي شجرة مباركة، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ ﴾[المؤمنون: ٢٠]، ﴿ وَنَخْلًا ﴾ معروف ثمره لذيذ، وسعفه يصلح بساطًا، وساقه طويل كما قال تعالىٰ: ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ ﴾[ق: ١٠-١١] وعن ابن عمر رضي الل عنه قال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ»؟ فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي، قَالَ عَبْدُ اللهِ: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «هِيَ النَّخْلَةُ» متفق عليه.

﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ أي: مزارع فيها أشجار، قيل سميكة، وقيل عالية، وقيل ملتفه، وربما شملت جميع المعاني، فإن الأرض الزراعية تنقسم إلىٰ قسمين:

الأول: أرض تزرع فيها الأعشاب وهي سريعة الموت.

الثاني: وأرض تزرع فيها الحدائق الغناء، والأشجار العظيمة، فتبقىٰ علىٰ هيئتها في الصيف والشتاء.

﴿ وَفَاكِهَةً ﴾ أي: مما رزقهم الله: فاكهة من الرمان والبرتقال، والتفاح، والسفرجل، وكم هي الفواكه العظيمة التي يمتن الله بها علىٰ عباده، ﴿ وَأَبًّا ﴾ أعشاب ترعاها دوابهم، وأما ما روي عن أبي بكر ضي الله عنه: «أنَّ أبا بكرٍ سئل عن قوله تعالىٰ: ﴿ وَفاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ فقال أيُّ سماءٍت ُظلّني، وأيُّ أرضٍ تُقِلُّني إذا قلتُ في كتابِ اللهِ تعالىٰ ما لا أعلمُ»، فهو منقطع بين إبراهيم التيمي وأبي بكر رضي الله عنه، وأما ما جاء عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «﴿ وَفاكِهَةً وَأَبًّا ﴾، ثم قال: هذا من التكلف يا عمر»، ليس معناه أنه لا يعرف الآب، ولكن رأىٰ أن البحث عن نوعه وجنسه يعتبر من التكلف، وإلا ما من عربي يفهم لغة العرب إلا ويعرف معنىٰ الفاكهة ومعنىٰ الآب، والذي يظهر ان اسم مدينة (إب) مأخوذ من هذا الأمر؛ لأنها بلد وإن كانت تخضر في موسم الربيع إلا أن سبب اخضرارها الأعشاب.

ثم قال عز وجل بعد أن بين قدرته في هذه الأشياء: ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ ﴾ أكل هذا جعله الله متاعاً تتمتعون به فتأكلون وتشربون وتدخرون ﴿ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ دوابكم من البقر والغنم والإبل، فتستمتعون وتستمتع أنعامكم ثم تستمتعون أيضًا بأنعامكم التي قد كبر حجمها، ولذ لحمها، وكثرت ألبانها.

وبعد أن بين الله عز وجل عجائب القدرة ذكر اليوم الآخر وما فيه بقوله: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴾ إذا جاء يوم القيامة، وسميت بالصاخة؛ لأنها تكون بصوت مرتفع تصخ معه الآذان وتصم من شدتها.

ومن وصفها أنها: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ في يوم يهرب المرء من أخيه، وبدأ بالأخ؛ مع شدة حرص الأخ علىٰ أخيه وتعصبه له في الدنيا، ومع ذلك يفر منه يوم القيامة.

﴿ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴾ ويفر أيضا من والديه يفران منه، ﴿ وَصَاحِبَتِهِ ﴾ زوجته، ﴿ وَبَنِيهِ ﴾ أي أحرص الناس عليه في الدنيا يهربون منه ويفر منهم؛ لأن ذلك اليوم كما قال الله عز وجل: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[المدثر:٣٨].أي: مرهونة بعملها، وكل إنسان يقول: نفسي نفسي: ﴿ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾[المعارج:١٠].

﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ ﴾ من الرجال والنساء، ﴿ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ هذا هو سبب الفرار بعضهم من بعض؛ أن كل واحد مشغول بنفسه وبعمله، وهذا حين يجد كل واحد عمله، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾[آل عمران:٣٠]، والشأن: هو الشغل الذي يبتلىٰ به الإنسان.

ثم بين الله عز وجل حال الناس في هذا اليوم: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴾ وهي وجوه المؤمنين: ﴿يَومَ تَبيَضُّ وُجُوه وَتَسوَدُّ وُجُوه﴾[آل عمران ١٠٦]، فوجوه المؤمنين مسفرة أي جميلة بهية كما قال الله عز وجل: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾[القيامة:٢٢]. أي: فيها النضارة والبهاء: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[القيامة:٢٣]، بسبب نظرها إلىٰ الله.

﴿ ضَاحِكَةٌ ﴾ مسرورة لما حصل لها ﴿ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴾ بوعد الله عز وجل الذي بشرهم به أنبيائه، وبشرهم به ملائكته، كما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾[فصلت:٣٠-٣١].

﴿ وَوُجُوهٌ ﴾ وهي وجوه الكفار، ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي: في القيامة، ﴿ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ أي: سواد حيث تغيرت وجوههم البيضاء إلىٰ السواد؛ بسبب ما كانوا عليه من الذنوب العظيمة.

﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ تعلوها القترة فبدل الجمال الذي كانت عليه في الدنيا صارت سوادًا ومنظراً سيئاً.

﴿ أُولَئِكَ ﴾ أي: الذين تقدم وصفهم، ﴿ هُمُ الْكَفَرَةُ ﴾ الجحدة لربوبية الله وألوهيته، والمتمردين علىٰ شرعه ودينه، ﴿ الْفَجَرَةُ ﴾ الذين ارتكبوا كل فجور من الشرك فما دونه، فاستحقوا هذا العذاب الأليم والخزي العظيم بأن

تكون وجوههم يوم القيامة مسودة، وتكون قد علتها القترة التي غيرت من نظارتها وحالها.

وفِي البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: لَا تَعْصِنِي؟ فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ. فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ، إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ. ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ ؟ فَيَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ».

الذيخ: هو ذكر الضباع.

والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورت التكوير

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ *

عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ * فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[التكوير:١-٢٩].

مكية، وجاء في مسند الإمام أحمد والترمذي من حديث ابن عمر رضي الله عنها أن النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾، وَ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾، وَ ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾».

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ويكون ذلك يوم القيامة حيث أن هذه الشمس العظيمة الواسعة، تكور يوم القيامة فيضم بعضها إلىٰ بعضًا ثم تلقىٰ في النار، كما يقول: كورت العمامة؛ «أي جمعت»، وإلقائها في النار هو تبكيت لعبادها من دون الله عز وجل، قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ

أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[الأنبياء: ٩٨ - ١٠٣].

﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ التي جعلها الله عز وجل زينة للسماء ورجوما للشياطين أي انطمس ضوئها، وسقطت عن أماكنها قيل في جهنم؛ وما يحصل هو بسبب التغير الذي يحصل في العالم العلوي؛ لأن القيامة يلحقها تغيرات:

١- تغير في العالم العلوي من انفطار السماء وتساقط النجوم وتكوير الشمس.

٢-وتغير في العالم السفلي قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾[إبراهيم: ٤٨].

ومن أوائل التغيرات في العالم العلوي: طلوع الشمس من مغربها.

ومن التغيرات في العالم السفلي: ما دل عليه حديث حذيفة بن أسيد الْغِفَارِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: كُنَّا قُعُودًا نَتَحَدَّثُ فِي ظِلِّ غُرْفَةٍ لِرَسُولِ اللهِ صلّىٰ الله عليه وسلم، فَذَكَرْنَا السَّاعَةَ، فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَنْ تَكُونَ - أَوْ لَنْ تَقُومَ - السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَكُونَ قَبْلَهَا عَشْرُ آيَاتٍ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَالدَّجَّالُ، وَعِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ، وَالدُّخَانُ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ، خَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ،

وَخَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ تَخْرُجُ نَارٌ مِنَ الْيَمَنِ، مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ، تَسُوقُ النَّاسَ إِلَىٰ الْمَحْشَرِ»، أخرجه أبو داود.

﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ ﴾ الثوابت الرواسي، ﴿ سُيِّرَتْ ﴾ أي: زالت عن أماكنها، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾[النبأ: ٢٠]، ويبدأ التغير بأنها تمر مر السحاب، وتصبح الأرض كقرصة النقيب ليس فيها علم لأحد، ﴿ وَتَرَىٰ الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾[النمل:٨٨].

ثم تكون كالصوف الذي ينفش في الهواء، تحمله الريح، ثم تكون آثارها كالسراب ثم تتبدد الرؤيا إليها، والحال كما قال الله عز وجل: ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾[طه:١٠٧].

﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ عشار الإبل تركت وسيبت وقيل الأرض المعشرة، والذي يظهر أنها النوق؛ لأن العرب كانوا إذا صارت الإبل عشرا أحبوها وانتظروا ولدها، وهي التي تحمل في الشهر العاشر، فتعطل عن الركوب عليها، وتعطل عن الاهتمام بها، بمعنىٰ أن الإنسان شغل عنها: ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾[عبس:٣٧]..

﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ أي: جمعت الوحوش من أسود، ونمور، وجميع حيوان الغاب تحشر يوم القيامة عند بارئها، كما قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَىٰ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّىٰ يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ»، متفق عليه.

وكما قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾[الأنعام:٣٨]، فيجمعون في ذلك الصعيد العظيم، إلا أن الوحوش والحيوان إذا قضي بينها صارت ترابًا بخلاف الإنسان والجان.

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ أوقدت بالنار وجمعها؛ لكثرتها، فمنها البحر المحيط، وهو ما يعبر عنه الآن بالمحيط الهادي، والأطلنطي، والهندي، والمتجمد الشمالي، والمتجمد الجنوبي، وهناك أبحر غير محيطه مثل؛ بحر العرب، وبحر قزوين الذي هو البحر الأحمر، والبحر المتوسط وغير ذلك من البحار الكثيرة، هذه البحار تسجر بالنار فتصير لهبًا عظيمًا ويذهب ماؤها.

﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ أي: جمع أن كل صنف مع صنفه ونظيره، قال تعالىٰ: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[الجاثية:٢٨]، فاليهود مع اليهود، والنصارىٰ مع النصارىٰ، وعباد الشمس مع عباد الشمس، كما قال النبي - صلىٰ الله عليه وسلم-: «مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ، فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَىٰ هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا» متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، وكما قال الله عز وجل: ﴿

وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۞ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۞ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۞ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾[الواقعة:٧-١٠].

فيجتمع الناس ويتمايزون، وإذا جالس بعضهم بعضهم، وزوج بين بعضهم بعضًا، يتمنىٰ المجرم لو يكون بعيدًا عن هذا الشرير، كما في حديث البراء رضي الله عنه: «فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ، فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ».

﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴾ والمؤدة؛ هي البنت التي كانت تقتل قبل بلوغها، وللكفار طريقان في قتلها:

١- إما أن يقتلوها حين الولادة.

٢- وإما أن يقتلها في سن التمييز.

حتىٰ ذكر أن بعضهم ذهب يحفر لابنته حفرة، وكان التراب يقع علىٰ لحيته، وكانت ابنته تنفض التراب من لحيته ثم يلقيها في تلك الحفرة، وهذا يدل علىٰ غلظ قلوبهم، فإن الله عز وجل قد أعطىٰ الرحمة في قلوب الحيوان، وهؤلاء يقتلون بناتهم، وكان قتلهم لبناتهم لسببين:

الأول: الفقر، فربما قتلوا الولد والبنت؛ خوفًا من الفقر.

والثاني: خشية العار، وقراءة الجمهور: ﴿ سُئِلَتْ ﴾ فإذا سئل المظلوم فكيف الظالم، وقرأ غير واحد (تسألت) أي: طالبت بدمها.

فالشاهد: أن الله يقول: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴾ وكذلك قاتل الموءودة يسأل عن سبب قتلها، وقد سئل النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- عن العزل، فقال: «ذلك الوأد الخفي».

والصحيح: أن الموءودة في الجنة؛ لقول النبي - صلىٰ الله عليه وسلم -: «وأولاد المشركين في الجنة»، أخرجه البخاري وغيره.

هذا هو القول الصحيح في هذه المسألة، وقد اختلف العلماء، فقال بعضهم: أولاد المشركين مع آبائهم، واستدلوا بحديث: «هم من آبائهم»، لكن القول الذي عليه أهل التحقيق: أن أولاد المشركين في الجنة، لثبوت النص عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم.

﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ أي: صحائف الأعمال تنشر يوم القيامة، وفيها ما سطر من خير أو شر، فإن الأنسان لا يعمل عملًا ولا يقول قولًا إلا كتب عليه: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[ق:١٨]، ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾[الزخرف:٨٠]، ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ﴾[آل عمران: ٣٠].

وحين تنشر هذه الصحف منهم من يأخذها بيمينه، ومنهم من يأخذها بشماله، كما قال الله عز وجل: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾[الحاقة:١٩]، ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ

أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴾[الحاقة:٢٥-٢٦]، ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[الإسراء:٧١].

﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ أي: السماء عالية البنيان، عظمية الأركان، تزاح عن مكانها، وتتهدم أركانها، ويطويها الله عز وجل بيده: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾[الأنبياء:١٠٤]. ﴿ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾[الزمر:٦٧].

﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ ﴾ سميت الجحيم؛ لبعد قعرها، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَدْرُونَ مَا هَذَا ؟»، قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ قَعْرِهَا»، أخرجه مسلم.

﴿ سُعِّرَتْ ﴾ أوقدت، وأظلمت، وجهزت، قال تعالىٰ: ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[البقرة: ٢٤].

﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ أي: قربت، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[الشعراء: ٩٠]، فقربها الله للمؤمنين؛ ليدخلوها ويتمتعون بالنظر إليها، ويستأنسون بوجودها، إذ أنهم يكرمون حين إتيانها.

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾، هذا هو الجواب لما تقدم، وذلك حين تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال، وتعطل العشار، وتحشر الوحوش، وتسجر البحار، وتزوج النفوس، وتسأل الموءودة المقتولة، وتنشر الصحف (الدواوين)، وتكشط السماء وتطوىٰ وتذهب، وتسعر الجحيم، وتقرب الجنة عند ذلك: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾ علمته ولا تنسىٰ منه شيئًا، كله مسطر في الكتب، والملائكة يشهدون، والإنسان ينظر إلىٰ عمله يمنة ويسرة كما سيأتي: ﴿ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ ما فعلته، وما لم تفعله، وهذا العلم يُوجب للإنسان الحسرة في الآخرة: ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾[المعارج: ١١-١٤].

ثم قال عز وجل: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴾ أي: أني أقسم بالخنس، وهي النجوم حال طلوعها، وقيل غير ذلك.

﴿ الْجَوَارِ ﴾ النجوم حين تكون سابحة في السماء، ﴿ الْكُنَّسِ ﴾ النجوم عند غروبها، فأقسم الله عز وجل بحال النجم في جميع حالاته الثلاث: عند طلوعه، وسيره، وعند غروبه.

والنجم آية من آيات الله العظيمات، جعلها الله زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدىٰ بها، قال قتادة:"فمن طلب غير ذلك فقد أضاع حظه، ونصيبه ".

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ أقسم أيضًا بالليل إذا عسعس أي إذا أدبر، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴾[المدثر:٣٣-٣٤].

فيقسم بالمتماثلين:

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾[الشمس:١].

﴿ وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾[الضحىٰ:١-٢].

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾[الليل:١-٢].

﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ أقسم بالصبح حال طلوع الشمس، وقبل ذلك يتنفس ويبدأ في ظهور النور بعد الظلمة.

﴿ إِنَّهُ ﴾ أي: القرآن هذا هو المقسم عليه، ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ والمراد به جبريل عليه السلام، نسب إليه لأنه بلغه وهو رسول كريم، ذو أوصاف جليلة جميلة عظيمة، فإن لفظ الكرم أعم من العطاء، ولذلك رأينا أنه لا حرج في قول رمضان كريم من حيث أنه شهر الخير والبركة.

القرآن هو قول الله، وكلامه، وإنما أضيف إلىٰ جبريل عليه السلام؛ لأنه بلغه، وأضيف إلىٰ النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-؛ في سورة الحاقة لأنه بلغه للناس.

ويزيده وضوحاً أنه قال الله: قول رسول، والرسول هو الذي أرسل من غيره.

﴿ ذِي قُوَّةٍ ﴾ أي: من أوصافه الرسول الكريم أنه صاحب قوة، كما قال تعالىٰ: ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴾[النجم:٦]، أي: قوة وشدة؛ لكمال خلقته، ولعظيم شأنه، وقد رآه النبي صلىٰ الله عليه وسلم علىٰ خلقته مرتين وله ستمائة جناح ساد عظم خلقه ما بين السماء والأرض، ﴿ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ ﴾ أي: أن هذا الرسول عند الله، صاحب العرش، وهو العرش العظيم، العرش المجيد الذي استوىٰ الله عز وجل عليه: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَىٰ الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾[طه:٥]، وهو أعلىٰ المخلوقات، وأول المخلوقات، قال النبي- صلىٰ الله عليه وسلم-: «فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَىٰ الْجَنَّةِ -أُرَاهُ: فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ-»، ﴿ مَكِينٍ ﴾ أي: أنه ممكن، مكنه الله عز وجل، فهو المقدم علىٰ جميع ملائكة الله، وقد قال الله عز وجل: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[الشعراء:١٩٣-١٩٥].

﴿ مُطَاعٍ ﴾ أي: أن جبريل مطاع من جميع الأملاك، يطيعونه؛ إذ أنه يبلغهم بأمر الله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾[سبأ:٢٣]، ﴿ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ أي: أنه متصف بالأمانة، وهذا ثناء عظيم من الله عز وجل علىٰ جبريل، الذي يخونه الرافضة والباطنية؛ بدعوىٰ أنه دفع النبوة إلىٰ محمد -صلىٰ الله عليه وسلم-، وهي في الأصل لعلي رضي الله

عنه، وربما سلم بعضهم من الصلاة لاسيما النخاولة ومن إليهم ويقولون: خان الأمين، خان الأمين، كيف يخون الأمين، لا تستقيم؛ لأن الأمين لا يخون فهو آمين مؤمن علىٰ الوحي، وعلىٰ أوامر الله عز وجل.

﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ أي: محمد -صلىٰ الله عليه وسلم- الذي أرسل إليكم ليس بمجنون كما يزعم الكفار: ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾[الذاريات:٥٢-٥٣].

وقد ذهب بهم الحال أن يشيعوا هذا الكذب بين الناس فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ ضِمَادًا قَدِمَ مَكَّةَ، وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ، وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ، فَقَالَ: لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ، لَعَلَّ اللهَ يَشْفِيهِ عَلَىٰ يَدَيَّ. قَالَ: فَلَقِيَهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، وَإِنَّ اللهَ يَشْفِي عَلَىٰ يَدِي مَنْ شَاءَ، فَهَلْ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ». قَالَ: فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ. فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ، وَقَوْلَ السَّحَرَةِ، وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ، فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ، قَالَ: فَقَالَ: «هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ عَلَىٰ

الْإِسْلَامِ»، قَالَ: فَبَايَعَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَعَلَىٰ قَوْمِكَ». قَالَ: وَعَلَىٰ قَوْمِي ". أخرجه مسلم.

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ أي: أن محمدًا -صلىٰ الله عليه وسلم- رأىٰ الروح الأمين جبريل عليه السلام، ﴿ بِالْأُفُقِ ﴾ أي: سادًا الأفق، جالسًا علىٰ كرسيه ما بين السماء والأرض، وهذه هي النظرة الأولىٰ، وقد رآه مرة أخرىٰ ليلة الإسراء، وهذا مما يدل علىٰ أن صورة التكوير كان نزولها قبل سورة النجم قال الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾[النجم:١٣-١٥].

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ رآه بينا واضحًا جليًا بصفاته.

ثم قال في وصف محمد -صلىٰ الله عليه وسلم-: ﴿ وَمَا هُوَ ﴾ أي: محمد -صلىٰ الله عليه وسلم-، ﴿ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ أي: الوحي الذي نزل عليه، ﴿ بِضَنِينٍ ﴾ ببخيل، بل إنه كان إذا جاءه الوحي علمه الناس، وبلغ دين الله.

وفي هذه الآية قراءتان:

القراءة الأولىٰ: بضنين ببخيل.

والقراءة الثانية: بظنين أي بالمتهم.

فالنبي - صلىٰ الله عليه وسلم- لم يكن متهماً علىٰ دينه، ولا بخيل كما أوحاه الله إليه.

وهكذا ينبغي أن يكون طالب العلم باذلا نفسه للناس، حريص علىٰ تبليغهم ما جاء عن الله، وما ثبت عن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-.

إذا أن الله عز وجل أرسل الرسل بالوحي، وأمرهم أن يبلغوه كما جاء، قال الله عز وجل: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَىٰ اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾[الأحزاب:٤٦].

قال شيخ الإسلام: " من دعا إلىٰ غير الله فقد أشرك، ومن دعا إلىٰ الله بغير أذنه فقد ابتدع ".

وينبغي لطالب العلم أن تكون فتواه بالدليل؛ حتىٰ لا يتهم علىٰ دين الله.

قال: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ أي: أن هذا القرآن ليس بقول شيطان رجيم، فإن أقوال الشياطين يعتريها النقص، والاضطراب والاختلاف، وتختلط بالباطل.

فلو كان قول شيطان لجاء الشياطين بمثله، أو قاربوا مثله، لكن تحداهم الله أن يأتوا بمثله فعجزوا: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[الإسراء: ٨٨]، وتحداهم أن يأتوا بعشر سورة مثله فعجزوا: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[هود:١٣]، فعجزوا، ثم تحاداهم أن يأتوا بسورة فعجزوا لما قال: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾[يونس: ٣٨]، والشيطان من شط وخرج عن الطاعة، ﴿ رَجِيمٍ ﴾ ملعون مرجوم.

ثم قال لهم بعد هذا البيان العظيم مبكتًا ومحقرًا لعقولهم الكاسرة: ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ أي: أين تعدلون عن هذا القرآن، وفيه شفاء والبيان.

ولكن حملهم الكبر كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾[الصافات:٣٥-٣٦]، وإذا جاءكم بالحق قلتم كذاب ساحر، يعلمه بشر، أساطير الأولين، إلىٰ غير ذلك.

﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي: هذا القرآن، ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ ذكرىٰ، ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾ المكلفين من الجن والإنس.

﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ لمن شاء أن يدخل في دين الله، ويستقيم علىٰ شرع الله عز وجل، ومشيئة العبد لا يمكن أن تقع إلا إذا شاء الله، ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ أي: يتبع الحق ويكون علىٰ الدين القويم والصراط المستقيم.

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ﴾ أي: مشيئة التوفيق إلا إذا شاء الله، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا ﴾، ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾، ﴿ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ العالم العلوي، والسفلي، وقيل: بأن العالمين هم الجن والإنس، وزاد بعضهم الملائكة، والصحيح أن كل ما سوىٰ الله عز وجل عالم.

والحمد لله رب العالمين

سورة الانفطار

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ * يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ * كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾[الانفطار:١-١٩].

قال تعالىٰ: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ أي: تشققت، وتفطرت، وتصدعت، وهذا يكون يوم القيامة.

﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴾ أي: الكواكب، والنجوم، تصير منتثرة متفرقة بعد اجتماعها، وبعد سيرها علىٰ الوجه الذي شرعه الله لها كونا.

﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ أي: ذهب ماؤها؛ بسبب ما سعرت به من النيران كما تقدم.

﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ خرج ما فيها من المدفونين المقبورين، بعثرتهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾[العاديات:٩]، خرجوا من قبورهم بعد أن كانوا قد وُرُوا في التراب.

يقول فإذا بعثرت القبور وخرج من فيها: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ علمت كل نفس مكلفة ما قدمت من خير أو شر، وما أخرت من ذلك، كما تقدم معنىٰ: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾[آل عمران:٣٠].

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ﴾ نداء إلىٰ جميع المكلفين، ﴿ مَا غَرَّكَ ﴾ من الذي جعلك تغتر وسول لك الباطل حتىٰ أضعت ما وجب عليك وأمنت مكر الله عز وجل كما قال: ﴿ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلا الْقَوْمُ الْخَاسِرُون ﴾[الأعراف:٩٩]

﴿ بِرَبِّكَ ﴾ بخالقك ورازقك ومدبرك، ﴿ الْكَرِيم ﴾ العظيم، وهذا علىٰ التهديد، كما يقول المثل: أحذر من الكريم إذا أهنته؛ فإنه ينتقم انتقاما لا عفو بعده؛ لأن الكريم يعفو، ويصفح، ويتجاوز، ويعطي، ثم إذا رأىٰ من هذا المُكرَم النفور علم أنه ليس أهل للكرامة، فعند ذلك يقلوه ويتركه، هذا علىٰ التهديد.

ثم عرف نفسه تعالىٰ فقال: ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ ﴾ أوجدك من العدم، ﴿ فَسَوَّاكَ ﴾ علىٰ أحسن صورة كما قال: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم ﴾، ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾[غافر: ٦٤] ﴿ فَعَدَلَكَ ﴾ قومك في أحسن صورة، وهيئة، وأحسن حال، وهذا لم يقع لغير الإنسان ممن هم في الأرض، الشياطين صورهم سيئة والحيوانان كلٌ علىٰ صورة، والإنسان خلقه الله علىٰ

أحسن صوره يغطي عورته، ويسرح لحيته، ويمشط شعره، ويزيل درنه، إلىٰ غير ذلك مما هو عليه.

﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ ﴾ في أي هيئة، ﴿ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ إن شاء جعلك أحمرًا، أو أبيضًا أو أسودًا، طويلًا أو قصيرًا، ذكرًا أو أنثىٰ، فإنه لا خروج عن مشيئة الله، وإرادة الله الكونية شيء، فالأمر أمره.

ثم قال: ﴿ كَلَّا ﴾ حقًا أيها المشركون أن الذي يحملكم علىٰ الاغترار والتمادي في المعاصي، ﴿ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ تكذبون بيوم القيامة، يوم الجزاء، وتكذيبهم له؛ إما بعدم تصديقهم الخبر الدال علىٰ وقوعه، وإما بعدم الانقياد لتوحيد الله عز وجل، فإن هذا يلزم منه تكذيب يوم الدين، والجزاء، وإلا لو كان الإنسان يعلم أنه مبعوث بين يدي الله عز وجل مُجازىٰ بأعماله فسيبادر للعمل الصالح، كما قال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾[الأحزاب: ٢١].

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ أي: من الملائكة يحفظون أعمالكم، كما أنه: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[ق:١٨]، كما أنهم يحفظون الإنسان من بين يديه ومن خلفه، يحفظونه من أمر الله، فأحيانًا تمشي في طريق تكاد أن تتعثر علىٰ وجهك، وإذا بك تُحفظ، فإذا جاء القدر حيل بينك وبين هذه الحفظة، فتسقط وتقع، والمعنىٰ الأول أظهر: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾[الزخرف: ٨٠].

﴿ كِرَامًا ﴾ أي: أصحاب كرامة في جمال وجوههم، ونبيل أخلاقهم بخلاف الشياطين.

فالملَك إذا عصيت الله عز وجل تنحىٰ عنك، والشيطان تستعيذ بالله منه وهو جاثم علىٰ قلبك؛ لأنه لئيم حقير.

﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ يعلمون أفعالكم ويسطرونها عليكم.

ثم أخبر بحال الناس في الآخرة، فقال: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ ﴾ أي: المؤمنون الموحدون الذين لزموا البر في أقوالهم وأفعالهم: ﴿ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ يوم القيامة، وهي جنة عدن يتنعمون بأنواع النعم من المآكل، والمشارب، والزوجات قال تعالىٰ: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّىٰ وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾[محمد: ١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[البقرة: ٢٥].

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ ﴾ الكفار سمو بذلك لفجورهم بمخالفة أمر الله جل جلاله: ﴿ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ في عذاب أليم يوم القيامة، والمراد بالفجار: هم الكفار.

﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ تُحرق أجسادهم، وتُذهب بهاؤها، وتُنغص حياتهم كما قال تعالىٰ: ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾[الأعراف: ٤١]، وقال: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾[النساء: ٥٦]، وقال: ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾[الحج: ١٩ - ٢٢] أسأل الله السلامة.

﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ لا يغيبون عنها ولا تغيب عنهم: ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾[الحج:٢٢].

ثم قال معظما لشأن يوم القيامة: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ تعظيم لشأن ذلك اليوم العظيم، يوم القيامة، ما أدراك ما يوم القيامة، ما أدراك ما يوم الجزاء.

﴿ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ تأكيدًا لهذا التعظيم.

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ﴾ أي: لا يملك الأب للابن، والزوجة للزوج، والصاحب للصاحب نفعاً ولا ضراً، بل إن نفسك لا تملك لنفسك شيئًا، فلا تستطيع أن تقدم أو تأخر إلا ما كان قد قدمته في الحياة، كما قال تعالىٰ: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[المدثر: ٣٨].

﴿ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ لقوله: ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾[الروم: ٤]، يكرم المؤمنين بالجنة، ويهين الكافرين بالنار ولا راد لحكمه ولا معقب لقضائه.

نسأل الله عز وجل السلامة والعافية.

والحمد لله رب العالمين.

سورة المطففين

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيم ﴾

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَىٰ النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ * كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَىٰ الْأَرَائِكِ

يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[المطففين:١-٣٦].

مكية، وذكر ابن كثير أنها مدنية، والذي يظهر الأول والله أعلم.

قال تعالىٰ: ﴿ وَيْلٌ ﴾ دعاء بالهلكة وإخبار عما يلحقهم من الخزي والعذاب الأليم في يوم القيامة، ﴿ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ أي: الذين ينقصون المكيال والميزان، والله عز وجل قد أمر بوفاء الوزن ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[الإسراء: ٣٥]

وتطفيفهم من جهتين:

الأول: استيفاء الحق إن كان لهم.

الثاني: نقصه إن كان لغيرهم.

وينبغي للإنسان أن يؤدي إلىٰ الناس الذي يحب أن يؤدىٰ إليه.

﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ كأنه يقول: المطففون هم الذي إذا اكتالوا علىٰ الناس يستوفون.

وعند ابن ماجه: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: " لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ كَانُوا مِنْ أَخْبَثِ النَّاسِ كَيْلًا، فَأَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ فَأَحْسَنُوا الْكَيْلَ بَعْدَ ذَلِكَ ".

وسند رجاله ثقات إلا علي ابن الحسين بن واقد ففيه كلام، وعلىٰ صحة هذا الحديث ستكون السورة مدنية، والله أعلم.

﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا ﴾ كالوا ما اشتروه، ﴿ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ اشتروا من الناس يستوفون ما لهم وزياده، ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ ﴾ إذا كالوا البيع منهم، ﴿ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ ينقصونهم علىٰ ما لهم.

وهذا دليل علىٰ حب الذات والبعد عن العدل، فأوعدهم الله عز وجل بالويل والثبور.

وفي الآية الدعوة إلىٰ الإنصاف وعن عَمَّارٌ رضي الله عنه قال: «ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الْإِيمَانَ: الْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ، وَالْإِنْفَاقُ مِنَ الْإِقْتَارِ».

وهي تطفيف المكيال والميزان بلية ابتلي به التجار، وإلا هي عبارة عن جرامات تزيد وجرامات تنقص، لا تضر المشتري ولا تنفع التاجر في الغالب، ولكنها فتنة؛ بسبب الجشع لدىٰ كثير من التجار والله المستعان.

﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ ﴾ ألم يستيقن هؤلاء الذين يطففون المكيال والميزان، ﴿ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾ محشورون إلىٰ الله عز وجل، ومجازون علىٰ أعمالهم، ﴿

لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهو يوم القيامة عظمته في طوله، وعظمته في الحساب فيه، وعظمته في أهواله، وعظمته في أن الله عز وجل يُبلي فيه السرائر إلىٰ غير ذلك.

﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وهذا من عظمته أن الناس يقومون لرب العالمين، يقوم أحدهم في رشحه إلىٰ أنصاف أذنيه.

وفي حديث الْمِقْدَادُ بْن الْأَسْوَدِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «تُدْنَىٰ الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّىٰ تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ» - قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ؟ أَمَسَافَةَ الْأَرْضِ، أَمِ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ - قَالَ: «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَىٰ قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَىٰ كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَىٰ حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا» قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ إِلَىٰ فِيهِ »، أخرجه مسلم.

موطن عظيم حين تقوم لرب العالمين وأنت تنتظر الجزاء، لاسيما المفرطون في طاعة الله عز وجل، عند ذلك يجدون الحسرة علىٰ ما حصل منهم ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾[الفجر:٢٤-٢٦]، فلا خلاص من الله إلا أن رحم الله، ولا رحمة من الله عز وجل إلا لأهل التوحيد الخالص، أما أهل الشرك والتنديد فقد قال عنهم: ﴿ إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيدًا ﴾[النساء:١١٦].

فاستحضر هذا الموقف عبد الله وهو الوقوف بين يدي الله عَنْ عَدِيٍّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ، فَلَا يَرَىٰ إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ، فَلَا يَرَىٰ إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَا يَرَىٰ إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»، متفق عليه.

وقال: ﴿ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، ولم يقل: لله، مع أن لفظ الجلالة (الله) هو الاسم الذي عليه مدار بقية الأسماء؛ ليدلل سبحانه وتعالىٰ أنه الخالق المالك المدبر الذي لا يعزب عنه شيء.

﴿ الْعَالَمِينَ ﴾: هم كل ما سوىٰ الله، وقيل: الجن والإنس.

﴿ كَلَّا ﴾ حقًا، ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ إن الله عز وجل قد قدر وكتب أن الفجار: الكفار يكونون في سجين، وسجين أسفل النار كما قال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾[التين:٥].

وفي حديث البراء رضي الله عنه: « اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَىٰ الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ»، أخرجه أحمد، وسمي سجين؛ لأنه سجن للكفار وبئس القرار.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ تعظيم لهذا الأمر الذين سيقعون فيه

﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ أي: أن هذا السجين مكتوب في كتاب مرقوم، وليس معناه أن سجين هو الكتاب المرقوم.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ إخبار بما يلحق الكفار يوم القيامة من الخزي والنكال والعذاب الأليم.

﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ يكذبون بيوم الجزاء والبعث والنشور؛ وذلك لأنهم يزعمون أن لا حياة بعد الموت.

﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ ﴾ أي: بيوم الدين ﴿ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ متعد لشرع الله سبحانه وتعالىٰ، أثيم في قوله وفعله، من الإثم الذي يتعاطاه وأعظمه الشرك بالله عز وجل، والتكذيب بالبعث والنشور وغير ذلك.

﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا ﴾ من صفات أنه إذا تتلىٰ عليه آيات القرآن ووحي الرحمن، ﴿ قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ هذا كتب مسطورة مكتوب عن الأمم السابقة، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[الفرقان:٥]، وقالوا ذلك مكابرة، وإلا فإنهم يعلمون بعد رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم عن ذلك.

﴿ كَلَّا ﴾ حقًا، أو أنها للزجر والردع، ﴿ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ حصل الران علىٰ قلوبهم، وهو ما يغطي القلوب؛ بسبب الذنوب والمعاصي، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ، سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّىٰ تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾» أخرجه الترمذي.

فتغطىٰ قلوبهم بالسواد حتىٰ لا تعرف معروفًا ولا تنكر منكرًا إلا ما أشرب من هواها.

وتأمل هذا فيمن حولك، إذا كان الإنسان من المبادرين إلىٰ طاعة الله عز وجل إذا وقعت منه المعصية يجد ثقلها ويجد حسرتها، ويبادر إلىٰ الاستغفار منها؛ ليستريح، وإذا كان العكس تقع منه المعصية ويفرح، ويستبشر بها، والله المستعان.

وفيه دليل علىٰ أن صلاح البدن عائد إلىٰ صلاح القلوب، كما قال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ».

وفيه دليل علىٰ أن الأعمال تؤثر علىٰ الإيمان، فإن هؤلاء ضعف إيمانهم وقل نصيبهم؛ بسبب ما يكسبونه من الأعمال السيئة، كما قال تعالىٰ: ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾[آل عمران: ١٨٢].

﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ أي: حقاً أن المكذبين الذين تقدم ذكر أوصافهم يوم القيامة عن ربهم لمحجوبون، لا يرونه.

وبهذه الآية استدل الشافعي رحمه الله علىٰ أن المؤمنين يرون ربهم، فقد أخرج اللالكائي، عن الربيع بن سليمان قال: "حضرت محمد بن إدريس الشافعي، جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قوله تعالىٰ: ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾، قال الشافعي: "فلما حجبوا هؤلاء في

السخط، كان هذا دليلا علىٰ أنه يرونه في الرضا. قال الربيع: قلت يا أبا عبد الله وبه تقول؟ قال: نعم به أدين الله".

وبهذا احتج من احتج من أهل السنة أن الحجب لا يكون إلا بعد رؤية، وذهبوا إلىٰ أن كل من في الموقف يرىٰ الله عز وجل، ثم يحتجب عن الكفار، ودليل ذلك حديث أبي سعيد رضي الله عنه في الصحيحين: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ نَاسًا فِي زَمَنِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَىٰ رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَعَمْ» قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ؟ وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: " مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، فَلَا يَبْقَىٰ أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغُبَّرِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَيُدْعَىٰ الْيَهُودُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ قَالُوا: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَىٰ النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَىٰ النَّصَارَىٰ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللهِ، فَيُقَالُ

لَهُمْ، كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ تَعَالَىٰ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي أَدْنَىٰ صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا قَالَ: فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، قَالُوا: يَا رَبَّنَا، فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ، وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ لَا نُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، حَتَّىٰ إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلَا يَبْقَىٰ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ اللهُ لَهُ بِالسُّجُودِ، وَلَا يَبْقَىٰ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلَّا جَعَلَ اللهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَىٰ قَفَاهُ، ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَىٰ جَهَنَّمَ، وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ، وَيَقُولُونَ: اللهُمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ " قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: " دَحْضٌ مَزِلَّةٌ، فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّىٰ إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً لِلَّهِ

فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ، فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَىٰ النَّارِ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدِ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَىٰ نِصْفِ سَاقَيْهِ، وَإِلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ، فَيَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا، ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَدًا، ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا »، وَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ يَقُولُ: إِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي بِهَذَا الْحَدِيثِ فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[النساء: ٤٠]، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: نَهَرُ الْحَيَاةِ، فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، أَلَا تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَىٰ الْحَجَرِ، أَوْ إِلَىٰ الشَّجَرِ، مَا يَكُونُ إِلَىٰ الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وَأُخَيْضِرُ، وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَىٰ الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضَ؟ " فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرْعَىٰ بِالْبَادِيَةِ، قَالَ: "

فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِمُ، يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ اللهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ، وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، ثُمَّ يَقُولُ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا، أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولُ: لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا، فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا، أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؟ فَيَقُولُ: رِضَايَ، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا».

وعموم أدلة اللُّقِيِّ فإن اللُّقِيّ لا يكون إلا مع الرؤية.

﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾ أي: بعد المحشر وما يلحقهم فيه من الخزي، واللعن، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَلا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾[هود:١٨]، يدخلون الحميم، فيصلون الجحيم ويعذبون فيها.

﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ يقال لهم علىٰ سبيل التبكيت والتحقير والإهانة كما قال الله عز وجل في الآية الأخرىٰ: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ * إِنَّ هَذَا مَا كُنتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾[الدخان:٤٩-٥٠]، أي: أن هذا العذاب والخزي الذي أنتم فيه ما كنتم تكذبون به في الدنيا وتستبعدون وقوعه.

ولما ذكر الله عز وجل حال الكافرين ناسب أن يذكر حال المؤمنين، وهذا في أغلب القرآن أنه إذا ذكر حال المشركين ذكر حال المؤمنين، وإذا ذكر حال

المؤمنين ذكر حال المشركين؛ كالترهيب من طريق الكافرين، والترغيب في طريق المؤمنين.

﴿ كَلَّا ﴾ حقًّا، ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ أي: مكتوب في اللوح المحفوظ أن الأبرار سوف يكونون في عليين.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ تعظيمًا لشأن الجنة، وفي حديث البراء: «اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ» في السماء السابعة، أخرجه أحمد، وقد قال بعض أهل العلم: هي الجنة ولا معارضة، فإن الجنة أشرف ما فيها.

﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أي: أنه مكتوب عند ملائكته المقربين، يطلعون عليه، ويعلمون ما أعد الله عز وجل للمؤمنين في جنة النعيم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ اللهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ. فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾. أخرجه البخاري.

ثم قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ ﴾ إن المؤمنين أصحاب البر والصلاح، ﴿ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ في نعيم وسعة خير في جنة عالية قطوفها دانية.

ونعيمها في جميع شؤونها، في النظر إلىٰ ربهم، وفي لبسهم، وفي أكلهم وفي تبعلهم، وفي جلوسهم: ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾ إلىٰ ربهم يوم القيامة، جاء في بعض الروايات: «غدوة وعشية».

ويُرَىٰ الله عز وجل في موطنين:

الموطن الأول: في المحشر، ودل عليه بالمفهوم قول الله عز وجل: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾[المطففين:١٥].

وبالمنطوق قول الله عز وجل: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[القيامة:٢٢-٢٣].

الموطن الثاني: في الجنة، ودل عليه هذه الآية، وقوله عز وجل: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[يونس:٢٦]. وقوله: ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾[ق:٣٥]، وفي حديث صهيب تفسير الزيادة بأنه النظر إلىٰ وجه الله عز وجل. أخرجه مسلم.

وحال المؤمنين وصفاتهم أنك: ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ ﴾ بنظرك إلىٰ وجوه المؤمنين تلاحظ ذلك، ﴿ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ البهاء؛ لأن المستريح يُرىٰ خيره في وجهه، والمعذب يُرىٰ شؤمه في وجهه، فحين يُرىٰ المؤمنين يوم القيامة تُشاهد النظارة في وجوههم؛ دليل علىٰ راحتهم وسعة حالهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾[القيامة: ٢٢].

﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴾ أي: لهم في الجنة نعيم عظيم وخير عميم ومنه أنهم يسقون شرابًا من رحيق مختوم نوع من الخمر.

﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ أي: مختوم بالمسك وقيل آخره مسك، وقيل مخلوط بالمسك.

﴿ وَفِي ذَلِكَ ﴾ أي: في هذا النعيم المقيم والخير العميم، ﴿ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ بامتثال أمر رب العالمين، وأهم ما يمتثل هو التوحيد؛ لأن الله عز وجل أرسل به الرسل وأنزل به الكتب، ولأن تضييعه تضييع لصلاح الدارين، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾[المائدة: ٧٢].

وفيه: فضيلة المسابقة إلىٰ الخيرات، وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[آل عمران:١٣٣]،﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾[البقرة: ١٤٨]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا»، أخرجه مسلم.

والمذموم هو التنافس في الدنيا؛ لقول النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «لا تنافسوا».

﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ أي: ممزوج هذا الشراب: من تسنيم، قيل شراب ينزل من السماء، وقيل: شيء ظاهر كالسنام وقيل بأن ﴿ تَسْنِيمٍ ﴾: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ فيكون من تفسير القرآن بالقرآن أي: يشرب منها المقربون، هذا الشراب الذي يشربونه من رحيق مختوم: الذين قربوا إلىٰ الله عز وجل بأعمالهم الصالحة؛ لأن الناس ليس بينهم وبين الله سبب ولا نسب إلا أن يعمل الإنسان بالتوحيد الخالص، فيقرب من ربه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ:

أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»، متفق عليه.

ولما أخبر بحال المؤمنين وما فيه من الخير العميم والفضل العظيم قال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ كفروا بالله عز وجل وتمردوا علىٰ شرعه ورسله، ﴿ كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ في الدنيا بل إنهم كانوا يتضاحكون علىٰ النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- حتىٰ يرجع بعضهم إلىٰ بعض في ناديهم، ففي مسلم: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، وَقَدْ نُحِرَتْ جَزُورٌ بِالْأَمْسِ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَىٰ سَلَا جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ، فَيَأْخُذُهُ فَيَضَعُهُ فِي كَتِفَيْ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَانْبَعَثَ أَشْقَىٰ الْقَوْمِ فَأَخَذَهُ، فَلَمَّا سَجَدَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، قَالَ: فَاسْتَضْحَكُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ عَلَىٰ بَعْضٍ وَأَنَا قَائِمٌ أَنْظُرُ، لَوْ كَانَتْ لِي مَنَعَةٌ طَرَحْتُهُ عَنْ ظَهْرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالنَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَاجِدٌ مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ حَتَّىٰ انْطَلَقَ إِنْسَانٌ فَأَخْبَرَ فَاطِمَةَ، فَجَاءَتْ وَهِيَ جُوَيْرِيَةٌ، فَطَرَحَتْهُ عَنْهُ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تَشْتِمُهُمْ، فَلَمَّا قَضَىٰ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاتَهُ، رَفَعَ صَوْتَهُ، ثُمَّ دَعَا عَلَيْهِمْ، وَكَانَ إِذَا دَعَا دَعَا ثَلَاثًا، وَإِذَا سَأَلَ سَأَلَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «اللهُمَّ، عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ» ثَلَاثَ

مَرَّاتٍ، فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَهُ ذَهَبَ عَنْهُمُ الضِّحْكُ، وَخَافُوا دَعْوَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: «اللهُمَّ، عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ» - وَذَكَرَ السَّابِعَ وَلَمْ أَحْفَظْهُ - فَوَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ، لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ سَمَّىٰ صَرْعَىٰ يَوْمَ بَدْرٍ، ثُمَّ سُحِبُوا إِلَىٰ الْقَلِيبِ - قَلِيبِ بَدْرٍ - قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: «الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ غَلَطٌ فِي هَذَا الْحَدِيثِ»، فجازاهم الله عز وجل عن ذلك في يوم القيامة.

﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ أي: إذا مر الكفار بالمؤمنين ينظر بعضهم إلىٰ بعض ويغمزونهم بالكلام والفعال فيقولون هؤلاء كذا وهؤلاء كذا؛ احتقارًا وازدراء.

﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ ﴾ أي: الكفار في الدنيا، ﴿ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ ينقلبون علىٰ حال سرور؛ بسبب سخريتهم وإهانتهم للمؤمنين، ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ ﴾ أي: رأوا المؤمنين في الدنيا، ﴿ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ وهذا من تقليب الحقائق كما قال فرعون: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾[غافر:٢٩].

كيف يصبح عابد الصنم هو المهتدي وعابد الله عز وجل هو الضال، هذا شيء عجاب.

﴿ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ أي: أن المشركين لم يرسلوا على المؤمنين ليحفظون أعمالهم ويراقبونهم في كل صغيرة وكبيرة، بل إن الله عز وجل قد جعل ملائكة: ﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[الانفطار:١١-١٢]، يسطرون أعمال جميع الناس.

فلماذا هؤلاء الكفار يراقبون حال المؤمنين إن مَنَّ الله عليهم بسعة طعنوا فيهم، وإن ضُيق عليهم في معائشهم سخروا منهم، وإن مرض أحدهم ضحكوا عليه، وإن تأخر الوحي سخروا منه، حتى قالت تلك المرأة: ما أرى محمدًا إلا قد قلاه ربه.

سبحان الله! أنتم تقولون أن محمدًا ساحر كاهن عراف كذاب -هكذا يزعمون-، فلماذا حين فتر الوحي تزعمون أن الله قد قلاه، فأنزل الله عز وجل: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾[الضحى:٣]، أي: ما تركك ولا قلاك ولا كرهك.

﴿ فَالْيَوْمَ ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ جزاءً وفاقًا، والجزاء من جنس العمل، كان الكفار يضحكون على المسلمين في الدنيا فكان الجزاء أن المسلمين يضحكون عليهم في الآخرة، قال تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ

﴿ وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾[الصافات:٥٠-٥٩].

وقال الله عز وجل﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾[الأعراف:٤٤].

فدار الدنيا دار اختبار وابتلاء، قد يبتلىٰ فيها المؤمن ويمحص، ودار الآخرة هي دار عز المؤمنين، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»، أخرجه مسلم.

وضحك المؤمنين علىٰ الكفار حال جلوسهم: ﴿ عَلَىٰ الْأَرَائِكِ ﴾ يتمتعون ومن أعظم نعيمهم أنهم: ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ ينظرون إلىٰ ربهم وينظرون إلىٰ نعيمهم الذي في الجنة، وربما نظروا إلىٰ أهل النار، ويحمدون الله عز وجل علىٰ ما هم فيه من السلامة.

والأرائك: هي السرر المرتفعة، تكون تحت الخمائل.

﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ ﴾ هل جوزي الكفار، ﴿ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أي: علىٰ الذي كانوا يفعلونه من الأعمال الطالحة والجواب: نعم، يجازون يوم القيامة علىٰ عملهم سوء الجزاء والله أعلم.

سورة الانشقاق

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا * إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا * إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ * بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا * فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ * فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾[الانشقاق:١-٢٥].

مكية.

يقول الله عز وجل: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ في حديث ابن عُمَرَ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾، وَ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾، وَ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾»، أخرجه أحمد.

فيقول تعالىٰ: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ أي: تشققت وذهب ترابطها، وسقطت نجومها وانكدرت كواكبها.

﴿ وَأَذِنَتْ ﴾ أصغت، والأذن هو الاستماع والمعنىٰ أنها أصغت لكلام ربها وأمره بالتشقق، ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ حق لها أن تلتزم أمر الله عز وجل؛ لأنه لا يعجزه شيء، وإن تمردت علىٰ أمره فإنما هو قائل: كن فيكون، ولذلك حين عرضت عليها الأمانة أبت أن تقبلها: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[الأحزاب:٧٢].

﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ قيل وسعت يوم القيامة حين يحشر الناس عليها، ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ ألقت ما فيها من المدفونين في قبورها وما قد حملت من أصناف المخلوقين، فإنهم يبعثون يوم القيامة حفاة عراة غرلًا كما قال الله: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾[الزلزلة:٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾[الانفطار:٤].

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ استمعت لكلام ربها، ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ حق لها ذلك؛ لأنها مخلوقة مأمورة بطاعة الله عز وجل.

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ ﴾ نداء للإنسان المكلف، ﴿ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ إنك صائر إلىٰ الله، وإنك في طريقك إلىٰ الله، ﴿ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ يوم القيامة.

واللُّقِيّ يكون معه النظر، حتىٰ نقل ابن خزيمة وابن القيم وغير واحد علىٰ ذلك الإجماع، وهو مما استدل به أهل العلم علىٰ رؤية جميع من في الموقف الرب عز وجل ثم يحتجب عن الكافرين.

فكل إنسان كادح إلىٰ ربه المؤمن، والكافر، إلا أن المؤمن يكون كدحه وسيره بالأعمال الصالحة المقربة من الله عز وجل، والفاجر بعكسه، فحال المؤمن كما قال الله عز وجل: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ ﴾[الأحزاب:٤٤]، هذا المؤمنون، وحال المجرم كما قال تعالىٰ: ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾[النبأ:٤٠]..

ذكر الله عز وجل أصناف الناس في يوم القيامة: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ وهم أهل الإيمان، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾[الحاقة: ١٩]، وقال: ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[الإسراء: ٧١].

﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ أي: تعرض أعماله عليه، ففي حديث ابن عمر رضي الله عنه قال: «إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ. حَتَّىٰ إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَىٰ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَىٰ كِتَابَ حَسَنَاتِهِ»، أخرجه مسلم.

وفي مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا

مِنْهَا، رَجُلٌ يُؤْتَىٰ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ، قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَا هُنَا» فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ.

وقد فسر النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- الحساب بالعرض: فَعَنْ عَائِشَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ». قَالَتْ: قُلْتُ: أَلَيْسَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾؟ قَالَ: «ذَلِكِ الْعَرْضُ». أخرجه البخاري ومسلم؛ لأن النقاش إنما يقع من الكافرين المعرضين الكذابين ومن إليهم من المنافقين، وأما المؤمن حين يوقف بين يدي الله عز وجل هو عالم بأن الله مطلع عليه لا تخفىٰ عليه خافية، فما يكون منه إلا أن يعترف لله عز وجل بكل ذنب حصل منه، فيتجاوز الله ويعفو ويصفح؛ لأنه العفو الغفور سبحانه وتعالىٰ.

﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ بعد العرض والحساب ينقلب إلىٰ أهله في الجنة مسرورًا فرحًا بما أكرمه الله عز وجل من الكرامة، ومنها قول رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا

فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا» أخرجه مسلم.

ومن الكرامات النظر إلىٰ وجه الله العظيم، والشرب من حوض النبي الكريم، وشفاعة النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- فيهم وغير ذلك.

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ الكفار، يؤتون كتبهم من وراء ظهورهم بشمائلهم، وهو معنىٰ قول الله عز وجل: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴾[الحاقة:٢٥]؛ لما فيه من الأعمال السيئة الدالة علىٰ فساد ظاهره وباطنه.

﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴾ يدعو علىٰ نفسه بالويل والثبور، والحال كما قال الله تعالىٰ: ﴿ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾[الفرقان: ١٤] ادعوا علىٰ أنفسكم بالهلاك الكثير، فلن يستجاب لكم، ويخلَّدون في نار جهنم: ﴿ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾[فاطر:٣٦].

﴿ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾ يُلقىٰ في النار تحيط به من جميع جوانبه والله المستعان، ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾[النساء:٥٦].

وسبب الخزي الذي هو فيه: ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ فأمن مكر الله عز وجل، والله يقول: ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[الأعراف: ٩٩]، أمن في الدنيا فخاف في الآخرة، والمؤمن خاف في

الدنيا فأمن في الآخرة: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[يونس: ٦٢-٦٣].

وعند ابن حبان: عن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صلىٰ الله عَلَيْهِ وَسلم عَن الله سُبْحَانَهُ أَنه قَالَ: «وَعِزَّتِي لَا يجْتَمع علىٰ عبد خوفان وأمنان: إِذا خافني فِي الدُّنْيَا أمنته يَوْم الْقِيَامَة، وَإِذا أمنني فِي الدُّنْيَا أخفته يَوْم الْقِيَامَة».

﴿إِنَّهُ ظَنَّ﴾ أي تيقن؛ لأن الظن يأتي بمعنىٰ اليقين، ﴿أَن لَّن يَحُورَ﴾ أن لن يرجع إلىٰ الله عز وجل، كان مستيقناً بذلك، بل كان يستبعد الرجوع إلىٰ الله عز وجل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[السجدة:١٠].

﴿بَلَىٰ﴾ إنه سيرجع، وزد علىٰ ذلك: ﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ كان به عليمًا مطلعًا علىٰ جميع أعماله، زد علىٰ ذلك أن الله قد وكَّل ملائكة يكتبون ما عليه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[الزخرف:٨٠].

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ أي: أقسم بالشفق وهو الحمرة، وقيل البياض، والصحيح أن الشفق اسم لمجموعهما: الحمرة والبياض، وهو الضوء الذي يكون بعد غروب الشمس، إلا أن الشفق الذي تتعلق به صلاة العشاء هو الحمرة.

﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ وأقسم بالليل، وما ضم وجمع، ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ وأقسم بالقمر إذا كمل وتتام، ويكون ذلك في نصفه.

﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ حالًا بعد حال قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾: حَالًا بَعْدَ حَالٍ، قَالَ: هَذَا نَبِيُّكُمْ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" أخرجه البخاري، والله أعلم.

﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي: ما الذي جعل الكفار يعرضون عن الإيمان والتزام شرع الله عز وجل مع توافر الحجج وظهورها: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ مع أن القرآن فيه من المواعظ والذكرىٰ ما تتشقق به الحجارة، قال الله عز وجل: ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الحشر:٢١]، وقال الله عز وجل: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ... ﴾[الرعد:٣١]، أي: لو كان شيء مقروء ومكتوب تسير به الجبال الرواسي، وتقطع به الأرض الصلبة، لكان هذا القرآن الذي بكت من قراءته قلوب المؤمنين ووجلت: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[الأنفال:٢]، وازداد به قساوة قلوب الكافرين، فما لهم لا يؤمنون بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد -صلىٰ الله عليه وسلم- نبيًا.

﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ ﴾ سواءً من غيرهم أو قرأوه هم، ﴿ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ تعظيمًا لله عز وجل.

وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ، فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ»، وَفِي رِوَايَةِ أَبِي كُرَيْبٍ: «يَا وَيْلِي، أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ، فَسَجَدَ، فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ، فَأَبَيْتُ، فَلِي النَّارُ». أخرجه مسلم.

وقد قرأ النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- سورة الانشقاق في صلاة العشاء وسجد، كما جاء من حديث أبي هريرة في الصحيحين عَنْ أَبِي رَافِعٍ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ الْعَتَمَةَ فَقَرَأَ: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾، فَسَجَدَ فَقُلْتُ لَهُ: قَالَ: سَجَدْتُ خَلْفَ أَبِي الْقَاسِمِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَا أَزَالُ أَسْجُدُ بِهَا حَتَّىٰ أَلْقَاهُ". متفق عليه.

﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ والسبب الذي جعلهم لا يؤمنون وإذا قُرِئ عليهم القرآن لا يسجدون؛ أنهم يكذبون بوعد الله ووعيده، ويكذبون محمد -صلىٰ الله عليه وسلم- الذي أرسل إليهم: ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾[الذاريات:٥٢]، فبسبب اعتقادهم أنه ساحر أو مجنون كذبوه وردوا دعوته.

ولما أخبرهم صلىٰ الله عليه وسلم أنه أسري به إلىٰ بيت المقدس، كلهم تعاظم ذلك، مع أنه وصف لهم بيت المقدس وصفًا دقيقًا، بينما المؤمنون إذا

أخبروا بشيء قالوا آمنا وصدقنا، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّىٰ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَىٰ النَّاسِ فَقَالَ: «بَيْنَما رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً، إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا، فَقَالَتْ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهَذَا، إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ»، فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللهِ، بَقَرَةٌ تَكَلَّمُ ؟ فَقَالَ: «فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»، وَمَا هُمَا ثَمَّ: «وَبَيْنَمَا رَجُلٌ فِي غَنَمِهِ إِذْ عَدَا الذِّئْبُ فَذَهَبَ مِنْهَا بِشَاةٍ، فَطَلَبَ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ اسْتَنْقَذَهَا مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ الذِّئْبُ: هَذَا اسْتَنْقَذْتَهَا مِنِّي، فَمَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ؟ يَوْمَ لَا رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي». فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللهِ، ذِئْبٌ يَتَكَلَّمُ؟ قَالَ: «فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ »، وَمَا هُمَا ثَمَّ»، متفق عليه.

فكان الصحابة رضوان الله عليهم علىٰ غاية من تصديق النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-، وكان الكفار علىٰ غاية من تكذيبه فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَرَهْطَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾؛ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّىٰ صَعِدَ الصَّفَا، فَهَتَفَ: «يَا صَبَاحَاهْ». فَقَالُوا: مَنْ هَذَا؟ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ؟ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟» قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ». قَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ، مَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا. ثُمَّ قَامَ، فَنَزَلَتْ: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾، وَقَدْ تَبَّ هَكَذَا قَرَأَهَا الْأَعْمَشُ يَوْمَئِذٍ ». متفق عليه.

ويقول هرقل لأبي سفيان: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَىٰ النَّاسِ، وَيَكْذِبَ عَلَىٰ اللهِ» متفق عليه.

وقد يكون تكذيبهم أيضا بسبب ما عندهم من الحسد والكبر والعناد: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[الصافات:٣٥].

﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي: والله مطلع ومحصي لما هم عليه من الحال، وبما جمعوه في قلوبهم من الكبر والحسد والبغي والغل الذي أوجب لهم عدم الدخول في الإسلام.

ومما يدل علىٰ ذلك أن أبا جهل قيل له: لماذا كفرتم بمحمد -بمعنىٰ الأثر-: «إِنَّا كُنَّا وَأَنْتُمْ كَفَرَسَيْ رِهَانٍ فَاسْتَبَقْنَا الْمَجْدَ مُنْذُ حِينٍ، فَلَمَّا تَحَاذَتِ الرُّكَبُ قُلْتُمْ مِنَّا نَبِيٌّ، فَمَا بَقِيَ إِلَّا تَقُولُوا مِنَّا نَبِيَّةٌ، لَا أَعْلَمُ فِي قُرَيْشٍ أَهْلَ بَيْتٍ أَكْذَبَ رَجُلًا، وَلَا أَكْذَبَ امْرَأَةً مِنْكُمْ، فَآذَوْهُ يَوْمَئِذٍ أَشَدَّ الْأَذَىٰ» أي: العباس رضي الله عنه.

﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ بما يكتمون، ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أخبرهم أن لهم عذابًا شديدًا في القيامة

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ استثنىٰ الله عز وجل أهل الإيمان والعمل الصالح، الذين يلتزمون شرع الله ظاهرًا وباطنًا، ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ لهم جزاء علىٰ إيمانهم وأعمالهم الصالحة، ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع، كما قال

تعالىٰ: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾، وقال: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[هود: ١٠٨]، إذ أكرمهم الله عز وجل بدخولهم الجنة كانوا في خلود لا موت، يتنعمون، ويأكلون، ويشربون ويلبسون، ولا ينامون؛ لأن النوم أخو الموت، فينعم المؤمنون نعيمًا كاملًا تامًا في جميع أوقاتهم ولحظاتهم.

ومن أعظم نعيم الجنة النظر إلىٰ وجه الله عز وجل، ولذلك كان النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- يقول: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَىٰ لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ».

والحمد لله رب العالمين.

سورة البروج

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنَّ الَّذِينَ

فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ * إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ * وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ * بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[البروج:١-٢٢].

البروج من السور المكية، وكان النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- يقرأ بها في صلاة العشاء، فعن جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «كَانَ يَقْرَأُ فِي الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ بِالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ، وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ وَنَحْوِهِمَا مِنَ السُّوَرِ»، وأمر معاذ ابن جبل رضي الله عنه أيضًا أن يقرأ بها في صلاة العشاء قائلًا: «أَتُرِيدُ أَنْ تَكُونَ فَتَّانًا يَا مُعَاذُ ؟ إِذَا أَمَمْتَ النَّاسَ فَاقْرَأْ بِـ ﴿ الشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾، وَ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ ﴾، وَ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾، ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾»، متفق عليه «يَا مُعَاذُ أَفَتَّانٌ أَنْتَ؟ اقْرَأْ سُورَةَ: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾، وَ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ ﴾، ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾».

قوله: ﴿ وَالسَّمَاءِ ﴾ أقسم الله عز وجل بالسماء العالية، ﴿ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ أي: ذات المنازل والنجوم السيارة، وقيل بأن البروج هي منازل الشمس والقمر، وقيل بأنها النجوم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا

وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾[الحجر١٦]، وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾[الفرقان:٦١].

﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾ وأقسم الله عز وجل أيضًا باليوم الموعود وهو يوم القيامة؛ لأنه آت لا محاله، وأقسم به لأنه يوم عظيم فيه من الأهوال ما الله به عليم.

﴿ وَشَاهِدٍ ﴾ يوم الجمعة، ﴿ وَمَشْهُودٍ ﴾ يوم عرفة، وقيل الشاهد: محمد -صلىٰ الله عليه وسلم-، والمشهود: يوم القيامة، وقيل بأن الشاهد: هو الله والمشهود: هو مخلوقاته، قال البغوي: الأكثرون علىٰ أن الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، وهو لفظ عام حيث أقسم الله عز وجل بالشاهد والمشهود ما كان.

وفي مسند أحمد قَالَ: " الشَّاهِدُ: يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَالْمَشْهُودُ: يَوْمَ عَرَفَةَ، وَالْمَوْعُودُ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

﴿ قُتِلَ ﴾ أي: لُعِنَ وأهلك: ﴿ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ أي: الكفار الذين خدوا الأخاديد في الأرض وأضرموا فيها النيران؛ لإحراق المؤمنين وامتهانهم.

وقد اختلفوا في أصحاب الأخدود فقيل: بأنهم قوم من فارس أراد ملكهم أن يحل المحارم فأبىٰ علماءهم فأحرقهم، وقيل: بأنهم قوم من الحبشة،

وقيل: قوم من اليمن، وقيل غير ذلك، ومن أصرح ما جاء في ذلك مرفوعا عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم حديث صهيب عند مسلم: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ، فَأَعْجَبَهُ، فَكَانَ إِذَا أَتَىٰ السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَىٰ السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَىٰ الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي. وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَىٰ عَلَىٰ دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ، حَتَّىٰ يَمْضِيَ النَّاسُ. فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَىٰ النَّاسُ، فَأَتَىٰ الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ، أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَىٰ، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَىٰ، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ. وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي. فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ. فَآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ، فَأَتَىٰ الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ ؟ قَالَ: رَبِّي. قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي ؟ قَالَ: رَبِّي

وَرَبُّكَ اللهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّىٰ دَلَّ عَلَىٰ الْغُلَامِ، فَجِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ، قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ. فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّىٰ دَلَّ عَلَىٰ الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَىٰ فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ، حَتَّىٰ وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَىٰ، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ، حَتَّىٰ وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَىٰ، فَدَفَعَهُ إِلَىٰ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَىٰ جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ، فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ، فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَىٰ الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ. فَدَفَعَهُ إِلَىٰ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ، فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ، فَغَرِقُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَىٰ الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ. فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّىٰ تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَىٰ جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا

فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَىٰ جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبْدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ. ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ، فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ، فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ. فَأُتِيَ الْمَلِكُ، فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ، قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ. فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ، وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ. فَفَعَلُوا حَتَّىٰ جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهِ اصْبِرِي، فَإِنَّكِ عَلَىٰ الْحَقِّ».

﴿ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴾ أي: النار التي أضرموها والتهبت نيرانها وألقوا فيها الناس أحياء، وهذا منظر فضيع، وظلم عظيم.

﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ أي: أن الكفار كانوا قاعدين علىٰ هذه النار؛ يرصدون عذاب الناس ويلقون من تردد فيها، ومن ارتد عن دينه تركوه، وهذا من أبشع الأحوال.

﴿ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ أي: أنهم مطلعون علىٰ هذا الحال ويرقبون عذاب المؤمنين، ومعناها أيضًا حضور، وهم في فعلهم بالمؤمنين حضور لهذا لموقف.

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ ﴾ أي: ما نقموا من المؤمنين: ﴿ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ ﴾ لم يكن من المؤمنين قتل نفس، ولا قطع طريق، ولا انتهاك عرض، ولا ما يستوجب أن يقتلوا، إلا أنهم آمنوا بالله ربًا وبالإسلام دينًا.

وعموم هذه الآية ينطبق علىٰ كل من حارب حملة دين الله وقتلهم أو قاتلهم، لا لذنب اقترفوه، ولا لجرم حصلوه؛ إلا أنهم اعتقدوا الحق ودعوا إليه، ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ ذو العزة، ﴿ الْحَمِيدِ ﴾ المتصف بالمحامد والمكارم.

﴿ الَّذِي ﴾ أي: الله العزيز الحميد: ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ وما بينهما، ﴿ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ مطلع ولكنه سُبحانه وتعالىٰ يملي للظالم حتىٰ إذا أخذه لم يفلته، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[هود: ١٠٢].

ومن أسمائه سبحانه وتعالىٰ الشهيد، فهو عالم بالعالم المشهود وغير المشهود، كما قال تعالىٰ: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾[الأنعام:٧٣]، وهو المطلع الحاضر الذي لا يغيب عنه شيء، في الليلة الظلماء علىٰ حجرة سوداء نملة سوداء تسير، فيبصرها ويعلم حالها، لا تخفىٰ عليه خافية.

ثم قال عز وجل متوعدًا أهل الإجرام: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ بالتحريق والرد عن دينهم، ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ﴾ من هذا الأمر العظيم، قال الحسن: " ما أحلم الله؛ يقتلون أولياءه ثم يدعوهم إلىٰ التوبة ".

والله إن في هذا دلالة علىٰ عظم التوبة؛ لأنها مكفرة للذنوب والمعاصي والسيئات، فإن من تاب إلىٰ الله تاب الله عليه وأبدل سيئاته حسنات، كما قال عز وجل: ﴿ إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾[الفرقان: ٧٠].

وقد أحرقوا المؤمنين وعذبوهم ونكلوا بهم، فأخبر أنهم لو تابوا تاب عليهم وارتفعت عنهم المطالبة والمؤاخذة.

﴿ فَلَهُم ﴾ أي: من مات علىٰ كفره وعناده وظلمه، ﴿ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل وكما تدين تدان، ولا سواءً؛ فإنهم أحرقوا المؤمنين بنار ضعيفة ويحرقون بنار قوية تزيد عليها بتسعة وستين جزءًا، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا، مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ» قَالُوا: وَاللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً، يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا»، أخرجه مسلم.

ثم قال الله عز وجل مخبرا عن حال المؤمنين في الآخرة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إن الذين آمنوا بالله بقلوبهم، وانقادوا بجوارحهم، ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ إلتزموا العمل الصالح في أنفسهم، ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ ﴾ جمع جنة وهذا وعد عظيم، فلهم بساتين عظيمة، وقصور عالية رفيعة ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ أنهار الخمر واللبن والماء والعسل المصفىٰ كما قال تعالىٰ: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ

الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾[محمد: ١٥]، ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ هذا هو الفوز الذي ليس بعده فوز، فإن المؤمن إذا أدخل الجنة يقال له: «يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ» ينسىٰ كل شيء، ينسىٰ كل ما نزل به من ظلم وقهر وعذاب وشدة وضيق حال، «هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا».

وهكذا الكافر إذا أغمس غمسة في النار قال الله له: «يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ، لَا وَاللهِ يَا رَبِّ» أخرجه مسلم.

وقال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[آل عمران: ١٨٥]، وقال: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ منازل يسلمون فيها من كل آفة وبليه.

ثم قال الله عز وجل متوعدا للكفار في كل زمن وحين: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ ﴾ إن بطش الله وانتقامه للمخالفين لدينه وشرعه، والمحاربين لأوليائه من رسله ومن دونهم، ﴿ لَشَدِيدٌ ﴾ إلا أنه يملي للظالم حتىٰ إذا أخذه لم يفلته: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[هود:١٠٢].

﴿ إِنَّهُ ﴾ أي: الرب عز وجل من قوته وقدرته: ﴿ هُوَ يُبْدِئُ ﴾ الخلق من العدم، ﴿ وَيُعِيدُ ﴾ النشأة الآخرة يوم القيامة، كما قال تعالىٰ: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾[طه:٥٥].

﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ ﴾ المتجاوز العافي عن عباده المؤمنين، ﴿ الْوَدُودُ ﴾ المحبوب من أوليائه والمحب لأوليائه، فإن الود هو صافي المحبة، قال تعالىٰ: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾[المائدة:٥٤]. ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾[هود:٩٠].

واقتران هذا الاسم باسم الرحيم والغفور؛ يدل علىٰ تجاوز الله عن أوليائه ومحبته لهم، فكل من تاب إلىٰ الله وغفرت ذنوبه كان محبوبًا عند الله عز وجل، فعن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَىٰ رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَىٰ شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ». أخرجه مسلم.

ومن وده لأوليائه: أنه يدافع عنهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾[الحج:٣٨].

ومن وده لهم: أنه يهديهم ويثبتهم، كما قال: ﴿ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[المائدة:١٦].

ومن وده لأوليائه: أن يوفقهم لكل خير: «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»، أخرجه البخاري.

ومن وده لأوليائه: أنه يغضب لغضبهم ويرضىٰ لرضاهم، فعَنْ عَائِذِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَتَىٰ عَلَىٰ سَلْمَانَ، وَصُهَيْبٍ، وَبِلَالٍ فِي نَفَرٍ، فَقَالُوا: وَاللهِ مَا أَخَذَتْ سُيُوفُ اللهِ مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ اللهِ مَأْخَذَهَا، قَالَ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ ؟ فَأَتَىٰ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ، لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ». فَأَتَاهُمْ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا اخْوَتَاهْ، أَغْضَبْتُكُمْ؟ قَالُوا: لَا، يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أَخِي ". أخرجه مسلم.

ووده لأوليائه ظاهر في حركاتهم وسكناتهم، وأعظم ما يكرمون به أنهم يرزقون الرؤية إلىٰ وجهه يوم القيامة.

فلما أخبر عن شدة بطشه، وأخبر عن قدرته علىٰ البدأة والإعادة أتىٰ بالإخبار أنه الغفور الودود؛ حتىٰ لا يقع المسلم في القنوط من رحمة الله، وإنما يبطش الله عز وجل بالكافرين والمحاربين لدينه وشرعه، كما قال

تعالىٰ: ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴾[الكهف:٥٩].وقال: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ﴾[العنكبوت:٤٠].

ثم وصف نفسه المقدسة بقوله: ﴿ ذُو الْعَرْشِ ﴾ أي: أن الله هو صاحب العرش، وذكره دون غيره؛ لشرفه أعلىٰ المخلوقات وأعظمها، وعليه استوىٰ الرب الأعلىٰ سبحانه وتعالىٰ، فهو عرش كريم عظيم واسع، ﴿ الْمَجِيدُ ﴾ هذا وصف لله عز وجل، أي أنه الواسع المعظم الممجد، وعلىٰ قراءة: الجر (في) أي: أن العرش واسع، وفي الأثر: «مَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ فِي الْكُرْسِيِّ، إِلَّا بِمَنْزِلَةِ حَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ»، فالعرش مخلوق عظيم واسع؛ وكان من دعاء المؤمن: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ»، متفق عليه.

فلو كان شيئًا أثقل من العرش لذكره النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- في هذا الموطن.

﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ أي: أن الله يفعل ما يشاء وهذه صيغة مبالغة من الفعل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[فاطر:٤٤]، وقال: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾[الأنبياء: ٢٣]، وقال: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[يس:٨٢].

فيرزق سبحانه وتعالىٰ، من شاء، ويمنع من شاء، وفي الحديث: «اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ».

وهذه الآية يستدل أهل العلم علىٰ إثبات الصفات الفعلية لله عز وجل فهو يغضب، ويرضىٰ، ويحب متىٰ شاء ومن شاء سبحانه وتعالىٰ.

وهذه الآية من العموم الدال علىٰ وصف الله عز وجل بكل كمال، فإن العاجز عن بعض الأعمال عنده نقص بقدر عجزه، فتجد أن الإنسان يستطيع أن يفعل شيئًا، لكنه لا يستطيع أن يفعل كل ما يريد لضعفه؛ أما الله -فله المثل الأعلىٰ- فعال لما يريد، أراد أن يهلك أمة أهلكها، أهلك عادًا بالريح، وثمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف. وفرعون بالبحر، وقريش بالقتل، فلا يعجزه شيء.

أراد أن يخلق السماوات والأراضين خلقها، ويوم القيامة يريد أن يبدل الأرض غير الأرض والسموات يبدلها، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٤]، وقال: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[الزمر: ٦٧]

ثم قال لمحمد صلىٰ الله عليه وسلم مسليًا له وواعدًا له بالنصر والظفر: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ هل جاءك خبر الجنود الذين سبقوا هذه الأمة، الذين تمردوا علىٰ شرع الله وأمره.

﴿ فِرْعَوْنَ ﴾ ذكره؛ لشدة غطرسته إذ أنه زعم أنه الرب الأعلىٰ: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾[النازعات:٢٤]، وادعىٰ أنه الإله المعبود فقصمه الله، وجعله آية لمن

بعده حيث أغرقه وأُصعد علىٰ مكان؛ حتىٰ يراه الناس، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾[يونس: ٩٢]

قال العلماء: السبب أن فرعون حين مات أظهر؛ حتىٰ لا يقول الناس إنه الرب وإنما اختفىٰ...

فجعله الله آية ظاهرة لمن معه.

أما ما يقوله كثير من الناس من أن جثة فرعون ما تزال موجودة الآن هذا كلام ليس عليه دليل وإنما الآية متعلقة بذلك الوقت، ﴿ وَثَمُودَ ﴾ قوم صالح الذين عقروا الناقة وكان مقرهم في حضرموت، ويمتدون إلىٰ شمال الجزيرة.

ثم قال: ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴾ إخبار أن الذين كفروا مهما جئتهم بالآيات والدلائل البينات إلا أنهم في تكذيب لخبر ربهم ولدعوة رسولهم.

﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ لا يفوتونه يعلم ما هم عليه فيحفظها لهم، ويجازيهم عليها يوم القيامة وإذا أراد أن يهلكهم أهلكهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾[البقرة:١٩]، لا يستطيعون منه فرارًا، ولا يستطيعون لبطشه دفعًا، ولكنه سبحانه وتعالىٰ يملي للظالم حتىٰ إذا أخذه لم يفلته

﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴾ أي: أن هذا القرآن الذي بين أيديكم مقروء مجيد واسع في أحكامه، وواسع في مواعظه وواسع في علومه، وممدوح ومحمود؛

لأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو محفوظ وكريم.

﴿ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ قيل: ذكره، وقيل: بأنه أيضًا مكتوب في اللوح المحفوظ الذي حُفظ عن عبث العابثين، وعن الزيادة والنقصان، فإن الله عز وجل لما خلق القلم قال: اكتب ما كان وما يكون إلىٰ قيام الساعة » أخرجه أبو داود .

والله أعلم

سورة الطارق

﴿ بِسْمِ اللهِ الْرَّحمَنِ الْرَّحَيم ﴾

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ * فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ * وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ *

﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ * إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾[الطارق:١-١٧].

مكية، وقد كان النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- يقرأ بها في صلاة العشاء، وأمر معاذًا بقراءتها، وهي من وسط المفصل.

﴿وَالسَّمَاءِ﴾ يقسم الله عز وجل بالسماء المرفوعة، والطارق هو النجم الذي يطرق بليل،

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ معظمًا لشأنه ومبينًا لماهيته: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ الذي يثقب بضوئه من السماء إلىٰ الأرض، وقيل هو زحل؛ لأنه في السماء السابعة ويصل ضوؤه إلىٰ الأرض، وقيل: يثقب الشياطين إذا أرسل إليها، وقال عكرمة: مضيء ومحرق للشياطين، وهو مفرد أضيف فيعم كل نجم يوصف بهذا الوصف.

فأقسم الله عز وجل بالسماء بالنجوم الثاقبة في ضوئها، العالية في ارتفاعها، إذ أنها شاهدة علىٰ وحدانية الله عز وجل:

أَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَىٰ الْإِلَهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ جَاحِدُ
وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ ... وَتَسْكِينَةٍ أَبَدًا شَاهِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدُ

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ كل نفس من الأنفس عليها حافظ يحفظها من الآفات، كما قال تعالىٰ: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ

يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾[الرعد: ١١]، حتىٰ إذا جاء أمر الله الذي قد قدر علىٰ العبد في اللوح المحفوظ خلي بين العبد وبين ما يحصل له.

وهذا هو المقسم عليه من أن المكلفة عليها حافظ لأعمالها مبين لها، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾[الانفطار:١٠-١١].

وفي هذه الآية وعيد عظيم يستفيده المؤمنون من أن أعمالهم محفوظه وأقوالهم مسطرة، فيبادرون بالتوبة من المعصية ويلتزمون الطاعة، ولهذا كان النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- كثيرًا ما يقول: «يَا مُثَبِّتَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِيْنِكَ»، «لِلَّهُمَّ يَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَىٰ طَاعَتِكَ»، ﴿ فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[يوسف:٦٤].

﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ تنبيه للإنسان علىٰ ضعف أهله وأراد الله عز وجل أن يبين لهؤلاء المعارضين أنه لا يعجزه شيء، وأنه هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه وله المثل الأعلىٰ.

فلينظر كل إنسان إلىٰ نفسه ويتفكر فيها: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[الأعراف:١٨٥]، أي: أولم يتفكروا في خلق الله عز وجل للسموات الواسعة وللأرض الشاسعة.

فهو يقول: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ ﴾ صيغته الخبر وهو أمر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات:٢١]، وقال تعالىٰ أمرًا بالتفكر في مخلوقاته: ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الإِبلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَىٰ السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ

﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[الغاشية:١٧-٢٠]،

﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ أي: مبدأ نشأته ما كان، فكان أبوه آدم من تراب، وأما خلق بقية الناس.

﴿خُلِقَ﴾ أي: تكونت خلقته، ﴿مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾ وهو المني الخارج بدفق، والدفق هو الذي يميز المني عن غيره من المياه، فالمذي والودي يخرج بغير دفق، وأما المني فإنه يخرج بدفق ولذة، ويوجب الغسل، وقد قال الله عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾[الواقعة: ٥٨].

والمني طاهر على القول الصحيح من أقوال أهل العلم؛ لأنه خلقة الأنبياء والمرسلين والمؤمنين والموحدين، والنبي -صلى الله عليه وسلم- ربما صلى بالثوب الذي جامع فيه أهله كما في حديث أم حبيبة رضي الله عنها وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنِّي لَأَحُكُّهُ مِنْ ثَوْبِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَابِسًا بِظُفُرِي» متفق عليه.

﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ﴾ أي: هذا المني الدافق يخرج من بين صلب الرجل، أي ظهره، ﴿وَالتَّرَائِبِ﴾ أي: ترائب المرأة، قال ابن عباس رضي الله عنه تريبة المرأة موضع القلادة، وعن مجاهد الترائب ما بين المنكبين إلى الصدر.

وقيل ترائب الرجل؛ لأن المرأة يقال لمكان ترائبها ثدي، والرجل لما لم يكن له ثدي قيل ترائب، وكلا المعنيين صواب، فإن الجنين يأتي من اختلاط

ماء الرجل بماء المرأة: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾[الإنسان: ٢]، ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَىٰ * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾[القيامة:٣٧-٤٠].

﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ هذه هو المقسوم عليه بأن الله عز وجل علىٰ رجع الإنسان يوم القيامة لقادر: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ اللهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾[البقرة:٢٨١].

ويرجعهم تعالىٰ بأجزائهم وجميع شأنهم، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ، إِلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ مِنْهُ، خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ»، «ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ»، ثم ينفخ في الصور فإذا هم قيام ينظرون: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ ﴾[يس: ٨١].

وقد ذكر ابن كثير في معنىٰ الآية قولين:

أحدهما: علىٰ رجع هذا الماء الدافق إلىٰ مقره الذي خرج منه لقادر علىٰ ذلك، قاله مجاهد وعكرمة وغيرهما.

الثاني: أنه علىٰ رجع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق أي إعادته وبعثته إلىٰ الدار الآخرة لقادر لأن من قدر علىٰ البدء قدر علىٰ الإعادة، واختاره ابن جرير.

﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ أي: يوم القيامة: ﴿ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ فيصبح السر علانية، المؤمن يعرف بوجهه، والكافر يعرف بوجهه، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾[آل عمران:١٠٦].

ففي الدنيا قد يتزين الإنسان بخلاف باطنه، ومع ذلك قد يفضح، قال الله عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾[محمد: ٢٩-٣٠].

وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

ثم قال: ﴿ فَمَا لَهُ ﴾ أي: الإنسان، ﴿ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ أي: في نفسه فيدفع عنها، ﴿ مِنْ قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ ﴾ أي: من غيره، وهذا غاية الضعف، فانظر إلىٰ الطفل الصغير الذي لا يستطيع أن يدفع عن نفسه، يكون له من يقوم بشأنه، فإذا كبر يقوم هو بأمره، أما هذا فما له من قوة في نفسه فيدفع ولا ناصر من غيره فيرفع، بل في غاية الضعف، وغاية الذل والحقارة، وليس إلا رحمة الله للمؤمنين، ونقمة الله علىٰ الكافرين.

فمن الآن اجعل لك ناصرًا؛ فإن الله نعم المولىٰ ونعم النصير، ينصر عباده في الدنيا والآخرة: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ

الأَشْهَادُ ﴾[غافر:٥١]، أما المجرم الكافر فما له من قوة ولا ناصر، بل يسحب إلىٰ النار سحبًا، ويساق إليها سوقًا لا يستطيع أن يدفع عن نفسه.

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ وهذا قسم آخر أقسم ربنا عز وجل بالسماء ذات الرجع؛ أي ذات المطر؛ وقيل السحاب الذي فيه المطر سمي بذلك لأنه يرجع بين الحين والآخر، وينزل المطر من السحاب المسخر بين السماء والأرض، وإنما أضيف إلىٰ السماء؛ لأن كل ما علىٰ يسمىٰ سماء، وقيل المعنىٰ: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ أي: أن الأعمال ترجع إلىٰ السماء وترفع إليها، وقيل ترجع نجومها وشمسها وقمرها.

﴿ وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ الأرض الواسعة التي تتصدع عن النباتات، وهذا قول الجمهور، وقيل تتصدع القبور فتُخرج من فيها، فأقسم الله بالسماء وما يرجع إليها، والأرض وما يخرج منها.

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ ﴾ هذا هو المقسم عليه؛ أي: القرآن فهو قول الله وكلامه ووحيه، ﴿ فَصْلٌ ﴾ بين واضح، حق لا مزح فيه ولا هزل، فإذا أخبر الله بشيء فهو كائن لا محاله:

ما قضىٰ الله كائنٌ لا مَحالـه والشقي الجهول من لام حّالـه

﴿ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ لأنه كلام الحق سبحانه وتعالىٰ المنزهة عن الهزل والنقص والعيب، فجاء بالقرآن مفصل موضح مبين تقام به الحجة علىٰ

العباد؛ لأن الكلام الهزل قد لا يؤخذ به، لو كان هناك إنسان يهزل ويمزح تجد أن بعضهم ما يأخذ بكلامه يقول والله كنت أظن أنك تمزح، فالله عز وجل يخبر بأن قوله فصل بين الحق والباطل، ﴿ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ بل هو الحق الوقع ومع ذلك فإن الكفار يكذبون به: ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أي: الكفار، ﴿ يَكِيدُونَ ﴾ بهذا الدين وأهله، ﴿ كَيْدًا ﴾ مكرًا كبارًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[الأنفال: ٣٠]، ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾.

فهذا هو حالهم، مع أهل الإسلام في كل وقت وحين وإلىٰ أن تقوم الساعة.

لكن مع ذلك مكرهم وكيدهم بائر؛ لأن الله هو المتربص بهم ولهذا قال: ﴿ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ أي: أن الكفار ومن إليهم يمكرون بالمسلمين ويكيدون المسلمين، ولكن الله عز وجل يكيد هم ويمكر بهم، والغالب الله عز وجل الذي لا يعجزه شيء، وربما أهلكهم وسلط عليهم بنفس فعلهم.

فنحن نؤمن بوعد الله ووعيده، وعد الله للمؤمنين بالنصر والتمكين والحفظ والكلاءة، ووعيد الله علىٰ الكافرين والمخالفين.

والمكر والكيد من صفات المقابلة، فإن الله عز وجل يوصف بكل كمال وينزه عن كل نقص.

والصفات ثلاثة أنواع:

الأول: صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه: كالسمع والبصر والقدرة، فهذه تثبت لله عز وجل.

الثاني: صفات نقص لا كمال فيها بوجه من الوجوه: كالعجز والصمم والكسل، فهذه ينزه الله عز وجل عنها.

الثالث: صفات كمال من وجه ونقص من وجه: كالكيد والمكر والمخادعة والاستهزاء، فهذه لا تثبت مطلقًا وإنما تثبت في حال المقابلة، ولهذا يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾[الطارق:١٥-١٦]، ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[الأنفال:٣٠].

﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ يعني انتظر ما سيحصل للكافرين فإنما يُمهلون ثم يكون عاقبتهم خزيًا وبوارًا فعن أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «إن الله ليملي للظالم حتىٰ إذا أخذه لم يفلته» متفق عليه، ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[هود:١٠٢].

ودائمًا تكون العاقبة للتقوىٰ، وقد يُبتلىٰ المؤمنين ابتداءً ويُمحصون ويُختبرون، وتُرفع درجاتهم، لكن بعد ذلك يسلط الله علىٰ الكافرين ويدمدم عليهم، فإنه لا يعجزه شيء.

والحمد لله رب العالمين.

سورة الأعلىٰ

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ * الَّذِي خلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ * سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ * إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ * وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ * فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَىٰ * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَىٰ * وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَىٰ * الَّذِي يَصْلَىٰ النَّارَ الْكُبْرَىٰ * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾[الأعلىٰ:١٩].

وهي سورة مكية، ومن السنة أن الإمام يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ، وَالْجُمُعَةِ بِـ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ ﴾، وَ ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾.

فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ، وَفِي الْجُمُعَةِ بِـ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ ﴾، وَ ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ

الْغَاشِيَةِ ﴾، قَالَ: وَإِذَا اجْتَمَعَ الْعِيدُ وَالْجُمُعَةُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ؛ يَقْرَأُ بِهِمَا أَيْضًا فِي الصَّلَاتَيْنِ ". أخرجه مسلم.

فمن حديث أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُوتِرُ بِثَلَاثِ رَكَعَاتٍ، كَانَ يَقْرَأُ فِي الْأُولَىٰ بِـ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ ﴾، وَفِي الثَّانِيَةِ بِـ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾، وَفِي الثَّالِثَةِ بِـ ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾، وَيَقْنُتُ قَبْلَ الرُّكُوعِ، فَإِذَا فَرَغَ قَالَ عِنْدَ فَرَاغِهِ: «سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ». ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، يُطِيلُ فِي آخِرِهِنَّ. أخرجه أبو داود.

وفي الصحيحين أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمَهُ فَيُصَلِّي بِهِمُ الصَّلَاةَ، فَقَرَأَ بِهِمُ الْبَقَرَةَ، قَالَ: فَتَجَوَّزَ رَجُلٌ فَصَلَّىٰ صَلَاةً خَفِيفَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاذًا، فَقَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ. فَبَلَغَ ذَلِكَ الرَّجُلَ، فَأَتَىٰ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بِأَيْدِينَا، وَنَسْقِي بِنَوَاضِحِنَا، وَإِنَّ مُعَاذًا صَلَّىٰ بِنَا الْبَارِحَةَ، فَقَرَأَ الْبَقَرَةَ، فَتَجَوَّزْتُ، فَزَعَمَ أَنِّي مُنَافِقٌ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا مُعَاذُ، أَفَتَّانٌ أَنْتَ ؟ ". ثَلَاثًا، " اقْرَأْ: ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ وَ: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ ﴾، وَنَحْوَهَا ".

وثبت: أن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- قرأ بها في الظهر، وربما قرأ بها في العصر.

وقال البراء ابن عازب رضي الله عنه إن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- لم يقدم المدينة حتىٰ قرأ: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾.

ومن أسمائها: (سبح) كما جاء عن ابن عباس، إذ لم تفتتح سورة في القرآن بهذا اللفظ إلا هذه السورة.

ومن أسمائها: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ كما سماها رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم-.

ومن أسمائها: الأعلىٰ؛ إذ ذكر فيها اسم الله الأعلىٰ.

وهي مقسمة إلىٰ أقسام نجملها فيما يأتي أولها وصف الله عز وجل، وبيان بعض نعمه ومننه: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾[الأعلىٰ:١-٥].

الثاني: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى * إِلا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى * وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴾[الأعلىٰ:٦-٨]، وهذا بيان نعمة الله عز وجل لمحمد -صلىٰ الله عليه وسلم-.

الثالث: حال النبي صلىٰ الله عليه وسلم في الدعوة، ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَا ﴾[الأعلىٰ: ٩-١٣].

ثم يقول: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾[الأعلىٰ:١٤-١٥]، بين أن الفلاح في تزكية النفس بطاعة الله وبالصلاة.

ثم قال مبينًا حال الناس: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[الأعلىٰ:١٦-١٧].

ثم ختمها بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[الأعلىٰ: ١٨-١٩]، أي: هذه الوصايا النافعات والبيانات الجليلات قد ذكرت في الكتب السابقة: صحف إبراهيم وصحف موسىٰ وذكر نبيين كريمين، عظيمين؛ جليلين، وهما في الفضل بعد محمد -صلىٰ الله عليه وسلم-.

يقول الله عز وجل لمحمد -صلىٰ الله عليه وسلم-: ﴿سَبِّحِ﴾، والأمر لمحمد -صلىٰ الله عليه وسلم- أمر لأمته إلا إذا جاء الدليل بخصوصية محمد -صلىٰ الله عليه وسلم-.

ومعنىٰ (سَبِّحِ): نزه الله عز وجل عن النقائص والمعايب، وكل صفة ذميمة، والله عز وجل له المثل الأعلىٰ.

وقد سلك النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- هذا المسلك، فكان يقول في سجوده: «سبحان ربي الأعلىٰ»، وكان كثيرًا ما يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي».

ومما يدل علىٰ عظم تنزيه الله عز وجل عن النقائص والمعايب أن من أسماء الله عز وجل: السلام القدوس، وقد امتدح الله عز وجل الأنبياء إذ يسبحونه وينزهونه عن كل نقص وعيب: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا

يَصِفُونَ * وَسَلامٌ عَلَىٰ الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الصافات: ١٨٠-١٨٢].

فسبح الله نفسه منزها لذاته المقدسة عما ادعاه المبطلون من اتخاذ الصاحبة والولد، ثم سلم الله علىٰ الأنبياء والمرسلين؛ لأنهم نزهوا الله عز وجل عن جميع النقائص والمعائب.

فهو سبحانه له المثل الأعلىٰ: ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ ﴾[الروم:٢٧]، أي: الوصف الأعلىٰ، فله من كل صفة كمالها، فحياته لم تسبق بعدم ولا يلحقها فناء، وعلمه لم يسبق بجهل ولا يلحقه نسيان، وسمعه لا يخفىٰ عليه شيء، قالت عائشة رضي الله عنها: «سبحان الذي وسع سمعه الأصوات»، وبصره لا يفوته شيء: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وعلمه لا يعزب عنه شيء: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾[سبأ: ٣].

وهو القيوم الذي قام بنفسه وتقوم به مخلوقاته، إذ لا قدرة لها علىٰ عيش أو حركة أو سكنه إلا بإقامته لها.

وهو القدوس المنزه عن كل نقص وعيب، وهو السلام: السالم من النقص والعيب، إلىٰ غير ذلك من الأوصاف التي وصف الله عز وجل بها نفسه.

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ ﴾ قيل سبح ربك المسمىٰ بالأسماء، وقيل المعنىٰ: سبح الله عز وجل بأسمائه وصفاته، إذ أن التنزيه والتسبيح قد يكون بالقلب،

لكنه هنا أمر بالتسبيح باللسان ويتواطأ القلب واللسان، ﴿ الأَعْلَىٰ ﴾ هذا المعنىٰ العظيم الذي ينبغي أن يعتقده كل مسلم، ومن خالف هذا الاعتقاد كان من الموافقين لعقيدة فرعون وهامان ومن سار علىٰ سيرهما.

فالله عز وجل الأعلىٰ علي بذاته وعلي بصفاته: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾[طه:٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[فاطر:١٠]، ولهذا كان المسلمون حين يضعون جباههم -التي هي أشرف موطن في الإنسان- في الأرض، ويكونون في حال السفل ينزهون الله عز وجل بقولهم: «سبحان ربي الأعلىٰ»، وكانوا إذا سافروا فإذا صعدوا في الجبل كبروا، وإذا نزلوا سبحوا؛ تنزيها لله عز وجل عن ذلك.

ثم وصف الله عز وجل نفسه بقوله: ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ خلق الإنسان، والحيوان، والسموات والأراضين ومن فيها، وسواها أي أكملها وعدلها في أكمل صورة وأبهىٰ حالة: ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[الملك:١٤].

﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ قدر مقادير الخلائق، فقدر آجالها ومآكلها ومشاربها وقدر منافعها وكل ما يتعلق بها ولا يمكن أن يتخلف عن مخلوق شيء مما قدره الله عز وجل وقضاه: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾[الأحزاب:٣٨].

وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه سئل النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: « يَا رَسُولَ اللهِ، فِيمَا نَعْمَلُ، أَفِي شَيْءٍ قَدْ خَلَا أَوْ مَضَىٰ، أَوْ فِي شَيْءٍ يُسْتَأْنَفُ الْآنَ؟ قَالَ: «فِي شَيْءٍ قَدْ خَلَا وَمَضَىٰ». فَقَالَ الرَّجُلُ -أَوْ بَعْضُ الْقَوْمِ-: فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ أَهْلَ النَّارِ يُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ»، أخرجه أبو داود.

وفي الصحيحين عن عَبْدُ اللهِ بن مسعود: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ، قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّىٰ تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ».

﴿ فَهَدَىٰ ﴾ هداه إلىٰ سبيل الخير، وحذره من سبيل الشر كما قال الله عز وجل: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾[البلد:١٠].

وكما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[الإنسان:٣]، وأعم من ذلك الهداية العامة: ﴿ الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه:٥٠].

خلق الإنسان وهداه إلىٰ سبل معايشه، وخلق الحيوان وهداه إلىٰ سبل معايشه، وبين لكل مخلوق سبل السلامة والعطب، وهذا لا يكون إلا من الله عز وجل.

ثم الهداية الأخرىٰ وهي هداية البيان والدلالة والإرشاد، إذ أنزل الله عز وجل القرآن والسنة أوحاها إلىٰ محمد -صلىٰ الله عليه وسلم-؛ لهداية الناس ودلالتهم إلىٰ الخير العظيم، كما قال الله عز وجل عن نبيه: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الشورى:٥٢].

﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴾ أي: من أوصاف الله عز وجل أنه أخرج المرعىٰ.

فانظروا إلىٰ ما حولنا من الصحاري والفيافي، والجبال، والقثار، تكون يابسة لا شيء فيها وإذا بربنا عز وجل ينزل مطرًا أو غيثًا وإذا بالمرعىٰ يخرج، فتأكل منه الأنعام، ويستفيد منه الإنسان.

﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴾ يخرج مخضرًا نظرًا قم يصير يابسًا بعد ذلك كما أخبر الله عز وجل بقوله: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾[الكهف: ٤٥].

ثم قال الله لنبيه مبشرًا له: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَىٰ ﴾ سنقرئك القرآن فلا تنساه، فالنبي -صلىٰ الله عليه وسلم- أمي لا يكتب ولا يقرأ المكتوب، فأوحىٰ الله إليه بالوحي، فكان إذا جاءه جبريل يعالج نفسه من أجل أن يتحفظ القرآن ويجد في ذلك مشقة، فقال الله عز وجل له: ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾[القيامة: ١٦-١٩]، ثم إنك بعد ذلك تحدث به الناس.

﴿ إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ أن ينسخه، كما نسي بعض السور، ونسيها بعض الصحابة رضوان الله عليهم.

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ ويعلم ما في قلوب العباد وما يعملونه في السر والعلن، وهذا فيها ترهيب عظيم لجميع المسلمين أن يراقبوا الله عز وجل في خلواتهم وجلواتهم وكذلك يعلم مصالح العباد وما يصلحهم ظاهرًا وباطنًا.

ثم يقول الله ممتنًا علىٰ نبيه: ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ منة عظيمة، رفع الله عز وجل الأغلال والآصار عن أمة محمد فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ، وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ».

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَىٰ إِلَى الْيَمَنِ، قَالَ: «يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا،

وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا»، وقال الله عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[الحج: ٧٨].

﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أي: الناس وادعهم إلىٰ دين الله عز وجل، وعلمهم التوحيد، وحذرهم بطش الله، ورغبهم فيما عند الله.

﴿ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴾ قيل: معناها ذكر من كان متقبلًا للذكرىٰ حيث ينتفع بها، وقيل المعنىٰ: ذكر وإن لم ينتفع بها أحد؛ فإنك تؤدي الذي عليك.

وقد استدل بعض أهل العلم بهذه الآية مع ما جاء عن ابن عباس وبعض السلف: أن الإنسان ينبغي أن يصون العلم، فلا يضعه إلا في المكان الذي يجد له قبولًا؛ حتىٰ لا يمتهن ويزدرىٰ.

والذكر تنفع المؤمنين، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[الذاريات:٥٥].

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَىٰ ﴾ أي: الذي يستفيد من الذكرىٰ هو من يخشىٰ الله عز وجل، والخشية: هي الخوف مع التعظيم: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[فاطر:٢٨]. ﴿ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾[المائدة:٤٤]، فالله عز وجل أمرنا أن نخشاه، وأن نخافه ونراقبه فمن أراد الله له الخير في الدنيا والآخرة، رزقه خشيته.

وفي قوله: ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أمر لمحمد -صلىٰ الله عليه وسلم-، وأمر لأمته لاسيما الدعاة وحملة القرآن وحفظة السنة، فينبغي لهم أن يتفرقوا في البلدان،

وأن يقوموا في المساجد، وأن يوجهوا الناس إلىٰ طاعة الله عز وجل، فإن الغفلة قد سيطرت علىٰ القلوب، ولم يبق مقبلًا علىٰ الله عز وجل إلا نزاع من الناس.

وتأملوا المساجد فإنها في قفرة من عمارها إلا في يوم الجمعة، بل إن بعضهم ربما يصلي الجمعة ولا يصلي غيرها من الصلوات والله المستعان.

﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ﴾ أي: لا ينتفع بالذكرىٰ، ﴿ الأَشْقَىٰ ﴾ الشقي بكفره فيشقي في الدنيا بقسوة القلب وفساد العيش وغير ذلك من المصائب التي تلحقه، ويلحقه الشقاء في القبر وعذابه فيه والشقاء في الآخرة.

﴿ الَّذِي يَصْلَىٰ النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴾ أي: يوم القيامة وقيل بأن النار الصغرىٰ نار الدنيا، فعَنْ سَلَمَةَ بْنِ سَلَامَةَ بْنِ وَقْشٍ - وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ بَدْرٍ - قَالَ: كَانَ لَنَا جَارٌ مِنْ يَهُودَ فِي بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، قَالَ: فَخَرَجَ عَلَيْنَا يَوْمًا مِنْ بَيْتِهِ، قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَسِيرٍ، فَوَقَفَ عَلَىٰ مَجْلِسِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، قَالَ سَلَمَةُ: وَأَنَا يَوْمَئِذٍ أَحْدَثُ مَنْ فِيهِ سِنًّا، عَلَيَّ بُرْدَةٌ مُضْطَجِعًا فِيهَا بِفِنَاءِ أَهْلِي، فَذَكَرَ الْبَعْثَ وَالْقِيَامَةَ وَالْحِسَابَ وَالْمِيزَانَ، وَالْجَنَّةَ، وَالنَّارَ، فَقَالَ: ذَلِكَ لِقَوْمٍ أَهْلِ شِرْكٍ، أَصْحَابِ أَوْثَانٍ، لَا يَرَوْنَ أَنَّ بَعْثًا كَائِنٌ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَقَالُوا لَهُ: وَيْحَكَ يَا فُلَانُ، تَرَىٰ هَذَا كَائِنًا، أَنَّ النَّاسَ يُبْعَثُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إِلَىٰ دَارٍ فِيهَا جَنَّةٌ، وَنَارٌ، يُجْزَوْنَ فِيهَا بِأَعْمَالِهِمْ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ، لَوَدَّ أَنَّ لَهُ بِحَظِّهِ مِنْ تِلْكَ النَّارِ أَعْظَمَ تَنُّورٍ فِي الدُّنْيَا يُحَمُّونَهُ، ثُمَّ يُدْخِلُونَهُ إِيَّاهُ، فَيُطْبَقُ بِهِ

عَلَيْهِ وَأَنْ يَنْجُوَ مِنْ تِلْكَ النَّارِ غَدًا، قَالُوا لَهُ: وَيْحَكَ، وَمَا آيَةُ ذَلِكَ ؟ قَالَ: نَبِيٌّ يُبْعَثُ مِنْ نَحْوِ هَذِهِ الْبِلَادِ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ مَكَّةَ، وَالْيَمَنِ، قَالُوا: وَمَتَى تَرَاهُ ؟ قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيَّ وَأَنَا مِنْ أَحْدَثِهِمْ سِنًّا، فَقَالَ: إِنْ يَسْتَنْفِدْ هَذَا الْغُلَامُ عُمُرَهُ ؛ يُدْرِكْهُ، قَالَ سَلَمَةُ: فَوَاللهِ، مَا ذَهَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّىٰ بَعَثَ اللهُ تَعَالَىٰ رَسُولَهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ حَيٌّ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، فَآمَنَّا بِهِ، وَكَفَرَ بِهِ بَغْيًا وَحَسَدًا، فَقُلْنَا: وَيْلَكَ يَا فُلَانُ، أَلَسْتَ بِالَّذِي قُلْتَ لَنَا فِيهِ مَا قُلْتَ ؟ قَالَ: بَلَىٰ، وَلَيْسَ بِهِ "، أخرجه أحمد.

﴿ النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴾ نارًا كبيرة عظيمة، قعرها بعيد وحرها شديد، كما في حديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَدْرُونَ مَا هَذَا؟»، قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ قَعْرِهَا». أخرجه مسلم.

﴿ ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَا ﴾ لا يتنعم بحياة ولا يرتاح بموت: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ﴾[الزخرف ٧٧].

فقال الله في حق المؤمن: ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[الدخان ٥٤-٥٧]، وفي المقابل قال في حق الكافر: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ

يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾[فاطر:٣٦-٣٧]

وهذا من الأدلة علىٰ أبدية النار وخلودها أعاذنا الله منها، وهذا في حق الكافر، وأما من دخلها من أهل الإسلام فإنه يخرج منها، فعن أبي سعيد رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ - أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ - فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّىٰ إِذَا كَانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَىٰ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ»، أخرجه مسلم.

ثم يقول الله ممتنًا علىٰ المؤمنين المخلصين المطيعين: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ ﴾ قيل زكىٰ نفسه بزكاة الفطر، والمعنىٰ العام أولىٰ: تزكىٰ بالطاعات والقربات، من التوحيد، والصلاة، والصيام، والحج، والقيام، وحفظ القرآن، وبر الوالدين، وصلة الأرحام وطهر نفسه من الأخلاق الرذيلة.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ هذا خبر من الله، وخبر الله لا يتأخر، ﴿ مَنْ تَزَكَّىٰ ﴾ وكان من دعاء النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا».

﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ أيضًا ومن الصفات المفلحين أنه يذكر اسم ربه سبحانه وتعالىٰ، سبحه ونزهه ودعاه ورجاه، وصلىٰ لله عز وجل لاسيما الصلوات المفروضات، وبادر أيضًا إلىٰ النوافل والمستحبات، فكل ذلك محبوب إلىٰ الله عز وجل.

ثم أخبر الله عن حال الناس إلا من رحم الله: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ تحبون الدنيا وترغبون فيها وتقدمونها علىٰ الآخرة التي هي دار البقاء، تقدمون الفاني علىٰ الباقي، والقليل علىٰ الكثير، والشقاء علىٰ السعادة، والدنيا قد لعنها الله، عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرُ اللهِ، وَمَا وَالَاهُ، وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ»، أخرجه الترمذي.

والدنيا زائلة لا تبقي، ولو بقيت للخيرين لبقيت لمحمد -صلىٰ الله عليه وسلم-، ولو بقيت للجبابرة المعرضين لبقيت لفرعون والنمرود وبختنصر ومن إليهم، ولكنها لا تبقي لأحد.

فحال الناس أنهم يؤثرون الحياة الدنيا بمآكلهم ومشاربهم وشهواتهم ومعاملاتهم وتجاراتهم، وقد ذكر الله الدنيا بقوله: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[الحديد: ٢٠]،

وقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ - وَأَشَارَ يَحْيَىٰ بِالسَّبَّابَةِ - فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ»، أخرجه مسلم.

﴿ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ أي: دار الآخرة، وهي الجنة؛ لأنها دار البقاء، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبْلَىٰ ثِيَابُهُ، وَلَا يَفْنَىٰ شَبَابُهُ». أخرجه مسلم، خالدين فيها أبدًا يتنعمون بالنظر إلىٰ وجه الله عز وجل، ويتنعمون بالمآكل والمشارب والمناكح وغير ذلك مما خلقه الله عز وجل للمؤمنين.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا يُرَىٰ مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ لَحْمِهَا مِنَ الْحُسْنِ»، أخرجه البخاري.

ثم يقول: ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ ما تقدم من وصف الله عز وجل وبشارة النبي - صلىٰ الله عليه وسلم-، والأمر بالتذكير: ﴿ لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ ﴾، وقيل: ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ ﴾ أي: قوله: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[الأعلىٰ:١٦-١٧]، أي: هذا في الكتاب المنزل علىٰ من كان قبل محمد -صلىٰ الله عليه وسلم-.

﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ذكر إبراهيم عليه السلام؛ لأنه: ﴿ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[النحل ١٢٠-١٢٢].

﴿ وَمُوسَىٰ ﴾ موسىٰ بن عمران عليه السلام إذ عانىٰ من بني إسرائيل، ودعا إلىٰ الله عز وجل، وصابر وصبر.

والحمد لله رب العالمين.

سورة الغاشية

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ * لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ * أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَىٰ السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَىٰ الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَىٰ الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾[الغاشية:١-٢٦].

مكية، وفي صحيح مسلم عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ، وَفِي الْجُمُعَةِ بِـ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ ﴾، وَ ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾، قَالَ: وَإِذَا اجْتَمَعَ الْعِيدُ وَالْجُمُعَةُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ؛ يَقْرَأُ بِهِمَا أَيْضًا فِي الصَّلَاتَيْنِ».

وجاء في رواية في مسلم وعند غيره أَنَّ الضَّحَّاكَ بْنَ قَيْسٍ سَأَلَ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ: مَاذَا كَانَ يَقْرَأُ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عَلَىٰ إِثْرِ سُورَةِ الْجُمُعَةِ؟ فَقَالَ: كَانَ يَقْرَأُ بِـ ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾.

وهي سور عظيمة اختارها رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم- لقراءتها في هذا اليوم العظيم، وفي هذا المشهد الكبير، تتوارد ألسنة الأئمة علىٰ قراءتها في أغلب المساجد في العالم، وفيها من العبر والذكر ما تنخلع به قلوب المؤمنين، ويكون داعيًا لها إلىٰ جنة النعيم، ومحذرًا لها من العذاب الأليم.

قال الله عز وجل: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ * لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾[الغاشية:١-٧].

هذا حال الكافرين المعذبين، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتىٰ الله بقلب سليم.

ثم قال الله عز وجل: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ

مَوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾[الغاشية:٨-١٦]، هذا حال المؤمنين المكرمين المنعمين في جنة النعيم عند رب العالمين، كما قال الله عز وجل: ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾[القمر:٥٥].

ثم يقول: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[الغاشية:١٧-٢٠]، دعوة إلىٰ النظر إلىٰ دلائل الوحدانية التي تؤدي بالإنسان إلىٰ إفراد الله عز وجل بالعبودية.

ثم قال عز وجل: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾[الغاشية: ٢١-٢٢]، وهذا تطمين للدعاة إلىٰ الله، وترغيب لهم في الدعوة إلىٰ الله، وليس إليهم هداية الناس.

ثم قال عز وجل: ﴿ إِلَّا مَنْ تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾[الغاشية: ٢٣-٢٦].

ونعود إلىٰ معانيها:

يقول الله عز وجل لمحمد -صلىٰ الله عليه وسلم-: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ ذهب جمع من المفسرين إلىٰ أن المعنىٰ: قد أتاك حديث الغاشية، أي خبر الغاشية، وهو من أسماء يوم القيامة علىٰ قول لأهل العلم، كما أن الله عز وجل سماها القارعة، والحاقة، والواقعة.

وسميت غاشية؛ لأنها تغشىٰ الناس، وقيل بأنها إسم للنار وبئس القرار، سميت بالغاشية؛ لأنها تغشىٰ الكفار بحرها وما فيها من الخزي والبوار، نعوذ بالله من شرها، قال تعالىٰ: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾[الأعراف:٤١].

وذكر الله الوجوه؛ لأنها أكرم ما في الإنسان، فالإنسان في هذه الدنيا يحرص علىٰ وجهه أن يشوبه شيءٌ من الأذىٰ، وفي ذلك اليوم يعذب الكافر ابتداءً بوجه.

﴿ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ أي: ذليلة حقيرة من حيائهم من ربهم إذ لم يمتثلوا شرعه ودينه، ومن خزيهم بين العالمين، ومما يقدمون عليه من العذاب المهين، وقال ابن عباس رضي الله عنه: تخشع، ولا ينفعها عملها.

﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ قال بعض أهل العلم: أن الآية في شأن الكفار الذين يعبدون الأصنام والأوثان، فيعملون في الدنيا وينصبون ويتعبون، ومع ذلك يعذبون في الآخرة، وقال بعضهم بأنها في اليهود والنصارىٰ، وروي عن عمر ولا يثبت: أنه مر علىٰ راهب في صومعة فناداه، فلما خرج بكىٰ عمر، فقيل له: يا أمير المؤمنين إنه ممن علمت، فقال: إنما ذكرت قول الله عز وجل: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾[الغاشية:٢-٣]، عاملة في الدنيا وتنصب ومع ذلك تعذب في الآخرة.

وقيل بأن المعنىٰ: أن أهل النار يعملون في النار، فيعالجون السلاسل التي يربطون بها، والحميم، وما هم فيه من العذاب الأليم، فيعملون وينصبون ويتعبون.

وقيل بأنها في حق من يعصي الله عز وجل في الدنيا، عاملة في الدنيا بالمعاصي والسيئات والكفريات والشركيات، وناصبة في الآخرة يلحقها النصب والعذاب الأليم في النار وبئس القرار.

﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ أي: نار شديدة الحر كما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾[النبأ:٢١-٢٥].

فهذه النار يصلاها الكفار، نار حامية تغشاهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ومن جميع جوانبهم، أكلهم النار ولبسهم النار وشرابهم النار، نعوذ بالله من حرها وسمومها.

﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ أي: انتهىٰ حرها وغليانها فبلغت بالحر منتهاه: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا ﴾[الكهف:٢٩]. لكن بماذا؟ ﴿ بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[الكهف:٢٩].

﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلا مِنْ ضَرِيعٍ ﴾ لما ذكر الله عز وجل شرابهم، وأنه الحميم، أخبر عن طعامهم وأنه الزقوم، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ

﴿ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۞ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۞ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ۞ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۞ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴾[الدخان: ٤٣ – ٤٨]، والضريع شجرة في الحجاز يسميها أهل مكة الشبرق، كانت تأكلها الإبل اذا كانت طرية، أما إذا صارت ضريعًا لا يأكلها شيءٌ من الدواب ولا ينتفع بها أحد من الناس؛ لأنها كثيرة الشوك والأذىٰ.

وقيل سمي ضريع؛ لأنهم إذا أكلوه تضرعوا إلىٰ الله عز وجل في رفعه عنهم، والمعنىٰ الأول عليه جماهير العلماء: أنهم يأكلون طعامًا سيء في منظره، سيء في أكله، سيء في حاله.

﴿ لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ أي: لا تسمن منه أجسامهم، ولا يذهب به جوعهم، بل يعذبون بالجوع والعطش مع ما هم فيه من العذاب الأليم، نسأل الله عز وجل السلامة والعافية، فلما بين الله عز وجل حال الكافرين وصف حال المؤمنين، المكرمين، المنعمين: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ كما قال الله عز وجل: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾ من النظارة والجمال والبهاء، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ بأعينها تتلذذ بالنظر إلىٰ وجه الله، وما أعطوا شيء أحب إليهم من النظر إلىٰ وجه الله عز وجل.

وهذا المعنىٰ مذكور أيضًا في قول الله عز وجل: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ۞ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴾[عبس:٣٨-٣٩]، أي حال المؤمنين: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۞ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۞ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾[عبس:٤٠-٤٢]، فالله عز وجل

ذكر وجوه المؤمنين وما فيها من النعامة الجمال البهاء، وهذا دليل علىٰ جمال بقية أعضائهم، كما ذكر وجوه الكافرين وما فيها من الخزي والعذاب المهين، وهذا دليل علىٰ ما يلحق بقية أجسامهم.

﴿ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ أي: أن وجوه المؤمنين راضية بأعمالها التي عملتها في الدنيا، وفي حديث البراء رضي الله عنه: قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ جِنَازَةٍ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ الْقَبْرِ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّ عَلَىٰ رُؤوسِنَا الطَّيْرَ وَهُوَ يُلْحَدُ لَهُ، فَقَالَ: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ " ثَلَاثَ مِرَارٍ ثُمَّ قَالَ: " إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، تَنَزَّلَتْ إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ كَأَنَّ عَلَىٰ وُجُوهِهِمُ الشَّمْسَ، مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَفَنٌ وَحَنُوطٌ، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، (١) حَتَّىٰ إِذَا خَرَجَ رُوحُهُ، صَلَّىٰ عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللهَ: أَنْ يُعْرَجَ بِرُوحِهِ مِنْ قِبَلِهِمْ، فَإِذَا عُرِجَ بِرُوحِهِ قَالُوا: رَبِّ عَبْدُكَ فُلَانٌ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُوهُ، فَإِنِّي عَهِدْتُ إِلَيْهِمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ " قَالَ: " فَإِنَّهُ يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ، إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ، فَيَأْتِيهِ آتٍ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَدِينِيَ الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَنْتَهِرُهُ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا

بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَدِينِيَ الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُ لَهُ: صَدَقْتَ، ثُمَّ يَأْتِيهِ آتٍ حَسَنُ الْوَجْهِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِكَرَامَةٍ مِنَ اللهِ وَنَعِيمٍ مُقِيمٍ، فَيَقُولُ: وَأَنْتَ فَبَشَّرَكَ اللهُ بِخَيْرٍ، مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، كُنْتَ وَاللهِ سَرِيعًا فِي طَاعَةِ اللهِ، بَطِيئًا عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ، فَجَزَاكَ اللهُ خَيْرًا، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ الْجَنَّةِ، وَبَابٌ مِنَ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا كَانَ مَنْزِلَكَ لَوْ عَصَيْتَ اللهَ، أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ هَذَا، فَإِذَا رَأَىٰ مَا فِي الْجَنَّةِ قَالَ: رَبِّ عَجِّلْ قِيَامَ السَّاعَةِ كَيْمَا أَرْجِعَ إِلَىٰ أَهْلِي وَمَالِي، فَيُقَالُ لَهُ: اسْكُنْ. وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَتْ عَلَيْهِ مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ، فَانْتَزَعُوا رُوحَهُ، كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ الْكَثِيرُ الشِّعْبِ مِنَ الصُّوفِ الْمُبْتَلِّ، وَتُنْزَعُ نَفْسُهُ مَعَ الْعُرُوقِ، فَيَلْعَنُهُ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ، إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللهَ: أَنْ لَا تَعْرُجَ رُوحُهُ مِنْ قِبَلِهِمْ، فَإِذَا عُرِجَ بِرُوحِهِ، قَالُوا: رَبِّ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ عَبْدُكَ، (١) قَالَ: أَرْجِعُوهُ، فَإِنِّي عَهِدْتُ إِلَيْهِمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ، قَالَ: فَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ، إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ آتٍ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، فَيَقُولُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَوْتَ، وَيَأْتِيهِ آتٍ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِهَوَانٍ مِنَ اللهِ، وَعَذَابٍ مُقِيمٍ، فَيَقُولُ: وَأَنْتَ، فَبَشَّرَكَ اللهُ بِالشَّرِّ مَنْ أَنْتَ؟

فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، كُنْتَ بَطِيئًا عَنْ طَاعَةِ اللهِ، سَرِيعًا فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، فَجَزَاكَ اللهُ شَرًّا، ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَىٰ أَصَمُّ أَبْكَمُ فِي يَدِهِ مِرْزَبَةٌ، لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ كَانَ تُرَابًا، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً حَتَّىٰ يَصِيرَ تُرَابًا، ثُمَّ يُعِيدُهُ اللهُ كَمَا كَانَ، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَىٰ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ». قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ: « ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ النَّارِ وَيُمَهَّدُ مِنْ فُرُشِ النَّارِ»، أخرجه أحمد.

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا ﴾ أي: في الدنيا بالطاعات، ﴿ رَاضِيَةٌ ﴾؛ لأنها وجدت الجزاء الأوفى من الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ سقفها عرش الرحمن: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ - أُرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ»، أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَيُونَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَيُونَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ -أَوِ الْمَغْرِبِ- لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ».

﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾ وفي قراءة: ﴿ لَا تُسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةٌ ﴾ وهذا كقول الله عز وجل: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾[الواقعة:٢٥-٢٦]، فهي جنة عظيمة أعدها الله للمؤمنين في ذلك اليوم العظيم لا

يؤذيهم شيء لا من الزوجات، ولا من الأبناء، ولا من الجيران، ولا من الضوضاء.

﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ أي: عيون سارحات وأُفردت، لإفادة العموم، منها ما هو من الخمر الصرف الذي لا يُسكر ويُتتعم به، ومنها ما هو من العسل، ومنها ما هو من اللبن، ومنها ما هو من الماء: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾[الإنسان:٦].

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴾ أي: بعيدة المنال، ومع ذلك يذكر العلماء أنها تدنوا من أصحابها إذا أرادوا الصعود، كقول الله عز وجل: ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا ﴾[الإنسان:١٣]، فيتنعمون مع زوجاتهم وأهاليهم.

﴿ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ أكواب يشربون فيها الخمر، اللبن، العسل، الماء: ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴾[الإنسان:١٨]، ومعنىٰ السلسبيل: أن تروىٰ بدون أن يسبب لك شيئًا من الشجىٰ أو غير ذلك.

وهذه الأكواب بعضها من الذهب وبعضها من الفضة إلىٰ غير ذلك.

﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾ وسائد كثيرة جميلة عظيمة، كما قال عز وجل: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَىٰ الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾[الرحمن: ٥٤]، وقال: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾[الرحمن: ٧٦].

﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ أي: فرش وبسط مبثوثة في الجنة، أينما شاء جلس، وأينما شاء اتكأ، لا يلحقه نصب ولا تعب، وإذا أراد الطعام والشراب جاءه كما قال الله عز وجل: ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾[الإنسان:١٤]، فهم علىٰ فرشهم وتدنوا منهم فيأكلون ويشربون ويتنعمون، ثم تعود إلىٰ أماكنها.

ثم يقول ربنا داعيًا إلىٰ التأمل في آياته الكونية التي تؤدي إلىٰ الإيمان ومعرفة الله عز وجل: ﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الإِبِلِ ﴾ وذكر الله الإبل؛ لأن العرب كانت تراها أعظم المخلوقات الحيوانية، ثمن عظيم شأنها أن لا حيوان يُحمَّل ثم يقوم وهو جالس إلا الإبل، ومن عظيم شأنها علو رقبتها، ومن عظيم شأنها أنها تنقاد للطفل الصغير، ومن عظيم شأنها أنها تمكث الليالي والأيام لا تشرب الماء، ومن عظيم شأنها حملها للأثقال الكثيرة إلىٰ غير ذلك.

أفلا ينظرون إلىٰ الإبل كيف خلقت، فيعرفون أن الذي خلقها وسخرها وأعدها وأمدها هو الله عز وجل، فيكون داعيًا إلىٰ عبادته.

﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ أي: هذه السماء العظيمة المترامية التي رفعت بغير عمد رفعها الله عز وجل، دالة علىٰ قدرته ووحدانيته، فيكون داعيًا لهم إلىٰ عبادة الله عز وجل وإفراده بما يجب له.

﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ الجبال العظيمة التي لا تتحرك ولا تتزلزل، ثبتت بها الأراضي، وتجد الجبل العالي فإذا ما طلعته وتجد الماء يسيل من أعلاه، فإذا بأحسن الثمار وأحسن الأشياء موجودة فيه، من الذي أنبته؟ من الذي رفعه؟ من الذي حفظه؟ هو الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ هذه الأرض الواسعة بسطها الله عز وجل، وجعل فيها المهاد والأنهار، وجعل فيها البحار، وفيها غير ذلك، أفلا يكون في ذلك دعوة إلىٰ إفراد الله عز وجل بالعبادة؟! بلىٰ وربي، كما قال بعضهم: " البعرة تدل علىٰ بعير والأثر يدل علىٰ المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا يدل ذلك علىٰ العليم الخبير "، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَفِي أَنفُسِكُم أَفَلَا تُبصِرُونَ ﴾[الذاريات:٢١].

ثم قال لمحمد صلىٰ الله عليه وسلم، وهو أمر لكل داعي إلىٰ الله عز وجل: ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ بخطبتك، ودعوتك، الناس بما لهم عند الله، وخوفهم ورغبهم، ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ ليس عليك الهداية، ليس منك التوفيق: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَن أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمُهْتَدِينَ ﴾[القصص:٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾[البقرة: ٢٧٢]، وقال: ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾[فاطر:٨].

وهذه تسلية لمحمد -صلىٰ الله عليه وسلم-، لأنه كان يذكر الكفار، وربما شق عليه حين يجد إعراضهم، رموه بالحجارة، وطردوه، وهموا بقتله.

وعَنْ جَابِرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي بِهَا دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَىٰ اللهِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾[الغاشية:٢١-٢٢]. " أخرجه مسلم.

فالله عز وجل هو الذي له الأمر أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، وأما الداعي والمدعو فحاله كما قال عز وجل: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَىٰ * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَىٰ * وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَىٰ * الَّذِي يَصْلَىٰ النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴾[الأعلىٰ:٩-١٢].

﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: لست عليهم بجبار، وقال ابن زيد: لست بالذي تكرههم علىٰ الإيمان، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رَسُولَ الله – صلىٰ الله عليه وسلم – قَالَ: «كُلُّ أُمَّتي يَدْخُلُونَ الجنَّةَ إلا مَنْ أَبَىٰ "قَالُوا: يَا رَسولُ الله! وَمَنْ يَأبَىٰ؟ قَالَ: «مَنْ أطَاعَني دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمنْ عَصَاني فَقَدْ أبَىٰ».

﴿ إِلا مَنْ تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾ يقول لكن من تولىٰ عن الذكر، وكفر بالله، وحارب الله ورسوله -صلىٰ الله عليه وسلم-.

﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللهُ ﴾ يوم القيامة، ﴿ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ ﴾ في نار وقودها النار والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد، لا يُرحم من دخلها للخلود يُكسون،

ويلبسون من النار، ويفرشون من النار، ويضربون بالنار، ويشربون النار، ويأكلون النار نعوذ بالله منها.

﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ أي: مرجعهم، فالجميع، من المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار إيابهم إلىٰ الله عز وجل، كما قال: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾[البقرة:٢٨١].

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ أي: يحاسبهم الله عز وجل علىٰ أعمالهم ولو كانت مثاقيل الذر في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ويجازون عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

والحمد لله رب العالمين.

سورة الفجر

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِي * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي

لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِي * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ * فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي * كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا * كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ * يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾[الفجر:١-٣٠].

وهي سورة مكية.

﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ أقسم الله عز وجل بالفجر قيل الصبح، وقيل النهار، وقيل صلاة الفجر، وقيل صلاة الفجر يوم عرفة وأي كان فقد أقسم الله عز وجل بالفجر؛ لأنه آية عظيمة، إن كان الصبح فهو آية يفلقها الله: ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾، وإن كانت صلاة الفجر فهي صلاة مشهودة تشهدها ملائكة الله، قال الله عز وجل: ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾[الإسراء: ٧٨]، وإن كان النهار ففيه من العجائب الدالة علىٰ قدرة الله ما الله به عليم.

﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ قيل عشر ذي الحجة، وهو أشهر الأقوال، وقيل العشر الأواخر من رمضان، وقيل العشر الأول من محرم، فعشر ذي الحجة فيها يوم عرفة، وهو أفضل أيام العام، وعشر رمضان فيها ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وفي نهارها صيام رمضان الذي هو فرض وركن من أركان الإسلام.

وفي فضل يوم عشر ذي الحجة ما أخرج البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ، وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ».

﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ الشفع: قيل بنوا آدم، والوتر: هو الله، وقيل الشفع: الصلوات المشفوعة، والوتر الصلوات الفردية، وقيل الشفع العدد الزوجي، والوتر الواحد، وقيل غير ذلك، ذكر ابن كثير أكثر من سبعة أقوال عن السلف في هذه المسألة، ولا مانع أن الشفع المراد به صلاة الشفع والوتر المراد به كذلك، أو أن الوتر هو الله عز وجل، والشفع هو ما سوىٰ الله عز وجل أي أن الآية عامة فأقسم الله بكل شفع وكل وتر.

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِي ﴾ يقسم أيضًا بالليل إذا سرىٰ وغطىٰ الأرض بظلامه، أو إذا ولىٰ، لكن المعنىٰ الأول أليق؛ لأنه أقسم بالفجر الذي هو أول النهار،

ثم أقسم بالليل اذي هو آخر النهار، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾[التكوير: ١٧-١٨].

﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ أي: فيما تقدم قسم لصاحب اللب السليم والعقل المستقيم، ففيها آيات بينات، ظاهرات قاهرات، وتدل علىٰ إفراد الله بالخلق والملك والتدبير وتدل علىٰ إفراد الله عز وجل بالعبادة،.

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أي: ببصرك وبصيرتك، ﴿ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ وهم قوم هود، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾[فصلت:١٥]، وقال الله عز وجل: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[الأعراف:٦٩].

وقد أهلكهم الله بالريح كما قال الله عز وجل في سورة الأحقاف: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾[الأحقاف:٢٤-٢٥].

وكان سبب ذلك ما أخرجه أحمد عن الحارث بن حسان قَالَ: إِنَّ عَادًا أَرْسَلُوا وَافِدَهُمْ قَيْلًا، فَنَزَلَ عَلَىٰ مُعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرٍ شَهْرًا يَسْقِيهِ الْخَمْرَ، وَتُغَنِّيهِ الْجَرَادَتَانِ، فَانْطَلَقَ حَتَّىٰ أَتَىٰ جِبَالَ مُهْرَةَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي لَمْ آتِ لِأَسِيرٍ

أُفَادِيهِ، وَلَا لِمَرِيضٍ فَأُدَاوِيَهُ، فَاسْقِ عَبْدَكَ مَا كُنْتَ سَاقِيَهُ، وَاسْقِ مُعَاوِيَةَ بْنَ بَكْرٍ شَهْرًا - يَشْكُرُ لَهُ الْخَمْرَ الَّتِي شَرِبَهَا عِنْدَهُ - قَالَ: فَمَرَّتْ سَحَابَاتٌ سُودٌ فَنُودِيَ أَنْ خُذْهَا رَمَادًا، رِمْدِدًا لَا تَذَرْ مِنْ عَادٍ أَحَدًا قَالَ أَبُو وَائِلٍ: «فَبَلَغَنِي أَنَّ مَا أُرْسِلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّيحِ كَقَدْرِ مَا يَجْرِي فِي الْخَاتَمِ».

﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ أي: عاد هم إرم، قبيلة من قبائل العرب، ذات العماد؛ لأنهم كانوا يرفعون سقف بيوتهم، وأما من ذهب إلىٰ أن إرم ذات العماد هي مدينة تتحرك ولا يوجد مثلها في الأرض، وهذا يقول: رأيتها في حضرموت والثاني يقول: رأيتها في الشام، وأنها ترىٰ في السنة مرة، هذا كلام ليس عليه دليل.

﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ لأن الله أعطاهم قوة، فكانوا يرفعون بيوتهم ويشيدونها، ويشيدون مداخلها ومخارجها، قال الله عز وجل: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾[الشعراء: ١٢٣ - ١٣٤].

﴿ وَثَمُودَ ﴾ أي: ألم تر ما فعل الله عز وجل بثمود: ﴿ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِي ﴾، وهم قوم صالح هداهم بالدلائل البينات فأبوا إلا الكفر والعناد، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[فصلت: ١٧]، وقد أهلكهم الله عز وجل بسبب عقر الناقة علىٰ ما يأتي في سورة الشمس.

جَابُوا: أي قطعوا الصخور؛ لقوتهم ولصلابة طباعهم.

بِالْوَادِ: وادي القرىٰ، إذ كانوا يسكنون فيه، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾[الشعراء: ١٤٩].

﴿ وَفِرْعَوْنَ ﴾ أي: ألم تر ما فعل الله بفرعون الجبار الذي ادعىٰ الربوبية كبرًا وعلوًا، ﴿ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ صاحب الأهرامات العظام، وقيل الأوتاد: الجنود الذين ثبتوا ملكه، كما تثبت الأرض بوجود الأوتاد من الجبال الرواسي عليها وهذا القول الذي عليه أهل التفسير.

وقيل: لأنه ضرب لامرأته أربعة أوتاد ثم جعل علىٰ ظهرها رحىٰ عظيمة حتىٰ ماتت.

﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴾ أي: كل من تقدم: عاد وثمود وفرعون ومن إليهم، كلهم وقع منهم الطغيان والتجاوز لأمر الله عز وجل، فقتلوا وظلموا وبطشوا، وأعظم الطغيان الشرك بالله عز وجل الذي وقعوا فيه.

﴿ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ الفساد الديني والخلقي، فإن أعظم الفساد أن يشرك بالله عز وجل في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ثم يليه الفساد الخلقي، حيث يرتكب الناس الزنا واللواط ويشربون الخمور وغير ذلك من المحرمات.

قال الله عز وجل: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[الروم: ٤١]، وقال: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾[الشورىٰ: ٣٠].

﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أي: أن الله عز وجل أنزل عليهم رجزا من السماء وأحل عليهم عقوبة لا يردها عن القوم المجرمين فهلكهم بعذاب صبه عليهم صبا، فأهلك عادا بريح، وثمود بصاعقة وصيحة، وفرعون في اليم، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَكُلًا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٠].

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ أي: يسمع ويرىٰ يعني يرصد خلقه فيما يعملون، وإنما يمهلهم كما قال عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾[الطارق: ١٥-١٧].

ثم قال عز وجل مخبراً بحال الإنسان في الشدة والرخاء، والسراء والضراء، ينظر إلىٰ ما يأتاه من خير أو شر بمنظور دنيوي لا منظور شرعي: ﴿

﴿ فَأَمَّا الإِنْسَانُ ﴾ أي: جنس الإنسان، ﴿ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ ﴾ بالولد والمال والبيت والسكن والأتباع، ﴿ وَنَعَّمَهُ ﴾ في مأكله ومشربه وملبسه، ﴿ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ يزعم أن هذا كرامه من الله له، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾[فصلت: ٥٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[المؤمنون: ٥٥-٥٦]، ومع أن المال لا يدل علىٰ كرامة؛ فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، وإنما المكرمة في الدين لأن الله يعطي الدين من يحب، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: «أَتْقَاهُمْ».

﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ ﴾ أي: إذا ابتلىٰ الإنسان بقلة المال، والفقر، ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ أي: ضيق عليه العطاء فإن الرزق هو العطاء، ﴿ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ يزعم أن الله أهانه بذلك، وهذه نظرة الكافر لا نظرة المسلم، وأما المسلم فيعلم أن في المال بلغة، كما قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «نِعِمَّا بِالْمَالِ الصَّالِحِ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ»، ومع ذلك ليس هو بدليل كرامة.

فينبغي للعبد أن يحمد الله علىٰ الهداية، وأن يسعىٰ في تحصيلها، وأما الدنيا فليست بمقياس، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَىٰ كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ». أخرجه الترمذي.

وانظروا إلىٰ حال النبي –صلىٰ الله عليه وسلم- دخل عليه عمر، وقد أثر الحصير في جنبه، وفارس والروم ينامون علىٰ الديباج والحرير، ويلبسون الإستبرق، ويشربون في آنية الذهب والفضة، فالعبرة بدين الله عز وجل.

قال: ﴿ كَلا ﴾ حقًا ليس الأمر كما زعم فإن الدنيا ليست بمقياس كرامة: ﴿ بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾ يقول لا تقع منكم كرامة اليتيم الذي فقد أباه ويحتاج إلىٰ من يحوطه تربية وكفالة، عَنْ سَهْلٍ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا»، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَىٰ، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا ». أخرجه البخاري

وظلمه يعتبر من أشد الظلم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[النساء:١٠]، فإكرام اليتيم طاعة، وإهانة اليتيم معصية قال تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ﴾[الضحىٰ:٩].

﴿ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ أي: و لا تأمرون غيركم إطعام المسكين المحتاج الفقير، فإذا كان الذي لا يأمر بإطعامهم مذموم فالذي لا يطعمهم أشد في الذم؛ فيجب علىٰ الإنسان أن يعطي ما أوجب الله عليه في ماله، من زكاة وصدقة ونحو ذلك، ويحث غيره علىٰ ذلك، وقد قال الله عز

وجل: ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾[الماعون:١-٣] فأخبر أن هذا فعل المكذبين بالدين.

وقال أيضًا: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴾[ق: ٢٤-٢٥]، فالإنسان يذم بمنعه الخير ويذم بعدم أمره بالخير.

والمسكين قيل هو الفقير، وقيل بينه وبين الفقير عموم وخصوص، وهو أن الفقير الذي يجد مالًا لا يغنيه، والمسكين الذي لا يجد شيئًا.

قال تعالىٰ: ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ ﴾ أي: المال المكتسب بالإرث وغيره، ﴿ أَكْلًا لَمًّا ﴾ أكلا شديدًا، سواء كان من حلال أو حرام، فيتفننون في كثير من أوجه الشر والفساد.

﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ ﴾ أي: جنس المال من الذهب والفضة، والإبل، والبقر، والرقيق، والعقار وغير ذلك، ﴿ حُبًّا جَمًّا ﴾ حُبًّا عظيمًا في نفوسكم حتىٰ تقدمونه علىٰ طاعة الله ومرضاته، وربما بسببه أحللتم الحرام وحرمتم الحلال فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادٍ مِنْ ذَهَبٍ، أَحَبَّ أَنَّ لَهُ وَادِيًا آخَرَ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ، وَاللهُ يَتُوبُ عَلَىٰ مَنْ تَابَ». أخرجه مسلم.

ثم يخبر تعالىٰ عما يقع يوم القيامة بقوله: ﴿ كَلَّا ﴾ أي: حقًا أن هذا الذي تقدم سيترك، وسترحلون منه إلىٰ غيره، وذلك ﴿ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ ﴾ دُكَّتِ الأرض وذهبت جبالها، كما قال: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ وصارت

بيضاء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد ﴿لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلا هَمْسًا﴾[طه:١٠٧-١٠٨]

﴿ دَكًّا دَكًّا ﴾ مبالغة في دكها وتغيير حالها: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾[إبراهيم: ٤٨]، وقام الخلائق من قبورهم.

﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ لفصل القضاء بين العباد.

وفيه إثبات صفة المجيء لله عز وجل، وهي من الصفات الفعلية، وقد قال الله عز وجل: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾[الأنعام:١٨٥]، وقال الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنزلَ الْمَلائِكَةُ تَنزيلا * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾[الفرقان:٢٥-٢٦].

﴿ وَالْمَلَكُ ﴾ أي وجاء معه الأملاك، ﴿ صَفًّا صَفًّا ﴾ صفوفا كثيرة، يحيطون بالمخلوقات المحشورة.

﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ تجر وتقرب من أهلها، فعَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ

أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍسَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا». أخرجه مسلم، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾[الشعراء:٩٠-٩١].

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ ﴾ أي: في هذا اليوم يتذكر الإنسان كل الأعمال التي عملها، من تفريطه في الطاعة، ومن ارتكابه للمعصية، وهذا كقول الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ﴾ يتذكر الإنسان كل أعماله من خير وشر ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف:٤٩].

﴿ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ لا تنفعه الذكرىٰ عندئذ كما قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[المؤمنون: ٩٩-١٠٠]

فيتذكر كل عمل لكن لا يفيده ذلك؛ لأنه لا يستطيع أن يستعتب العمل.

﴿ يَقُولُ ﴾ أي: جنس الإنسان الظالم لنفسه: ﴿ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ أي: من الأعمال الصالحة التوحيد والصلاة والصيام، وجميع أنواع الطاعات والقربات.

والمراد بالحياة هنا: الحياة الأبدية، يا ليتني قدمت لها ما يكون سببًا في حصولها علىٰ الوجه الأكمل ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[العنكبوت:٦٥].

وعن عَبْدُ اللهِ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ ؟». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ. قَالَ: «فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ،وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ». أخرجه البخاري.

ولما فرقت عَنْ عَائِشَةَ، ذَبَحُوا شَاةً، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا بَقِيَ إِلَّا كَتِفُهَا؟ قَالَ: «كُلُّهَا قَدْ بَقِيَ إِلَّا كَتِفَهَا»، متفق عليه؛ لأن الشيء المقدم عند الله عز وجل ينال الإنسان بركته في أُخراه.

﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ يوم القيامة، ﴿ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴾ لا يعذب عذاب الله أحد، عذاب شديد، وخزي عظيم أكيد، كما قال: ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾[الهمزة:٨-٩].

﴿ وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ أي يوثق الكافر؛ فلا يستطيع الفرار ولا تغيير الحال الذي هو عليه، ويوثقهم بالسلاسل كما قال الله عز وجل: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ * وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَا هُنَا * وَلا طَعَامٌ إِلا مِنْ غِسْلِينٍ * لا يَأْكُلُهُ إِلا الْخَاطِئُونَ ﴾[الحاقة:٣٠-٣٧]

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ هذا خطاب للنفس المؤمنة عند مفارقة الروح الجسد كما في حديث البراء وغيره «وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ،

وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ»، وكما قال الله عز وجل: ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنزلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾[الواقعة٨٨-٩٤]، واطمأنت هذه النفس بالتوحيد وبجميع أنواع الطاعة، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾[الرعد: ٢٨].

﴿ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ أي: بالموت فما بعده في المحشر، ﴿ رَاضِيَةً ﴾ علىٰ نفسها، وراضية بما نالت من ربها، وفي حديث أبي سعيد أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَىٰ؟ يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»، متفق عليه.

﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴾ أي: في عباده الأخيار المصطفين من الله عز وجل، الذي التزموا الطاعات، وهذه هي العبودية الخاصة المقتضية للخضوع والمحبة.

﴿ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ جنة عَدْن، كما قال تعالىٰ: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾[القمر:٥٥]، وهذا وعد عظيم من الله عز وجل لعباده المؤمنين.

وأما ما يفعله بعض الناس من كتابة هذه الآية علىٰ نعش الميت فإن هذا من البدع، وكذلك قراءتها عند التعازي، ثم إن في فعل ذلك الحكم للإنسان بالجنة، وعقيدة أهل السنة عدم الجزم بجنة إلا لمن حكم له رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم-.

سورة البلد

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ * أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا * أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ * أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾[البلد:١-٢٠].

مكية.

﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ يقول أقسم بهذا البلد، وهو مكة المكرمة، وقد أقسم الله به في سورة التين: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾[التين:١-٣].

فأقسم الله عز وجل به؛ لعظمته، ومنزلته، فهو حرم آمن فعن ابن عباس رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلَا يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً»، متفق عليه، كانت تُغزىٰ البلدان إلا قريش، وكان معظمًا في جميع الأديان حتىٰ عند أهل الجاهلية.

﴿ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ هذا إخبار من الله عز وجل أنه سيجعل مكة حلالًا لمحمد -صلىٰ الله عليه وسلم- يقاتل فيها، وهي من البشارات بالفتح العظيم، وفعلًا دخلها النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- حلالًا، وأحلت له ساعة من النهار، حتىٰ قَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلَا يَحِلُّ لِمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ لَا يَسْفِكُ بِهَا دَمًا وَلَا يَعْضِدُ بِهَا شَجَرَةً، فَإِنِ ارْتَخَصَ بِهَا أَحَدٌ، فَقَالَ: أُحِلَّتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّ اللهَ أَحَلَّهَا لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ وَلَمْ يُحِلَّهَا لِأَحَدٍ غَيْرِي، ثُمَّ هِيَ حَرَامٌ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ، يَا خُزَاعَةُ: إِنَّكُمْ قَتَلْتُمْ هَذَا الْقَتِيلَ مِنْ هُذَيْلٍ وَأَنَا وَاللهِ عَاقِلُهُ فَمَنْ قَتَلَ بِهَا قَتِيلًا بَعْدَ هَذَا فَأَهْلُهُ بَيْنَ خِيرَتَيْنِ: إِنْ أَحَبُّوا قَتَلُوا، وَإِنْ أَحَبُّوا أَخَذُوا الدِّيَةَ».

وهذه خصيصة لمحمد -صلىٰ الله عليه وسلم- وليست لغيره؛ ولذلك رد أبو شريح علىٰ عمرو ابن سعيد حين استدل بأن مكة كانت حلالًا للنبي -صلىٰ الله عليه وسلم-.

﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ قيل: آدم وذريته، وهو قول مجاهد واختاره ابن كثير وقيل: أقسم الله بهم؛ لأنهم آية من آياته العظيمات، جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، ومكنهم تمكينًا عظيمًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾[الأحقاف:٢٦]، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا ﴾[الإسراء: ٧٠]. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾[التين:٤-٥].

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ أي: في شدة خلق حيث أن جنس الإنسان في مكابدة، يكابد وهو في بطن أمه، ثم يكابد عند خروجه منها، ثم يبدأ في المكابدة وهو يبحث عن الثدي لالتقامه، ويأتيه الجوع والمغص والحرارة، ثم إذا صار طفلًا يحبو تارة ويقوم تارة وإذا به يكابد؛ ولذلك تجد كثيرًا من الأبناء هذا يكسر رأسه، وتنقطع يده، ويقع علىٰ وجهه، فإذا ما استقام أمره وقارب الاحتلام وإذا به في مكابدة، يكلف بعض أمور الخدمة، ثم يهمه شأن

نفسه من الزواج وغيره، ثم تقع عليه التكاليف فيكابدها، فقل من يوفق، حتىٰ المؤمن يكابد هذه الحياة، فيبتلىٰ المرء علىٰ قدر دينه، وقد رأىٰ النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- رجلًا لا يأتيه الحمىٰ ولا الصداع فقال -صلىٰ الله عليه وسلم-: «من سره أن ينظر إلىٰ رجل من أهل النار فلينظر إلىٰ هذا»، أخرجه الحاكم.

ومكابدة الإنسان في هذه الحياة أمر ملاحظ لكل أحد، فالغني يكابد، والملك يكابد، والرجل يكابد، والمرأة تكابد، والمستقيم يكابد، والفاجر يكابد، كل في مكابدة والمعان من أعانه الله والمُسلَّم من سلمه الله.

وتصريف الإنسان علىٰ هذا الحال يدل علىٰ قدرة الملك الغلاب سبحانه وتعالىٰ: «وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»، إلا أن المؤمن يستفيد من هذه المكابدة رفعًا للدرجات، وتكفيرًا للسيئات، والله المستعان.

﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ أيظن هذا الإنسان الذي يكابد الحياة أن لن يقدر عليه أحد من الناس أو من غيرهم، يظن أنه كبير ومتعالي، ومن ذا الذي يصرعه ويقهره، بل إنه الله عز وجل قادر علىٰ أن يضيق عليه، وأن يهلكه، وقادر علىٰ أن يفعل به ما شاء، كما قال تعالىٰ: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾.

﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ ﴾ من شدة كبره وتعاليه وغطرسته يقول: أنا قد أنفقت الأموال الكثيرة، ولم يقل: (يقول أنفقت مالًا لبدًا)؛ لأن المال إذا كان في وجه الخير يطلق عليه النفقة والصدقة، وإذا كان في وجه الشر يطلق عليه الهلكة، فهنا يقول: ﴿ أَهْلَكْتُ مَالا لُبَدًا ﴾ أي: أهلكه الحرام في شرب الخمر، ومعاقرة المومسات، والبطش والظلم، وليس بنافع له هذا الإهلاك، بل إنه: «لَا تَزُولُ قَدَمَا الْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّىٰ يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ: عَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ كَيْفَ عَمِلَ فِيهِ»، أخرجه الدارمي.

﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ أي: في حال إهلاكه لماله في غير أوجه الخير، أيظن أنه غير مراقب؟ بلىٰ، مراقب من الله، ومراقب من ملائكة الله، فإن الله بكل شيء عليم، وملائكة الله تخط عليه ما يفعل: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق:١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾[الزخرف: ٨٠]، زد علىٰ ذلك: أن جوارحه تشهد عليه يوم القيامة: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[النور:٢٤].

ثم يقول الله عز وجل ممتنًا بنعمه علىٰ عباده لاسيما المعرضين الذي لم يراقبوا الله فيها: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴾ أليست هذه النعمة داعية إلىٰ شكر الله عز وجل، لو كنت أعمىٰ البصر كيف يكون حالك؟ لا تعلم طريق قضاء

الحاجة، ولا تستطيع أن تأتي السوق، وربما ضربت برأسك في عمود، وبرجلك في حجرة أو شوكة، فهذه نعمة جعلها الله لك، فلتستغل في طاعة الله، ومن طاعة الله أن ينظر بها إلىٰ الحلال لا إلىٰ الحرام: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾[النور:٣٠].

ومن طاعة الله أن تتفكر حين تنظر بها: ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) ﴾[الأعراف: ١٨٥]، ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[الغاشية:١٧-٢٠].

﴿ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ أيضًا جعل الله له لسانًا يتكلم به بخلاف غيره من الحيوان أو الجماد ممن هو أكبر منه حجمًا، وأشد منه قوة، ومع ذلك ليس لديه لسانًا يتكلم به ولا شفتان يغطي بها فاه من دخول الأشياء الغريبة إليه، وتستقيم بها الحروف؛ وكثير من الحروف شفوية تتحرك معها الشفة، وتمايز بينها، زد علىٰ ذلك أنها تجمل الوجه، فلو رأيت رجلًا قد أحرقت شفتاه لربما كان منظره يخيف الناظر إليه، وأنت جمَّلك الله بهما، زد علىٰ ذلك أنه جعل لها الشارب من فوق يغطيها بشيء من الشعر، يقصر بين الحين والآخر حتىٰ لا يطول ويؤذي، فتحفظ هذه الشفاه رطوبة الفم، إلىٰ غير ذلك من النعم.

﴿ وَهَدَيْنَاهُ ﴾ أي: سيناله، ﴿ النَّجْدَيْنِ ﴾ أي: طريق الخير والشر، فإن النجد هو الطريق، والمراد بالهداية هنا: الهداية العامة، وهذا مثل قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[الإنسان: ٣]، وقوله عز وجل: ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[الكهف: ٢٩]، ومثل قول الله عز وجل: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾[الليل: ٥-١٠]، وقوله عز وجل: ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه:٥٠]، فيعرف الإنسان مصالح نفسه.

ثم قال: ألا يستغل هذه النعم في اقتحام العقبة الكؤود المتعبة التي لا يصل إلىٰ الجنة إلا باقتحامها: ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ ﴾ والاقتحام: هو الدخول في الشيء بقوة، يقولون: اقتحم الجيش المدينة، إذ دخلها بقوة وبطش، ﴿ الْعَقَبَةَ ﴾ مفسرة بما بعدها، قال قتادة: إنها قحمة شديدة فأقحموها بطاعة الله، وقال ابن زيد: أفلا سلك الطريق الذي فيه النجاة والخير.

ثم بينها فقال: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ هذا هو تفسير العقبة: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾، فعن الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمْنِي عَمَلًا يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «لَئِنْ كُنْتَ

أَقْصَرْتَ الْخُطْبَةَ، لَقَدْ أَعْرَضْتَ الْمَسْأَلَةَ، أَعْتِقِ النَّسَمَةَ، وَفُكَّ الرَّقَبَةَ». فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَلَيْسَتَا بِوَاحِدَةٍ؟ قَالَ: «لَا، إِنَّ عِتْقَ النَّسَمَةِ أَنْ تَفَرَّدَ بِعِتْقِهَا، وَفَكَّ الرَّقَبَةِ أَنْ تُعِينَ فِي عِتْقِهَا، وَالْمِنْحَةُ الْوَكُوفُ، وَالْفَيْءُ عَلَىٰ ذِي الرَّحِمِ الظَّالِمِ، فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذَلِكَ، فَأَطْعِمِ الْجَائِعَ، وَاسْقِ الظَّمْآنَ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذَلِكَ، فَكُفَّ لِسَانَكَ إِلَّا مِنَ الْخَيْرِ»، أخرجه أحمد.

وأفضل الرقاب في العتق: أنفسها عند أهلها وأغلاها ثمنًا، كما قال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-، وإعتاق النفس المملوكة أجرها عظيم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً، أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ، حَتَّىٰ فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ». متفق عليه، ويدخل فيها إعتاق الأسارىٰ، قال الله عز وجل: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾[الإنسان: ٨].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «فُكُّوا الْعَانِيَ - يَعْنِي الْأَسِيرَ - »، أخرجه البخاري.

﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ ومن العقبة أيضًا إطعام الطعام في يوم المجاعة، أما في يوم الرخاء كل إنسان يطعم، طبخت قدرًا من الرزق أكلت منه أنت والأبناء وزادت فضله تطعم، طبخت لحمًا وزاد فضله تطعم، لكن هذا الصنف ميز أنه يطعم في يوم ذي مسغبة، يوم الجوع الشديد، فيؤثر علىٰ نفسه وعلىٰ أبنائه، كما في حال ذلك الرجل الذي ضاف ضيف النبي -صلىٰ

الله عليه وسلم-، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنِّي مَجْهُودٌ، فَأَرْسَلَ إِلَىٰ بَعْضِ نِسَائِهِ، فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَىٰ أُخْرَىٰ، فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّىٰ قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، فَقَالَ: «مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللهُ؟»، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: أَنَا، يَا رَسُولَ اللهِ، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَىٰ رَحْلِهِ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: لَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي، قَالَ: فَعَلِّلِيهِمْ بِشَيْءٍ، فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَطْفِئِ السِّرَاجَ، وَأَرِيهِ أَنَّا نَأْكُلُ، فَإِذَا أَهْوَىٰ لِيَأْكُلَ، فَقُومِي إِلَىٰ السِّرَاجِ حَتَّىٰ تُطْفِئِيهِ، قَالَ: فَقَعَدُوا وَأَكَلَ الضَّيْفُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «قَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ»، متفق عليه.

وفي حديث عبدالله بن سلام يحسنه بعض أهل العلم، قال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»، أخرجه الترمذي.

وفي حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَىٰ مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»، أخرجه البخاري.

﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ أي: أطعم في مثل هذا اليوم يتيماً تربطه بينه وبينه قرابة من رحم أو غيره، والعناية باليتيم من الأمور المهمة عَنْ سَهْلٍ، قَالَ رَسُولُ اللهِ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَنَاوَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا». وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَىٰ، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا ".

﴿ أَوْ مِسْكِينًا ﴾ أي: فقيرًا مدفعًا معه، ﴿ ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ كأنما ألصق بالتراب من شدة فقره، يقولون: فلان فقير متربة، أي أنه أنحط في الفقر إلىٰ أسفل درجاته، بحيث لا يملك شيئًا عينيًا ولا غير ذلك، وهذا يعان ويطعم.

﴿ ثُمَّ كَانَ ﴾ هذا المطعم والمنفق في أوجه الخير، ﴿ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾؛ لأن الكافر وإن أعتق أو تصدق، وأطعم لا يقبل منه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾[الفرقان: ٢٣].

أليس عبدالله بن جدعان كان له جفنة كبيرة يحملها أربعة كل يوم يطعم بها فقراء مكة، ومع ذلك جاء عَنْ عَائِشَةَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»، أخرجه مسلم.

لكن يشترط فيمن ويتجاوز هذه العقبة أن يكون من الذين آمنوا، واستيقنوا بقلوبهم، وعملوا بجوارحهم، فإن الإيمان عند أهل الحق: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان.

﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ فيما بينهم يوصي بعضهم بعضًا بالصبر علىٰ أقدار الله، وعلىٰ طاعة الله وعن معصية الله، فإن ذلك من أسباب تثبيتهم والله عز وجل قد وصىٰ نبيه بالصبر في مواطن: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾[الطور:٤٨]،

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلا بِاللهِ﴾ [النحل:١٢٧]، ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾[المزمل:١٠].

﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ تواصوا بالتراحم فيما بينهم، كما قال تعالىٰ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح:٢٩].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ...»، أخرجه الترمذي.

فالرحمة مطلوبة، ولا تنزع إلا من شقي، وأما المؤمن فإنه رحيم؛ ولذلك تجد رحمته في زوجه وفي أبنائه وفي أصحابه، بل وفي المجتمع، يحذر من الشرور والآثام، ويدعوهم إلىٰ طريق الجنان.

﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ أي: أصحاب الجنة الذين وصفهم الله بقوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾[الواقعة:٢٧-٣٨]. ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾[الواقعة: ٨٨-٩١]، سموا بأصحاب اليمين؛ لأنهم يأخذون كتبهم بأيمانهم يوم القيامة، وفي الدنيا يقدمون اليمين في كثير من شؤونهم.

«كان النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- يناول ويأخذ ويأكل بيمينه، وكان يحب التيمن في كل شيء»، متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها، فصفة اليمين صفة لأهل الإسلام، وصفة الشمال صفة لأهل الإجرام.

وبعد أن بين حال المؤمنين قال: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ الذين جحدوا الآيات وكذبوا بها وردوها وأبوها وأعرضوا عنها: ﴿ هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ أي: أصحاب الشمال، وقد قال الله عز وجل في وصفهم: ﴿ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾[الواقعة: ٩]، ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ * لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَىٰ الْحِنْثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾[الواقعة:٤١-٥٠].

فهم أصحاب الشؤم، وأصحاب الشمال في دنياهم وأخراهم، حتىٰ في قيامتهم يأخذون كتبهم بشمائلهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾[الحاقة:٢٥-٢٧].

﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴾ أي: أصحاب المشأمة في نار، قد أغلقت وأطبقت عليهم أبوابها، زد علىٰ ذلك أنهم في عمد ممددة، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾[الهمزة: ٨- ٩].

والحمد لله رب العالمين.

سورة الشمس

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا * كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾[الشمس:١-١٥]

مكية.

﴿ وَالشَّمْسِ ﴾ أقسم الله بهذا المخلوق العظيم الذي جعله الله عز وجل مضيئًا لهذا العالم الذي نحن فيه، فنستفيد من ضوئها وحرها، ومن شروقها وأفوالها.

والأصل أن لله عز وجل يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ تعظيمًا لشأنها وبيانًا لمنزلتها، وأما المخلوق فلا يجوز له الحلف إلا بالله عز وجل؛ لأن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- يقول: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»، متفق عليه عن عمر رضي الله عنه، وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَلَا بِالطَّوَاغِيتِ»، متفق عليه.

وعنْ سَعْدٍ رضي الله عنه قَالَ: حَلَفْتُ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ثُمَّ انْفُثْ عَنْ يَسَارِكَ ثَلَاثًا، وَتَعَوَّذْ وَلَا تَعُدْ»، أخرجه ابن ماجه والنسائي.

إلىٰ غير ذلك من الأدلة.

وقيل: بأن في الآية محذوفا وهو: ورب الشمس وضحاها، ورب الضحىٰ، ورب العصر، والمعنىٰ الأول أليق من أن الله عز وجل فعال لما يريد.

فيقول ربنا سبحانه وتعالىٰ: ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ قيل المراد به الضوء الذي ينبعث منها، وقيل المراد به النهار الذي يكون بسببها.

أي: أقسم الله عز وجل بالشمس، وأقسم بضحاها وهو النور الذي يغطي البسيطة.

﴿ وَالْقَمَرِ ﴾ وأقسم بالقمر المخلوق العظيم الذي جعل فيه آيات ظاهرات بينات، به يعرف تعاقب الشهور والأعوام، وبه يعرف الحساب، ومن عجيب شأنه أنه يبدأ هلالًا وينتهي بذلك، فيترقىٰ من مطلع إلىٰ مطلع حتىٰ يكتمل ليلة الرابع عشر أو الخامس عشر ثم يعود كالعرجون القديم، حتىٰ يصير هلالًا آخر لكن من جهة المشرق، فإذا ما ذهب نوره وصعد مرة أخرىٰ من المغرب كان بدأ الشهر.

فيقول الله عز وجل: ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴾ أي: تلاها في الظهور والخروج، وقيل تلاها؛ لأنه يكون بعدها، والذي يظهر أن المعنىٰ الأول هو المقارب؛ لأن النهار أولًا ويتلوه الليل، والقمر يكون في الليل.

﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴾ وأقسم أيضًا بالنهار الذي جعله لمعائش الناس، كما أنه جعل الليل لسبات الناس وراحتهم، وهذا من فضله عليهم.

إلا أنهم اختلفوا في قوله: ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴾ هل المعنىٰ يعود إلىٰ الشمس؛ لأن بعض أهل العلم جعل المعنىٰ يعود إلىٰ الشمس في جميع هذه الآيات.

﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴾ جلَّا الظلمة وغشي البسيطة بنوره، ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ يغشىٰ الشمس بظلمته فيذهب بضوئها، وقيل يغشىٰ البسيطة، وهذا هو الصحيح؛ لأن الشمس ربما تكون شارقة في موطن آخر.

﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾ أقسم بالمخلوق العظيم والجرم الكبير الذي جعله الله عز وجل سقفًا محفوظًا لهذه البسيطة، وأفرد السماء، ويدخل فيها جميع السموات، لأنها اسم جنس. حُليَّ بالألف واللام، فأفاد العموم.

﴿ وَمَا بَنَاهَا ﴾ قيل والذي بناها، والمعنىٰ والسماء والله، الذي بناها فكأنه حلف بالسماء وحلف بالذي بنىٰ السماء.

وقيل أيضًا والسماء وبنيانها، أي أنه أقسم بالسماء ذلك الجرم العظيم الذي ما بين أسفل كل سماء وأعلاه مسيرة خمسمائة عام، وأقسم ببنائها، أو وأقسم بنفسه المقدسة التي بنت تلك السماوات، وهذا دليل علىٰ قدرته العظيمة، فإنه لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض وهو العلي القدير سبحانه وتعالىٰ.

﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ أي وأقسم بهذه البسيطة التي نحن عليها وما فيها من الجبال والوديان والوهاد والبحار والأنهار والصحاري والقفار.

﴿ وَمَا طَحَاهَا ﴾ أي دحاها، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾[النازعات: ٣٠-٣١] وقد بسط الأرض وأعدها؛ لمصالح العباد ولمنافعهم.

وهذا ظاهر جلي، فلو كانت الأرض كلها علىٰ حالة واحدة ربما ما صلحت لسكنىٰ الناس، ولوجدوا فيها العنت والتعب، لكن -سبحان الله- جعل فيها الجبال، وفيها من الثمار والمياه والمناخ ما يصلح به حال أهله، وخلق الأرض منبسطة، وفيها من التربة والمناخ ما يصلح به أهله، ويقع بها خير عظيم.

ثم قال: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ أي: أقسم بنفسه وما سواها وقيل المراد نفس الإنسان المكلف أقسم الله بها؛ لعجيب شأنها.

فتفكر في نفسك أيها المخلوق، كيف تكون بين الحين والآخر تارة في فرح وتارة في حزن، وتارة في سرور وتارة في غضب وتشعر بتغيرات بداخلك وأنت جالس في موطنك، ربما تشعر بشدة حال وضيق نفس، وربما تشعر بانشراح صدر وسرور حال، وربما يغضبك ما لا يغضب، ويفرحك ما لا يفرح، وربما العكس.

فأقسم الله بهذه النفس ﴿ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ أي: والذي سواها هو الله سبحانه وتعالىٰ، خلقها علىٰ هذه الهيئة العظيمة، وقيل المراد جميع الأنفس المخلوقة، أقسم الله عز وجل بجميع مخلوقاته التي لها نفس، ولولا أن الله عز وجل جعل في الإنسان نفسًا لكان كالتمثال.

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ أي: فأرشدها إلىٰ فجورها وتقواها وبين لها ذلك وليس فيه أن الله عز وجل يحب الشر ويرضاه، بل إنه يبغضه ويأباه،

ولكن هذا كقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[الإنسان:٣]، وكقول الله عز وجل: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾[البلد:١٠].

فالله عز وجل خلق الناس علىٰ حالين:

١- حال إيمان وبر وهدىٰ.

٢- وحال إجرام وكفر وبغي.

ومعنىٰ ألهمها فجورها وتقواها، أي أن هذه النفس سائرة إما إلىٰ فجور إذا عصت الله عز وجل، وإما إلىٰ هدىٰ وتقىٰ إذا لازمت شرع الله عز وجل.

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أن الله عز وجل خالق كل شيء، إلا أنه خلق الخير وهو يحبه ويأمر به، وخلق الشر ولا يحبه وينهىٰ عنه، فهذا هو المعنىٰ، حتىٰ لا يتبادر إلىٰ الذهن معنىٰ يخالف ما عليه اعتقاد أهل السنة والجماعة.

فالمعنىٰ جعل ما فيها من الفجور والتقوىٰ، وذكر سبحان الله الفجور قبل التقىٰ؛ لأن أكثر الناس علىٰ مخالفة لأمر الله عز وجل، وإعراض عن دين الله عز وجل، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[يوسف:١٠٣].

ثم في الآية معنىٰ عظيم: وهو أن الله هو الذي يهدي من يشاء إلىٰ أقوم الطرق وأحسن السبل؛ فضلًا منه ومنة ورحمة، ويضل من يشاء عدلًا منه ونقمة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت ٤٦]

وفيها بيان أن نفوس البشرية تنقسم إلىٰ قسمين:

١- نفوس طائعة، وهي الممدوحة.

٢- ونفوس فاسدة فاسقة، وهي المذمومة.

وفيها أن صلاح العبد يعود إلىٰ صلاح نفسه، فمن كان في نفسه صالحًا كان في ظاهره صالحًا، ومن كان في نفسه فاسدًا كان في ظاهره فاسدًا.

وبهذا تعلم أيها المسلم أنه يجب عليك أن تعالج نفسك بإخلاص العمل لله عز وجل وحسن المراقبة له، والمحبة لرسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم-، ولأصحابه ولمن سار علىٰ سيره وهديه، والمحبة لكل كمال، والبغض لكل رذيلة.

فهذه إحدىٰ عشر قسمًا، أقسم الله عز وجل بها.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ أفلح في الحياة الدنيا، من زكىٰ نفسه بطاعة الله عز وجل، والفلاح هو حصول المطلوب والسلامة من المرهوب.

والمعنىٰ الثاني: أن المفلح هو من زكاه الله عز وجل، وكلا المعنيين صواب، فالموفق للطاعات هو الذي يوفقه الله عز وجل: ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[النور:٢١]، وقد قال تعالىٰ: ﴿ قَد أَفلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾[الأعلى ١٤]، وفي دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[البقرة:١٢٩]، أي يطهرهم من درن الذنوب والمعاصي.

وفي دعاء النبي –صلىٰ الله عليه وسلم-: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها»، أخرجه مسلم عن زيد بن ثابت رضي الله عنه.

وقوله: ﴿قَدْ﴾ تدل علىٰ التكثير وتدل علىٰ التحقيق ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ زكىٰ النفس؛ لأن النفس إذا زكت زكت الأعمال، وإذا فسدت فسدت الأعمال كقول النبي –صلىٰ الله عليه وسلم-: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ».

﴿وَقَدْ خَابَ﴾ خاب في الدنيا وفي الآخرة: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾[طه:١١١]. لحقته الخيبة والخسارة.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ أي: أخملها، ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدىٰ، وذلك بارتكاب المخالفات وبالمعاصي والسيئات، فأصبحت مخذولة سيئة غير محبوبة.

فيقول الله عز وجل بعد أن أقسم هذه الأيمان: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ وبهذا تعلم عظم شأن هذه النفس وحاجة العبد إلىٰ مراقبة الله فيها وإلىٰ صلاحها والنفس صلاحها بغير ما يصلح البدن، نعم هناك تعلق، لكن البدن يصلحه الطعام والشراب والنوم ونحو ذلك، والنفس تصلح بقراءة القرآن، وبذكر الملك الديان، والوقوف بين يدي الرحمن،

والعمل بوحي الله عز وجل المنزل علىٰ النبي العدنان -صلىٰ الله عليه وسلم-.

ثم أخبر الله عز وجل عن حال ثمود مع نبيهم: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ أي: أن قوم ثمود كذبوا بنبوة صالح عليه السلام، وأمره لهم بالكف عن الناقة.

وكان سبب ما لحقهم من التكذيب هو الطغيان والفجور؛ لأن النفس إذا كان معها طغيان لا يصلح معها شيء، فلا تنفعها دعوة، ولا تذكير، وقيل معنىٰ ﴿ بطغواها ﴾ أي بأجمعها، فتمالؤوا جميعًا علىٰ عقر الناقة.

﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ أي: قام أشقىٰ القوم، رجل عزيز في رهطه كعبد ابن زمعه، فعن عَبْدِ اللهِ بْنِ زَمْعَةَ، قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرَ النَّاقَةَ، وَذَكَرَ الَّذِي عَقَرَهَا، فَقَالَ: «﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾: انْبَعَثَ بِهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ، مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ»، متفق عليه، قام إلىٰ تلك الناقة التي أمرهم الله بإكرامها، والشرب من لبنها، والقسمة للماء الذي بينهم وبينها، انبعث إليها وعقرها، وسماه الله شقيًا؛ لأنه أعرض عن أمر الله وأمر رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم-.

وأضاف الله عز وجل الذبح إليهم جميعًا؛ لأنهم رضوا وتمالؤوا، والراضي كالآمر ففي: ﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ أي: قام مسرعًا إلىٰ فجوره وظلمه وبغيه.

﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﴾ صالح عليه السلام، ﴿ نَاقَةَ اللهِ ﴾ اتركوا ناقة الله ولا تعترضوها ولا تمسوها بسوء، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ * فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾[هود: ٦٤-٦٥] وأضافها الله إلىٰ نفسه إضافة تشريف.

ومن الفوارق بين إضافة الصفات إضافة التشريف:

أن الصفة معنىٰ يقوم بغيره فإضافته إلىٰ الله إضافة صفة: وجه الله، سمع الله، بصر الله، إرادة الله، محبة الله، غضب الله، أي أن الله موصوف بهذه الصفات، أما الناقة والبيت والعبد يقوم بنفسه، فإضافته إلىٰ الله إضافة تشريف أو خلق وملك وإيجاد.

﴿ وَسُقْيَاهَا ﴾ يعني اتركوا سقياها لا تعترضوه؛ لأنهم كانوا يشربون من لبنها يومًا وهي تشرب الماء يومًا قسمها الله بينهم، ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾[الشعراء: ١٥٥]، ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴾[القمر: ٢٨]، فأبوا وخالفوا هذا الأمر، ولو التزموا الشرع لكان خيرًا لهم.

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أعرضوا عن أمره، وارتكبوا نهيه وزجره، ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ كذبوا رسالته ونبوته، ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ عقرها واحد، وأضاف الله العقر إليهم جميعًا؛ لأنهم تمالؤوا، ولذلك كان العذاب عليهم جميعًا، ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ ﴾

أهلكهم وغطاهم بسبب تلك المعصية العظيمة والجرم الكبير؛ بتكذيب النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-، وتكذيب ما أمر الله به، ومخالفة شرع الله عز وجل، ﴿ بِذَنبِهِمْ ﴾ بسبب ذنوبهم، ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ سوَّىٰ تلك القرية حيث أهلكها، فأخذتهم الصاعقة من فوقهم، والزلزلة من تحتهم، وبركوا علىٰ ركبهم يستغيثون فلا يغاثون، كما قال عز وجل: ﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ * فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴾[هود: ٦٤ - ٦٨]، وهذا هو بطش الله الذي لا يعجزه شيء سبحانه وتعالىٰ، فزك نفسك، فإن هؤلاء لم يزكوا أنفسهم فلحقهم هذا العذاب، وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾[فصلت:١٧-١٨].

﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ أي: أن الله تعالىٰ لا يخاف من أحد تبعة؛ لأنه المالك المطلق، والقاهر الذي لا يغلب.

وقيل: لم يخف الذي عقرها عاقبة ما صنع، والقول الأول أولىٰ لدلالة السياق عليه، قاله ابن كثير.

ففي هذه السورة آيات بينات ودلائل واضحات، وهي مرتكزة علىٰ ثلاثة أمور:

الأول: القسم؛ من أجل تأكيد المحلوف عليه، والقسم يكون بالله عز وجل أو بصفة من صفاته، هذا في حق العبد، أما في حق الله عز وجل فله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

الثاني: أن زكاة النفس بطاعة الله وتوحيده وهي قطب وحي السعادة، وسبب الفلاح العظيم.

الثالث: قص الله عز وجل لنا ما لحق ثمود في اعتراضهم علىٰ شرع الله وأمره، فأهلكهم ودمدم عليهم، ولم يخف عاقبة ذلك الهلاك؛ لأنه القوي الذي لا يعجزه شيء، والغني الذي لا ينقصه شيء سبحانه وتعالىٰ.

والحمد لله رب العالمين.

سورة الليل

﴿ بِسْمِ اللهِ الْرَّحمَنِ الْرَّحِيم ﴾

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ * إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ * وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ *

فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى * وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾[الليل: ١-٢١].

مكية، وهذه السورة من وسط المفصل، وقد ثبت أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقرأ بها في صلاة العشاء، وأمر بذلك معاذ ابن جبل رضي الله عنه حين صلى بقومه، فعن جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، كَانَ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمَهُ فَيُصَلِّي بِهِمُ الصَّلاَةَ، فَقَرَأَ بِهِمُ البَقَرَةَ، قَالَ: فَتَجَوَّزَ رَجُلٌ فَصَلَّى صَلاَةً خَفِيفَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاذًا، فَقَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ الرَّجُلَ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بِأَيْدِينَا، وَنَسْقِي بِنَوَاضِحِنَا، وَإِنَّ مُعَاذًا صَلَّى بِنَا البَارِحَةَ، فَقَرَأَ البَقَرَةَ، فَتَجَوَّزْتُ، فَزَعَمَ أَنِّي مُنَافِقٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا مُعَاذُ، أَفَتَّانٌ أَنْتَ - ثَلاَثًا - اقْرَأْ: ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾، وَ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ وَنَحْوَهَا»، متفق عليه.

﴿ وَاللَّيْلِ ﴾ أقسم بالليل، ﴿ إِذَا يَغْشَى ﴾ يغشى البسيطة بظلامه.

﴿ وَالنَّهَارِ ﴾ أقسم بالنهار، ﴿ إِذَا تَجَلَّى ﴾ جلى ضوءه البسيطة وأشرق واستنار.

﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ لها معنيان:

الأول: أنه أقسم بنفسه المقدسة، فقال: والذي خلق الذكر والأنثى.

الثاني: أنه أقسم بالذكر والأنثىٰ.

كما في قراءة عبد الله ابن مسعود، فإنه كان يقرأ ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَىٰ ﴾[الليل:١-٣].

. وإذا تأملت هذه المقسومات الثلاثة وجدت أن الله عز وجل أقسم بالمتقابلات، فأقسم بالليل ويقابله النهار، وأقسم بالنهار ويقابله الليل، وأقسم بالذكر ويقابله الأنثىٰ، وهذا عام في كل ذكر وأنثىٰ من الحيوان.

وهنا فائدة: وهي ما جاء به داروين الملحد، وتابعه كثير من الناس بنظرية النشوء والتطور، وهي أن الانسان كان مخلوقًا علىٰ غير هذا الخلقة، ثم تطور حتىٰ صار قردًا، ثم تطور حتىٰ صار إنسانًا بشريًا.

وهذه النظرية كفرية؛ إذ أنها تُخالف الكتاب والسُنة والإجماع، فإن القرآن والسنة والإجماع قائم علىٰ أن الله خلق آدم أبا البشر عليه السلام من تراب، كما قص الله عز وجل علينا قصته في سورة البقرة، والحجر، والإسراء، وص، والكهف، وطه، وفِي غير ذلك من السور.

ثم يقول سُبحانه وتعالىٰ مبينا المقسم عليه: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ ﴾ أي إن ما تعملونهُ يا معاشر الناس ﴿ لَشَتَّىٰ ﴾ متنوع ومتفرق، فمنهم من يعمل بأعمال أهل الصلاح والخير، ومنهم من يعمل بأعمال أهل الشر والضير، وهذا كقول الله عز وجل: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ

﴿فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف:٢٩]، فكثير من الناس سلك سبيل الإجرام، وقليلهم الذين سلكوا سبيل أهل الإيمان.

وإذا نظرت إلىٰ من حولك تجد معنىٰ هذه الآية: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ في أمور الدنيا والدين، فليس كل الناس في أمور الدنيا علىٰ معنىٰ واحد، هذا يعمل في التجارة، وهذا في الزراعة، وهذا في الصناعة، وهذا يدرس، وهذا ينام، وهذا يفعل ويفعل.

وفِي أمور الدين: تجد هذا يقبل علىٰ طاعه الله عز وجل وتوحيده، وإفراده بما يجب له، وعلىٰ الصلاة والصوم والحج، وهذا عنده نوع تفريط، ويوجد أشد من ذلك، من يكفر بالله عز وجل، ورسله، وملائكته، وكتبه، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وغير ذلك.

ثم يبين سُبحانه وتعالىٰ حال كل طائفة، فقال: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ ﴾ أي: أعطىٰ المال في سبله، وأعطىٰ الأعمال الصالحة التي طلبت منه، وإن كانت الآية بمنطوقها يدخل فيها إعطاء المال أولًا في أوجه الخير، فكذلك هي شاملة لكل عمل صالح، فهو عطاء تتقرب به الىٰ الله عز وجل، ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ ﴾ ما وجب عليه، ﴿ وَاتَّقَىٰ ﴾ راقب الله عز وجل بفعل المأمور وترك المحظور، فإن من معاني التقوىٰ أن تجعل بينك وبين عقاب الله عز وجل وقاية.

ومن أعظم أسباب التقوىٰ: الإيمان والعمل الصالح قال تعالىٰ: ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاة وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة:٢-٤]، وهكذا يتقي الله عز وجل بترك المحظور، فما نهىٰ الله عز وجل عنه أجتنبه وابتعد عنه.

﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَ ﴾ قيل صدق بالوعد والجزاء، وقيل بالجنة، وقيل بلا إله إلا الله، وقيل غير ذلك، وكلها معاني مُتقاربه، بمعنىٰ أنه صدق وعد الله للمؤمنين، بإثابتهم ومجازاتهم الجزاء الأوفىٰ؛ ولذلك بادر إلىٰ العمل الصالح، والتزم لا إله إلا الله قولًا وفعلًا واعتقادًا.

﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ أي: أن من أعطىٰ واتقىٰ وصدق بالحسنىٰ جزاءه في الدنيا أن ييسره الله عز وجل ليسرىٰ العمل، ويرفع عنه الأغلال والآصار التي كانت علىٰ من قبلنا، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ، وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ»، أخرجه البخاري.

والمعنىٰ الثاني: أنه ييسر لسلوك سبيل اليسرية في قبره، فيسئل فيجيب، وعلىٰ الصراط يمر كمر البرق أو الريح أو الخيل أو غير ذلك، ويؤمن من الفزع الأكبر، فييسره الله عز وجل لكل خير، والتيسير بيد الله:

إذا لم يكُـن عـون مـن الله للفتىٰ فـأول مـا يجنـي عليـه اجتهـاده

فما تستطيع أن تصلي إلا إذا أعانك الله، أو تتصدق أو تتكلم أو تقوم أو تقعد إلا بتيسير الله عز وجل، فإذن الطائع يوفقه الله، والعاصي يخذله الله.

وبعد أن ذكر صنف أهل الإيمان ثناه بأهل الإجرام فقال: ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴾ بخل بما أوجب الله عليه، فبخل بالزكاة المفروضة، وبالنفقات الواجبة، وبخل علىٰ نفسه بالطاعات فلم يأتي بالصلاة والصيام، وقبل ذلك التوحيد وغير ذلك مما أوجب الله عليه، واستغنىٰ عن الله، وإن كان لا يستطيع أن يستغني عن الله في الواقع، لأن ما من مُخلوق إلا وهو فقير إلىٰ الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[فاطر:١٥]، ولكنه يتكبر ويتجبر، ويظهر أنه مستغنا عن الله، والله هو الغني الحميد سُبحانه وتعالىٰ، لا يضره أعراض المعرضين ولا تكبر المتكبرين.

ما عساك أيها الإنسان فإذا نظرت إلىٰ من حولك أنت فرد في أسرة، في مجتمع، في دولة، أنت لا تستطيع أن تعيش إلا بمن يعينك علىٰ هذه الحياة، تحتاج إلىٰ زوجة وولد ودكان وحمام وغرفة نوم وسيارة وغير ذلك، أنت فقير، فلا تستطيع أن تستغني عن الله، لكن إذا استغنىٰ ورأىٰ نفسه متكبر جازاه الله عز وجل علىٰ سوء فعله.

﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾ أي: كذب بالتوحيد، أو كذب بالوعد، أو كذب بالجنة، علىٰ المعاني السابقة: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ يجعله الله عز وجل في عسر في جميع شأنه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً

ضَنْكًا ﴾[طه:١٢٤]، وبعد مماته ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾[طه:١٢٤]، ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾[الحج:٣١]

وكذلك تعسر عليه أعماله، فالدين يُسر والبدعة عُسر، والتوحيد يُسر والشرك عُسر، والطاعة يُسر والمعصية عُسر، لكن كثيرًا من الناس لا يفقهون، يتتبعون شهواتهم وأهواهم.

فإذن أمور الدين الموافقة لشرع رب العالمين مبنية علىٰ اليسرية، ومُخالفة الإسلام، والسنة مبنيًا علىٰ العسرية.

ومعنىٰ: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ ﴾: أي يخذل، ليس معنىٰ ذلك أن الله عز وجل يُعينه ويوفقه ويسدد، لا، المشرك لا يوفق ولا يسدد، والعاصي لا يوفق علىٰ معصيته ولا يسدد، بينما المؤمن يُعان من الله؛ ولذلك كان من دعاء النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- «رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ»، «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَىٰ ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ» أخرجه النسائي عن ابن عباس رضي الله عنه.

والمجرم يُخذل، ويسلط الله عليه شيطانه وهواه ونفسه، فيقع فيما وقع فيه من الضلال البعيد.

وفِي هذه الآيات الإيمان بالقدر، ففي الصحيحين عن علي رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذَاتَ يَوْمٍ جَالِسًا وَفِي يَدِهِ عُودٌ

يَنْكُتُ بِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ نَفْسٍ إِلَّا وَقَدْ عُلِمَ مَنْزِلُهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ فَلِمَ نَعْمَلُ؟ أَفَلَا نَتَّكِلُ؟ قَالَ: «لَا، اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾[الليل: ٦]، إِلَىٰ قَوْلِهِ ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ١٠] ».

ثم يقول تعالىٰ مبينا ضعف المتكبرين: ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴾ أي: أيها الإنسان لا يغني عنك مالك شيئًا إذا هلكت ومت ولقيت ربك، وإنما الذي ينتفع به العبد يوم القيامه العمل الصالح إذا قبله الله عز وجل.

وقبول العمل مبني علىٰ شرطين:

١- الإخلاص لله عز وجل.

٢- والمتابعة لرسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم-.

فانظر لنفسك أيها المسلم قبل أن تتردىٰ، ولا تجد من يُعينك في ذلك الأمر الذي وقعت فيه، قال النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثٌ؛ فَيَرْجِعُ اثْنَانِ، وَيَبْقَىٰ وَاحِدٌ، يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَىٰ عَمَلُهُ»، أخرجه الشيخان عن أنس رضي الله عنه، فإن تردىٰ لا يبقىٰ معه، إلا العمل، إن كان صالحًا فنعم هو، وإن كان غير ذلك فبئس ما هو، نسأل الله السلامة.

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ يقول الله عز وجل الذي علينا: أن نهدي الناس، ونبين لهم طريق الخير من طريق الشر والضير.

والهداية أنواع:

١- هداية التوفيق وهذه خاصة بالله عز وجل، ويعطيها الله عز وجل للمؤمنين الموحدين الطائعين.

٢- وهداية الدلالة والإرشاد، وهي عامة فإن الله أرسل رسله، وأنزل كتبه؛ لهداية الناس، قال الله عز وجل: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الشورىٰ:٥٢]، فيقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ أي: البيان لطرق الخير والشر، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[الإسراء:١٥].

﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴾ يقول الله عز وجل: وإن لنا الآخرة، فنجازي المؤمنين بإحسانهم، ونجازي الكافرين بإجرامهم، فيخلد المؤمنون في جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، ويخلد الكافرين في نار أُعدت للكافرين.

وهذه الآية فيها معنىٰ عجيب: إذا كانت الآخرة لله والأولىٰ لله، فلماذا تكون علىٰ غير مراد الله؟!

فلو دخلت بيتك ووجدت ولدك يعمل علىٰ غير ما تُريد، ماذا سيكون خطابك له -أنا أحدثكم عن ما يقع منا جميعًا- خطابنا: هذا بيتي! لماذا تفعل فيه ما لم آذن لك؟! فهنا يقول الله عز وجل: ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ ﴾ يجازي المحسنين بأحسن الجزاء؛ والآخرة أكمل، والأولىٰ هي ملك الله، وأرض

الله، وخلق الله، فينبغي أن يكون المسلم علىٰ ما أراد الله، وإلا كان عاصيًا لله متصرفًا في ملك الله بما لم يأذن الله عز وجل به شرعًا؛ لأن الإذن الكوني يختلف عن الإذن الشرعي، الإذن الكوني كل يفعل ما كُتب عليه في الأزل، وأما الأذن الشرعي فهو الطاعة وترك المعصية.

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ ﴾ خوفتكم، ﴿ نَارًا تَلَظَّى ﴾ نارًا ملتهبة مُحرقه، نسأل الله أن يجنبنا وإياكم من حرها وسمومها.

قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾[المائدة:٧٢]، مسكنه النار: ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾[المائدة:٧٢].

وقال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾[النساء:٥٦].

قال الله عز وجل: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَردا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيما وَغَسَّاقا * جَزَاء وِفَاقًا ﴾[النبأ:٢٤-٢٦].

وهنا يقول: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ ﴾ خوفتكم، والنبي -صلىٰ الله عليه وسلم- كان يقول «أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ»، حَتَّىٰ لَوْ كَانَ رَجُلٌ كَانَ فِي أَقْصَىٰ السُّوقِ، سَمِعَهُ، وَسَمِعَ أَهْلُ السُّوقِ صَوْتَهُ، وَهُوَ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ، أخرجه أحمد عن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رضي الله عنه.

وقد أرسل الله عز وجل الرسل بالنذارة والبشارة، كما قال تعالىٰ: ﴿ رُسُلا مُبَشِّرِينَ ﴾ أي بالخير والجنة، ﴿ وَمُنْذِرِينَ ﴾ أي: من النار والعذاب.

﴿ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ مُحرقة، حرها شديد، وقعرها بعيد، ومن استغاث فيها أُغيث، لكن بماءً كالمهل يشوي الوجوه وساءت مُرتفقا، ماذا تقول في وصفها أبلغ من ما وصفها الله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾[فاطر:٣٦-٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[التحريم:٦].

ثم قال في وصف هذه النار واهلها: ﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَىٰ ﴾ أي: أنه لا يسكن فيها ويخلد إلا الشقي والمراد به الكافر، وهذا كقول الله عز وجل: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَىٰ * وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَىٰ * الَّذِي يَصْلَىٰ النَّارَ الْكُبْرَىٰ * ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَا ﴾[الأعلىٰ:١٠-١٣]، وأما المسلم إذا دخلها لذنب اقترفه أو بسبب تفريطه، فإنه يخرج منها بعد ذلك، وفي حديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَلَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ نَارٌ بِذُنُوبِهِمْ أَوْ بِخَطَايَاهُمْ فَأَمَاتَتْهُمْ إِمَاتَةً، حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا أُذِنَ لَهُمْ فِي الشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ

ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَىٰ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، فَقِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ. فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ».

﴿ الَّذِي كَذَّبَ ﴾ أي: الأشقىٰ هو الذي كذب بآيات الله الشرعية، وربما وقع منه التكذيب أيضًا بالآيات الكونية، لكن أغلب الناس يُؤْمِن أن الله هو الخالق الرزاق المالك المدبر لهذا العالم ولكنه يكفر ويكذب بآيات الله الشرعية، التي هي القرآن والسنة.

﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أعرض عن الكتاب والسنة علمًا وعملًا، وكل متولي له حضه من الآية، فبعضهم يتولىٰ توليًا كليًا كالكافرين، وبعضهم يتولىٰ توليًا جزائيًا كعصاة المسلمين، فينبغي للمسلم أن يحتاط لنفسه.

ثم قال: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ﴾ أي: النار التي تلظىٰ، ينجو منها ﴿ الأتقىٰ ﴾ الذي يفعل المأمور ويترك المحظور.

فالتقوىٰ لها حدان:

الحد الأول: فعل المأمور.

والثاني: ترك المحظور.

قال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ» متفق عليه، وإذا اجتمعت مع البر: فالبر الطاعة، والتقوىٰ ترك المعصية.

والأتقىٰ هو: ﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴾ ينفق في سبيل الله، ليزكي نفسه، كما قال تعالىٰ: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾[التوبة:١٠٣].

فمن معاني الزكاة أنها تزكي المال، تنميه وتصفيه، وكذلك تزكي الأنفس عن البخل والشح والطمع وغير ذلك.

وذكر الله المال في هذه الآيات قبل الصلاة مع أن الصلاة أوكد في الفرض؛ لأن المجتمع المسلم في بداية إسلامه كان فقيرًا، يحتاج إلىٰ الإعانة، ويحتاج إلىٰ التكاتف والتعاون، ولأن الكفار كان قد انتشر عندهم الرباء والبخل وغير ذلك، فا أراد الله تمييز المسلمين في سعة الإنفاق والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ.

وكان عطاؤه لله لا لجزاء، ولهذا قال: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴾ قيل: هذه الآيات نزلت في شأن أبي بكر الصديق، وعليها الإجماع، أي أنه يؤتي ماله يتزكىٰ، يزكي نفسه، وكان إنفاقه قربة لله عز وجل وليس مجازاة علىٰ فضل سابق ممن أنفق عليه.

وبيانه: أن بعض الناس يعطيك لأنك أحسنت إليه، ابتسمت له، أعنته، جئته إلىٰ غير ذلك، أما هذا ينفق في سبيل الله وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ له نعمه، وإنما هو تقرب إلىٰ الله عز وجل.

ولذلك أنفق أبو بكر الصديق رضي الله عنه أكثر من أربعين ألف دينار في اعتاق الرقيق، وفي الإنفاق علىٰ رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم-، حتىٰ

قال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- «إن أمن الناس علي في ماله وصحبته أبو بكر»، متفق عليه عن أبي سعيد رضي الله عنه.

﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴾ أي: أن الذي حمله علىٰ هذا الإنفاق أنه يرجو الله، ويخلص لله، ويأمل ثواب الله، ويلتزم أمر الله.

وفِي الآية إثبات صفة الوجه لله عز وجل، وهو من الصفات الذاتية فـ الله عز وجل يقول عن نفسه: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾[الرحمن:٢٧]، ويقول: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾[القصص:٨٨]، ويقول النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»، أخرجه مسلم عن أبي موسىٰ رضي الله عنه.

ويقول النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِكَ»، أخرجه النسائي عن السائب رضي الله عنه.

وفِي الآية بيان عظم الإخلاص لله عز وجل، فإن الإخلاص ينمي العمل ويجعله مقبولًا، والمخلص قد يُؤجر وهو لا يعمل قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم في حديث أَبِي كَبْشَةَ الْأَنْمَارِيِّ: « إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ:... »، وذكر منهم: «وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا، فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ، يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ. فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ»، أخرجه الترمذي.

﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ أي: أن الله سيُعطيه في الآخرة ويرضيه، وهذا وعد لأبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ ففي مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ

صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهِ نُودِيَ فِي الْجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللهِ، هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ» قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا عَلَىٰ أَحَدٍ يُدْعَىٰ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَىٰ أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ».

مع أن الرافضة يطعنون فيه مخالفين لكتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلىٰ الله عليه وسلم وإجماع المسلمين.

والحمد لله رب العالمين

سورة الضحىٰ

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[الضحىٰ:١-١١].

مكية، وفيها معاني بليغة وفوائد بديعة، وقد ذكر بعضهم أنه يستحب عند قراءة الضحىٰ وما بعدها من السور إلىٰ آخر القرآن أن يكبر، فيقول: (الله أكبر ولا إله إلا الله والله أكبر)، لكن هذه السنة لم تروا إلا من طريق أحمد ابن محمد بن عبدالله البزي، وهو من القراء كما ذكر ذلك ابن كثير، إلا أنه ضعيف في الحديث، فلا تثبت.

وسبب نزول هذه السورة ما جاء عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «احْتَبَسَ جِبْرِيلُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ: أَبْطَأَ عَلَيْهِ شَيْطَانُهُ فَنَزَلَتْ: ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴾، ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾، ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾» متفق عليه.

وقد اختلف العلماء في فترة الوحي، فقيل: عشرة أيام وقيل: خمسة عشر، وقيل: أكثر أو أقل.

فقوله: ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴾ أقسم الله عز وجل بالنهار، وقيل بوقت الضحىٰ، الذي هو من طلوع الشمس إلىٰ قبل الزوال، قال الله عز وجل: ﴿ أَوَأَمِنَ أَهلُ ٱلقُرَىٰ أَن يَأتِيَهُم بَأسُنَا ضُحىٰ وَهُم يَلعَبُونَ ﴾[الأعراف:٩٨]، قيل نهارًا، فسمي النهار ببعض وقته.

﴿ وَاللَّيْلِ ﴾ وأقسم بالليل، ﴿ إِذَا سَجَىٰ ﴾ غطىٰ البسيطة.

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ هذا هو المقسم عليه أن الله، ﴿ مَا وَدَّعَكَ ﴾ أي: ما تركك ﴿ وَمَا قَلَىٰ ﴾ أي: لم يبغضك.

فقترة الوحي لم تكن تركًا من الله عز وجل لعبده ولا بغضًا له، وإنما لله عز وجل الحكمة البالغة والحجة الدامغة، وكان في فترة الوحي تشوق من النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- لما يأت بعد ذلك.

وقد ثبت القول بفترة الوحي من حديث جابر في الصحيح، وأما ما جاء من أن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- جعل يصعد علىٰ الجبال؛ يريد أن يتردىٰ فهذا لفظ ضعيف ومنكر، ضعيف؛ لأنه لم يأت من طريق متصل وإنما جاء مرسلًا، ومنكر؛ لأن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- ما كان له أن يتخلق بأخلاق أصحاب الوساوس والأمراض النفسية الذين يعالجون أنفسهم بالانتحار والقتل، ثم إن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- قد أمره الله بالصبر في غير ما موطن، وهو صاحب الخلق النبيل.

ثم بشره بشاره عظيمة: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ وهذا لفظ عام في كل متأخر من أمور الدنيا وفي شأن الآخرة، ليس هو فقط أن الآخرة يا محمد خير لك من الدنيا، بل إن ما يأتي من الليالي والأيام والسنين والأعوام سيكون خيراً لك من هذا الحال الذي أنت عليه، وفعلًا ما مر يوم علىٰ رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم- إلا وفيه من التمكين والعز ما لم يكن في اليوم الذي قبله، وما زال الإسلام يظهر حتىٰ قبض النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-

وقد أتمه الله: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾[المائدة ٣].

وقد خيره الله قبل موته بين زهرة الحياة الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده، كما في حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

فمن سلك سبيل النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- يرجىٰ له هذا: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ ﴾ الأيام الأخيرة الآتية، والآخرة التي هي دار القرار، ﴿ خَيْرٌ لَّكَ ﴾ أيها المستقيم علىٰ دين الله وشرعه ﴿ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ من الحياة الدنيا، ومما سلف من أوائل الأمور.

ثم قال مبشرًا له ببشارة أخرىٰ: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ وهذا أيضًا عامة في شأن الدنيا والآخرة أن الله عز وجل سيعطي محمدًا -صلىٰ الله عليه وسلم-، ومن سار سيره واقتفىٰ علىٰ أثره، في الدنيا، والآخرة حتىٰ يرضىٰ.

ومن أعظم شأن الآخرة: أن الله يرضىٰ عن عبده المؤمن رضًا لا غضب عليهم بعده: « تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ ».

ومن عظيم شأن الآخرة: أن يرىٰ المؤمن ربه فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلىٰ وجه الله عز وجل، ومن عظيم ما يرضي الله به المؤمنين في الآخرة: الشرب من الحوض المورود الذي اختص الله به محمدًا -صلىٰ الله

عليه وسلم-، وهكذا ما يلحقه من الشفاعة، والمرور علىٰ الصراط بأمن وأمان.

وفي قوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ وعد الله لمن حقق التوحيد وأتىٰ بالصلاة وحافظ علىٰ الأركان أن الله عز وجل سيعطيه من خيري الدنيا والآخرة ما يرضيه عن الله وما يرضيه بهذه الحياة.

فلماذا نترك هذا الوعد العظيم ممن لا يخلف الميعاد وتتعلق أنفسنا بدنيا زائلة ووعود كاذبة من الشيطان؟! ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة:٢٦٨].

وقد أرضاه الله، فهاجر إلىٰ المدينة فأمن فيها، وقاتل المشركين فانتصر عليهم، وكان ضعيفًا فقواه الله، وقليلًا فكثره الله، ومحتقرًا عند الناس فعظمه الله عند المؤمنين: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[الفتح:٨-٩].

ثم قال الله عز وجل مبينًا عظيم نعمته عليه: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾ ألم تكن تُربَّىٰ في بيت جدك ثم في بيت عمك بدون أب ولا أم.

واليتيم يلحقه من الضعف والهوان ما الله به عليم، من احتقار الناس، وتسلطهم عليه، وانكسار قلوبهم، ومع ذلك جعل الله محمدًا -صلىٰ الله عليه وسلم- في مأوىٰ عظيم، أحاطه جده ورعاه كأنه ابن، ثم أحاطه عمه أبو طالب ورعاه أعظم من رعاية الإبن، وكان يغضب لغضبه ويرضىٰ لرضاه،

فالله عز وجل يقول لنبيه: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا ﴾ واليتيم يلحقه ما يلحقه، ﴿ فَآوَىٰ ﴾ فأواك وحفظك ورزقك، ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾ أي لم يكن يعلم الكتاب والحكمة فعلمه الله بها، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[النساء ١١٣]

وقال الله عز وجل: ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ ﴾[الشورىٰ:٥٢]، فأنزل الله عليه الوحي الشريف، والآيات البليغات، والحجج البديعات، فعجز الكفار أن يأتوا بمثلها أو بُعشرها.

﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا ﴾ فقيرًا لا مال لك، ﴿ فَأَغْنَىٰ ﴾ أغناه بالغنائم، وفتح علىٰ أمته، حتىٰ سيقت لهم كنوز كسرىٰ وقيصر، وليس الغنىٰ عن كثرة العرض ولكن الغنىٰ غنىٰ النفس كما قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فجمع الله لمحمد -صلىٰ الله عليه وسلم- بين غنىٰ النفس وغنىٰ الحال، إلا أنه كان كثير الإنفاق ربما لا يبقىٰ معه شيء في بعض الأيام؛ لأنه كان يعطي الرجل الغنم بين الجبلين، وما سُئل -صلىٰ الله عليه وسلم- شيئًا وقال لا.

ثم أمره الله بعد أن ذكر له منته عليه: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ كما كنت فقيرًا فآواك فإياك أن تقهر اليتيم بقول أو فعل؛ لأن اليتيم يحتاج إلىٰ مزيد رعاية وعناية ورفق.

﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ كما كنت فقيرًا فأغناك الله وجاءك السائل فإياك أن تنهره، إن أعطيته وإلا فامشي واترك، لا ترد عليه بصوت وإغلاظ أمام الناس.

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ أي: كما أنعم الله عليك حدِّث بنعمة الله، كساك تُرىٰ نعمة الله عليك، وسع عليك في الرزق يُرىٰ أثر نعمة الله عليك بالتوسيع علىٰ أبنائك وعلىٰ أهلك، وبالإنفاق في أوجه الخير، وبالتحدث بنعمة الله عز وجل عليك، وفي الحديث أَبِي الْأَحْوَصِ الْجُشَمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: رَآنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيَّ أَطْمَارٌ، فَقَالَ: «هَلْ لَكَ مَالٌ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟» قُلْتُ: مِنْ كُلِّ الْمَالِ، قَدْ آتَانِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الشَّاءِ، وَالْإِبِلِ، قَالَ: «فَلْتُرَ نِعَمُ اللهِ، وَكَرَامَتُهُ عَلَيْكَ»، أخرجه أحمد والنسائي وغيرهما.

سورة الشرح

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾[الشرح:١-٨]

يقول الله لمحمد -صلىٰ الله عليه وسلم-: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أي: قد شرحنا لك صدرك، شرحه بالتوحيد والوحي والعلم والإيمان، فرزقه الطمأنينة والسكينة، وهدوء الحال والمآل، وهذا كقول الله عز وجل: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾[الزمر ٢٢]، وانشراح الصدر يتحصل بالتوحيد والإسلام وبطلب العلم وبذكر الله: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[الرعد٢٨].

وقيل أن المعنىٰ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أي: ألم نشق لك صدرك في ليلة الإسراء، فعن أنسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ، فَأَتَاهُ آتٍ فَأَخَذَهُ فَشَقَّ بَطْنَهُ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً فَرَمَىٰ بِهَا، وَقَالَ: هَذِهِ نَصِيبُ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ فَأَقْبَلَ الصِّبْيَانُ إِلَىٰ ظِئْرِهِ: قُتِلَ مُحَمَّدٌ، قُتِلَ مُحَمَّدٌ، فَاسْتَقْبَلَتْ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدِ انْتَقَعَ لَوْنُهُ " قَالَ أَنَسٌ: " فَلَقَدْ كُنَّا نَرَىٰ أَثَرَ الْمَخِيطِ فِي صَدْرِهِ " أخرجه أحمد، وقد شق صدر النبي صلىٰ الله عليه وسلم مرتين مرة في صغره وهو يلعب مع الغلمان وشق صدره ليلة المعراج، والصحيح أن المعنىٰ الأول هو الأكمل.

وفي هذا دليل علىٰ أن من أعظم النعم انشراح الصدر؛ فإن كثيرًا من الناس إذا ضاقت صدورهم ضعف إيمانهم ولحقهم الحرج، وكان من دعاء موسىٰ

عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾[طه:٢٥-٢٨].

فكم من إنسان لم يعرف السنة والتوحيد؛ بسبب ما علىٰ صدره من الران الذي يغطي الصدر بكثرة الذنوب والمعاصي نسأل الله السلامة كما قال تعالىٰ: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[المطففين:١٤].

ويُزيل هذا الران الاستغفار، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ، صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ، حَتَّىٰ يَعْلُوَ قَلْبَهُ ذَاكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ».

﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ أي: كفرنا عنك سيئاتك وما لحقك، وهذا كقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾[الفتح:١-٢].

﴿ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أي: أن الذنوب والمعاصي كالحمل الشديد علىٰ الإنسان، لاسيما يوم القيامة، كما قال تعالىٰ: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾[النحل:٢٥].

فتب إلىٰ الله أيها المسلم قبل أن تتحمل هذه الأوزار عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، فَذَكَرَ الْغُلُولَ، فَعَظَّمَهُ، وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، ثُمَّ قَالَ: «لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ

لَهُرُغَاءٌ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا ؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ: لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ: لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيئًا ؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ: لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاحٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا ؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ: لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا ؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ: لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِصَامِتٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا ؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ». متفق عليه.

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ من أن الله لا يذكر إلا وذكر معه محمد -صلىٰ الله عليه وسلم-، لا سيما في الشهادة عند دخول الإسلام، وعند الأذان.

فمن رفع ذكر محمد -صلىٰ الله عليه وسلم- أنه يحبه كل مسلم، ويصلي عليه كل مسلم، بل إن كثيرًا من الكفار يعظمونه لما فتح الله عز وجل عليه وإنما منعهم من الاستجابة: إما الكبر أو الحسد، أو غير ذلك.

فهذه فضائل رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم- تتلىٰ عليك أيها المسلم؛ لتعلم حقه، وتؤدي علىٰ الوجه الذي شرعه الله عز وجل من غير غلو، فإن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- سمع امرأة تقول: (وفينا رسول الله يعلم ما في

الغد)، أنكر عليها ذلك، وقال: «لا تطروني كما أطرت النصارىٰ ابن مريم إنما أنا عبد»، أخرجه البخاري.

ولما قالوا: يَا سَيِّدَنَا، وَابْنَ سَيِّدِنَا، وَيَا خَيْرَنَا، وَابْنَ خَيْرِنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَرَسُولُ اللهِ، وَاللهِ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَا رَفَعَنِي اللهُ» أخرجه أحمد.

فإذا كان هذا حال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-، فكيف بمن يدعي العيدروس والهادي والجبرتي وابن العجيل وابن علوان، وغير ذلك من القبور التي اتخذت أوثانًا تُدعىٰ من دون الله عز وجل.

فالله رفع ذكر محمد -صلىٰ الله عليه وسلم-، ومع ذلك أخبر أنه بشر لا ينفع ولا يضر، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف:١٨٨].

ثم قال الله عز وجل مبشرا جميع المؤمنين: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ذكر الله عز وجل عسرًا وذكر يسرين، فما من عسر إلا ويعقبه يسران، وقد قال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» أخرجه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنه.

فمهما ضاقت بك فانتظر فرج الله ﴿ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾[يوسف ٨٧]، وكما قيل:

ولـرُبَّ نازلـةٍ يضـيقُ بهـا الفتـىٰ ... ذرعًا وعنـد الله منهـا المخـرجُ
ضاقتْ فلما استحكمتْ حلقاتها ... فُرجـت وكـان يظنهـا لا تُفـرجُ

وقيل:

عسىٰ الكربَ الـذي أمسيتَ فيه ... يكـون وراءهُ فـرجٌ قريـب
مـا بـين غمضـةِ عـين وانتباهتهـا ... يغيـر الله مـن حـالٍ إلـىٰ حـالِ

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ أي: إذا فرغت من جميع أعمالك الدنيوية فانصب إلىٰ عبادة ربك، والصلاة.

فإذا فرغت من عملك فانصب إلىٰ ربك، وقم بين يديه، شاكرًا لنعمه عليك، متضرعًا متذللًا متخشعًا، رزقك، أعطاك، وحفظك، وكساك، وأطعمك، إلىٰ غير ذلك، فإذا فرغت فانصب.

وقيل المعنىٰ: فإذا فرغت من عبادة فانصب إلىٰ عبادة أخرىٰ.

﴿ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ أي: كن راغبًا فيما عند الله عز وجل، فإن الرغبة عبادة جليلة: ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾[الكهف:١١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾[الأنبياء:٩٠].

والآية دالة علىٰ فضيلة الدعاء، فإن من أعظم طرق الرغبة وإظهار الفقر هو التذلل بين يدي الله بدعائه ورجائه، في تفريج الهموم، وقضاء الديون، وصلاح الأبناء، وحصول الخير العظيم.

والحمد لله رب العالمين.

سورة التين

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾[التين:٨].

﴿ وَالتِّينِ ﴾ أقسم الله عز وجل بالتين، وهو الشجرة المعروفة التي تسمىٰ في بعض البلدان: بالبلس التركي، ومن عجيب شأنها أنه لا نوىٰ فيها صلب، ويمكن أن تُدَّخر، وهي طعام وعلاج.

﴿ وَالزَّيْتُونِ ﴾ وهو الشجرة المعروفة، وأصل زراعتها في الشام، وهي شجرة مباركة، كما قال تعالىٰ: ﴿ اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ

نَارٌ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾[النور: ٣٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ ﴾[المؤمنون: ٢٠]، وقال بعض أهل العلم: بأن (التين والزيتون) المراد بها دمشق، وقيل: بيت المقدس، وقيل: جبل يقال له التين والزيتون، والمعنىٰ الأول أصح.

﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ جبل الطور الذي أوحىٰ الله فيه إلىٰ موسىٰ عليه السلام بالنبوة والرسالة.

والطور: هو كل جبل مغطىٰ بالشجر.

﴿ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ أي: مكة التي حرمها الله عز وجل، وأمَّنها شرعًا.

وفي هذا القسم إقسام من الله عز وجل بثلاثة بلدان، كان في كل بلد منها رسول من أولي العزم من الرسل:

الأول: في قوله: ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾، إقسام ببلد الشام وبيت المقدس، وهو المكان الذي بعث فيه عيسىٰ عليه السلام.

الثاني: في قوله: ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ إقسام بالجبل الذي أوحىٰ الله فيه إلىٰ موسىٰ عليه السلام.

الثالث: في قوله: ﴿ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ هو المكان الذي أوحىٰ الله فيه إلىٰ محمد -صلىٰ الله عليه وسلم-.

وهؤلاء الرسل هم من أولوا العزم من الرسل، الذين قال الله عنهم: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾[الأحقاف ٣٥]، وهم: محمد -صلىٰ الله

عليه وسلم-، وهو أفضلهم، ويليه في الفضل: إبراهيم عليه السلام، ويليهما في الفضل: موسىٰ عليه السلام، ثم عيسىٰ ونوح عليهم السلام، والله أعلم.

واستدل العلماء علىٰ أنهم المقصودون بالآية بقوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾[الأحزاب ٧].

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ هذا هو المقسم عليه أن الله عز وجل خلق هذا الإنسان في أكمل هيئة وأحسن صفة.

ولو تأملتم جميع الحيوان لرأيتم أنه يعجز عن تغطية سوئته إلا الإنسان؛ فأن الله عز وجل أكرمه بتغطية عورته، وأكرمه بلسان يفصح به عما في مكنونه، وأكرمه أن جعل له السمع والبصر والفؤاد، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[النحل ٧٨]، وحملهم في البر والبحر بخلاف غيره: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾[الإسراء ٧٠-٧١]، وميزه بالعقل دون سواه من الحيوان، وهذه مكرمة عظيمة، إلىٰ غير ذلك من الميزات التي جعلها الله عز وجل لهذا المخلوق المكلف، فخلقه في أكمل هيئة وصفة.

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ فأسفل سافلين الصحيح أنها النار فرده الله إليها، وبئس القرار، ولم يسلم من العودة إلىٰ إلىٰ أسفل السافلين إلا خلص

المؤمنين، ففي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه في قصة الفاجر والكافر: «فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ، فِي الْأَرْضِ السُّفْلَىٰ، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا»، فبعد أن كان معظمًا في الدنيا مبجلًا محترمًا صار في أسفل سافلين، عن عبدالله بن العاص رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ النَّاسِ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ، حَتَّىٰ يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ، يُقَالُ لَهُ: بُولَسُ، فَتَعْلُوَهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ؛ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ». أخرجه أحمد وسنده حسن: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾[النساء ١٤٥]، أي: معينًا وظهيرًا.

وقيل: ﴿ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ أي: إلىٰ أرذل العمر، لكن هذا القول لا يستقيم؛ لأن كثيرًا من المؤمنين يصابون بأرذل العمر، وربما وقع لهم الهرم وعادوا إلىٰ ضعف الحال، ويرميهم الأطفال بالبعر، ويضحك عليهم النساء والولدان.

﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي: استثنىٰ الذين أقروا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد -صلىٰ الله عليه وسلم- نبيًا، واستجابوا لأمر الله عز وجل وأمر رسوله -صلىٰ الله عليه وسلم-.

﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ اعتقدوا الإيمان وبادروا إلىٰ العمل، وهذا دليل لمذهب أهل الحق في دخول الأعمال في مسمىٰ الإيمان، فالصلاة والحج

والزكاة وجميع أنواع البر من الإيمان ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾[البقرة ١٧٧].

فالمؤمن المبادر بالعمل الصالح حياته طيبة ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[النحل: ٩٧].

﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ لهم أجر غير منقطع، مستمر كقوله: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾[الرعد: ٣٥]، وقوله: ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾[الواقعة: ٣٣]، وقوله: ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾[ق:٣٥].

فأكرم نفسك أيها المؤمن بامتثال أمر الله عز وجل حتى تكون من هذا الصنف: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾[يونس ٦٢-٦٣].

ولو كان أجرهم مقطوع لوقع عليهم الخوف والحزن من زوال هذا النعيم، لكن كما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ

جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾[الكهف ١٠٧-١٠٨]، ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾[هود ١٠٨].

وهذا الأجر هو فضل من الله عز وجل سببه العمل فليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني تقول: أنا مؤمن، بلسانك وأنت مفرط في طاعة الله عز وجل ومضيع لحقه أو تقول الإيمان في القلب، الإيمان في القلب وفي اللسان وفي الجوارح ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ أي: أيها الإنسان المعرض المكذب باليوم الآخر ما الذي يكذبك بالجزاء؛ لأن الدين هو الجزاء، وقال بعضهم: أن الخطاب لمحمد، وهذا قول ضعيف جدا؛ فإن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- من المقرين بالبعث والنشور، والمحققين للإيمان بالله وما يتعلق بذلك علىٰ أكمل الوجوه، وما نحن الآن متبعون له مقتفون لأثره، ولكن هذا خطاب للمعرضين.

وما يحملك علىٰ التكذيب بالجزاء والبعث بعد الموت مع أن الله هو الذي خلقك من العدم: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَىٰ * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾[القيامة: ٣٧ - ٤٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[يس:٧٨-٧٩]، سبحانه وتعالىٰ.

﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ أليس الله هو الحاكم الحكيم، الذي يقضي ويفعل ما يشاء، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه، ومن حكمته: أن يعلي درجات المؤمنين الموحدين، وأن يذل المشركين والمنددين، ومن حكمته: أن يجازي المؤمن بإحسانه، ويضاعف له المثوبة كرمًا وفضلًا منه، ويجازي الكافر بأنه يرده إلىٰ أسفل السافلين؛ لأنه رضي بذلك حين أبىٰ أن يكون عبدًا لله عز وجل وكان عبدا لغير الله عز وجل، فرده الله الىٰ السفل المطلق الذي لايمكن أن يخرج منه إلىٰ غيره.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: « مَنْ قَرَأَ: لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَانْتَهَىٰ إِلَىٰ ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾[القيامة: ٤٠]، فَلْيَقُلْ: بَلَىٰ »، فهو حديث لا يثبت عن النبي –صلىٰ الله عليه وسلم–، لإبهام الراوي عن أبي هريرة رضي الله عنه، والله أعلم.

سورة العلق

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ قْرَا بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَا وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ * كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ * إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ * أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ *

أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَىٰ * كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۩﴾[العلق:١-١٩].

وهي مكية، أول ما نزل من القرآن لاسيما الخمس الآيات الأول منها، وكان في ذلك ما أخرجه الشيخان عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّىٰ جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: «اقْرَأْ. قَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، قَالَ: «فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ. قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ.فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾».

وفي هذه الآية دليل علىٰ أهمية العلم قبل كل شيء؛ فإن الله عز وجل قبل أن ينزل الدعوة إلىٰ التوحيد والأحكام والمعاملات أنزل العلم، وأمر به دلالة علىٰ فضله وعلو منزلته.

﴿ اقْرَأْ ﴾ أي: تعلم، ﴿ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ أي: حال كونك مستعين بالله عز وجل؛ لأن الله عز وجل إذا أعان العبد يسر له من العلوم والفهوم ما يكون مميزًا به علىٰ غيره.

ثم إننا بحاجة إلىٰ الإستعانة بالله في جميع شأننا، وكما قيل:

إذا لم يكن عون من الله للفتىٰ فأول ما يجني عليه هو اجتهاده

وذكر اسم الرب دون غيره؛ لأنه اسم بمعناه الخاص يدل علىٰ حفظ وعناية وغير ذلك من معاني الربوبية، لاسيما والإضافة هنا إضافة التشريف.

﴿ الَّذِي خَلَقَ ﴾ أي خلقك وخلق غيرك، والخلق هو الإيجاد من العدم، قال الشاعري:

ولأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

وإثبات الخلق يلزم أن يكون عالما قادرا، فالله عز وجل لايعجزه شيء لكمال علمه وقدرته: ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[الملك:١٤].

وكان مبدأ خلق الإنسان من طين، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴾[ص: ٧١].

﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ هذه الخلقة الأخرىٰ، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾[الحجر:٢٦]، وأوله نطفة:وهو ما يخرج من مني الرجل والمرأة، ثم من علقة: وهو ما يكون كهيئة العلقة، وهي حيوان صغير مركبة من دم، ثم من مضغة: قطعه لحم، ثم يتدرج، فجعله عظاما ثم يكسو

العظام لحما، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٢ – ١٤].

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ اقرأ وابشر من الله بالخير هو الكريم الأكرم، ومن معاني الكريم: الذي يعطي الكثير مجازاه على القليل، وربما أعطىٰ الكثير دون جزاء، ومن معاني الكريم: أنه شديد الانتقام ممن أعرض عنه، كما قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾[الانفطار:٦–٨].

﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ أي: علم الخط والكتابة وذكر القلم دون غيره معا أن العلم يكون بالقول والحفظ؛ إلا أن القلم يحفظ به العلم إلىٰ أعصر متأخرة؛ ولذلك انتصر الإسلام بالسنان والبنان.

وقد تكلم ابن القيم رحمه الله علىٰ أنواع الأقلام، فالله عز وجل علم بالقلم، فحفظ بالقلم القرآن، وحفظ بالقلم السنة، وما زال الناس يستخدمون هذا القلم في طاعه الله عز وجل، ومنهم من يعرض وهم الأكثر.

﴿ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ أي: من أنواع الهدىٰ والبان فعلمه أمور الدين الشرعية، فأنزلها وحيًا إلىٰ محمد –صلىٰ الله عليه وسلم–، وعلمه كثير مما يصلح حاله، من مأكله ومشربه وملبسه ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ

خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه:٥٠]، ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[البقرة:٣١]، وهذا أشرف أنواع العلم، وأما علم المشارب والمآكل والملابس والمناكح يحسنه كل أحد، لكن علم الكتاب والسنة يختص الله عز وجل به من شاء من عباده قال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»، وعَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ». أخرجه البخاري ومسلم.

وقد امتن الله علىٰ نبيه في هذا المعنىٰ في آية أخرىٰ: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[النساء:١١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾[الضحىٰ:٧].

ثم قال: ﴿ كَلَّا ﴾ أي: حقًا، ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴾ أي: جنس الإنسان يقع منه الطغيان، وهو مجاوزة الحد الذي شرعه الله وأمر، والطغيان مأخوذ من المجاوزة: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾[الحاقة:١١].

ويقع منه الطغيان ﴿ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ أي: إذا رأىٰ نفسه غنيا فإذا من الله عليه بشيء من المال أو الولد أو الجاه ظن أنه في مرتبة علية، وفي درجة سنية، فيقع منه الإعراض إلا من رحم الله، كما قال تعال: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا

﴾[مريم:٧٧-٧٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾[الكهف: ٣٧-٣٨].

فقال تعالىٰ مهددًا له :﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ أي: في الآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾[السجدة: ١١] فكيف يستغني ويعرض عن الله عز وجل، وعن طاعته وهو راجع إلىٰ ربه ومحشور إلىٰ الله فيجازيه علىٰ عمله، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ اللهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾[البقرة:٢٨١]، وهذا فيه من الوعيد ما الله عليم، فإن الإنسان إذا علم أنه راجع ومحاسب علىٰ عمله كان ذلك من دواعي توبته واستغفاره والله المستعان.

ثم انتقل إلىٰ معنىٰ آخر رادا علىٰ أبي جهل -لعنه الله- حين زعم أنه يمنع محمدًا -صلىٰ الله عليه وسلم- من الصلاة في جانب البيت، بل لقد عزم علىٰ أن يطأ علىٰ عنقه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالَ فَقِيلَ: نَعَمْ، فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ، أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، قَالَ: فَأَتَىٰ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ: «لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا» قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ - لَا نَدْرِي فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَوْ شَيْءٌ بَلَغَهُ -: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ * إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ * أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ * أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾[العلق: ٦-١٣]- يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ - ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَىٰ * كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾[العلق:١٤-١٩] أخرجه مسلم.

فيقول الله عز وجل منكرا علىٰ هذا الصنف: ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ* عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴾ ألا تعجب علىٰ حاله كيف ينهىٰ عن الصلاة وعن طاعة الله مع أن الزنا موجود، والقتل والربا والشرك موجود، ولم ينكر شيء من ذلك ولما رأىٰ المصلي يصلي قام ينكر عليه.

وهذا المعنىٰ حاصل فإن كثيراً من الناس يرىٰ السراق والزناة والزواني وأكلة الربا، وفاعلي الحرام والإجرام، ولا ينكر عليهم، وإذا رأىٰ المستقيم الذي عف لحيته، وقصر ثوبه، ولزم مسجده، وإذا به يسخر منه حتىٰ أن بعض السلف قيل له: لماذا لا تنهىٰ فلان عن الصلاة بعد العصر، قال: ما أريد أن أكون من الذي ينهىٰ عبدًا إذا صلىٰ، مع أن النصيحة مطلوبة؛ لأن الصلاة بعد العصر منهي عنها إلا لقضاء أو استخارة، أو لذات سبب.

﴿ عَبْدًا ﴾ أي: لله عز وجل ﴿ إِذَا صَلَّىٰ ﴾ أقبل عليه بالطاعة والعبادة، ﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ أي: هذا المصلي كان على الهدى، كان على العلم والعمل؛ لأن الهدى يطلق على معنيين العلم والعمل، فكيف ينكر على من هذا حاله، بل هذا يثنى عليه، ويدعى له، ويستفاد منه.

﴿ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴾ أي: هذا المصلي كان على الهدى وكان يأمر بالتقوى بالإخلاص والتوحيد ويدخل فيها الأمر بفعل المأمور وترك المحظور، ومراقبه الله عز وجل في السر والعلن.

ثم قال الله عز وجل عن هذا الناهي ﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أي: أخبرني إذا كان أبوز جهل الذي ينهي المصلي عن صلاته: ﴿ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ كذب بخبر الله عز وجل وخبر رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وتولى عن فعل ما أمر الله به وأمر به رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

فقال مهدداً له: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم ﴾ هذا الذي ينهى المصلي عن الصلاة، والمستقيم عن الاستقامة، ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴾ يرى ما يفعل من نهيه عن طاعة الله، ومن أمره بمعصية الله، والله عز وجل: ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[الشعراء:٢١٨-٢٢٠]، والله يراك على كل حال، كما قال ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[طه:٤٦].

والإنسان إذا علم أنه مراقب قل شره وخشي من مراقبه، فهنا يقول: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴾ يراه في أمره ونهيه، ويراه في فعله، وتركه، فإذن لماذا يتجرأ

هذه الجرأة حتىٰ وصل به الحال إلىٰ أن ينكر علىٰ المصلين صلاتهم، وعلىٰ المزكين زكاتهم، وعلىٰ الصائمين صيامهم، وعلىٰ المستقيمين استقامتهم.

﴿ كَلَّا ﴾ أي: مقالًا يعلم ذلك، ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ لئن لم يترك ما هو فيه من الباطل وينزجر عما هو فيه من الأذىٰ لمحمد صلىٰ الله عليه وسلم، ﴿ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ لنأخذنه بالناصية وهي مقدمة الرأس، وهذا سبب لهلاكه ونزع حياته.

ثم قال: ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ كاذب في قوله، وخاطئ في فعله.

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ لأن أبا جهل هدد بدعوة النادي والأتباع الذين كانوا يجلسون في المجلس، والنادي: هو المجلس العام الذي يجتمع فيه الناس، ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾:أي لنصرته وإعانته.

﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ أي: خزنة النار؛ لتأديبهم ومنعهم من باطلهم، مع أن الله عز وجل لا يعجزه شيء لكنه يربط الأسباب بمسبباتها، وإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، ولكن أنت يا أبا جهل ومن إليك من الكافرين حين تتكثرون بأتباعكم وأنصاركم فاعلموا أن الله مسلط عليكم الزبانية، إما في الدنيا وإما في الآخرة.

وهذا الوعيد لو أنه وقع من أبي جهل لسلط الله عليه الزبانية ولكنه رجع بعد أن رأىٰ هؤلًا وخندقًا وأجنحة، فقال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا»

ثم قال الله لنبيه وهو أمر لمن سلك هذا السبيل: ﴿ كَلَّا ﴾ أي: حقًا، ليس الأمر كما هو عليه أبو جهل ومن معه، ﴿ لَا تُطِعْهُ ﴾ في ترك الصلاة ولاتكن طاعًا للمخاصمين المعارضين، في جميع الدين فإن طاعتهم سبب للضلال، قال الله عز وجل: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾[الكهف: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴾[القلم: ١٠]، ﴿ وَاسْجُدْ ﴾ لله عز وجل ويدخل فيه جميع الصلاة، وإنما ذكر السجود؛ لأنه أشهر أفعال الصلاة ﴿ وَاقْتَرِب ﴾ من ربك سبحانه وتعالىٰ تنال منه الجزاء الأوفىٰ، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»، أخرجه مسلم.

والحمد لله رب العالمين.

سورة القدر

﴿ بِسْمِ اللهِ الْرَّحمَنِ الْرَّحِيمِ ﴾

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾[القدر:١-٥].

سورة مكية، يخبر الله عز وجل فيها أنه أنزل القرآن في ليلة القدر كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾[الدخان:٣-٥]

وسميت بليلة القدر؛ لعظيم قدرها، وعلو منزلتها.

وقد أكرم الله عز وجل بهذه الليلة هذه الأمة إذ قصرت أعمارها، وقلت سنونها، فكان في قيام ليلة واحدة، والمحافظة علىٰ الطاعة فيها كأربعة وثمانين سنة، والحال كما قال تعالىٰ: ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾.

وهي في العشر الأواخر من رمضان، في الوتر منه كما تواترت بذلك الأدلة، وأرجىٰ ليلة؛ هي ليلة سبعة وعشرين، فقد صح من حديث معاوية وغيره رضي الله عنهم أن النبي – صلىٰ الله عليه وسلم– قال: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ».

وإنزال القرآن يعتبر من النعم العظيمة، والمنن الكريمة من الكريم المنان، إذ أن القرآن كتاب أخرج الله عز وجل به الناس من الظلمات إلىٰ النور، ومن الشرك إلىٰ التوحيد، ومن البدعة إلىٰ السنة، ومن المعصية إلىٰ الطاعة.

قال الله عز وجل في شأنه: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[يونس:٥٨]..

والقرآن منزل من عند الله تكلم به حقيقة، منه بدأ وإليه يعود.

قال الله عز وجل: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾[فصلت:٢]، ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾[الزمر:١].

واعتقاد أن القرآن كلام الله من المهمات، قال الله عز وجل: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ ﴾[التوبة:٦]، وأول ما نزل منه خمس آيات، من أول سورة اقرأ كما تقدم، ثم تلاها خمس آيات من أول سورة المدثر: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾[المدثر:١-٥].

ويقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّا ﴾ بتعظيم نفسه المقدسة، وهو العظيم المتعال، الكبير الواسع سبحانه وتعالىٰ، كقوله: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾[الكوثر:١]، ﴿ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾[الحجر:٢٣]، فيعظم نفسه في الخطاب سبحانه وتعالىٰ، وهو من أساليب اللغة، وليس هو علىٰ التعدد والتنوع كما يظنه البعض.

﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ أي: القرآن، ﴿ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ أي: ذات الشرف والرفعة.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ تعظيم شأنها، أي: ليلة هذه تظنونها في الفضل والشرف.

﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ أي: أن هذه الليلة الواحدة في رمضان خير عند الله وأفضل من ألف شهر، والخيرية للعمل الصالح فيها، فيعطىٰ لأهلها مكرمات وهبات، وقد حرص النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- بأخبار أمته بليلة القدر فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: اعْتَكَفَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَشْرَ الْأَوْسَطَ مِنْ رَمَضَانَ، يَلْتَمِسُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ قَبْلَ أَنْ تُبَانَ لَهُ، فَلَمَّا انْقَضَيْنَ أَمَرَ بِالْبِنَاءِ فَقُوِّضَ، ثُمَّ أُبِينَتْ لَهُ أَنَّهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، فَأَمَرَ بِالْبِنَاءِ فَأُعِيدَ، ثُمَّ خَرَجَ عَلَىٰ النَّاسِ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهَا كَانَتْ أُبِينَتْ لِي لَيْلَةُ الْقَدْرِ، وَإِنِّي خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بِهَا، فَجَاءَ رَجُلَانِ يَحْتَقَّانِ مَعَهُمَا الشَّيْطَانُ، فَنُسِّيتُهَا، فَالْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، الْتَمِسُوهَا فِي التَّاسِعَةِ وَالسَّابِعَةِ وَالْخَامِسَةِ».

وكان في هذا نعمة عظيمة بحيث لا يترصد الناس تلك الليلة ويفرطون في بقية العام، لكن من قام رمضان أدرك ليلة القدر، ومن قام العام أدرك ليلة القدر كما قال بعض السلف رضوان الله عليهم.

وأفضل ما يتقرب به في هذه الليلة الصلاة، فإن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- صلىٰ ليلة سبعة وعشرين من بعد صلاة العشاء حتىٰ كاد أن يدرك

الناس الفلاح، أي السحور، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: صُمْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رَمَضَانَ، فَلَمْ يَقُمْ بِنَا حَتَّىٰ بَقِيَ سَبْعٌ مِنَ الشَّهْرِ، فَقَامَ بِنَا حَتَّىٰ ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ، ثُمَّ لَمْ يَقُمْ بِنَا فِي السَّادِسَةِ، فَقَامَ بِنَا فِي الْخَامِسَةِ حَتَّىٰ ذَهَبَ شَطْرُ اللَّيْلِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ نَفَّلْتَنَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِنَا هَذِهِ، قَالَ: «إِنَّهُ مَنْ قَامَ مَعَ الْإِمَامِ حَتَّىٰ يَنْصَرِفَ، كَتَبَ اللهُ لَهُ قِيَامَ لَيْلَةٍ»، ثُمَّ لَمْ يُصَلِّ بِنَا وَلَمْ يَقُمْ حَتَّىٰ بَقِيَ ثَلَاثٌ مِنَ الشَّهْرِ، فَقَامَ بِنَا فِي الثَّالِثَةِ، وَجَمَعَ أَهْلَهُ وَنِسَاءَهُ حَتَّىٰ تَخَوَّفْنَا أَنْ يَفُوتَنَا الْفَلَاحُ، قُلْتُ: وَمَا الْفَلَاحُ؟ قَالَ: السُّحُورُ.

وعن النعمان بن بشير قال: قُمْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ لَيْلَةَ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ إِلَىٰ ثُلُثِ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ قُمْنَا مَعَهُ لَيْلَةَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ إِلَىٰ نِصْفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ قُمْنَا مَعَهُ لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ حَتَّىٰ ظَنَنَّا أَنْ لَا نُدْرِكَ الْفَلَاحَ، وَكَانُوا يُسَمُّونَهُ السُّحُورَ.

ويكثر فيها من الدعاء، والذكر، وقراءة القرآن، وغير ذلك من أنواع القربات.

﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾ أي: من بركتها أنه يكثر تنزل الملائكة إلىٰ الأرض، ومعهم جبريل عليه السلام فهو الروح الآمين، قال تعالىٰ: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[الشعراء:١٩٣-١٩٥]، وهذا من عطف الخاص علىٰ العام، فهو داخل في تنزل الملائكة، ولكن لشرفه، ومنزلته ذكره الله عز وجل علىٰ الخصوص.

وتتنزل الملائكة في تلك الليلة بالبركات، والهبات، والبشارات، وتشارك المؤمنين في ذلك الخير العظيم، فلا يكون تنزلهم علىٰ المتلفزين، والمدشدشين، والغافلين، والمعرضين، وإنما تتنزل إلىٰ أماكن الطاعات، والعبادات، كما قال النبي – صلىٰ الله عليه وسلم-: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ، فُضُلًا عَنْ كُتَّابِ النَّاسِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَىٰ بُغْيَتِكُمْ»، متفق عليه.

﴿ فِيهَا ﴾ ويكون تنزلهم من غروب شمس يومها وحتىٰ طلوع الفجر في صبيحتها، ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أي: أن تنزلهم بأمر الله عز وجل، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾[مريم:٦٤]، وقال: ﴿ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[التحريم:٥]، فهم خلق مبارك طائع: ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾[الأنبياء:٢٧].

﴿ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ أي: سلام هي من كل أمر، وقال قتادة: تقضي فيها الأمور وتقدر الآجال والأرزاق، كما قال تعالىٰ: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾[الدخان:٤].

أما من ذهب إلىٰ أن ليلة النصف من شعبان هي التي تقدر فيها المقادير في العام فقوله بعيد؛ مبني علىٰ أحاديث ضعيفة، لا يثبت منها شيء، فإن القرآن تنزل في رمضان، والأدلة دالة علىٰ فضيلة الليلة التي أنزل الله عز وجل فيها

القرآن لا ليلة النصف من شعبان فتخصيصها بصلاة وقيام ونهارها بصيام من المحدثات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

﴿ سَلَامٌ هِيَ ﴾ أي: فيها سلامة، وقيل تسلم الملائكة علىٰ أهل المساجد المقيمين لها، والمبادرين إلىٰ الطاعات فيها.

﴿ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ إلىٰ أن يطلع الفجر.

فاحرص أيها المسلم علىٰ الحفاظ علىٰ هذه الليلة المباركة، فإن النبي - صلىٰ الله عليه وسلم- يقول: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا» بفضلها، «وَاحْتِسَابًا»، أي: لأجرها، «غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد اعتكف النبي- صلىٰ الله عليه وسلم- العشر الأوسط من رمضان، ثم العشر الأواخر من رمضان؛ متحريًا لها فعن أبي سعيد رضي الله عنه قَالَ: « اعْتَكَفَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ الأُوَلِ مِنْ رَمَضَانَ وَاعْتَكَفْنَا مَعَهُ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ، فَاعْتَكَفَ العَشْرَ الأَوْسَطَ، فَاعْتَكَفْنَا مَعَهُ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ، فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطِيبًا صَبِيحَةَ عِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ فَقَالَ: «مَنْ كَانَ اعْتَكَفَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلْيَرْجِعْ، فَإِنِّي أُرِيتُ لَيْلَةَ القَدْرِ، وَإِنِّي نُسِّيتُهَا، وَإِنَّهَا فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ، فِي وِتْرٍ، وَإِنِّي رَأَيْتُ كَأَنِّي أَسْجُدُ فِي طِينٍ وَمَاءٍ»، وَكَانَ سَقْفُ المَسْجِدِ جَرِيدَ النَّخْلِ، وَمَا نَرَىٰ فِي السَّمَاءِ شَيْئًا، فَجَاءَتْ قَزَعَةٌ،

فَأُمْطِرْنَا، فَصَلَّىٰ بِنَا النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّىٰ رَأَيْتُ أَثَرَ الطِّينِ وَالْمَاءِ عَلَىٰ جَبْهَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَرْنَبَتِهِ تَصْدِيقَ رُؤْيَاهُ». متفق عليه.

والحمد لله رب العالمين.

سورة البينة

﴿بِسْمِ اللهِ الْرَّحمَنِ الْرَّحِيمِ﴾

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّىٰ تَاتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ * وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ * وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾[البينة:١-٨].

سورة مدنية حين أنزلها الله علىٰ نبيه وصفيه، ورسوله محمد -صلىٰ الله عليه وسلم- أمره أن يقرئها علىٰ أُبَي ابن كعب فَعَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ

اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: «إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا»، قَالَ: وَسَمَّانِي لَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: فَبَكَىٰ»، متفق عليه.

ولم تكن قراءة النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- علىٰ أُبَي إلا فضيلة لأُبَي، وفيها أهمية عرض القرآن، فإن أُبَي ابن كعب كان من حملة القرآن، وأهله.

فيقول الله عز وجل: ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ ﴾ ؛أي اليهود والنصارىٰ.

﴿ مُنْفَكِّينَ ﴾ أي: منزجرين مرعوين عن باطنهم.

وفي قوله: ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾: ليس معناها أن (مِن) للتبعيض، وإنما لبيان الجنس، وذكرهم دون غيرهم؛ لأنهم قد وجدوا البشارة بمحمد -صلىٰ الله عليه وسلم- في كتبهم، وذكر صفته، ومبعثه، وموطنه، ومع ذلك حملهم الحسد علىٰ عدم الإيمان.

وسمو بأهل الكتاب؛ لأن اليهود كتابهم التوراة، والنصارىٰ كتابهم الإنجيل، وأما ما يقوله كثير من الناس الآن: هؤلاء أصحاب كتب سماوية فلا يسلم لهم، فقد غيروا، وبدلوا الكتب، فلا يجوز أن يضاف دينهم إلىٰ السماء، فالدين الذي يضاف إلىٰ السماء هو دين الله: الإسلام، قال الله عز وجل: ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾.

﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ الحجة الواضحة الجلية، ثم فسر البينة بقوله: ﴿ رَسُولٌ مِنَ اللهِ ﴾ أي: أن البينة التي أتىٰ بها رسول من الله وهو محمد -صلىٰ الله عليه وسلم-.

﴿ يَتْلُو صُحُفًا ﴾ أي: يقرأ مكتوبـًا في الصحف وهو القرآن، ﴿ مُطَهَّرَةً ﴾ منزهة عن الأدناس وغيرها.

﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ فيها مكتوب قيم واضح جلي، لاعوجاج فيه، ولا لبس، ولا كذب.

ثم قال الله عز وجل، مبينًا اختلاف أهل الكتاب: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ أي: ما حصل التفرق في اليهود، والنصارىٰ، حيث صاروا فرقًا وأحزابًا، حتىٰ قال الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[الروم:٣١-٣٢]، وقال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ إِحْدَىٰ -أَوْ ثِنْتَيْنِ- وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفَرَّقَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ إِحْدَىٰ -أَوْ ثِنْتَيْنِ- وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً »، جاء في حديث معاوية، وغيره: «كلها في النار إلا واحدة».

والتفرق مذموم لأمور:

أولًا: أنه مخالف لأمر الله الشرعي.

ثانيًا: أنه سبب للضعف.

ثالثًا: أنه سبب للجدل.

رابعًا: أنه سبب للتنافر، والتشاحن، والتباغض، والتقاطع، والتدابر.

خامسًا: أنه سبب للخوض في آيات الله بالباطل، فلو كان الناس ملتزمين لشرع الله ظاهرًا وباطنًا ما وقع فيهم التفرق، قال تعالىٰ: ﴿ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَىٰ اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾[النساء:٥٩]، وقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[الأحزاب:٣٦].

وأما قول النبي –صلىٰ الله عليه وسلم-: «وَمُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرْقٌ بَيْنَ النَّاسِ»، أخرجه البخاري عن جابر رضي الله عنه.

فمعناه: أنه ببعث محمد –صلىٰ الله عليه وسلم- ظهر التمايز بين الناس؛ مؤمن وكافر، وبر وفاجر.

ويحكم علىٰ صلاح العبد من فساده بالنظر إلىٰ ملازمته لشرع النبي –صلىٰ الله عليه وسلم-. قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[آل عمران:٣١].

﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ إلا بعد أن جاءهم الوحي المبين، فأعرضوا عنه؛ لكثرة مسائلهم، واختلافهم علىٰ أنبيائهم، كما قال النبي –صلىٰ الله عليه وسلم –، «فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم علىٰ أنبياءهم » متفق عليه ولكثرة جدلهم.

ومن ذلك قصة البقرة، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[البقرة:٦٧]، يكلمهم رسولهم بأمر الله، فيجادلونه كما يجادل بعضهم بعضًا بقوله: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ ثم بعد ذلك يبين لهم أوصافها الوصف بعد الوصف بعد الوصف، وهم يجادلون ويعرضون، وهذا في كثير أمورهم.

وتفرفوا في محمد -صلىٰ الله عليه وسلم- ولم يؤمنوا به، مع ظهور الحجج الدالة علىٰ صدقه، ويجدون في كتبهم: بأن الله أشرق من ساعير، وتجلىٰ في الطور، ويظهر في فاران والمراد به وحي الله، يتلونه في كتبهم

ساعير: بيت المقدس.

والطور: المكان الذي أوحىٰ الله به إلىٰ موسىٰ.

وجبال فاران: هي جبال مكة.

ومع ذلك أبوا الإيمان به.

(وقد ذكر عبدالله الكاتب وهو أحد النصارىٰ الذين أسلموا: أنه كان ملازم لراهب من رهبان النصارىٰ، وأحبه وتتلمذ عليه سنين عديدة، وأعوام مديدة، وفي يوم من الأيام مرض هذا القسيس أو الراهب، فتذاكر الطلاب شيئًا مما في الإنجيل فوجدوا وصف محمد -صلىٰ الله عليه وسلم-، فما داروا بالمعنىٰ، فدخل عبدالله الكاتب علىٰ هذا القسيس، فقال له: لقد وقع بيننا اليوم اختلاف في مسألة كذا وكذا، فقال: له وماذا قالوا؟ قال: فلان قال كذا،

وفلان كذا، قال: وأنت؟ قال: أنا انتظر الجواب منك، فقال: له أعذرني، قال له: يا سيدي تعلم حبي لك، وأنا قد تركت الأهل، والمال، والولد؛ رغبة في مجاورتك، وأخذ العلم منك، وقد أعطيتني شيئًا كثيرًا ألا تعلمني هذه -وما زال يستحلفه- حتىٰ قال: أخبرك لكن بشرط أن لا تحدث عني؟ قال: نعم، قال: هذا وصف محمد -صلىٰ الله عليه وسلم- مبشر به في الإنجيل، قال: يا سيدي ولماذا لم تؤمن به إن كان كذلك؟ قال: يا بني إن المسلمين إذا أسلمت وأنا شيخ كبير لا يزيدون علىٰ أن يقولون: جزاك الله خيرًا أخرجت نفسك من النار، وتسببت في إسعادها، وأنا لا استطيع أن أعمل فبقيت علىٰ هذا الحال عند هؤلاء يأتوني بالمال، والأرزاق، قال هذا الرجل: فأخذت نفسي وركبت إلىٰ تونس، فاستقبلني النصارىٰ، وعظموا شأني، ورفعوا قدري؛ لعلمهم بمنزلتي، ولتتلمذي علىٰ هذا الشيخ، ثم قال: دعاني ملك المسلمين فأخبرته بخبري، وأخبرته أني قد دخلت في الإسلام، ولكن مع ذلك طلبت منه أن يجمع النصارىٰ؛ حتىٰ يعرف منزلتي عندهم، فجمعهم وقال: ما تقولون في هذا الرجل؟ قالوا: هذا خيرنا تتلمذ علىٰ خيرنا، وهو من أعرف الناس بكتابنا، فقال: لهم أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد رسول الله، قالوا: إنما فعلت هذا لما أعطاك هذا الملك من الأموال).

وهكذا حصل لعبد الله ابن سلام، فإن اليهود زعموا أنه خيرهم وابن خيرهم، فلما شهد أن لا إله إلا الله قالوا: شرنا وابن شرنا فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ

عَنْهُ، قَالَ: بَلَغَ عَبْدَ اللهِ بْنَ سَلاَمٍ مَقْدَمُ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المَدِينَةَ فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلاَثٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ قَالَ: مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجَنَّةِ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ الوَلَدُ إِلَىٰ أَبِيهِ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ إِلَىٰ أَخْوَالِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «خَبَّرَنِي بِهِنَّ آنِفًا جِبْرِيلُ» قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللهِ ذَاكَ عَدُوُّ اليَهُودِ مِنَ المَلاَئِكَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ المَشْرِقِ إِلَىٰ المَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ، وَأَمَّا الشَّبَهُ فِي الوَلَدِ: فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَشِيَ المَرْأَةَ فَسَبَقَهَا مَاؤُهُ كَانَ الشَّبَهُ لَهُ، وَإِذَا سَبَقَ مَاؤُهَا كَانَ الشَّبَهُ لَهَا»، قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اليَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ، إِنْ عَلِمُوا بِإِسْلاَمِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ بَهَتُونِي عِنْدَكَ، فَجَاءَتِ اليَهُودُ وَدَخَلَ عَبْدُ اللهِ البَيْتَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلاَمٍ» قَالُوا أَعْلَمُنَا، وَابْنُ أَعْلَمِنَا، وَأَخْيَرُنَا، وَابْنُ أَخْيَرِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ» قَالُوا: أَعَاذَهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ، فَخَرَجَ عَبْدُ اللهِ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَقَالُوا: شَرُّنَا، وَابْنُ شَرِّنَا، وَوَقَعُوا فِيهِ»، أخرجه البخاري.

وهرقل، علم وصف محمد –صلىٰ - الله عليه وسلم–، وقال: لو كنت أخلص إليه لغسلت موقع قدميه، وإن كنت صادق فيما قلت ليملكن موطن

قدمي هذا، وعرض علىٰ الروم الإسلام، فلما ثاروا عليه آثر الملك علىٰ الإسلام.

والنجاشي آمن بمحمد -صلىٰ الله عليه وسلم-؛ لعلمه بأوصافه.

والمقوقس حين جاءه رسول محمد -صلىٰ الله عليه وسلم- أهدىٰ له جاريتين، وعبدًا، وبغلة، وغير ذلك من الهدايا.

ثم قال عز وجل: ﴿ وَمَا أُمِرُوا ﴾ أي: اليهود، والنصارىٰ، وجميع المكلفين ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ ﴾ ليوحدون ويخلصون له العمل، فدعوة الرسل كلها دعوة إلىٰ إفراد الله بالعبادة، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[النحل:٣٦]، وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء: ٢٥]

﴿ مُخْلِصِينَ ﴾ حال كونهم مخلصين في عبادتهم له، لا يشركون معه ملكًا مقربًا، ولا نبيًا مرسلًا، فإن الله لا يرضىٰ ذلك، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا ﴾[الجن:١٨]، ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[المائدة:٧٢]، وقال الله عز وجل: ﴿ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾[الزمر:٢]، قال الله عز وجل: ﴿ أَلا للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾[الزمر:٣]، وقال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، متفق عليه عن عمر رضي الله عنه، وقال النبي -صلىٰ الله

عليه وسلم: «أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»، أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ حُنَفَاءَ ﴾ أي: مائلين عن الشرك إلىٰ التوحيد، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[النحل:١٢٠-١٢١]، فلا بد من الجمع بين النفي والإثبات لتحقيق معنىٰ: لا إله إلا الله.

﴿ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ هذا من التفصيل بعد الإجمال، والصلاة والزكاة قد دخلتا في الدين الذي أمر الله عز وجل به، ولكن ذكرهما تفصيلًا؛ لفضلهما، وعلو منزلتهما.

﴿ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ والمراد بها الصلاة المفروضة، وهي خمس صلوات في اليوم الليلة.

﴿ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾ وهي الزكاة المفروضة، والمكتوبة، وتكون ربع العشر في المال الصامت، والعُشُر فيما يخرج من الأرض إذا كان سقيه بماء المطر، ونصف العُشُر إذا كان سقي بالسانية، ويكون بهيمة الأنعام الغنم والبقر والإبل علىٰ تفصيل مذكور في موطنه.

﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ أي: ما تقدم من إفراد الله بالعبادة، والتقرب إليه بجميع أنواع الطاعات، والبعد عن الشركيات، والبدع، والخرفات، هو دين قيمة، الدين القويم الذي ارتضاه رب العالمين للناس أجمعين، كما قال

تعالىٰ: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ ﴾[آل عمران:١٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[آل عمران:٨٥].

ثم قال عز وجل مخبرًا بحال الناس مع هذا الدين: من أنهم انقسموا إلىٰ قسمين لا ثالث لهما: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ ﴾ من اليهود والنصارىٰ، ومن إليهم من عباد الأوثان والأصنام ﴿ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ خلود لا خروج بعده، كما قال تعالىٰ: ﴿ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾[الزخرف:٧٥]، وقال الله عز وجل: ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾[البقرة:١٦٧]، وقال الله عز وجل: ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾[آل عمران:١٩٢]، وقال الله عز وجل: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾[النساء:٥٦].

وقد جاء مبينًا في غير هذا الموطن: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ وما جاء أن النار تفنىٰ فقول ضعيف، فالنار لا تفنىٰ ولا تبيد، والجنة لا تفنىٰ ولا تبيد، خلقهما الله عز وجل للبقاء لا للفناء، وهذا هو معتقد أهل السنة قاطبة من أن الجنة والنار موجودتان الآن وأنهما لا يفنيان ولا يبيدان.

﴿ أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ أي: اليهود والنصارىٰ ومن إليهم من المشركين شر البرية، أشر من القرود، والخنازير، والكلاب، ومن كل شر، قال الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا

وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[الأعراف:١٧٩].

فلا تغتر أخي المسلم بيهودي، أو نصراني، أو مجوسي، أو عابد وثن أو صنم مهما علت رفعته، مهما كثرة أمواله، مهما تنوعت صناعاته: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾[الروم:٧].

وليكن فرحك بالمسلم وإن قل ماله، وحصل منه ما حصل، فإن الإسلام دين العزة، والمكنة، والرفعة، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ أَنَّهُ قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ: «مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا ؟»، فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا وَاللهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ. قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا ؟». فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا»، أخرجه البخاري.

فلما ذكر حال الكافرين في الدنيا والآخرة ذكر حال أهل الإيمان فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي: إن الذين آمنوا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبحمد -صلىٰ الله عليه وسلم- نبيًا، وأقروا بذلك، ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي: لازموا

الأعمال الصالحة ظاهرًا وباطنًا، ﴿ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ خير الخلقية الذين برئهم الله، فهو البارئ الخالق المتصرف في هذا العالم.

﴿ جَزَاؤُهُمْ ﴾ ثوابهم، ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ يوم القيامة، ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ جمعت لكثرة منازلها، جنات عظيمات فيها من كل خير، وقد وصفها الله في مواطن من كتابه، ومن أجلىٰ الآيات في وصفها آيات سورة الرحمن: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَا أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَامَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾[الرحمن: ٤٦ - ٧٦]، وهكذا في أوائل سورة الواقعة قال تعالىٰ: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ

وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا * وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾[الواقعة: ١٧ - ٣٨]، وفي سورة الصافات، قال تعالىٰ: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ * وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ [الصافات: ٤٤ - ٤٩]، وفي غير ذلك من السور.

﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي: تجري فيها الأنهار؛ لأن أنهار الجنة ليس لها أخاديد، كما قال تعالىٰ: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾[محمد: ١٥]، إلىٰ غير ذلك مما أمتن الله به علىٰ المسلمين.

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أي: أن من دخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلىٰ ثيابه، ولا يبلىٰ شبابه، وعن أبي هريرة: « إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ

أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا.. »، أخرجه مسلم.

﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ أي: سبب هذا الجزاء العظيم؛ أن الله رضي عنهموعن أعمالهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[الزمر:٧].

﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ أي: بما أكرمهم به، ورضوا به في الدنيا حيث قدموا طاعته علىٰ كل طاعة، وقدموا أمره علىٰ كل مأمور به، وأجلىٰ من وصف بهذا الوصف هم الصحابة رضي الله عنهم ورضوا عنه، وقد ذكرهم في مواطن من كتابه؛ وذلك؛ لشرفهم، ومنزلتهم، وعلو قدرهم، خلافًا لما تزعمه الرافضة فيهم؛ بأنهم خانوا أمر النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-، أو أنهم ضيعوا وصية النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-، فقول الرافضة مبني علىٰ الخرس، والكذب، فإن الصحابة قاموا بأمر رسول الله -صلىٰ عليه وسلم- علىٰ خير قيام، وأحسن حال، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[التوبة: ١٠٠].

﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ أي: هذا الجزاء الذي تقدم لمن خشي ربه، والخشية تصدر من العلماء، ومن استفاد منهم، كما قال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[فاطر: ٢٨]. وهي الخوف مع التعظيم.

ففي هذا بيان أن الجنة جزاء من خشي الله، وخافه وعظمه، وجرته هذه الخشية إلىٰ فعل الطاعات، والابتعاد عن المعاصي والسيئات، ولذلك كان في الدعاء المأثور: «اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ».

والحمد لله رب العالمين.

سورة الزلزلة

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[الزلزلة:١-٨].

مكية، وقد ذهب بعضهم إلىٰ أنها مدنية، وقد أخبر الله عز وجل فيها عن بعض شأن يومِ القيامة، فيقول سبحانهُ وتعالىٰ: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا

﴾ أي: اهتزت من تحتِها وتَزلزلت جِبالُها وما فيها ولو تأملنا ما يقع من الزلازل، وما هو إلا مثل مما سيكون يوم القيامة لعلمنا شدةِ الحال الذي سيصير إليه الناس، فلو وقعت زلزلة ستة، بِمقياس رختر الذي وضعوه لمقياس الزلازل، لدمرت البنيان وقطعت الطرق، وسقطت الصخور، فكيف بزلزلةَ يومِ القيامة التي تتنافر معها الجبال، وتُدك: ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجا وَلَا أَمتا ﴾[طه:١٠٧].

﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ أخرجت ما فيها من الكنوزِ، وما فيها من المدفونين، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾[المعارج: ٤٣-٤٤]

ولا يضيع شيء مما استُودع في الأرض، ويثبت الإنسان من عجب الذنب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ، «ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ، كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ» قَالَ: «وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَىٰ، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، أخرجه مسلم.

﴿ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴾ يتعجب من هذهِ الزلزلة وهذهِ الخروج، ما شأن هذا الحادث الذي حصل للإنسان، وقد يكون قُولهم بلسان الحالِ، ولسان المقال، كما قال عز وجل مُخبِرًا عنهم: ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾[يس:٥٢]

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ تُخبر بما وقع فيها من خيرٍ أو شرٍ، وتشهد عليك أيُها الإنسان، وهيَ من جُملتِ الشهود: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[النور:٢٤]، وهذِهِ والله مُصيبة، كم من إنسان يتعاطىٰ معصيةً في ليلةٍ ظلماء، وفي مكان قفرٍ لا يراهُ أحد، وإذا به يوم القيامة يُفضح علىٰ الأشهاد، وتشهد عليهم تلك البقع التي استتر واختفىٰ فيها.

زد علىٰ ذلك: أن الله عز وجل يُبلي سريرته، فلا يبقىٰ شي من أمرِه إلا وتحدثت به، مع أنه سبحانهُ وتعالىٰ عليمٌ بذاتِ الصدور، ولا تخفىٰ عليه خافية.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾، قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَىٰ كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا، أَنْ تَقُولَ: عَمِلَ كَذَا وَكَذَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا». قَالَ: «فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا»، أخرجه النسائي.

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ هذا الحديث الذي صدر منها؛ لِسببِ أمر الله لها بالشهادةِ والكلام، فالأرض خلق لله، تفعل ما أمر الله، فهي حِجارةٌ صماء، فإذا أذن الله لها بالكلام تكلمت ونطقت، ولا يُعجزهُ شي في الأرض ولا في السماء سبحانهُ وتعالىٰ وليس المراد بالإيحاء هنا إيحاء الوحي، وإنما المراد به الإذن والأمر.

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي: في ذلك اليوم يوم القيامة حين تزلزل الأرض ﴿ يَصْدُرُ النَّاسُ ﴾ أي: يخرج الناسُ من قبورهم ﴿ أَشْتَاتًا ﴾ متفرقين وجماعات، ولكلٍ منهم عملُة وفعلُه، وسبب خروجهم؛ ﴿ لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ لينظروا ويجدوا جزاء تلك الأعمال التي تعاطوها في الدُنيا.

ثم أخبر بحالِ الناس مع هذهِ الأعمال: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ وهذا في حق المؤمنين والموحدين، يجد ذلكَ أمام عينه، ويفرح به، وإن كان في وزن الذرة.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ وإن كانت في الحقارة مثقال ذرة ولم يغفرها الله عز وجل فهي ثقيلة علىٰ الإنسان: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾[آل عمران:٣٠]، ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾[الأنبياء:٤٧].

فكم عندنا من ما مثاقيل الذر ومما هو فوق ذلك من المعاصي والتقصير والذنوب إذا لم يتجاوز الله سبحانهُ وتعالىٰ.

واللهِ لو أن كل واحد منا يحاسب نفسهُ لرأىٰ الهلكة إلا أن يشاء الله، ما هيَ الطاعات التي نتقرب به إلىٰ الله عز وجل؟ ما هيَ العبادات التي تبذل لأجل الله عز وجل؟ وما هو التقصير الذي يحصل منا في جناب الله عز وجل؟!

وقد ذكر النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- الزكاة، والفضيلة في البقرِ والغنمِ والإبل والخيل، وسُئل عنِ الحُمر، فقال: «مَا أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهَا إِلَّا هَذِهِ الآيَةُ الجَامِعَةُ الفَاذَّةُ: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾» متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وجاء عَنْ صَعْصَعَةَ بْنِ مُعَاوِيَةَ، عَمِّ الْفَرَزْدَقِ، أَنَّهُ أَتَىٰ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[الزلزلة: ٨]، قَالَ: حَسْبِي، لَا أُبَالِي أَنْ لَا أَسْمَعَ غَيْرَهَا». أخرجه أحمد.

وهذه الآية دالة علىٰ عدل الله عز وجل، وهو القائل: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف: ٤٩]

وقد ثبت: أن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- صلىٰ بسورة الزلزلة في ركعتي الفجر، في سفرٍ كانَ فيه، وما ما جاء أنها تعدل ربع القرآن، فلا يثبت في ذلك شيء والله أعلم.

سورة العاديات

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ * أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ﴾[العاديات:١-١١].

يقسم الله عز وجل بالخيل في أشد قوته، فيقول: ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ﴾ أي: الجاريات، ﴿ ضَبْحًا ﴾ فيصدر منها صوتٌ حين جريها وعديها.

﴿ فَالْمُورِيَاتِ ﴾ أي: المشعلات ﴿ قَدْحًا ﴾ حين تضرب أرجلها في الحجارة، فلصلابة الحجر، وصلابة الرجل تنقدح من الحجارة مثل الشرر، وذلك أن الخيل يوضع في رجلهِ حدوه من حديد؛ لتقيه ضرب الحجارة ونحو ذلك، فتجتمع صلابة ما في رجل الخيل مع صلابة الحجر مع سرعة العدو، فيخرج منها قدح مثل النار.

﴿ فَالْمُغِيرَاتِ ﴾ أي: الخيل التي تغير علىٰ الأعداء، ﴿ صُبْحًا ﴾ وهذا علىٰ الغالب، فإن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- كان يبيت الناس، ثم يغير عليهم في الصباح، فإن سمع الأذان أمسك وإلا أغار، وربما تقع الغارة في غير هذا الوقت.

﴿ فَأَثَرْنَ ﴾: أي من الإثارة لكثرة جريهن، ﴿ نَقْعًا ﴾ أي: الغبار.

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ أي: تتوسط بالمقاتلين وجموع الأعداء، وهذا من عجيب شأن الخيل، فإنه يهجم مع مقاتله حتىٰ في حال المسايفة، ربما تجد المبارز يبارز والخيل يقدم معه، لاسيما الخيل العربية الأصيلة، ولذلك يستخدم الناس البراذين والخيول الأوربية وما في بابها؛ للعدو والسباق، ويستخدمون الخيل العربية للقتال ونحوه، فإنه يبقىٰ مع صاحبه في أشد اللحظات وأحنك الأوقات.

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ ﴾ هذا هو المقسم عليه، أقسم الله بالخيل وصفاته لهذا الأمر ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ أي: إن جنس الإنسان لجحود لنعمةِ الله عز وجل عليه، وقد يجحدها بلسانه، أو بفعاله.

والواجب علىٰ الإنسان أن يكون شاكرًا لأنعم الله عليه، لكن الوقع أن كثيراً من الناس كفروا بالله وجحدوا نعمته.

﴿ لِرَبِّهِ ﴾ إشعار بأن الله هو الذي يرزقه ويحوطه ويعطيه، ومع ذلك يكفر النعمة ولا يشكرها ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ ١٣]

﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ لها معنيان:

الأول: بأن الله شهيدٌ علىٰ كنود الإنسان، وعلىٰ بخله، وجحوده، والله مطلع علىٰ كل شيء، ويكون هذا علىٰ التهديد.

الثاني: أن الإنسان علىٰ كنودِهِ لشهيد، إما بلسان حاله وإما بلسان مقاله، يشهد أنه جحودٌ، وأنه مفرط في حق الله عز وجل، وهذا يكون في يوم القيامة.

﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ أي: أن الإنسان لحب المال لشديد، وهذا هو السبب الذي أورده الموارد، فإنه يأخذ المال من حله ومن حرامه، ويعادي ويوالي؛ من أجله، فإذا زادت محبة المال في الإنسان أهلكتهُ، وكما قيل:

أنـــت للمـــال إذا أمســـكتهُ وإذا أنفقتـــهُ فالمـــال لـــك

فكثير من الناس بسبب محبتهم للمال يقعون في الهلكة، وعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ، أَيُّ قَوْمٍ أَنْتُمْ؟» قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: نَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا اللهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، تَتَنَافَسُونَ، ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ، ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ، ثُمَّ تَتَبَاغَضُونَ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ فِي مَسَاكِينِ الْمُهَاجِرِينَ، فَتَجْعَلُونَ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ رِقَابِ بَعْضٍ» أخرجه مسلم.

والمعنىٰ الثاني: أن الإنسان بخيل بما أوجب الله عز وجل عليه، فيعاقب علىٰ ذلك سمع أبو هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ، وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا؛ إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَىٰ بِهَا جَنْبُهُ، وَجَبِينُهُ، وَظَهْرُهُ»، متفق عليه.

قيل يكوىٰ جبينه؛ لأن السائل حين يأتيه يتمعر وجهُه، ويكوىٰ جنبُه؛ لأن السائل حين يلح عليه يعرض عنه و يوليه جنبه، ويكوىٰ ظهرُه؛ لأنه إذا أتاه في الثالثة قد يوليه ظهره ويمشي، فيكون الجزاء من جنس الصنيع في الدنيا.

فحب المال، إن كان لا يؤدي إلىٰ ترك الواجبات وفعل المحرمات، فهو رزقٌ من الله سبحانه.

قَالَ النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «يَا عَمْرُو، نَعِمَّا بِالْمَالِ الصَّالِحِ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ» أخرجه أحمد.

وأما إذا كان يؤدي إلىٰ غير ذلك فهذه هلكة، نسأل الله السلامة، فكثير من الناس من حبهم للمال يمنعون المسكين حقه، قال تعالىٰ: ﴿ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾[القلم: ١٢]، بل لا يحضوا علىٰ طعام المسكين، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾[الماعون: ٣]

فإذا كان يعاقب علىٰ عدم الحض علىٰ طعام المسكين، فكيف بمن لا يطعم المسكين، وبعضهم يقطع أرحامه، ويهجر جيرانه؛ من أجل المال، وقد قال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: « إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ» أخرجه الترمذي عن كعب بن عياض رضي الله عنه.

ثم قال عز وجل مهددا لما سيقع للإنسان في يوم القيامة: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ ﴾ أي: هلَّا يعلم هذا الإنسان، ﴿ إِذَا بُعْثِرَ ﴾ أثير وأخرج، ﴿ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾ من المدفونين والمقبورين.

﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ أي: وجمع ما في صدورهم وأظهر للعيان، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾[الطارق:٩].

وذكر الصدور دون غيرها؛ لأنه إذا جمع عليك ما في صدرك فمن باب أولىٰ جمع الظاهر الواضح، وفي هذا دليل علىٰ خطر النيات، فإن كانت صالحة يرجىٰ لصاحبها الخير وإن كانت غير ذلك يخشىٰ علىٰ صاحبها الشر والضير.

﴿ إِنَّ رَبَّهُم ﴾ خالقهم ورازقهمن ﴿ بِهِمْ ﴾ وبأعمالهم، ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم القيامة، ﴿ لَّخَبِيرٌ ﴾ مطلع علىٰ كل ما فعلوا وتركوا.

وذكر يوم القيامة علىٰ التهديد، والوعيد، ومعنىٰ خبير: أي عليم بِبَواطن الأمور، هذا إذا اجتمع مع العلم، وأما إذا افترق عن العلم: فالخبير بمعنىٰ العليم بظواهر الأمور وبواطنها، واللهُ المستعان.

سورة القارعة

﴿ بِسْمِ اللهِ الْرَّحمَنِ الْرَّحِيمِ ﴾

﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ * فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ

مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾[القارعة:١-١١].

سورة القارعة مكية.

﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ من أسماء القيامة كالصاخة والحاقة والوقعة وعير ذلك.

سميت بالقارعة؛ لأنها تقرع الآذان والأسماع من شدة أهوالها وعظيم شأنها.

﴿ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ تكرار للسؤال عن معناها؛ من أجل أن يكون زاجرًا ورادعًا لمن يسمع هذا الوعيد العظيم

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ تعظيم لشأنها؛ لأن القارعة شأنها عظيم جدًا، فبعدها إما سعادة أبدية أو شقاوة أبدية.

ولو جمعت هذه الآيات مع وصف الله عز وجل لها بالواقعة: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴾[الواقعة:١-٦]، وقوله: ﴿ الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾[الحاقة:١-٣]، وغير ذلك من الأسماء ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾[عبس: ٣٣ - ٣٧]، ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ﴾[النازعات: ٣٤ - ٣٦].

﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ أي: يكون الناس في يوم القارعة كالفراش، والفراش كائن صغير ينتشر في الليل أكثر منه في النهار لاسيما إذا رأىٰ ضوءً، فيخرج لا يدري إلىٰ أين يتجه، وإذا وجد نارًا تقاعد فيها وسقط؛ لأنه لا يتحكم بنفسه، ولا يملك عقلًا يتقي فيه شر ذلك.

ففي يوم القيامة يكون الناس كالفرش المبثوث؛ من شدة الأهوال التي يرونها

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾[الحج:١-٢].

يوم مهول يخرج الناس حفاةً عراةً غرلًا، لا ينظر الرجال إلىٰ النساء، ولا النساء إلىٰ الرجال؛ لشدة الحال، فعن عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ، قَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عَائِشَةُ الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ»، متفق عليه.

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: يَا آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ. فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ. قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ

وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ. فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ: ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾[الحج:٢] » متفق عليه.

فيكون الناس من شدة هذه الأهوال كالفراش المبثوث المنتشر هاهنا وهاهنا، لا يلوي بعضهم علىٰ بعض، ولا ينظر بعضهم لبعض، ولا يستقر لأحدهم قرار؛ لأنهم لا يعلمون ما الذي يجري لهم، وما الذي سيكونون فيه.

﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ ﴾ العظيمة الشاهقة الثابتة، ﴿ كَالْعِهْنِ ﴾ كالصوف، ﴿ الْمَنفُوشِ ﴾ الذي يتبدد في الهواء، وتسوقه الريح، هذه الجبال العظيمة، إذا أنت تريد الآن أن تكسر حجرة صغيرة من الجبل، تأتي بآلات شديدة، وتعالجها علاجا شديدًا من أجل أن تكسرها، فهذه الجبال تصير كالصوف المنفوش المتطاير من شدة ذلك اليوم، حيث تنسف الجبال، وتبقىٰ الأرض، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۞ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۞ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾[طه: ١٠٥ - ١٠٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾[النمل:٨٨].

ثم يقول مخبراً عن حال الناس في ذلك اليوم أنهم ينقسمون إلىٰ قسمين لا ثالث لهما: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ أي: بالأعمال الصالحة، وفيها: إثبات الميزان الذي توزن به الأعمال يوم القيامة، خلافًا لما ذهب إليه المعتزلة،

فهو ميزان حقيقي له كفتان ولسان، توضع فيه أعمال العباد، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾[المؤمنون:١٠٢-١٠٣].

والموازين: تثقل بالطاعات والحسنات وتخف بالسيئات، ولعظم شأن التوحيد يكون أثقل شيء، ففي حديث عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: بَلَىٰ، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ. فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ ؟ فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ. قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ »، أخرجه الترمذي.

ويوزن في ذلك اليوم العمل فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَىٰ اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ»، متفق عليه.

ويوزن العامل عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ الْأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مِمَّ تَضْحَكُونَ ؟» قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ. فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَاأَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ»، أخرجه أحمد.

وتوزن الصحف، كما تقدم حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه.

وجمعت الموازين؛ لكثرة الموزونات وإلا هو ميزان واحد، وما منا إلا وله أعمال كثيرة، إما صالحة، وإما طالحة، وإلا من مجموعهما.

﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ فهو في جنة يحيىٰ ويعيش عيشةٍ هنية يرضىٰ بها؛ وذلك بسبب رضىٰ الله عز وجل عنه.

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ لكثرة المعاصي والسيئات، ومن أشدها الشرك، ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ لها معنيان:

المعنىٰ الأول: أنه يسقط علىٰ رأسه في النار، وهذه مصيبة عظيمة، أن الإنسان يهوي علىٰ رأسه في النار، ومعلوم أن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- سَمِعَ وَجْبَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَدْرُونَ مَا هَذَا؟» قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ قَعْرِهَا»، أخرجه مسلم.

والمعنىٰ الثاني: ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ أي: صارت له النار كالأم إذ لا مأوىٰ له غيرها.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا حُضِرَ الْمُؤْمِنُ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَرِيرَةٍ بَيْضَاءَ فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي رَاضِيَةً مَرْضِيًّا عَنْكِ إِلَىٰ رَوْحِ اللهِ، وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَتَخْرُجُ كَأَطْيَبِ رِيحِ الْمِسْكِ، حَتَّىٰ أَنَّهُ لَيُنَاوِلُهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، حَتَّىٰ يَأْتُونَ بِهِ بَابَ السَّمَاءِ فَيَقُولُونَ: مَا أَطْيَبَ هَذِهِ الرِّيحَ الَّتِي جَاءَتْكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، فَيَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِغَائِبِهِ يَقْدَمُ عَلَيْهِ، فَيَسْأَلُونَهُ: مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ فَيَقُولُونَ: دَعُوهُ فَإِنَّهُ كَانَ فِي غَمِّ الدُّنْيَا، فَإِذَا قَالَ: أَمَا أَتَاكُمْ؟ قَالُوا: ذُهِبَ بِهِ إِلَىٰ أُمِّهِ الْهَاوِيَةِ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا احْتُضِرَ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ بِمِسْحٍ فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي سَاخِطَةً مَسْخُوطًا عَلَيْكِ إِلَىٰ عَذَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَتَخْرُجُ كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ، حَتَّىٰ يَأْتُونَ بِهِ بَابَ الْأَرْضِ، فَيَقُولُونَ: مَا أَنْتَنَ هَذِهِ الرِّيحَ حَتَّىٰ يَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْكُفَّارِ»، أخرجه النسائي.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴾ أي: الهاوية، وهذا لتعظيم شأنها، ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ نار شديدة الحرارة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً. قَالَ: «فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا»، أخرجه البخاري.

وانظروا إلىٰ شده حرارتها وعظيم خطرها، ولو عذب الناس بها لكفتهم وأحرقتهم، وأوجعتهم، ولكن مع ذلك هذه النار ليست بشيء أمام تلك النار،

شديدة الحرارة، مظلمة الحال، وكل ما فيها حار: كالزقوم والحميم وغير ذلك مما يقع فيه الناس.

ففي هذه السور من الوعد والواعيد ما يكون دافعًا للإنسان إلىٰ التوبة إلىٰ الله عز وجل، والاستغفار مما بدر منه، وملازمة الطاعة حتىٰ يلقىٰ الله عز وجل.

والحمدُ لله رب العالمين

سورة العصر

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[العصر:١-٣]

فالمؤمنون جميعًا رجالهم ونساءهم وشبابهم وشيوخهم وجنّهم وانسهم يجب عليهم ويتحتم أن يعملوا بهذه السورة العظيمة وذلك لأن الدين قائمٌ علىٰ ذلك ما دلت عليه.

ولأن سلامة العبد المؤمن من العطب ومن الخسارة الدنيوية والأخروية لاحقٌ لذلك والله عز وجل كما تعلمون وتعتقدون أنه أحسن قيلا وأصدق حديثا وقد أقسم قسمًا بمخلوق من مخلوقاته وله ذلك لا يُسأل عما يفعل

وهم يسألون يقسم بما شاء تعظيما لذلك المخلوق ولا يجوز للمخلوق أن يحلف بغير الله تعالىٰ وملخص ما يقسم به يعود إلىٰ قسمين:

الأول: الحلف بأسماء الله وصفاته وهذا هو الذي لا ينعقد إلا هو.

الثاني: الحلف بغير الله عز وجل والحلف به محرم وصاحبه بين عظيمتين: أحدها: الشرك الأكبر إن قرنه تعظيم للمحلوف به والآخر: شرك أصغر.

وأما الحلف في القرآن بغير الله عز وجل فالجواب عليه ما قال ابن الملقن في ”الإعلام“ (٩/ ٢٥٨) عنه جوابان:

أحدهما: أنه علىٰ حذف مضاف كما سلف في الحديث –يشير رحمه الله إلىٰ تقدير ورب الشمس ورب مواقع النجوم–.

الثاني: أن الله تعالىٰ يقسم بما شاء للتنبيه علىٰ شرفه؛ فإنه المتصرف في ملكه كيف يشاء ونحن لا نتصرف إلا كما أذن لنا وقد أبلغنا نبيه عليه الصلاة والسلام فقال: «من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت». انتهىٰ

قوله: ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ العصر: الزَّمَانُ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ حَرَكَاتُ بَنِي آدَمَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَقَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: هُوَ الْعَشِيُّ، وَالْمَشْهُورُ الْأَوَّلُ قاله ابن كثير في تفسيره، قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ أكد خسارة الإنسان بحرف التوكيد إنّ وباللام الداخلة في خبره كما أكده بالقسم وهذه التوكيدات

الثلاث تدلك دلالة واضحة علىٰ أهمية هذا الأمر الذي فيه صلاحك وصلاح معادك وصلاح حياتك ومماتك.

والمراد بالإنسان جنس الإنسان فكل إنسان في خسارة وضياع إلا من استثناه الدليل علىٰ ما يأتي.

قوله: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ استثنىٰ الله عز وجل طائفة واحدة من هذه الخسارة الناس يتفاوتون منهم من يخسر بشهوته ومنهم من يخسر بشبهته ومنهم من يخسر بهما جميعا ويتبع هواه قال تعالىٰ: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾[الجاثية:٢٣]، ﴿ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾[ص:٢٦].

وإنما ينسىٰ يوم الحساب أهل الخسارة أهل البعد والإعراض أهل الجحود أهل الكفر والعناد فالسالمون من الخسارة الدنيوية والأخروية صنفٌ واحدٌ وكلٌّ يقول أنا هو:

وَكُلٌّ يَدَّعِي وَصْلًا لِلَيْلَىٰ وَلَيْلَىٰ لَا تُقِرُّ لَهُمْ بِذَاكا

وقال:

فالدّعاوىٰ ما لم يقيموا عليها بيّنات أصحابها أدعياء

والنبي صلىٰ الله عليه وسلم يقول كما في حديث عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال: «لَوْ يُعْطَىٰ النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَادَّعَىٰ نَاسٌ دِمَاءَ رِجَالٍ وَأَمْوَالَهُمْ وَلَكِنَّ الْيَمِينَ عَلَى الْمُدَّعَىٰ عَلَيْهِ» حديث حسن رواه البيهقي وغيره هكذا، وبعضه في الصحيحين.

فما هي الصفات التي يوصف ويتميز بها أهل السلامة من الخسارة ؟

الجواب: قال الله عز وجل: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ هذا بيان لمن استثناه الله تعالىٰ من صنف الخسارة في الدارين.

فالشرط الأول: الإيمان، وبشمل أركان الإيمان الستة الإيمان بالله وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ».

والإيمان بالله: يتضمن الإيمان بوجوده والإيمان بربوبيته والإيمان بألوهيته والإيمان بأسمائه وصفاته.

والإيمان برسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: يتضمن الإيمان بما أخبر و طاعته فيما أمر واجتناب ما نهىٰ عنه وزجر وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

والإيمان برسل الله: يستلزم الإيمان بما أخبر من الرسل فنؤمن بمن عرفنا من أسماءهم ونؤمن بمن لم نعرف: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾[النساء:١٦٤].

ونؤمن ونقر ونعترف ونعتقد أن محمدا صلىٰ الله عليه وسلم خاتم الأنبياء ودينه ناسخٌ لجميع الشرائع والأديان فمن زعم أنه يسعه الخروج من شريعة

محمد صلىٰ الله عليه وسلم كما وسع الخضر الخروج من شريعة موسىٰ فقد كفر.

ونؤمن أن من لم يؤمن بمحمد صلىٰ الله عليه وسلم من اليهود والنصارىٰ وغيرهم فهو كافر لحديث النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ». أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الإيمان بكتب الله: فنؤمن بأن الله عز وجل انزل توراة والإنجيل وأنزل صحفًا علىٰ إبراهيم وصحفًا علىٰ موسىٰ وأنزل علىٰ داود الزبور وأنزل كتبا غير ذلك قال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾[الحديد: ٢٥]، فنؤمن بها إجمالًا علىٰ أنها من عند الله وأنها قد حُرفت وبُدلت وغُيرت بخبر الله الحق إلا القرآن.

ثم نؤمن أن هذا القرآن ناسخ لجميع الكتب قال تعالىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[المائدة:٤٨].

مهيمن علىٰ جميعها وناسخ لها وأنه محفوظ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[الحجر:٩].

فنعمل بمحكمه ونؤمن به وما أشكل وأشتبه علينا منه نرده إلىٰ أهل العلم لعلمهم به وإن لم نجد فنقول كما قال تعالىٰ: ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[آل عمران:٧].

والإيمان بالملائكة: فنؤمن بملائكة الله وبمن سمىٰ منهم ومن لم يسم وبأنهم خلق ولهم صفات خلقهم الله من نور كما خلق الجن من نار وخلق الإنسان من طين كما في حديث عائشة رضي الله عنها عند مسلم.

وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وأن لهم وظائف منهم ملك الجبال وجبريل وميكائيل وحملة العرش وإسرافيل وغير ذلك مما هذا ليس موطن بسطه.

ولإيمان باليوم الآخر: فنؤمن باليوم الآخر وما فيه من الصراط والميزان والحوض وتطاير الصحف ويدخل فيه عذاب القبر ونعيمة والضمة والفتنة وغير ذلك والنظر إلىٰ وجه الله عز وجل ونؤمن بالجنة والنار وأنهما مخلوقتان لا تبيدان.

ونؤمن بما أخبر الله عز وجل من المغيبات فنؤمن بخبر الله عز وجل ونؤمن بخبر رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ونؤمن بالقدر خيره وشره وأن ما أصابك لم يكن ليُخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليُصيبك جف القلم بما هو كائن

ومراتب القدر أربعة العلم والكتابة والمشيئة والخلق دل عليها أدلة الكتاب والسنة

والقدر سر الله عز وجل وعلمه وأعظم الناس جهلًا به من تعمق في الخوض فيه وأعظم الناس علمًا به من أمنوا به وجمعوا بين الآيات بعيدًا عن أفكار المجبرة من الجهمية والأشاعرة وأفكار النُفَاة من المعتزلة.

فالإيمان بالله والإيمان بما ذُكر يُنمي في الإنسان محبة الخير ويدعوه إلىٰ نشر الخير ويحذره من الشر والضير لأنه يعلم أنه عبد مخلوق مربوب وبأن الله عز وجل أمره ونهاه وبأن الله عز وجل أرسل إليه ملائكة حافظين وأرسل إليه رسلا يعلمونه ما جهل: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[الإسراء:١٥].

والإيمان بالقدر: فيها الاستسلام والانقياد لله عز وجل والرضا بقضاء الله تعالىٰ.

الإيمان باليوم الأخر فيه الحث علىٰ ملازمة الطاعات والقربات فإن العمر قصير وما نقدم عليه عسير.

قوله: ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي: لازموا فعل الطاعات والقربات فكل ما أمر الله تعالىٰ به فهو من الصالحات.

فالشرط الثاني:

السلامة من الخسارة: ملازمة العمل الصالح: فمدعي الإيمان كثير لكن ينبغي أن يقرن القول بالعمل ولهذا قرن الله عز وجل بين الإيمان والعمل في ستة وخمسين موضعًا من القرآن قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾[مريم:٩٦]، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾[الكهف:٣٠]، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾[الكهف:١٠٧]، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[النحل:٩٧]، في آيات طيبات مباركات كثيرة.

ويعرف الإيمان عند أهل السنة والجماعة بأنه قول باللسان وعمل بالجوارح واعتقاد بالقلب، وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ إِلَىٰ عَدِيِّ بْنِ عَدِيٍّ: «إِنَّ لِلْإِيمَانِ فَرَائِضَ، وَشَرَائِعَ، وَحُدُودًا، وَسُنَنًا، فَمَنِ اسْتَكْمَلَهَا اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَكْمِلْهَا لَمْ يَسْتَكْمِلِ الإِيمَانَ، فَإِنْ أَعِشْ فَسَأُبَيِّنُهَا لَكُمْ حَتَّىٰ تَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنْ أَمُتْ فَمَا أَنَا عَلَىٰ صُحْبَتِكُمْ بِحَرِيصٍ» ذكره البخاري في كتاب الإيمان.

والأعمال داخلة في مسمىٰ الإيمان، وليست بخارجة عنه كما زعم المرجئة الذين يزعمون أن الذي لا يعمل والذي يعمل سواء حتىٰ قال قائلهم والإيمان أهله في أصله سواء أو كما قال الطحاوي، وقال قائلهم لما رأىٰ

امرأة ترقص هذه علىٰ إيمان امرأت عمران وقال الأخر أنا علىٰ إيمان جبريل وميكائيل.

فالصلاة والحج والزكاة والجهاد وصلة الرحم وغيرها من الطاعات كلها من الإيمان.

والإيمان يزيد وينقص: والإيمان يزيد بالطاعات والقُربات وينقص بالمعاصي والسيئات والبدع والشركيات وأدلة زيادة الإيمان ونقصانه ليس هذا موطن بسطها قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾[الفتح: ٤]، ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًىٰ ﴾[الكهف: ١٣]، ﴿ وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًىٰ ﴾[مريم: ٧٦]، ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًىٰ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾[محمد: ١٧]، وَقَوْلُهُ: ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾[المدثر: ٣١]، وَقَوْلُهُ: ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[التوبة:١٢٤]، وَقَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ﴾[آل عمران: ١٧٣]، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾[الأحزاب: ٢٢].

قوله تعالىٰ: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ أي: أن دينهم قام علىٰ النصيحة.

الشرط الثالث من شروط السلامة: التواصي بالحق، فالله عز وجل حق: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾[الحج:٦٢].

والقران حق كما أخبر الله عز وجل عنه: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[فصلت:٥٣]، والنبي صلىٰ الله عليه وسلم حق كما قال صلىٰ الله عليه وسلم في حديث ابن عباس رضي الله عنه في البخاري ومسلم: «وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ الحَقُّ وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقٌّ...» الحديث.

فنؤمن بهذا كله ونتواصىٰ بالحق الذي هو القرآن والسنة؛ لأنه جاء من عند الحق سبحانه وتعالىٰ؛ ولأن الذي جاء به الداعي إلىٰ الحق محمد صلىٰ الله عليه وسلم؛ ولأن ما يضاد القرآن والسنة باطل وإذا تزاحم الباطل مع الحق ذهب الباطل: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[الإسراء:٨١].

وقال الله عز وجل: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[الكهف:٢٩]، وهذا ليس بالتخيير وإنما هو بالتهديد قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾[الكهف:٢٩]، أي: من تخلف عن الحق وعن أصحابه وأهله، ولازم سبيل المجرمين: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[الكهف:٢٩].

ولما كانوا ما هم أصحاب حق يغاثوا بنظير ما كانوا فيه لما كانوا في الباطل أُغيثوا بشيء يزيدهم شدة إلىٰ شدتهم وعناء إلىٰ عناءهم وعذاب إلىٰ عذابهم: ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[الكهف:٢٩].

فالله عز وجل أقسم أنه الحق وبالحق يقول قال: ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾[ص:٨٤]، فالله بالتواصي بالحق والدعوة إلىٰ الحق والحق هو الكتاب والسنة فادع إليهما تفلح وتربح وتنجح: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَىٰ اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾[يوسف:١٠٨]، وطريقة النبي صلىٰ الله عليه وسلم الدعوة الىٰ الحق ادعو إلىٰ الله علىٰ بصيرة أي: علىٰ علم ومعرفة بالحق ومعرفة بالباطل الذي يحذر منه.

والذي ما عنده معرفة بالحق ومعرفة بالباطل يدخل علىٰ الناس ما ليس من الحق ويدخل علىٰ الناس الباطل؛ ولهذا قال الله عز وجل: ﴿ أَدْعُوا إِلَىٰ اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾[يوسف:١٠٨]، أي: علىٰ حق ومعرفة وبيان، ﴿ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾[يوسف:١٠٨]، كلنا ندعو إلىٰ الله علىٰ بصيرة وحق نعرفه ونعتقده وندين به.

فالحق الحق لازمه علىٰ نفسك لازمه علىٰ غيرك لازمة بحضرك لازمه بسفرك واحذر من تلبيسات الشيطان أن يعظم نفسك إليك فلا تظن أن الحق إلا فيه أو أن يعظم بعض الناس إليك لا تظن أن الحق إلا فيه.

فالحق هو الكتاب والسنة والناس يصيبون ويخطؤون ويعلمون ويجهلون، فالواجب علىٰ المسلم أن يكون ذهابه وإيابه وقيامه وقعوده علىٰ طريقة الكتاب والسنة ففيهما السلامة من العطب وفيهما طريق الوصول قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم كما في حديث زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رضي الله عنه «... وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ فِيهِ الْهُدَىٰ وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ... ثُمَّ قَالَ وَأَهْلُ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمْ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمْ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمْ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي»، أخرجه مسلم، فخذوا بكتاب الله وتمسكوا به فهو حبل الله المتين من تمسك به نجا ومن تركه ضل وغوىٰ انصر الحق الذي هو سنة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وامش به وادع به وهذا يحتاج إلىٰ علم وإلىٰ عمل والدليل هو أن الله عز وجل إنما أمر بالتواصي بالحق لما ذكر قبل ذلك الإيمان والعمل.

فالإنسان العامل ربما تكون دعوته الفعلية أبلغ بكثير من دعوته القولية والإنسان، غير العامل ضرره كثير وكبير فعن حُذَيفَة بن اليمان - رضِي الله عنه - أنَّه قال: كان الناس يسألون رسول الله - صلَّىٰ الله عليه وسلَّم - عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يُدرِكني، فقلت: يا رسول الله، إنَّا كنَّا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «نعم»، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «نعم، وفيه دَخَنٌ»، قلت: وما دَخَنُه؟ قال: «قومٌ يَهدُون بغير هَديِي، تعرِف منهم وتُنكِر»، قلت: فهل بعد

ذلك الخير من شر؟ قال: «نعم؛ دُعَاة علىٰ أبواب جهنَّم، مَن أجابَهُم إليها قذَفُوه فيها»، قلت: يا رسول الله، صِفْهُم لنا؟ قال: «هم من جِلدَتِنا، ويتكلَّمون بألسنتنا»، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم»، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «فاعتَزِل تلك الفِرَق كلها، ولو أن تَعَضَّ بأصل شجرة حتىٰ يُدرِكَك الموت، وأنت علىٰ ذلك».

فعلماء السوء وقفوا علىٰ أبواب الجنة يدعون الناس بأقوالهم ويصدونهم عنها بأفعالهم إلا أن تكون عالما عاملا فلازم الخير مع صديقك وعدوك ومع موافقك ومخالفك لتكن إرادة الخير منك للمسلمين حاصلة هذا دين الله فعن أنس بن مالك رضي الله عنه خادم رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال: «لاَ يُؤمِن أَحدكم حَتىٰ يُحب لأخيه ما يحب لنفسه»، متفق عليه

وعنه رضي الله عنه عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال: «ثلاثٌ من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار»، متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، إمام عادل وشاب نشأ في عبادة الله،

ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله. ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتىٰ لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»، متفق عليه.

فالشاهد: «ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه»، من أجل الحق وفي الحق وبالحق إذا لم يكن هذا هو ديدنك وهذه طريقتك والرسول صلىٰ الله عليه وسلم كان يحب للناس الخير وملازمة الحق حتىٰ اشتد ذلك عليه فأنزل الله عز وجل: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾[فاطر:٨].

والحق ثقيل علىٰ الأنفس؛ لأن أعداء الحق كثير، ومنهم أهل الباطل بأنواعهم والهوىٰ النفس الأمارة والشيطان إذًا أعداء الحق كثير فإن لم تجاهد نفسك من أجل العمل بالحق ومحبة الحق ومحبة الخير للمسلمين فأنت صيد لما تقدم من الأعداء.

ولهذا أهل السنة أرحم الناس بالناس لماذا؟

لأنهم يدعونهم إلىٰ الحق اعتقادًا وعلمًا وعملًا وإلىٰ دار الحق التي هي إلىٰ الجنة وإلىٰ إرضاء الحق الذي هو الله عز وجل والابتعاد عما يسبب لهم العطب والنار الذي هي حق وعذاب القبر الذي هو حق.

ومن أسباب انتشار الدعوة للناس محبته الله تعالىٰ لما هو حق ومحبته لهداية الناس للحق وإخراجهم من الظلمات إلىٰ النور من ظلمات الشر وظلمات البدع من ظلمات المعاصي من ظلمات الأهواء إلىٰ النور الذي قال الله عز وجل عنه: ﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾[البقرة:٢٥٧]، أي: يخرجهم من الباطل إلىٰ الحق: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾[البقرة:٢٥٧]، أي: يخرجهم الشيطان من الحق الواضح الجلي البين الظاهر إلىٰ الباطل الصرف.

فليكن حالك الدعوة إلىٰ الحق، والترغيب فيه، والبيان للحق الحق يحتاج إلىٰ بيان؛ لأن صورة الحق تشوه بسبب كثرة المخالفين وداعي الحق يشوه بسبب كثرة الأعداء، فلهذا الحق يحتاج إلىٰ بيان بالصبر، والرفق واللطف بالعباد، وعدم الانتقام للنفس، لو أن الإنسان ينتقم لنفسه ما خرج، ولا تكلم، ولا ألف، ولا صنف، ولا أمر، ولا نهىٰ، كم من الناس تنصح له وهو يتتبع زلة منك وهفوة وكلمة ليطير بها فرحًا، وما يحرص علىٰ سماع الحق والاستفادة من الحق وعلىٰ ملازمة الحق، وإنما قد فرخ الشيطان في رأسه فيحاول دائمًا في أذية الحق في طريقة أو بأخرىٰ، بينما الذي يجب علىٰ المسلم أن يصبر ويتصبر من أجل هذا الحق قال الله عز وجل: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ ركز معي صاحب حق أرسله الحق لماذا ؟

﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[الأعراف:٥٩]، دعاهم إلىٰ عبادة الحق سبحانه وتعالىٰ فقال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[الأعراف:٦٠]، لكن لما كان هذا القول منهم باطل، ولما كان نوح عليه السلام عنده همة عالية في الدعوة إلىٰ الحق حتىٰ صبر عليهم ألف سنة إلا خمسين عامًا: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف:٦١]، يا ليت نستطيع أن نسلك مثل هذا السلوك العظيم، يقولون له: أنت ضال أنت منحرف فلم يعنف ولم يشتد حتىٰ ينفذ، وإنما قال ليس بي ضلالة هذا الاتهام الذي اتهمتموني به ليس بصحيح لست من أهل الباطل ولست من أهل الخنا ولست من دعاة الزور ولست من دعاة الفجور: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:٦١-٦٢]، انظر إلىٰ هذا الخير العظيم حرص علىٰ الهداية مع أنه إذا قال لهم أنتم المعرضون أنتم المبطلون أنتم الضالون أنتم المخالفون ما أنكر عليه لكنه حريص علىٰ بث الخير وهكذا ثمود قال لنبي الله هود: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[الأعراف:٦٦]، فيرد عليهم بنفس الرد اللطيف: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[الأعراف:٦٧-٦٨].

والنبي صلىٰ الله عليه وسلم يسبونه ويشتمونه ويكسرون المغفر علىٰ رأسه وتكسر البيضة وتكسر رباعيته وهو يقول «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»، لأن صاحب الحق مراده رد الناس إلىٰ الحق لا التشفي والتلهي والصد وإنما مراده الخير والبر.

ولهذا لما دعا عليهم عاتبه الله عز وجل بقوله تعالىٰ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾[آل عمران:١٢٨].

فالأمر كله لله عز وجل فإذًا عباد الله الواجب علينا أن نتواصىٰ بالحق بعد علمنا وعملنا نوصي غيرنا ونوصي أنفسنا؛ لأن الوصية من أعظم الوسائل لنشر الحق ونشر الخير ونشر البر.

ثم الشرط الرابع: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ وهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا تواصي بالحق وهل النصيحة التي قال عنها النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «الدين النصيحة»، إلا تواصي بالحق وهل الخطابة والتصنيف والتأليف إلا تواصي بالحق وهل التدريس إلا تواصي بالحق كل ذلك من الحق الذي يتواصىٰ به أهل السنة أهل الحق أهل الاستقامة.

وأيضًا التواصي بالصبر فالحق كما تقدم ثقيل والشيء الثقيل يحتاج إلىٰ صبر.

والحق أيضًا له أعداء، والأعداء يؤذون: يؤذون بالأقوال، يؤذون والأفعال يؤذون بالباطل الذي هم عليه فتحتاج إلىٰ صبر عليه ولهذا قال

موسىٰ لقومه: ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[الأعراف:١٢٨]؛ لأنهم بلغوا في التحمل مبلغًا من حيث أذية فرعون وقومه لهم؛ ولهذا دلهم موسىٰ علىٰ طريق يوصلهم إلىٰ انتشار الحق الذي يدعون إليه، وإلىٰ ثباتهم علىٰ الحق الذي يدلون عليه: استعينوا بالله واصبروا، وأخبرهم أن الأرض لله يورثها أهل الحق من عباده، والعاقبة للمتقين، العاقبة لأهل الحق أهل التقىٰ أهل الصلاح.

والتواصي بالصبر أمر مطلوب ومرغب فيه ومحبوب؛ لأن الله عز وجل يحب الصابرين علىٰ ملازمة الحق والصابرين عن البعد عن الباطل والصابرين الذين يصبرون علىٰ أذية أهل الباطل فالله يحب الصابرين بأصنافهم الثلاثة.

فالمطلوب منا: إيمان وعمل ومن تمام الإيمان والعمل التواصي بالحق والتواصي بالصبر وهذه الدعوة المباركة دعوة أهل السنة والجماعة إنما انتشرت بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر ما قالوا: (نتعاون فيما اتفقنا فيه ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه).

ولا قالوا: (منهجنا واسع أفيح يسع الأمة ويسع أهل السنة)، ولا قالوا: (لا نجعل خلافنا في غيرنا بسبب للخلاف بيننا)، ولا قالوا: (نصحح ولا نهدم) وإنما قالوا نتواصىٰ بالحق ونتواصىٰ بالصبر.

إننا في زمن كثُر شره وقل خيره كثُر باطله وقل حقه وإننا بحاجة إلىٰ المراجعة لأنفسنا لعودتنا إلىٰ كتاب ربنا وإلىٰ سنة نبينا صلىٰ الله عليه وسلم وملازمة ذلك في جميع أوقاتنا ولحظاتنا وحركاتنا وسكناتنا ولنتحاب فيما بيننا ولنتناصح فيما بيننا ولندعو لبعضنا ولنرحم بعضنا فإن الشر كثير وأنت غريب فإذا لم يقع بيننا ذلك فمن الذي سيقوم بنا ومن الذي سيرحمنا ونحن غرباء والغرباء يتعاطفون ويتزاورن ويتراحمون ويتناصحون والرسول صلىٰ الله عليه وسلم يقول كما في الحديث الذي أخرجه أحمد وغيره عن عبدالله بن عمرو عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال: «طوبىٰ للغرباء»، قلنا: وما الغرباء؟ قال: «قوم صالحون قليل في ناس سوء كثير، مَنْ يَعصيهِمْ أكثَرُ مِمَّن يُطيعهم».

فالغريب يلازم الدعوة إلىٰ الحق والذين يعصونه كثير والغريب يقبل علىٰ الله ويقبل علىٰ الخير ويقبل علىٰ البر.

والسلفية ليست قميص يتقمص فيه من شاء وينزعه من شاء، السلفية ليست ادعاء،

السلفية علم وعمل واعتقاد ونية.

السلفية: هي دين الله الحق الذي أنزله علىٰ محمد صلىٰ الله عليه وسلم.

السلفية: هي دعوة النبي صلىٰ الله عليه وسلم بفهم أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد رضي الله عنهم وغيرهم من الرعيل الأول ومن تبعهم بإحسان.

لنكن كلنا أدوات بناء لهذه الدعوة؛ لنبنيها بالطاعات بالقربات لبث الخير والعلم والبعد عن كل ما يناقض الكتاب والسنة، والبعد عن كل ما يخالف الكتاب السنة.

الإنصاف مع انفسنا ومع خصومنا فعن عمَّارٌ بن ياسر أنه قال: «ثلاثٌ من كن فيه فقد استكملَ الإيمانَ الإنصافُ من نفسِهِ والإنفاقُ منَ الإقتارِ وبذلُ السَّلامِ للعالَمِ»، لا تنصف لنفسك وتجور علىٰ غيرك انصف لغيرك وانصف لنفسك فإن هذا من أسباب انتصار وظهور الدعوة السلفية.

هذه السورة العظيمة التي تكلمنا عن بعض فوائدها والتقصي يطول.

والعمل بالصالحات التي دلت عليها مطلوب منا جميعا فالله الله في الخير وملازمته والدعوة إليه وعدم الابتعاد عن كتاب الله وسنة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فلنقبل علىٰ العلم والتعليم والدعوة، وليكن قائدنا وإسوتنا ودليلنا في ذلك هو الكتاب والسنة، نعم المتمثلة في فهم سلف الأمة رضوان الله عليهم أجمعين عباد الله وكما قيل:

هتـــــف العلـــــمُ بالعمـــــل ... فـــــإن أجابـــــه وإلا ارتحـــــل

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[التوبة:١٠٥]، فالعمل بماء جاءنا في كتاب ربنا وسنة نبينا صلىٰ الله عليه وسلم هو من أعظم أسباب الرفعة في الدنيا والآخرة ومن أسباب الفلاح :

اعْمَلْ بِعِلْمِكَ تَغْـنَمْ أَيُّهَـا الرَّجُـلُ ... لا يَنْفَعُ العِلْمُ إِنْ لَمْ يَحْسُنِ العَمَـلُ

فاستفد من الذي يحثك علىٰ الحق ويدلك عليه وإياك من تتبع العثرات والزلات والكلمات خصوصًا السني السلفي الخطأ مردود ممن قاله وممن عمله، لكن تحضر عند رجل عند شيخ عند مدرس وأنت لا تريد الإصغاء والاستفادة وإنما تريد مما يخرج من فيه، فإذا ما خرج طرت مشرقًا ومغربًا سبحان الله، ليكن حالنا إذا خرج الخير نشرناه، وإذا وقع من الإنسان الذي هو معروف بسلامة المعتقد وحسن المقصد ما نظنه يخالف الخير نصحناه وبيناه، إذا عُلم أنه إنما هي كلمة خرجت أو كذا النصيحة بالمسلمين الدين النصيحة.

وإن عُلم أنه خطأ فادح في العقيدة حُذر من الخطأ ولا يسابق العلماء ولا يستعجل بالأحكام بل يلازم العلماء: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾[النحل:٤٣]، فيما أمر الله بسؤالهم والعودة إليهم إلا لفضلهم ومنزلتهم وتعقلهم وتفهمهم ووضعهم للأمور في موطنها قال الله عز وجل: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾[العنكبوت:٤٣].

فالله الله بالتفقه وطلب العلم استغلوا أوقاتكم واستغلوا لحظاتكم في ذلك فإن يحيىٰ بن معين قيل له في مرض موته: ما تشتهي؟ قال: "بيت خالي وسند عالي".

وفي حديث عائشة وابن عباس رضي الله عنهما في البخاري وغيره: أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم عند موته جعل يمسح عن وجه ويضع الخُمرة عن وجهه فإذا اغتم كشفها وهو يبث العلم ويدعو إليه وهو يقول: «لعنة الله علىٰ اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد».

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَادَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: «يَا خَالُ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ »، فَقَالَ: أَخَالٌ أَمْ عَمٌّ ؟ فَقَالَ: «لَا، بَلْ خَالٌ »، قَالَ: فَخَيْرٌ لِي أَنْ أَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَعَمْ»، أخرجه أحمد.

ولما جاء إلىٰ ذلك اليهودي الغلام كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان غلامٌ يهودي يخدم النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-، فمرض فأتاه يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: «أسلم»، فنظر إلىٰ أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم، فأسلَمَ، فخرج النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار»، رواه البخاري.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أَقْبَلَ رَجُلٌ شَابٌّ يُثْنِي عَلَىٰ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَقَدْ طُعِنَ وَالنَّاسُ يُثْنُونَ عَلَيْهِ فَلَمَّا أَدْبَرَ إِذَا إِزَارُهُ يَمَسُّ الْأَرْضَ،

فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، ارْفَعْ إِزَارَكَ فَإِنَّهُ أَتْقَىٰ لِرَبِّكَ وَأَنْقَىٰ لِثَوْبِكَ، قَالَ عَبْدُ الله: يَرْحَمُ الله عُمَرَ لَمْ يَمْنَعْهُ مَا كَانَ فِيهِ أَنَّهُ رَأَىٰ حَقًّا لِله يَتَكَلَّمُ فِيهِ ".

فنحن مطالبون جميعًا بالعلم والعمل والدعوة إلىٰ الله عز وجل، ونسأل الله ذلك نسأل الله الهداية والتوفيق والسداد، نحن في الله وبالله فإذا خالفنا ذلك فإن العطب مصيرنا ومآلنا، وسبحانك الله وبحمد لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك، والحمد لله رب العالمين

سورة التكاثر

﴿بِسْمِ اللهِ الْرَّحمَنِ الْرَّحِيم﴾

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[التكاثر:١-٨]

سورة مكية، وفيها إخبار من الله عز وجل أن الناس ألهاهم التكاثر في الأموال، والأولاد، والضيعات عن كثير من أمور دينهم.

وهذه الآية وإن كان يدخل فيها دخولًا أوليًا الكفار، إلا أنها عامة، فتشمل كل من أضاع حظه من الآخرة بحظ من الدنيا زائل، وفيها تحقير الدنيا إذ أنها تشغل عن الآخرة.

﴿ أَلْهَاكُمُ ﴾ أي: شغلكم ﴿ التَّكَاثُرُ ﴾ بجميع شؤون الدنيا، أي عن الآخرة التي هي دار البقاء والقرار، والسعادة فيها لا تكون إلا بعمارة الدنيا بتوحيد الله عز وجل، وطاعته، وهذا كقول الله عز وجل: ﴿ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ﴾.

وكم من إنسان أفسده التكاثر، هذا يفسد عن طريق الحق؛ بسبب مالٍ، وآخر بسبب ولد، وثالث بسبب زوجةٍ، وآخر بسبب أصحابه، فما لم يكن مبلغًا لك إلىٰ سعادة الدارين فكن زاهدًا فيه.

﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ أي: زيارة الموت لا الزيارة المعهودة من الذهاب إلىٰ المقبرة والنظر إليها، فكم من إنسان يأتي المقبرة وهو غافل، وهو لاهٍ عن حالها، مع أن زيارة القبور سبب لتذكر الموت.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «زُورُوا الْقُبُورَ؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمُ الْآخِرَةَ». أخرجه مسلم.

ومما يدل علىٰ ما ذكرت حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَىٰ أَعْرَابِيٍّ يَعُودُهُ قَالَ: وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَخَلَ عَلَىٰ مَرِيضٍ يَعُودُهُ قَالَ: «لَا بَأْسَ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ». فَقَالَ لَهُ: «لَا بَأْسَ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ». قَالَ: قُلْتَ: طَهُورٌ؟ كَلَّا بَلْ هِيَ حُمَّىٰ تَفُورُ - أَوْ تَثُورُ - عَلَىٰ شَيْخٍ كَبِيرٍ، تُزِيرُهُ الْقُبُورَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَنَعَمْ إِذَنْ»، أخرجه البخاري.

والشاهد: قوله: «تُزِيرُهُ الْقُبُور» فالزيارة التي يعرف الإنسان أنه كان مفرطًا قبلها هي زيارة الموت: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[المؤمنون:٩٩-١٠٠].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾[المنافقون:١٠].

فأنت الآن في فسحة تستطيع العمل، فلا تمهل حتىٰ إذا بلغت الحلقوم تمنيت الرجوع، بل إن المؤمن إذا بلغت الحلقوم تعجل المضي فيما هو فيه، فإن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- حين كان في سكرات الموت جعل يرفع إصبعه ويقول: «اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَىٰ، اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَىٰ، اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَىٰ»، متفق عليه.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله- صلىٰ الله عليه وسلم-: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، أَحبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ، كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ» فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ أَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ؟ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ، فَقَالَ: «لَيْسَ كَذَلِكِ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ، أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، فَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ،

وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللهِ وَسَخَطِهِ، كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ، وَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ» أخرجه مسلم.

من أحب لقاء الله أحب الله لقاؤه، وسبب محبة المسلم للقاء الله؛ أنه يبشر بروح وريحان، ورب راض غير غضبان، وسبب كراهية الكافر للموت عند ذلك؛ أنه يبشر بسخط من الله وغضب.

والمقابر: جمع مقبرة وهي ما يوارىٰ فيها الناس عند موتهم.

واستدل بهذه الآية علىٰ عذاب القبر، وفيها حديث قال الترمذي (٣٣٥٥) - حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ قَالَ: حَدَّثَنَا حَكَّامُ بْنُ سَلْمٍ الرَّازِيُّ، عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي قَيْسٍ، عَنْ الحَجَّاجِ، عَنْ المِنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: " مَا زِلْنَا نَشُكُّ فِي عَذَابِ القَبْرِ حَتَّىٰ نَزَلَتْ: أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ "، قَالَ أَبُو كُرَيْبٍ، مَرَّةً عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي قَيْسٍ، عَنْ ابْنِ أَبِي لَيْلَىٰ، عَنِ المِنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ».

والأدلة علىٰ إثبات عذاب القبر متواترة: منها: ما في القرآن والسنة الصحيحة فمن القرآن: قال الله تعالىٰ: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[غافر: ٤٥-٤٦]، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ... ﴾: وهو الغرق في اليم، ثم النقلة منه إلىٰ الجحيم، فإن أرواحهم تعرض علىٰ النار صباحًا ومساءً إلىٰ قيام الساعة، فإذا كان يوم

القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار، ولهذا قال: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[غافر:٤٦]، وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة علىٰ عذاب البرزخ في القبور. أهـ

قال الحافظ في «الفتح» (٣/ ٢٩٩): قال القرطبي: الجمهور علىٰ أن هذا العرض يكون في البرزخ، وهو حجة في تثبيت عذاب القبر.

وقال غيره: وقع ذكر عذاب القبر في هذه الآية مفسرًا؛ لكنه حجة علىٰ من أنكر عذاب القبر اهـ

وقال تعالىٰ: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ * وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[الطور: ٤٥-٤٧].

قال في شرح الطحاوية: وهذا يحتمل أن يراد به القتل وغيره في الدنيا، وأن يراد به عذابهم في البرزخ وهو أظهر؛ لأن كثير منهم مات ولم يعذب في الدنيا، أو أن المراد أعم من ذلك. اهـ

وقد بوب البخاري في صحيحة: (باب ما جاء في عذاب القبر، وقوله تعالىٰ: ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾[الأنعام:٩٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[التوبة:١٠١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَحَاقَ بِآلِ

فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[غافر: ٤٥-٤٦].

قال الحافظ رحمه الله في شرح الآية الأولىٰ (٣/ ٢٩٩): وهذا وإن كان قبل الدفن، فهو من جملة العذاب الواقع قبل يوم القيامة، وإنما أضيف العذاب إلىٰ القبر لكون معظمه يقع فيه، ولكون الغالب علىٰ الموتىٰ أن يقبروا، وإلا فالكافر ومن شاء الله تعذيبه من العصاة، يعذب بعد موته، ولو لم يدفن، ولكن ذلك محجوب عن الخلق إلا من شاء الله. وفي تفسير الآية الأخرىٰ قال: روي عن الحسن من طريق محمد بن ثور، عن معمر، عن الحسن: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾: عذاب الدنيا، وعذاب القبر.

وقال الحافظ رحمه الله: وقال الطبراني بعد أن ذكر اختلافًا: والأغلب أن إحدىٰ المرتين عذاب القبر، والأخرىٰ تحتمل أحد ما تقدم ذكره من الجوع، أو السبي، أو الإذلال أو غير ذلك ا.هـ.

وقول الله تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾[إبراهيم:٢٧].

قال الإمام البخاري رحمه (٤٦٩٩): حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غنذر، حدثنا شعبة، عن علقمة بن مرثد، عن سعد بن عبيدة، عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾[إبراهيم:٢٧] نزلت في عذاب القبر.

وقال ابن رجب رحمه الله تعالىٰ كما في «أهوال القبور» (٥٨): وأما نعيم القبر فقد دل عليه قوله تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾[الواقعة: ٨٨-٩١]، وأقول: عذاب القبر يدل عليه في هذه الآية أيضًا: ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾[الواقعة: ٩٢-٩٤]. واستدل كذلك ابن القيم في كتابه «الروح» بهذه الآية علىٰ النعيم والعذاب في القبر.

قال ابن القيم رحمه الله في كتابة «الروح» ومنها: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[السجدة:٢١].

وقد أحتج بهذه الآية جماعة منهم: عبد الله بن عباس علىٰ عذاب القبر. اهـ

وقال ومنها: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * وَادْخُلِي جَنَّتِي * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾[الفجر: ٢٧-٢٩].

قال: وقد أختلف السلف متىٰ يقال لها ذلك فقال طائفة: يقال لها عند الموت، وظاهر اللفظ مع هؤلاء فإنه خطاب للنفس التي تجردت عن البدن، وخرجت منه، وقد فسر ذلك النبي صلىٰ الله عليه وسلم بقوله في حديث البراء وغيره: »فيقال لها: أخرجي راضية مرضيًا عنك« ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾[الفجر:٢٩] مطابق لقوله: «اللهم الرفيق الأعلىٰ». اهـ

وقد استدل بعضهم بقوله تعالىٰ: ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[التكاثر: ١-٢]، لكن من باب الفائدة الحديث الذي أخرجه الترمذي برقم(٣٣٥٢) من طريق حجاج بن أرطأة، عن المنهال، عن زر بن حبيش، عن علي قال: ما زلنا نشك في عذاب القبر حتىٰ نزلت: ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[التكاثر:١-٢]، ضعيف.

حجاج ابن أرطأة الراجح: ضعفه. والمنهال بن عمرو: لم يسمع من زر كما في «التهذيب».

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾[طـه:١٢٤]، استدل بها علىٰ عذاب القبر، والدلالة ما سيأتي في حديث أبي هريرة عند الحاكم، وابن حبان، وابن جرير وغيرهم، وسيأتي بطوله في باب استطراد في ذكر عذاب القبر.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون:١٠٠]، قال ابن كثير رحمه الله بعد ذكر الآية: تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ. اهـ من كتابي تنبيه أولي الأبصار.

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: حقًا سوف تعلمون إذا زرتم المقابر زيارة الموت أنكم كنتم في غفلة عن طاعة الله.

﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تأكيد لعلمهم للحال الواقع، ولكنه علم لا يستفيدون منه؛ لأنه كما يقال: علم جاءهم في الوقت الضائع، في الوقت الذي لا يستطيعون الرجوع فيه.

وأما أهل الإيمان فهذا عندهم، مذكور في كتاب ربهم وفي سنة نبيهم -صلىٰ الله عليه وسلم-، وأجمع عليه السلف، فهم يؤمنون بالقبر وما فيه من النعيم والعذاب، ويؤمنون بالبعث والنشور؛ ولذلك يبادرون بالطاعات والقربات، ويمتثلون شرع الله، وتوحيده، بخلاف الكافر، قال تعالىٰ: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا * كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا * وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا * وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا * أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا * فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا * يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾[مريم:٧٧-٨٦].

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ علمًا يقينيًا وأن هذا واقع، وذلك حين رؤية الجحيم.

﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ أي: يقع لكم علم اليقين حين رؤية الجحيم، لكن هذا كقول الله عز وجل: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ

نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾[الأعراف:٥٣].

وسميت جحيم؛ لأنها توقد بالجمر، نسأل الله السلامة.

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ وهذه هي أكبر أنواع الرؤى، أن الكافر يرى النار رؤية عين يقين، فيتيقن وجودها، ويتيقن عذابه فيها.

﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ وهذه آية عامة في حق المؤمن والكافر، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، أَوْ لَيْلَةٍ فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، فَقَالَ: «مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ ؟» قَالَا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «وَأَنَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قُومُوا»، فَقَامُوا مَعَهُ، فَأَتَىٰ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ: مَرْحَبًا، وَأَهْلًا. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيْنَ فُلَانٌ ؟» قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنَ الْمَاءِ إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَنَظَرَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَاحِبَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي، قَالَ: فَانْطَلَقَ، فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ، فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ، وَأَخَذَ الْمُدْيَةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ»، فَذَبَحَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ وَشَرِبُوا، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي بَكْرٍ

وَعُمَرَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّىٰ أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ»، أخرجه مسلم.

وانظر إلىٰ هذه الآية المشعرة لمعنىٰ حديث أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّىٰ يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ»، أخرجه الترمذي.

فجلوسنا في هذا المسجد يعتبر من النعيم، وأكلنا وشربنا من النعيم، والجلوس تحت المراوح والمكيفات من النعيم، فكل هذا مسؤول عنه، والله المستعان.

سورة الهمزة

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَىٰ الْأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾[الهمزة:١-٩].

مكية ﴿ وَيْلٌ ﴾ عذاب موجع، وقيل وادي في جهنم، ولا يثبت في ذلك شيء.

﴿ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ الهمز يكون بالفعال: كغمزة العين، وإشارة اليد، ونحو ذلك.

واللمز يكون باللسان: كالتنقص، والتنابز بالألقاب، والشتم، ونحو ذلك

وقد ذكر بعضهم عند هذه الآية: أن الله عز وجل توعد صنفين مما يتعلق بتعامل الإنسان مع غيره فقد حرم الله أكل مال الناس بالباطل، كما حرم الهمز، واللمز، والاحتقار للغير:

الأول: الذي يلمز الناس بالقول والفعل.

الثاني: الذي يأكل أموال الناس بالباطل: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾[المطففين:١-٢]

﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴾ أي: هذا اللمزة الذي يسخر من الناس جمع مالًا كثيرًا وعدده، لكن هذا المال لم يغن عنه شيئًا؛ لأنه جمعه من غير حله، واستخدمه في غير حله، والمال كثرته وبال إن كان قد أخذ من الحرام، فإن الإنسان يسأل عنه، ويحاسب عليه، وقد قال بعضهم: " حلاله حساب وحرامه عقاب ".

وفي هذا دليل أن كثيراً من الناس يبطرون إذا رزقهم الله مالًا، وولدًا، وإذا افتقر ربما تواضع، فإذا أعطاك الله مالًا فهو مِنَّة منه وفضل، فاشكره عليه وأدِّ حق الله تعالىٰ فيه.

﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ أي: هذا الهماز اللماز جماع الأموال ﴿ يَحْسَبُ ﴾ يظن أي: سبب في خلوده، وما هو إلا وبال عليه.

﴿ كَلَّا ﴾ أي: حقًا ليس ماله بمخلد له ولا بنافع له.

﴿ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾ أي: أنه سيلقىٰ في النار، وسميت حطمة؛ لأنها تحطم من يلقىٰ فيها؛ لشدة حرارتها، وحالها.

ثم قال معظمًا لشأنها: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴾ أي: ما تدري ما هذه النار التي تسمىٰ بالحطمة إنها: ﴿ نَارُ اللهِ ﴾ أضافها إلىٰ نفسه إضافة ملك وتصرف، ﴿ الْمُوقَدَةُ ﴾ التي تتقد ولا تنطفئ ولا تخمد.

ومن صفاتها أنها: ﴿ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴾ وهذا وصف يبين شدة هذه النار، حيث تصل إلىٰ أفئدتهم، وتحرق الأفئدة والأجسام حية، فيتألم الإنسان ظاهرًا وباطنًا، بخلاف نار الدنيا، فإنها لاتصل إلىٰ الفؤاد إلا وقد أحرقت البدن، وربما لحقه الهلاك، بينما هذه النار تصل إلىٰ الفؤاد من الداخل، وما زال الجسم متألمًا من الخارج، والله المستعان.

وبهذا تعلم أن شأن نار الآخرة غير شأن نار الدنيا، فنار الدنيا من أحرق فيها مات، ونار الدنيا تبدأ بأحراق الظاهر قبل الباطن، بينما نار الآخرة من دخلها لا يموت فيها لا يموت فيستريح ولا يحيىٰ حياة المنعمين، وهذا في حق المخلدين فيها.

﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أي: مع شدة حرارتها، وعظيم شأنها توصد على أصحابها، مع أنهم لو تركوا ما فروا:

أيـن المفـر والإلـه الطالـب والأشرم المغلوب لـيس الغالـبُ

﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ قيل في سلاسل، وقيل في أبواب تغلق عليهم، وقيل بأنهم يوضعون في مثل الصهاريج وتكون ممددة، فهذا وصف عظيم لذلك العذاب، فلو كان في النار يجري جريًا لكان عذابه شديدٌ، فكيف وهو مع ذلك مقيد، ومصفد، ومضيق عليه، نسأل الله السلامة والعافية من هذه النار وبأس القرار.

والحمد لله.

سورة الفيل

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾[الفيل:١-٥].

يقول الله عز وجل لمحمد صلىٰ -الله عليه وسلم- ولأمته: هَذِهِ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي امْتَنَّ اللهُ بِهَا عَلَىٰ قُرَيْشٍ، فِيمَا صَرَفَ عَنْهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْفِيلِ، الَّذِينَ كَانُوا قَدْ عَزَمُوا عَلَىٰ هَدْمِ الْكَعْبَةِ وَمَحْوِ أَثَرِهَا مِنَ الْوُجُودِ، فَأَبَادَهُمُ اللهُ، وَأَرْغَمَ آنَافَهُمْ، وَخَيَّبَ سَعْيَهُمْ، وَأَضَلَّ عَمَلَهُمْ، وَردهم بِشَرِّ خَيْبَةٍ. وَكَانُوا قَوْمًا نَصَارَىٰ، وَكَانَ دِينُهُمْ إِذْ ذَاكَ أَقْرَبَ حَالًا مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ قُرَيْشٌ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَلَكِنْ كَانَ هَذَا مِنْ بَابِ الْإِرْهَاصِ وَالتَّوْطِئَةِ لِمَبْعَثِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّهُ فِي ذَلِكَ الْعَامِ وُلِدَ عَلَىٰ أَشْهَرِ الْأَقْوَالِ، وَلِسَانُ حَالِ الْقَدَرِ يَقُولُ: لَمْ نَنْصُرْكُمْ -يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ- عَلَىٰ الْحَبَشَةِ لِخَيْرِيَّتِكُمْ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنْ صِيَانَةً لِلْبَيْتِ الْعَتِيقِ الَّذِي سَنُشَرِّفُهُ وَنُعَظِّمُهُ وَنُوَقِّرُهُ بِبِعْثَةِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ مُحَمَّدٍ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ.

وَهَذِهِ قِصَّةُ أَصْحَابِ الْفِيلِ عَلَىٰ وَجْهِ الْإِيجَازِ وَالِاخْتِصَارِ وَالتَّقْرِيبِ، قَدْ تَقَدَّمَ فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ أَنَّ ذَا نُوَاس -وَكَانَ آخِرَ مُلُوكِ حِمْيَرَ، وَكَانَ مُشْرِكًا- هُوَ الَّذِي قَتَلَ أَصْحَابَ الْأُخْدُودِ، وَكَانُوا نَصَارَىٰ، وَكَانُوا قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ أَلْفًا، فَلَمْ يُفْلِتْ مِنْهُمْ إِلَّا دوس ذُو ثَعْلَبَانِ، فَذَهَبَ فَاسْتَغَاثَ بِقَيْصَرَ مَلِكِ الشَّامِ -وَكَانَ نَصْرَانِيًّا- فَكَتَبَ لَهُ إِلَىٰ النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ؛ لِكَوْنِهِ أَقْرَبَ إِلَيْهِمْ، فَبَعَثَ مَعَهُ أَمِيرَيْنِ: أَرِيَاطَ وَأَبْرَهَةَ بْنَ الصَّبَاحِ أَبَا يَكْسُومَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ، فَدَخَلُوا الْيَمَنَ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، وَاسْتَلَبُوا الْمُلْكَ مِنْ حِمْيَرَ، وَهَلَكَ ذُو نُوَاسٍ غَرِيقًا فِي الْبَحْرِ. وَاسْتَقَلَّ الْحَبَشَةُ بِمُلْكِ الْيَمَنِ

وَعَلَيْهِمْ هَذَانَ الْأَمِيرَانِ: أَرِيَاطُ وَأَبْرَهَةُ، فَاخْتَلَفَا فِي أَمْرِهِمَا وَتَصَاوَلَا وَتَقَاتَلَا وَتَصَافَّا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ: إِنَّهُ لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَىٰ اصْطِدَامِ الْجَيْشَيْنِ بَيْنَنَا، وَلَكِنِ ابْرُزْ إِلَيَّ وَأَبْرُزُ إِلَيْكَ، فَأَيُّنَا قَتَلَ الْآخَرَ، اسْتَقَلَّ بَعْدَهُ بِالْمُلْكِ. فَأَجَابَهُ إِلَىٰ ذَلِكَ فَتَبَارَزَا، وخَلَفَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا قَنَاةٌ، فَحَمَلَ أَرِيَاطُ عَلَىٰ أَبْرَهَةَ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ، فَشَرَمَ أَنْفَهُ وَفَمَهُ وَشَقَّ وَجْهَهُ، وَحَمَلَ عَتْوَدَة مَوْلَىٰ أَبْرَهَةَ عَلَىٰ أَرِيَاطَ فَقَتَلَهُ، وَرَجَعَ أَبْرَهَةُ جَرِيحًا، فَدَاوَىٰ جُرْحَهُ فَبَرأَ، وَاسْتَقَلَّ بِتَدْبِيرِ جَيْشِ الْحَبَشَةِ بِالْيَمَنِ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ النَّجَاشِيُّ يَلُومُهُ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْهُ، وَيَتَوَعَّدُهُ وَيَحْلِفُ لَيَطَأَنَّ بِلَادَهُ وَيَجِزَّنَّ نَاصِيَتَهُ. فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَبْرَهَةُ يَتَرَقَّقُ لَهُ وَيُصَانِعُهُ، وَبَعَثَ مَعَ رَسُولِهِ بِهَدَايَا وَتُحَفٍ، وَبِجِرَابٍ فِيهَا مِنْ تُرَابِ الْيَمَنِ، وَجَزَّ نَاصِيَتَهُ فَأَرْسَلَهَا مَعَهُ، وَيَقُولُ فِي كِتَابِهِ: لِيَطَأَ الْمَلِكُ عَلَىٰ هَذَا الْجِرَابِ فَيَبَرُّ قَسَمَهُ،وَهَذِهِ نَاصِيَتِي قَدْ بَعَثْتُ بِهَا إِلَيْكَ. فَلَمَّا وَصَلَ ذَلِكَ إِلَيْهِ أَعْجَبَهُ مِنْهُ، وَرَضِيَ عَنْهُ، وَأَقَرَّهُ عَلَىٰ عَمَلِهِ. وَأَرْسَلَ أَبْرَهَةُ يَقُولُ لِلنَّجَاشِيِّ: إِنِّي سَأَبْنِي لَكَ كَنِيسَةً بِأَرْضِ الْيَمَنِ لَمْ يُبْنَ قَبْلَهَا مِثْلُهَا. فَشَرَعَ فِي بِنَاءِ كَنِيسَةٍ هَائِلَةٍ بِصَنْعَاءَ، رَفِيعَةَ الْبِنَاءِ، عَالِيَةَ الْفِنَاءِ، مُزَخْرَفَةَ الْأَرْجَاءِ. سَمَّتْهَا الْعَرَبُ الْقُلَّيس؛ لِارْتِفَاعِهَا؛ لِأَنَّ النَّاظِرَ إِلَيْهَا تَكَادُ تَسْقُطُ قُلُنْسُوَتُهُ عَنْ رَأْسِهِ مِنَ ارْتِفَاعِ بِنَائِهَا. وَعَزَمَ أَبْرَهَةُ الأشرمُ عَلَىٰ أَنْ يَصْرِفَ حَجّ الْعَرَبِ إِلَيْهَا كَمَا يُحج إِلَىٰ الْكَعْبَةِ بِمَكَّةَ، وَنَادَىٰ بِذَلِكَ فِي مَمْلَكَتِهِ، فَكَرِهَتِ الْعَرَبُ الْعَدْنَانِيَّةُ وَالْقَحْطَانِيَّةُ ذَلِكَ، وَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ لِذَلِكَ غَضَبًا شَدِيدًا، حَتَّىٰ قَصَدَهَا بَعْضُهُمْ، وَتَوَصَّلَ إِلَىٰ أَنْ دَخَلَهَا لَيْلًا. فَأَحْدَثَ فِيهَا

وَكَرَّ رَاجِعًا. فَلَمَّا رَأَىٰ السَّدَنَةُ ذَلِكَ الْحَدَثَ، رَفَعُوا أَمْرَهُمْ إِلَىٰ مَلِكِهِمْ أَبْرَهَةَ، وَقَالُوا لَهُ: إِنَّمَا صَنَعَ هَذَا بَعْضُ قُرَيْشٍ غَضَبًا لِبَيْتِهِمُ الَّذِي ضَاهَيْتَ هَذَا بِهِ، فَأَقْسَمَ أَبْرَهَةُ لَيَسِيرَنَّ إِلَىٰ بَيْتِ مَكَّةَ، وَلَيُخَرِّبَنَّهُ حَجَرًا حَجَرًا.

وَذَكَرَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ أَنَّ فِتْيَةً مِنْ قُرَيْشٍ دَخَلُوهَا فَأَجَّجُوا فِيهَا نَارًا، وَكَانَ يَوْمًا فِيهِ هَوَاءٌ شَدِيدٌ فَأَحْرَقَتْهُ، وَسَقَطَتْ إِلَىٰ الْأَرْضِ.

فَتَأَهَّبَ أَبْرَهَةُ لِذَلِكَ، وَصَارَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ عَرَمرم؛ لِئَلَّا يَصُدَّهُ أَحَدٌ عَنْهُ، وَاسْتَصْحَبَ مَعَهُ فِيلًا عَظِيمًا كَبِيرَ الْجُثَّةِ لَمْ يُرَ مِثْلُهُ، يُقَالُ لَهُ: مَحْمُودٌ، وَكَانَ قَدْ بَعَثَهُ إِلَيْهِ النَّجَاشِيُّ مَلِكُ الْحَبَشَةِ لِذَلِكَ. وَيُقَالُ: كَانَ مَعَهُ أَيْضًا ثَمَانِيَةُ أَفْيَالٍ. وَقِيلَ: اثْنَا عَشَرَ فِيلًا. وَقِيلَ غَيْرُهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ. يَعْنِي لِيَهْدِمَ بِهِ الْكَعْبَةَ، بِأَنْ يَجْعَلَ السَّلَاسِلَ فِي الْأَرْكَانِ، وَتُوضَعَ فِي عُنُقِ الْفِيلِ، ثُمَّ يُزْجَرَ لِيُلْقِيَ الْحَائِطَ جُمْلَةً وَاحِدَةً. فَلَمَّا سَمِعَتِ الْعَرَبُ بِمَسِيرِهِ أَعْظَمُوا ذَلِكَ جِدًّا، وَرَأَوْا أَنَّ حَقًّا عَلَيْهِمُ الْمُحَاجَبَةُ دُونَ الْبَيْتِ، وَرَد مَنْ أَرَادَهُ بِكَيْدٍ. فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَجُلٌ [كَانَ] مِنْ أَشْرَافِ أَهْلِ الْيَمَنِ وَمُلُوكِهِمْ، يُقَالُ لَهُ "ذُو نَفر" فَدَعَا قَوْمَهُ وَمَنْ أَجَابَهُ مِنْ سَائِرِ الْعَرَبِ إِلَىٰ حَرْبِ أَبْرَهَةَ، وَجِهَادِهِ عَنْ بَيْتِ اللهِ، وَمَا يُرِيدُ مِنْ هَدْمِهِ وَخَرَابِهِ. فَأَجَابُوهُ وَقَاتَلُوا أَبْرَهَةَ، فَهَزَمَهُمْ لِمَا يُرِيدُهُ اللهُ، عَزَّ وَجَلَّ، مِنْ كَرَامَةِ الْبَيْتِ وَتَعْظِيمِهِ، وَأُسِرَ "ذُو نُفْر" فَاسْتَصْحَبَهُ مَعَهُ. ثُمَّ مَضَىٰ لِوَجْهِهِ حَتَّىٰ إِذَا كَانَ بِأَرْضِ خَثْعَمٍ، عَرَضَ لَهُ نُفَيل بْنُ حَبيب الخَشْعمي فِي قَوْمِهِ: شَهْرَانُ وَنَاهِسُ، فَقَاتَلُوهُ، فَهَزَمَهُمْ أَبْرَهَةُ، وَأُسِرَ نُفَيل بْنُ حَبِيبٍ، فَأَرَادَ قَتْلَهُ ثُمَّ عَفَا عَنْهُ،

وَاسْتَصْحَبَهُ مَعَهُ لِيَدُلَّهُ فِي بِلَادِ الْحِجَازِ. فَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْ أَرْضِ الطَّائِفِ، خَرَجَ إِلَيْهِ أَهْلُهَا ثَقِيفٌ وَصَانَعُوهُ خِيفَةً عَلَىٰ بَيْتِهِمْ، الَّذِي عِنْدَهُمْ، الَّذِي يُسَمُّونَهُ اللَّاتَ. فَأَكْرَمَهُمْ وَبَعَثُوا مَعَهُ "أَبَا رِغَال" دَلِيلًا. فَلَمَّا انْتَهَىٰ أَبْرَهَةُ إِلَىٰ الْمُغَمِّس -وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ مَكَّةَ- نَزَلَ بِهِ وَأَغَارَ جَيْشُهُ عَلَىٰ سَرْح أَهْلِ مَكَّةَ مِنَ الْإِبِلِ وَغَيْرِهَا، فَأَخَذُوهُ. وَكَانَ فِي السَّرْحِ مِائَتَا بَعِيرٍ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وَكَانَ الَّذِي أَغَارَ عَلَىٰ السَّرْحِ بِأَمْرِ أَبْرَهَةَ أَمِيرِ الْمُقَدِّمَةِ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: "الْأَسْوَدُ بْنُ مَفْصُودٍ" فَهَجَاهُ بَعْضُ الْعَرَبِ -فِيمَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ -وَبَعَثَ أَبْرَهَةُ حُنَاطَةَ الْحِمْيَرِيَّ إِلَىٰ مَكَّةَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ بِأَشْرَفِ قُرَيْشٍ، وَأَنْ يُخْبِرَهُ أَنَّ الْمَلِكَ لَمْ يَجِئْ لِقِتَالِكُمْ إِلَّا أَنْ تَصُدوه عَنِ الْبَيْتِ. فَجَاءَ حُنَاطَةُ فَدُل عَلَىٰ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ وَبَلَّغَهُ عَنْ أَبْرَهَةَ مَا قَالَ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: وَاللهِ مَا نُرِيدُ حَرْبَهُ، وَمَا لَنَا بِذَلِكَ مِنْ طَاقَةٍ، هَذَا بَيْتُ اللهِ الْحَرَامُ، وَبَيْتُ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ، فَإِنْ يَمْنَعْهُ مِنْهُ فَهُوَ بَيْتُهُ وَحَرَمُهُ، وَإِنْ يُخَلِّي بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، فَوَاللهِ مَا عِنْدَنَا دَفع عَنْهُ. فَقَالَ لَهُ حُنَاطَةُ: فَاذْهَبْ مَعِي إِلَيْهِ. فَذَهَبَ مَعَهُ، فَلَمَّا رَآهُ أَبْرَهَةُ أَجَلَّهُ، وَكَانَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ رَجُلًا جَمِيلًا حَسَنَ الْمَنْظَرِ، وَنَزَلَ أَبْرَهَةُ عَنْ سَرِيرِهِ، وَجَلَسَ مَعَهُ عَلَىٰ الْبِسَاطِ، وَقَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: حَاجَتُكَ؟ فَقَالَ لِلتُّرْجُمَانِ: إِنَّ حَاجَتِي أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ الْمَلِكُ مِائَتَيْ بَعِيرٍ أَصَابَهَا لِي. فَقَالَ أَبْرَهَةُ لِتُرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: لَقَدْ كُنْتَ أَعْجَبْتَنِي حِينَ رَأَيْتُكَ، ثُمَّ قَدْ زَهِدت فِيكَ حِينَ كَلَّمْتَنِي، أَتُكَلِّمُنِي فِي مِائَتَيْ بَعِيرٍ أَصَبْتُهَا لَكَ، وَتَتْرُكُ بَيْتًا هُوَ دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ قَدْ جِئتُ لِهَدْمِهِ، لَا

تُكَلِّمُنِي فِيهِ؟! فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: إِنِّي أَنَا رَبُّ الْإِبِلِ، وَإِنَّ لِلْبَيْتِ رِبًّا سَيَمْنَعُهُ. قَالَ: مَا كَانَ لِيَمْتَنِعَ مِنِّي! قَالَ: أَنْتَ وَذَاكَ.

وَيُقَالُ: إِنَّهُ ذَهَبَ مَعَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ فَعَرَضُوا عَلَىٰ أَبْرَهَةَ ثُلُثَ أَمْوَالِ تِهَامَةَ عَلَىٰ أَنْ يَرْجِعَ عَنِ الْبَيْتِ، فَأَبَىٰ عَلَيْهِمْ، وَرَدَّ أَبْرَهَةُ عَلَىٰ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِبِلَهُ، وَرَجَعَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ إِلَىٰ قُرَيْشٍ فَأَمَرَهُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ، وَالتَّحَصُّنِ فِي رُءُوسِ الْجِبَالِ، تَخَوُّفًا عَلَيْهِمْ مِنْ مَعَرَّةِ الْجَيْشِ. ثُمَّ قَامَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ فَأَخَذَ بِحَلْقَةِ بَابِ الْكَعْبَةِ، وَقَامَ مَعَهُ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَدْعُونَ اللهَ وَيَسْتَنْصِرُونَهُ عَلَىٰ أَبْرَهَةَ وَجُنْدِهِ، وَقَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَهُوَ آخِذٌ بِحَلْقَةِ بَابِ الْكَعْبَةِ:

لاهُمَّ إنَّ المرء يمـ... نَعُ رَحْلَه فامْنع حِلالَك...

لَا يغلبنَّ صَلِيبُهم... ومحَالُهم غَدْوًا مِحَالك...

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ أَرْسَلَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ حَلْقَةَ الْبَابِ، ثُمَّ خَرَجُوا إِلَىٰ رُءُوسِ الْجِبَالِ.

وَذَكَرَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ أَنَّهُمْ تَرَكُوا عِنْدَ الْبَيْتِ مِائَةَ بَدَنَةٍ مُقَلَّدة، لَعَلَّ بَعْضُ الْجَيْشِ يَنَالُ مِنْهَا شَيْئًا بِغَيْرِ حَقٍّ، فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ.

فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبْرَهَةُ تَهَيَّأَ لِدُخُولِ مَكَّةَ، وَهَيَّأَ فِيلَهُ -وَكَانَ اسْمُهُ مَحْمُودًا- وَعَبَّأَ جَيْشَهُ، فَلَمَّا وَجَّهُوا الْفِيلَ نَحْوَ مَكَّةَ أَقْبَلَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ حَتَّىٰ قَامَ إِلَىٰ.

جَنْبِهِ ثُمَّ أَخذَ بِأُذُنِهِ وَقَالَ ابْرُكْ مَحْمُودُ وَارْجِعْ رَاشِدًا مِنْ حَيْثُ جِئْتَ، فَإِنَّكَ فِي بَلَدِ اللهِ الْحَرَامِ". ثُمَّ أَرْسَلَ أُذُنَهُ، فَبَرَكَ الْفِيلُ. وَخَرجَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ يَشتد حَتَّىٰ أُصْعِدَ فِي الْجَبَلِ. وَضَرَبُوا الْفِيلَ لِيَقُومَ فَأَبَىٰ. فَضَرَبُوا فِي رَأْسِهِ بالطْبرزين وَأَدْخَلُوا مَحَاجِنَ لَهُمْ فِي مَرَاقه فَبَزَغُوهُ بِهَا لِيَقُومَ، فَأَبَىٰ؛ فَوَجَّهُوهُ رَاجِعًا إِلَىٰ الْيَمَنِ فَقَامَ يُهَرْوِلُ. وَوَجَّهُوهُ إِلَىٰ الشَّامِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ. وَوَجَّهُوهُ إِلَىٰ الْمَشْرِقِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ وَوَجَّهُوهُ إِلَىٰ مَكَّةَ فَبَرَكَ. وَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا مِنَ الْبَحْرِ أَمْثَالَ الْخَطَاطِيفِ وَالْبَلَسَانِ.

مَعَ كُلِّ طَائِرٍ مِنْهَا ثَلَاثَةُ أَحْجَارٍ يَحْمِلُهَا: حَجَرٌ فِي مِنْقَارِهِ، وَحَجَرَانِ فِي رِجْلَيْهِ، أَمْثَالُ الْحُمُّصِ وَالْعَدَسِ، لَا تُصِيبُ مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا هَلَكَ، وَلَيْسَ كُلُّهُمْ أَصَابَتْ. وَخَرَجُوا هَارِبِينَ يَبْتَدِرُونَ الطَّرِيقَ، وَيَسْأَلُونَ عَنْ نُفَيلٍ لِيَدُلَّهُمْ عَلَىٰ الطَّرِيقِ هَذَا. وَنُفَيْلٌ عَلَىٰ رَأسِ الْجَبَلِ مَعَ قُرَيْشٍ وَعَرَبِ الْحِجَازِ، يَنْظُرُونَ مَاذَا أَنْزَلَ اللهُ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ مِنَ النِّقْمَةِ، وَجَعَلَ نُفَيْلٌ يقول: أينَ المَفَرُّ؟ والإلهُ الطَّالب والأشرمُ المغلوبُ غيْرُ الْغَالِبْ

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ نُفَيل فِي ذَلِكَ أَيْضًا:

أَلَا حُيِّيتِ عَنَّا يَا رُدَيْنَا ... نَعِمْنَاكُم مَعَ الأَصْبَاحِ عَيْنَا

رُدَيْنَةُ لَوْ رَأَيْتِ -وَلَا تَرَيْهِ ... لَدَىٰ جَنْبِ الْمُحَصَّبِ -مَا رَأَيْنَا

إِذًا لَعَذَرْتِنِي وَحَمِدْتِ أَمْرِي ... وَلَمْ تَأْسَيْ عَلَىٰ مَا فَاتَ بَيْنَا

حَمِـدتُ اللهَ إِذْ أبصَـرتُ طَيْـرًا ... وَخفْـتُ حَجـارة تُلقَـىٰ عَلَينـا

فَكُـلّ الْقَـوْمِ يَسـأَلُ عَـن نُفَيـل ... كَـأَنَّ علـيَ للحُبْشَـان دَينَـا

وَذَكَرَ الْوَاقِدِيُّ بِأَسَانِيدِهِ أَنَّهُمْ لَمَّا تَعْبَئُوا لِدُخُولِ الْحَرَمِ وَهَيَّئُوا الْفِيلَ، جَعَلُوا لَا يَصْرِفُونَهُ إِلَىٰ جِهَةٍ مِنْ سَائِرِ الْجِهَاتِ إِلَّا ذَهَبَ [فِيهَا] فَإِذَا وَجَّهُوهُ إِلَىٰ الْحَرَمِ رَبَض وَصَاحَ. وَجَعَلَ أَبْرَهَةُ يَحْمِلُ عَلَىٰ سَائِسِ الْفِيلِ وَيَنْهَرُهُ وَيَضْرِبُهُ، لِيَقْهَرَ الْفِيلَ عَلَىٰ دُخُولِ الْحَرَمِ. وَطَالَ الْفَصْلُ فِي ذَلِكَ. هَذَا وَعَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَشْرَافِ مَكَّةَ، مِنْهُمُ الْمُطْعَمُ بْنُ عَدِيٍّ، وَعَمْرُو بْنُ عَائِذِ بْنِ عِمْرَانَ بْنِ مَخْزُومٍ، وَمَسْعُودُ [بْنُ عَمْرٍو] الثَّقَفِيُّ، عَلَىٰ حِرَاءَ يَنْظُرُونَ إِلَىٰ مَا الْحَبَشَةُ يَصْنَعُونَ، وَمَاذَا يَلْقُونَ مِنْ أَمْرِ الْفِيلِ، وَهُوَ الْعَجَبُ الْعُجَابُ. فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ بَعَثَ اللهُ عَلَيْهِم طَيْرًا أَبَابِيلَ، أَيْ قَطَعًا قِطَعًا صُفْرًا دُونَ الْحَمَامِ، وَأَرْجُلُهَا حُمْرٌ، وَمَعَ كُلِّ طَائِرٍ ثَلَاثُ أَحْجَارٍ، وَجَاءَتْ فَحَلَّقَتْ عَلَيْهِمْ، وَأَرْسَلَتْ تِلْكَ الْأَحْجَارَ عَلَيْهِمْ فَهَلَكُوا.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: جَاءُوا بِفِيلَيْنِ فَأَمَّا مَحْمُودٌ فَرَبض، وَأَمَّا الْآخَرُ فَشَجُع فحُصِب.

وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّه: كَانَ مَعَهُم فِيَلَةٌ، فَأَمَّا مَحْمُودٌ -وَهُوَ فِيلُ الْمَلِكِ- فَرَبَضَ، لِيَقْتَدِيَ بِهِ بَقِيَّةُ الْفِيَلَةِ، وَكَانَ فِيهَا فِيلٌ تَشَجَّع فَحُصِبَ، فَهَرَبَتْ بَقِيَّةُ الْفِيَلَةِ.

وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ يَسَارٍ، وَغَيْرُهُ: لَيْسَ كُلُّهُمْ أَصَابَهُ الْعَذَابُ فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ هَلَكَ سَرِيعًا، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ يَتَسَاقَطُ عُضْوًا عُضْوًا وَهُمْ هَارِبُونَ، وَكَانَ أَبْرَهَةُ مِمَّنْ يَتَسَاقَطُ عُضْوًا عُضْوًا، حَتَّىٰ مَاتَ بِبِلَادِ خَثْعَمٍ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَخَرَجُوا يَتَسَاقَطُونَ بِكُلِّ طَرِيقٍ، وَيَهْلَكُونَ عَلَىٰ كُلِّ مَنْهَلٍ وَأُصِيبَ أَبَرْهَةُ فِي جَسَدِهِ، وَخَرَجُوا بِهِ مَعَهُمْ يَسْقُطُ أَنْمُلَةً أَنْمُلَةً، حَتَّىٰ قَدِمُوا بِهِ صَنْعَاءَ وَهُوَ مِثْلُ فَرْخِ الطَّائِرِ، فَمَا مَاتَ حَتَّىٰ انْصَدَعَ صَدْرُهُ عَنْ قَلْبِهِ فِيمَا يَزْعُمُونَ.

وَذَكَرَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ: أَنَّ قُرَيْشًا أَصَابُوا مَالًا جَزِيلًا مِنْ أَسْلَابِهِمْ، وَمَا كَانَ مَعَهُمْ، وَأَنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ أَصَابَ يَوْمَئِذٍ مِنَ الذَّهَبِ مَا مَلَأَ حُفْرَةً.

قد يقول قائل: كيف دافع الله عز وجل عن الكعبة من أبرهة، ولم يدافع عن الكعبة في آخر الزمان من ذي السويقتين الذي يهدمها حجرًا حجرًا؟ قال أهل العلم:" دافع عن الكعبة في مبدئها توطئة لمبعث النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-؛ ولأنها ستكون قبلة المسلمين وستعظم، وأما آخر الزمان فإن أهلها يضيعونها وينتهكونها، فيسلط الله عليها ذو السويقتين ".

فيقول الله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ أي: أصحاب أبرهة، أهلكهم وبددهم، سموا بأصحاب الفيل؛ للفيل العظيم الذي حملوه معهم لقصد هدم الكعبة.

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ أي: أنه تعالىٰ جعل كيدهم في ذهاب ولم يفلحوا أبدًا، والحال: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾.

وقد أحسن من قال:

يَـا رَبِّ إِنَّ الْمَـرْءَ يَمْنَـعُ ... رَحْلَـهُ فَـامْنَعْ حَلَالَـكْ
لَا يَغْلِـبَنَّ صَـلِيبُهُمْ ... وَمِحَـالُهُمْ عَـدْوًا مِحَالَـكْ
وَكُـلٌّ يَـدَّعِي وَصْـلًا لِلَيْلَـىٰ ... فَـأْمُرْ مَـا بَـدَا لَـكْ
وَلَـئِنْ فَعَلْـتَ فَإِنَّـهُ ... أَمْـرٌ يُـتِمُّ بِـهِ فِعَالَـكْ

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ أرسل عليهم طيرًا كثيرًا أتىٰ علىٰ شكل جماعات.

﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ ﴾ أي: أسقط عليهم حجارة من السماء، ﴿ مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ من طين قد يبس وهي حجارة كالحمص.

﴿ فَجَعَلَهُمْ ﴾ أي: أهلكتهم، حتىٰ كانوا: ﴿ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ كالعلف الذي تأكله الدواب وتناثره هاهنا وهاهنا؛ لكثرة من هلك في هذه الوقعة، والله عز وجل لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض.

والحمد لله رب العالمين

سورة قريش

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾[قريش:١-٤].

بعد أن ذكر الله عز وجل قصة الفيل وبين النعمة التي أنعم بها علىٰ قريش قال كأنه يقول: فعلنا ذلك: ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ من أجل اجتماع قريش، ومن أجل النعمة التي أنعم الله بها عليهم من رحلتهم في الشتاء والصيف.

وهذا قول لبعض أهل العلم؛ حيث جعل سورة الفيل وسورة قريش كالسورة الواحدة.

والمعنىٰ الثاني: أن الله عز وجل امتنَّ علىٰ قريش بما أنعم عليهم من النعم ومزيد المِنن حيث خصَّهم بحرمٍ آمن، وبطريق لرحلتهم آمن، فكانوا يرحلون إلىٰ اليمن في الشتاء، ويرحلون إلىٰ الشام في الصيف؛ للتجارة ونحوها، وكانت لا تعترضهم قبيلة من قبائل العرب؛ لاعتقاد فضلهم؛ لأنهم سكان البيت الحرام، بل إن من دخل في حلهم صار آمنًا.

فيقول الله عز وجل: ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ ثم بين هذا الإيلاف: ﴿ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ أي: أن هذا الاجتماع وهذا الإيلاف هو رحلة الشتاء ورحلة الصيف.

وكانوا يجمعون ما لديهم من الأموال ثم يؤمِّنون عليها رجالًا منهم كالمضاربة، فإذا ذهبوا إلىٰ اليمن اشتروا من لباسها وسلاحها وأنواع ما فيها

من الحبوب وغيرها، وإذا ذهبوا إلىٰ الشام اشتروا من حللها ومجوهراتها، ونحو ذلك مما يحتاجونه لأكلهم ولبسهم وتجارتهم.

ولذلك لما خرج النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- لالتقاء العير في بدر، خرجوا بحدهم وحديدهم حتىٰ وقعت المعركة المشهورة.

ثم قال الله عز وجل بما أن الله أمتن عليهم بهذا الإيلاف والأمن والنعمة، فالواجب عليهم شكر الله: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ أن يوحدوا الله عز وجل بأقوالهم وأفعالهم ومعتقداتهم، ولكن الواقع أنهم عبدوا الحجارة الصماء، والأصنام البكماء، فعبدوا اللات والعزىٰ ومناة الثالثة الأخرىٰ، ونصبوا حول الكعبة ثلاثمائة وستين صنمًا، حجارة نقصها ظاهر فيها، ومع ذلك تسلط عليهم الشيطان فعبدوها، وتركوا عبادة الله عز وجل.

و قد امتن الله عز وجل علىٰ قريش بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ ﴾[العنكبوت:٦٧]، وقال الله عز وجل: ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾[النحل:١١٢]، وهذه القرية هي مكة.

﴿ فَلْيَعْبُدُوا ﴾ أمر لأهل مكة ولجميع الناس، ﴿ رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ صاحب هذا البيت، والمراد به البيت العتيق، الكعبة المشرفة، أضيف إلىٰ الله عز وجل؛ لعظيم منزلته، ولجليل رفعته، وهو أول بيت وضع للناس، وهو قبلة

المسلمين، وفيه من الآيات البينات والمقامات العظيمات ما يعرف قدرها كل مسلم وموحد كما قال تعالىٰ: ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾[آل عمران:٩٧].

وقيل: المراد بمقام إبراهيم: المكان الذي يُصلىٰ فيه عند البيت، وقيل جميع مقامات إبراهيم ويدخل فيها الصفا والمروة ومنىٰ ومزدلفة وعرفات، وهذا معنىٰ مقارب ومقبول.

﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ ﴾ أي: رب هذا البيت هو الذي أطعمهم، وذكر الطعام تنبيها إلىٰ غيره وهو الشراب، ولا قيام للإنسان إلا بطعام وشراب، فالله عز وجل هو الذي يطعم الناس جميعًا ولا يُطعم؛ لكمال غناه سبحانه وتعالىٰ، وكما قال تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾[الأنعام: ١٤].

ولم يطعمهم فقط الطعام الذي تقوم به الأبدان، بل وسع لهم في غير ذلك، وكانت تأتيهم الفواكه وكل ما لذ وطاب، وكان من عجيب قدرة الله أن جعل الطائف التي هي بلد زراعي ومناخه لطيف قريب من مكة، يبعد عنها بمقدار مرحلتين، فكانت تأتي مكة من الطائف جميع أنواع الفاكهة، من أعنابها ورمانها ونحوها.

ولو تأملنا البيت العتيق في هذه الأيام لرأينا تحقيق هذا الأمر، فإن الله عز وجل سخر جبي جميع الثمرات إلىٰ البيت، فتجد كل ما لذ وطاب من المأكول والمشروب والملبوس.

﴿ مِنْ جُوعٍ ﴾ لأن الجوع شديد، وإذا تسلط علىٰ الإنسان أضعف قواه، وأسهر ليله، ولحقه الضرر، ﴿ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ أمَّنهم من أعدائهم، فلم تغزا مكة ومن غزاها هلك، فقد جاءها أبرهة الأشرم بجيش لا يدان لأحد بقتاله، فسلط الله عليه الطير الأبابيل التي ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول.

وأباح الله لمحمد -صلىٰ الله عليه وسلم- مكة ساعة من النهار، حتىٰ كفروا وتمردوا علىٰ دين الله عز وجل قال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «إِنَّ اللهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهِيَ حَرَامٌ بِحَرَامِ اللهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَلَمْ تَحْلِلْ لِي قَطُّ إِلَّا سَاعَةً مِنَ الدَّهْرِ»، متفق عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

فمن أراد دوام نعمة الله عليه فليشكر ربه عليها، ومن أعظم شكر الله أن يوحد ويفرد بحقه فعن معاذ رضي الله عنه قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ؟ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا».

ونجد أن المجتمعات الإسلامية تأن من الحروب والويلات والفقر والدمار، ولو تأملنا إلىٰ سبب ذلك لوجدناه البعد عن الدين، وإلا فوعد الله: ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ

مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾[النور:٥٥]، بشرط: ﴿ يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾[النور: ٥٥].

وتجد كثيراً من بلد الإسلام تعج بالقبور والقباب والسحرة والمشعوذين والكهان والعرافين، ثم بعد ذلك يطلبون الأمن والأمان، أنَّىٰ يكون له الأمن ولم يحصل منهم الإيمان، قال تعالىٰ: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾[الأنعام:٨٢].

هكذا جعل الله عز وجل الأمن للمؤمنين: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[الأحقاف:١٣].

وهذه قريش التي كانت منيعة حصينة سلط الله عليها أهل الإسلام حين أبوا إلا الكفر والعناد والإجرام، فقتل النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- منهم في بدر سبعين وأسر سبعين، ثم غزا مكة وفتحها في السابع عشر من رمضان من السنة الثامنة للهجرة، والله أعلم.

سورة الماعون

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾[الماعون:١-٧].

يقول الله عز وجل: ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ أي: أخبرني عن الذي يكذب بيوم الجزاء والبعث والنشور.

وهذا حاصل في كفار قريش وغيرهم: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾[الجاثية:٢٤].

وكانوا يستبعدون البعث بعد الإماتة: ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾[الصافات:١٦].

وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ ؟ قَالَ: «لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ، اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»، أخرجه مسلم.

وعَنْ خَبَّابٍ قَالَ: كُنْتُ قَيْنًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ لِي عَلَىٰ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ دَيْنٌ، فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ، قَالَ: لَا أُعْطِيكَ حَتَّىٰ تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقُلْتُ: لَا أَكْفُرُ حَتَّىٰ يُمِيتَكَ اللهُ ثُمَّ تُبْعَثَ. قَالَ: دَعْنِي حَتَّىٰ أَمُوتَ وَأُبْعَثَ فَسَأُوتَىٰ مَالًا وَوَلَدًا فَأَقْضِيكَ. فَنَزَلَتْ: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ

لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾، ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾»،

أخرجه البخاري.

وقد جعل الله لهم من الدلائل الظاهرة، والآيات القاهرة ما تدل علىٰ أن الله لا يعجزه أن يعيد الإنسان بعد الإماتة كما أنه لم يعجز عن البدأة، كما قال تعالىٰ: ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾[لقمان:٢٨]، وقال: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾[يس:٨١].

﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ أي: أن الذي يكذب بالدين والبعث والنشور هو الذي يدفع اليتيم، وينهره، ويظلمه، ويقهره، والله عز وجل يقول: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾[الضحىٰ ٩].

وعَنْ سَهْلٍ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا». وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَىٰ، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا " متفق عليه.

واليتيم هو الذي مات أبوه، فيحتاج إلىٰ رعاية وعناية؛ فإنه يعيش مكسور القلب، فقير البدن، بينما هذا المجرم يدفعه ويطرده.

﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ ومن صفات هذا المكذب بالدين أنه لا يحض علىٰ طعام المسكين، لا يأمر بالصدقة علىٰ الفقراء والمحتاجين، وإذا كان لا يأمر بذلك فهو لا يعطيهم من باب أولىٰ.

فيا أيها المسلم حض على طعام المسكين، وابذل في أوجه الخير تلقاه عند الله عز وجل عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَصْعَدُ إِلَىٰ اللهِ إِلَّا الطَّيِّبُ، فَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّىٰ تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ». متفق عليه.

ويقول الله عز وجل في معنىٰ هذه الآية: ﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكرِمُونَ ٱليَتِيمَ ﴾ حقًا إنكم لا تكرمون اليتيم يا معاشر الكفار، ﴿ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾[الفجر:١٨]، ولا تأمرون بالإنفاق علىٰ المسكين.

﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ إخبار بعذاب أليم لصنف من المصلين، الذي يصلون ولا يأتون بالصلاة علىٰ وجهها؛ إما بعدم إحسان ركوعها وخشوعها ووضوئها، وإما بعدم الصلاة في وقتها، وقد قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾[النساء: ١٠٣] وإما بالمراءاة فيها.

فالناس في باب الصلاة أصناف:

الأول: أهل الإيمان الذين وصفهم الله عز وجل بقوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾[المؤمنون: ١ - ٥]، الآيات، ويصلون كما صلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه

وسمل، ويأتون بها علىٰ الوجه الذي يرضي الله عز وجل وحالهم كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[العنكبوت: ٤٥].

الثاني: من قال الله عز وجل عنهم: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَىٰ الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[النساء:١٤٢]، وهؤلاء هم المنافقون الخلص، قال عبدالله ابن مسعود: «وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ» أخرجه مسلم.

الثالث: من يصلي ولكن لا يحسن، كما رَأَىٰ حُذَيْفَةُ رَجُلًا لَا يُتِمُّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، قَالَ: مَا صَلَّيْتَ، وَلَوْ مُتَّ مُتَّ عَلَىٰ غَيْرِ الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ اللهُ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهَا. أخرجه البخاري.

عن عبادة بن صامت رضي الله عنه قال: قال رَسُول اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ افْتَرَضَهُنَّ اللهُ تَعَالَىٰ، مَنْ أَحْسَنَ وُضُوءَهُنَّ وَصَلَّاهُنَّ لِوَقْتِهِنَّ، وَأَتَمَّ رُكُوعَهُنَّ وَخُشُوعَهُنَّ، كَانَ لَهُ عَلَىٰ اللهِ عَهْدٌ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلَيْسَ لَهُ عَلَىٰ اللهِ عَهْدٌ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ» أخرجه أحمد.

الرابع: لا يصلي بالكلية، قال تعالىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[مريم: ٥٩]، وقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ» أخرجه الترمذي عن بريدة رضي الله عنه، وقال رسول الله صلىٰ الله عليه

وسلم: «بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ» أخرجه مسلم عن جابر رضي الله عنه.

ومن قبيح الاستدلال قول بعضهم حين تقول له: صل! يقول لك: قال الله: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ وهذا وقف قبيح، وإنما: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّين * الَّذِينَ هُمْ ﴾ أي من صفاتهم أنهم: ﴿ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾.

قال بعض السلف: " الحمد لله أنه لم يقل في صلاتهم ساهون ".

فإن السهو في الصلاة يقع، وقد وقع من النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-، ويقع من غير النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-، ويجبره سجدتا السهو، ولكن السهو عن الصلاة هو المذموم؛ لأن الساهي عنها هو المفرط والمضيع لها.

وإذا تأملتم حال الأمة ا تجدون أن أغلب الناس في هذا الحال، يصلي متىٰ أراد ويترك متىٰ أراد، ويصلي بالهيئة التي أراد، بينما العبد مأمور أن يصلي في أوقات معلومة: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾[النساء١٠٣].

ومأمور بالمداومة عليها وعدم الانقطاع عنها: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾[المعارج:٢٣]، ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾[المعارج:٣٤].

ومأمور أن يصلي كما صلىٰ النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- «وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»، أخرجه البخاري عن مالك بن حويرث رضي الله عنه.

﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ أي: في صلاتهم وفي جميع أعمالهم.

والرياء ذنبه عظيم؛ لأنه شرك بالله عز وجل، والناس فيه منقسمون إلىٰ قسمين منهم من يكون شركه شركًا أكبر مخرج من الملة، ومنهم من يكون شركه شركًا أصغر يحبط العمل الذي دخله.

والفرق بينهما: أن صاحب الرياء الأكبر أصلًا لا يصلي ولا يصوم ولا يحج ولا يعتمر، إن وقع منه هذا إلا من أجل الناس لا يريد الله، ولو كان وحده ما صلىٰ ولا صام ولا حج ولا اعتمر، لكن لمصالح دنيوية ربما صلىٰ وحج واعتمر وصام، قال الله عز وجل: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[هود:١٥-١٦].

وأما النوع الثاني: وهو الشرك الأصغر، فيدخل الرجل في الصلاة لله عز وجل، ويتصدق ويحج لله، لكن إذا رأىٰ الناس ينظرون إليه أظهر لهم ذلك وأحبه، فتدخل المشاركة في العبادة، فإن كانت العبادة متصلة ولم يحارب الرياء بطلت العبادة، وإن دافع الرياء فعبادته صحيحة، وإن كانت العبادة منفصلة بحيث صلىٰ ركعتين لله عز وجل وراءىٰ في ركعتين تبطل التي راءىٰ فيها، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»، أخرجه مسلم.

و عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ رَاءَىٰ رَاءَىٰ اللهُ بِهِ». متفق عليه.

والرياء شأنه خطير فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّىٰ اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ» أخرجه مسلم.

وليس من الرياء أن المسلم يعمل العمل الصالح ثم يشكر عليه، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ

مِنَ الْخَيْرِ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ ؟ قَالَ: " تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَىٰ الْمُؤْمِنِ». أخرجه مسلم.

وإنما يحبب الله المؤمن إلىٰ المؤمنين، فيثنون عليه بها، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾[مريم: ٩٦]

﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ أي: ومع مرآتهم بالأعمال يمنعون الماعون وقد جاء أنه الزكاة الواجبة، وجاء في معناه أنه القدر والمسحة والملعقة، ومثل هذه العاريات التي تقع بين الناس.

وذهب عكرمة إلىٰ تفسير الماعون بالزكاة والقدر وما في بابه، وهو تفسير جمع بين الواجب والمستحب، فلا بأس به، وهو اختيار ابن كثير.

فتضمنت هذه الآية الإخبار عن أمرين، أي أن المكذبين بالدين ضيعوا حق الله وحق الناس، فقد أوجب الله عليك حقين:

١- حق له، وهو إفراده بالعبادة.

٢- وحق لغيره، وهو الحقوق التي بين العباد: من حق الوالدين والأرحام، والجيران، والفقراء، والمساكين، فينبغي لك أن تؤدي الحق الذي عليك لله عز وجل، والحق الذي عليك لغير الله عز وجل؛ حتىٰ يستقيم حالك الديني والدنيوي، والله المستعان.

سورة الكوثر

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾[الكوثر: ١-٣].

مكية، وقد امتن الله عز وجل علىٰ نبيه الكريم وصفيه الأمين أنه أعطاه الكوثر، وهو الخير الكثير، ويدخل فيه الحوض العظيم الذي أخبر عنه النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وصفه: «حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا، فَلَا يَظْمَأُ أَبَدًا».

يأتيه الناس بعد أن يخرجوا من قبورهم عطاشا، فيُمنع منه الكافرون والمبتدعون، ويشرب منه المؤمنون فعَنْ عَبْدِ اللهِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَىٰ الْحَوْضِ». متفق عليه.

وقال النبي –صلىٰ الله عليه وسلم–: «وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَىٰ الْحَوْضِ، أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ، أُنَادِيهِمْ: أَلَا هَلُمَّ؟ فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا».

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَىٰ إِغْفَاءَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا، فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ، فَقَرَأَ: ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ ﴾﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾[الكوثر: ١-٣]، ثُمَّ قَالَ:

«أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟» فَقُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ....» أخرجه مسلم.

فالكوثر: نهر في الجنة يمد منه الحوض الذي هو في عرصات القيامة.

والحوض: خاص بالنبي صلىٰ الله عليه وسلم- مع أن العلماء قد اختلفوا في هذه المسألة إلىٰ قولين، والصحيح الذي عليه التحقيق أن الحوض خاص بمحمد -صلىٰ الله عليه وسلم-؛ ولذلك تجد أن العلماء يقولون: " صاحب الحوض والشفاعة "، فيذكرونها له علىٰ سبيل الخصوصية.

وأما ما أخرجه الترمذي: «لكل نبي حوض»، فهو حديث مرسل لا تقوم بمثله حجة، والله أعلم.

وقد أنكر الحوض بعض المبتدعة: كالخوارج، والرافضة، ومن إليهم، فعن أنس بن مالك قَالَ: دَخَلْتُ عَلَىٰ ابْنِ زِيَادٍ، وَهُمْ يَتَذَاكَرُونَ الْحَوْضَ، فَلَمَّا رَأَوْنِي طَلَعْتُ عَلَيْهِمْ، قَالُوا: قَدْ جَاءَكُمْ أَنَسٌ فَقَالُوا: يَا أَنَسُ مَا تَقُولُ فِي الْحَوْضِ؟ فَقُلْتُ: «وَاللهِ مَا شَعَرْتُ أَنِّي أَعِيشُ حَتَّىٰ أَرَىٰ أَمْثَالَكُمْ تَشُكُّونَ فِي الْحَوْضِ، لَقَدْ تَرَكْتُ عَجَائِزَ بِالْمَدِينَةِ، مَا تُصَلِّي وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ صَلَاةً إِلَّا سَأَلَتْ رَبَّهَا عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُورِدَهَا حَوْضَ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: أَلَا تَرَوْنَ إِلَىٰ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللهُ يَتَعَجَّبُ مِمَّنْ يَشُكُّ فِي الْحَوْضِ إِذْ كَانَ عِنْدَهُ أَنَّ الْحَوْضَ مِمَّا يُؤْمِنُ بِهِ الْخَاصَّةُ وَالْعَامَّةُ حَتَّىٰ

إِنَّ الْعَجَائِزَ يَسْأَلْنَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَسْقِيَهُنَّ مِنْ حَوْضِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَعُوذُ بِاللهِ مِمَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْحَوْضِ، وَيُكَذِّبُ بِهِ، وَفِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ التَّصْدِيقِ بِالْحَوْضِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِفَايَةٌ عَنِ الْإِكْثَارِ.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ حَوْضِي أَبْعَدُ مِنْ أَيْلَةَ مِنْ عَدَنٍ لَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الثَّلْجِ، وَأَحْلَىٰ مِنَ الْعَسَلِ بِاللَّبَنِ، وَلَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ النُّجُومِ وَإِنِّي لَأَصُدُّ النَّاسَ عَنْهُ، كَمَا يَصُدُّ الرَّجُلُ إِبِلَ النَّاسِ عَنْ حَوْضِهِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَتَعْرِفُنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا، مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ» أخرجه مسلم.

والمراد بهم: أهل التوحيد والمتابعة للنبي -صلىٰ الله عليه وسلم-.

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أن الحوض موجود الآن، قال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «وَإِنِّي وَاللهِ لَأَنْظُرُ إِلَىٰ حَوْضِي الْآنَ» متفق عليه عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَمِنْبَرِي عَلَىٰ حَوْضِي»، متفق عليه.

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ أي: شكرًا لله عز وجل علىٰ هذه العطية، وهذه المنحة الرفيعة.

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ والصلاة هي المعروفة بشروطها وأركانها، وقيل صلاة العيد.

وقال: ﴿ لِرَبِّكَ ﴾ ولم يقل: لله؛ ليبين أن الله عز وجل قد أحاط به ورعاه، وحفظه من كل ما يؤذيه، فالرب هو الحافظ سبحانه وتعالىٰ، وهو المستحق للعبادة.

﴿ وَانْحَرْ ﴾ أي: تقرب إليه بأنواع النحر: كالهدي، والأضحية، والعقيقة، والوفاء بالنذور وغير ذلك، ويكون من بهيمة الأنعام، فلا يتقرب إلىٰ الله عز وجل بالنحر إلا بما كان من بهيمة الأنعام: البقر والغنم والإبل، وما سوىٰ ذلك لا يصح لا في عقيقة ولا هدي ولا أضحية، حتىٰ لو كان غزالًا أو أيلًا، أو غير ذلك مما أباح الله وأحل.

وقد قال الله عز وجل: ﴿ لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ ﴾[الحج:٣٧]، ومن أعظم العبادات النحر؛ ولذلك قال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ»، أخرجه مسلم عن علي رضي الله عنه.

وقال الله عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[الأنعام:١٦٢-١٦٣].

فالذين ينحرون علىٰ عتبات القبور متقربين إلىٰ أرباب تلك القبور مخالفين لهذه الآية؛ لأنهم ذبحوا ونحروا لغير الله، وكذلك السحرة الذين يذبحون ولا يسمون الله علىٰ ذبائحهم متقربين بها إلىٰ الجن والشياطين.

ويدخل في ذلك الهجر، الذبيحة المشهورة في البلاد اليمنية التي يذبحونها للإصلاح بين الناس؛ ويسمونها بالهجر أو القصد فإن هذا دائر بين البدعة والشرك، فينبغي للناس أن يتقوا الله عز وجل، في اجتناب ما يسخط الله عز وجل عليهم، وقيل النحر هو ضم اليدين إلىٰ الصدر، والأول أولىٰ.

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ ﴾ أي: إن مبغضك يا محمد، ﴿ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ المقطوع.

وقد جاء في سبب هذه الآية حديث لا يثبت «أنهم قالوا فيه: محمد الأبتر أي المقطوع، لا وارث له ولا معين، فأخبر الله عز وجل أن الأبتر هو شانئ النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-».

وفي هذه السورة وعد ووعيد، فالمتمسك بالسنة غير مقطوع وإن قل ناصروه وكثر معادوه، والمخالف لسنة النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- هو المقطوع كائنًا من كان، وإن كثر ماله وتابعه، وعظم شأنه.

فانظروا! من الذي عادىٰ النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- في أول البعثة؟ إنهم سادات قريش، وسادات العرب، ومحمد -صلىٰ الله عليه وسلم- كان يسمىٰ عندهم: بالمذمم، وباليتيم، وغير ذلك من التسميات التي يتنقصونه بها، فقُطعوا جميعًا بالقتل، والهلكة، والعذاب المهين في الدنيا والآخرة، وسلم

محمد -صلىٰ الله عليه وسلم- وأصحابه رضوان الله عليهم حتىٰ أتم الله لهم الدين، وأقام لهم الملة.

وهكذا في كل وقت وحين تجد أن متابعوا النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- هم الواصلون إلىٰ المراد، ومخالفوا النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- هم المقطوعون المبتورون.

فإياك واحتقار أهل الصلاح مهما كان الحال، وإنما الاحتقار يكون للمبتعد عن طريق الصلاح، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»، أخرجه مسلم، فكم من إنسان قبيح المنظر جميل المخبر، وكم من إنسان جميل المنظر قبيح المخبر، ولو كانت النظرة إلىٰ الجمال لربما كان كثير من الكفار هم أصحاب العلو والرفعة، لكن النظرة إلىٰ الإيمان.

وتأمل إلىٰ ما وقع به ذلك المخذول عبدالله القصيمي، لما وقع في الردة قال: أيدخل الله عز وجل جميلات لبنان النار ويدخل عجائز نجد الجنة؟!!

لأنه نظر إلىٰ الظاهر وترك ما أخبر الله عز وجل به من شرط صلاح الظاهر والباطن.

سورة الكافرون

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[الكافرون:١-٦]

سورة الإخلاص الثانية:

وهي سورة الكافرون، هذه السورة العظيمة تسمىٰ بسورة الإخلاص لما فيها من الدعوة إلىٰ إخلاص العبادة لله تعالىٰ.

والعبادة: هي رحىٰ الدين وأسه وأساسه قال شيخ الإسلام في العبودية (ص: ٤٤): الْعِبَادَة هِيَ اسْم جَامع لكل مَا يُحِبهُ الله ويرضاه من الْأَقْوَال والأعمال الْبَاطِنَة وَالظَّاهِرَة. فَالصَّلَاة وَالزَّكَاة وَالصِّيَام وَالْحج وَصدق الحَدِيث وَأَدَاء الْأَمَانَة وبرّ الْوَالِدين وصلَة الْأَرْحَام وَالْوَفَاء بالعهود وَالْأَمر بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَن الْمُنكر وَالْجهَاد للْكفَّار وَالْمُنَافِقِينَ وَالْإِحْسَان للْجَار واليتيم والمسكين وَابْن السَّبِيل والمملوك من الْآدَمِيّين والبهائم وَالدُّعَاء وَالذكر وَالْقِرَاءَة وأمثال ذَلِك من الْعِبَادَة.

وَكَذَلِكَ حب الله وَرَسُوله وخشية الله والإنابة إِلَيْهِ وإخلاص الدَّين لَهُ وَالصَّبْر لحكمه وَالشُّكْر لنعمه وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ والتوكل عَلَيْهِ والرجاء لِرَحْمَتِهِ وَالْخَوْف من عَذَابه وأمثال ذَلِك هِيَ من الْعِبَادَة لله.

وَذَلِكَ أَن الْعِبَادَة لله هِيَ الْغَايَة المحبوبة لَهُ والمرضية لَهُ الَّتِي خَلق الْخلق لَهَا كَمَا قَالَ الله تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا خلقت الْجِنّ وَالْإِنْس إِلَّا ليعبدون ﴾[٥٦ الذاريات].

وَبهَا أرسل جَمِيع الرُّسُل كَمَا قَالَ نوح لِقَوْمِهِ: ﴿ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾[٥٩ الأَعْرَاف].

وَكَذَلِكَ قَالَ هود وَصَالح وَشُعَيْب وَغَيرهم لقومهم وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَىٰ اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ ﴾[النحل:٣٦]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء:٢٥]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء:٩٢]، كَمَا قَالَ فِي الْآيَة الْأُخْرَىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾[المؤمنون:٥١-٥٢]، وَجعل ذَلِك لَازِما لرَسُوله إِلَىٰ الْمَوْت كَمَا قَالَ: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾[الحجر:٩٩]. انتهىٰ

قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ ﴾ يقول الله عز وجل يقول لنبيه: قل يا محمد: ﴿ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ دعاهم بحرف النداء للبعيد لأنهم بعيدون عن الإسلام وعن الاستقامة وعن الخير وذكر العلماء في سبب ذلك أحاديث وأثار منها ما أخرجه الطبري جامع البيان: (٢٤/ ٧٠٣): حدثني مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَىٰ الْحَرَشِيُّ،

قَالَ: ثنا أَبُو خَلَفٍ، قَالَ: ثنا دَاوُدُ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ قُرَيْشًا وَعَدُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُعْطُوهُ مَالًا، فَيَكُونَ أَغْنَىٰ رَجُلٍ بِمَكَّةَ، وَيُزَوِّجُوهُ مَا أَرَادَ مِنَ النِّسَاءِ، وَيَطَئُوا عَقِبَهُ، فَقَالُوا لَهُ: هَذَا لَكَ عِنْدَنَا يَا مُحَمَّدُ، وَكُفَّ عَنْ شَتْمِ آلِهَتِنَا، فَلَا تَذْكُرْهَا بِسُوءٍ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ، فَإِنَّا نَعْرِضُ عَلَيْكَ خَصْلَةً وَاحِدَةً، فَهِيَ لَكَ وَلَنَا فِيهَا صَلَاحٌ. قَالَ: «مَا هِيَ؟» قَالُوا: تَعْبُدُ آلِهَتَنَا سَنَةً: اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ، وَنَعْبُدُ إِلَهَكَ سَنَةً، قَالَ: «حَتَّىٰ أَنْظُرَ مَا يَأْتِي مِنْ عِنْدِ رَبِّي» فَجَاءَ الْوَحْيُ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ السُّورَةُ، وَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾[الزمر: ٦٤]، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[الزمر: ٦٦] "، وهذا حديث ضعيف لا يثبت في سنده مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَىٰ الْحَرَشِيُّ وأَبُو خَلَفٍ وكلاهما ضعيف.

قوله تعالىٰ: ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ فيه البراءة من الشرك وأهله قال تعالىٰ: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[المجادلة: ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة:

٧١]، وقال تعالىٰ في المنافقين: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[التوبة: ٦٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾[الممتحنة: ١].

فالنبي صلىٰ الله عليه وسلم يقول للكافرين ﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أي: الذي تعبدونه من الأصنام والأوثان؛ لأنكم تعبدون الباطل تعبدون الأحجار والأشجار وتفعلون الظلم العظيم الذي لا يغفره الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾.

قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ٥٩٨): فَقَوْلُهُ ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ يَقْتَضِي تَنْزِيهَهُ عَنْ كُلِّ مَوْصُوفٍ بِأَنَّهُ مَعْبُودُهُمْ. لِأَنَّ كُلَّ مَا عَبَدَهُ الْكَافِرُ وَجَبَتْ الْبَرَاءَةُ مِنْهُ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ كَافِرًا لَا يَكُونُ مَعْبُودُهُ الْإِلَهَ الَّذِي يَعْبُدُهُ الْمُؤْمِنُ. إذْ لَوْ كَانَ هُوَ مَعْبُودَهُ لَكَانَ مُؤْمِنًا لَا كَافِرًا. وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ أُمُورًا:

أَحَدُهَا: أَنَّ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ بَرَاءَتَهُ مِنْ أَعْيَانِ مَنْ يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ.

الثَّانِي: أَنَّهُمْ إِذَا عَبَدُوا اللهَ وَغَيْرَهُ فَمَعْبُودُهُمْ الْمَجْمُوعُ وَهُوَ لَا يَعْبُدُ الْمَجْمُوعَ لَا يَعْبُدُ إِلَّا اللهَ وَحْدَهُ. فَيَعْبُدُهُ عَلَىٰ وَجْهِ إِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ لَا عَلَىٰ وَجْهِ الشِّرْكِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ.

وَبِهَذَا يَظْهَرُ الْفَرْقُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِ الْخَلِيلِ ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾[الزخرف:٢٦-٢٧]، وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء:٧٥-٧٧]، بِأَنْ يُقَالَ: هُنَا نَفْيُ عِبَادَةِ الْمَجْمُوعِ وَذَلِكَ لَا يَنْفِي عِبَادَةَ الْوَاحِدِ الَّذِي هُوَ اللهُ. وَالْخَلِيلُ تَبَرَّأَ مِنْ الْمَجْمُوعِ وَذَلِكَ يَقْتَضِي الْبَرَاءَةَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ فَاسْتَثْنَىٰ. أَوْ يُقَالُ: الْخَلِيلُ تَبَرَّأَ مِنْ جَمِيعِ الْمَعْبُودِينَ مِنْ الْجَمِيعِ فَوَجَبَ أَنْ يُسْتَثْنَىٰ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَلِهَذَا لَمَّا وَقَعَ مُسْتَثْنًىٰ فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾[الممتحنة:٤]، لَمْ يَحْتَجْ إِلَىٰ اسْتِثْنَاءٍ آخَرَ. وَأَمَّا هَذِهِ السُّورَةُ فَإِنَّ فِيهَا التَّبَرِّي مِنْ عِبَادَةِ مَا يَعْبُدُونَ لَا مِنْ نَفْسِ مَا يَعْبُدُونَ. وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَمِنْ عِبَادَتِهِمْ وَمِمَّا يَعْبُدُونَ. فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ بَاطِلٌ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اللهُ: «أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ كُلُّهُ لِلَّذِي أَشْرَكَ»، فَعِبَادَةُ الْمُشْرِكِ كُلُّهَا بَاطِلَةٌ لَا يُقَالُ: نَصِيبُ اللهِ مِنْهَا حَقٌّ وَالْبَاقِي بَاطِلٌ بِخِلَافِ مَعْبُودِهِمْ. فَإِنَّ اللهَ إِلَهٌ حَقٌّ وَمَا سِوَاهُ آلِهَةٌ بَاطِلَةٌ. فَلَمَّا تَبَرَّأَ الْخَلِيلُ مِنْ الْمَعْبُودِينَ احْتَاجَ إِلَىٰ

اسْتِثْنَاءِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَلَمَّا كَانَ فِي هَذِهِ تَبَرُّؤُهُ مِنْ أَنْ يَعْبُدَ مَا يَعْبُدُونَ فَكَانَ الْمَنْفِيُّ هُوَ الْعِبَادَةَ تَبَرَّأً مِنْ عِبَادَةِ الْمَجْمُوعِ الَّذِينَ يَعْبُدُهُمْ الْكَافِرُونَ.

الثَّالِثُ: إِنْ كَانَ النَّفْيُ عَنْ الْمَوْصُوفِ بِأَنَّهُ مَعْبُودُهُمْ لَا عَنْ عَيْنِهِ فَهُوَ لَا يَعْبُدُ شَيْئًا مِنْ حَيْثُ هُوَ مَعْبُودُهُمْ. لِأَنَّهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ مَعْبُودُهُمْ هُمْ مُشْرِكُونَ بِهِ فَوَجَبَتْ الْبَرَاءَةُ مِنْ عِبَادَتِهِ عَلَىٰ ذَلِكَ الْوَجْهِ. وَلَوْ قَالَ " مَنْ تَعْبُدُونَ " لَكَانَ يُقَالُ: إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ لِأَنَّ النَّفْيَ وَاقِعٌ عَلَىٰ عَيْنِ الْمَعْبُودِ. وَلَيْسَ إِذَا لَمْ يَعْبُدْ مَا يَعْبُدُونَ مُتَبَرِّئًا مِنْهُ وَمُعَادِيًا لَهُ حَتَّىٰ يَحْتَاجَ إِلَىٰ الِاسْتِثْنَاءِ. بَلْ هُوَ تَارِكٌ لِعِبَادَةِ مَا يَعْبُدُونَ. وَهَذَا يَتَبَيَّنُ.

بِالْوَجْهِ الرَّابِعِ: وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ نَفَىٰ عَنْهُمْ عِبَادَةَ مَعْبُودِهِ. فَهُمْ إِذَا عَبَدُوا اللهَ مُشْرِكِينَ بِهِ لَمْ يَكُونُوا عَابِدِينَ مَعْبُودَهُ. وَكَذَلِكَ هُوَ إِذَا عَبَدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ لَمْ يَكُنْ عَابِدًا مَعْبُودَهُمْ.

الْوَجْهُ الْخَامِسُ: أَنَّهُمْ لَوْ عَيَّنُوا اللهَ بِمَا لَيْسَ هُوَ اللهُ وَقَصَدُوا عِبَادَةَ اللهِ مُعْتَقِدِينَ أَنَّ هَذَا هُوَ اللهُ كَالَّذِينَ عَبَدُوا الْعِجْلَ وَالَّذِينَ عَبَدُوا الْمَسِيحَ وَالَّذِينَ يَعْبُدُونَ الدَّجَّالَ وَالَّذِينَ يَعْبُدُونَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُنْيَاهُمْ وَهَوَاهُمْ وَمَنْ عَبَدَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَهُمْ عِنْدَ نُفُوسِهِمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ اللهَ لَكِنَّ هَذَا الْمَعْبُودَ الَّذِي لَهُمْ لَيْسَ هُوَ اللهَ. فَإِذَا قَالَ ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ كَانَ مُتَبَرِّئًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَعْبُودِينَ وَإِنْ كَانَ مَقْصُودُ الْعَابِدِينَ هُوَ اللهُ.

الْوَجْهُ السَّادِسُ: أَنَّهُمْ إذَا وَصَفُوا اللهَ بِمَا هُوَ بَرِيءٌ مِنْهُ كَالصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ وَالشَّرِيكِ وَأَنَّهُ فَقِيرٌ أَوْ بَخِيلٌ أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ وَعَبَدُوهُ كَذَلِكَ. فَهُوَ بَرِيءٌ مِنْ الْمَعْبُودِ الَّذِي لِهَؤُلَاءِ. فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ هُوَ اللهَ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَّا تَرَوْنَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللهُ عَنِّي سَبَّ قُرَيْشٍ؟ يَسُبُّونَ مُذَمَّمًا وَأَنَا مُحَمَّدٌ»، فَهُمْ وَإِنْ قَصَدُوا عَيْنَهُ لَكِنْ لَمَّا وَصَفُوهُ بِأَنَّهُ مُذَمَّمٌ كَانَ سَبُّهُمْ وَاقِعًا عَلَىٰ مَنْ هُوَ مُذَمَّمٌ وَهُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَذَاكَ لَيْسَ هُوَ اللهَ. فَالْمُؤْمِنُونَ بُرَآءُ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ.

الْوَجْهُ السَّابِعُ: أَنَّ كُلَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِمَا وَصَفَ بِهِ الرَّسُولُ رَبَّهُ فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ لَمْ يَعْبُدْ مَا عَبَدَهُ الرَّسُولُ مِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ. وَقِسْ عَلَىٰ هَذَا فَلْتَتَأَمَّلْ هَذِهِ الْمَعَانِيَ وَتُلَخِّصْ وَتُهَذِّبْ وَاَللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ. انتهىٰ

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ثم أخبر عنهم بقوله وأنتم عابدون لإلهي الذي أعبد ما دمتم علىٰ شرككم فأنا أعبد الله الواحد القهار وأنتم تعبدون المخلوقات المربوبات.

وقد قال العلماء كيف هذا؟ وبعضهم قد أسلم بعد ذلك فيقال لعله أراد ذلك الحين، وقال بعضهم أيضًا: لعله أراد من لم يسلم منهم.

المهم: أن هذه الآية فيها وجوب إخلاص العبادة لله سبحانه وتعالىٰ، فمعناه: (لَا أَعْبُدُ) أنا ومن معي من الموحدين (مَا تَعْبُدُون) أي: الذي أنتم تعبدونه من باطلكم وأهلتكم التي تضاهئون بها الله عز وجل

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ أي: وفي هذا الحال الذي أنتم عليه ومن كان منكم سيموت علىٰ الكفر لم يقع منه إفراد العبادة لله تعالىٰ وإنما وقع منهم نقيض ذلك وهو الشرك الذي لا يغفره الله تعالىٰ قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾[المائدة: ٧٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ * لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾[الأعراف: ٤٠-٤١]، وقال تعالىٰ: ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾[الحج: ٣١].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ فيه توكيد أنه صلىٰ الله عليه وسلم هو من معه علىٰ الإخلاص والتوحيد وافراد الله عز وجل بما يجب له في هذا الباب من دعاء ونذر وخوف ورجاء وتوكل وانابة علىٰ ما تقدم بيانه.

وفيه: بيان لما عليه أهل الحق من سلوك سبل الثبات علىٰ دين الله تعالىٰ، وعدم التأثر بالمغريات والتزحزح عن الكتاب والسنة مهما عظمت الخطوب.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُد ﴾ علىٰ ما تقدم، وأنه لا يمكن الجمع بين الحق والباطل والهدىٰ والضلال.

وقوله تعالىٰ: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِين ﴾ أي: لكم باطلكم الذي أنتم فيه ولي الحق الذي أدعو إليه وأنصره والذي ابتليت من أجله ولكم دينكم الباطل الذي ارتضيتموه.

وهذه الآية العظيمة: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِين ﴾ فيها البراءة من دين الكفار من اليهود والنصارىٰ والمشركين؛ لكن العجب أن دعاة حوار الأديان ووحدته قد اتخذوها شبهة لهم فأصبحوا يمجدون الباطل ويرضون بالباطل وإذا ما أنكرت عليهم قالوا: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِين ﴾ علىٰ أن هذا إقرار من النبي صلىٰ الله عليه وسلم لهم، وهذا غير صحيح وقد أجيب عنه بوجهين:

الوجه الأول: أن هذه الآية منسوخة بآية السيف وهي قوله تعالىٰ: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾[التوبة: ٢٩].

والوجه الثاني: أن الآية ليس فيها تقرير وإنما هي مثل قول الله عز وجل: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[الكهف:٢٩].

فقوله: ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ ليس فيه إباحة الكفر؟ ولكن فيه أن الله عز وجل بين طريق الحق والهدىٰ وبين طريق الباطل

والردى فمن استجاب فله الجنة ومن أعرض فله النار كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا * إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلا وَأَغْلالًا وَسَعِيرًا ﴾[الإنسان:٣-٤].

فقوله: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ ليس فيها شبهة لا للقرضاوي ولا لمن إليه من دعاة الحوار والتقارب مع اليهود والنصارىٰ وإنما فيها البراءة والتهديد من الله عز وجل كقول الله عز وجل: ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾[فصلت:٤٠]، فليس فيه إباحة الزور والفجور والكفر والعصيان وإنما فيها التهديد؟ فينبغي للمسلم إذا أراد أن يتعلم دينه أن يرجع إلىٰ تفسير السلف وطريقتهم وفهمهم للقرآن والسنة.

أحسن طرق تفسير القرآن:

ثم إن أحسن الطرق لتفسير القرآن لهو:

١- تفسير القرآن بالقرآن.

٢- ثم تفسير القرآن بالسنة.

٣- ثم تفسير القرآن بآثار الصحابة والسلف رضوان الله عليهم.

٤- ثم تفسير القرآن بالغة العربية التي لم تحرف ولم تولد.

أما أن يفسر القرآن بما يسمون ب(التفسير العصري) فهذا والعياذ بالله من الباطل الذي يؤدي إلىٰ زحزحة الأقوال والمعاني الشرعية التي نزل بها القرآن

وإلىٰ الأخذ بالفجور والباطل الذي يستخدمه المشركون ومن إليهم من العقلانيين والمبطلين.

نسأل الله عز وجل أن يجعلنا وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ونسأله السداد في القول والعمل والحمد لله رب العالمين

سورة النصر

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾[النصر:١-٣]

سورة مدينة، وقيل بأنها آخر ما أنزل من القرآن، وهي أجل النبي –صلىٰ الله عليه وسلم–، أعلمه الله إياه كما في حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الْفَتَىٰ مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، قَالَ: فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي مَعَهُمْ، قَالَ: وَمَا رُئِيتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مِنِّي، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ﴾؟ حَتَّىٰ خَتَمَ السُّورَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللهَ، وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا، وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نَدْرِي، أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ

عَبَّاسٍ، أَكَذَاكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَعْلَمَهُ اللهُ لَهُ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ فَتْحُ مَكَّةَ فَذَاكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾، قَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ" أخرجه البخاري.

فأمره الله عز وجل بكثرة الاستغفار والتوبة قبل موته، وهكذا ينبغي للإنسان أن يكون مستغفرًا تائبًا آئبًا لله عز وجل؛ لأنه لا يدري متىٰ يوافيه الأجل.

وكان النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- بعد أن أنزلت علىٰ السورة يكثر أن يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي»، متفق عليه عن عائشة كوغير ذلك من الأدعية تأولًا لقول الله عز وجل: ﴿ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾.

فيقول الله عز وجل: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ﴾ أي: فتح مكة وفتح اليمن كما جاء عند النسائي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «بينما النبيُّ صلىٰ الله عليه وسلم في المدينةِ إذْ قال: «اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ: ﴿ إذا جاءَ نَصْرُ اللهِ والْفَتْحُ ﴾، وجاء أهلُ اليمَنِ»، قيل يا رسولَ اللهِ: وما أهلُ اليمَنِ، قال: «قَومٌ رَقيقَةٌ قُلوبُهم لَيِّنَةٌ طِباعُهم، الإيمانُ يَمانٍ والفِقهُ يَمانٍ والحِكمَةُ يَمانِيَّةٌ»».

ففتح الله عز وجل علىٰ المسلمين حين دخل اليمنيون في دين الله أفواجًا بغير قتال، وإنما كانت دعوة النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- بإرسال الرسل والبعوث، فأرسل أبا عبيدة ابن الجراح إلىٰ نجران، وأرسل معاذ ابن جبل

إلىٰ الجند، وأرسل أبا موسىٰ الأشعري إلىٰ زبيد وما إليها، ثم أرسل علي ابن أبي طالب رضي الله عنه وولاه جهة نجران وما إليها، وقد جاء إلىٰ النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- في حجة الوداع بشيء من النعم والهدي، وأرسل إلىٰ النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- بتربة مذهبة.

والفتح فتحان:

الأول: هو صلح الحديبية، قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّا فَتَحنَا لَكَ فَتحا مُّبِينا ﴾[الفتح:١]؛ لأن قريشاً اعترفوا بالنبي -صلىٰ الله عليه وسلم- وصالحوه، وإن كانت شروطهم مجحفة، إلا أنها في الأصل دليل علىٰ ضعفهم وهزيمتهم، ورضوخهم للأمر الواقع، وهو وجود القوة المسلمة والاعتراف بهم، وكان هذا الفتح في السنة السادسة من الهجرة.

الفتح الثاني: فتح مكة، وكان في السنة الثامنة من الهجرة.

﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ﴾ أي: يكثر دخولهم، فكان في أول الإسلام يسلم الواحد، وربما جاء الاثنان وفي وضع سري، ثم بعد ذلك بدأوا يظهرون، ثم بعد ذلك كانت تدخل القبائل في دين الله عز وجل، وهذا نصر عظيم للإسلام، وقد قال أبو البقاء الرندي:

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان

وهذه الـدار لا تبقـي علـىٰ أحـد ولا يـدوم علـىٰ حـال لهـا شـان

﴿ فَسَبِّحْ ﴾ أي: أكثر من التسبيح، وهو تنزيه الله عز وجل عن كل نقيصة وعيب، ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي: بذكر المحامد التي يتصف الله عز وجل بها، والله موصوف بكل كمال، فعند أن تقول: " سبحان الله ": أنت تنزه الله عن كل نقيصة وتثبت له كل كمال، وعند أن تقول: " الحمد لله ": أنت تثبت لله عز وجل كل كمال وتنفي عنه كل نقيصة.

﴿ رَبِّكَ ﴾ أي: الذي يرزقك ويحفظك ويكلؤك، ﴿ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ من ذنوبك وسيئاتك.

وإذا كان النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- قد أمر بالاستغفار مع أن الله عز وجل قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فمن باب أولىٰ غيره الذين تكاثرت ذنوبهم وخطاياهم.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نعد للنبي -صلىٰ الله عليه وسلم- في المجلس الواحد مائة مرة: «رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم»، أخرجه أحمد وغيره.

وعن الأغر بن يسار رضي الله عنه قال: قال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلَى رَبِّكُمْ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»، أخرجه مسلم.

وعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه قال: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «طُوبَىٰ لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا»، أخرجه ابن ماجه.

والاستغفار يكون من ثلاثة أشياء:

الأول: من التقصير في المأمور، فإن كثيراً من الناس يأتي بالمأمور لا علىٰ الوجه المطلوب، ولذلك يحتاج أن يستغفر، وقد أمر الله وشرع الاستغفار بعد الصلاة، وبعد الحج، وفي المجلس، إلىٰ غير ذلك مما هو ثابت عن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-، فعن ثَوْبَانَ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقَالَ: «اللهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»، أخرجه مسلم.

الثاني: الاستغفار من ارتكاب المحظور الذي نهىٰ الله عنه بالتوبة والإنابة، لحديث أنس رضي الله عنه: «يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي فَإِنِّي سَأَغْفِرُ لَكَ عَلَىٰ مَا كَانَ فِيكَ، وَلَوْ لَقِيتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا لَلَقِيتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً، وَلَوْ عَمِلْتَ مِنَ الْخَطَايَا حَتَّىٰ تَبْلُغَ عَنَانَ السَّمَاءِ مَا، لَمْ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي، لَغَفَرْتُ لَكَ، ثُمَّ لَا أُبَالِي»، أخرجه الترمذي.

الثالث: الاستغفار من عدم الصبر علىٰ المقدور.

فنحن مأمورون بالاستغفار، والصبر، وقد بعث الله أنبيائه بالاستغفار، قال نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾[نوح:١٠-١٢]،

وقال تعالىٰ عن هود: ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾[هود: ٥٢].

﴿ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ أي: استغفروا الله فهو يقبل توبة التائبين ويجازيهم بمغفرة سيئاتهم، بل وبتبديلها حسنات، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَىٰ اللهِ مَتَابًا ﴾[الفرقان:٧٠-٧١].

فمن أسماء الله التواب، الذي يتوب علىٰ عباده، ويقبل التوبة منهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾[غافر:٣]، والتوبة واجبة من جميع الذنوب بشروطها المعروفة:

أولًا: توبة العبد فيما بينه وبين الله.

ثانيًا: توبة العبد في حقوق الآدميين.

ثالثًا: توبة الكافر.

رابعًا: توبة المنافق.

خامسًا: توبة المبتدع.

والتوب: هو الرجوع إلىٰ الله عز وجل، والله أعلم.

سورة المسد

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾[المسد: ١-٥].

مكية، نزلت في شأن أبي لهب لعنه الله، علىٰ ما يأتي بيانه.

يقول الله عز وجل: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ أي: هلكت ولحقها الخسارة، وفي قراءة الأعمش: (وَقد تَبَّ) أي: تحقق له هذا الهلاك في الدنيا والآخرة.

وأبو لهب هو عبد العزىٰ بن عبدالمطلب، عم النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-.

سمي أبي لهب؛ لجمال وجهه وصباحته وكان يؤذي النبي -صلىٰ الله عليه وسلم، فعن طَارِقٍ الْمُحَارِبِيِّ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ فِي سُوقِ ذِي الْمَجَازِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ، وَهُوَ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا»، وَرَجُلٌ يَتْبَعُهُ يَرْمِيهُ بِالْحِجَارَةِ قَدْ أَدْمَىٰ كَعْبَيْهِ وَعُرْقُوبَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تُطِيعُوهُ فَإِنَّهُ كَذَّابٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: غُلَامُ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا الَّذِي يَتْبَعُهُ يَرْمِيهِ بِالْحِجَارَةِ؟ قَالُوا: هَذَا عَبْدُ الْعُزَّىٰ أَبُو لَهَبٍ، أخرجه الدارقطني.

ولشدة عداوته للنبي -صلىٰ الله عليه وسلم- لم تنفع قرابة ولم يدخل في دين، بل كان مناصرًا للكفار من غير عشيرته علىٰ النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-، فأخبر الله أنه هالك وخاسر.

﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ ﴾ ما دفع عنه ماله شيئًا مما يلحقه من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ من الجاه ونحوه أو من التجارة، كلها لم تغن عنه شيءًا، فإذا كان الإنسان علىٰ غير الإسلام، ولا ينتفع بشيء من عمله، فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ليست بجاه ولا بمال، إلا إذا كان الجاه والمال في طاعة الله عز وجل.

﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ وهذا يوم القيامة، وفي القبر حيث يشمله هذا الحكم.

﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ﴾ أي: تحيط به نار: ﴿ ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ يخرج منها اللهب، وقد تقدم شيء من أوصاف النار.

وسبحان الله كأن الله جازاه بوصفه الذي في الدنيا، لما كان وجهه وضيئًا وسمي بأبي لهب؛ لجمال وجهه، وأبىٰ أن يستخدم هذا الجمال في طاعة الله عز وجل عذبه الله بنار تلهب.

﴿ وَامْرَأَتُهُ ﴾ وهي أم جميل أَرْوَىٰ بنتُ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ، وَهِيَ أُخْتُ أَبِي سُفْيَانَ، ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ قيل: بأنها كانت تحمل الحطب فتضعه علىٰ باب

النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-، فكان عذابها في النار أنها تحمل الحطب وتوقد به علىٰ أبي لهب، فكلهم يعذب في النار، أسأل الله السلامة.

﴿ فِي جِيدِهَا ﴾ أي: في عنقها، قال الثَّوْرِيِّ: هُوَ قِلَادَةٌ مِنْ نَارٍ، طُولُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا، ﴿ حَبْلٌ ﴾ معروف، ﴿ مِنْ مَسَدٍ ﴾ من ليف، وهو محروق، فتُعذب بهذا الحبل وتُعذب بالنار.

واحتج العلماء بهذه السورة علىٰ جواز جرح أهل البدع والريب، واحتجوا بها علىٰ أن النسب لا يفيد صاحبه شيئًا إن لم يكن موحدًا مؤمنًا، والنبي -صلىٰ الله عليه وسلم- يقول: «لا أغني عنكم من الله شيئًا» متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، ويقول -صلىٰ الله عليه وسلم-: «وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ» أخرجه مسلم.

وفِي " الصَّحِيحَيْنِ " عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ آلَ أَبِي فُلَانٍ لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ، وَإِنَّمَا وَلِيِّي اللهُ وَصَالِحُو الْمُؤْمِنِينَ»، يُشِيرُ إِلَىٰ أَنَّ وِلَايَتَهُ لَا تُنَالُ بِالنَّسَبِ وَإِنْ قَرُبَ، وَإِنَّمَا تُنَالُ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَمَنْ كَانَ أَكْمَلَ إِيمَانًا وَعَمَلًا، فَهُوَ أَعْظَمُ وِلَايَةً لَهُ، سَوَاءٌ كَانَ لَهُ مِنْهُ نَسَبٌ قَرِيبٌ، أَوْ لَمْ يَكُنْ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَىٰ يَقُولُ بَعْضُهُمْ:

لَعَمْرُكَ مَا الْإِنْسَانُ إِلَّا بِدِينِهِ فَلَا ... تَتْرُكِ التَّقْوَىٰ اتِّكَالًا عَلَىٰ النَّسَبِ
لَقَدْ رَفَعَ الْإِسْلَامُ سَلْمَانَ فَارِسٍ ... وَقَدْ وَضَعَ الشِّرْكُ الشَّقِيَّ أَبَا لَهَبِ

وقد مات أبو لهب علىٰ الكفر، وهذا من دلائل نبوة النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- إذ أخبر الناس بهذه السورة، ثم كان مآل أبي لهب إلىٰ ما فيها، والله المستعان.

وكان بعض أبنائه زوجًا لابنة النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-، فطلقها حين بُعث النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- بالرسالة، وبعضهم أسلم وحسن إسلامه.

وكان سبب نزول هذه السورة ما أخرجه البخاري ومسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ صَعِدَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ الصَّفَا، فَجَعَلَ يُنَادِي: «يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ»، لِبُطُونِ قُرَيْشٍ، حَتَّىٰ اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ، وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟» قَالُوا: نَعَمْ؛ مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا. قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا ؟ فَنَزَلَتْ: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾، وفي قراءة الأعمش: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَقد تَبَّ ﴾.

سورة الإخلاص

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[الإخلاص: ١-٤]

فضلها:

وهي السورة التي أخبر النبي صلىٰ الله عليه وسلم أنها تعدل ثلث القرآن فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ يُرَدِّدُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ». أخرجه البخاري ومسلم

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ؟ " قَالُوا: وَكَيْفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ؟ قَالَ: ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ». أخرجه مسلم

وفي لفظ قَالَ: «إِنَّ اللهَ جَزَّأَ الْقُرْآنَ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ، فَجَعَلَ: ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ جُزْءًا مِنْ أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ».

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «احْشُدُوا ؛ فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ »، فَحَشَدَ مَنْ حَشَدَ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَرَأَ ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾، ثُمَّ دَخَلَ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: إِنِّي أُرَىٰ هَذَا خَبَرٌ جَاءَهُ مِنَ السَّمَاءِ، فَذَاكَ الَّذِي أَدْخَلَهُ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ: سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، أَلَا إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ». أخرجه مسلم

وهي صفة الرحمن فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَعَثَ رَجُلًا عَلَىٰ سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ، فَيَخْتِمُ بِـ ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾، فَلَمَّا رَجَعُوا ذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «سَلُوهُ ؛ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ ؟» فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ ؛ فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ». أخرجه البخاري تعليقا ومسلم موصولًا.

وفيه غير ذلك من الفضائل علىٰ ما يأتي إن شاء الله تعالىٰ.

وقد شرعت قراءتها في ركعتي الطواف ففي حديث جابر رضي الله عنه الطويل في الحج قال: ثُمَّ نَفَذَ إِلَىٰ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَرَأَ: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّىٰ ﴾، فَجَعَلَ الْمَقَامَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ، فَكَانَ أَبِي يَقُولُ: وَلَا أَعْلَمُهُ ذَكَرَهُ إِلَّا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ: ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾، وَ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ أخرجه مسلم

وفي الوتر فعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُوتِرُ بِثَلَاثِ رَكَعَاتٍ، كَانَ يَقْرَأُ فِي الْأُولَىٰ بِـ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ ﴾، وَفِي الثَّانِيَةِ بِـ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾، وَفِي الثَّالِثَةِ بِـ ﴿ قُلْ هُوَ

اللهُ أَحَدٌ ﴾، وَيَقْنُتُ قَبْلَ الرُّكُوعِ، فَإِذَا فَرَغَ قَالَ عِنْدَ فَرَاغِهِ: «سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ». ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، يُطِيلُ فِي آخِرِهِنَّ. أخرجه أبو داود وغيره

وفي ركعتي الفجر مع سورة الإخلاص الأخرىٰ وهي: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أرضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ فِي رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ وَ ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾. أخرجه مسلم

وعند الترمذي عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: رَمَقْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَهْرًا، فَكَانَ يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ بِـ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ وَ ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾. وَفِي الْبَابِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَنَسٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَحَفْصَةَ وَعَائِشَةَ.

وجاء عن ابن عمر رضي الله عنهما أنها تقرأ في ركعتي المغرب كما عند النسائي لكن الحديث أعله بعض أهل العلم.

وعنه رضي الله عنه كَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾، وَ ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾. والمحفوظ أنها في ركعتي المغرب.

فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه، قَالَ: رَمَقْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ، أَوْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ مَرَّةً، يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ، وَالرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ بِـ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ وَ ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾.

وجاء عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: مَا أُحْصِي مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ، وَفِي الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ بِـ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ وَ ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾. لكن في سنده عبد الملك بن الوليد بن معدان الضبعي البصري، وقد ينسب إلىٰ جده قال البخاري فيه نظر.

وفي موارد الظمآن إلىٰ زوائد ابن حبان (ص: ١٤٦): من طريق سَعِيدُ بْنُ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ حَدَّثَنِي أَبِي سِمَاكُ بْنُ حَرْبٍ قَالَ وَلا أَعْلَمُ إِلا عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي صَلَاة الْمغرب لَيْلَة الْجُمُعَة بِـ: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ و ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ وَيَقْرَأُ فِي الْعِشَاءِ الآخِرَةِ لَيْلَةَ الْجُمُعَة الْجُمُعَة وَالْمُنَافِقِينَ.

وسعيد بن سماك متروك.

بيان معانيها:

يقول الله عز وجل لنبيه: (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)[الإخلاص:١-٤].

والمتبادر كأن هذا إجابة سؤال كما رُوي في بعض المراسيل كما ذكر ذلك الطبري وغيره في تفسير هذه السورة وقيل بأن السؤال كان من اليهود ولم أرَ ما يثبت سندا في القولين والله تعالىٰ أعلم.

فقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ ﴾ هذا أمر من الله تعالىٰ لنبيه صلىٰ الله عليه وسلم أن يقول لهؤلاء السائلين أو مخبرًا عن صفة الرحمن ما يأتي إن شاء الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ اللهُ ﴾ أي: هو الله الذي له العبادة ولا تنبغي العبادة إلا له ولا تصلح لشيء سواه قاله الطبري.

والله لفظ الجلالة علم علىٰ الذات العلية وهو أعرف المعارف وهو الاسم الأعظم علىٰ الصحيح من أقوال أهل العلم إذ عليه جميع مدار الأسماء الحسنىٰ فهي تابعة له ووصف له تعالىٰ وتعاظم وتقدس ومثال ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[الحشر: ٢٢ – ٢٤]

قوله تعالىٰ: ﴿ أَحَدٌ ﴾ أي: بمعنىٰ واحد وقد تكرر اقترانه بالقهار في ست مواطن من القرآن قال تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾[الرعد:١٦].

واسم (الأَحَد) فيه إثبات توحيد الربوبية لله عز وجل ويتضمن هذا الاسم وصفه تعالىٰ بالأحدية التي تدل علىٰ تفرده تعالىٰ بالخلق والملك والتدبير ويلزم من ذلك إفراد الله تعالىٰ بالعباد.

وأما اسم الفرد لم أره ثابتا لله تعالىٰ بسند صحيح ويغني عنه هذا الاسم.

ولفظ الجلالة (اللهُ) يتضمن اثبات الألوهية لله سبحانه وتعالىٰ، فدلت هذه الآية بهاذين الاسمين علىٰ اثبات ما يدعوا إليه أهل السنة والجماعة ويطرقونه ليلًا ونهارًا وسرًا وجهارًا وفي خطبهم وفي مؤلفاتهم وهو: أن توحيد الله عز وجل ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

١- توحيد الربوبية: وهو افراد الله عز وجل الخلق والملك والتدبير: ﴿ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[الزمر:٦٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾[الأعراف:٥٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[الملك:١].

٢- وتوحيد الألوهية: وهو افراد الله عز وجل بالعبادة وافراده بأفعال المكلفين، وهو صرف كل ما يحبه الله عز وجل ويرضاه له يتقرب به إليه وبه أرسلت الرسل وأنزلت الكتب قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾[البينة:٥]، وقال الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[النحل:٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ ﴾[النساء:٦٤]، وقال: ﴿ وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾[النساء:٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[الإسراء:٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[لقمان:١٣]، إلىٰ غير ذلك من الأدلة.

٣- توحيد الأسماء والصفات: وهو افراد الله عز وجل بأسمائه وصفاته وأن الله عز وجل له الأسماء الحسنىٰ التي من حسنها أنها أسماء مدح لا نقص فيها بوجه من الوجوه.

ومن حسنها: أنها تتضمن صفات مدح وكمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه.

ومن حسنها: أنها أسماء ثبتت في القرآن والسنة.

ومن حسنها: أن الله عز وجل أمرنا أن ندعوه بها قال تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[الأعراف:١٨٠].

وضابط هذا الباب: أن الله تعالىٰ موصوف بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله صلىٰ الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكيف ولا تمثيل.

أنواع الصفات:

ثم إن الصفات من حيث هي تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

١- صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه وهذه ثابتة لله عز وجل مثل السمع والبصر والقوة والقدرة فهو المتصف بالكمال المطلق قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ وهو ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ سبحانه وتعالىٰ

٢- صفات نقص لا كمال فيها بوجه من الوجوه وهذه يجب أن ينزه الله سبحانه وتعالىٰ عنها كالصمم والبكم والظلم ونحوه.

٣- وصفات كمال من وجه ونقص من وجه وهذه تثبت لله عز وجل في حال كمالها ومن أمثلتها صفات المقابلة؛ مثل الكيد والمكر فالله عز وجل يكيد بالكائدين ويمكر بالماكرين ويستهزئ بالمستهزئين قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾[الطارق: ١٥-١٦]، قال الله عز وجل: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[الأنفال: ٣٠]، وهكذا.

وجوب افراد الله تعالىٰ بالعبادة:

فالله عز وجل واحد أحد كما قال عن نفسه ولا معين له ولا ظهير قال تعالىٰ: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾[سبأ: ٢٢].

فيجب أن يفرد بالدعاء والرجاء والتوكل والخشية ويفرد بالإنابة والخوف وغير ذلك من العبادات سواء العبادات القلبية أو القولية أو البدنية أو المالية فالعبادة حقه تعالىٰ لا يجوز أن تصرف لغيره مهما علت منزلته وعظمت مرتبته فلا إله إلا هو الواحد القهار، قال تعالىٰ: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ ﴾[آل عمران: ١٧٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾[البقرة: ٤٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾[

الكهف: ١١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[المائدة: ٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[فاطر: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾[الأنبياء: ٩٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[غافر: ٦٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا ﴾[سورة الجن: ١٨].

إلىٰ غير ذلك من الأدلة المتكاثرة في هذا الباب فقد قطع الله عز وجل عن المشركين كل شبهة ومتعلق في الأصنام والأوثان وغيرها من الطواغيت.

وقوله تعالىٰ ﴿ اللهُ الصَّمَدُ ﴾ الصمد: هو الذي تصمد إليه الخلائق وقيل: هو المصمت الذي لا جوف فلا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾[الأنعام: ١٤].

وهو السيد الذي كمل في سؤدده وكلها دالة علىٰ الكمال وكلها ثابتة لله تعالىٰ فهو الذي تصمد وتلتجئ إليه الخلائق وهو الذي لا جوف له ومستغني عن عباده وهو الكامل في سؤدده.

قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾[الذاريات: ٥٦-٥٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ

الْحَمِيدُ * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥-١٧].

وغناه سبحانه وتعالىٰ ذاتي لا ينفك عنه أزلًا وأبدًا ففي حديث أبي ذر رضي الله عنه في مسلم عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا رَوَىٰ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا. يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ. يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ. يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي. يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ. يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»، وهذا لكمال غناه سبحانه وتعالىٰ.

فهو علىٰ العرش والعرش محتاج إليه واستوىٰ علىٰ العرش والعرش تحمله ملائكة عظام والملائكة يحتاجون إلىٰ الله عز وجل سبحانه وتعالىٰ فهو الغني الحميد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[الذاريات: ٥٨].

وقيل: الصمد هو الذي لم يلد ولم يولد فيكون ذلك من تفسير القرآن بالقرآن.

وقيل: الباقي الدائم بعد خلقه وكل هذه الأقوال ذكرها ابن جرير في تفسيره وكثيرها لا يصح سندا لكنها ثابتة المعنىٰ في لغة العرب وبعضها تفسير للآية ببعض المعنىٰ.

وقال ابن كثير رحمه الله تعالىٰ في تفسيره: وقال الربيع بن أنس: هو الذي لم يلد ولم يولد كأنه جعل ما بعدها تفسيرا لها وهو تفسير جيد. انتهىٰ

فالله عز وجل هو الصمد الذي تصمد إليه الخلائق لحوائجها فيقضيها: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ سبحانه وتعالىٰ يحيي هذا ويعطي هذا ويشفي هذا ويميت هذا لا إله إلا هو الواحد القهار سبحانه وتعالىٰ

وقال ابن كثير رحمه الله تعالىٰ (٨/ ٥٢٩): وَقَدْ قَالَ الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبَرَانِيُّ فِي كِتَابِ السُّنَّةِ لَهُ، بَعْدَ إِيرَادِهِ كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ فِي تَفْسِيرِ "الصَّمَدِ": وَكُلُّ هَذِهِ صَحِيحَةٌ، وَهِيَ صِفَاتُ رَبِّنَا، عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ الَّذِي يُصمَد إِلَيْهِ فِي الْحَوَائِجِ، وَهُوَ الَّذِي قَدِ انْتَهَىٰ سُؤْدُدُهُ، وَهُوَ الصَّمَدُ الَّذِي لَا

جَوْفَ لَهُ، وَلَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ، وَهُوَ الْبَاقِي بَعْدَ خَلْقِهِ. وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ نَحْوَ ذَلِكَ [أَيْضًا]. انتهىٰ

وفي تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٤٧٤): من طريق علي بن أبي طلحة: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: الصَّمَدُ السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ كمل فِي سُؤْدُدُهُ، وَالشَّرِيفُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي شَرَفِهِ، وَالْعَظِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عَظَمَتِهِ، وَالْحَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِلْمِهِ، وَالْغَنِيُّ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي غِنَاهُ، وَالْجَبَّارُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي جَبَرُوتِهِ، وَالْعَالِمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عِلْمِهِ، وَالْحَكِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِكْمَتِهِ، وَهُوَ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي أَنْوَاعِ الشَّرَفِ وَالسُّؤْدُدِ، وَهُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ هَذِهِ صِفَتُهُ لَا تَنْبَغِي إِلا لَهُ، لَيْسَ لَهُ كُفُوٌ، وليس كمثله شيء. انتهىٰ

قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوىٰ (١٧/ ٢٣٧): وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ لَفْظَ الْأَحَدِ لَمْ يُوصَفْ بِهِ شَيْءٌ مِنْ الْأَعْيَانِ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ. وَإِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ فِي غَيْرِ اللهِ فِي النَّفْيِ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ يَقُولُ: لَا أَحَدَ فِي الدَّارِ وَلَا تَقُلْ فِيهَا أَحَدٌ. وَلِهَذَا لَمْ يَجِئْ فِي الْقُرْآنِ إلَّا فِي غَيْرِ الْمُوجَبِ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ فَمَا مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ وَكَقَوْلِهِ: ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾ وَفِي الْإِضَافَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ ﴾ ﴿ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ﴾.

وَأَمَّا اسْمُ (الصَّمَدِ) فَقَدْ اسْتَعْمَلَهُ أَهْلُ اللُّغَةِ فِي حَقِّ الْمَخْلُوقِينَ. كَمَا تَقَدَّمَ. فَلَمْ يَقُلْ اللهُ صَمَدٌ بَلْ قَالَ: ﴿ اللهُ الصَّمَدُ ﴾ فَبَيَّنَ أَنَّهُ الْمُسْتَحِقُّ؛ لِأَنْ

يَكُونَ هُوَ الصَّمَدَ دُونَ مَا سِوَاهُ فَإِنَّهُ الْمُسْتَوْجِبُ لِغَايَتِهِ عَلَىٰ الْكَمَالِ وَالْمَخْلُوقُ وَإِنْ كَانَ صَمَدًا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ؛ فَإِنَّ حَقِيقَةَ الصَّمَدِيَّةِ مُنْتَفِيَةٌ عَنْهُ؛ فَإِنَّهُ يَقْبَلُ التَّفَرُّقَ وَالتَّجْزِئَةَ وَهُوَ أَيْضًا مُحْتَاجٌ إِلَىٰ غَيْرِهِ فَإِنَّ كُلَّ مَا سِوَىٰ اللهِ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ فَلَيْسَ أَحَدٌ. يَصْمُدُ إِلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ وَلَا يَصْمُدُ هُوَ إِلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَلَيْسَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ إِلَّا مَا يَقْبَلُ أَنْ يَتَجَزَّأَ وَيَتَفَرَّقَ وَيَتَقَسَّمَ وَيَنْفَصِلَ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ وَاَللهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الصَّمَدُ الَّذِي لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ بَلْ حَقِيقَةُ الصَّمَدِيَّةِ وَكَمَالِهَا لَهُ وَحْدَهُ وَاجِبَةٌ لَازِمَةٌ لَا يُمْكِنُ عَدَمُ صَمَدِيَّتِهِ بِوَجْهٍ مِنْ الْوُجُوهِ؛ كَمَا لَا يُمْكِنُ تَثْنِيَةُ أَحَدِّيَّتِهِ بِوَجْهٍ مِنْ الْوُجُوهِ فَهُوَ أَحَدٌ لَا يُمَاثِلُهُ شَيْءٌ مِنْ الْأَشْيَاءِ بِوَجْهٍ مِنْ الْوُجُوهِ كَمَا قَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ انتهى

فبعد أن مدح نفسه ووصف نفسه بصفات الجلال والعظمة والكبرياء وبصفة الأحدية، والصمدية وبصفة الألوهية وهذه الثلاثة الأسماء العظيمة قد جمعها حديث مِحْجَنَ بْنَ الْأَدْرَعِ، حَدَّثَهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَدْ قَضَىٰ صَلَاتَهُ وَهُوَ يَتَشَهَّدُ وَهُوَ يَقُولُ: «اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِاللهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ الصَّمَدِ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، أَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»، قَالَ: فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَدْ غُفِرَ لَهُ، قَدْ غُفِرَ لَهُ، قَدْ غُفِرَ لَهُ» ثَلَاثَ مِرَارٍ. أخرجه أحمد في مسنده.

وكذا حديث بريدة رضي الله عنه قَالَ: سَمِعَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا يَقُولُ: «اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ. الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ». فَقَالَ: «قَدْ سَأَلَ اللهَ بِاسْمِ اللهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ»، أخرجه أحمد وغيره وهو في الصحيح المسند للشيخ مقبل رحمه الله تعالىٰ.

ومدار بقية الأسماء علىٰ هذه الأسماء الثلاثة لا سيما اسم الجلالة الله عز وجل الذي لم يأتِ تابعا وإنما يأتي متبوعا وما كان في قول الله عز وجل في سورة إبراهيم: ﴿ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾[إبراهيم: ١– ٢]، فالعطف هنا: عطف بيان لا أنه تابع ثم إنه قد قُرأ برفع لفظ الجلالة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾: قد تقدم أنه تفسير للصمد في قول بعض أهل العلم.

وفي هذا رد علىٰ النصارىٰ ومن إليهم ممن يزعم أن الله عز وجل له ولد ثم بين الله عز وجل في هذه السورة أنه لم يلد لكمال حياته ولكمال قيوميته ولم يولد لأنه الأول الذي ليس قبله شيء والآخر الذي ليس بعده شيء والظاهر الذي ليس فوقه شيء والباطن الذي ليس دونه شيء.

ونفي الصحابة والولد عن الله تعالىٰ في القرآن كثير وَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾[المؤمنون:٩١]. وَقَالَ: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ

الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ ﴾[الإسراء:١١١]، وَقَالَ: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾[الفرقان:١-٢]، وَقَالَ: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾[الأنبياء:٢٦].

وهذا القول مسبة لله تعالىٰ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ اللهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ أَنْ يَقُولَ: إِنِّي لَنْ أُعِيدَهُ كَمَا بَدَأْتُهُ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ أَنْ يَقُولَ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، وَأَنَا الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُؤًا أَحَدٌ، (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُؤًا أَحَدٌ)، كُفُؤًا وَكَفِيئًا وَكِفَاءً وَاحِدٌ» أخرجه البخاري

قوله: ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ أي: لا مثيل له ولا شبيه لا في أسماءه ولا في صفاته ولا في أفعاله وهذا لعموم كماله سبحانه وتعالىٰ مثل قول الله عز وجل: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[الشورىٰ: ١١]، وقوله تعالىٰ: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾[مريم: ٦٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ٢٢].

خاتمة تفسير سورة الإخلاص:

وفي هذه السورة من الفوائد العظيمة أن الأصل عند أهل السنة أنهم يصفون الله عز وجل بالإثبات المفصل فتقول: الله الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام العليم السميع البصير، وهكذا القول في صفاته.

بينما الأصل عند أهل السنة أنهم يجملون في النفي يقولون: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾، إلا أنه قد يأتي بالنفي المفصل لرد ما قاله المبطلون في حق الله تعالىٰ مثل هذه الآية ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ فهذا النفي المفصل لدفع ما ادعاه في حقه المبطلون من النصارىٰ واليهود والمشركين الذين زعموا أن الملائكة أبناء وبنات الله؛ تعالىٰ الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

ويؤتىٰ به لدفع توهم نقص قال الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾[ق: ٣٨]، فإنه قد يظن من لم يقدر الله عز وجل حق قدره أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام وارتاح في يوم السبت كما يقوله اليهود عليهم لعائن الله فقال الله عز وجل: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾.

ويأتي بالنفي لبيان عموم الكمال كما قال تعالىٰ: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ فكلمة سبحان الله فيها النفي المجمل وتتضمن نفي جميع النقائص عن الله عز وجل وتستلزم اثبات جميع المحامد لله عز وجل كما أن كلمة: "الحمد لله" تتضمن اثبات جميع الكمال لله عز وجل وتستلزم نفي

جميع النقائص عن الله عز وجل ولهذا مدح نفسه عز وجل فقال: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَىٰ الْمُرْسَلِينَ* وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

فهذه السورة عظيمة النفع عظيمة البركة فينبغي للإنسان أن يتعلم معانيها ويتلوها ويتقرب بها إلىٰ ربه ويُعلم معانيها لغيره لما فيها من النفع العظيم.

سورة الفلق

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾[الفلق:١-٥].

أنزل الله عز وجل علىٰ محمد -صلىٰ الله عليه وسلم- هاتين السورتين حين سحره لبيد ابن الأعصم اليهودي، وحديث السحر ثابت في الصحيحين، ولا مطعن في سنده، ولا في دلالته؛ وقد رده بعض العقلانين، ومن أشهر من رده محمد رشيد رضا المصري صاحب مجلة المنار، ورد عليه الشيخ مقبل رحمه بكتاب في [ثبوت حديث السحر وبيان بعد محمد رشيد رضا عن السلفية].

فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سُحِرَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّىٰ كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا يَفْعَلُهُ، حَتَّىٰ كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ دَعَا وَدَعَا، ثُمَّ قَالَ: «أَشَعَرْتِ أَنَّ اللهَ أَفْتَانِي فِيمَا فِيهِ شِفَائِي؟ أَتَانِي رَجُلَانِ، فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ. قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ. قَالَ: فِيمَا ذَا؟ قَالَ: فِي مُشُطٍ وَمُشَاقَةٍ، وَجُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ، قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ». فَخَرَجَ إِلَيْهَا النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ لِعَائِشَةَ حِينَ رَجَعَ: «نَخْلُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ». فَقُلْتُ: اسْتَخْرَجْتَهُ؟ فَقَالَ: «لَا، أَمَّا أَنَا فَقَدْ شَفَانِي اللهُ، وَخَشِيتُ أَنْ يُثِيرَ ذَلِكَ عَلَىٰ النَّاسِ شَرًّا»، ثُمَّ دُفِنَتِ الْبِئْرُ، متفق عليه.

وقد جاء من حديث عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: اتَّبَعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ رَاكِبٌ، فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَىٰ قَدَمِهِ، فَقُلْتُ: أَقْرِئْنِي يَا رَسُولَ اللهِ سُورَةَ هُودٍ، وَسُورَةَ يُوسُفَ. فَقَالَ: «لَنْ تَقْرَأَ شَيْئًا أَبْلَغَ عِنْدَ اللهِ مِنْ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾».

فهما سورتان عظيمتان صلىٰ بهما النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- في فجر وهو في سفر، كما في حديث عقبة بن عامر.

وكان عبدالله بن مسعود رضي الله عنهما لا يثبتهما من المصحف، ويقول: إنما هما تعاويذ ورقىٰ أنزلها الله علىٰ محمد -صلىٰ الله عليه وسلم-.

وكان قد سُحِّرَ النبي صلىٰ الله عليه وسلم وعقد له إحدىٰ عشر عقدة، فأنزل الله إحدىٰ عشر آية، كلما قرأ آية انحلت عقدة.

وهي من أعظم ما يتعوذ به فقد كان النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- يُعوذ الحسن والحسين، فلما نزلت: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ كان يعوذهما بها، أخرجه ابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وكان النبي صلىٰ الله عليه وسلم يقرأ بهما عند نومه.

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد في دعائك واستعاذتك ولوذك إلىٰ الله عز وجل، ﴿ أَعُوذُ ﴾ والعوذ يكون من المرهوب، وكما قيل:

يا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فيمَا أُؤمّلُهُ ... وَمَنْ أعُوذُ بِهِ مِمّا أُحاذِرُهُ

لا يَجْبُرُ النّاسُ عَظْماً أنْتَ كاسِرُهُ ... وَلا يَهيضُونَ عَظْماً أنتَ جابِرُهُ

﴿ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ صاحب الفلق، سواءً فالق الحب والنوىٰ أو فالق الإصباح، فقد يراد بالفلق هنا أنه يفلق الإصباح من الليل، فيقول: ﴿ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ هذا الشيء الذي لا يستطيعه أحد من الناس، وهو إخراج الصباح من الليل، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ﴾[الأنعام:٩٦].

﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أي: جميع الشرور، شر النفس، والشيطان، والجار، والابن، والزوجة، والثعابين، والحيات، والشياطين.

فهذا إجمال عظيم في هذا الدعاء، يستعيذ المسلم من جميع الشرور والآثام.

ثم جاء التفصيل بعد الإجمال فقال: ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ قيل: الليل، وقيل: القمر، ففي حديث عائشة: «يَا عَائِشَةُ، تَعَوَّذِي بِاللهِ مِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ، هَذَا غَاسِقٌ إِذَا وَقَبَ»، أخرجه أحمد.

وسمي الليل شرًا؛ لظلامه وحصول كثير من الهامات فيه، فتفش فيه الهوام، وينتشر فيه الشياطين، وربما يحصل علىٰ الإنسان شر عظيم فيه؛ فعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا اسْتَجْنَحَ - أَوْ: كَانَ جُنْحُ - اللَّيْلُ فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ؛ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ، فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ فَحُلُّوهُمْ، وَأَغْلِقْ بَابَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَأَطْفِئْ مِصْبَاحَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَأَوْكِ سِقَاءَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَخَمِّرْ إِنَاءَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَلَوْ تَعْرُضُ عَلَيْهِ شَيْئًا» أخرجه مسلم.

﴿ إِذَا وَقَبَ ﴾ أي: إذا حصل وحل.

﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ ويستعيذ من شر السواحر، وسُمين بالنفاثات؛ لأنهن يعقدن خيوطًا، إما شعرًا، وإما خيطًا، وإما أوتارًا ونحو ذلك، ثم تنفث فيه مع قراءة بعض الرقىٰ والتمائم، وهذا من أشد أنواع السحر، فقد يقوم الساحر بمثل هذه العقد وهذا النفث، ثم يدفن هذا السحر إما في البحر وإما في مقبره، أو غير ذلك.

﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ ويستعاذ من شر حاسد إذا حسد؛ لأن الحاسد يؤذي، وربما أصاب بالعين، إلىٰ غير ذلك، فاستعذ بالله من شر كل حاسد إذا حسدك وتمنىٰ زوال النعمة عنك.

فتدرجت هذه السورة في بيان ما يستعاذ منه:

أولًا: الاستعاذة من جميع الشرور.

ثانيًا: من الليل وما فيه من الهوام والشرور.

ثالثًا: الاستعاذة من السحرة والمشعوذين والكهنة والعرافين.

رابعًا: الاستعاذة من شر الحسدة.

قال تعالىٰ: ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾؛ لأن أغلب الناس في قلوبهم حسد، حتىٰ قال شيخ: " ما خلىٰ جسم من حسد، ولكن الكريم يخفيه، واللئيم يبديه ".

فالإنسان إذا شعر أنه يحسد أخاه علىٰ ما أتاه الله ينبغي أن يستغفر، وأن يدعو لأخيه بالخير، قال تعالىٰ: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾[النساء:٥٤]، فهذه صفة اليهود وعَنْ عَائِشَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَا حَسَدَتْكُمُ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ، مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَىٰ السَّلَامِ وَالتَّأْمِينِ»، أخرجه ابن ماجه.

وكما قيل في الحاسد:

لله در الحسد ما أعدله ... بدأ بصاحبه فقتله

وأسوء الحسد: الحسد في العلم، أو العبادة فتحب أنه يُصرف عن هذا، وهذا دليل علىٰ ضعف الإيمان، وقلة المراقبة، وقلة الإحسان، بل تفرح إذا رأيت أخاك مقبلًا علىٰ العلم والعمل، قريبًا من الله بعيدًا عن الشرور والآثام.

سورة الناس

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾[الناس:١-٦].

﴿ قُلْ ﴾ أي: قل يا محمد في دعائك واستعاذتك ولوذتك، ﴿ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ أي: ألجأ في دفع المضار وجلب المنافع إلىٰ رب الناس.

والناس قيل هم البشر، وقيل الجن والإنس، سموا ناس؛ من الحركة فالنوس، هو الحركة.

﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ أي: واستعيذ بملك الناس، المالك لهم، والمتصرف فيهم خلقًا وإيجادًا ومنعًا ودفعًا ورفعًا ووضعًا، فهو الملك حقًا، وإن وجد ملك من الناس فهو مُلك قاصر، لا يستطيع أن يتصرف إلا بما قد قدره الله كونًا؛ لأن الله عز وجل له الملك المطلق.

﴿ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ أي: معبود الناس الذي ينبغي ألا يتخذ غيره إلهًا، وإن اتُخذ غيره إلهًا، فهو كفر وشرك، كما قال تعالىٰ: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾[المؤمنون:٩١]،

﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ في السورة الفلق استعاذ من الشرور الخارجية الواقعة علىٰ الإنسان، وفي هذه السورة استعاذ من الشرور الداخلية، ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ ﴾ وهو ما يقع في قلب الإنسان وعقله.

وكم من إنسان إذا دخل فيه الوسواس أفسده، وأدىٰ بها إلىٰ الجنون، لا سيما ما يسمىٰ في الطب: بالوسواس القهري، والناس يتفاوتون فيه، إذ أن الوسواس القهري يأتي كل إنسان علىٰ ما هو فيه، إن كان من أهل الصلاة جاءه الوسواس في الصلاة، وأنه لم يحسن، وأنه لم يقرأ، وأنها لن تقبل، وأنها لن ترفع، وأنها...، فيبقىٰ حائرًا شاكًا موسوسًا تتلاعب به الشياطين، وإذا كان من أهل الرئاسة ونحوها جاءه الوسواس في ذلك الأمر: لماذا فلان ما يقوم، لماذا فلان لا يفعل، إذن لابد أن أفعل، وربما يصل به الحال إلىٰ القتل.

وذكر لنا الشيخ مقبل رحمه الله قصة قال: كان رجل يصلي وآخر خلفه، فبينما هو علىٰ ذلك الحال إذ ترك الصلاة وقتل صاحبه، فقيل له: لماذا تفعل هذا؟ قال: كنت أصلي فشعرت أنه يريد أن يقتلني ".

وكان الشيخ مقبل رحمه الله يقول: "إحذر من رجلين: من الموسوس والجاسوس ".

فلا أحسن للوسواس من العلاج الإلهي وهو اللجوء إلىٰ عز وجل: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[فصلت:٣٦].

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّىٰ يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ». متفق عليه.

قال: ﴿ الْخَنَّاسِ ﴾ سمي الخناس؛ لأنه يأتي بشدة، ثم إذا ذُكر الله خنس، فإذا غفل الإنسان عاد إليه بشدة، وأحسن علاج للوسواس ترك الوسواس، وترك الوحدة، والتمادي في الوسوسة، بل قطع الوسواس بالصلاة ونحو ذلك، وعدم المبالاة بها، كما قال بعضهم:

والشكُ بعد الفعلِ لا يؤثرُ كذلك إذا الشكوكُ تكثرُ

﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ أي: يستعيذ بالله من شر الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس ويلعب بهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ لَهُ ضُرَاطٌ، حَتَّىٰ لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قُضِيَ التَّأْذِينُ أَقْبَلَ حَتَّىٰ إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ حَتَّىٰ إِذَا قُضِيَ التَّثْوِيبُ، أَقْبَلَ حَتَّىٰ يَخْطُرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ يَقُولُ لَهُ: اذْكُرْ كَذَا وَاذْكُرْ كَذَا لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ مِنْ قَبْلُ حَتَّىٰ يَظَلَّ الرَّجُلُ مَا يَدْرِي كَمْ صَلَّىٰ»، متفق عليه.

﴿ مِنَ الْجِنَّةِ ﴾ من الجن والشياطين ومن في بابهم، ﴿ وَالنَّاسِ ﴾ أي: البشر فمنهم موسوسون، يجلس معك ويأتيك بالكلام الذي يؤدي بك إلىٰ هذا المرض، فاستعذ بالله من شرورهم جميعًا، فإن الله عز وجل إذا أعاذك فأنت محفوظ ومحاط ومنصور بإذن الله عز وجل، والله أعلم.

خاتمة

هذه تعليقة مختصرة علىٰ هذه السور، وإلا فقد توسع أهل التفسير فيما يتعلق بها، ونحن إنما أردنا أن نقرب الأمر إلىٰ أنفسنا ثم إلىٰ غيرنا؛ لأنها سور تتكرر قراءتها في كل صباح ومساء، وربما في أغلب الصلوات، فينبغي للإنسان أن يكون عالمًا بما يقرأ عارفًا لما يتلو؛ فإن ذلك أدعىٰ لاستفادته، وأدعىٰ لقربه من الله عز وجل، فإن الله سبحانه وتعالىٰ يقول: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[محمد:٢٤]. ويقول: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾[النساء:٨٢].

فينبغي للمسلم أن يتعلم مثل تفسير جزء عم وما في بابه من تفسير الفاتحة، وكذلك تفسير الآيات التي تكثر قراءتها، أما من استطاع أن يكون عالمًا بتفسير القرآن أجمع فهذا خير عظيم، يوفق الله عز وجل له من أراد من عباده.

سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

والحمد لله رب العالمين.

انتهيت من مراجعته بعد تفريغه: ١٦/ الحجة الحرام / ١٤٤٠، بمسجد الصحابة بالغيضة.